



جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي
كلية العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين



الدرس الكلامي والتكامل المعرفي مع
الفقه والتصوف
- زروق الفاسي أنموذجا -

مذكرة تخرج تدخل ضمن متطلبات نيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث في العلوم الإسلامية
تخصص: عقيدة

إشراف:
أ.د. معمر قول

إعداد الطالب:
رحومة محمد العربي

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	المؤسسة الأصلية	الصفة
عبد الرحمن تركي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي	رئيسا
معمر قول	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي	مشرفا ومقررا
جمال الأشراف	أستاذ محاضر - أ	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي	مناقشا
زهير بن كتفي	أستاذ محاضر - أ	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي	مناقشا
سفيان شتيوي	أستاذ محاضر - أ	جامعة باتنة 1	مناقشا
عبد الرحمن طيبي	أستاذ محاضر - أ	جامعة بن يوسف بن خدة الجزائر 01	مناقشا

السنة الجامعية: 1444 / 1445 هـ - 2023 / 2022 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتب القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني إلى العماد الأصفهاني
معتذرا عن كلام استدركه عليه:

"إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا
لكان أحسن، ولوزيد هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا
من أفضل العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".
حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون 18/1.

إهداء

إلى من كان لهم الفضل في إيصالنا

إلى هذا المستوى بالدرّحاء والصحف

والعطاء وعلى رأسهم الزوجة المصونة،

أساتذتنا ومربونا حفظهم الله وعلى رأسهم

البروفيسور: معرف قول نهدي عمرة هذا الجهر

المتمواضع.

شكر و تقدير

الشكر لله سبحانه وتعالى على نعمه وتوفيقه

نعم للاستاذ المشرف " معرف قول "

على صبره ونصحه وتوجيهه

نعم لكل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاح هذا العمل

وإخراجهم في هذه الحلة ..

ملخص

مما يؤسف له في زماننا هذا، أن عددا من الباحثين في حقل العلوم الإسلامية أحاطوا بمجال اشتغالهم بأسوار عازلة تمنعهم من الاطلاع على مختلف التخصصات العلمية الأخرى، ومن شأن هذه الرؤية الضيقة أن تحجب عنه تمام الصورة العلمية وحقيقتها.

إن المدقق في الإنتاج العلمي لصوفية الغرب الإسلامي، يجده كثيرا في عدده، شموليا في مادته وتناوله، نوعياً في منهجه ومقارنته؛ فقد تعمق شيوخه في كل العلوم الشرعية، وشاركوا في جل المعارف الإنسانية، فكان منهم الأصولي، والفقيه، والصوفي، مع حيازة كثير منهم قصب السبق في علم التوحيد.

لقد أدرك صوفية الغرب الإسلامي، وعلى رأسهم الإمام زروق، ذلك الترابط القوي بين العقيدة والفقه والتصوف، باعتبار هذه العلوم الثلاثة ممثلة للأصول المذكورة في حديث جبريل عليه السلام المعروف، فتبين لهم أن التوفيق بينها من أكد ما تجب العناية به، فاختار جلهم منهج الإمام أبي الحسن الأشعري في العقيدة، ومذهب الإمام مالك في الفقه، ومسلك الإمام الجنيد في التصوف. ومنه فإنه لا يمكن أن نؤسس درسا كلاميا إلا في ضوء التكامل المعرفي بينه وبين العلوم الأخرى واستثمار الخبرات الفقهية والصوفية في بناء الدرس الكلامي لأن الغاية هي بناء إنسان الخلافة (جسدا وروحا وعقلا وقيما وتصورات).

الكلمات المفتاحية: الدرس الكلامي، التكامل المعرفي، الفقه، التصوف.

Abstract

Unfortunately speaking for a number of researchers in the field of Islamic sciences that have fixed on their field of work in isolation of seeing the various other scientific disciplines which would narrow the complete scientific picture and its truth.

The accurate researcher of the scientific production of the Sufism of the Islamic West finds it large in its number, comprehensive in its material and approach, and qualitative in its methodology and approach furthermore their scholars discussed deeply all the religious sciences, and participated in most of the human knowledge. Among them were the fundamentalists the jurist, and the soufis over welmanig major of them making the priority of the science of monotheism.

The Sufis of the Islamic West, led by Imam Zaruq, realized the strong interdependence between belief, jurisprudence, and Sufism, considering these three sciences as representative of the principles mentioned in the well-known hadith of Jibril, peace be upon him. Al-Hassan Al-Ash'ari in the creed, the doctrine of Imam Malik in jurisprudence, and the path of Imam Al-Junaid in Sufism. Hence, it is not possible to establish a verbal lesson except in light of the cognitive integration between it and other sciences and the investment of jurisprudential and Sufi experiences in building the verbal lesson because the goal is to build the human being of the caliphate (body, spirit, mind, values and perceptions).

key words: Theological lesson, cognitive integration, jurisprudence, Sufism.

جدول الأشكال والرموز

الرمز	معناه
ج	جزء
ص	صفحة
هـ	هجري
ت	توفي
م	ميلادي
لا.ن	لا ناشر
لا.م	لا مكان طبع
د.ت	بدون بذكر تاريخ
لا.ط	لا طبعة
تحق	تحقيق

مقدمة

إنَّ الرَّاصِدَ لحركة الإنتاج العلميِّ الغزيرِ لمتصوِّفة الغرب الإسلامي، يَقفُ على كَمِّ هائلٍ منه، يَحْمِلُ طابع الشُّمولية في مادَّته ومُحتواه، والتَّوعية في منهجه ومُبْتَغاه؛ فقد تميَّزَ جلُّ شيوخه في كلِّ ميادين العلوم الشرعية، وكانت لهم مشاركة في شتَّى العلوم الإنسانية، ولذلك كان منهم الفقهاء، والأصولي، والمحدِّث، والمفسِّر، والمنطقي، والصوفي، مع إعطاء الأهمية البالغة لأهمِّ العلوم ألا وهو علم العقيدة وعلم الفقه، إذ لا تكاد تجدُ صوفيًّا من الصُّوفية المغاربة، إلا وكان له سَهْمٌ وافرٌ في التَّعْييد لهذه العلوم وضبط أحكامها وأصولها، كما هو الحال بالنَّسبة لأبي الحسن الشاذلي العُمَاري (ت656هـ)، وأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ)، والشيخ أحمد زُرُوق الفاسي (ت899هـ)، وأبي محمد عبد الواحد بن عاشر الأنصاري (ت1040هـ)، وأحمد ابن عجيبة الحسني الأُبْجَري (ت1224هـ)، وغيرهم كثير.

فهؤلاء، الكِبَارُ الأَفْذَادُ من رجال التَّصَوُّف في العالم الإسلامي عُمومًا، وفي الغرب الإسلامي خصوصًا، جميعهم تكلَّموا وصنَّفوا في عِلْمِي التَّوْحِيد (الكلام) والفقه؛ وغيرها من العلوم، تأصيلًا وشرحًا لقواعدها أحيانًا، وإشارة لأبعادها ومقاصدها في كثير من الأحيان، فضلًا على التَّأليف في علم التصوف؛ فهو ميدانهم الذي لا يجاريهم فيه أحد.

وتظهر أَهْمِيَّة بحثنا في توضيح الخصائص والسَّمات التي طبعت الدَّرس الكلامي عند المغاربة بطابع التَّميُّز والتَّفَرُّد والخصُوصِيَّة، وذلك بتداخله مع علم السُّلوك والتَّصَوُّف، وإرجاعه إلى أصوله وعهده الأول بِجَعْلِهِ مُتَقَاطِعًا، بل ومُتكاملاً مع الفقه المالكي بالخصوص. وما مُسَمَّى الفقه الأكبر إلا دليلًا على هذا التكامل. وهذا ما يجعلنا نُقرِّرُ أَنَّهُ لا يُمكن أبداً فَهْمُ البيئَةِ الثقافيَّة الدِّينية بالغرب الإسلامي، دون رصد وتتبُّع العلاقة المتينة بين العلوم الثلاثة: "علم الكلام"، و"الفقه" و"التَّصَوُّف".

ولأهمِّية ما طرحناه أيضًا، أدرك صوفيَّة الغرب الإسلامي، وعلى رأسهم الشيخ أحمد زُرُوق، ذلك الوثاق المَحْكَم بين العقيدة والفقه والتَّصَوُّف، باعتبار هذه العلوم الثلاثة مُمَثِّلَةً للأصول المذكورة في حديث جبريل عليه السلام المعروف، فتبيَّن لهم أَنَّ التكامل بينها من أكد ما تجب العناية به، وذلك من أجل مفهوم شامل وعمليٍّ للإسلام الصَّحيح الذي جاء به النَّبِيُّ ﷺ، فاختر جُلُّهم منهجَ الإمام أبي الحسن الأشعري في العقيدة، ومذهب الإمام مالك في الفقه، ومسلك الإمام الجُنَيْد في التَّصَوُّف.

لقد استخدم المتكلمون علم المنطق في الاستدلال على مسائل الدرس الكلامي، نظرًا لأنّ الحجاج على مسائل العقيدة وما فيها من إيرادٍ للأدلة العقلية الكثيرة، تتطلب توظيف هذا العلم الذي برع فيه المغاربة، واعتبروه مسلكًا من مسالك العبادة والتشريع، وجعلوه وعلم العقيدة في مقام واحد. كما أنّ للمنطق قَدَمٌ صدق في علم التصوّف، كما هو الشأن عند الشَّيخ أحمد زُرُوق الفاسي من خلال كتابه "قواعد التصوّف"؛ وبهذا امتاز تصوّف المغاربة عن تصوّف الغزالي، وبها تأكّد أن إتباعهم للغزالي، كان إتباع انفتاح، لا إتباع ابتلاع، فقد استفادوا من تجربته، لكن طوّروها، وجدّدوها، لتكون في مستوى التحديات الراهنة. لكنّ المبالغة والإغراق في استخدام الأدلة العقلية والمباحث الفلسفية، وخاصة في المشرق، جعل الدرس الكلامي أقرب للمباحث العقلية المجردة، وابتعد عن مصدره النقلي الإلهي، ومن ثمّ فَقَدَ بريقه الروحي، فَعُطِّلَ عن وظيفته الأساسية، وهي إصلاح الرُّوح، واستقامته الجوارح، وصناعة الإنسان، الخليفة في الأرض والمكلف بتعميرها. ومن ثمّ، ومن أجل إعادة بثّ الحياة من جديد في علم الكلام وإرجاعه لأصالته، كان التصوّف علمًا قمينًا¹ بذلك، وعلمُ الفقه؛ بما يميّز به من أنّه علمٌ عمليّ، كان علمًا يُضفي على التجربة الصوفية غطاءً مشروعية، كما أنّ التصوّف طريقٌ يرتقي بالفقه من التجريد إلى الممارسة العملية الأخلاقية.

إشكالية الدراسة:

ومن خلال هذا التّقديم يُمكن أن نطرح الإشكالية الرئيسية التالية: ما هي معالم الدرس العقدي (الكلامي) عند الشيخ أحمد زُرُوق؟ وما هي ملامح التكامل المعرفي بينه وبين الفقه والتصوّف في تراث الرّجل، وذلك من خلال بعض كُتبه؟ وللإجابة على هذا الإشكال اتّبعنا الخُطّة التالية:

هيكل البحث وخطته:

قسّمنا البحث إلى مُقدّمة وأربعة فصول وخاتمة. تكلمنا في الفصل الأول عن الدرس الكلامي: عوامل نشأته ومساراته وأهدافه، تطرّقنا فيه إلى المصطلح وتعريفه، وكذا عوامل النشأة وقراءة في السّياقات المختلفة. ثمّ تحدّثنا عن مسارات الدرس الكلامي، من مرحلة التأسيس إلى مرحلة الجمود وانتهاءً بمرحلته الأخيرة. ثمّ تناولنا موضوع علم الكلام الجديد، وضرورات النهضة وتلافي

¹ القمين: الجدير بالشيء. أنظر: أنيس، إبراهيم. ومنتصر، عبد الحليم. وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية - مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ/2004م، ص760.

مساوئ الكلام القديم، والحديث عن الدور القادم لعلم الكلام تجاه متطلبات وتحديات الحياة الحديثة. أمّا الفصل الثاني، فكان التركيز فيه على بُنية المنظومة الإسلامية بالغرب الإسلامي، القائمة على الكلام الأشعري في العقيدة، والمذهب المالكي في الفقه، والطريقة الجنيديّة في السلوك. ثمّ تطرّقنا إلى سياقات القطيعة المنهجية بين العلوم ومضارّها، وفي المبحث الأخير من هذا الفصل تمّ الكلام حول التكامل المعرفي وسؤال الراهن، وذلك من خلال تسليط الضوء حول مسألة أساسية مؤثّرة في البنية المعرفية بالغرب الإسلامي، ألا وهي الأبعاد السياسية والاجتماعية للتكامل بين الكلام والفقه والتصوّف، وكذا مطلب التأسيس لإنسان الخلافة وتحقيق مقام العبودية، ومن ثمّ التأسيس للعمارة والبناء الذي يسوق المسلمين إلى تحقيق الشهود الحضاري. وفي الفصل الثالث آثرنا أن نُخصّصه للحديث حول حياة الشيخ أحمد زرّوق وعصره الذي عاش فيه، وذلك من أجل معرفة تأثير الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي في تكوين هذه الشخصية الفدّة للشيخ أحمد زرّوق، التي خلّفت لنا تراثاً ثرياً وضخماً، لا يزال يحتاج إلى بحث ودراسة من المهتمّين بهذه الشخصية، التي أثنى عليها العلماء والصّالحاء من أنحاء العالم الإسلامي. ثمّ كان الختام في الفصل الرابع والأخير حول استقراء بعض النصوص الدالّة على التكامل المعرفي في الدّرس العقدي وكذا الدّرس الفقهي والصّوفي، من خلال بعض كُتب الشيخ زرّوق رحمه الله.

أسباب اختيار الموضوع:

ومّا دعاني إلى اختيار البحث في هذا الموضوع أسبابٌ كثيرة، أهمّها:

1- أنّ جُلّ ما وقفتُ عليه من أحكامٍ عامّةٍ حول مسائل التوحيد والفقه عند الصّوفية، وكذا عقائد الصّوفية، جاء باتجاهين متناقضين، الأول كان توجّهاً عنيفاً، أتى على عقائدهم وصلّتهم بالشرعية وتناولها بالنقض، وشنّع على مناهجهم في تقرير الدّرس الكلامي، وكذا الحُكم بوهاءٍ صلّتهم بالفقه. أمّا الثاني ذهب إلى حدّ الفصل في الموضوع لصالح الصّوفية، وأنّهم وحدهم من يعرفون حقيقة التوحيد، وأنّهم وحدهم من ينفذون إلى الحقيقة بدل الوقوف عند ظاهر الشريعة، وأنّ النّهائيات التي تصل إلى الكشف الرباني هو الأصل المعتمد لتفضيلهم وتقديمهم. بخلاف غيرهم؛ من اعتمد طريقي النقل والعقل، الذّين لا يقودان إلا إلى مزيدٍ من الحيرة والاضطراب، فكان البحث عن الاتجاه

الأصوب، الذي سلكه العارفون من العلماء والفقهاء، ممن جمعوا بين صحّة العقيدة والتضلّع في الفقه والإمامة في طريق القوم. من الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع.

2- إنّه رغم كلّ الجهود النوعية لصوفيّة الغرب الإسلامي، عموماً، والشيخ أحمد زروق خصوصاً، في تقرير الدرس الكلامي، فإنّ ما أُنجز حول التعريف بإنتاجهم ومنهجهم في هذا المجال، يُعتبر ضئيلاً، بل يكاد يكون معدوماً؛ فإذا استثنينا بعض الكلام المجزأ والمفرّق هنا وهناك، فإنّ الساحة العلمية، حسب بحثي المتواضع في الموضوع، تكاد تكون خالية من الدّراسات المتخصّصة، المنقّبة في تراث هؤلاء الصوفية، والكاشفة عن ملامح منهجهم في توحيد الله تعالى، ومدى فقههم، فكان تقريب هذه الجهود والتعريف بها وبأصحابها، من الأسباب الأخرى وراء اختياري لهذا الموضوع.

3- أن الشيخ أحمد زروق، رحمه الله، معروفٌ بين العلماء والفقهاء والعارفين، بكونه من أئمة التصوّف ورؤوسه الذين حفّل بهم الغرب الإسلامي، والذين وصل إشعاعهم إلى أقاصي العالم الإسلامي، لكنّ الجانب المتعلّق بالعقيدة والفقه في فكر هذا العالم، لم يأخذ حظّه ونصيبه بعد من العناية والاهتمام والدّراسة، وإن كانت قد حُققت وطُبعت بعض مؤلّفاته، والتي لم يتجاوز فيها المحقّقون ضبط النصّ وإخراجه إلى حيّز المطبوعات، مع بعض التعليقات المختصرة المفيدة بلا شك، مما أبقى المنهج الزُّروقيّ العقديّ غير واضح بما فيه الكفاية؛ لأن الشيخ - حسب علمي - لم تكن له مؤلّفاته المستقلة في العقيدة، بل كانت مسائلها مبثوثة ومتداخلة مع غيرها في كتبه. لذلك كان العمل على بيانها والتفصيل في خصائصها من الأسباب الأخرى التي دفعتني إلى اختيار الشيخ أحمد زروق نموذجاً تطبيقياً لهذه الدراسة، خاصة وأنّه من أكثر الصوفية اعتدالاً في اعتماد الكشف الإلهي، واستعمال النّظر العقلي في فهم وتقرير العقيدة، وكذا كان أكثر جمعاً للتصوّف والكلام والفقه في كتبه من غيره.

ومن المقرّر عند علماء المغرب، وحتى المشرق، أنّ الشيخ أحمد زروق رحمه الله، من أكثر الصّوفية، جمعاً لهذه الاختيارات الثلاثة؛ إذ كان، رحمته الله، أشعريّ العقيدة، مالكيّ المذهب الفقهي، جُنَيْدِيّ السلوك الصوفي، كما تنطق بذلك مؤلّفاته وشروحه وتعليقاته.

الصعوبات التي واجهتني:

ومن أهمّ الصعوبات التي واجهتني في إنجاز هذه الأطروحة، أربعة:

. الأولى: قلة، بل انعدام الدراسات المباشرة في الموضوع، ممّا ألزمني بقراءة عددٍ لا بأس به من كتب زروق وغيره في التصوّف والعقيدة، والفقه، لاستخراج ما يقوم دليلاً على ما نحنُ بصدد إثباته.

. الثانية: جلُّ مصنّفات الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- لا تزال في عداد المخطوط في مكتبات العالم، ممّا يجعل الوصول إليها عسيراً ومتعذّراً، وحتى لو توفّر هذا المخطوط فإنّ فكّ شفراته، واستخراج ما فيه من دلائل للتكامل في منهجه يتطلب وقتاً كبيراً وخبرة طويلة في التعامل مع المخطوطات وتبني الخطّ التي كُتبت به، ومقابلة النسخ مع بعضها ممّا هو متعارفٌ عليه في ميدان تحقيق المخطوط.

. الثالثة: صعوبة بعض المصطلحات الصوفية والعقدية، التي لا يفهمها غير المتمرّسين ممّن خبر مسائل العقيدة بإتقان وعرف لغة القوم ومفرداتها، ممّا اضطرّني، في كثير من الأحيان، إلى الرجوع لشروحاتها في المصنّفات الصوفية والعقدية الخاصة بذلك.

. الرابعة: تداخل ما هو عقدي وفقهي بما هو صوفي في جُلّ الكتب الصوفية الزروقية، مع تناثر إنتاجه العقدي في كتبه المختلفة، فكان واجبا عليّ قراءة ما وصلني منها وما وقع تحت يديّ، وما استطعت عليه، قراءةً فاحصة، من أجل تقريب منهجه المتكامل في علم التوحيد والفقه والتصوّف.

المنهج المستخدم:

لقد اتّسمت غالبية البحوث التي تناولت الدّرس الكلامي بالمدرسة المغربية بالتخبّط وتضارب وجهات النظر عن أصول الكلام الأشعري بالمغرب، وكذا عن أوائل زوّاده الذين كان لهم قصبُ السّبق في إدخاله بلاد الغرب الإسلامي، وعن مدى الإبداع في علم العقائد عند المغاربة أو أنّه مجرد امتداد واستمداد من الشرق ليس إلّا؟ وكذا عن مدى تمكّن صوفيّة الغرب الإسلامي من علوم الشريعة كالتوحيد والفقه. هذه المسائل كلّها، حَكَمَها طابع المناهج التأويلية التعسّفية في الغالب، والتي طغى عليها العامل الأيديولوجي في كثير من الأحيان، ممّا أفقدها صِفَةَ الحياد العلمي في مثل هذه البحوث. ولذلك، وعملاً على إعطاء المصداقية للمنهج العلمي، عملتُ في بحثي على انتهاز منهج تاريخي وصفي استقرائي، وهذا لا يعني أنّي لن أستعين بمنهج التحليل، ولكن سيكون لجوئي إليه في حينه وفي مقامه وبقدَر، لأنّني أوليت النّصوص المحقّقة الأهميّة والأولوية الأولى، ولن أُلجأ إلى القراءات التحليلية إلا بقدر الحاجة وما تستلزمه طبيعة الموضوع.

الدراسات السابقة:

ونحن نتخيّر موضوع بحثنا، كان حريّا بنا أن نُلقي نظرةً عمّا أُلّف في هذا المجال؛ وإلاّ كانت كتابتنا تُعوّزها عناصر الإضافة والإبداع، فتكون بذلك كما قال المعلّم الثاني، أبو نصر الفارابي: فضل أو جهل أو شرارة؛ إذ لم يكن من عملنا سوى إثبات ما قد سبقنا إليه غيرنا. إلا أنّنا نعتقد أنّ ما أُلّف لم يكن بالقدر المستوفي لجميع أجزاء الصناعة على الكمال، فاحتيج إلى توضيح لغامض، أو شرح لمستصعب، أو تسهيل لما أغمض. ولذلك فمن بين الدّراسات السّابقة، والتي كان لنا اطلاعٌ عليها وأفادتنا في رسم صورة واضحة للموضوع، كتاب "من علم الكلام إلى فقه الكلام" للأستاذ خالد زهري، والتي قامت على نشره دار الرشاد الحديثة بالدار البيضاء بالمغرب مع دار الضياء بالكويت وهذا سنة 2017م، وهي في أصلها أطروحة دكتوراه، أراد صاحبها أن يُبرز معالم التّحديد الكلامي والصّوفي عند فقهاء المغرب، وذلك من خلال البرهنة على فرضية التداخل بين الكلام والفقه والتصوّف، على امتداد حُكم الدولة المرابطية والموحدية ومرحلة الدولتين المرينية والوطاسية، وانتهاءً بالدولتين السعدية والعلوية. وقد كان حديثه عن عدد من الشخصيات البارزة في الفكر الكلامي بالمغرب، أبرز من خلالها جوانب الإبداع الكلامي وخاصيّة التكامل عندهم بين الكلام والفقه والتصوّف في جزئيات متعدّدة من مُصنّفاتهم. وما تميّز به أطروحتنا أنّها تتناول الشيخ أحمد زروق بالدّراسة في جوانب العقيدة والفقه والتصوّف، وتتلّمس معالم التكامل بينها من خلال كُتبه، هذه الشخصية لم يتمّ تناولها في كتاب الأستاذ زهري إلا في جانب التأكيد على الاستدلال الحجاجي والبرهاني للتصوّف عند زروق.

- ومن الدّراسات أيضًا، والتي أضاءت لنا جنبات الطريق في كشف اللثام عن عقيدة الشيخ زروق الفاسي، كتاب: "عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال كتبه وشروحه". والذي قامت على نشره دار كتاب- ناشرون ببيروت سنة 2017م، هذا الكتاب الذي أُلّفه حفيدُ الشيخ أحمد زروق، وهو الشيخ: محمد إدريس طيب، وضّح فيه المؤلف عقيدة الشيخ من خلال شرحه لعقيدة الغزالي، وكذا المرشدة وشرحه لباب العقيدة في كلّ من: المقدمة القرطبية والوغلّيسية، وكذا الرّسالة القيروانية، والتي قرّر من خلاله المؤلف عقيدة الشيخ أحمد زروق، التي هي عقيدة أهل السنّة من السلف الصالح، المعتمدة على الأدلة النقلية من القرآن الكريم والسنة

المطهرة، مع تعزيزها بالأدلة العقلية، دون الخروج عن مقتضيات الشرع ونصّوصه أو أقوال أئمة أهل السنة. ملتزما في مسائل العقيدة ما قرّره إمام السنة أبو الحسن الأشعري -رحمه الله- وكذا أئمة الأشعرية بعده من أمثال الغزالي والقيرواني والوغيلسي وغيره من أعلام الشرق والغرب. وعَمَلْنَا في هذا الكتاب كان التركيز على استقراء المواضع التي لَمَسْنَا فيها النظرة التكاملية في التعاطي مع الدّرس الكلامي الأشعري مع الفقه والسلوك، والعمل على شرحه وتوضيحه، وربطه بغيره من المواضع التي تحدّثت عن عقيدة الشيخ زُرُوق رحمه الله، خلافا للمؤلف الذي كان همّه إثبات عقيدة الشيخ أحمد زُرُوق، التي يجهلها الكثير، وكذا حفظ الجيل من الطوائف المنحرفة بتعريفه عقيدة أسلافه، وهو ما ذكره المؤلف في دوافع تأليفه بمقدمة كتابه.

- دراسة أخرى للشيخ محمد إدريس طيب، كان لنا معها إقتباسات وإضاءات، وتقريب للصورة أكثر لمنهج الشيخ أحمد زُرُوق، في الجمع بين الشريعة والحقيقة، هذه الدّراسة هي الكتاب الموسوم ب: الشيخ أحمد زُرُوق مُحْتَسِب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، قسّمه صاحبه إلى جزأين: الأول خصّصه لتحقيق نسب الشيخ زُرُوق ونشأته والظروف المؤثرة عليه وكذا أساتذته وشيوخه ومدرسته الصّوفية وجذورها بالمغرب. أما الجزء الثاني فقد خصّصه للحديث عن المدرسة الزُرُوقية بليبيا. وقد أفدنا من هذه الدراسة كثيرا، خاصة ما تعلّق بالظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي نشأ فيها وأثّرت على مسار حياته، وهي ما لا نجده في كتب التراجم عن الرّجل إلا مُبْتَسِرا ومُفَرَّقا، يعتمد في معظمه على النقل لا التحقيق، وهو ما أبقي مدرسته الصوفية غير معروفة من الكثير من الخواص فضلا عن العامة. وكذا كانت لنا وقفات في هذا الكتاب الذي ذكر طرفا من منهج الشيخ زُرُوق في تكامل معارفه الإسلامية، والذي تكلم فيه المؤلف عن الجمع بين الشريعة والحقيقة بشكل خاص، من خلال سرد بعض الأقوال المتناثرة في أغلب كتبه.

- وختام هذه الدراسات، دراسة الأستاذ فهمي علي خشيم في كتابه: "أحمد زُرُوق والزُرُوقية"، والذي نشرته دار المدار الإسلامي بليبيا سنة 2002م، هذه الدراسة التي أماطت اللثام عن أعظم شخصية صوفية تُضارِع أبا حامد الغزالي، كما قال مارتن لنكر في كتابه "ما هو التصوف؟"، إذ نفّض المؤلفُ الغبار عن عَلم من أعلام الفقه والتصوّف الإسلاميين، ووضّح صورته النّاصعة، باعتباره أحد المهتمّين الممتازين والمتميّزين في هذين المجالين في المغرب العربي الكبير بصورة خاصة. وقد خاض المؤلف في الحديث عن مسعى الشيخ أحمد زُرُوق للتوفيق بين الفقه والتصوّف، وكذا عَرَض بعض نظريات

التصوّف وأفكاره كما يراها الشيخ زروق من خلال كتبه: "عدة المريد الصادق" و"قواعد التصوف" و"إعانة المتوجه" و"شرح المباحث الأصلية"، وغيرها. هذا وإنّ المؤلف - وعلى خلاف ما سنراه من خلال بحثنا - وإن سلّم بأنّ الشيخ أحمد زروق ممّن يتّبع قاعدة طرّق جميع أبواب العلم المعروفة، ويُقسّم اهتمامه ونشاطه على فروع عديدة من المعرفة والدّراسة، فكتب في التصوّف طبعا، والفقه والعقيدة وغيرها من العلوم، إلا أنّه يُقرّر أنّ إبداع الشيخ زروق كان في مجال التصوّف، إذ كان له فيه مؤلفات ومُصنّفات عجيبة ومميّزة، على خلاف الفقه، فإنّ المؤلف يزعم أنّ الشيخ أحمد زروق لم يُقدّم في الفقه جديدا سوى قيامه بعمل قام به المئات قبله وبعده من الشارحين للحواشي والتعليقات في بعض أمهات الكتب المالكي، وإن كان مُعلّقا ممتازا. وهذا لعمرى غمطٌ لمقام الرّجل، الذي تشهد مؤلفاته على رسوخ قدمه في الفقه وتمكّنه من مصطلحاته ومسائله، وما شروحه وتعليقاته إلا دليلٌ واضحٌ على ذلك؛ فهي في مقام مؤلّفاتٍ مستقلة في الفقه المالكي، لو وَجَدَت الاهتمام من الدارسين والباحثين.

مع الإشارة إلى دراسة أخرى، كانت سُعيننا كثيرا لو ظفرنا بها، ألا وهي أطروحة الدكتوراه للباحث: هشام الحلّيمي الموسومة بـ: "ملاحم الدرس العقدي عند صوفية الغرب الإسلامي: الشيخ أحمد زروق نموذجا". والتي نوقشت صبيحة يوم الثلاثاء 31 يناير 2017م، بالمملكة المغربية. ورغم اتّصالنا بالباحث للحصول على نسخة من رسالته إلا أنّ الأمر لم يتيسّر؛ نظراً لتسلّم دار الكلمة للطباعة مُهمّة نسخته، وأصبحت بذلك تملك حقوق النشر، فما يسعنا إلا الانتظار ريثما يخرج الكتاب للتوزيع والنشر.

منهجية البحث:

وقد سلكتُ في إنجاز هذه الأطروحة منهجية تنبني على الأسس الآتية:

- ✓ بدأت بالحديث عن الدرس الكلامي عموما وتاريخه ومدارسه، ثم خصصتُ الكلام عن العقيدة بالغرب الإسلامي، وانتهيت إلى الشيخ أحمد زروق النموذج التطبيقي.
- ✓ اعتمدت في بيان المنهج العقدي لصوفية الغرب الإسلامي على كتابات المتخصصين في التصوف وعلم الكلام من المغاربة خاصة، هذه المدرسة التي ينتمي إليها الشيخ زروق وأمثاله من الصوفية المحققين.

✓ عملت على إبراز البعد العقدي في الفكر الصوفي عموماً والزُّروقي خصوصاً؛ لإظهار مدى تمكن علمائنا من علم الكلام وإبداعهم فيه.

✓ حاولتُ تتبع أغلب ما خلّفه الشيخُ زروق في باب علم الكلام، سواء في الكتب العقدية الصرفة؛ أي ما أُلّف عنه فيها، أو كتبه الصوفية المحضة، أو المختلطة، حسب الوسع والطاقة.

✓ تم التركيز على العقيدة الأشعرية أكثر من غيرها، لكونها تمثل اختيار جلّ علماء وصلحاء الغرب الإسلامي، وعلى رأسهم الشيخُ أحمد زروق الفاسي.

✓ حاولتُ - قدر الإمكان - أن أنهي كل فصل من الفصول الأربعة بخلاصة مختصرة، ذكرت فيها أهم ما تضمنه الفصل.

✓ حاولت ترجمة جميع الأعلام الذين لهم علاقة مباشرة بالموضوع، ما استطعتُ لذلك سبيلاً.

✓ وثّقتُ التّصوص المستشهد بها وفق المعايير المتبعة في البحوث العلمية، المختلّفة من توجه إلى آخر. وقد اخترت ذكر المؤلف، متبوعاً باسم الكتاب، ثم المحقق إن وجد، ثم دار النشر ومكانها وسنة الطبع إن وجدت، وإلا أشرت إلى انعدامها بـ”دون تاريخ”، وذلك عند النقل الأول من المصادر والمراجع المعتمدة، وفي الأخير الجزء والصفحة.

✓ كتبتُ الآيات القرآنية عن طريق المصحف الإلكتروني برواية حفص عن الإمام عاصم، ذاكرًا موقعها في السورة ورقمها في المتن.

✓ دَوّنت الأحاديث النبوية، وخرّجتها من أصولها الحديثية، معتمداً أولاً على ما جاء في الصحيحين، ثم صحيح البخاري، فصحيح مسلم، فما ورد في غيرهما، مع ذكرٍي للملخص أقوال أهل العلم في الأحاديث من غير الصحيحين.

أهداف الدراسة:

وفي الأخير نأملُ من خلال هذه الأطروحة، أن نكون قد ساهمنا ولو بقدرٍ يسير على تحقيق بعض الأهداف المُهمّة، والتي رمنا الوصول إليها وتحقيقها وهي:

1- التعريف بأساطين الشريعة، وأوتاد الحقيقة من علماء المغرب الإسلامي، الذين نصب الجهل بهم حجاباً ثخيناً بينهم وبين النُخب المثقّفة في هذا العصر، فعَدّوا مغمورين، وقد كانوا لدى الأمة نارا على جبل بما أنتجوه من مصنفات أصيلة تعبّر عن هوية ثقافية راقية جدا لا بتنائها نظرياً على ذكر الله

تعالى والاتصال العميق بالخالق، وعملها على العمل الصالح بمحاربة الجهل والبدع، وترسيخ دعائم الفضيلة، ونشر العلم والمعرفة لدى كل شرائح المجتمع¹. فكان الدخول إلى هذا المهيع من خلال التعريف بشخصية صوفية مغاربية، لم يُسلط عليها ضوء البحث بالشكل الكافي، كان لها اليد الطولى في القرن العاشر الهجري على العمل لنشر وترسيخ العقيدة الصحيحة في أرجاء العالم الإسلامي عموماً، والغرب الإسلامي على الخصوص، وذلك من خلال كُتبه وشروحه التي تعددت وتنوّعت كمّاً وكيفاً، وما ذلك إلا لمؤهلاته العلمية، وقدراته المتميزة على تقديم الدرس العقدي تقديمًا عملياً واضحاً وسهلاً، بعيداً عن أي تكلف أو غموض، أو إغراق في الفلسفة الإشراقية.

2- محاولة إبراز عقيدة المتصوفة بالغرب الإسلامي، والشيخ أحمد زروق على رأسهم طبعاً؛ نظراً لحيرة الكثيرين وتساؤلهم عن حقيقة اعتقاد القوم، الذي ظلّ جانباً مُشوَّشاً لدى الكثير؛ لِمَا طال التصوف من البدع والخرافات والاعتقادات الباطلة، وخاصة في القرن العاشر الهجري، فكان لزاماً توضيح الصورة بأن عقيدة الصوفية الحقّة هي ما وافق اعتقاد السلف بلا شك، القائم على الكتاب والسنة وهدى الأئمة من أهل السنة، وعلى رأسهم أبي الحسن الأشعري.

3- السعي لإرجاع الروح التكاملية للعقلية الإسلامية؛ إذ مع أفول عصور الاجتهاد والتجديد، وجنوح مجموع الأمة إلى التقليد، وهيمنة سلطة التخصص، جعل عرى التكامل بين العلوم الإسلامية تنقض عروة عروة، وتحلّ محلّها نزوة اكتفاء كل ذي تخصص بتخصّصه، لضيق عطن الباحثين، فصارت الحاجة ملحة لتطوير وتجديد وإحياء العلوم الإسلامية، بتمحيص العلاقات المتعددة بين العلوم الإسلامية، وذلك من خلال إبراز مثل هذه النماذج الحيّة كي يُحتذى بها، وإبراز دورهم في الحفاظ على الهوية الإسلامية في عصرهم، وحفظ الشباب والعامة من العقائد والمِلل والتحل المنحرفة، وحثّ المريّين والآباء على إيلاء الأهمية البالغة في تربية النشء وفق منظومةٍ مُوحّدة، من خلال التمسك بعقيدة السلف التي مثّلها أبو الحسن الأشعري، وتعلّم الفقه المالكي وسلوك التصوف الجُنّيدي، وكذا التركيز على النظرة المقاصدية لهذه العلوم، وخاصة الدرس الكلامي؛ الذي ما فشلت مشاريع الأمة النهضوية السابقة على مرّ العصور إلا من جرّاء تغيّبه وإغفاله عن عملية التغيير والإصلاح، أو إتباع منهج التكرير والترديد لمسائله دون تجديد أو إبداع.

¹ أنظر: الهبّطي، عبد الله بن محمد (ت963هـ): رسائل التوحيد والهيللة، تحق: خالد زهري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2002م، ص9.

4- محاولة توضيح العلاقة الجدلية بين السياسة والدين، أو همُّ الحفاظ على ثوابت الهوية الثلاثة ببلاد الغرب الإسلامي (عقيدة، فقه، سلوك)؛ إذ أنّه وعلى اختلاف السُّلطات التي كانت قائمة آنذاك من: مرابطين ومُوحّدين ومُرينيّين ووطاسيّين وغيرهم، فإنّ جميعهم كان له مقاصد شرعية بخلفية سياسية، غرضها الحفاظ على استقرار السُّلطة من خلال حفظ بُنية الهوية المغربية، وعلى رأسها الثابت العقدي السنيّ، سواء كان سلفيا كما هو الحال عند المرابطين، أو كان أشعريا كما عند الموحّدين، والمرينيين بعدهم، وأنّه لا علاقة بهذا الاختيار بموقفهم من الإبداع والتطور الكلامي، حتّى وإن نُقل البعض مثلا معاداة المرابطين للمتكلمين الأشاعرة، فإنّ ذلك ليس على إطلاقه؛ بدليل تقريبيهم لبعض الأشاعرة وإكرامهم لهم بالصّلات والهبات مثل أبي الحجاج الضرير (ت 520هـ)، الذي كان من أساطين المذهب الأشعري. وهذه الدّعوة للوحدة العقدية والفقهية والسلوكية، وإن اعتبرها البعض تعصّبا، فهي حَفَظَت هذه الدول التي ذكرنا، وكان علمائها من المدافعين عن النّسق الفكري الواحد في جُمْل القضايا، وكمثال على ذلك، أبي الحجاج يوسف المكلاتي (ت 626هـ)، المعروف بالأحدب، في عصر الدولة الموحّدية، الذي كان لا يقبل غير المذهب الكلامي الرّسمي، وكان يُحارب كلّ أشكال التعدّد؛ لحماية الوحدة العقدية، التي يُمثّلها أهل الحق.

هذا، وإنّا نستهدف من خلال بحثنا تحقيق مطلبين مهمين من وجهة نظري، وهما:

1- إمّاطة اللثام عن تراث الغرب الإسلامي، وما يزخر به من إسهامات في مجال ترسيخ (علم الكلام) الدّرس الكلامي الأشعري والإبداع الذي عُرف به رُوّادُه، في عَصْرِ عُدَّ فيه علمُ الكلام عند المشاركة، بدعةً في الدين، لكنّه عند فقهاء الغرب الإسلامي صَنِيعَ المُحَقِّقين، فقد قال الفقيه المالكي ابن خجّو (ت 956هـ): "لا يخفى على كلّ ذي بصيرة مُحَقِّق، أنّ علم الكلام، المفرع في الجوهر والعرض، لم يكن في وقت النبي ﷺ، وإنّما هو علمٌ مُحدّث، حَدَثَ حين كَثُرَت الأقوال في التوحيد، وظهَر أهل الزيغ والشُّبه والابتداع، فأُحدِث علم الكلام دواءً للذي أظهر عنده حدّته. وهو علمٌ شريفٌ، فَرَضَ من فُرُوض الكفاية عند المُحَقِّقين، أُحدِث دواءً للشُّبه"¹. ونحن نستهدف من خلال هذا كلّهُ استنفاز الدّارسين من أجل إعادة النّظر في الأحكام الخاطئة وكسر الدّعاوى

¹ أنظر: زهري: الفقه المالكي والكلام الأشعري، ص 48. نقلا عن: ضياء النهار المجلي لغمام الأَبصار في نصرة أهل السنة الفقهاء الأخيار المفسر لما خفي من أحوال أهل الأبرار لأبي القاسم محمد بن علي بن خجو الحساني، مخطوط محفوظ في الخزّانة الحسينية بالرباط، مسجل تحت رقم 13960، الصفحتان: 443-444.

الباطلة، من قبيل أنَّ الفكر الكلامي الأشعري بالغرب الإسلامي ما هو إلا صورة باهتة للأشعرية المشرقية، وأنَّ علماء هذه البلاد، وخاصة من القرويين والإفريقيين خلَّوْا عن العلوم النظرية والعقلية، ولا اهتمام لهم سوى بالحفظ والتفريع الفقهي، ولذلك كان إجتراح المسائل الكلامية بالغرب الإسلامي، وفشا التكرار وعدم الإبداع في مباحثه، ويتفرَّع عن هذا، الرد عن دعوى فساد عقيدة المتصوِّفة، وقلة باعهم في الفقه، وأنهم لا يحسنون سوى الإغراق في الشطحات، وادِّعاء الكرامات، والافتئات على الدِّين وتحصيل الدنيا بمخادعة المريدين.

2- شحذُ هَمِّ المهتمين من طلبة العلم في أقسام أصول الدين وتحفيزهم، من أجل إخراج التراث المغربي المخطوط إلى النور، وخاصة ما تعلَّق بتراث الشيخ أحمد زروق رحمه الله، وبذل الوسع في ذلك، على الأقل تأسّيًا بالمشاركة، الذين كان لهم السَّبق والهَمَّة والاهتمام في نشر إسهاماتهم. وإن كان هناك نَزْر يسير من الباحثين ممَّن حدا بهم الحرص عن هذا التراث، إلى إخراج هذه النصوص والوثائق النفيسة التي تعبت بها الأرضة، وتتهدَّدها الرطوبة، ويطويها النسيان.

الفصل الاول: التكامل المعرفي بين الكلام والفقه والتصوف

المبحث الأول: بنية المنظومة الإسلامية عند المغاربة

المطلب الاول: المنظومة العقديّة والكلام الأشعري

المطلب الثاني: المنظومة الفقهية والمذهب المالكي

المطلب الثالث: المنظومة التربوية وطريقة الكنجيد

المبحث الثاني: القطيعة المنهجية بين العلوم سياقاتها ومضارها

المطلب الاول: السياق المنهجي – مطلب التأسيس والتقعيد-

المطلب الثاني: السياق المعرفي – مطلب التباين والمضامين -

المطلب الثالث: السياق الحضاري- مطلب البناء والمواجهة-

المطلب الرابع: مضار القطيعة المعرفية بين العلوم الإسلامية

المبحث الثالث: التكامل المعرفي وسؤال الراهن

المطلب الاول: الأبعاد السياسية والاجتماعية للتكامل بين الكلام والفقه والتصوف

المطلب الثاني: التكامل المعرفي وإنسان الخلافة – التأسيس للعبودية والاستخلاف-

المطلب الثالث: نماذج من التكامل المعرفي في التأليف عند علماء الغرب

الإسلامي

الفصل الأول : الدرس الكلامي والتكامل المعرفي مع الفقه والتصوف

المبحث الأول: بنية المنظومة الإسلامية عند المغاربة¹

تُعتبر العلوم الإسلامية وحدة مترابطة ومتكاملة فيما بينها، ممّا يُجتم على الباحثين الكشف عن آليات الاستدلال، والاشتغال العملي الذي يُجلي هذا الترابط الوثيق بين العلوم، والاستفادة منها بُغية معرفة النّسق المعرفي الذي يجمع بينها، وخلق الترابط المثمر بينها لأجل بناء معرفة منسجمة ومتكاملة تُسهّم في بناء صرح حضاري قوي ومتوازن².

إنّ منهج علماء الغرب الإسلامي في التأليف والتصنيف، يعتمد على أضلاع الشريعة الإسلامية الثلاثة: [عقيدة-وأحكام-سلوك]؛ فلقد اهتمّ المغاربة فقهاء وصوفية، بالعقيدة:

*اهتم بها الفقهاء، لارتباط أعمال الجوارح بما تعتقده القلوب، وتؤمن به، لأنّ الإسلام إيمان بالقلب وعمل بالجوارح.

*واهتم بها الصوفية لحرصهم الشديد على تصحيح عقيدتهم وصيانتها عمّا يمكن أن يعتريها من الهنات والبدع والمخالفات.

والقارئ لكتب الفقه بالمغرب غالبا ما يُسجّل التلاحم بين العقيدة والفقه؛ إذ غالبا ما يستهلّ الفقهاء كتبهم بالعقيدة. ثم يتطرّقون بعدها إلى الأحكام الفقهية: العبادات والمعاملات؛ بل إنّ التلاحم يشمل العقيدة، والعبادات، والتصوّف؛ فرسالة ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ)³ رغم أنّه ألّفها في فقه

¹ لفظ المغاربة نعني به الغرب الإسلامي، أي الجناح الغربي من العالم الإسلامي، ابتداء من ليبيا إلى المحيط الأندلسي بما في ذلك الضفة الشمالية الغربية من البحر الأبيض المتوسط، كما يطلقه ليفي برونسفال على: مجموعة جغرافية بالغة التناسق فيما بينها وتقع على جانبي غربي البحر المتوسط تمتد سواحله حتى سواحل الأطلسي وتشمل شمال إفريقيا، وشبه جزيرة إيبيريا. (انظر: كراز، فوزية: مصطلح الغرب الإسلامي بين الرفض والقبول، مجلة عصور، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، مجلد6، عدد1، 2007/06/30م، ص224).

² بوزغنية، مصطفى: التصوف ومبدأ التكامل بين العلوم الإسلامية، مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة، ركن: دراسات وأبحاث/دراسات عامة، 2020/07/20م.

³ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد، النفزاوي نسباً، القيرواني مولداً ومنشأً ومدفناً، كان يُعرف بمالك الصغير. صُفّ كتاب: "النوادر والزيادات" على المدونة مشهور في نحو المائة جزء، واختصر "المدونة"، وعلى هذين الكتابين المعوّل في التفقه بالمغرب، تفقه بفقهاء القيروان والأندلس والمغرب، وسمع من دراس بن إسماعيل. (انظر: الدباغ، عبد الرحمن بن محمد (ت696هـ): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، مكتبة الغانجي، مصر، ط1، 1998م، ج3، ص109. والذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج17، ص10).

الإمام مالك، إلا أنه أبا إلا أن يتطرق في الباب الأول من الكتاب إلى العقيدة تحت باب: ما تنطق به الألسنة، وتعتقد الأفئدة من واجب أمور الديانات، وهو شأن عديد الكتب الفقهية بالمغرب العربي¹.

فمن أهم الخصائص التي طبعت "علم الكلام" عند المغاربة بطابع التميز، تداخله مع التصوف، وإرجاعه إلى أصوله بجعله متقاطعا، بل متداخلا مع الفقه عموما، والفقه المالكي خصوصا... ومن أهم خصائص التراث الكلامي المغربي، أنه تطور وازدهر بموجب تلك العلاقة الوطيدة بين العلوم الثلاثة في المرحلة التي تخلف فيها هذا العلم في المشرق بسبب إقصاء الدرس الكلامي عن الفقه، وتلبس التصوف المشرقي بالإشراق الفلسفي التجريدي، على النقيض من التصوف المغربي العملي الذي فعل علم الكلام ووظفه في الوعي والممارسة الصوفيّين².

وهذا المنهج التكاملي في عرض المنظومة الإسلامية، هو منهج قرآني شرعي أصيل، تظهر فيه مسحة الكمال والجمال؛ لأنه كلام الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]؛ يقول الإمام الفخر الرازي في سياق تفسيره لآية الكرسي: "اعلم أن من عادته سبحانه وتعالى في هذا الكتاب الكريم أنه يخلط الأنواع الثلاثة ببعضها البعض، أعني علم التوحيد وعلم الأحكام وعلم القصص، والمقصود من ذكر القصص إما تقرير التوحيد وإما المبالغة في إلزام الأحكام والتكاليف، وهذا هو الطريق الأحسن... ولما ذكر فيما تقدم من علم الأحكام (الفقه)، ومن علم القصص (التركية والسلوك) وما رآه مصلحة، ذكر الآن ما يتعلق بعلم التوحيد، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾"³. ولأنه أي المنهج التكاملي - استمداد من حديث جبريل عليه السلام؛ الذي وضح ابتناء الشريعة على: الإسلام [الأحكام العملية وهي الفقه]، والإيمان [وهي العقيدة والتوحيد]، وأخيرا الإحسان [وهي الأخلاق والسلوك أو التصوف]، ففي الحديث «عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بينما نحن عند رسول الله ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد

¹ طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال: كتبه وشروحه، كتاب- ناشرون، بيروت، ط1، 2017م، ص392.

² زهري، خالد: من علم الكلام إلى فقه الكلام، دار الرشد الحديثية، الدار البيضاء، المغرب- دار الضياء للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 2017م، ص5.

³ الرازي، فخر الدين: تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب)، مرجع سابق، ج7، ص2.

سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مَنَا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ فَعَجِبْنَا إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ كُلَّهُ خَيْرٌ وَشَرٌّ قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلَدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعَرَاءَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبَنِيَانِ. قَالَ عَمْرٌ: فَلَبِثْتُ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ: يَا عَمْرُ هَلْ تَدْرِي مِنَ السَّائِلِ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَاكُمْ لِيَعْلَمَكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ»¹.

وتكاد سِمَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْعَقِيدَةِ وَالْفَقْهِ وَالسُّلُوكِ لَا تُفَارِقُ أَغْلَبَ عُلَمَاءِ وَصُلَحَاءِ وَمُتَصَوِّفَةِ الْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ، وَهُمْ بِحَسَبِ الْفَقِيهِ ابْنِ عَاشِرٍ (ت 1040هـ)² فِي مَنْظُومَتِهِ الشَّهِيرَةِ الْمُرْشِدِ الْمَعِينِ، قَدْ جَمَعُوا بَيْنَ عَقْدِ الْأَشْعَرِيِّ وَفَقْهِ مَالِكٍ وَطَرِيقَةِ الْجُنَيْدِ السَّالِكِ³.

ولذلك يقول الشعراني في طبقاته، وهو يُقَرَّرُ طَبِيعَةً وَثْنِيَّةُ الْمَنْظُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْقَائِمَةُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْأَحْكَامِ: "ثُمَّ أَعْلَمَ يَا أَخِي رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ عِلْمَ التَّصَوُّفِ عِبَارَةٌ عَنْ عِلْمِ انْقِدَاحِ فِي قُلُوبِ الْأَوْلِيَاءِ حِينَ اسْتَنَارَتْ بِالْعَمَلِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَكُلُّ مَنْ عَمَلَ بِمَا انْقَدَحَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ عِلْمٌ وَأَدَبٌ وَأَسْرَارٌ وَحَقَائِقُ تَعَجَّزُ الْأَلْسُنَ عَنْهَا، نَظِيرُ مَا انْقَدَحَ لِعُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ حِينَ عَمَلُوا بِمَا عَمَلُوهُ مِنْ أَحْكَامِهَا. فَالتَّصَوُّفُ إِنَّمَا هُوَ زُبْدَةُ عَمَلِ الْعَبْدِ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ"⁴.

¹ أخرجه مسلم: الجامع الصحيح، تحقق: نظر بن محمد الفارابي، دار طيبة، الرياض، ط1، 1427هـ/2006م، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر، وعلامة الساعة، ص23-24،

² أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر، الأنصاري نسباً، الأندلسي أصلاً، الفاسي منشأً وداراً، قرأ القرآن على أحمد ابن عثمان اللمطي، وأخذ على أحمد الكفيف، ثم محمد الشريف المري التلمساني، وكان ذا معرفة بالنحو والتفسير، وعلم الحديث، وعلم الكلام. حجَّ وجاهد واعتكف، وألف تأليف منها: منظومة المرشد المعين. أصيب بداء النقطة ومات عام 1040هـ. (أنظر: مخلوف، محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1424هـ/2003م، ج1، ص434).

³ ميارة المالكي، محمد بن أحمد: الدر الثمين والمورد المعين، تحقق: عبد الله المنشاوي، دار الحديث، القاهرة، 2008م، ص18.

⁴ الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد بن علي (ت 973هـ): الطبقات الكبرى، تحقق: أحمد عبد الرحيم السايح، توفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2005م، ج1، ص12.

إنّ تحقيق التواصل والتداخل بين ما هو كلامي، وما هو فقهي، وما هو صوفي، يسمح لنا بالحديث عن مشروع إسلامي نضوي، مُرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم كلام جديد في القرون الستة الأولى خاصة، يتلافى مُعوّقات ما فتئتْ تعترض سبيله، من قبيل: إغفاله وإقصائه عن عملية التغيير والإصلاح، وكذا تكرير مباحثه بدون إبداع. فالتراث الكلامي بالغرب الإسلامي في ثوبه الجديد يعني ضرورة الجمع بين العقيدة التي تُمثّل الأساس النظري لكل ما سواها، والفقه الذي يعني تحقيق الوصال مع الواقع، والتصوّف الذي يعني استحضار البعد الأخلاقي في الممارستين الكلامية والفقهية¹.

ولذلك ما أجمل ما قاله الشيخ الغزالي -رحمه الله-، وهو يُقرّر ضرورة الجمع بين الفقه والسلوك، والعقيدة، فقال: "إنّ الأعمال الظاهرة من عبادة ومعاملة ما تصدق وتكمل إلا إذا اتّسقت وراءها هذه المعاني الباطنة، وتحلّلت مسالك الفؤاد... وإذا لم نحسن البناء الداخلي للنفوس ورفع الإيمان على دعائمه الفكرية والعاطفية كلها، فإن الأجيال الناشئة لن تنجو من آثار زحف التعاليم المدنية، وربما شعرت بنقص في كيانها الروحي تسعى كي تستكمّله من جهات أخرى"².

وإن حديث جبريل عليه السلام آنف الذكر، يبين حقيقة الدين والفهم الصحيح لشريعة محمد ﷺ؛ وأنّه جملة المعاني المجتمعة في: الإسلام والإيمان والإحسان، لا ينفصل أحدها عن الآخر -بأي شكل من الأشكال- عند التصور الكامل، كالشجرة الحية؛ قد تنظر إلى جذعها الذي يحمل الغذاء للغصون الدانية والدوائب العالية. وقد تنظر إلى الأثمار المطعومة والأوراق المظللة. وقد تنظر إلى ينبع الشجرة وحفولها وازدهارها. بيد أن هذه الأنظار المختلفة لا تغير من وحدة الشجرة، واكتمال صورتها في الذهن وفي الخارج... وربما انكمشت العناصر التي تتكون منها حقيقة الدين، ووهت الروابط التي تشد بعضها إلى البعض الآخر، فيكون الإسلام عملاً خافتاً لا تلمح وراءه قوة الإيمان، أو يكون الإيمان باعثاً مريضاً لا يدفع الأهواء ولا يوقظ الضمائر، أو يكون الإحسان زعماً لا يبصر الحق ولا يحس هيمنته³.

¹ أنظر: زهري، خالد: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 49، 13.

² الغزالي، محمد: الجانب العاطفي من الإسلام، نخبة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيز، مصر، ط 3، 2005م، ص 6-7.

³ أنظر: المرجع نفسه، ص 18.

المطلب الأول: المنظومة العقدية والكلام الأشعري

لما كان الغرب الإسلامي شديد الاتصال بالتحولات الفكرية التي تعرفها بلدان المشرق، وكذا حرص علماء المشرق أن تصل آراؤهم ومذاهبهم إلى مختلف ربوع البلاد الإسلامية، فإن المذهب الأشعري انتقل إلى الغرب الإسلامي في فترة مبكرة، ربما في عهد مؤسسه نفسه¹.

ولقد كان الغرب الإسلامي ثربة خصبه لكثير من المعتقدات والأفكار، مما هيأ العدو المغربي وبلاد الأندلس لتقبل الكلام الأشعري، فكان الدخول المبكر لمذاهب الرافضة والخوارج والمعتزلة والمرجئة وغيرها من المذاهب الكلامية إلى بلاد الغرب الإسلامي، خصوصاً مع بداية القرن الثاني الهجري بدخول العرب المسلمين الفاتحين، وقد أكسبها ذرية وتمرساً في الجدل والمناظرة، وجعلها تشرب أدب الحوار وروح السجال العلمي والجدل الكلامي، وذلك كله هيأ الجو لقبول أفكار أخرى لتكريس الاشتغال بالكلام الأشعري فيما بعد².

وعن دخول مذهب الرافضة إلى المغرب، فمنذ أن دخل إليها "عيسى بن محمد النفس الزكية" بداية القرن الثاني للهجرة، انغرست محبة آل بيت الرسول ﷺ في قلوب أهل المغرب، ثم كان لقيام دولة الأدارسة على يد إدريس الأول (172-177هـ) مناسبة أخرى، ازداد حب أهل المغرب لآل البيت، وطرح مسألة المفاضلة في الخلافة بين الخلفاء الراشدين.

ثم نقل "محمد بن عيسى القرطبي" المعروف بالأعشى (ت221هـ)³، شيئاً من الأفكار الشيعية إلى الأندلس، وكان هذا تمهيداً لقيام دولة العبيديين في المغرب نهاية القرن الثالث الهجري (296هـ). وقد تصدى الفقهاء المالكية لهذا المد الشيعي وقاوموه حتى رحل عن المغرب إلى مصر عام 358هـ⁴. ويقول السلاوي في "الاستقصا": "حج أبو عبيد الله المحتسب، داعية العبيديين من الشيعة... واجتمع بمكة

¹ أنظر: التهامي، إبراهيم: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص250.

² أنظر: توفيق مزاري، عبد الصمد: أثر المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي حتى القرن السادس الهجري، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، مجلد10، عدد3، 2018/11/02م، ص140.

³ محمد بن عيسى بن عبد الواحد الفقيه، أبو عبد الله المعافري القُرطبي الأعشى، رحل في طلب العلم في السنة التي مات فيها مالك بن أنس، فسمع من: سُفيان بن عُيينة، ويحيى بن سعيد القطان، ووكيع بن الجراح، وطائفة. وكان الغالب عليه الأثر. تُوفي سنة إحدى وعشرين، وقيل: سنة اثنين وعشرين، وقيل: سنة ثمان عشرة. روى عنه: محمد بن وضاح، وأصبغ بن خليل، وآخرون. ويُذكر أنه كان يشرب النبيذ! (انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقق: بشار عواد معروف، مرجع سابق، ج5، ص583).

⁴ أنظر: توفيق مزاري: أثر المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي حتى القرن السادس الهجري، مرجع سابق، ص140.

بُحْجَاجِ كِتَامَةِ مَنْ أَهْلَ الْمَغْرِبِ، فَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ، وَوَعَدَهُمْ بِظُهُورِ الْمَهْدِيِّ، مِنْ آلِ الْبَيْتِ عَلَى يَدِهِمْ، وَيَكُونُ لَهُمْ بِهِ الْمَلِكُ وَالسَّلْطَانُ، فَتَبِعُوهُ عَلَى رَأْيِهِ، وَصَحِبَهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَرَأَسَ فِيهِمْ رِئَاسَةً دِينِيَّةً، وَقَرَّرَ لَهُمْ مَذْهَبَ الشَّيْعَةِ، فَاتَّبَعُوهُ وَتَمَسَّكُوا بِهِ، ثُمَّ بَايَعُوا مَوْلَاهُ عُبَيْدَ اللَّهِ الْمَهْدِيَّ، أَوَّلَ خُلَفَاءِ الْعُبَيْدِيِّينَ، فَاسْتَوْلَى عَلَى إِفْرِيقِيَّة¹

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِتَسَرُّبِ فِكْرِ الْخَوَارِجِ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَقَدْ كَانَ فِي مِنتَصَفِ الْقَرْنِ الثَّانِي الْمَهْجَرِيِّ زَمَنَ الْخَلِيفَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ [105-125هـ]، الَّذِي ضَيَّقَ عَلَيْهِمُ الْخَنَاقَ فِي الْمَشْرِقِ، فَأَنْحَازُوا إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَنَّهُ كَانَ بَعِيدًا عَنْ سُلْطَانِ الْخِلَافَةِ². وَقَدْ وَجَدَ الْخَوَارِجُ فِي أَهْلِ الْمَغْرِبِ أَتْبَاعًا وَمُؤَيِّدِينَ أَرَادُوا التَّخْلُصَ مِنْ ظُلْمِ الْأُمَرَاءِ الْأُمَوِيِّينَ، وَقَدَّرَ لَهُؤُلَاءِ الْخَوَارِجُ مِنْ تَجْنِيدِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ السَّائِحِينَ وَكُوفُوا أَتْبَاعًا، وَأَقَامُوا كِيَانَاتٍ سِيَاسِيَّةً لَا تَزَالُ آثَارُهَا إِلَى الْيَوْمِ³.

وَكَانَ هَذَا الظُّهُورُ لِلْخَوَارِجِ مُتِمِّلًا فِي فِرْقَةِ الْخَوَارِجِ "الصُّفَرِيَّة"⁴، فَظَهَرُوا أَوَّلًا حَوْلَ طَنْجَةِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْقَيْرَوَانِ فِي حَالَةِ غِيَابَةِ الْجَيْشِ بِصَقْلِيَّةٍ تَحْتَ رِئَاسَةِ حَبِيبِ بْنِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ، وَأَخَذَتْ تَنْتَشِرُ فِي الْقِبَائِلِ حَتَّى بَلَغَتْ طَرَابِلُسَ، وَكَانَتْ قَبِيلَتَا (زَنَاتَةَ، وَهَوَارَةَ) أَكْثَرَ الْقِبَائِلِ تَقْبُلًا لِمَبَادِئِ الصُّفَرِيَّةِ وَدِفَاعًا عَنْهَا... وَيُرْجَعُ الْمُؤَرِّخُونَ سَبَبَ نَجَاحِ فِرْقَةِ الْخَوَارِجِ الصُّفَرِيَّةِ وَظُهُورِهَا فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ إِلَى سَبَبَيْنِ: الْأَوَّلُ: نَشَاطُ الدَّعَاةِ الْمَشَارِقَةِ الَّذِينَ ذَهَبُوا إِلَى الْمَغْرِبِ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمَهْجَرِيِّ، وَأَخَذُوا فِي

¹ السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقق: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، ج1، ص238.

² بل، ألفرد: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط، 1981م، ص145.

³ أنظر: توفيق مزاري: أثر المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي حتى القرن السادس الهجري، مرجع سابق، ص138.

⁴ والصُّفَرِيَّةُ هِيَ فِرْقَةٌ مِنَ الْخَوَارِجِ، أَصْحَابُ زِيَادِ بْنِ الْأَصْفَرِ، اتَّخَذَتْ مَوْقِفًا وَسَطًا بَيْنَ الْأَزَاقَةِ الْمُتَشَدِّدِينَ وَبَيْنَ الْإِبَاضِيَّةِ، لَسْنَا نَدْرِي مِنْ أَيْنَ جَاءَ اسْمُهَا، وَهُمْ يَمْتَنِعُونَ عَنْ تَكْفِيرِ وَقْتَالِ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْقَعْدَةِ عَنِ الْقِتَالِ، إِذَا كَانُوا مُوَافِقِينَ فِي الْإِعْتِقَادِ، وَيَأْخُذُونَ بِالتَّقِيَّةِ فِي الْقَوْلِ دُونَ الْعَمَلِ، وَلَمْ يَحْكُمُوا بِقَتْلِ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ وَتَحْلِيدِهِمْ فِي النَّارِ. وَكَفَرُوا أَصْحَابَ الْكِبَائِرِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا حَدٌّ، كَتَرَكِ الصَّلَاةَ وَالْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ. (أنظر: الشهرستاني، عبد الكريم: الملل والنحل، تحقق: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاؤه، القاهرة، 1387هـ/1968م، ج1، ص137. والبغدادي، عبد القاهر: الفرق بين الفرق، تحقق: محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، لا.ط، د.ت، ص84).

نشر دعوتهم. والآخر: شدة وتطرف الفكر الصفري مقارنة بالفكر الإباضي الأكثر تسامحاً مع مخالفه¹.

إنّ حدوث الاضطرابات في بلاد المغرب في القرن الثاني الهجري، أدّت إلى قيام عددٍ من الدّول المستقلة عن الخلافة العباسية ذات مذاهب مختلفة، ومنه تأسيس الدولة المدراية، التي ترجع إلى أبي القاسم سمغون بن واسول المكناسي، الذي كان صاحب ماشية كثيرة، ينتجع موضع سجلماسة، ويتردد إليها على أنه كان براجا في الأسواق، فاجتمع قوم من الصفرية عليه وسكنوا معه هنالك في خيمات²، فهذه الحركة التي قام بها ابن واسول يمكن أن تكون مرحلة لجسّ النبض وتكوين الأنصار، فلمّا اجتمع على المذهب حوالي أربعين رجلاً من الصفرية، أعلنوا استقلالهم عن الخلافة العباسية وولّوا عليهم عيسى بن يزيد بن سعد، المعروف بالأسود، من موالى العرب ورؤوس الخوارج، الذي أقام كياناً سياسياً بسجلماسة بعد اختطاطها سنة (140هـ)، ولكنهم سرعان ما تنكروا له، وقتلوه شر قتلة. وقد اتّخذت دولة سجلماسة المذهب الخارجي الصفري مذهباً لها، أمّا سكانها فأغلبهم من قبيلة مكناسة البربرية وبطونها³. يقول صاحب "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى": "اجتمعت الصفرية بناحية مكناسة بالمغرب الأقصى، فنقضوا طاعة العرب الأمويين وولّوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود، من موالى العرب ورؤوس الخوارج، واختطوا مدينة سجلماسة سنة 140هـ، ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم..⁴ وقد استمرت فترة حكم بني مدرار قرابة القرنين من الزمن، حتّى تغلب عليهم "عبيد الله الشيعي" الذي قتل آخر حكام بني مدرار (اليسع بن ميمون) سنة 296 هـ، إلّا أنّ الحكم في يد بني مدرار استمرّ مع التبعية الاسمية للدولة الفاطمية حتى سنة 345 هـ⁵.

¹ جرار، أحمد عرسان: ثورات الصفرية في بلاد المغرب (122-143هـ)، مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بغداد، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ابن رشد ص328.

² أنظر: ابن عذارى المراكشي، محمد بن محمد: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحق: ج.س. كولان، إ. ليفي. بروفنسال، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط3، 1983م، ج1، ص156.

³ أنظر: الدراجي، بوزياني: دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس، دار الكتاب العربي، الجزائر، لا.ط، 2001م، ص75 وما بعدها.

⁴ أنظر: السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج1، ص124.

⁵ أنظر: ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، مرجع سابق، ج1، ص157.

وفي هذا الصدد يقول "ابن عذارى" في كتابه: "البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب"، وهو يتحدث عن دخول الإباضية¹ إلى المغرب ما يلي: "ولما دخل ابن الأشعث القيروان، فرّ عبد الرحمن بن رستم - وكان مولى لعثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان خليفة لأبي الخطاب أيام تغلبه على إفريقية - إلى الغرب بما خفّ من أهله وماله، فاجتمعت إليه الإباضية وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم، فنزلوا بموضع تاهرت، وهي غيضة بين ثلاثة أنهار.. وذلك في سنة 161هـ²."

وبخصوص دخول المعتزلة إلى بلاد الغرب الإسلامي، فقد كان ذلك مبكراً منذ أوائل القرن الثاني الهجري؛ ففي سنة 131هـ بعث "واصل بن عطاء" - رأس المعتزلة - باتباع له إلى الضفة الغربية للعالم الإسلامي، على رأسهم "عبد الله بن الحارث" فأجابه خلق كثير، بل إنّ هناك من يذهب إلى أنّ قيام دولة الأدارسة كانت على سندٍ من الاعتزال، وما إن تراجع سلطان الأدارسة حتى تلاشى الاعتزال، تاركا وراءه محالا خصباً ساهم في خلق حلقات التعايش وتأسيس أدب المناظرة والحوار³.

¹ الإباضية: أصحاب عبد الله بن إباح، يقولون بأن كفار هذه الأمة - أي مخالفيهم من هذه الأمة - برآء من الشرك والإيمان، وأنهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين، ولكنهم كفار. وأجازوا شهادتهم، وحرّموا دماءهم في السر، واستحلّوها في العلانية، وصحّحوا منّاكتهم والتوارث منهم، وقالوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض، والذي استحلّوه الخيل والسلاح، فأما الذهب والفضة فإنهم يردونها على أصحابها عند الغنيمة. وقد اختلفت الإباضية فيما بينهم أربع فرق: الحفصية، والحارثية، والبيزيدية، وأصحاب طاعة لا يراد الله بها. (أنظر: البغدادي: الفرق بين الفرق، مرجع سابق، ص 95-96).

² ابن عذارى، أحمد بن محمد (بعد 712هـ): البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقق: بشار عواد معروف، محمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1، 2013م، ج 1، ص 207.

³ أنظر: توفيق مزاري: أثر المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي حتى القرن السادس الهجري، مرجع سابق، ص 139.

ولقد خاض كثير من الباحثين والمؤرخين حول من حاز قصب السبق في إدخال الكلام الأشعريّ إلى الغرب الإسلامي، وقد ذكرت المصادر التاريخية أنّ الفكر الأشعريّ كان ظهوره في عهد الموحّدين (1121-1269م) على يد المهدي بن تومرت¹، بعد أن كان المغاربة على مذهب السلف؛ يقول الناصري في كتابه "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، مُبيّنًا ذلك: "وأما حالهم -أي المغاربة- في الأصول والاعتقادات، فبعد أن طهّهم الله تعالى من نزعة الخارجيّة أولاً والرافضيّة ثانياً، أقاموا على مذهب أهل السنّة والجماعة مُقلدين للجُمهور من السلف رضي الله عنهم في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرّض له بالتأويل² مع التنزيه عن الظاهر، وهو والله أحسن المذاهب وأسلمها. واستمرّ الحال على ذلك مُدّة إلى أن ظهر محمّد بن تومرت مهدي الموحّدين في صدرِ المائة السادسة الهجرية، فَرَحَلَ إلى المشرق وأخذ عن علمائه مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعريّ وعن مُتأخري أصحابه، من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنّة وتخريجها على ما

¹ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت البربري المصمودي الهرغي (485-524هـ)، رحل من السوس الأقصى شاباً إلى المشرق في شهور سنة 501هـ في طلب العلم، فحج وأقام بمكة مُدّة، وقيل أنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام ترمذه. واجتمع بالكيا الهراسي والطرطوشي وغيرهم، وكان أماراً بالمعروف، نَهَى عن المنكر، وكان لهُجاً بعلم الكلام، وله فصاحة في العربية والبربرية، ألّف عقيدة لقبها بـ"المرشدة"، وحمل عليها أتباعه، وسَمَّاهم الموحدين، ونبز من خالف المرشدة بالتجسيم، وأباح دمه. وكان جُلّ ما يدعُو إليه، الاعتقادُ على رأي الأشعري. ولم يفتح شيئاً من المدائن، وإنّما قرّر القواعد، ومَهَّد، وبَعَثَهُ الموت، وافتتح بعده البلادَ عبد المؤمن. (أنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج19، ص539. والمراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تصحيح وضبط: محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، مطبعة الإستقامة، القاهرة، ط1، 1949م، ص178. وابن خلكان: وفيات الأعيان، مرجع سابق، ج5، ص45 وما بعدها).

² التأويل مشتق من الأول وهو في اللغة الترجيع، تقول أوله إليه رجعه. وفي اصطلاح المتكلمين: نقل الكلام عن موضعه إلى ما يحتاج في إثباته إلى دليل، وقال ابن الأثير: هو نقل اللفظ عن موضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ، وينقل الزبيدي عن السبكي في جمع الجوامع قوله: إنّ التأويل هو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حمل لدليل صحيح، أو لما يظن دليلاً ففاسد، أو لا شيء فلعب لا تأويل. (أنظر: الأزهرى، محمد بن أحمد (370هـ): تهذيب اللغة، تحقيق: إبراهيم الإيباري، دار الكتاب العربي، 1967م، ج15، ص458، هذا في اللغة، أما في اصطلاح الفقهاء والمتكلمين فهو لا يختلف عنه في اللغة، فهو كما قال ابن الكمال: صرف الآية عن معناها الظاهر إلى معنى تحتمله إذا كان هذا المعنى الذي تصرف إليه الآية موافقاً للكتاب والسنّة، أو هو تفسير الكتب المقدسة تفسيراً رمزياً أو مجازياً يكشف عن معانيها الخفية). أنظر: الزبيدي، محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وزارة الإعلام، الكويت، 1993م، ج28، ص33. وصليبا، جورج: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، لا.ط، 1982م، ج1، ص234.

عُرِفَ في كلام العرب من فُنُونِ مُجَازَاتِهَا وَضُرُوبِ بِلَاغَاتِهَا، مِمَّا يُوَافِقُ عَلَيْهِ النَّقْلُ وَالشَّرْعُ، وَيَسْلَمُهُ الْعَقْلُ وَالطَّبْعُ. ثُمَّ عَادَ مُحَمَّدُ بْنُ تَوَمَرْتٍ إِلَى الْمَغْرِبِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى سُلُوكِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَجَزَمَ بِتَضْلِيلِ مَنْ خَالَفَهَا بَلْ بِتَكْفِيرِهِ وَسَمَّى أَتْبَاعَهُ الْمُوَحِّدِينَ، تَعْرِيزًا بِأَنَّ مَنْ خَالَفَ طَرِيقَتَهُ لَيْسَ بِمُوحَّدٍ، وَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتُ أَقْبَلَ عُلَمَاءُ الْمَغْرِبِ عَلَى اعْتِنَاقِ مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّ وَتَقْرِيرِهِ وَتَحْرِيرِهِ دَرْسًا وَتَأْلِيفًا¹.

وَالنَّاصِرِيُّ فِي هَذَا الْقَوْلِ، كَأَنَّهُ يَشِيرُ إِلَى ابْنِ خَلْدُونٍ فِي مُقَدِّمَتِهِ حَيْثُ يَقُولُ: "وَانطَوَى هَذَا الْإِمَامُ رَاجِعًا إِلَى الْمَغْرِبِ بَحْرًا مُتَفَجِّرًا مِنَ الْعِلْمِ، وَشِهَابًا وَارِيًا مِنَ الدِّينِ، وَكَانَ قَدْ لَقِيَ بِالْمَشْرِقِ أُمَّةَ الْأَشْعَرِيَّةِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَاسْتَحْسَنَ طَرِيقَتَهُمْ فِي الْإِنْتِصَارِ لِلْعَقَائِدِ السَّلَفِيَّةِ وَالذَّبِّ عَنْهَا، بِالْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ الدَّامِغَةِ فِي صَدَرِ أَهْلِ الْبِدْعَةِ، وَذَهَبَ إِلَى رَأْيِهِمْ فِي تَأْوِيلِ الْمُشَابِهَةِ مِنَ الْآيِ وَالْأَحَادِيثِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ بِمَعَزِلٍ عَنْ أَتْبَاعِهِمْ فِي التَّأْوِيلِ وَالْأَخْذِ بِرَأْيِهِمْ فِيهِ، اقْتِدَاءً بِالسَّلَفِ فِي تَرْكِ التَّأْوِيلِ وَإِقْرَارِ الْمُشَابِهَاتِ كَمَا جَاءَتْ، فَفُطِنَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ فِي ذَلِكَ وَحَمَلَهُمْ عَلَى الْقَوْلِ بِالتَّأْوِيلِ وَالْأَخْذِ بِمَذَاهِبِ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي كَافَّةِ الْعَقَائِدِ، وَأَعْلَنَ بِإِمَامَتِهِمْ وَوُجُوبِ تَقْلِيدِهِمْ وَأَلَّفَ الْعَقَائِدَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِثْلَ الْمُرْشِدَةِ² فِي التَّوْحِيدِ"³.

وَيُؤَكِّدُ عَبْدُ اللَّهِ كُنُونُ هَذَا الْأَمْرِ كَذَلِكَ، فَيَقُولُ: " ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْمَغْرِبِ لِعَهْدِ الْمَهْدِيِّ وَرَجُوعِهِ مِنْ رَحْلَتِهِ الْمَشْرِقِيَّةِ، كَانُوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ فِي الْإِعْتِقَادِ بِظَوَاهِرِ التَّصَوُّصِ وَالصِّفَاتِ الْوَارِدَةِ

¹ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج1، ص196.

1. ² هي رسالة وجيزة لا تتجاوز الصفحتين، وسميت كذلك لأن افتتاحها كان بعبارة "اعلم أرشدنا الله وإياك..." فصار هذا الافتتاح علما عليها، وقد أطلق عليها هذا الاسم في عهد متأخر عن عهد المهدي وعبد المؤمن، ذلك لأن عبد المؤمن لما أصدر مرسومًا يأمر فيه بأن يحفظ العامة هذه العقيدة ويتفهموها، عرفها بقوله: "العقيدة التي أولها: اعلم أرشدنا الله وإياك". هذه الرسالة فيها ذكر عقيدة أهل السنة والجماعة مختصرة جامعة... موضححة لعقيدة الأشاعرة. وقد اهتم بتدريسها الإمام فخر الدين بن عساكر المتوفى سنة 620هـ، وأثنى عليها الحافظ صلاح الدين العلائي المتوفى سنة 761هـ وسمّاها (العقيدة المرشدة) وقال عنها: "وهذه العقيدة المرشدة جرى قائلها على المنهاج القويم، والعقد المستقيم، وأصاب فيما نزه به العلي العظيم"، نقل ذلك الإمام تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ووافقه في تسميتها بالعقيدة المرشدة وساقها بكاملها، وقال في آخرها ما نصّه: "هذا آخر العقيدة، وليس فيها ما ينكره سني". وعلى هذه العقيدة سار الشيخ الفقيه المحدث عبد الله الهرري المعروف بالحبشي في جميع مؤلفاته في العقيدة. (انظر: النجار: عبد المجيد: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه، وثورته الفكرية والاجتماعية وآثره بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ - 1983م، مرجع سابق، ص447-448. والقاضي، سمير: مرشد الحائر في حل ألفاظ رسالة ابن عساكر، دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999م، ص5-6).

³ ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون، المقدمة، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001م، ج6، ص302.

فيها من غير تأويل ولا صرف لها عن مدلولها اللغوي، مع التنزيه للخالق عز وجل وذاته العلية عن أن تشبه الذوات وتتصف بصفات المخلوقين.. ولكن هذا المذهب لم ينتشر ويسد على مذهب السلف، إلا بعد قيام المهدي بدعوته التي جند لها جنوده، وحمل الناس عليها بدون رفق ولا هوادة، وساعده على ذلك أنه كان قد انتشر في المشرق وأصبح المذهب السائد الذي هزم مذهب أهل الاعتزال على ما كان له من التمكّن والسلطان"¹.

ولقد تركز هذا الانقلاب العقائدي في عهد عبد المؤمن الموحيدي - وريث وتلميذ ابن تومرت - وكان من آثار ذلك أن ازدهر علم التوحيد/الكلام على المذهب الأشعري في العصر الموحيدي، وعملوا بكل حرص على نشر العقيدة الأشعرية بالمغرب العربي والأندلس، فاحتجبت السلفية بسقوط دولة المرابطين، والعلماء على دين ملوكهم².

إلا أن المستقرى الجيد للمصنفات الكلامية التي ألقت في هذا الشأن، يتأكد من وجود الفكر الأشعري أيضاً في منتصف القرن الخامس الهجري زمن المرابطين (462-541هـ/1056-1147م)، وبالضبط في مراكش العاصمة، قبل أن ينتشر في أماكن أخرى من المغرب العربي؛ بدليل منشأ ومسكن ووفاة أبي الحسن المرادي الحضرمي (ت 489هـ)³ الذي عاش ومات بين مراكش وأغمات والصحراء بالمغرب. وقد جاء في كتاب "التشوف" لابن الزيات التادلي في ترجمته لأبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير (ت 520هـ)⁴ تلميذ المرادي، الذي قال أن الحسن المرادي الحضرمي: "هو أول من أدخل

¹ كنون، عبد الله: جولات في الفكر الإسلامي، مطبعة الشويخ، تطوان، المغرب، 1980م، ص 88-90.

² إدريس طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال كتبه وشروحه، مرجع سابق، ص 32.

³ هو أبو بكر المرادي الحضرمي (ت 489هـ/1094م)، أصله من القيروان، وارتحل إلى الأندلس، وأخذ عن أهلها، كان رجلاً نبهاً، عالماً بالفقه، وإماماً في أصول الدين، له نخوض في علم الإعتقادات، انتقل إلى أغمات حيث ألحق بحاشية أمير المرابطين أبي بكر بن عمر اللمتوني (ت 580هـ)، حيث استعمله على القضاء حتى وفاته. وله مؤلف مطبوع بعنوان "عقيدة أبي بكر المرادي الحضرمي". (أنظر: ابن الزيات، يوسف بن يحيى التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، تحقق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط 2، 1997م، ص 106. والذهبي، شمس الدين (ت 748هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1994م، ج 33، ص 313).

⁴ أصله من سرقسطة وسكن مراكش وبها توفي سنة 520هـ. وكان نحويًا أصوليًا إمامًا. خلف أبو الحجاج المرادي في علوم الاعتقادات. وكان يختلف من مراكش إلى أغمات. له نظم في العقيدة الأشعرية: التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد. (أنظر: السملالي، العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، راجعه: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1998م، ج 10، ص 309. وابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص 105).

غُلُومَ الاعتقاداتِ إلى المغربِ الأقصى¹. يقولُ جمال البختي مُحَقِّقُ كتاب: " عقيدةُ أبي بكر المرادي الحضرمي ": " إنَّ نصَّ "عقيدة المرادي" سيفتحُ أمامَ المختصِّين بابًا واسعًا لمراجعةِ الكثيرِ من الأحكامِ والمواقفِ في خصوصِ تاريخِ دُخُولِ المذهبِ الأشعريِّ إلى المغرب، وتتبعُ مسارَ تطوُّره"².

ويقولُ أيضًا صاحبُ كتاب: الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام: " كانَ مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ المرادي، رَجُلًا نَبِيهًا عَالِمًا وَإِمَامًا فِي أَصُولِ الدِّينِ، لَهُ تَهَوُّضٌ فِي عِلْمِ الاعتقاداتِ والأُصُولِ، ومُشاركةٌ فِي الأدبِ وَقَرَضِ الشَّعْرِ، يَمْتَلِكُ خَطًّا وَافِرًا فِي البَلاغَةِ والفَصَاحَةِ، دَخَلَ قُرْطَبَةَ سَنَةِ 487هـ. اختلفَ إلى أَبِي مَرْوَانَ بنِ سِرَاجٍ فِي سَمَاعِ التَّبَصُّرَةِ لِمَكِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَحَدَّثَ بِكِتَابِ فَقهِ اللُّغَةِ لِأَبِي منصورِ الثَّعالبي، وَلَهُ فِي أَصُولِ الدِّينِ تَوَالِيفٌ حَسَنَةٌ مُفِيدَةٌ. وَمِنْ أَصْحَابِهِ أَيْضًا يَوْسُفُ الكَلْبِيِّ الضَّرِيرِ دَفِينٌ مَرَاكَشَ، أَخَذَ عَنْهُ عِلْمَ الكَلَامِ"³.

بلْ إِذَا تَتَبَعْنَا بَعْضَ الشَّخْصِيَّاتِ وَآحَادِ الدُّعَاةِ لِلْمَذْهَبِ الأشعري، وَخَاصَّةً بِمَدِينَةِ القَيْرَوَانِ الَّتِي شَكَّلَتْ المَرْكَزَ الأَسَاسِيَّ لِتَقْبُلِ الأشعريةَ ونَشَرِهَا قَبْلَ مُنْتَصَفِ القَرْنِ الخَامِسِ، ذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ قَبْلَ تَخْرِيبِهَا مِنْ قَبْلِ الهِلَالِيِّينَ سَنَةَ 444هـ، نُقْطَةً إِشْعَاعٍ عِلْمِيٍّ عَلَى كَافَّةِ المَغْرِبِ والأَنْدَلُسِ، إِلَيْهَا كَانَ الطَّلَبَةُ يَشْدُونِ الرِّحَالَ لِتَلْقِيَ العِلْمِ سِوَاءَ مَا أَنْتَجَتْهُ عِلْمَاؤُهَا، أَوْ مَا اسْتَوْرَدُوهُ مِنَ المَشْرِقِ، وَمِنْهَا يَعودُونَ بِمُؤَلَّفَاتِ أَهْلِهَا، فَتُدْرَسُ فِي أَنْحَاءِ الأَنْدَلُسِ والمَغْرِبِ⁴، فَتَجِدُ أَنَّ بِدَايَاتِ المَذْهَبِ الأشعريِّ كَانَتْ مَعَ هَؤُلَاءِ الدُّعَاةِ الأوائلِ للأشعريةَ بالمغرب، نَذَرُ مِنْهُمْ:

¹ ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص106.

² احميد، محمد: الفكر الأشعري المغربي بين كتابي الإبانة واللمع، دار إي-كتب، لندن، ط1، 2018م، ص39. نقلا عن: البختي، جمال علال: عقيدة أبي بكر المرادي، ص11.

³ السملالي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مرجع سابق، ج4، ص12.

⁴ النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه، مرجع سابق، ص433.

فأولُ بذرة للأشعرية بالقيروان هي تلك التي حملها إبراهيم بن عبد الله الزبيدي المعروف بالقلانسي (ت 359هـ)¹، وكذا أبي ميمونة درّاس بن إسماعيل الفاسي (ت 357هـ)²، فالأول كان من مشايخ الأشعرية - كما ذكر البرزلي (ت 844هـ)³ - ونسب إليه بعض آراء الأشعري التي أدخلها إلى القيروان⁴، أمّا الثاني فقد رحل إلى المشرق والتقى بأئمة الأشعرية وأخذ عنهم، ثمّ رحل إلى القيروان حيث درس بها ثمّ استقرّ بفاس ونشر بها علمه⁵.

وإضافةً إلى هذين الداعيين، نذكرُ علماً مُهمّاً من أعلام القيروان وهو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ)، والذي كان قد ارتحل إلى المشرق، وأخذ العلم عن بعض الأشاعرة مثل أبي ميمونة درّاس بن إسماعيل الفاسي - سالف الذكر -، وأبي بكر أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن⁶، كما

¹ عالم بالكلام والرد على المخالفين، له في ذلك تأليف حسنة وله كتاب في الإمامة والرد على الرافضة، سمع من فرات بن محمد وحامس بن مروان والمغامي ومحمد بن عباد السوسي وخلق كثير. روى عنه إبراهيم بن سعيد وأبو جعفر الداودي وغيرهما، أمّحن على يد أبي القاسم بن عبد الله الرافضي، ضربه سبعمائة سوط وحبسه أربعة أشهر بسبب تأليفه كتاباً في الإمامة، وقيل بسبب كتاب الإمامة الذي ألفه ابن سحنون. توفي رحمه الله تعالى سنة 359هـ. (أنظر: ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، مرجع سابق، ج 1، ص 268).

² أبو ميمونة، من أهل فاس، وسمي دراس لكثرة درسه، وهو ممن أدخل مذهب مالك المغرب، كان فقيها حافظاً للرأي، على مذهب مالك. له رحلة حج فيها ولقي بالإسكندرية علي بن عبد الله بن أبي مطر، أخذ عن أبي بكر بن اللباد بإفريقية، وبالأندلس من شيوخها، وسمع منه أبو الحسن بن القابسي الكفيف، وكان يقرأ عليه بالقيروان، ودخل الأندلس وتكرر فيها طالبا ومجاهدا، توفي سنة 357هـ بفاس ودفن عند باب الحيزين. (أنظر: التنبكي، أحمد بابا (ت 1036هـ): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، ط 2، 2000م، ص 175. وابن الفريسي (ت 403هـ): تاريخ علماء الأندلس، تحقق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2، 1989م، ج 1، ص 264. وابن القاضي: جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1974م، ج 1، ص 194).

³ هو أحمد بن محمد بن المعتل البلوي القيرواني، من أعلام المالكية في العصر الحفصي، ويلقب بشيخ الإسلام، الشهير بالبرزلي، كان فقيها مشاركا في أنواع من العلوم، قرأ على الفقيه الخطيب محمد بن مرزوق التلمساني، وقرأ على الفقيه المحدث الراوية المسن الصالح أبي الحسن البطرني، وعن ماضي بن سلطان، وقرأ على الإمام ابن عرفة، ولازمه نحو أربعين سنة، رحل إلى القاهرة وصار إماما بالزيتونة بعد عودته وأفتى ووعظ، توفي بتونس سنة 844هـ، من تصانيفه: الحاوي في الفتاوى ويعرف بنوازل البرزلي. (أنظر: محفوظ، محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1994م، ج 1، ص 87).

⁴ النجار، عبد المجيد: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه، مرجع سابق، ص 434. نقلا عن البرزلي: الجامع في مسائل الأحكام، ج 1، ص 91.

⁵ التهامي، إبراهيم: الأشعرية في المغرب، دار قرطبة، الجزائر، ط 1، 2006م، ص 12.

⁶ درس هذا العالم المكي الأصل والقيرواني الموطن، بالمشرق على ابن مجاهد، التلميذ المباشر لأبي الحسن الأشعري، وعندما رجع إلى المغرب قام بنشر الأفكار الأشعرية التي لقنها فقرأ عليه القابسي، وابن أبي زيد وغيرهما من أبناء القيروان، وعلمهم الجدل والنقاش على الطريقة الأشعرية. (أنظر: الهادي، إدريس: الدولة الصنهاجية، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1992م، ج 2، ص 316).

كَانَتْ لَهُ صِلَةٌ وَثِيقَةٌ مَعَ تَلْمِيزِ الْأَشْعَرِيِّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ مُجَاهِدٍ (ت 370هـ)¹؛ وَكَانَتْ بَيْنَهُمَا مُرَاسَلَاتٌ وَتَبَادُلُ كُتُبٍ².

وَقَدْ أَلَّفَ بَنُ أَبِي زَيْدٍ الْقَيَّرَوَانِي رِسَالَةً فِي الدِّفَاعِ عَنِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ، وَبَعَثَ بِهَا إِلَى أَحَدِ أَعْيَانِ الْمُعْتَزَلَةِ بِالْمِشْرِقِ: عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبَغْدَادِيِّ الْمُعْتَزَلِي، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ أَبَا الْحَسَنِ وَنَسَبَهُ إِلَى مَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ مِمَّا جَرَتْ عَادَةُ الْمُعْتَزَلَةِ بِاسْتِعْمَالِ مِثْلِهِ فِي حَقِّهِ، وَحَطَّ مِنْ شَأْنِهِ، وَمِمَّا قَالَهُ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ فِي حَقِّ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ: "هُوَ رَجُلٌ مَشْهُورٌ أَنَّهُ يَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ وَعَلَى الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَهْمِيَّةِ مُتَمَسِّكٌ بِالسُّنَنِ"³، كَمَا أَلَّفَ كِتَابَهُ "الرِّسَالَةَ"، وَالَّتِي وَإِنْ كَانَتْ مُقَدِّمَتُهَا الْعَقْدِيَّةُ لَا تَخْرُجُ بِصِفَةِ عَامَّةٍ عَمَّا قَرَّرَهُ السَّلَفُ فِي مَسَائِلِ الْعَقِيدَةِ، إِلَّا أَنَّهَُا حَمَلَتْ فِي بَعْضِ مَسَائِلِهَا النَّفْسَ الْأَشْعَرِيَّ، مِثْلَ الْقَوْلِ بِأَنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ بِذَاتِهِ وَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِعِلْمِهِ⁴.

وَمِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ ذَاتِ الْأَثَرِ، وَالَّتِي كَانَ لَهَا الدَّوْرُ الْأَكْبَرُ فِي نَشْرِ الْمَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّ بِالْمَغْرِبِ، وَكَانَتْ قَدْ بَرَزَتْ أَوَاخِرَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْمَهْجَرِيِّ، وَيَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ بِأَبِي الْحَسَنِ الْقَابِسِيِّ الْمَعَاوِي (ت 403هـ)⁵،

¹ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ مُجَاهِدَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الطَّائِي، الْمُتَكَلِّمُ، صَاحِبُ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، سَكَنَ بَبْغَدَادَ وَعَلَيْهِ دَرَسُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الطَّيِّبِ الْكَلَامِ، وَلَهُ كُتُبٌ حَسَنَاتٌ فِي الْأَصُولِ دَخَلَتْ إِلَى الْمَغْرِبِ، مِثْلَ كِتَابِ: "رِسَالَةٍ فِيَمَا التَّمَسُّهُ فَقَهَاءُ أَهْلِ الثَّغَرِ مِنْ شَرْحِ أَصُولِ مَذَاهِبِ الْمُتَعَبِّدِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَةِ"، وَكِتَابُ "الرِّسَالَةِ فِي عَقُودِ أَهْلِ السُّنَةِ". كَانَ ابْنُ مُجَاهِدٍ حَسَنَ السِّيَرَةِ حَسَنَ التَّنْدِينِ جَمِيلَ الطَّرِيقَةِ. (أَنْظَرُ: ابْنُ عَسَاكِرَ: تَبْيِينُ كَذِبِ الْمُفْتَرِيِّ، اِعْتِنَاءُ: الدَّمَشَقِيُّ، مَطْبَعَةُ التَّوْفِيقِ، دِمَشَقُ، 1347هـ، ص 177. وَالْقَاضِي عِيَاضُ: تَرْتِيبُ الْمَدَارِكِ، مَرْجِعُ سَابِقٍ، ج 6، ص 196).

² بَعَثَ أَبُو مُجَاهِدٍ بِرِسَالَةٍ إِلَى ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْقَيَّرَوَانِي يُطَلِّبُ مِنْهُ إِسْرَافَ نَسْخٍ مِنْ كِتَابِيهِ "الرِّسَالَةَ" وَ"النُّوَادِرَ وَالزِّيَادَاتِ". (أَنْظَرُ: الْقَاضِي عِيَاضُ: تَرْتِيبُ الْمَدَارِكِ وَتَقْرِيبُ الْمَسَالِكِ لِمَعْرِفَةِ رِجَالِ مَالِكٍ، مَرْجِعُ سَابِقٍ، ج 6، ص 197-198).

³ نَقْلًا عَنْ: ابْنِ عَسَاكِرَ: تَبْيِينُ كَذِبِ الْمُفْتَرِيِّ، مَرْجِعُ سَابِقٍ، ص 123.

⁴ أَنْظَرُ: النُّجَارَ، عَبْدِ الْمُجِيدِ: الْمَهْدِيُّ بْنُ تَوَمَرْتِ حَيَاتِهِ وَآرَؤُهُ، مَرْجِعُ سَابِقٍ، ص 434. وَالْأَبِي الْأَزْهَرِيُّ، صَالِحُ عَبْدِ السَّمِيعِ: الثَّمَرُ الدَّائِي شَرْحُ رِسَالَةِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْقَيَّرَوَانِي، الْمَكْتَبَةُ الثَّقَافِيَّةُ، بَيْرُوتُ، ص 10.

⁵ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ خَلْفِ الْمَعَاوِي، الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْقَابِسِيِّ، سَمِعَ مِنْ رِجَالِ إِفْرِيقِيَّةٍ مِثْلَ أَبِي الْعَبَّاسِ الْإِبْرَانِي، وَأَبِي الْحَسَنِ بْنِ مَسْرُورِ الدَّبَاغِ، وَدَرَّاسَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الْفَاسِي، وَرَحَلَ فَحَجَّ وَتَمَعَّ بِمَصْرَ وَمَكَّةَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَكَانَ عَالِمًا بِالْحَدِيثِ وَعِلْمِهِ وَرِجَالِهِ، فَقِيهًا أَصُولِيًّا مُتَكَلِّمًا، وَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ الْمُتَقِينَ الزَّاهِدِينَ الْخَائِفِينَ الْوَرَعِينَ، الْمَشْتَهَرِينَ بِإِجَابَةِ الدَّعْوَةِ، وَكَانَ أَعْمَى لَا يَرَى شَيْئًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّاسِ كُتُبًا وَأَجُودَهَا ضَبْطًا وَتَقْيِيدًا. يُضْبِطُ كُتُبَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثِقَاتٍ أَصْحَابِهِ. مِنْ تَوَالِيفِهِ: الْمَهْذَبُ فِي الْفَقْهِ، وَأَحْكَامُ الدِّيَانَةِ. (أَنْظَرُ: الْقَاضِي عِيَاضُ: تَرْتِيبُ الْمَدَارِكِ، مَرْجِعُ سَابِقٍ، ج 2، ص 223 وَمَا بَعْدَهَا).

وكذا تلميذه أبو عمران الفاسي (ت 430هـ)¹، فالأول كان قد خرج من الأندلس في اتجاه المشرق طلباً للعلم سنة 353هـ، فالتقى بالأشاعرة وتأثر بهم تأثراً واضحاً، انعكس ذلك في الدفاع عن مؤسس المذهب أبي الحسن الأشعري²، والذي كان يعتبره "واحداً من جملة القائمين بنصرة الحق، ما سمعنا من أهل الإنصاف من يؤخّره عن رتبته ذلك، ولا من يؤثر عليه في عصره غيره"³. وقد كان شديد الصلة بتلاميذ الباقلاني، وذكر ابن عساكر أنه كان كثير الثناء على الأشعري، حتى أنه ألف رسالة في فضله وبيان إمامته⁴.

ومما عثر عليه من آرائه الأشعرية⁵ المبنوثة في كتبه منها: "المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين" ما ذهب إليه من: "أن الإيمان هو التصديق بالقلب دون أن يكون العمل بالجوارح عنصراً منه"⁶.

وأما الثاني فقد رحل إلى بغداد سنة 399هـ، وأخذ العقيدة الأشعرية عن الأصيلي بقرطبة⁷، وتلقى أصول المذهب عن القاضي الباقلاني الأشعري ببغداد، والذي أعجب بذكائه وحفظه⁸، ثم انصرف إلى

¹ موسى بن عيسى بن يحيى (ابن أبي حاج) الفاسي الغفجومي (قبيلة بربرية) الزناتي، نزيل القيروان، أصله من فاس، العلامة الفقيه الأصولي، أحد أئمة المغرب الكبار، له يد في قيام دولة المرابطين. تفقه بالمغرب والمشرق، حج حجرات كثيرة ودخل بغداد سنة 399هـ، وحضر مجلس أبي بكر الباقلاني القاضي وسمع منه ومن غيره. شهد له شيخه حبر الأصول، بقوة حفظه، وسمو فهمه. وإضافة إلى ذلك فقد جمع حفظ الفقه إلى حفظ السنن، ومعرفة معانيه، وقراءة القرآن بالسبع، ومعرفة الرجال، جرحهم وتعديلهم. (انظر: عبد الرحمن بن محمد (ت 696هـ): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، مكتبة الخانجي، مصر، 1998م، ج 3، ص 160. والذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 17، ص 445).

² سئل ابن القابسي من بعض أهل تونس عن الإمام الأشعري فقال: واعلموا أن أبا الحسن الأشعري رضي الله عنه لم يأت من هذا الأمر يعني الكلام إلا ما أراد به إيضاح السنن والتثبيت عليها ودفع الشبه عنها فهمه من فهمه بفضل الله، وخفي عن خفي بقسم الله... لقد مات الأشعري يوم مات وأهل السنة باكون عليه وأهل البدع مستريحون منه. (ابن عساكر: تبين كذب المفتري، مرجع سابق، ص 122-123).

³ ابن عساكر: تبين كذب المفتري، مرجع سابق، ص 123.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص 122.

⁵ النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه، مرجع سابق، ص 435.

⁶ القابسي، أبو الحسن علي: الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق: أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط 1، 1986م، ص 60 وما بعدها.

⁷ طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال: كتبه وشروحه، مرجع سابق، ص 37.

⁸ القاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ص 246.

القيروان فأقرأ بها القرآن مُدَّة ثمَّ دَرَسَ الفقهَ واسْتَمَعَ الحديثَ واشتَهَرَ بها الشُّهرةُ التامةُ، وَرَحَلَتْ إِلَيْهِ طلبةُ العلمِ مِنَ الْبِلَادِ وظَهَرَتْ إمامتهُ¹. يَقُولُ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ: "دَرَسَ عِلْمَ الْعَقَلِيَّاتِ عَنِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقَلَانِي فِي سَنَةِ 399 هـ و 400 هـ"²، وَيَقُولُ هُوَ عَنْ لِقَائِهِ مَعَ الْبَاقَلَانِي: "رَحَلْتُ إِلَى بَغْدَادَ فَلَمَّا حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقَلَانِي وَرَأَيْتُ كَلَامَهُ فِي الْأُصُولِ وَالْفَقْهِ وَالْمُؤَالَفِ وَالْمُخَالَفِ حَقَّرْتُ نَفْسِي، وَقُلْتُ: لَا أَعْلَمُ مِنَ الْعِلْمِ شَيْئًا وَرَجَعْتُ عَنْهُ كَالْمَبْتَدِئِ"³.

لَقَدْ كَانَ لظُهُورِ الْبَاقَلَانِي (ت 403 هـ) فِي الْمَشْرِقِ كَحَامِلٍ لِلوَاءِ الْأَشْعَرِيَّةِ، أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي نَشْرِ الْمَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّ بِالْمَغْرِبِ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ إِلَى جَانِبِ أَشْعَرِيَّتِهِ فِي الْأُصُولِ مَالِكِيًّا فِي الْفُرُوعِ، لِذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ طَلِبَةُ الْعِلْمِ مِنَ الْمَغْرِبِ يَأْخُذُونَ عَنْهُ الْمَذْهَبَ الْمَالِكِيَّ وَالطَّرِيقَةَ الْأَشْعَرِيَّةَ فِي آنٍ وَاحِدٍ⁴.

وَمِنَ التَّلَامِيذِ الَّذِينَ أُرْسَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الْبَاقَلَانِي إِلَى الْمَغْرِبِ وَكَانَ لَهُمُ الدَّورُ الْكَبِيرُ فِي إِزْسَاءِ الْمَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّ، نَذَكُرُ: أَبَا طَاهِرٍ الْبَغْدَادِي النَّاسِكَ الْوَاعِظِ (ت 442 هـ)، وَكَانَ أَشْعَرِيًّا الْعَقِيدَةَ⁵، وَكَانَ عَالِمًا مُتَقَنَّاً لِعِلْمِ الْكَلَامِ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا شَيْخًا كَبِيرًا مُنْقَطِعًا فِي طَرَفِ الْبَلَدِ بِالْقَيْرَوَانِ، حَسَنُ الْخَطِّ مَلِيحُ اللَّفْظِ، جَمِيلُ الشَّيْبَةِ غَزِيرُ الدَّمْعَةِ، كَانَ يَعْظُ فِي مُؤَخَّرِ الْجَامِعِ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْقَيْرَوَانِ عَالِمٌ مَذْكُورٌ وَهُوَ عَالِمٌ بَعْلِمِ الْأُصُولِ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ عَنْهُ، كَمُحَمَّدِ بْنِ سَحْنُونٍ وَابْنِ الْحَدَادِ وَلَوْلَاهُ لَضَاعَ الْعِلْمُ بِالْمَغْرِبِ. وَقَالَ عَنْهُ أَبُو عِمْرَانَ الْفَاسِي: "لَوْ كَانَ الْكَلَامُ طِيلَسَانًا مَا تَطِيلَسَ بِهِ إِلَّا أَبُو طَاهِرٍ الْبَغْدَادِي"⁶. وَأَمَّا الرَّجُلُ الثَّانِي الَّذِي بَعَثَهُ الْبَاقَلَانِيُّ إِلَى الْمَغْرِبِ فَهُوَ: الْحُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَاتِمِ الْأَذْرِيِّ (ت 423 هـ)⁷.

¹ الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مرجع سابق، ج 3، ص 160.

² الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 17، ص 545.

³ القاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج 7، ص 47.

⁴ النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه، مرجع سابق، ص 435.

⁵ طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال: كتبه وشروحه، مرجع سابق، ص 37.

⁶ ابن عساكر: تبين كذب المفتري، مرجع سابق، ص 121-122..

⁷ الحسين بن حاتم، أبو عبد الله الأذري (نسبة إلى أذربيجان) الأصولي المتكلم الأشعري، الواعظ، صاحب ابن الباقلاني. بعثه القاضي أبو بكر كي يعقد حلقة بجامع دمشق يرد فيها على الحشوية، فلما سمع الشيوخ الدمشقيون كلامه في التوحيد خرجوا وهم يقولون: أحد أحد، فلما خرج الأذري بعد ذلك عن دمشق ونفذ إلى الغرب فأقام به مدة إلى أن أدركه أجله هناك. (أنظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، تحق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 2003م، ج 9، ص 600. وابن عساكر، علي بن الحسن الشافعي (571هـ): تاريخ مدينة دمشق، تحق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995م، ج 14، ص 49. ومحفوظ، محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج 1، ص 42).

الذي دخل القيروان واستوطنها، ويبدو أنه كان أشعرًا خالصًا، بارعًا في المحاجّة والإقناع¹. وكان السبب في وروده القيروان كما يقول ابن عساكر أن: الإمام الباقلاني أرسله إلى دمشق أولاً تلبيةً لرغبة أهلها، فقعد مجلس تذكير في جامع دمشق في حلقة أبي الحسن بن داود² وذكر التوحيد ونزه المعبود ونفى عنه التشبيه والتحديد، فخرج أهل دمشق من مجلسه وهم يقولون: أخذ أخذ. فأقام مدة بدمشق ثم توجه إلى المغرب فنشر العلم بتلك الناحية واستوطن القيروان إلى أن مات³.

ذكر التهامي في كتابه: "الأشعرية في المغرب: دخولها، رجالها، تطورها وموقف الناس منها"، أن [الشيخ الأذري] ألف مؤلفات كثيرة منها: "كتاب في مناقب الباقلاني" ذكره أبو علي السكوني في عيون المناظرات ونقل منه⁴.

وروى عنه عبد الجليل الديباجي القيرواني (كان حيا 478هـ)⁵ كتابه: "اللامع"⁶ في أصول الفقه، وهو مختصر مفيد في معناه⁷ [8].

وقد تأثر بالشيخ الأذري جمع غفير من أهل المغرب، فأخذوا عنه المذهب الأشعري وأذاعوه بالمغرب، نذكر منهم: [أبي عمران الفاسي وأبي بكر عبد الله بن محمد القرشي القيرواني، وعبد الجليل

¹ النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه، مرجع سابق، ص 435-436..

² هو أبو الحسن علي بن داود المقرئ الداراني الدمشقي، إمام مسجد دمشق، كان ثقة مأمونا يذهب إلى مذهب أبي الحسن الأشعري، كان أبوه نصرانيا فأسلم ولم يكن له جد في الإسلام. توفي سنة 402هـ. (أنظر: ابن عساكر: تبين كذب المفتري، مرجع سابق، ص 214-217).

³ ابن عساكر: تبين كذب المفتري، مرجع سابق، ص 216-217.

⁴ السكوني، أبو علي عمر (ت 717هـ): عيون المناظرات، تحق: سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية، 1976م، ص 436-244.

⁵ عبد الجليل بن أبي بكر الربيعي القروي، يعرف بالديباجي وبابن الصابوني ويكنى أبا القاسم. الإمام المتكلم النظار، يروي عن أبي عمران الفاسي وأبي عبد الله الأذري صاحب القاضي أبي بكر. وكان عالما بالأصول، وله فيها تصانيف منها الكتاب المستوعب في أصول الفقه. (أنظر: ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر: التكملة لكتاب الصلة، تحق: عبد السلام المراس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995م، ج 3، ص 133).

⁶ القاضي عياض: الغنية، تحق: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1982م، ص 75.

⁷ محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج 1، ص 45.

⁸ التهامي: الأشعرية في المغرب، مرجع سابق، ص 16.

القيرواني المعروف بالديباجي أو بابن الصابوني¹، فقد صَحِبَ الباقلاني مُدَّةً ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَلَّفَ رِسَالَةً فِي الْإِعْتِقَادَاتِ².

وَمَنْ أَخَذَ عَنْهُ أَيْضًا: الْمُتَكَلِّمُ "الْمُتَعَصِّبُ" لِلْمَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّ ابْنُ أَبِي كُذَيْبَةَ الْقَيْرَوَانِي (ت 512هـ)³، الَّذِي أَخَذَ عَنِ الْأَذْرِيِّ وَرَحَلَ إِلَى بَغْدَادَ، قَالَ عَنْهُ السَّلْفِيُّ: "كَانَ مُشَارًّا إِلَيْهِ فِي الْكَلَامِ، جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَنَابِلَةِ فِتْنٌ وَأَوْذِي غَايَةٌ الْإِيذَاءُ، سَأَلْتُهُ عَنْ مَسْأَلَةِ الْإِسْتِوَاءِ فَقَالَ: أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ لِلْأَشْعَرِيِّ أَنَّهُ يُحْمَلُ عَلَى مَا وَرَدَ وَلَا يُفَسَّرُ"⁴[5].

وَمِنَ الَّذِينَ نَالُوا الْقَدْحَ الْمَعْلَى فِي بَثِّ وَنَشْرِ الْعَقِيدَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ فِي النَّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ، وَالَّذِي كَانَ لَهُ الدَّورُ الْكَبِيرُ فِي تَعْلِيمِ الْمَغَارِبَةِ أُصُولَ هَذَا الْمَذْهَبِ الْعَقْدِيِّ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهِ سَابِقَةٌ عِلْمٌ وَلَا دِرَايَةٌ، وَحَمَلَهُ إِلَيْهِمْ، فَأَخَذَهُ عَنْهُ عُلَمَاءُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ جَمِيعًا: أَبُو ذَرٍّ الْهَرَوِيُّ (ت 434هـ)⁶، فَقَدْ ذَكَرَ الْذَهَبِيُّ، أَنَّ الْهَرَوِيَّ "أَخَذَ الْكَلَامَ وَرَأَى أَبِي الْحَسَنِ عَنِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ بْنِ الطَّيِّبِ، وَبَثَّ ذَلِكَ بِمَكَّةَ، وَحَمَلَهُ عَنْهُ الْمَغَارِبَةُ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَالْأَنْدَلُسِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَتْ عُلَمَاءُ الْمَغْرِبِ لَا يَدْخُلُونَ فِي الْكَلَامِ، بَلْ يُتَقَنُّونَ الْفِقْهَ أَوْ الْحَدِيثَ أَوْ الْعَرَبِيَّةَ، وَلَا يَخُوضُونَ فِي الْمَعْقُولَاتِ"⁷. وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ طَلَبَةُ الْعِلْمِ لَكُونِهِ يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي الْأُصُولِ وَالْمَالِكِيَّةِ فِي الْفُرُوعِ، وَيَتَضَخُّ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مَا نَقَلَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ "عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْمَالِكِيِّ عَنْ أَبِيهِ، مِنْ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ الْهَرَوِيَّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ حَمَلَ

¹ القاضي عياض: الغنية، مرجع سابق، ص 75، 64-76، 89.

² ابن الأبار: تكملة الصلة، مرجع سابق، ج 3، ص 133.

³ العلامة الأصولي، شيخ القراء، أبو عبد الله محمد بن عتيق بن محمد بن هبة الله بن مالك التميمي القيرواني، المعروف بابن أبي كُذَيْبَةَ. درس الكلام بالقيروان على الحسين بن حاتم الأذري صاحب ابن الباقلاني. وسمع من ابن عبد البر بالأندلس، ودخل العراق وأقرأ الكلام بالنظامية. وتصدر لإقراء الأصول، وكان متعصباً لمذهب الأشعري. ودفن عنده، قال ابن الجوزي في "المرآة": وكان يحفظ كتاب سيبويه. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 19، ص 417-418. والصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، تحق واعتناء: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 2000م، ج 4، ص 59).

⁴ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 19، ص 418.

⁵ التهامي: الأشعرية في المغرب، مرجع سابق، ص 16.

⁶ هو أبو ذر عبد الله بن أحمد بن محمد، المعروف بابن السماك، الأنصاري الخراساني الهروي المالكي، الحافظ الإمام المجود، الثقة، راوي الصحيح عن الثلاثة: المشتملي، والحموي، والكشميهني. حدث ببغداد عن بسر بن محمد المزني وغيره، وخرج إلى مكة فسكنها مدة. توفي سنة 434هـ، وكانت ولادته سنة 356هـ. (انظر: ابن عساكر: تبين كذب المفترى، مرجع سابق، ص 255-256. والعسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت 852هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، تحق: عبد العزيز بن باز، 1379هـ، ج 1، ص 6-7).

⁷ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 17، ص 557.

الكلام إلى الحرم وأوّل مَنْ بَنَّه في المغاربة¹. ويؤكدُ الإمام ابن كثير الصّلةَ بينَ المغاربة وبينَ الإمام الهروي، فيقولُ في كتابه "البداية والنهاية": "والمغاربةُ إنّما أخذوا الأشعريةَ عن أبي ذرّ الهروي"². ومَنْ أخذَ عن الهروي منَ المغاربة: مُحَمَّد بن سعدوي (ت 486هـ)³، والإمامُ أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت 474هـ)⁴ الذي لزمه ثلاثَ سنواتٍ كاملةٍ يدرُس عليه الكلام⁵. ت 430هـ⁶، "تظهرُ أشعريتهُ من خلالِ استعماله التّأويلَ في (ومنهم أيضًا أبو عمر الطلمنكي بعضُ التّصوّراتِ العقديّةِ كوصف الله بالمكان وعلاقاتِ الصّفاتِ بالذّاتِ والجسميّة"⁷، ومن ذلك أنّه يقولُ: "أجمَعَ المسلمون من أهلِ السّنة على معنى قولِهِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ﴾".

¹ ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1991م، ج2، ص101.

² التهامي: الأشعرية في المغرب، مرجع سابق، ص19.

³ هو أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي بن بلال القروي، تفقه بالقيروان على جماعة، وحج فسمع بمكة من أبي ذر الهروي وغيره، وسمع بمصر، وكان فقيها حافظا للمسائل، وكان من أهل العلم بالفروع والأصول وكتب الحديث بمكة ومصر والقيروان، وله تاليف منها كتاب تأسي أهل الإيمان بما طرأ على مدينة القيروان، توفي بأغلمات من المغرب الأقصى سنة 485هـ. (أنظر: الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مرجع سابق، ج3، ص198).

⁴ الإمام العلامة، الحافظ، ذو الفنون، القاضي، أبو الوليد، سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي، الأندلسي، القرطبي، الباجي، لازم الحافظ أبا ذر، وأخذ عنه علم الحديث والفقه والكلام، وارتحل إلى بغداد وتفقه عن علمائها هناك. وذهب الموصل، فأقام سنة عند القاضي أبي جعفر السمان المتكلم، صاحب ابن الباقلاني، فبرز في الحديث والفقه والكلام والأصول والأدب. ورجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم غزير، حصّله مع الفقر والتقنع باليسير. له تصانيف منها كتاب "الاستيفاء"، وكتاب "الإيماء في الفقه". (أنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج18، ص535).

⁵ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج18، ص537. والمقرئ التلمساني، أحمد بن محمد: فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، ج2، ص69.

⁶ أحمد بن محمد بن عبد الله الأندلسي المعافري، مفسر ومحدث سلفي، عالم أهل قرطبة، ولد سنة 340هـ ورحل وسمع وكان رأسا في القرآن وعلومه، دأ عناية تامة بالحديث ومعرفة الرجال حافظا للسنن إماما عارفا بأصول الديانة على الإسناد سيفا مجرّدا على أهل الأهواء والبدع قامعا لهم. أول من أدخل علم القراءات إلى الأندلس، له كتاب في الرد على الباطنية، من شيوخه: ابن أبي زيد القيرواني، من تلاميذه: ابن عبد البر وابن حزم. (أنظر: ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مرجع سابق، ج3، ص243. والسيوطي، جلال الدين(911هـ): طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1994م، ص423).

⁷ عبد الكبير، سميرة. حضراوي، عفاف: تطور المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي الإمام السنوسي أنموذجا، مذكرة ماستر في التاريخ الوسيط، جامعة محمد بوضياف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2016/2017، ص15. نقلا عن: يوسف احناش: تطور المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة الديني، الرباط، المملكة المغربية، 2003م، ص56.

أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿[الحديد:4] وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ أَنَّهُ عَلَّمَهُ¹. فالله إِذَا يُوجَدُ فِي كُلِّ مَكَانٍ لَكِنَّهُ يَعْلَمُهُ لَا بِذَاتِهِ، وَهَذَا تَأْوِيلٌ عَلَى طَرِيقَةِ الْأَشَاعِرَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ أَسْمَاهُمُ الطَّلْمَنَكِي فِي النِّصِّ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ².

وَأَمَّا الْعَامِلُ الْأَكْثَرُ تَأْثِيرًا - فِيمَا نَرَى -، وَالَّذِي كَانَ لَهُ دَوْرٌ فَاعِلٌ فِي نَشْرِ الْمَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّ بِالْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ إِضَافَةً إِلَى تِلَامِذَةِ الْبَاقِلَانِي، هُوَ دُخُولُ بَعْضِ مُؤَلِّفَاتِ عُلَمَاءِ الْأَشْعَرِيَّةِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ مِنْهَا: كُتِبَ وَرَسَائِلُ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِي، الَّتِي أَدَّتْ الدَّوْرَ الْوَاضِحَ فِي التَّمَكِينِ لِلْمَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّ؛ وَهَذِهِ الْكُتُبُ رَوَاهَا ابْنُ وَرْدٍ الْمَرِي (ت 510هـ)³ مِنْ طَرِيقِ كَرِيمَةِ الْمَرْوَزِيَّةِ (ت 463هـ)⁴: "رِسَالَةُ الْحَرَّة"⁵، وَهِيَ مَطْبُوعَةٌ بِاسْمِ "الْإِنْصَافِ"⁶، وَالَّتِي كَانَتْ مُتَدَاوِلَةً فِي الْمَغْرِبِ. وَمِنْ الْكُتُبِ أَيْضًا كِتَابُ "التَّمْهِيدِ"، فَقَدْ كَانَ يُدْرَسُهُ الْأَذْرِي⁷. أَيْضًا كُتِبَ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنُ مَجَاهِدٍ، تَلْمِيزُ الْأَشْعَرِيِّ كَكِتَابِ "رِسَالَةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مَجَاهِدٍ فِيمَا التَّمَسُّهُ فَقُهَاءُ أَهْلِ الثَّغْرِ بِيَابِ

¹ الذهبي، شمس الدين: العلو للعلي الغفار، اعتنى به: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط1، 1995م، ص246.

² عبد الكبير، حضراوي: تطور المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص16. نقلا عن يوسف احناش: تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص56.

³ هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن عمر التميمي المعروف بابن ورد، وهو خاله غلبت النسبة إليه، وكان أبوه من أهل القيروان، ورد المرية فأوطنها إلى أن مات وفيها نشأ، فكان ابنها المنظور إليه وحبها المجمع عليه، واشتهر بدقة النظر ولطف الاستنباط، تتلمذ للقاضي أبي عبد الله بن المرابط وغيره، وكان يروي كتب الباقلاني عن طريق كريمة المروزية. توفي في رمضان سنة 510هـ، وكانت ولادته سنة 165هـ. (انظر: ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصديقي، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ط1، 2000م، ص23-24).

⁴ هي العالمة الفاضلة المسندة كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم أم الكرام المروزية المجاورة بمكة، سمعت من أبي الهيثم الكشويهي صحيح البخاري، وسمعت من زاهر بن أحمد السرخسي وغيره. وحديث عنها الخطيب البغدادي وأبو المظفر السمعاني وغيرهما. وكانت تضبط كتابها وتقابل بنسخها، كان لها فهم ونباهة مع الخير والتعب، ماتت بكرا ولم تتزوج أبدا، وقيل أنها بلغت المائة، توفيت سنة 463هـ. (انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج18، ص233-235. وابن العماد، أبي الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت1089هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1979م، ج3، ص314).

⁵ ابن خير، الإشبيلي: الفهرسة، تحقق: بشار عواد معروف، محمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2009م، ص317.

⁶ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به. كتاب مطبوع بتحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثانية عام 2000م.

⁷ أنظر: التهامي: الأشعرية في المغرب، مرجع سابق، ص17-18.

الأبواب من شَرَحَ أصولَ مذاهبِ المتَّبعين للكتاب والسنة¹ وكتابه الموسوم "الرسالة في عقود أهل السنة"².

ومن الكتب التي لاقت رواجًا كبيرًا في المغرب، كتب ابن فورك (ت 406هـ³)، وبخاصة كتابه: "تأويل مشكل الحديث"⁴، وكتابه "اعتقاد الموحدين"⁵، وكان دُخولها إليه عن طريق العلماء المغاربة الذين رَحَلُوا إلى المشرق، فهذه الكتب رواها ابن خير الإشيلي (ت 575هـ) عن أبي جعفر النحوي.

إضافةً إلى كلِّ ما ذكرنا، نُشيرُ هنا إلى تأثير شخصيةٍ أشعريةٍ أخرى وهي: أبو المعالي الجويني (ت 478هـ)، الذي كان له تأثيره الكبير ودوره البارز في نشر الفكر الأشعريِّ بالمغرب، وذلك من خلال تلاميذه الكثيرين⁶، وكتابه التي لاقت رواجًا كبيرًا، حيث اعتنى بها علماء المغرب شرحًا⁷ وتدريسًا، بل ونقداً أحياناً أخرى، وبخاصة كتابه "الإرشاد" وكتابه "البرهان"، وافتتن به المغاربة أيما

¹ الإشيلي: الفهرسة، مرجع سابق، ص 317.

² التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مرجع سابق، ص 252.

³ الإمام العلامة الصالح، شيخ المتكلمين، أبو بكر، محمد بن الحسن بن فُوزك الأصبهاني. سمع مسند الطيالسي من عبد الله بن جعفر بن فارس، وسمع من ابن خرزاذ الأهوازي. حدّث عنه أبو بكر البيهقي، وأبو القاسم القشيري، وأبو بكر بن خلف وآخرون. وصنّف التصانيف الكثيرة. قال الذهبي: كان أشعرياً، رأساً في فن الكلام، أخذ عن أبي الحسن الباهلي صاحب الأشعري، وكان شديد الرد على أصحاب أبي عبد الله بن كرام. توفي مسموماً من طرف خصومه. (أنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 17، ص 214. وابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مرجع سابق، ج 4، ص 272. وطيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال: كتبه وشروحه، مرجع سابق، ص 35).

⁴ الإشيلي: الفهرسة، مرجع سابق، ص 250.

⁵ المرجع نفسه، ص 319.

⁶ ممّن تتلمذ له من أهل المغرب: عبد الملك بن موسى بن أبي حجرة الأندلسي (ت 485هـ)، كانت له رواية عن الجويني، وكذلك محمد بن سعيد الميورقي الذي رحل إلى ميورقة، وتصدّر للفقه والكلام، وله مناظرات مع ابن حزم. ومن التلاميذ: أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري (ت 502هـ) سمع بالأندلس من الباجي، وسمع من الجويني في رحلته إلى المشرق. (أنظر: التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مرجع سابق، ص 263-264).

⁷ ألّف أبو الحسن علي بن محمد الضحاك الفزاري الغرناطي (ت 522هـ) شرحاً للإرشاد سماه: "منهاج السداد في شرح الإرشاد"، وألّف أبو عبد الله محمد بن مسلم القرشي المخزومي ساكن الإسكندرية شرحاً سماه: "المهاد في شرح الإرشاد"... وممن شرح الإرشاد إبراهيم بن يوسف ويعرف بابن المرأة (ت 611هـ)، كما شرحه أيضاً محمد بن أحمد بن عبد الله الأنصاري الإشيلي وسماه "اقتطاف الأزهار واستخراج نتائج الأفكار لتحصيل البغية والمراد من شرح الإرشاد". وممن كان يدرسه: محمد الأزدي الإشيلي أبو عبد الله بن الفخار (ت 640هـ). وأمّا كتاب "البرهان في أصول الفقه" فقد شرحه من المغاربة الإمام المازري (ت 536هـ)، وانتقد عليه بعض المسائل التي خالف فيها أهل السنة. كما انتقده أيضاً الإمام ابن العربي (ت 543هـ) انتقاداً لاذعاً. (أنظر: التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مرجع سابق، ص 261-262).

افتتان¹، حتّى قال قائلهم يمدّحه ويثني عليه- وهو محمد بن خلف بن موسى الأنصاري الأوسي الألبيري (ت 537هـ)²:

حُبُّ حَبْرٍ يُدْعَى أبا المعالي *** هو ديني ففيه لا تعذلوني
أنا والله مُغْرَمٌ بهـواه *** علّلوني بذكّره علّلوني³.

ولا يُمكننا بأيّ حالٍ في هذا المقام، أن ننسى علماً من أعلام الأندلس وإشبيلية، صاحب التصانيف البديعة، والذي كان له الدور الأكبر في نشر طريقة الجويني بالمغرب، وهو الإمام أبو بكر بن العربي (ت 543هـ)⁴، الذي رحل إلى المشرق ولقي أعظم تلاميذ الجويني: أبا حامد الغزالي، حيث أخذ عنه طريقة أبي المعالي الجويني في "الإرشاد"، ولقد كان ابن العربي عنيقاً في نقده لأهل الإثبات من خلال كتابه "العواصم من القواصم"؛ حيث شنع عليهم ووصمهم بالمشبّهة والمجسّمة. ومن ذلك ما قاله في شيخ المغرب ابن أبي زيد القيرواني: "ثم جاءت طائفة ركبّت عليه فقالت: إنّه فوق العرش بذاته، وعليها شيخ المغرب أبو محمد بن أبي زيد القيرواني فقلها للمعلمين فسدكت بقلوب الأطفال والكبار"⁵.

¹ التهامي: الأشعرية في المغرب، مرجع سابق، ص 21.

² هو أبو عبد الله محمد بن خلف بن موسى الأنصاري الأوسي، ألبيري الأصل، أخذ علم الكلام عن أبي بكر بن الحسن المرادي وغيره، وروى عنه جمع من أهل الأندلس، وكان متكلماً وافقاً على مذاهب المتكلمين، متحققاً برأي أبي الحسن الأشعري، ذاكراً لكتب الأصول والاعتقادات، مشاركاً في الأدب، متقدماً في الطب، من كتبه: "النكت والأُمالي في الرد على الغزالي"، توفي سنة 537هـ، وكانت ولادته سنة 457هـ. (أنظر: ابن عبد الملك، الأنصاري الأوسي المراكشي: الذيل والتكملة، تحقق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973م، ج 6، ص 193-195).

³ ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، مرجع سابق، ج 6، ص 199.

⁴ الإمام العلامة الحافظ القاضي أبو بكر، محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، بن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي، صاحب التصانيف. سمع من خاله. وتفقه على يد الإمام أبي حامد الغزالي، والفقيه أبي بكر الشاشي، وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها، ولي قضاء إشبيلية، فحمدت سياسته، وكان ذا شدة وسطوة، فعزل، وأقبل على نشر العلم وتدوينه، صنّف كتاب "عارضة الأحوزي في شرح جامع أبي عيسى الترمذي"، توفي بالعدوة ودفن بمدينة فاس في سنة 543هـ. (أنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 20، ص 197. وابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مرجع سابق، ج 4، ص 296).

⁵ ابن العربي، أبو بكر (ت 543هـ): العواصم من القواصم، تحقق: عمار طالبي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص 215.

ويمكن اعتبار أبي بكر بن العربي بحق، المؤطن الحقيقي للمذهب الأشعري بالأندلس؛ لأنه أدخل إليها أهم مصنفات المذهب الأشعري عند عودته من المشرق إلى المغرب والأندلس، وعلى رأسها كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي¹.

كما أن أبا الوليد الباجي جلب بدوره إلى المغرب طريقة أبي جعفر السَّمْناني (ت 444هـ)². يقول صاحب كتاب "الديباج المذهب": "ودخل-أي أبا الوليد- المؤصل فأقام بها عامًا يَدْرُسُ على السَّمْناني، تلميذ الباقلاني، الأصول"³، وكانت مصنفات أبي الوليد متداولة بكثرة وبخاصة كتابه "التسديد"، كما يُشير إلى ذلك القاضي عياض في ترجمته لأبي الأصبع بن أبي البحر الزهري (ت 530هـ)⁴ حيث يقول رحمه الله: "لقيته بسبته مرّات... وناولني من كُتُب القاضي أبي الوليد كتاب "التعديل والتجريح" وكتاب "التسديد" وكتاب "الفصول في أحكام الأصول"، وحدّثني بجميعها عنه وعندي منها أصول الباجي"⁵.

ومن أخذ عن السَّمْناني من علماء المغرب: أبو عمرو عثمان بن أبي بكر بن حمود السّفاقسي (ت 444هـ)⁶ بثونس⁷.

¹ طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص38.
² هو العلامة، قاضي الموصل، أبو جعفر، محمد بن أحمد الحنفي، السَّمْناني، نسبة إلى سمنان قرية من قرى نسا في العراق، سكن بغداد فترة من الزمن، وحدث عن أبي عمر السكري وأبي الحسن الدار قطني ثم استقر بالموصل، ولازم ابن الباقلاني حتى برع في علم الكلام. وكان عالما فاضلا سخيا، يعتقد مذهب الأشعري، وله تصانيف. توفي سنة 444هـ، وكانت ولادته سنة 361هـ. (أنظر: ابن عساكر: تبين كذب المفتري، مرجع سابق، ص259. والذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج17، ص651).

³ ابن فرحون: الديباج المذهب، مرجع سابق، ج1، ص378.

⁴ هو أبو الأصبع عيسى بن محمد بن عبد الله بن عيسى بن مؤمل بن أبي البحر الزهري، أصله من شنترين من أعمال باجة بالأندلس، وسكن مدينة سلا، رحل إلى المشرق وسمع من كريمة المروزية وغيرها، وسمع من أبي الوليد الباجي وغيره من أهل المغرب، وذكر أنه إذا قرئ عليه حديث رسول الله ﷺ بكى بكاء شديدا. توفي سنة 530هـ. (أنظر: القاضي عياض: الغنية، مرجع سابق، ص183-186. وابن شكوال (ت578هـ): الصلة، تحق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1989م، ج2، ص638. ترجمة رقم:945).

⁵ القاضي عياض: الغنية، مرجع سابق، ص184.

⁶ عثمان بن أبي بكر الصدي، المعروف بابن الضابط، المحدث الأديب، ولد بصفاقس، وطلب العلم بالقيروان، رحل للمشرق لطلب العلم، روى عن أبي نعيم، لقي بمكة أبا ذر الهروي. ومن شيوخه بالعربية أبو العلاء المعري. كلفه المعز بن باديس بمهمة سياسية سرية لدى أمراء الأندلس للتقارب معهم، وهناك روى عنه ابن عبد البر، وغيره. وهو أول من أدخل كتاب غريب الحديث للخطابي. بعد رجوعه من الأندلس سنة 438هـ أرسله المعز ثانية إلى القسطنطينية، فلم يرجع؛ حيث مات مجاهدا في جزيرة من جزر الروم. (أنظر: محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج3، ص261-262).

⁷ التهامي: الأشعرية في المغرب، مرجع سابق، ص26.

وقد ذكر التهامي في كتابه: "الأشعرية في المغرب"¹، أن من أبرز رجال الأشعرية الذين عملوا على ترسيخ المذهب الأشعري بالمغرب وبسط سلطانه: الإمام المازري (ت 536هـ)²، وهو إمام أهل إفريقية، فقد تخرج من المدرسة الأشعرية، ومثل مرحلة نضج الفكر الأشعري في شمال إفريقية³. والذي ظهر منهجه واضحاً من خلال كتابه "المعلم بفوائد مسلم"⁴، وذلك عند شرحه للأحاديث المتعلقة بالعقيدة؛ مثل الكلام في الصفات وفي التأويل وغير ذلك، وقد انتصر في كتابه هذا لرأي الأشعري ودافع عنه؛ مثل قوله في شرح حديث وفد عبد القيس "أمركم بأربع"، وفي بعض طرقه: "أتدرون ما الإيمان؟ شهادة أن لا إله إلا الله"⁵، وذكر بعد ذلك الصلاة والزكاة، وفي بعض طرقه: "أمركم بأربع: الإيمان بالله، ثم فسرها لهم فقال: شهادة أن لا إله إلا الله" وقال بعد ذلك: " وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة". قال الإمام المازري: " ظن بعض الفقهاء أن في هذا دلالة على أن الصلاة والزكاة من الإيمان، خلافاً للمتكلمين من الأشعرية القائلين بأن ذلك ليس من الإيمان، وهذا الذي ظننه غير صحيح؛ لاحتمال أن يكون الضمير في قوله: " ثم فسرها لهم" عائداً على الأربع لا إلى الإيمان كما ظن هذا الظان"⁶.

ويظهر نزوع المازري للتأويل أيضاً في شرحه لحديث النزول المشهور: "ينزل ربنا كل ليلة"، وهذا عندما يقول: " قيل: معناه ينزل ملك ربنا على تقدير المضاف، يقال: فعل السلطان كذا وإن

¹ التهامي: الأشعرية في المغرب، مرجع سابق، ص 30 وما بعدها.

² محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي، أبو عبد الله المازري المالكي عُرف بالإمام، أصله من مازر وهي مدينة بصقلية، نزى المهديّة، تفقه حتى صار إمام بلاد إفريقية وما وراءها من المغرب. ومن أخذ عنه ابن تومرت وابن المقرئ، وابن عيشون وغيرهم كثير. ومع ما قيل فيه من إدراكه رتبة الاجتهاد، فلم يكن يفتي الناس إلا بالمشهور من مذهب الإمام مالك. أخذ عن اللخمي، وابن الصائغ، وغيرهما من شيوخ إفريقية. من تواليفه: نظم الفرائد في علم العقائد. (أنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 20، ص 104. وابن فرحون: الديباج المذهب، مرجع سابق، ج 2، ص 250. وابن مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج 1، ص 186).

³ طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 37.

⁴ ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، مرجع سابق، ص 247.

⁵ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: قديم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا هذا الحي من ربيعة، وقد حالت بيننا، وبينك كقار مضر، فلا نخلص إليك إلا في شهر الحرام، فمُرنا بأمر نعمل به، ونُدعو إليه من وراءنا، قال: أمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله، ثم فسرها لهم، فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم، وأنهاكم عن الدباء، والحنتم، والتقيير، والمُقير. أخرجه مسلم (ت 261هـ): الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله، 106/1.

⁶ المازري، محمد بن علي (ت 536هـ): المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، تونس، ط 2، 1988م، ج 1، ص 285.

كَانَ الْفِعْلُ مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَيُضَافُ لَهُ الْفِعْلُ لِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَبَّرَ بِالنُّزُولِ عَنْ تَقْرِيبِ الْبَارِي لِلدَّاعِينَ حِينَئِذٍ وَاسْتِجَابَتِهِ لَهُمْ، وَخَاطِبِهِمْ بِمَا جَرَتْ عَادَتُهُمْ لِيَفْهَمُوا عَنْهُ"¹. وَقَدْ أَلَّفَ الْمَازِرِيُّ كِتَابَهُ الْمَوْسُومَ بِـ "النَّكَتِ الْقِطْعِيَّةِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْحَشَوِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِقِدَمِ الْأَصْوَاتِ وَالْحُرُوفِ"، وَجَاءَ هَذَا الْكِتَابُ لِلرَّدِّ عَلَى مَنْ يَقِفُ عِنْدَ ظَوَاهِرِ النُّصُوصِ، وَهُمْ الْمُسَمَّوْنَ بِالْحَشَوِيَّةِ، وَالْمُشَبَّهَةِ، كَمَا كَانَ يَصِفُ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ الْمَالِكِيَّةَ، حَيْثُ كَانَ يَقُولُ ابْنُ حَوْقَلٍ فِي وَصْفِهِ لِأَهْلِ الشُّوسِ: "وَالْمَالِكِيُّونَ مَنْ قُطِّظَ الْحَشَوِيَّةُ"². وَإِنْ كَانَ الْاِتِّهَامُ بِالْحَشَوِيَّةِ هِيَ تَهْمَةٌ جَاهِزَةٌ رَفَعَهَا الْمُوَحِّدُونَ ضِدَّ الْمُرَابِطِيِّينَ؛ إِمْعَانًا فِي تَأْلِيلِ النَّاسِ ضِدَّهُمْ، وَالْمِبَالِغَةِ فِي التَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ. وَنُصْرَةً لِلْمَذْهَبِ الَّذِي اعْتَمَدَهُ ابْنُ تَوَمَرْتٍ، وَدَفْعًا لِانْتِشَارِهِ وَالتَّمَكُّنِ لَهُ.

وَمِنَ الدَّلَائِلِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى وُجُودِ الْفِكْرِ الْأَشْعَرِيِّ زَمَنَ الْمُرَابِطِيِّينَ، مَا جَاءَ فِي كِتَابِ "الْفِكْرِ الْأَشْعَرِيِّ الْمَغْرِبِيِّ بَيْنَ كِتَابِي الْإِبَانَةِ وَاللَّمْعِ"، لِصَاحِبِهِ: مُحَمَّدٍ أَحْمِيدٍ، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْمَدْرَسَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ الْمَغْرِبِيَّةِ أَيَّامَ الْمُرَابِطِيِّينَ: "هَذِهِ الْمَدْرَسَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ كَانَتْ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ بِالْجَدَلِ وَالْمُنَظَرَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ وَالْكَلَامِ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ (270-324هـ)، وَإِنَّ كُتُبَ الْأَشَاعِرَةِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً بَيْنَ رِجَالِ الْمَغْرِبِ يَتَدَارَسُونَهَا فِي كَافَةِ أَنْحَاءِ الْمَغْرِبِ..³، وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا الْكَلَامَ، مَا لَمِحَ إِلَيْهِ النَّاصِرِيُّ السَّلَاوِيُّ فِي كِتَابِهِ سَالِفِ الذِّكْرِ "الاسْتِقْصَا"، وَالَّذِي يَرَى أَنَّ الْمَذْهَبَ الْأَشْعَرِيَّ دَخَلَ الْمَغْرِبَ فِي عَهْدِ الْمُوَحِّدِينَ، عَلَى يَدِ الْمَهْدِيِّ بْنِ تَوَمَرْتٍ..، ثُمَّ تَحَقَّقَ قَلِيلًا فَقَالَ: "... وَإِنْ كَانَ (الْمَذْهَبُ الْأَشْعَرِيُّ) قَدْ ظَهَرَ فِي الْمَغْرِبِ قَبْلَ ابْنِ تَوَمَرْتٍ ظُهُورًا مَّا..⁴.

¹ المازري: المعلم بفوائد مسلم، مرجع سابق، ج1، ص454.

² ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م، ص90

³ أنظر: أحمد: الفكر الأشعري المغربي بين كتابي الإبانة واللمع، مرجع سابق، ص40. نقلا عن: أحمد عبادي في تقديمه لكتاب عقيدة أبي بكر المرادي الحضرمي، ص6.

⁴ السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج1، ص197.

لكن هذا لا يعني وجود المذهب بشكل رسمي ومؤسّس؛ لأنّ المعروف عن دولة المرابطين كرهها الشّدِيد للكلام¹، واهتمامها البالغ بعلم الفروع، ولذلك يقول عبد الواحد المراكشي في "المعجب في تلخيص أخبار المغرب": "ولم يكن يقرب من أمير المسلمين - علي بن يوسف بن تاشفين - ويخطى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها، ونُبد ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعني بهما كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكرهه السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدّى أكثره إلى اختلال في العقائد، في أشباه هذه الأقوال، حتى استحکم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبد الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه؛ ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها². وهذا يدل على أنّ المذهب الأشعري كان مذهب النخبة العالمية، وأنّ انتشاره كان محدوداً بين هؤلاء، ولن يعرف انتشاراً موسّعاً إلا مع الدولة الموحدية³.

ومن العلماء الأعلام في العصر الموحدي، الذين نشرُوا تعاليم المهدي بن تومرت الأشعرية: أبو عمر عثمان بن عبد الله القيسي القرشي، المعروف بالسلالحي (ت 564هـ)⁴؛ فقد كان بارعاً في علم الكلام،

¹ معاداة المرابطين لبعض المتكلمين الأشاعرة ليست على إطلاقها؛ إذ الراجح أنها كانت بدوافع سياسية، ومقاصد شرعية، أهمها هم الحفاظ على الثوابت المغربية، وعلى رأسها الثابت العقدي السني، بغض النظر عن كون هذا الثابت أشعرياً أو سلفياً، ولا علاقة لها بموقفهم من التطور والإبداع الكلاميين. (أنظر: خالد زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 376).

² المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مرجع سابق، ص 172-173.

³ معصر: المذهب الأشعري بالمغرب التاريخ والأصول، مركز دراس بن إسماعيل لتقريب المذهب والعقيدة والسلوك، مرجع سابق.

⁴ وهو عثمان بن عبد الله بن عيسى -أو عسلوج- القيسي القرشي، يُكنّى بأبي عمرو، واشتهر بالسلالحي، نسبةً إلى المنطقة التي وُلد فيها وموطنه الأول "سليجو". كان فقيهاً إماماً عاملاً مُحَصِّلاً، له تأليف في العقيدة وهو: "البرهانية"، وعنه نشأ في المغرب علم أصول الدين. أخذ عن ابن حزم وأبي عبد الله محمد بن عيسى التادلي. توفي بفاس عام 564هـ. (ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص 198. مخلوف، محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2003م، ج 1، ص 234. والمكناسي، أحمد بن القاضي (ت 1025هـ): جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، مرجع سابق، ج 2، ص 458).

وَأَلَّفَ فِي ذَلِكَ كِتَابَهُ: "العقيدة البرهانية"¹؛ فِي عِلْمِ الْأُلُوهِيَةِ، وَالشَّهِيْرَةِ بِالْبَرْهَانِيَةِ، أَوْ السَّلَاجِيَةِ، وَالشَّيْخُ السَّلَاجِي كَانَ "إِمَامَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ فِي عِلْمِ الْإِعْتِقَاد"²، فَهُوَ كَمَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ كُنُونٌ فِي كِتَابِ "النَّبُوغِ الْمَغْرِبِيِّ": "هُوَ الَّذِي عَلَى يَدَيْهِ وَقَعَ تَحَوُّلُ أَهْلِ فَاَسٍ مِنَ الْمَذْهَبِ السَّلَفِيِّ فِي الْعَقِيْدَةِ إِلَى الْمَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّ، تَبْعًا لِلتَّيَّارِ الْعَامِ الَّذِي اكْتَسَحَ الْمَغْرِبَ بِأَجْمَعِهِ فِي هَذَا الْأَمْرِ نَتِيْجَةً لِدَعْوَةِ ابْنِ تُوْمَرْتِ"³. وَلَمَكَانَةُ السَّلَاجِيِّ فِي تَرْسِيْمِ الْمَذْهَبِ الْأَشْعَرِيِّ بِالْمَغْرِبِ، فَقَدْ جَعَلَهُ ابْنُ الْأَحْمَرِ صَاحِبَ "بَيُوْتَاتِ فَاَسٍ" فِي ذَاتِ الْمُرْتَبَةِ الَّتِي كَانَتْ لِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ أَبِي الْمَعَالِي الْجُوَيْنِيِّ بِالْمَشْرِقِ⁴.

لَقَدْ كَانَ أَبُو عَمْرٍو السَّلَاجِي أَحَدَ الْعُلَمَاءِ الْوَرَعِيْنَ، وَكَانَ يُخَشَى أَنْ تُصْبِحَ مُؤَلَّفَاتُهُ وَسِيْلَةً لِلدَّعَايَةِ أَوْ أَدَاةً لِلْإِفْتِحَارِ وَالتَّعَالِي عَلَى النَّاسِ، فَلِذَلِكَ لَمْ يُؤَثَّرْ عَنْهُ كَثْرَةُ التَّأْلِيفِ؛ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ تَأْلِيفِهِ لِلْبَرْهَانِيَةِ، الَّذِي أَرَادَهَا مُسَاهِمَةً مِنْهُ لَطَلْبَتِهِ وَعَوْنًا لَهُمْ، قَصَدَ تَحْصِيلَ الْكَلَامِ الْأَشْعَرِيِّ وَتَرْسِيخِ الْعَقِيْدَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ. وَمِمَّا يُدَلِّلُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّهُ "لَمَّا وَصَلْتُ هَذِهِ الْعَقِيْدَةَ إِلَى يَدِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ مُؤْمِنٍ -تَلْمِيزِ السَّلَاجِيِّ وَرَاوِيَةِ أَخْبَارِهِ- جَاءَ إِلَى أَبِي عَمْرٍو، يَسْتَشِيرُهُ فِي وَضْعِ مُقَدِّمَةٍ لَهَا وَتَرْتِيْبِهَا فِي فُصُولٍ لَتَأْخُذَ شَكْلَ تَأْلِيفٍ. فَلَمَّا سَأَلَ السَّلَاجِي فِي ذَلِكَ رَفَضَ الشَّيْخُ هَذَا الْإِقْتِرَاحَ، وَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ بِشِدَّةٍ مَخَافَةَ السَّمْعَةِ وَالرِّبَا، يَقُولُ ابْنُ مُؤْمِنٍ: "فَأَخَذْتُهَا -أَيَ الْبَرْهَانِيَةِ- وَقَامَ بِفِكْرِي أَنْ أَرْتَبْتُهَا فُصُولًا وَأَعْمَلْتُ لَهَا شَبَهَ الْخُطْبَةِ، ثُمَّ شَاوَرْتُهُ فِي ذَلِكَ فَمَنْعَ مِنْهُ وَقَالَ لِي: لَمْ أَتَعَرَّضْ فِيهَا أَنْ تَكُونَ تَأْلِيفًا تَكْتُبُ وَتَنْشُرُ، وَإِنَّمَا كَتَبْتُهَا لِحَيْرَتِهِ عَلَى وَجْهِ [كَذَا]. فَشَاءَ اللَّهُ أَنْ تَشِيْعَ فَاتْرَكْتُهَا كَمَا هِيَ وَلَا تَزِدْ فِيهَا شَيْئًا فَتَخْرُجَ عَمَّا قَصَدَ بِهَا. قَالَ أَبُو الْحَسَنِ: فَتَرَكْتُهَا كَمَا هِيَ"⁵.

¹ وقد امتازت عقيدة البرهانية بصغر حجمها، وبساطة أسلوبها، وشموليتها لمجموع ما تدور عليه العقيدة الأشعرية من مبادئ، وقد رزق هذا التأليف القبول، فكان من المقررات الدراسية في الجوامع والمدارس، وتولى كثير من العلماء شرحها، وكتب لها الانتشار في الأندلس والمغرب وتونس والجزائر. وقد تضمنت البرهانية مجموعة من الفصول تتحدث عن الاعتقاد فيما يجب لله تعالى والجائزات والسمعيات. (أنظر: معصر، عبد الله: المذهب الأشعري بالمغرب التاريخ والأصول، مرجع سابق. نقلا عن: احنايه، يوسف: تطور المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي، ص308).

² ابن الزيات، التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص198.

³ كنون، عبد الله: النبوغ المغربي في الأدب العربي، الشركة العالمية للكتاب، ج1، ص121.

⁴ ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، مرجع سابق، ص45.

⁵ اليفري، علي بن عبد الرحمن (ت734هـ): المباحث العقلية في شرح معاني العقيدة البرهانية، تحق: جمال علال البختي، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، 2015م، المجلد الأول، ص33. نقلا عن: ابن مؤمن: بغية الراغب، انظر المديوني، الشرح ص61.

ولعلَّ المؤلَّفَ الوحيد الذي كُتِبَ لَهُ الشُّهُرَةُ والانتشارُ، رغمَ حِرْصِهِ وبُعْده عن ذلك كله هو "البرهانية"، والذي لم يكن ليؤلِّفه إلاَّ لأنَّه قصَّدَ به تلقينَ مبادئ العقيدة لتلميذته "خيرونة"¹.
وكخلاصةً للموضوع نقول: لا يمنعُ أنَّه وُجد قبل ابن تومرت من العلماء من تأثَّرَ بالمذهب الأشعريِّ وتأثَّرَ بطريقة رجاله في الجدل، وفي التفسير للمسائل المتعلقة بالأسماء والصفات، إلاَّ أنَّ تأثُّرهم هذا كان في نواحٍ جزئية منه فقط، أمَّا وجودُ المذهب بشكِّله المتكامل فكان يُواجهه بالمعارضة الشديدة؛ إذ كان الأمر في الاعتقاد بالمغرب والأندلس في العهد المرابطي هو مذهب السلف، الذي يأخذ بالتصوُّص الشرعيَّة على ظاهرها مُستبعدة التَّأويل²، وهو ما يُبرزه موقفهم من ابن تومرت حين قُدومه من المشرق، وشروعه في بثِّ هذا المذهب بين أهل المغرب. ولعلَّ السَّبَب في عدم وجود المذهب مُتكاملًا إلى هذا العهد يرجع بالدرجة الأولى إلى المذهب الأشعريِّ نفسه؛ فعلى قول كثير من العلماء أنَّ هذا المذهب لم تكتمل أُسُسه على يد المؤسِّس الأول، بل بقي يتطوَّر حتَّى اكتمل على يد الإمام الجويني والإمام الغزالي³. فاعتناق الأشعرية في التصوُّر العقدي لم يكن وجوده بالمغرب قبل المهديِّ إلاَّ وجودًا محدودًا في آحاد الأفراد، إذا استثنينا ما ذكره ابن حزم في فصله من أنَّ: "الأشعرية قامت لهم سوقًا بصقلية والقيروان ثم رقَّ أمرهم، والحمد لله رب العالمين"⁴.

أمَّا في العصر المريني (667-869هـ) فيعتبر أحمد بن محمد بن عاشر (ت 764هـ)، وابن عبَّاد الرندي (ت 792هـ)⁵، والشيخ أحمد زروق الفاسي (ت 899هـ)، وغيرهم من أهمِّ الرِّجالات الذين مثَّلوا العقيدة الأشعرية ودافعوا عنها بالمغرب. ومنذ ذلك الوقت تعزَّز انتشار مذهب أبي الحسن

¹ ابن الأحمر: بيوتات فاس، مرجع سابق، ص 45.

² طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 38.

³ التهامي، إبراهيم: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مرجع سابق، ص 247.

⁴ ابن حزم الظاهري، علي بن أحمد (ت 456هـ): الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحق: محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط 2، 1996م، ج 5، ص 73.

⁵ هو أبو عبد الله محمد بن الشيخ إبراهيم الرندي النفري الحميري الصُّوفي، المعروف بابن عبَّاد، الفقيه المتفنن خطيب القرويين، له تأليف في تصوُّف منها: «شرح الحِكَم العطائية»، وله حسن تصرف في طريق الإمام الشاذلي. أخذ عن والده وأبي الحسن الرندي وأبي عمران العبدوسي والشريف التلمساني والإمام المقرئ، وأخذ علم الباطن عن أبي العباس بن عاشر. وأخذ عنه لسان الدين الخطيب وأبو زكريا السراج وأبو يحيى بن السكاك. توفِّي بفاس سنة 792هـ، (أنظر: مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج 1، ص 343).

الأشعري، بعدما تمّ تنقيته من شوائب الفكر المهدوي¹ الذي لحقه على أيّام الموحّدين، وأصبح المذهب الأشعريّ هو المذهب العقديّ السائد في جميع أقطار المغرب العربي، ومصر، وغيرها من الأقطار الإسلاميّة إلى الآن².

ومن أهمّ الكتب التي كانت تُدرّس في العصر المريني في مجال العقيدة: عقيدة الرّسالة القيروانية، والمرشدة لابن تومرت في الأقسام المتوسّطة، وكتاب الإرشاد لإمام الحرمين الجويني في الصفوف النّهائية³.

المطلب الثاني: المنظومة الفقهية والمذهب المالكي

لقد عرفت بلاد المغرب الإسلامي قبل استقرار مذهب الإمام مالك - رحمه الله - مذاهب فقهية مُنتشرة في شرق الخلافة، كمذهب الأوزاعي ومذهب أبي حنيفة. ويرى أغلب المؤرخين أنّ منطقة بلاد المغرب والأندلس، كانتا في أغلب أيّامها خارجة عن سلطة العبّاسيين في بغداد، والتي كان مذهبها الرّسمي هو المذهب الحنفي، وكان مُتولّي منصب قاضي القضاة أحد أصحاب أبي حنيفة: أبو يوسف صاحب كتاب "الخراج"، في حين كانت الأندلس تحت سلطة الأمويّ عبد الرحمن الداخل، الهارب من بطش العبّاسيين. فاختلقت الروايات حول المذهب الذي ساد المغرب والأندلس قبل مذهب الإمام مالك، فيقال: أنّ المذهب الحنفي كان مُنتشراً في القيروان ومذهب الأوزاعي في الأندلس⁴.

¹ تمّ خاض في مسألة ابن تومرت واتّهامه بالمهدوية، الدكتور زهري، الذي قام بنقاش علمي رصين، بيّن فيه تهاافت هذه الدعوى، وأنّ أشعرية ابن تومرت لا غبار عليها، وردّ في بحثه الموسوم: أشعرية ابن تومرت والتحقيق في دعوى المهدوية، على من اتّهم ابن تومرت بالمهدوية كعبد الواحد المراكشي، وأبو العباس الونشريسي، وبيّن تناقض أقوالهم. (أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص379 وما بعدها).

² طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال: كتبه وشروحه، مرجع سابق، ص32-33.

³ طيب، محمد إدريس: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2019م، ص99.

⁴ ناصري، عبد العزيز: خصوصية المذهب المالكي في بلاد المغرب والأندلس، مجلة رفوف، جامعة أحمد دراية، أدرار، مجلد5، العدد1، مارس 2017، ص287.

قال القاضي عياض في المدارك: "وغلِبَ مذهبُ أبي حنيفةَ على الكُوفَةِ والعِراقِ وما وراءَ النَّهرِ، وكثيرٌ من بلادِ خُرَاسانَ إلى وقتنا هذا، وظَهَرَ بإفريقيَّةٍ ظُهورًا كثيرًا إلى قَريبٍ من أربعِ مائةِ عامٍ، فانقطعَ منها، ودخلَ منه شيءٌ ما وراءَها من المَغربِ قديمًا بجزيرةِ الأندلسِ وبمدينةِ فاس. وغلِبَ مذهبُ الأوزاعي على الشام وعلى جزيرةِ الأندلسِ أولًا. إلى أن غلبَ عليها مذهبُ مالك بعد المائتين، فانقطعَ منها"¹.

وأما اقتصارُ أهلِ الغُربِ الإسلامي على مذهبِ الإمامِ مالك -رحمه الله- واعتناقهم له وتشبُّثهم به، ذُونَ غيره من المذاهبِ الفقهية التي تلاشت بعد مُدةٍ من دُخولها، فإنَّ ابنَ خلدون يذكُرُ سببَ ذلك، حيثُ يقول: "وأما مالكٌ -رحمه الله تعالى- فاختصَّ بمذهبه أهلُ المَغربِ والأندلسِ، وإنَّ كانَ يُوجدُ في غيرهم، إلَّا أنَّهم لم يُقلِّدوا غيره إلَّا في القليل، لما أنَّ رحلتهم كانتَ غالبًا إلى الحِجاز، وهو مُنتهى سَفَرهم، والمدينةُ يومئذٍ دَارُ العلم... وأيضًا فالبداوةُ كانتَ غالبًا على أهلِ المَغربِ والأندلسِ، ولمْ يَكُونُوا يُعانونُ الحضارةَ التي لأهلِ العِراقِ؛ فكانوا إلى أهلِ الحِجازِ أُميلَ لمناسبةِ البداوةِ، ولهذا لمْ يزلْ المذهبُ المالكيُّ غُضًّا عندهم، ولمْ يأخذْه تنقيحُ الحضارةِ وتَهذيبُها كما وَقَعَ في غيره من المذاهبِ... وأهلُ المَغربِ جميعًا مُقلِّدونَ لمالكٍ رحمه الله"².

وقال المقرئ في نفحه: "واعلم أنَّ أهلَ الأندلسِ كانوا في القديم على مذهبِ الأوزاعي، وأهلُ الشام منذُ أوَّلِ الفتح، ففي دولةِ الحَكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (ت 206هـ) -وهو ثالثُ الوُلاةِ بالأندلسِ من الأمويين- انتقلتِ الفتوى إلى رأيِ مالك بن أنس وأهلِ المدينة، فانتشرَ علمُ مالك ورأيه بقرطبةَ والأندلسِ جميعًا، بل والمَغربِ؛ وذلك برأيِ الحَكم واختياره. واختلفوا في السَّببِ المُقتضي لذلك، فذهبَ الجُمهورُ إلى أنَّ سببَهُ رحلَةُ علماءِ الأندلسِ إلى المدينة، فلمَّا رجَعوا إلى الأندلسِ وصَفُّوا فضلَ مالك وسَعَة علمه، وجلالةُ قدره، فأعظموه"³.

ويبدو تأثيرُ السُّلطانِ ظاهرًا في التَّمكينِ للمذهبِ المالكيِّ بالأندلسِ بعدما كانَ يدينُ بمذهبِ الأوزاعي؛ وذلك في مثلِ قولِ المقرئ: "وقيل: إنَّ الإمامَ مالكا سألَ بعضَ الأندلسيين عن سيرةِ مَلِك

¹ القاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج 1، ص 65-66

² ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ج 1، ص 568.

³ المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مرجع سابق، ج 3، ص 230.

الأندلس، فوصف له سيرته، فأعجبت مالكا لكون سيرة بني العباس في ذلك الوقت لم تكن مرضية، وكابد لما صنع أبو جعفر المنصور بالعلوية بالمدينة من الحبس والإهانة، وغيرهما على ما هو مشهور في كتب التاريخ، فقال الإمام مالك -رضي الله عنه- لذلك المخير: نسأل الله تعالى أن يُزِنَ حَرَمَنَا بِمَلِكِكُمْ، أو كلاماً هذا معناه، فنميت المسألة إلى ملك الأندلس، مع ما علم من جلالة مالك ودينه، فحمل الناس على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعي، والله تعالى أعلم¹.

وعن حمّل أهل تونس على المذهب المالكي من طرف السلطان المعز بن باديس الصنهاجي (ت 454هـ)²، وكان بالقيروان قوم قلة في القديم أخذوا بمذهب الشافعي كما دخلها شيء من مذهب داود الظاهري على غرار ما كان في الأندلس والمغرب، ولكن كان الغالب عليها مذهب مالك وأبي حنيفة، إلى أن جاءت دولة الأغالبة الذين مالوا إلى الأخذ بمذهب الأحناف، وآثروهم بالقضاء والرياسة، ثم العبيديون من بعدهم، قال ابن خلكان في ترجمته ما نصه: "وكان مذهب أبي حنيفة -رضي الله عنه- بإفريقية أظهر المذاهب، فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس، رضي الله عنه، وحسم مادة الخلاف في المذاهب واستمر الحال من ذلك الوقت إلى الآن"³.

وبعد رحيل العبيديين لم يزل أمر السنة يقوى، والمعز يُعِدُّ العدة للتخلص من سلطانهم حتى كانت سنة 435هـ وفيها قطع دعوهم، ولعنهم على المنابر، ودخل في طاعة الدولة العباسية وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك وقطع ما عداه، وكانت بإفريقية مذاهب الصفرية والشيعة

¹ المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مرجع سابق، ج3، ص230.

² المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي، وكانت ولادته بالمنصورية، من أعمال إفريقية، سنة 398هـ، صاحب إفريقية وما ولاها من بلاد المغرب، وكان الحاكم صاحب مصر قد لقبه شرف الدولة، وسير له تشريفا وسجلا يتضمن اللقب المذكور، وذلك في سنة 407هـ. وكان ملكا جليلا عالي الهمة، محبا لأهل العلم كثير العطاء. وتوفي رابع شعبان سنة 454هـ بالقيروان، من مرض أصابه وهو ضعف الكبد. (أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مرجع سابق، ج5، ص233-234).

³ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مرجع سابق، ج5، ص233-234.

والإباضية والنكارية¹ والمعتزلة، ومن مذاهب أهل السنة الحنفية والمالكية، فلم يبق في أيامه إلا مذهب الإمام مالك².

وذكر صاحب كتاب "البيان المغرب" كيف تعلم المعز مذهب مالك، وقضى على مذهب الرافضة، فيقول: "وقد كان المعز بن باديس صغيراً إذ ولي، وهو ابن ثمانية أعوام، وقيل: ابن سبعة أعوام. ورُبِّي في حجر وزيره أبي الحسن بن أبي الرجال، وكان ورعاً زاهداً، وكانت إفريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف السنة والجماعة، من وقت تملك عبيد الله المهدي لها. فحرَّض ابن أبي الرجال المعز بن باديس على إقامة السنة وأدبته، ودلَّه على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة، والشيعة لا يعلمون ذلك، ولا أهل القيروان. فخرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلَّى في زينته وحشودُه، وهو غلامٌ، فكبا به فرسه، فقال عند ذلك: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فسمعتُه الشيعة التي كانت في عسكره، فبادرُوا إليه ليقْتُلُوهُ، فجاءهُ عبيدُه ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان، ووضع السيف في الشيعة، فقتل منهم ما ينيف على الثلاثة آلاف، فسَمي ذلك الموضع بركة الدم إلى الآن... ولم يزل المعز يُعمل فكره في قطع الدعوة لهم إلى أن كانت سنة 440هـ³.

وتذكر المصادر التاريخية، أنَّ أهل المغرب الأقصى قبل اعتناقهم للمذهب المالكي كانوا يعتنقون مذاهب مختلفة، من خارجية ومعتزلية وحنفية وأوزاعية وبعض النحل الجاهلية⁴ إلى أن قامت دولة الأدارسة، فأتَّجَّهُوا إلى المذهب المالكي وذلك بأمر من المولى إدريس. وقد جزم الكتاني وغيره من

¹ النكار: هم أتباع يزيد بن فندين أبو قدامة النكاري. وسموا بالنكار لأنهم أنكروا إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وثاروا ضده، ولقد تطورت هذه الفرقة التي انسلخت عن الإباضية الأم. (انظر: الشماخي، أحمد بن سعيد: كتاب السير، تحقيق: أحمد بن سعود السبائي، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ط2، 1412هـ/1992م، ج1، ص132. والدرجيني، أحمد بن سعيد: كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة- الجزائر، 1974م، ج1، ص50. وابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق: محمد ناصر-إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص37).

² أنظر: ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، 1286هـ، ص81.

³ ابن عذارى: البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، مرجع سابق، ج1، ص298-299.

⁴ انظر: كنون: النبوغ المغربي، مرجع سابق، ص48.

المؤرخين، بأنَّ الإمام إدريس كانَ على مذهب مالك بن أنس¹، ودعا النَّاسَ للأخذِ بهِ واتباع منهجه، وجعله مذهباً رسمياً للدولة مُعزِّزاً ذلك بقوله: "نحنُ أحقُّ باتباع مذهب مالكٍ وقراءة كتابه الموطأ"². وقد أرسى الإمام إدريس الثاني (ت 213هـ)³ أصول المذهب المالكي في المغرب الأقصى، بإسنادٍ منسبٍ القضاء الأول لشخصية عربية هي: عامر بن محمد بن سعيد القيسي، الذي كانَ ضمنَ وفود العرب من بلاد إفريقية والأندلس سنة 189هـ، وكان رجلاً صالحاً ورعاً، سمع من الإمام مالك وسفيان الثوري، وروى عنهما كثيراً، ثُمَّ خرج إلى الأندلس برسم الجهادِ ثُمَّ جاز إلى العُدوة وافداً على إدريس فيمن وفد عليه من العرب. ولما قدِم المغرب سمع منه إدريس وغيره من الفقهاء ما رواه مالك⁴، فكان "عامر" بذلك أول من نقل هذا الكتاب الحديثي وهو "الموطأ" إلى المغرب الأقصى⁵. وبسبب انتقال الموطأ إلى المغرب، تمَّ تحوُّل المغاربة من المذهب الحنفي إلى المذهب المالكي، إذ لم يكد القرن الرابع الهجري يُطلُّ حتَّى كان المذهب المالكي قد انتشر في المغرب وتجدرت أصوله وفروعه في سائر مرافق الحياة⁶.

وحينما بنى الإمام إدريس بن إدريس مدينة فاس سنة 192هـ، جعلها عاصمةً سياسيةً ومركزاً دينياً، وسوقاً تجارياً، وقد ضمت المدينة من قديمها عليه من الأندلس، ومن قديمها عليه من القيروان،

¹ أنظر: العمراني الخالدي، عبد السلام: الأنوار الساطعة في معرفة الفتاوى الشرعية الناجعة والمسائل الصوفية النيرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2019م، ص 23

² المرجع نفسه، ص 23.

³ هو الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، مولده في عام 177هـ، كان فصيحا بليغا أدبيا، عارفاً بالفقه والسنة والحلال والحرام. وزيره عمير بن مصعب الأزدي، وقاضيه عامر بن محمد بن سعيد القيسي. من أعماله بناء مدينة فاس عام 192هـ، توفي إدريس الثاني سنة 213هـ، وله من العمر ست وثلاثون سنة. (أنظر: ابن زرع، علي الفاسي (ت 741هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص 25 وما بعدها. والناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج 1، ص 227).

⁴ ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، مرجع سابق، ص 27

⁵ العمراني: الأنوار الساطعة في معرفة الفتاوى الشرعية الناجعة والمسائل الصوفية النيرة، مرجع سابق، ص 23.

⁶ الجليدي: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مرجع سابق، ص 61. نقلا عن: الكتاني: الأزهار العطرة، ص 130.

فكانت تشمل غُدوة الأندلس وغُدوة القرويين¹، وعندما نتحدث عن مدينة " فاس " فإن الحديث عنها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتعريب على جامع القرويين²، الذي بُني عام 245هـ، وقد كان مركز إشعاع علمي وثقافي قوي، وكان له الفضل في خدمة المذهب المالكي وترسيخه في رُوع المغرب بما خرَّجه من علماء أكفاء، لهم باع طويل في فقه المذهب المالكي وأصوله وقواعده³.

واستطاع بذلك المولى إدريس أن يوحد الناس على مذهب واحد، ويقضي على التفرقة المذهبية التي كانت سائدة آنذاك، خاصة مع وجود الموطأ لإمام المدينة، أصل المذهب ولُّبُه، إذ اجتمع المغاربة عليه، فجعلوه حكَمهم وفصلهم في أمورهم كلها، فلم يتعدَّوه إلى غيره، وبذلك أصبح المذهب المالكي مكوَّنًا من مكوِّنات الهوية الدينية للمغرب، وتأهل ليكون رقماً صعباً لتشكيل وصياغة ملامح المغرب في تطوره اللاحق⁴.

وفي سياق الحديث نفسه، عن تمكُّن المذهب المالكي من خلال يد السلطان، يقول ابن حزم الأندلسي: " مذهبنا انتشرا في مبدأ أمرها بالرئاسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي قضاء القضاة أبو يوسف يعقوب صاحب أبي حنيفة، كانت القضاة من قبله، فكان لا يؤلي قضاء البلدان من أقصى المشرق إلى أقصى إفريقية إلا أصحابه والمتممين إليه وإلى مذهبه، ومذهب مالك بن أنس عندنا في بلاد الأندلس، فإن يحيى بن يحيى الليثي (ت 234هـ)⁵ كان مكيًا عند السلطان مقبول القول في

¹ التازي: جامع القرويين، مرجع سابق، ج 1، ص 46.

² بنته فاطمة أم البنين (ت 245هـ) بنت الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الفهري القيرواني، بعدما انتقلوا من تونس إلى فاس في عهد محي الدين يحيى الأول حفيد إدريس (234-249هـ). (أنظر: التازي: جامع القرويين، مرجع سابق، ج 1، ص 46).

³ التجاني، عاد: مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، مجلة المعارف والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، المجلد 5، العدد 3، 2019/09/15م، ص 208. نقلا عن: مصطفى البكري الطيب الشيخ الهادي: دور قوافل الحجيج في نشر المذهب المالكي، ص 5.

⁴ أنظر: عاد: مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، مرجع سابق، ص 208.

⁵ أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير، الليثي القرطبي، الإمام الحجة الثبت، رئيس علماء الأندلس وفقهائها وكبيرها. سمع الموطأ أولاً من الفقيه زياد بن شبون، ثم سمعها من مالك غير الاعتكاف وروايته أشهر الروايات، وسمع ابن وهب وابن القاسم وابن عيينة ونافعا القاري والليث بن سعد، وغيرهم، روى عنه: ولده أبو مروان عبيد الله، ومحمد بن العباس بن الوليد، ومحمد بن وضاح، وبقي بن مخلد. وبه وبعبسى بن دينار انتشر مذهب مالك بالأندلس. توفي في شهر رجب سنة 234هـ. (أنظر: مخلوف: شجرة النور الزكية، ج 1، ص 95. والذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 10، ص 520).

القضاة، فكان لا يلي قاضي في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يُشِيرُ إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به، على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم وداعياً إلى قبول رأيه لديهم¹.

وتتظاهر عوامل عدة في تمكّن المذهب المالكي في بلاد المغرب والأندلس، ولعل من أهم العوامل لذلك هو رحلة علماء الغرب الإسلامي إلى الحج والحجاز، وتلقيهم المياش من الإمام مالك، ثم عودتهم إلى بلادهم لنشر الفقه المالكي وتدريبه.

ولقد كانت "الرحلة إلى البلاد الشرقية تأتي عفواً من جانب طائفة من الناس، تافت نفوسهم للعبات المقدسة، أمست منظمّة تتّم في موكب رسمي وفي بعثات دبلوماسية تحمل معها عُيون المخطوطات، لتأتي بدّها بنفائس الكتب. وهكذا لم تكن رحلات مقتصرة على الزيارة، ولكنها تتعدّها إلى الاختكاك بمختلف الأفكار، ممّا يكون له الأثر الكبير على الجو الثقافي بالبلاد"².

ولا بأس هنا أن نذكر عدداً من مصادر الفقه المالكي، والتي دخلت إلى المغرب عن طريق الرحلة: — كتاب الموطأ³ وهو المصدر الأول عند المالكية، وهو الذي وصفه الإمام الشافعي رحمه الله فقال: "ما كتاب أكثر صواباً بعد كتاب الله من كتاب مالك"⁴. ونقل ابن عبد البر فيما روي عن عمرو بن أبي سلمة قال: "ما قرأت كتاب الجامع من موطأ مالك بن أنس إلا أتاني آت في المنام فقال لي: هذا كلام رسول الله ﷺ حقاً"⁵.

وقد دخل كتاب الموطأ إلى المغرب عن طريق الرحلة، فكان أول من أدخله إلى المغرب الأقصى: عامر بن محمد بن سعيد القيسي، تلميذ الإمام مالك⁶.

¹ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مرجع سابق، ج6، ص145.

² التازي، عبد الهادي: جامع القرويين، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب، ط2، 2000م، ج2، ص368.

³ الموطأ كتاب حديث وفقه، يحوي ألفاً ونيفاً من الأحاديث بعد أن اختصره الإمام مالك، قيل إن سبب التسمية آت من قول مالك نفسه عندما قال: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة فكلهم واطأني عليه فسميته الموطأ. وقد لبث مالك في تأليفه أربعين سنة يهذه وينقحه. (أنظر: السيوطي، جلال الدي: تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك، مطبعة دار إحياء الكتب العربي، مصر، ج1، ص6-7).

⁴ ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط2، 1412هـ، ج1، ص76.

⁵ المرجع نفسه، ج1، ص77.

⁶ الجليدي، عمر: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مرجع سابق، ص61.

ومن بين أمهات¹ الفقه المالكي التي دخلت المغرب، وكان لها الأثر في التمكن للمذهب: - مدونة² الإمام عبد السلام سحنون، وهي المصدر الثاني من المصادر المالكية المعتمدة، وأول من أدخلها إلى المغرب درّاس بن إسماعيل (ت357هـ)، الذي يعود الفضل إليه في نشر المذهب بالمغرب³. كما تعتبر المدونة من أهم الكتب التي عليها الاعتماد في الفقه المالكي، لهذا اعتكف عليها الفقهاء قديماً وحديثاً، تعليماً وتهذيباً، واختصاراً. وتلقاها أهل القيروان، وعموم أهل المغرب، بالقبول الحسن والذكر الحميد واعتمدوها، وعولوا عليها في الدرس والإفتاء، وتركوا بها الأسدية، إلا أنهم ظلوا مع ذلك يتطلعون إلى من يهذبها لهم، ويرتبها، حتى تكون أقرب إلى الأذهان، وأدنى للأفهام، لأن بعض أبوابها لم تكن مرتبة، لذلك كان يطلق عليها "المدونة والمختلطة"⁴.

ومن أهم مختصرات المدونة، والتي وضعت حسب قواعد المذهب المالكي، والتي كان لها صيت كبير عند أهل المغرب في فهم وتبسيط مطولات كتب المذهب - إذ أن القصد من هذه المختصرات تحقيق هدفين:

أ- تقليل الألفاظ تيسيراً للحفظ.

¹ مصطلح الأمهات: من المصطلحات التي درج عليها المالكية في كلامهم، وتعارفوا عليها فيما بينهم، وتناقلتها كتبهم، وهو مصطلح يُعنون به كتب أربعة، بعد الموطأ الأصل الأول لهذا المذهب. وهذه الكتب هي: المدونة، الواضحة، العتبية أو المستخرجة، والموازية. ولقد وصلنا من هذه الأمهات، كتابان هما: المدونة والعتبية، أما الواضحة والموازية فلم يصلنا منهما إلا نتف يسيرة موزعة في بعض المكتبات، وبعضها مبثوث في كتب الفروع. (أنظر: الجيدي: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مرجع سابق، ص65).

² المدونة أقدم كتاب في المذهب المالكي بعد الموطأ، للإمام عبد السلام سحنون، وهو في أصله عبارة عن أسئلة سئل عنها عبد الرحمن بن القاسم، فأجاب عنها بما كان سمعه من شيخه مالك، وكان إذا لم يجد في المسألة جواباً لمالك يجب عنها باجتهاده، وأول من سألها عنها أسد بن الفرات، فدون ما سمع منه، وأضاف إلى هذا السماع مسائل فقهية كان قد تلقاها عن العراقيين، وعنه تلقاها تلميذه سحنون قبل أن يرحل إلى ابن القاسم للتأكد من هذا السماع، ومدى جريانه على أصول مالك، (أنظر: الجيدي: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مرجع سابق، ص66).

³ معلمة المغرب، مرجع سابق، ج12، ص3988.

⁴ البراذعي، أبو سعيد: التهذيب في اختصار المدونة، تحقيق: محمد الأمين ولد محمد سالم الشنقيطي بن الشيخ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ط1، 2002م، ج1، ص1-2.

ب- جمع ما هو مُتَفَرِّقٌ فِي كُتُبِ المذهبِ مِنَ الفُروعِ لِيَكُونَ أَجْمَعٌ لِلْمَسَائِلِ¹ - ومن هذه الكُتُبِ المختصراتِ، والتي شاعت وراجت في العصرِ المريني، وتكاثرت بِشَكْلِ لَفَتَ نَظَرَ النُّقَادِ حَتَّى إِنَّ البَعْضَ اعتَبَرَ ذَلِكَ مِنْ عُيُوبِ هذهِ الدَّولةِ لِمَا أُولِعَ بِهِ طَلِبَتُهَا مِنَ المختصراتِ الفقهيةِ، نَدَكُرُ منها:

- التَّوَادِرُ والزِّيَادَاتِ-عَلَى مَا فِي المَدَوْنَةِ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الأُمَمَاتِ- لِلإمامِ ابْنِ أَبِي زَيْدِ القَيروَانِي، فِي أَزِيدٍ مِنْ مِئَةِ جُزْءٍ، وَلَهُ كِتَابٌ مُخْتَصَرُ المَدَوْنَةِ، وَلَقَدْ جَاءَ بِهَما -التَّوَادِرُ والزِّيَادَاتِ والمختصر- إِلَى المَغْرِبِ: ابْنُ العَجُوزِ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ أَحْمَدَ السَّبْتِي الفَاسِي (ت 413هـ)². قَالَ القَاضِي عِيَاضُ رَحِمَهُ اللهُ: "لَهُ كِتَابُ التَّوَادِرِ والزِّيَادَاتِ عَلَى المَدَوْنَةِ، مَشْهُورٌ. أَزِيدٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ. وَكِتَابٌ مُخْتَصَرُ المَدَوْنَةِ، مَشْهُورٌ، عَلَى كِتَابَيْهِ هَذَيْنِ المَعْوَلُ بِالمَغْرِبِ فِي التَّفَقُّهِ"³.

- مُخْتَصَرُ أَبِي عَمْرُو عَثْمَانَ ابْنِ الحَاجِبِ (ت 646هـ)⁴ فِي الفُروعِ، أَوْ كِتَابُ "جَامِعِ الأُمَمَاتِ"، وَهُوَ مِنَ المِصَنَّفَاتِ الَّتِي انْكَبَّ فَتَهَاءُ المَغْرِبِ الأَوْسَطِ فِي العَهْدِ الزِّيَّانِيِّ عَلَى مُدَارِسَتِهَا، وَالَّذِي تَكَفَّلَ بِإِدْخَالِهِ إِلَى بَحَايَةِ وَمِنْ خِلَالِهَا إِلَى سَائِرِ بِلَادِ المَغْرِبِ، بَعْدَ مَا قَرَأَهُ بِمَصْرَ عَلَى شَيْوَحِهَا، نَاصِرُ الدِّينِ المَشْدَالِي الزَّوَاوِي (ت 731هـ)⁵، فَنَسَخَهُ وَحَمَلَهُ مَعَهُ إِلَى بَحَايَةِ، وَنَشَرَهُ بَيْنَ تَلَامِيذِهِ هُنَاكَ،

¹ الجيادي: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مرجع سابق، ص 88

² عبد الرحيم بن أحمد الكتامي أبو عبد الرحمن المعروف بابن العجوز سبتي، من كبار قومه كتامة، من فخذ يسمى أجان، وكانت له ولأبيه فيهم وفي المغرب رئاسة بالعلم. وإليه كانت الرحلة في المغرب في وقته؛ وعليه كانت تدور الفتيا. رحل إلى الأندلس، وإفريقية، ولازم الفقيه أبا محمد بن أبي زيد القيرواني، واختص به وسمع منه كتبه "التوادر" و"المختصر" وجاء بهما وبغيرهما إلى سبتة. وسمع من دُرَّاس بن إسماعيل الفاسي، وأبي محمد الأصيلي، ووهب ابن مسرة الحجازي. كان من حفاظ المذهب القائمين به. (أنظر: ابن فرحون: الديباج المذهب، مرجع سابق، ج 2، ص 4. وكنون، عبد الله: النبوغ المغربي في الأدب العربي، مرجع سابق، ج 1، ص 51).

³ القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج 2، ص 142.

⁴ هو الفقيه أبو عمرو بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدوني، ثم المصري، الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب، الأصولي المالكي الفقيه المقرئ النحوي. من شيوخه: الشاطبي في القراءات، وكذلك الغزنوي أبو الفضل، وأخذ الفقه عن أبي المنصور الأبياري وغيره. توفي بالإسكندرية ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ الصالح ابن أبي شامة. (أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، مرجع سابق، ج 3، ص 248. الذهبي، شمس الدين: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق: طيار آلي قولاج، اسطنبول، 1995م، ج 3، ص 1287).

⁵ منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي، ناصر الدين، أبو علي، له مشاركة في علوم العربية والمنطق والجدل. نشأ في بحاية وبها تعلم. رحل إلى المشرق فأخذ عن الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وشمس الدين الأصبهاني وشرف الدين ابن السبكي وغيرهما. له "شرح" على رسالة أبي محمد بن أبي زيد، لم يستكمل. وهو لا بأس به، وتحصيله لأصول الفقه وأصول الدين على طريقة الأقدمين وعلى طريقة المتأخرين، وهو ممن ينفع بالأخذ عنه والسماع منه. (أنظر: الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1979م، ص 229).

ثمَّ ما لَبِثَ أَنْ انتَشَرَ فِي سَائِرِ أَمْصَارِ الْمَغْرِبِ، وَظَلَّ طَلَبَةُ الْفِقْهِ يَتَدَاوَلُونَهُ بَيْنَهُمْ كَكِتَابٍ مُقَرَّرٍ فِي حَلَقَاتِ الدَّرْسِ¹.

وَلَقَدْ قَامَ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي هَذَا الْكِتَابِ بِإِخْتِصَارِ كِتَابِ التَّهْذِيبِ² لِأَبِي الْقَاسِمِ الْأَزْدِيِّ الْبِرَازَعِيِّ (ت 438هـ³)، مُعْتَمِدًا عَلَى أُمِّهِاتِ الْمَذْهَبِ: كَالْمَدُونَةِ، وَالْعَتَبِيَّةِ، وَالْوَاضِحَةِ، وَالْمُوَازِيَةِ، وَقِيلَ أَنَّهُ تَوَكَّأَ فِي جَامِعِهِ هَذَا عَلَى سِتِّينَ دِيوَانًا مِنْهَا يَرَوِي وَيَمِيزُ، وَكَانَ خَلِيلَ خَاتِمَةِ الْمُخْتَصِرِينَ وَالْمُحَقِّقِينَ، فَاعْتَنَى بِهَذَا الْكِتَابِ الْجَلِيلِ، وَشَرَحَهُ فِي تَوْضِيحِهِ، وَاخْتَصَرَهُ⁴.

— مُخْتَصَرُ الشَّيْخِ خَلِيلِ بْنِ إِسْحَاقَ الْمَالِكِيِّ الْجَنْدِيِّ (ت 776هـ⁵)، وَهُوَ إِخْتِصَارٌ لِلْمُخْتَصَرِ ابْنِ الْحَاجِبِ، أَفْرَغَ فِيهِ خَلِيلٌ كُلَّ مَا كَانَ يَتَوَقَّرُ عَلَيْهِ مِنْ قُدْرَاتٍ: فَقَهًا وَأُسْلُوبًا وَمَنْهَجًا، وَقَدْ جَاءَ أَكْثَرُ تَعْقِيدًا مِنْ مُخْتَصَرِ ابْنِ الْحَاجِبِ، بِالْعَ خَلِيلٌ فِي إِخْتِصَارِهِ حَتَّى جَاءَ عِبَارَةً عَنْ أَلْغَازٍ عَجَزَ عَنْ فَهْمِهَا الْعَالَمُ كَالْجَاهِلِ... فَكَانَ لَا يُدْرَسُ إِلَّا بِشُرُوحِهِ نَظَرًا لُغْمُوضِهِ وَتَعْقِيدِهِ⁶.

¹ زاوي، بوبكر: مكانة كتاب جامع الأمهات لابن الحاجب في حلق العلم بالمغرب الأوسط ق 8-10هـ، مجلة قرطاس الدراسات الحضارية والفكرية، جامعة بوبكر بلقايد، تلمسان، مجلد 3، عدد 5، 2017/06/30م، ص 178. والجديدي، عمر: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مرجع سابق، ص 98.

² تهذيب الرازي كان من الكتب المعتمدة في الفتوى عند المالكية، بل كان هو الكتاب المقرر في الدراسات الفقهية على مدار أربعة قرون من التاريخ قبل أن يزحزحه مختصر ابن الحاجب في القرن الثامن الهجري، ويحل محله في حلقات الدرس، وما هو في الحقيقة إلا اختصار للتهذيب. (أنظر: الجديدي: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مرجع سابق، ص 97، 78).

³ أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي، المعروف بابن البرازعي، القرطبي الأندلسي، ولد سنة 325هـ، كان من كبار أصحاب أبي محمد بن أبي زيد وأبي الحسن القابسي، وكان من حفاظ المذهب المؤلفين فيه، له كتاب التهذيب في اختصار المدونة. لم تحصل له رئاسة القيروان؛ لما لحقه من دعاء أبي محمد بن أبي زيد، فخرج إلى صقلية وقصد أميرها فحصلت له عنده مكانة وعنده ألف كتبه المذكورة، قال الذهبي: والظاهر أنه بقي إلى بعد الثلاثين وأربع مئة. (أنظر: عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج 7، ص 256. والدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مرجع سابق، ج 3، ص 146-148. وابن فرحون: الديباج المذهب، ج 1، ص 349. والذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 17، ص 523).

⁴ ابن الحاجب، جمال الدين: جامع الأمهات، تحقق: أبو عبد الرحمن الأخصري، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-بيروت، ط 1، 1998م، ص 7.

⁵ خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب، المعروف بالجندي، ضياء الدين أبو المودة، حامل لواء المذهب بزمانه بمصر، ألف شرح ابن الحاجب شرحا حسنا وضع الله عليه القبول. حجج وجاور. وكانت وفاته حسب الشيخ الفقيه القاضي ناصر الدين الإسحاق، وهو من أصحابه ومن حفاظ مختصره أنه توفي: ثالث عشر ربيع الأول سنة 776هـ، وأن مختصره إنما لخص منه في حياته إلى النكاح، وباقيه أمته تلاميذه. (أنظر: التنبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص 168 وما بعدها).

⁶ الجديدي: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مرجع سابق، ص 98.

ويذكر صاحب كتاب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، أن: الفقيه محمد بن الفتوح التلمساني (ت 818هـ)¹، هو أول من أشاع بفاس مختصر خليل²، وقال ابن غازي العثماني المكناسي في كتابه: "الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون": "وحدثني عبد الرحمن المزوار أنه-أي محمد بن الفتوح- أول من أدخل مختصر خليل لهذه البلاد، عام خمسة من القرن التاسع (805هـ)³. كما كان محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام أبو الفضل التلمساني (ت 845هـ)⁴، هو أول من أدخل الشامل وشروح المختصر لبهرام الدميري وحواشي التفتازاني على العضد الإيجي وشرح ابن هلال على ابن الحاجب⁵.

ويعتبر المختصر آخر مؤلفات الشيخ خليل، مكث في تحريره أزيد من عشرين سنة، لخص فيه "جامع الأمهات" لابن الحاجب، وأتى فيه بالعجب من حيث الإيجاز، والمقدرة الذهنية على استيعاب المسائل وحصرها في ألفاظ جزلة، أوضح فيها المشهور المعمول به مجردا عن الخلاف. جاء ترتيبه على اثنين وستين بابا وثلاثا وستين فصلا، محتويا على أكثر من مئة ألف مسألة منطوقا ومثلها مفهوما، وصل في تبييضه إلى باب النكاح ثم مات عنه مسودة فأكملها بعده تلاميذه. وقد اعتمد في شرحه على أمهات كتب المالكية التالية: المدونة، والتهديب للبرادعي، والتبصرة لعلي بن محمد

¹ الشيخ الفقيه الصالح الزاهد ولي الله، وبما أنه كان من نجباء طلبة العلم بتلمسان، ولحق بفاس. ثم قصد مكناسة حتى مات هنالك، وكان أول من أدخل مختصر خليل عام 805هـ، وفي فاس أخذ الفقه عن شيخ الجماعة أبي موسى: عيسى بن علال المصمودي. وتوفي بمكناسة سنة 818هـ بالجامع الأعظم عند خزانة الكتب وهو يقرأ البخاري وقد أصابه الطاعون، فحمل إلى بيته والمدرسة الجديدة. (أنظر: ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، اعتناء: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م، ص 264. وابن القاضي، أحمد بن محمد المكناسي (ت 1025هـ): درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحدي أبو النور، مطبعة السنة المحمدية، جمهورية مصر العربية، ط 1، 1971م، ج 2، ص 284. والمكناسي، محمد بن أحمد بن محمد بن غازي العثماني: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، مطبعة الأمنية، الرباط، 1952م، ص 22).

² أنظر: التنبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص 498.

³ ابن غازي العثماني المكناسي، محمد بن أحمد بن محمد: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1988م، ص 59. وابن القاضي: درة الحجال في غرة أسماء الرجال، مرجع سابق، ج 2، ص 284.

⁴ أحد أقران الإمام ابن مرزوق الحفيد، أبو الفضل الشهير بابن الإمام. ارتحل في سنة 810هـ، فأقام بتونس شهرا ثم قدم القاهرة فحج، سافر سنة 812هـ إلى الشام فزار بيت المقدس. له قدم راسخة في البيان والتصوف والشعر والطب، وهو أول من أدخل إلى المغرب شامل بهرام وشرح المختصر له وحواشي التفتازاني على العضد وابن هلال على ابن الحاجب الفرعي وغيرها من الكتب. توفي عام 845هـ (أنظر: ابن مريم: البستان، مرجع سابق، ص 221. وابن القاضي: لقط الفرائد، ص 239).

⁵ ابن مريم: البستان، مرجع سابق، ص 221.

اللّخمي، والجامع لمسائل المدونة لأبي بكر بن عبد الله بن يونس الصّقلي، والبيان والتّحصيل والمقدّمات والمهمّات لابن رشد، وشرح التلقين لمحمّد بن علي بن عمر التّميمي المازري، وقد ذكرها خليل في مقدّمته¹.

وغير ما ذكرنا من أُمّهات ومصادر الفقه المالكيّ كثير، والتي دخلت إلى المغرب عن طريق الرّحلة. فاعتنى المغاربة بهذه الأصول والمصادر أشدّ عناية بالحفظ والمدارسة والشرح والتّعليق، ممّا ساهم في ترسيخ المذهب المالكيّ في المغرب بين العامّة والخاصّة على حدّ سواء.

وقد تحدّثت عديد المصادر والمصنّفات عن الأعلام الذين رحّلوا إلى الحجاز وأتوا بمذهب إمام المدينة، وذكر أنّ عدّد الأندلسيّين الذين سَعَوْا من مالِك يُقدَّر بما يتجاوزُ اثنا عشر رجلاً²، أشهرُهم: الغازي بن قيس (ت 199هـ)³ وزِيَاد بن عبد الرحمن الملقَّب بشبّطون (ت 193هـ)⁴، وقرعوس بن العباس (ت 220هـ)⁵، فجاءوا بعلم مالِك، وأبأنوا للنّاس فضله، واقتداء الأئمّة به، فعُرف حقُّه، ودُرس

¹ بلعقون، عبد الرحمن: مختصر خليل وأهميته في الفقه المالكي، مجلة الإحياء، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة 1، المجلد 19، العدد 22، 2019/09/22، ص 445-446-449.

² الهنتاتي، نجم الدين: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 5هـ، منشورات تير الزمان، تونس، 2004م، ص 37.

³ ابن قيس، الإمام شيخ الأندلس، المقرئ أبو محمد الأندلسي، الأموي، المحدث، ارتحل، وأخذ عن ابن جريج، وابن أبي ذئب، والأوزاعي، ومالك، ونافع بن أبي نعيم وتلا عليه. روى عنه عبد الملك بن حبيب، وأصْبَغ بن خليل، وعثمان بن أيوب، وابنه عبد الله بن الغاز. وحفظ "الموطأ"، وهو أول من أدخل قراءة نافع وموطأ مالك إلى الأندلس. توفي سنة 199هـ. (أنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 9، ص 323. وابن فرحون: الديباج المذهب، مرجع سابق، ج 2، ص 136. والحَمِيدِي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، مرجع سابق، ص 475).

⁴ شبّطون، أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن، اللّخمي الأندلسي. سمع من: الليث، ومالك، وسليمان بن بلال، وأبي معشر السندي وغيرهم. وبه تفقه يحيى بن يحيى الليثي أولاً، وسماعه من مالك قبل رحلته من الأندلس. سمع زياد من مالك الموطأ، وله عنه في الفتاوى كتاب سماع معروف بسماع زياد، وكان زياد أول من أدخل إلى الأندلس موطأ مالك، مات سنة 193هـ. (أنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 9، ص 312. والقاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، تحق: عبد القادر الصحرّاي، ج 3، ص 116).

⁵ قرعوس بن العباس بن قرعوس بن حميد. ويقال: عبيد بن منصور بن محمد بن يوسف الثقفي من أهل قرطبة، سمع من مالك ومن الثوري وابن جريج والليث وغيرهم، كان عالماً بمذهب مالك وأصحابه، لا علم له بالحديث، روى عن مالك الموطأ وشيئاً من المسائل. وقال يحيى بن يحيى: هو من أهل العلم كبير المنزلة، ثقة، روى عنه بن حبيب وأصْبَغ بن خليل. (أنظر: ابن فرحون: الديباج المذهب، مرجع سابق، ج 2، ص 154).

مذهبُه، إلى أن أخذ أميرُ الأندلس هشام بن عبد الرحمن النَّاسَ جميعًا بالتزام مذهب مالك، وصيّر القضاء والفتيا عليه، وذلك في عشرة السبعين ومائة من الهجرة في حياة الإمام مالك رحمه الله¹. ورغم تأخر يحيى بن يحيى الليثي، فقد ظلت روايته للموطأ عن مالك هي الأكثر شهرة². ويذكر الجيادي في كتابه: "مباحث في المذهب المالكي بالمغرب"، اختلاف المؤرخين في تحديد أول من أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس، فقد ذهب ابن القوطية وتبعه السيوطي في البغية، والعياشي في الرحلة³. إلى أنه الغازي بن قيس، وذلك في خلافة عبد الرحمن الداخل⁴، بينما يرى الجمهور أن أول من أدخله هو: زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون⁵.

إلا أن الجمع بين الرأيين ممكن؛ باعتبار أن الغازي (الغاز) بن قيس، أول من أدخله، إلا أنه لم يشتهر ويذاع بين الناس على نطاق واسع، إلا بعد ما جاء زياد الذي تصدّى لإقرايه وإسماعيه الناس⁶. ونجد من العسير تحديد من كان له السبق في إدخال المذهب المالكي إلى إفريقية؛ خاصة إذا علمنا أن تلاميذ مالك من الأفارقة يفوق الثلاثين، والمصادف لا تسعنا في ذلك، فقد نجد أخبارًا كثيرة، لكنها متضاربة نسبيًا وتتسم بالضبابية؛ إذ نجد من الدراسات الحديثة تذكر أنه تم دخول موطأ مالك - رحمه الله - إلى إفريقية كان في حدود سنة 150هـ⁷. والقاضي عياض مثلاً، الذي يضع أبو المغيرة أسد بن الفرات (ت

¹ القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، مرجع سابق، ج1، ص26-27.

² الهنتاتي، نجم الدين: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 5هـ، مرجع سابق، ص37.

³ أول من أدخل الموطأ للأندلس، إمام الناس بقرطبة أبو محمد الغازي بن قيس الأموي القرطبي القائل: "والله ما كذبت منذ اغتسلت" وفقه الأندلس، وأول من أدخلها متقنا زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون، والإمام الحجة رئيس الأندلس وكبيرها يحيى بن يحيى. (أنظر: العياشي، عبد الله بن محمد (ت1090هـ): الرحلة العياشية للبقاع الحجازية (ماء الموائد)، تحقق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م، ج2، ص271).

⁴ في أيام عبد الرحمن بن معاوية دخل الغازي بن قيس الأندلس بالموطأ، عن مالك بن أنس - رحمه الله -، وبقرأة نافع بن أبي نعيم، وكان مكرما له ومتكررا عليه بالصلة في منزله. (أنظر: ابن القوطية (ت367هـ): تاريخ افتتاح الأندلس، تحقق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1989م، ص56).

⁵ القاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج3، ص117.

⁶ ولعل هذا يفهم من قول المقرئ "وهو أي زياد أول من أدخله إلى الأندلس مكملا متقنا". (أنظر: الجيادي: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مرجع سابق، ص17. نقله عن: المقرئ: نفح الطيب، مرجع سابق، ج2، ص46).

⁷ الهنتاتي: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 5هـ، مرجع سابق، ص38.

213هـ¹ من بين الذين أدخلوا الفقه المالكي إلى إفريقية، في حين أنه سمع الموطأ قبل رحلته إلى المشرق، عن علي بن زياد التونسي (ت 183هـ²) بإفريقية، وإقراراً بمكانة بن زياد الرفيعة، يقول أسد بن الفرات: "إني لأدعو الله عز وجل لعلي بن زياد مع والدي، لأنه أول من تعلمت العلم عليه"³، وهذا يبرز الدور الريادي لعلي بن زياد الذي يُعدُّ - كما قال أبو سعيد بن يونس - "أول من أدخل المغرب جامع سفيان الثوري، وموطأ مالك، وفسر لهم قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه"⁴. وفي هذا السياق يقول الشيخ محمد النيفر: "وهذه المدرسة التي وضع لبنتها علي بن زياد هي مدرسة مالك بن أنس، فهو الذي أدخل مذهب هذه الديار المغربية وعرف به وشرحه للناس، وبيّن قواعده حتى اقتنعت به الأفكار، ولم يجتذبا إليه بسلطان ولا نفوذ"⁵.

لكن ابن زياداً - للأسف الشديد - لم يُخلّد أثره، ولم يُنشر علمه، بل اعتراه الإهمال والانديثار عقب موته؛ لأنه لم يكن له من الطلاب من يحمل علمه ويواصل مسيرته في نشر المذهب المالكي، والدفاع عنه، وتبيين مزايده، يدل ذلك ما ذكره تلميذه سُحنون عندما قال: "لو كان لعلي بن زياد من الطلب ما للمصريين ما فاقه منهم أحد، وما عاشره منهم أحد"⁶.

¹ أبو المغيرة، أسد بن الفرات بن سنان، مولى بني سليم بن قيس، أبو عبد الله الحراني، ثم المغربي، أصله من خراسان، اختلف إلى علي بن زياد بتونس فلزمه وتعلم منه وتفقه بفقهه، ثم رحل إلى المشرق فسمع من مالك بن أنس موطأه وغيره، ثم ذهب إلى العراق والتقى ابن وهب، وذهب إلى ابن القاسم بكتب ابن حنيفة، فأجابه بما حفظ عن مالك، وما يعلم من قواعد مالك، وتسمى هذه المسائل الأسدية، افتتح بلداً من جزيرة صقلية وأدركه أجله هناك في سنة 213هـ. (أنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 10، ص 226. والقاضي عياض: تراجم أغلبية، تحقيق: محمد الطالبي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1968م، ص 52 وما بعدها).

² علي بن زياد أبو الحسن التونسي العيسوي، ولد بطرابلس ثم انتقل إلى تونس فسكنها. ثقة مأمون، خير متعبد، بارع في الفقه، سمع من مالك، والثوري، والليث بن سعد، وابن لهيعة وغيرهم. وسمع بإفريقية قبل هذا من خالد بن أبي عمران. لم يكن بعصره بإفريقية مثله. سمع منه البهلول بن راشد، وأسد بن الفرات، روى عن مالك الموطأ وكتبنا ثلاثة وهي: بيوع، ونكاح، وطلاق، وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي بن زياد؛ ليعلمهم بالصواب. (أنظر: ابن فرحون: الديباج المذهب، مرجع سابق، ج 2، ص 92. القاضي عياض: تراجم أغلبية، مرجع سابق، ص 21-22-23).

³ المالكي، عبد الله بن محمد: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1994م، ج 1، ص 234.

⁴ المرجع نفسه، ج 1، ص 234.

⁵ موطأ الإمام مالك برواية علي بن زياد، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 3، 1980م، ص 39.

⁶ القاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج 3، ص 82.

وَيُصَوِّرُ لَنَا الْقَاضِي عِيَاضَ انْتِشَارِ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ فِي كَامِلِ رُبُوعِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ، وَاسْتَقْرَارُهُ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ عَلَى أَيْدِي ثَلَاثَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمَالِكِيَّةِ الْمَغَارِبَةِ، فَيَقُولُ: "أَمَّا إِفْرِيقِيَّةٌ وَمَا وَرَاءَهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، فَقَدْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهَا فِي الْقَدِيمِ مَذْهَبُ الْكُوفِيِّينَ، إِلَى أَنْ دَخَلَ عَلِيٌّ بْنُ زِيَادٍ وَابْنُ أَشْرَسَ¹ وَابْنُ الْبَهْلُولِ بْنُ رَاشِدٍ (ت 183هـ)²، وَبَعْدَهُمْ أَسَدُ بْنُ الْفَرَاتِ وَغَيْرُهُمْ بِمَذْهَبِ مَالِكٍ فَأَخَذَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَلَمْ يَزَلْ يَفْشُو إِلَى أَنْ جَاءَ سُحُنُونُ فَغَلَبَ فِي أَيَّامِهِ وَقَضَّ حَلَقَ الْمُخَالَفِينَ وَاسْتَقَرَّ الْمَذْهَبُ بَعْدَهُ فِي أَصْحَابِهِ فَشَاعَ فِي تِلْكَ الْأَقْطَارِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا"³.

فَبُرُوزُ شَخْصِيَّةِ سَحْنُونِ بْنِ سَعِيدٍ، الَّذِي تَوَلَّى الْقَضَاءَ فِي إِفْرِيقِيَّةِ سَنَةِ 234هـ، فَضَّ حَلَقَ الْمُخَالَفِينَ الْكَثِيرَةَ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ، وَفَرَّقَ أَهْلَ الْبِدْعِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَنَازَلُونَ وَيُظْهِرُونَ زَيْغَهُمْ، فَشَاعَ بِذَلِكَ الْمَذْهَبُ الْمَالِكِي وَاسْتَقَرَّ فِي إِفْرِيقِيَّةِ، وَقَدْ أَرَسَاهُ سَحْنُونُ بِتَقْلِيدِهِ مَنْصِبَ الْقَضَاءِ فِي عَهْدِ دَوْلَةِ بَنِي الْأَغْلَبِ فِي مَدِينَةِ الْقَيْرَوَانِ⁴.

فَإِذَا مَا شَفْنَا أَنْ نَبْسِطَ الْحَدِيثَ حَوْلَ الْأَعْلَامِ وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ نَشَرُوا الْمَذْهَبَ الْمَالِكِيَّ بِإِفْرِيقِيَّةِ، وَكَانَتْ بِصِمَاتِهِمْ ظَاهِرَةً فِي ذَلِكَ، وَكَانُوا مُقَدِّمَةً لانتشار المذهب والتعريف به، بِضَمِيمَةِ عَلِيِّ بْنِ زِيَادٍ إِلَيْهِمْ - وَإِنْ كَانَ تَلَامِيذُ مَالِكٍ مِنَ الْأَفَارِقَةِ يُفَوِّقُ عِدَدَهُمُ الثَّلَاثِينَ رَجُلًا - سَبْعَةٌ، وَهُمْ عَلَى التَّوَالِي: الْبَهْلُولُ بْنُ رَاشِدٍ (ت 183هـ)، وَأَبُو مَسْعُودٍ الْإِفْرِيقِي بَنُ أَشْرَسَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ فُرُوحٍ (ت 176هـ)⁵، وَأَبُو مُحْرَزٍ

¹ اختلف في اسمه: فقيل عبد الرحيم، وقيل العباس، وقيل عبد الرحمن بن أشرس، قال أبو العرب: هو أنصاري من العرب من أهل تونس، كنيته أبو مسعود، ونسبه، ولم يسمه. وكان ثقة فاضلا، وسماه المالكى: العباس، وقال: هو مولى لأنصار، سمع من مالك بن أنس ومن ابن القاسم، روى عنه عبد الرحمن حديث الموطأ. قال سحنون: كان ابن أشرس أحفظ على الرواية، وكان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (أنظر: أبي العرب، محمد بن أحمد بن تميم (332هـ): طبقات علماء إفريقيا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ص 253. والقاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج 3، ص 85. وابن فرحون: الديباج المذهب، مرجع سابق، ج 2، ص 3).

² البهلول بن راشد أبو عمرو من أهل القيروان، سمع من مالك والثوري وعبد الرحمن بن زياد والليث بن سعد، وابن غانم القاضي، وغيرهم. سمع منه سحنون، وغيره. ونظر إليه مالك بن أنس فقال: هذا عابد بلده. وجاءت إلى مالك أقضية من عند ابن غانم، فقال: ما قال فيها المصفر؟ يعني البهلول. وما قال فيها الفارسي؟ يعني عبد الله بن فروخ. وتوفي سنة 183هـ. (أنظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج 3، ص 88).

³ القاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج 1، ص 25.

⁴ لويزري، سعيدة: المذهب المالكي في المغرب الأوسط - دخوله وانتشاره - (3-5هـ)، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: بشاري لطيفة بن عميرة، جامعة بزريرة-الجزائر، 2010/2009م، ص 70.

⁵ القاضي أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي، وُلِدَ بِالْأَنْدَلُسِ سَنَةَ 115هـ، رَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ فَسَمِعَ مِنْ أَبِي زَائِدَةَ التَّائِبِي، وَتَفَقَّهُ عَلَى يَدِ مَالِكِ بْنِ أَنْسَ، وَسَمِعَ مِنْ سَفْيَانَ الثَّوْرِي وَالْأَعْمَشِ. كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ فُرُوحٍ لَمَّا قَدَّمَ عَلَى مَالِكٍ فِي رَحْلَتِهِ الثَّانِيَةِ، قَامَ لَهُ مَالِكٌ، وَقَالَ: هَذَا فقيه المغرب. اجتمع فروخ بأبي حنيفة وذاكره. مات بعد انصرافه من الحج في مصر سنة 176هـ. (أنظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج 4، ص 566. والقاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج 3، ص 102. والمالكى: رياض النفوس، مرجع سابق، ج 3، ص 176. والسنوسي، محمد بن عثمان: مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحق: محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1994م، ج 3، ص 35).

القاضي (ت 214هـ)¹، وعبد الله بن أبي حسان اليحصبي (ت 227هـ)²، وعبد الله بن غانم القاضي (ت 190هـ)³، وكلهم لم يبلّغوا مبلغ ابن زياد، ولم يصنعوا صنيعه، ولم يفروا فريته؛ فابن زياد هو الركيزة الأولى لهذا المذهب، مذهب إمام دار الهجرة، وهو ما دعا سُحنون إلى أنَّهُ لا يُقدّم عليه أحدًا من أهل المغرب أو المشرق⁴.

وقد استمرّ التمسُّك بمذهب إمام المدينة مالك بن أنس رحمه الله إلى زمن المرابطين، فكان حُكَّام الدولة المرابطية - فيما نقله المؤرخون - لا يقطعون أمرًا في جميع مملكتهم دون مُشاورة الفقهاء، فقد بلّغوا في أيّامهم منزلة رفيعة لم يعهدوا مثلها في الصّدر الأوّل من فتح الأندلس⁵.

ولقد اتّسم عهد الدولة المرابطية باعتماد مذهب إمام دار الهجرة، مالك بن أنس - رحمه الله -، إذ جعلوه المذهب الرسمي للدولة، ولذلك فقد أقرّ المرابطون المذهب المالكي في العبادات؛ ذلك لأنّ زعماءهم

¹ هو القاضي أبو محرز محمد بن عبد الله بن قيس بن مسلم الكنايني، رحل وسمع من مالك بن أنس وعبد الله بن كثير وعبد الرحمن بن أنعم وعبد الله بن فروخ. وكان فاضلاً ورعاً، فصيح اللسان بصيراً باللغة والشعر، فقيهاً، عارفاً بالحجة، كثير الثبوت في أحكامه. ولي خطة قضاء إفريقية سنة 191هـ، وعدل في قضاائه إلى أن توفي سنة 214هـ. (أنظر: السنوسي: مسامرات الظريف بحسن التعريف، مرجع سابق، ج 3، ص 36).

² يزيد بن عبد الرحمن، رحل إلى مالك، فكان عنده مُكرّماً، وسمع من ابن أبي ذئب، وابن عيينة. وكان ثقة. روى عنه سُحنون، وفرات بن سليمان، وابن وضاح. وقال سُحنون: كنتُ أوّل طلبي إذا انغلقت عليّ مسألة من الفقه آتي ابن أبي حسان، فكأنّما في يده مفتاح لما انغلق. سمع من عبد الرحمن بن زياد، ومالك، وابن أبي ذئب، قال أبو العزب: وقال لي فُرات: مات عبد الله بن أبي حسان سنة 227هـ. (أنظر: أبو العزب: طبقات علماء إفريقية، مرجع سابق، ص 75. وابن فرحون: الديباج المذهب، مرجع سابق، ج 1، ص 418).

³ هو القاضي أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن غانم بن شريحيل ابن ثوبان الرُعيني، روى عنه القعني وابن القاسم، سمع من مالك، وعليه اعتماده، ومن سفيان الثوري، ومن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، وغيرهم. كان مالك يُجلّ ابن غانم، وإذا جاء أقعده إلى جانبه، ويسأله عن أخبار المغرب. ولاه روح بن حاتم قضاء إفريقية سنة 171هـ برأي من ابن فروخ، وهذا في حياة مالك. توفي سنة 290هـ. (أنظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج 3، ص 65. والسنوسي: مسامرات الظريف بحسن التعريف، مرجع سابق، ج 3، ص 36).

⁴ موطأ الإمام مالك برواية علي بن زياد، مرجع سابق، ص 7.

⁵ المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مرجع سابق، ص 171.

الدينيين ومؤسسي دولتهم الفتية، أمثال: الشيخ أبو عمران الفاسي، حجاج (وجاج) بن زلو (ت 445هـ)¹، والشيخ عبد الله بن ياسين (ت 451هـ)²، كانوا فقهاء مالكيين³.

ثم أتى ابن تومرت، مؤسس الدولة الموحدية وأراد تحجيم دور فقهاء الدولة المرابطية بالتدريج، وأتهمهم بالقصور على الفروع وتركهم الأصول، ورمأهم بالتجسيم في الجانب العقائدي، إلا أنه لم يهاجم المذهب المالكي؛ لعلمه أنه مذهب مكيين في نفوس أهل الأندلس والمغرب، فجعل يصرف الناس عن تعلقهم بمذهب مالك عن طريق تأليفه لمذكرات فقهية في العبادات، فصنف كتاباً مشهوراً عند الموحدين، وهو كتاب: "مُحَاذِي الموطأ" جمع فيه الأحاديث النبوية الواردة في موطأ مالك بعد أن حذف منه أسانيدَه، وجرده من أسماء العلماء واختلافاتهم، وأعاد ترتيبه حسب الأحكام⁴. وسار خلفه عبد المؤمن بن علي على نفس السيرة، وكان أكثر جرأة منه إذ أمر بحرق كتب الفروع والاقتصار على الأحاديث النبوية، وفي هذا يقول ابن أبي زرع: "ثم دخلت سنة 550هـ، فيها أمر أمير المؤمنين بإصلاح المساجد في جميع بلاده وتغيير المنكر وتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث، وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة⁵.

¹ وكاك (بجيم مصرية) بن زلو اللمطي، اسمه أبو عبد الله محمد ووجاج، ويُطلق وكاك وصفاً للعالم الملم بالقرآن وأمور الدين، نشأ في منطقة إداوسمال، جنوب مراكش، يُنسب إلى الأدارسة، أخذ العلم عن عدة أشياخ مشهورين، كابن أبي زيد القيرواني، وعن أبي عمران الفاسي في القيروان، ورحل للأندلس وأخذ عن أعلام قرطبة، ثم نزل بنفيس وأخذ عن إمامها أبي محمد ابن تيسيت بأغمات، ثم انتقل إلى سحلماسة علما وداعيا إلى الله، ثم انتقل من نفيس إلى أكلو التي بنى فيها رباطه وسماها دار المرابطين. (أنظر: السوسي: معلمة المغرب، مرجع سابق، ج 22، ص 7609. والتادلي: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص 89).

² هو الفقيه عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الحزولي المصمودي، مهدي المرابطين والقائم بدعوتهم، كان من طلبة وراكك ابن زلو اللمطي في دار المرابطين، من حذائق الطلبة الأذكياء النبهاء النبلاء الفضلاء، غادر المغرب إلى الأندلس في بداية الربع الثاني من هذا القرن، ولبت فيه سبع سنين حصل خلالها علوما كثيرة، ثم رجع إلى المغرب الأقصى. وتلاميذه كثرة كاثرة بلغوا ألف رجل من أشراف الملتزمين، استشهد في الجهاد ضد قبيلة برغواطة الوثنية سنة 451هـ. (أنظر: أبي زرع: الأنيس المطرب، مرجع سابق، ص 123. والقاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج 8، ص 81. وابن طرهوني، محمد بن زرق: التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، دار ابن الجوزي، ط 1، 1426هـ، الدمام، المملكة العربية السعودية، ج 1، ص 249).

³ طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال كتبه وشروحه، مرجع سابق، ص 29.

⁴ أنظر: سلطاني، الجيلالي: المذهب المالكي على عهد الدولة الموحدية بالمغرب الإسلامي، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، المجلد 5، العدد 6، 15/12/1999م، ص 271. نقلا عن: عبد الله علام: الدولة الموحدية بالمغرب، ص 307.

⁵ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مرجع سابق، ص 195.

ولما كَانَ عَهْدُ الْخَلِيفَةِ يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ، تَطَوَّرَ الْأَمْرُ إِلَى الْحَسْمِ فِي مَحْوِ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ وَإِزَالَتِهِ مِنَ الْمَغْرِبِ. يَقُولُ الْمَرَاكَشِيُّ: "وَهَذَا الْمَقْصِدُ بَعَيْنِهِ كَانَ مَقْصِدُ أَبِيهِ وَجَدَّهُ، إِلَّا إِنَّهُمَا لَمْ يُظْهَرَا وَأُظْهَرَا يَعْقُوبُ هَذَا¹. وَجَاءَ قَرَارُهُ الصَّادِرُ بِإِخْرَاقِ كُتُبِ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ دُونَمَا خَوْفٍ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ هَذِهِ الْمَرَّةَ، يَقُولُ الْمَرَاكَشِيُّ: "وَفِي أَيَّامِهِ انْقَطَعَ عِلْمُ الْفُرُوعِ، وَخَافَهُ الْفُقَهَاءُ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاقِ كُتُبِ الْمَذْهَبِ بَعْدَ أَنْ يُجَرَّدَ مَا فِيهَا مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْقُرْآنِ، فَأُحْرِقَ مُدَوَّنَةُ سُحْنُونِ، وَكُتَابُ ابْنِ يُونُسَ، وَنَوَادِرُ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ، وَمُخْتَصَرُهُ، وَكُتَابُ التَّهْذِيبِ لِلْبِرَازِعِيِّ، وَوَاضِحَةُ ابْنِ حَبِيبٍ².

لَقَدْ أَخَذَ الْمُوَحِّدُونَ بِالْمَذْهَبِ الظَّاهِرِيِّ³، وَحَارَبُوا الْمَذْهَبَ الْمَالِكِيَّ، وَأَحْرَقُوا كُتُبَ الْفُرُوعِ، وَدَعَوْا إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَى الْأُصُولِ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فِي الْعِبَادَاتِ؛ وَهُوَ مَا يَدْعُو إِلَى الدَّهْشَةِ وَالِاسْتِعْرَابِ؛ لِأَنَّ الْأَخَذَ بِالْمَذْهَبِ الظَّاهِرِيِّ فِي الْفِقْهِ يَقْتَضِي بِالْمُقَابِلِ الْأَخَذَ بِعَقِيدَةِ السَّلَفِ الَّتِي تَحْمِلُ النُّصُوصَ الْعَقْدِيَّةَ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَتَنَاقُ عَنِ التَّأْوِيلِ⁴.

وَمَنْ الْمَعْرُوفُ أَنَّ الْمَغْرِبَ رَجَعَ أَوَائِلَ الْعَصْرِ الْمُرِينِيِّ إِلَى الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ... وَيُظْهَرُ أَنَّ السُّلْطَانَ يَعْقُوبَ بْنَ عَبْدِ الْحَقِّ الْمُرِينِيِّ حَاوَلَ أَنْ يُعَمِّمَ تَطْبِيقَ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ عَلَى سَائِرِ الْمِحَاكِمِ الْمَغْرِبِيَّةِ، فَقَدْ جَاءَ فِي تَرْجُمَةِ مَفْضَلِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَعْرُوفِ بَابِنِ الدَّلَايِ⁵: أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ - لَمَّا وَلَّاهُ قِضَاءَ فَاسَ - جَعَلَ لَهُ

¹ المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مرجع سابق، ص 279.

² المرجع نفسه، ص 278.

³ هناك خلافاً بين المؤرخين حول ظاهريية الموحدين، وقد ساق توفيق الغلبزوري، صاحب كتاب " المدرسة الظاهريية بالمغرب والأندلس " من الأدلة ما يُثبت ظاهريية سلاطين الدولة الموحديية، بدءاً من المهدي بن تومرت إلى عبد المؤمن بن علي إلى يوسف بن عبد المؤمن إلى المنصور يعقوب بن يوسف. (أنظر: توفيق بن أحمد الغلبزوري الإدريسي: المدرسة الظاهريية بالمغرب والأندلس، دار ابن حزم، الرياض، ط 1، 2006م، ص 683).

⁴ طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال كتبه وشروحه، مرجع سابق، ص 32.

⁵ أبي أمية مفضل بن محمد بن محمد بن إبراهيم العذري المُرِي الْمَالِكِي الْمَعْرُوفُ بَابِنِ الدَّلَايِ، رَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ فَأَخَذَ عَنْ عَزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ وَطَبَقَتْهُ، وَكَرَّ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فَوَلَّى قِضَاءَ الْمَرِيَّةِ، ثُمَّ أَجَازَ الْبَحْرَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَوَلَّاهُ السُّلْطَانُ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ قِضَاءَ فَاسَ. (أنظر: الكتاني، عبد الحي: ماضي القرويين ومستقبلها، ضبط وتعليق: عبد المجيد بوكاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2006م، ص 86).

النَّظَرُ عَلَى صَاحِبِ الشُّرْطَةِ وَصَاحِبِ الْحِسْبَةِ، فَكَانَا لَا يَقْطَعَانِ أَمْرًا دُونَهُ¹. ولهذا كَانَ هَذَا الْمَذْهَبُ هُوَ الْمَسِيطَرُ فِي مِيدَانِي التَّشْرِيعِ وَالْعِبَادَاتِ².

وقد أَوَّلَى أُمَرَاءُ بَنِي مَرِينٍ اهْتِمَامَهُمُ الْكَبِيرَ لِأَحْيَاءِ هَذَا الْمَذْهَبِ وَتَوْظِيْفِهِ فِي مُوَاجَهَةِ التَّيَّارَاتِ الْمَذْهَبِيَّةِ الَّتِي تَعَصِفُ بِوَحْدَةِ الْجَمَاعَةِ وَالْبِلَادِ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءِ الْأَمِيرُ أَبُو الْحَسَنِ الْمُرِينِي، الَّذِي كَانَ يَسْتَقْبِلُ فُقَهَاءَ الْمَالِكِيَّةِ فِي مَجْلِسِهِ وَيَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ وَيُصْغِي لَهُمْ، حَتَّى أَصْبَحَ الْمَذْهَبُ الْمَالِكِيُّ هُوَ السَّائِدُ وَالْمَسِيطَرُ، وَتَأَسَّسَتْ الْمَدَارِسُ الْحُكُومِيَّةُ وَانْتَشَرَ التَّعْلِيمُ بِهَا... وَكَانَ لَهُ الْأَثَرُ عَلَى الْفَقْهِ الْمَالِكِيِّ، فَنبَغَ فِيهِ فَطَاحِلٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ³.

وكخلاصة لهذا المبحث، يبدو أن المذهب المالكي لم يجد صعوبة في تقبله من طرف الأهالي والسكان بالغرب الإسلامي؛ لأنه فقه قائم على الواقع، ومراعاة تقاليد وعادات القبائل وأعراف المجتمع؛ ومما يدلُّ على ذلك أن كتب النوازل المغربية، تشهد بأن فقهاء المغرب، كانوا مالكيين، بدون تقليد لمالك، في آرائه وأقواله، جملة وتفصيلاً. كما أنهم لم يُخالفوه وحسب، بل أيضاً أنشئوا أصولاً، تنضاف إلى أصول مالك، وتنسجم مع ما أملتته ظروفهم الزمانية والمكانية؛ كـ "العمل الفاسي"، و "العمل الرباطي"، و "العمل السجلماسي"، إلخ⁴.

المطلب الثالث: المنظومة التربوية وطريقة الجنيـد

يُرجِعُ الْبَاحِثُونَ دُخُولَ التَّصَوُّفِ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى الْقَرْنِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ لِلْهَجْرَةِ/الْحَادِي عَشَرَ وَالثَّانِي عَشَرَ لِلْمِيلَادِ، عَنْ طَرِيقِ حُجَّاجِ الْأَمَاكِنِ الْمُقَدَّسَةِ. وَفِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ يَصْعُبُ الْحَدِيثُ فِيهَا عَنْ تَصَوُّفٍ "مَغْرِبِيٍّ"؛ لِأَنَّ أَغْلَبَ وَأَهَمَّ صُوفِيَّةِ الْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ الْآتِي ذِكْرَهُمْ، كَانَتْ صُوفِيَّتُهُمْ شَرْقِيَّةً قَلْبًا وَقَالِبًا، وَلَمْ يَتِمَّ مَغْرِبَةُ التَّصَوُّفِ إِلَّا فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ. وَمِنْ أَهَمِّ أَسَاطِينِ التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ بِالْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ، نَذَكُرُ:

¹ ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، مرجع سابق، ج1، ص339.

² أنظر: المنوني، محمد: ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2000م، ص153.

³ فلوسي، مسعود: تاريخ المذهب المالكي في الجزائر، مذكرة لطلبة ماستر2 في الفقه المالكي وأصوله، جامعة باتنة1 الحاج لخضر، كلية العلوم الإسلامية، قسم الشريعة، 2021/2020م، ج1، ص23.

⁴ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص126.

ابن العريف (ت 537هـ)¹، وعلي بن حَرْزَم (ت 559هـ)²، وأبي مَدِين شَعِيب بن الغوث (ت 594هـ)³، ثم جَاءَ عَبْدُ السَّلَام بنُ مَشِيش (ت 626هـ)⁴، الذي حَاوَلَ التَّمَيُّزَ عَنْ أَشْيَاخِهِ، وَالتَّحَرُّزَ مِنَ التَّأَثُّرَاتِ الشَّرْقِيَّةِ فِي الْمَجَالِ الصُّوفِيِّ، ثُمَّ اسْتَكْمَلَ تَلْمِيذُهُ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِي (ت 656هـ)⁵ مَرَحَلَةَ مَغْرَبَةِ

¹ أحمد بن محمد بن موسى ابن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن العريف، من طنجة. سُعي به إلى السلطان، فأمر بإشخاصه إلى حضرة مراكش، فوصلها وتوفي بها ليلة الجمعة صدر الليل، ودفن بها سنة 537هـ. أخذ عن: حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، والقاضي أبي بكر محمد بن العريف، ومحمود الزخشري، والإمام المازري، وأبو بكر الطرطوشي وغيرهم. (أنظر: المقرئ: نفع الطيب، مرجع سابق، ج 3، ص 229. والتادلي: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص 118. والسملالي: الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، مرجع سابق، ج 2، ص 5).

² أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن حَرْزَم، من أهل فاس، وبها توفي أواخر شعبان عام 559هـ. أخذ عن جماعة اعتمد منهم عمه أبا محمد وشيخه ابن العربي، قدم حضرة مراكش، أخذ عنه أبو مدين وأبو عبد الله التاودي. وكان فقيها، حافظا للفقه زاهدا في الدنيا، وكان ممن يذهب إلى حرق كتاب الإحياء للغزالي أول أمره، ثم رجع عن ذلك وأحكم الإحياء وكان = يُدْرُسُهُ. (أنظر: التنبكي: نيل الابتهاج، مرجع سابق، ص 309. والتادلي: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص 168. وابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مرجع سابق، ص 265).

³ ولي الله أبو مدين شَعِيب بن حسن الأندلسي البجائي، شيخ المشايخ وسيد العارفين وقدة السالكين، جمع الله له علم الشريعة والحقيقة. كان من حفاظ الحديث خصوصا الترمذي، وكان يقوم عليه وكانت ترد إليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت، أخذ عن الشيخ ابن حَرْزَم وابن غالب وأبي يعزى يلنور، رحل إلى المشرق فأخذ عن العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء. توفي سنة 594هـ. (أنظر: مخلوف، محمد بن محمد بن عمر بن قاسم، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2003م، ج 1، ص 236. والشعراني: الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج 1، ص 274).

⁴ عبد السلام بن مشيش العلمي، عالم متصوف. ولد بمنطقة بني عروس بالقرب من مدينة طنجة، سنة 563هـ، يُعدُّ أستاذ أبي الحسن الشاذلي والبدوي والدسوقي. وقد اتجه ابن مشيش منذ صغره للعبادة والنسك. قُتل في زمن الدولة الموحدية وذلك في سنة 626هـ، واتهم بقتله جماعة ابن أبي الطواجين عند تأهب الشيخ لصلاة الفجر. وذلك بجبل الأعلام بثغر تطوان. (أنظر: الكوهن الفاسي، الحسن بن محمد: طبقات الشاذلية الكبرى، وضع حواشيه: مرسي محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 2، 1426هـ/2005م، ص 59. ومحمود، عبد الحليم: القطب الشهيد عبد السلام بن مشيش، دار المعارف، القاهرة، ص 16 وما بعدها).

⁵ علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوسف أبو الحسن الشاذلي، وشاذلة قرية بإفريقية. المغربي الضرير الزاهد، نزيل الإسكندرية وشيخ الطائفة الشاذلية. وهو رجل كبير القدر، له شعر ونثر فيه متشابهات وعبارات، حج مرات وتوفي بصحراء عذاب قاصد الحج، فدفن هناك في أول ذي القعدة سنة 656هـ. وله حزبان صغير وكبير. (أنظر: الشعراني: الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج 2، ص 8. وخليل الصفدي: الوافي بالوفيات، مرجع سابق، ج 21، ص 214).

التصوّف لتصل ذروتها مع مُحَمَّد بنِ سُلَيْمَانَ الجزولي (ت 870هـ)¹، هذا الأخير الذي يُعْتَبَرُ أَوَّل من أسس طَرِيقَةً صُوفِيَّةً مغربية، هذه الطرق التي بدأت معالمها الأولى في التشكل في العهد الموحدى².

ويمكن ربط انتشار التصوّف بالغرب الإسلامي بدخول كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي، هذا الكتاب الذي أثار جدلاً كبيراً في المجتمع المغربي خلال فترة حكم المرابطين، وخاصة عند طبقة الفقهاء؛ لما لاحظوا فيه من أبعاد صُوفِيَّةٍ وتأويلاتٍ لآيات القرآن والأحاديث النبوية، وخوض في الفلسفة والكلام، فتطالعنا كتب التاريخ عن عملية حرق كتاب الإحياء تولى كبرها بعض أمراء المرابطين في القرن الخامس الهجري ببلاد المغرب والأندلس، "ففي سنة 503هـ، عزم أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وبإجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدان (ت 508هـ)³ وفقهاءها، على إحراق كتاب الإحياء، ونفذت كلمته إلى كافة مدن المغرب والأندلس بإحراقه حيثما وجد"⁴.

ثم واصل ابنه تاشفين بن علي بن يوسف عملية الحرق سنة 538هـ، والمجيز أن صاحب كتاب الإحياء كان على علاقة ودية تربطه بالأمير يوسف بن تاشفين؛ الذي استفتاه في خلع ملوك الطوائف، وكان أبو حامد عزم على الالتحاق بابن تاشفين بالمغرب لولا أنه بلغه خبر وفاته⁵.

¹ محمد بن سليمان الجزولي الشريف الحسني دفين مراكش، أحيى الطريقة بالغرب بعد دروسها. وكان يحفظ فرعي ابن الحاجب. خرج من بلاده لقتال كان بها فدخل فاسا وقيد بها كتابه. وكان يسكن بمدرسة الحلفاويين، وقد لقي الشيخ زروق بفاس، ثم رجع للساحل، ولقي أوحّد وقته أبا عبد الله أمغار الصغير فأخذ عنه. ثم دخل الخلوة للعبادة نحو أربعة عشر عاما. وقد مات مسموما وهو يصلي الصبح في ربيع الأول عام 870هـ. من كتبه: دلائل الخيرات. (أنظر: التنبكي، أحمد بابا: محتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحق: محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2000م، ج2، ص181. وابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، مرجع سابق، ج1، ص319).

² أنظر: ضريف، محمد: مؤسسة الزوايا بالمغرب، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، المغرب، ط1، 1992م، ص23-24، 36.

³ العلامة القاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدان التغلبي الأندلسي المالكي، كان مولده سنة 439هـ، أجل رجال الأندلس وزعيمها في وقته ومقدمها جلاله ووجاهة وفهما ونباهة. ولي القضاء ليوسف بن تاشفين الملك. روى عنه القاضي عياض وعظمه، وسمع منه الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي، تقلد الشورى بقرطبة لأول الدولة المرابطية. مات سنة 508هـ. وكان يحط على الإمام أبي حامد في طريقة التصوف، وألف في الرد عليه. (أنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج19، ص422. والقاضي عياض: الغنية، مرجع سابق، ص46).

⁴ أنظر: ابن القطان الفاسي المراكشي: نجم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحق: محمود علي مكّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، ص70.

⁵ أنظر: طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال كتبه وشروحه، مرجع سابق، هامش ص30.

والظاهر أنَّ سبب الحرق، عقائدي¹؛ لكون كتاب الإحياء يُخالفُ نهجَ السلف-على الأقلِّ حسب اعتقاد فقهاء الدولة المرابطية- ويُخالفُ نهجَ الإمام مالك بن أنس-الذي يدينُ بمذهبه المرابطون- في عدم الخوض في المسائل الفلسفية وعلم الكلام ولا سيما ما يتعلّق بذات الله وصفاته وأسمائه، ولذلك كتب الأمير تاشفين بن علي إلى أهل الأندلس كتاباً يُوصيهم فيه قائلاً: "واعلموا رحمكم الله، أنَّ مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى في الحضر والبداء، على ما اتفق عليه السلف الصالح، رحمهم الله، من الاختصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس، رضي الله عنه... ومن حاد عن رأيه بفتواه، ومال من الأئمة إلى سواه، فقد ركب رأسه واتبع هواه، ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة، وخاصة، وفقكم الله، كتب أبي حامد الغزالي، فليتبّع أثرها، وليقطع بالحرق خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الأيمان على من يُتهم بكتماها²."

ويذكر الشيخ محمد إدريس طيب-حفيد الشيخ أحمد زروق- أنَّ: "الفقهاء المزمّتون الذين يقفون على ظواهر النصوص الشرعية خافوا على مكانتهم الاجتماعية والسياسية بدخول كتاب الإحياء للغزالي- وهو كتاب يجمع بين الفقه والورع والاعتداء- للأندلس على يد القاضي أبي بكر بن العربي، وإلى المغرب على يد أبي صالح ابن جرهم، فأفتوا بإحراقه ما بين سنة 500-505 هجرية"³.

وما إن تعلّب ابن تومرت على المرابطين وأعلن دولته حتى انتصر لمذهب الغزالي، كيف لا وهو تلميذه وحامل أفكاره، فأزال العداوة نحو كتاب "إحياء علوم الدين" لشيخه الغزالي، وجعل الناس

¹ هناك من ربط حرق الكتاب بمصلحة سياسية، وهو تخوف الفقهاء المالكية على سلطتهم الدينية ومكانتهم الاجتماعية الرفيعة والمترفة؛ لما تعرضوا له من انتقاد وهجوم من الغزالي، والذي هاجم الفقهاء الذين يتخذون من العلم والدين مطية لتحقيق أطماع دنيوية من مال أو جاه فقال: "ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها. ويقول بهذا الرأي محمد عبد الله عنان، وهويدي يحيى. (أنظر: بخدة، طاهر: ظاهرة إحراق الكتب في الغرب الإسلامي صراع سياسي أم استغلال ديني، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، المجلد 16، العدد 01، مارس 2020م، ص 107).

² مؤنس، حسين: نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 2000م، ص 20.

³ طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال كتبه وشروحه، مرجع سابق، ص 30.

يَتَدَاوُلُونَهُ وَيَنْشُرُونَهُ وَيُؤَلِّفُ الْعُلَمَاءُ عَلَى مَنَوَالِهِ مِثْلَ كِتَابِ "التفكير فيما تشتمل عليه السُّور والآيات من المبادئ والغايات" لأبي الحسن بن علي المسيلي¹.

ويرى بعض الكتاب أن ازدهار الفكر الصوفي وتبلور اتجاهاته ومدارسه وانتشاره في الأوساط الشعبية والبوادي راجع إلى مذهب التوحيد الذي جاء به ابن تومرت، والذي لم يلب حاجة الناس الروحية وأفرط في الجانب العقلائي وفرض على الناس بالقوة، مما كان له نتائج عكسية بانضواء القبائل في هذا المجال واندماجهم فيه كُليَّةً وتخليهم عن المال والعز والنقوذ، كما يرى بعض الباحثين أن مذهب الأشاعرة الذي يُفضله الموحِّدون هو مذهب يُقرُّ بالأولياء والصالحين ويرى في كراماتهم تصديقاً بمعجزات الأنبياء².

لقد اختار المغاربة في ممارستهم للتصوف المنحى السني الأخلاقي، ورمزوا له بالإمام الجنيد (ت 297هـ)³ الذي عُرفت مدرسته بمدرسة السلوك والأخلاق في مقابل مدرسة الشطح والإغراق، هذه الأخيرة التي ركزت على البوح بما تُثمره المجاهدة من فتوحات وعلوم وهبيَّة، في حين ركزت الأولى على تبليغ التجربة من خلال القيم ومكارم الأخلاق، ومن ثم ظلت غاية التصوف الأولى بالمغرب هي التحلي بالأخلاق المحمَّدية حرصاً منهم على التسنن الأكمل، قولاً وفِعْلاً وحالاً، بسيرة سيّد المرسلين

¹ أنظر: شرويك، محمد الأمين: انتقال التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي، مجلة آفاق فكرية، جامعة الجيلالي الياصب، سيدي بلعباس، المجلد 5، العدد 1، 2017/01/08م، ص 94.

² أنظر: المرجع نفسه، ص 95.

³ أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز، وكان أبوه يبيع الزجاج، فلذلك كان يقال له القواريري. أصله من ناهوند-من بلاد الجبل- ومولده ومنشؤه بالعراق. وكان في أول أمره يتفقه على مذهب أبي عبيد وأبي ثور، فأحكم الأصول وصحب الحارث المحاسبي وخاله السري بن مفلس. وأصبح إمام أهل التصوف بعد خاله السري السقطي. توفي سنة 297هـ، يوم نبروز الخليفة. ودفن بقرب خاله السري السقطي. (أنظر: أبي نعيم، أحمد بن عبد الله (ت 430هـ): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 10، ص 255. والسلمي، عبد الرحمن: طبقات الصوفية، تحق: أحمد الشرباصي، مؤسسة دار الشعب، ط 2، 1998م، ص 49. والكيلاني، شرف الدين: تاريخ تكايا بغداد والمشيخة الصوفية في العهد العثماني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014م، ص 12).

عليه أركى الصلابة والتسليم¹... وقال الكتاني: "التصوف خلُق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الصفاء"².

فكان من آثار ذلك أن تميّز "الخطاب الصوفي" بالمغرب بالبساطة والوضوح والبعد عن التعقيد، وغلب عليه جانب الممارسة أكثر من جانب التجريد والتنظير العلمي؛ حيث راعى صلحاء المغرب في كتاباتهم جانب التبسيط، فجاءت كتاباتهم واضحة المعنى، سهلة الفهم والتناول، تركزت على ما تحته عمل أو ما كان باعثاً على العمل، وهي أقرب ما تكون إلى كتب الوعظ والتذكير من حيث الأسلوب، مع عمق الخطاب ودقة الألفاظ واختصارها، من ذلك ما تجلّى في سرد أخبار الصالحين، وقصصهم وتوجيهاتهم لمريديهم³، " فقد قيل للجنيّد: ما للمريدين في مجارة الحكايات؟ فقال: " الحكايات جندٌ من جنود الله تعالى يُقوّي بها قلوب المريدين. قيل: فهل في ذلك شاهد؟ فقال، ﷺ: نعم قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:120]"⁴.

إنّ اعتناق المغاربة للمذهب المالكي أسهم في تميّز التصوف المغربي وطبعه بطابع أخلاقي عملي، كان أثره حسناً على عموم السالكين والمريدين⁵، لأنّ مبني هذا المذهب ومنهجه قائم على أهمّ مبدأ وضعه مؤسّسه ألا وهو "عمل أهل المدينة"، وهو ما يبدو جلياً في قول الإمام مالك -رحمه

¹ العلمي، طارق: اختيار المغاربة للتصوف الجنيدي، الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الإمام الجنيّد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة، 2014/12/31م.

² القشيري، عبد الكريم: الرسالة القشيرية، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1422هـ/2001م، ص313.

³ العلمي: اختيار المغاربة للتصوف الجنيدي، مرجع سابق.

⁴ الجنيّد البغدادي: تاج العارفين، دراسة وتحقيق: سعاد الحكيم، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2005م، ص110.

⁵ من الباحثين - مثل محمّد المستفاد: الدكتور: محمد الشريف - من يشكك في تلك المسلمة التي مفادها التفريق بين التصوف الأندلسي والتصوف المغربي على أساس أن التصوف الأندلسي تصوف معرفي أو تصوف حقائق، وأن التصوف المغربي هو تصوف عملي سني، أو أن الأول ممارسة نخبوية والثاني ممارسة شعبية، وأوضح أن هذا يدخل ضمن الثنائيات التبسيطية. (أنظر: التيمي: المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، مرجع سابق، ص13).

الله:-“ الكلام في الدين أكرهه... ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل”¹. فهو بطبيعته يأبى كل طريق ينحو منحى التجريدات الميتافيزيقية، مُتميّزاً عن الفكر الصوفي الأندلسي، بنزعتة العملية الأخلاقية ومن ابتعاد أقطابه عن الشطحات المغالية ومن دعوتهم دائماً أن يكون "الجسد في الخانوت والقلب في الملكوت"².

كما أن رجالات التصوف المغربي كانوا من أعلام الفقه والدراية، ومن ثمة فقد كانوا أقدر على تقرب معاني التصوف تحت غطاء ما يألوه الجمهور، وهو ما أشاد به العلامة علال الفاسي في بيان ميزة التصوف المغربي، بعد أن صحح مواقفه السلفية القديمة فيؤكد معترفاً أن "مما امتاز به التصوف المغربي أن معظم رجاله ودُعائه من أهل العلم بأصول الدين وفروعه، ولذلك فهم يعرفون كيف يُكيّفون آراءهم، ولما تجذّهم مُصطدمين مع العلماء كما وقع في المشرق العربي. وما وقع من اضطهاد بعض المتصوفة إنما كان لأسباب سياسية مخضة. والتصوف المغربي، إلى جانب الفقه المالكي، له الأثر الفعّال في توجيه الأفكار والسياسات كلّها التي جرت ببلادنا. فالفقه والتصوف عنصران أساسيان في تكييف المجتمع المغربي وتسييره"³.

ومن أبدع في التّقييد لعلم التصوف من المغاربة، الشيخ المتصوف الكبير أحمد زروق الفاسي (ت 899هـ)، والذي وضع جملة من قواعد التصوف، وفق الأحكام الشرعية والنصوص المحكمة الجليلة وعلى المنحى الجنيدي، ومن القواعد الدالة على الاستشهاد بالحكم الجنيدي: القاعدة السابعة عشرة، والتي يقول فيها رحمه الله: "في كل علم ما يخص ويعم، فليس التصوف بأولى من غيره في عمومته وخصوصه، بل يلزم بذل أحكام الله المتعلقة بالمعاملات من كل عموماً وما وراء ذلك، على حسب

¹ ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: جامع بيان العلم وفضله، تحق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1994م، ج2، ص938.

² الصغير، عبد المجيد: من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب، ضمن دراسات تاريخية في كتاب: الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1997م، ص273.

³ الصغير، عبد المجيد: من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب، مرجع سابق، ص275. نقلاً عن: علال الفاسي: التصوف الإسلامي في المغرب، مجلة الثقافة المغربية، الرباط، وزارة الدولة في الشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، العدد1، يناير-فبراير، 1970م، ص46.

قابله لا على قدر قائله، لحديث: حدّثوا النَّاسَ بما يَعْرِفُونَ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ¹. وقيل للجنيّد رحمه الله: يَسْأَلُكَ الرَّجُلَانِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ فَتُجِيبُ هَذَا بِخِلَافِ مَا تُجِيبُ هَذَا؟ فقال: الجوابُ على قَدَرِ السَّائِلِ، قال عليه السَّلام: أَمَرْنَا أَنْ تُخَاطَبَ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ عُقُولِهِمْ².

وأحبرَ الفقيه المغربي عبد الواحد بن عاشر (ت 1040هـ) في منظومته الشهيرة بالمرشد المعين، بهذه الخُصُوصِيَّةُ المغربيَّة التي تَجْمَعُ مُهِمَّاتُ الْعُلُومِ الثَّلَاثَةِ وهي: العقائد، والفقه، والتصوف المتعلّقة بأقسام الدين الثلاثة وهي: الإيمان، والإسلام، والإحسان. فقال في نظمته:

في عقد الأشعري وفقه مالك *** وفي طريقة الجنيّد السالك³.

وقد كَانَ لُبْعِدِ الْمَغْرِبِ عَنْ مَرْكَزِ الْخِلَافَةِ أَثَرٌ فِي النَّأْيِ عَنِ الْخَوْضِ فِي الْخِلَافَاتِ الْمَذْهَبِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ طُغْيَانُ النَّزْعَةِ الْعَمَلِيَّةِ بِمَا تَعْنِيهِ مِنْ غُرُوفٍ عَنِ الْخَوْضِ فِي الْمَشْكَالَاتِ النَّظَرِيَّةِ وَإِعْطَاءِ الْأَوْلَوِيَّةِ لِلتَّنْظِيمَاتِ الْعَمَلِيَّةِ وَالْإِجْرَاءَاتِ التَّشْرِيعِيَّةِ. وَقَدْ كَانَ لِسِيَادَةِ الْمَذْهَبِ الْفَقْهِيِّ الْمَالِكِيِّ بِجَانِبِ تَصَوُّفِ الْجَنِيْدِ السَّنِّيِّ وَالْكَلَامِ الْأَشْعَرِيِّ التَّوْفِيقِي سَبَبًا وَنَتِيجَةً فِي آنٍ وَاحِدٍ لِتِلْكَ النَّزْعَةِ الْعَمَلِيَّةِ الطَّاعِيَةِ عَلَى الْإِنْتِاجِ الْفِكْرِيِّ الْمَغْرِبِيِّ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِجَمَاعِ التَّمَسُّكِ بِالسَّنَةِ وَالْإِجْمَاعِ وَنَبْذِ الْخُرُوجِ عَنِ الْجَمَاعَةِ⁴.

وقد تميّزت الممارسة الصُوفِيَّةُ بِالْمَغْرِبِ بِالْفِعْلِ الْاجْتِمَاعِيِّ النَّافِعِ وَالْمُنْدِمِجِ، وَ" بِالْعُمُقِ الْاجْتِمَاعِيِّ لِلتَّجَرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ"⁵، إِذْ حَتَّى لَوْ كَانَ الْمُتَصَوِّفُ بَعِيدًا عَنْ مَرْكَزِ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ السِّيَاسِيِّ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ مُتَمَلِّكًا قُدْرَةً عَلَى التَّحْلِيلِ، وَالتَّقْوِيمِ، كَمَا أَنَّهُ مُؤَهَّلٌ لِلتَّقْدِ، وَالتَّأْثِيرِ، وَالتَّوْجِيهِ، مِمَّا يَجْعَلُهُ مُتَمَتِّعًا

¹ الحديث أخرجه البخاري في صحيحه موقوفا على علي عليه السلام في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا.

² زروق الفاسي (ت 899هـ): قواعد التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005م، ص28.

³ الفتحي المراكشي، محمد بن محمد بن عبد الله بن المبارك: الحبل المتين في نظم المرشد المعين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط3، 1948م، ص3.

⁴ أنظر: الصغير، عبد المجيد: من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب، مرجع سابق، ص273.

⁵ زهري، خالد: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص118. نقلا عن: عبد المجيد الصغير: من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب، مرجع سابق، ص274.

بسُلطة معرفيّة تتّسع باتّساع قاعدة جمهور المؤيدين له، الذين يُضيفون حينئذٍ على مفهومي الشرعيّة المطالب بها قوّة سياسيّة مؤثّرة أيضًا¹.

ويذكرُ صاحبُ كتاب: "تقريب المذهب والعقيدة والسلوك"، الدكتور: عبد الله معصر، أنّ التجربة السلوكيّة بالمغرب انّصفت بخصائص أساسيّة ثلاث، وهي:

1- خاصية التكامل: حيث جمعت بين التخلّق والتفكّه، وبين التجرّد والتسبّب، وبين مجاهدة العدو، وجهاد النفس.

2- الخاصية التداولية: ومبناها على طلب ما تحته عمل في الجانب الفقهي والعقائدي والسلوكي.

3- الخاصية التأنيسية: ويُقصدُ بها الأخذُ بالمقتضيات الأخلاقية من أجل الإصلاح والتغيير، وذلك باستثمار الوجود الإنساني من أجل إنتاج أخلاقي، يستفيد من عوائده الفرد والمجتمع، وتحصل بفضلها اليقظة الأخلاقية².

¹ زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص119. نقلا عن: عبد المجيد الصغير: تحليلات الفكر المغربي، ص142-143.

² أنظر: معصر، عبد الله: التقريب بين المذهب والعقيدة والسلوك، الرابطة المحمدية للعلماء، مركز دراس بن إسماعيل، المملكة المغربية، ص116.

المبحث الثاني: القطيعة المنهجية بين العلوم سياقاتها ومضارها

المطلب الأول: السياق المنهجي - مطلب التأسيس والتعديد-

لقد كانت العلوم في العصر القديم مُرتبطة فيما بينها ارتباطاً كلياً قابلاً للتجزئة¹، فكانت العلوم كلها مُتضمنة في محور نظري واحد، فكان الكل في الفلسفة كما كانت الفلسفة في الكل. وقد كان أمراً مُعتاداً أن يكون الفيلسوف العالم معنياً بفروع المعرفة كلها المعطاة في لحظته التاريخية. فأرسطو مثلاً فيلسوف عُرِف بسعة اطلاعه على علوم أخرى بالإضافة إلى الفلسفة كالمَنطق والتَّاريخ والفنّ والفيزياء وغيرها من العلوم. ولم تكن موسوعيّة الفلاسفة والعلماء آنذاك نوعاً من مُراكمة المعارف المتناقضة في أكوام لا رابطَ بينها، بل كان الأمر كالأغصان مُتصلاً. ولم يكن مُستهجنًا أن يكون العالم موسوعة تضم مجالات المعرفة كلها التي يكتسبها البشر، لأنّ هذه المعارف بالضرورة البنيويّة حلقات يُكَمِّل بعضها بعضاً. غير أنّ ما حصل مع تقدّم العلوم هو أنّ الفرع العلمي الواحد اتّسع اتّساعاً هائلاً²، وتراكمت فيه جملة من القضايا العلميّة مثل: النظرية³، والطريقة⁴، والمعلومة الدقيقة المُتخصّصة⁵، بدرجة قضت على إمكانيّة مُحافَظة قُدرة الفيلسوف أو العالم على الإحاطة بالمعارف المتاحة كلها في الوقت المعاصر. فقد قادَت جملة من الأسباب العمليّة إلى اكتفاء الباحث بتخصّص أو تخصّصين من بين فروع المعرفة. ومع هذا الواقع العلميّ تعمّق الانفصال وتشكّل فكرٌ مفادُه أنّ العلم التخصّصي الدقيق ليس على صلةٍ بغيره، وأنّه يعملُ بطريقٍ وأساليبٍ، ويقومُ على أُسس نظريّة مُغايرة لغيره من العلوم. وقد أسفرت هذه الوضعيّة عن علاقةٍ انفصاليّة بين العلوم رغم حاجة بعضها للتكامل مع بعضها الآخر...⁶.

¹ فأرسطو مثلاً وهو الفيلسوف الموسوعي كان يعتبر العلاقة بين العلوم جملة واحدة في الإطار الفلسفي، لكنه عندما ألف مجلداً قسمه إلى عدة كتب في فنون مختلفة، فقسمه إلى كتاب في التاريخ وآخر في الفن وآخر في الفيزياء... الخ.

² مثل: علم النفس الذي أصبح يضم جملة من الفروع العديدة من بينها علم النفس الاجتماعي، وعلم النفس العيادي، وعلم النفس التربوي... الخ.

³ مثل نظرية داروين في تطور الإنسان وما يعاكسها.

⁴ وهي المنهج المتوصل به إلى الحقيقة... فديكارت مثلاً منهجه منهج الشك وهو منهج عقلي.

⁵ وهي تفاصيل العلوم التجريبية مثل الطب.

⁶ الخليلي، عبد الهادي: التكامل بين المعرفة الفقهية والعلوم الإنسانية وأثره في ترشيد الاجتهاد، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القدر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، المجلد 20، العدد 40، 2015/11/27، ص 408. نقلاً عن: شاهين، ناجح: فلسفة العلوم ودورها في تكامل المعرفة، وزارة التربية والتعليم العالي، مركز المناهج التربوية، البيرة-فلسطين، ط 2، 2003م.

فمنذ النصف الثاني من القرن العشرين، اتسعت وتشعبت العلوم وظهرت الاختصاصات الدقيقة، مما جعل إمكانية وجود عالم موسوعي في هذا العصر أمراً شبه مستحيل. وهذا ما جعل جملة من العلماء يُنادون بضرورة تكامل المعارف والمدارك بين العلوم المحتاجة إلى ذلك بصفة عامة، ومنها المعرفة الفقهية والعقدية والسلوكية¹.

لقد أطلق دافع الوحي وحاجات التطور الحضاري للمسلمين حركة البحث العلمي في صورة تفاعلية تكاملية متداخلة لم تتوقف طيلة عصور الاجتهاد. فالعلوم يُصادر بعضها على أسس البعض ويبنى عليه، ويستثمر بعضها آليات منهجية يُقَعِّدها البعض الآخر... فصار للعلوم الإسلامية بناءً نسقياً شامخاً، ترجمته عديد التصنيفات التي رتبت العلوم... لكن أقول عصور الاجتهاد والتجديد، وجنوح القوم إلى التقليد، وهيمنة سلطة التخصص التي فرضتها مقتضيات العصر، وضمور الأهمية التي كانت تُولى للعلم والبحث العلمي، قد جعل غرى التكامل بين العلوم الإسلامية تُوشك أن تنقصر غرورة غرورة... وكان من أبرز مظاهر هذه الآثار الفصام النكد بين التخصصات العلمية الشرعية وبين باقي التخصصات، من جهة، ثم بين تلك التخصصات الشرعية نفسها كالفقه والأصول والحديث والتفسير وغيرها، من جهة أخرى².

إنّ مآزق الفصل لم تعرفه العقلانية العلمية الإسلامية، فقد تأسست منذ فترة مبكرة في نطاق خاصية التكامل. ولهذا لا نجد في القرآن الكريم ولا في الكتب المخصصة لنظرية العلم لفظ التكامل المعرفي بهذا النحت، فقد كان التكامل جوهر التفكير لا موضوعاً له³.

إنّ التغيير الحضاري الشامل الذي أحدثه الإسلام في البيئة العربية أولاً، ثم البيئات التي فتحها المسلمون ثانياً، يترتب عليه الإقرار بأهمية الوحي في تأسيس عقلية منهجية فريدة؛ هذه العقلية الإسلامية التي قدّمت لتاريخ العلوم إضافات نوعية نظرياً ومنهجياً، قد تشكّلت بفضل الوحي (القرآن الكريم والسنة)، فصدرت عنه الصياغة المنهجية العقلية للمعارف العلمية في لحظة التأسيس،

¹ أنظر: الخليلي: التكامل بين المعرفة الفقهية والعلوم الإنسانية وأثره في ترشيد الاجتهاد، مرجع سابق، ص 409.

² معالم التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية، ندوة علمية دولية، مؤسسة دار الحديث الحسنية، 11-12 فبراير 2010م، ص 7.

³ نغش، إدريس: التكاملية في العقلانية العلمية الإسلامية، مجلة الواضحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا، العدد 6، 2011م، ص 275.

وهي: علومُ الوحي: التفسيرُ والأصولُ والفقهُ والأخلاقُ...، وعلومُ الآلة: اللغةُ والنحو...، وعلومُ الحال: الرياضيات والفيزياء... وانبثقت طرقُ الاستدلالِ بالتَّبَع. وهكذا يتجلى التكاملُ العلميُّ أو الشُّمولية في بنية التفكير العلميِّ الإسلامي¹.

فالفصلُ بين العلوم وخاصةً الشرعية منها، أمرٌ طارئٌ على العقلِ المسلم، فالعقلانية الإسلامية المبنية على الوحي، كان العلمُ بصنوفه داخلاً في تكوينها، بل إنَّ علماً كعلمِ الحساب مثلاً، اعتبره بعضُ الفقهاء من أركانِ الدين، قال الفقيه المتفتنُ الفرضي ابن هيدور التادلي الفاسي (ت 816هـ)²، وهو يُبرهن على ذلك: "واعلم أنَّ علمَ الحساب زَكَنٌ من أركانِ الدين: به تُؤخذُ القبلة، وأوقاتُ الصَّلَاة، وبه حسابُ الأعوامِ والشُّهور والأَيَّام، وجريُّ الشَّمس في البُروج، وحركاتُ الكواكب، وحلولُ القمرِ في المنازل، ومعرفةُ السَّاعاتِ النَّهارية والليلية، وأكثرُ مسائلِ العلمِ الشرعية يدخلُ فيها الحسابُ لا من العباداتِ ولا من غيرها، كالزَّكاة مثلاً... والتصرُّف في الغنائم في الجهاد، وتعيينُ الخُمس والأربعة أخماس، وقسمةُ ذلك على الغانمين..."³.

فإنَّ كانَ هذا قولُ بعضِ العلماءِ في علمِ الحساب، فكيفَ بعُلومٍ هي أصلٌ أصيلٌ وضيعٌ ركينٌ من أركانِ البناءِ الإسلامي، كالفقه والأصول والحديث والتفسير والسلوك وغيرها، والتي تتفاعلُ فيما بينها في تشاركٍ نسقيٍّ معرفيٍّ ومنهجيٍّ، تُؤدي في المحصلة إلى تكاملٍ في الموضوعاتِ والمناهج، وفقَ تصوُّرٍ مُوَحَّدٍ أساسه الوحي. وما حديثُ جبريل -عليه السلام-، إلا تععيد لهذه المسألة؛ حينما عرض على النبي ﷺ أطراف العملية المعرفية لهذا الدين في نسقٍ موحدٍ متكاملٍ متناغمٍ، ولذلك قال النبي ﷺ في الأخير وهو يُقرَّر هذا التكامل المعرفي: هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم، فسمي مجموع تلك المعارف أنها تشكل الدين كله.

¹ أنظر: نغش: التكاملية في العقلانية العلمية الإسلامية، مرجع سابق، ص 290.

² علي بن عبد الله بن محمد بن هيدور التادلي الفاسي الفرضي الحاسب. من تصانيفه: شرح على تلخيص ابن البنا في الحساب سماه التمهيد، وتقييد على رفع الحجاب لابن البنا سماه: تحفة الطلاب وأمانة الحساب. توفي بمجاعة بفاس. (أنظر: الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج 4، ص 306. كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، مكتبة المثنى - دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 1376هـ/1957م، ج 7، ص 141).

³ أنظر: نغش: التكاملية في العقلانية العلمية الإسلامية، مرجع سابق، ص 291. نقلا عن: ابن هيدور، التادلي: التمهيد في شرح التلخيص، مخطوطة الخزانة العامة، رقم: 252. ج 1، ص 1314.

المطلب الثاني: السياق المعرفي - مطلب التباين والمضامين -

بعد أن تطرّقنا إلى القطيعة بين العلوم في سياق التأسيس والتّقييد، ندلفُ إلى الحديث عن التّباين في المضامين بين علوم: الفقه والأصول والأخلاق، مما يحيلنا إلى نوع من الخصوصية لكل علم من حيث: المنهج والمصطلح والهدف.

1- الفكر الكلامي: تدور منهجيّة هذه المدرسة على موقع العقل ودرجة الاعتماد عليه والاستدلال بأحكامه، ولا سيّما في مجال الاعتقاد. ويمكن القول أنّ بعض علماء الإسلام كان أقرب إلى الفلسفة اليونانية، في تناوّلهم للعقائد الدّينية بالاعتماد على العقل مثل: الكندي والبيروني وابن سينا، وبعضهم الآخر كان أقرب إلى علماء أصول الدّين في اشتغالهم بهذه المسائل بدرجات متفاوتة من ترجيح العقل أو النّقل مثل عدد من علماء المعتزلة والأشاعرة والمأثريّة، ولا نعدّم فريقاً ثالثاً تميّز بمنهجيّة خاصّة مثل: ابن تيميّة من الحنابلة، وابن رشد من الفلاسفة، وابن حزم من الظّاهريّة، وهي المدرسة التي حاولت الجمع بين العقل والنّقل لأنّه لا تعارض بينهما في الأصل¹.

وعلى الرغم من الصّراع المحتدم بين علم الكلام والفلسفة كما هو في فكر أبي حامد الغزالي²، فقد ظهرت بوادر التّصالح بينهما؛ إذ مزج في كتبه البراهين العقلية بالبراهين الخطابية والجدلية: "فمنذ لحظة الغزالي، بل انطلاقاً ممّا كتبه في صدر "المستصفى"، ستصبح المقايضة بين الكلام والفلسفة، ممّا يجري بحرى البداهة، فيتحوّل الكلام إلى نظير الإلهيات في الفلسفة، قبل أن تتحوّل مباحث الكلام إلى مباحث في الفلسفة، وتحوّل مباحث الفلسفة إلى مباحث في الكلام". بل ظهرت بعض بوادر التّصالح بين العلمين منذ أبي المعالي الجويني، كما يدلّ على ذلك "اقتباسه من أساليب الفلاسفة"³. وقد كان الشهرستاني يرى أنّ الكلام نشأ حين طالع شيوخ المعتزلة، بعد واصل، وعمرو بن عبيد، كُتب الفلاسفة، وخلطوا مناهجهم في البحث بمناهج الفلاسفة⁴.

¹ ملكاوي، فتحي حسن: منهجية التكامل المعرفي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 2016م، ص184.

² يظهر ذلك خاصة في كتابه: مقاصد الفلاسفة، وتهاافت الفلاسفة.

³ البختي، جمال علال: عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية، دار أبي رزاق للطباعة والنشر، الرباط، المملكة المغربية، ط1، 2005م، ص192.

⁴ زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص41.

ويمكن القول بأنَّ الشهرستاني، تمثَّل التراث الكلامي تمثُّلاً جيِّداً، وعالج التأسيس، فأزاح اللبس الذي أحدثه الغزالي، فحدَّد علم الكلام بحراسة عقيدة أهل السنة، ودفع بالمدرسة الأشعرية لتصدر المذاهب الكلامية، وتسيطر على الساحة الفكرية في العالم الإسلامي¹.

واجتهاد الشهرستاني في إيجاد مذهب كلامي جديد، يقف موقفاً وسطاً بين الأشاعرة والمعتزلة، يعني تطلعاً لتأسيس مذهب مستقل عن المذهب السائد؛ ويظهر ذلك في مناقشته مسألة خلق القرآن: "أما المعتزلة، فوافقونا على أن هذا الذي في أيدينا كلام الله، وخالفونا في القدم، وهم محجوجون بإجماع الأمة. وأما الأشعرية، فوافقونا على أن القرآن قديم، وخالفونا في أن الذي في أيدينا كلام الله، وهم محجوجون أيضاً بإجماع الأمة: أن المشار إليه هو كلام الله. فأما إثبات كلام هو صفة قائمة بذات الباري تعالى، لا نبصرها، ولا نكتبها، ولا نقرأها، ولا نسمعها، فهو مخالفة لإجماع من كل وجه"². فتقريره لرأيه المبين للمعتزلة والأشاعرة، ونعته لذين الموقفين بمخالفة إجماع الأمة، لا يمكن فهمه إلا رغبة منه في التأسيس لمذهب مستقل ومخالف، وإن كانت أغلب أصوله لا تخرج عن أصول الأشاعرة³.

وهذا الموقف من الشهرستاني، يجعله من العلماء الذين أعطوا دفعة قوية للكلام الأشعري نحو التجديد والإبداع؛ فبعد الغزالي، ظهر علم كلام متصالح مع الفلسفة، وأبرز من مثَّل هذا الاتجاه، فخر الدين الرازي، خاصة في كتبه: "المطالب العالية"، و"المباحث المشرقية"، و"المحصل"، و"المعالم"⁴. وبذلك، وبعبارة أحد الباحثين: "ضياح جنسيته، عندما امتزج بالفلسفة"⁵.

فجنسية علم الكلام تمتاز عن الفلسفة وإن كان مشاركا لها في موضوعها؛ لأن الاستدلال والحجاج في علم الكلام يكون بحسب القواعد والأصول المقررة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، في حين أن الاستدلال الفلسفي يجري على حسب عقول الفلاسفة ومسلّماتهم، فالعقل عند الفيلسوف

¹ زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 41. نقلا عن: حمدان، أحمد العلمي: الكلام كجنس: دراسة لذاتيات

الكلام من زوايا مباحث متعددة، دار ما بعد الحداثة، فاس، ط1، 2007م، ص 80.

² الشهرستاني: الملل والنحل، مصدر سابق، ج1، ص 106.

³ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 42.

⁴ أنظر: المرجع نفسه، ص 42.

⁵ المرجع نفسه، ص 43. نقلا عن: حمدان: الكلام كجنس، مرجع سابق، ص 115.

هو المنطلق وهو المنتهى في تقرير الحقائق. ومن دلالة فقدان جنسية علم الكلام، أنه لما حدث خلط بين موضوعات الكلام والفلسفة، خصوصاً عند المتكلمين المتأخرين، عرضت مشكلة تحديد موضوع علم الكلام، هل يشتمل علم الكلام على مسائل الاعتقاد فقط أم أنه يشتمل على الوسائل المؤدية لإثباتها فيدخل في نطاقها ما يتداوله الفلاسفة من موضوعات¹.

وعن مسألة التنازع بين العقل والنقل في معرفة الأحكام الاعتقادية، يقول الدكتور الشافعي: "يقرّر أكثر المتكلمين - من متقدمين ومتأخرين - وخاصة الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة، أن الدليل العقلي مقبول في مسائل العقيدة إلى جانب الدليل السمعي، وأن المعارف الكلامية تستمد من العقل ومن النقل جميعاً... وربما بالغ البعض منهم في الاعتماد على الدليل العقلي، والتّهوين من قيمة الدليل النقل، أو تحديد مجاله في المباحث الكلامية، كما هو الشأن لدى أكثر المعتزلة والمتأخرين من الأشاعرة والماتريدية والإثني عشرية"².

ويحسّن بنا في هذه المسألة أن نشير إلى ثلثة من الأعلام الذين آثروا الدليل القرآني؛ أمثال: أبي حامد الغزالي، وأبي الوليد بن رشد، وابن تيمية، فهؤلاء ورغم اختلاف مشاربهم فقد قدّموا الدليل الشرعي لتفوّقه في الفاعلية والإقناع العقلي، إلى جانب الحجية الشرعية على الأدلة الكلامية، وبدعونا إلى العودة إلى القرآن الكريم وهداية هذه العقول إلى فتح آفاق جديدة رحبة للفكر الكلامي³.

برزت شمس علم الكلام في الغرب الإسلامي بعد الفخر الرازي وفي عصر الموحّدين تحديداً، وشهدت نضجاً اتسم بالتجديد والإبداع، وربط المباحث الكلامية بالتوازل الفقهية، وبالواقع الفكري والسياسي والاجتماعي، مع رغبة أكيدة في اجتثاث ما تبقى من آثار مذهب أهل التسليم والتفويض - الذي كان سائداً أيام المرابطين - من عقول العامة والخاصة، ونزل علم الكلام من برجه العاجي، ليتحوّل من علم لا يخوض غماره إلا الخاصة، إلى علم يسهم العامة في تنضيجه، وصارت

¹ نفيسة، محمود محمد: أثر الفلسفة اليونانية في علم الكلام الإسلامي حتى القرن 6هـ، دار النوادر، دمشق، ط1، 2010م، ص29.

² ملكاوي: منهجية التكامل المعرفي، مرجع سابق، ص185. نقلاً عن: الشافعي، حسن عبد الطيف: العقيدة والعقل في الفكر الإسلامي: الدليل العقلي ومكانه في البحوث الاعتقادية، المنهجية الإسلامية، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2010م، ج1، ص526.

³ أنظر: ملكاوي: منهجية التكامل المعرفي، مرجع سابق، ص186.

فتوى عدم جواز التقليد في أصول الدين هي الفتوى المتحكمة، ورفع متكلموا المغرب اللجام عن العوام، وصار المعرض عنه مُدرجاً في قائمة "خثالة الأغبياء"¹.

ومن أبداع في تلخيص العقائد الأشعرية، وتكريس مبدأ عدم جواز التقليد في أصول الدين، أبو عبد الله محمد بن يوسف الشنوسي (ت 895هـ)، وصنف في ذلك كتباً تختلف مستوياتها وتتفاوت أحجامها بحسب المستويات الفكرية للناس، فقد ألف "العقيدة الكبرى"، وجعلها لأصحاب المستوى الرفيع، وألف "صغرى صغرى الصغرى" وهي المعروفة بـ "العقيدة السادسة"، وبـ "الحفيدة" وجعلها للنساء الأميات، وألف بينهما "الوسطى" و"الصغرى" للمقام الذي يليق بها بحسب تفاوت العقول².

إن الناظر في مضامين الدرس الكلامي إجمالاً، يجد أنه ليس بياناً عقدياً ملزماً، بل هو اجتهاد بشري فكري، ودرس منهجي لفهم النص العقدي، وليس هو عين العقيدة بالضرورة، وأغلب الخلاف في المسائل العقدية خلاف لفظي، وجب النظر فيه والعمل على توجيهه وتديره، لما فيه مصلحة الوحدة وتجميع الكلمة بدل الفرقة والتعصب، فلا جرم أن من مقاصد العقائد توحيد الناس لا افتراقهم. و"إذا نظرنا إلى مقاصد أكبر الفرق الكلامية-المعتزلة والأشاعرة- في مسألة إثبات الصفات وجدنا كل واحد منهما حائماً حول حمى التنزيه، ونفي النقائص وسمات الحوادث، وهو مطلوب الأدلة، وإنما وقع اختلافهم في الطريق..."³.

وكي نفهم فلسفة الدرس الكلامي وفحواه، يجب أن يستقر في أذهاننا أن روح علم الكلام مبنية على المناظرة والحوار والنقد والمراجعة والتفسير والتحليل للقضايا الدينية، إذ هو مسار نظري وليس مؤسسة مذهبية مغلقة، وهذه هي قوته وروحه التي تعين تجديدها وفق مناهج ومرجعيات لغوية وعقلية، مع اعتماد ما توصل إليه الباحثون في مجموعة من الفنون كعلم الأديان والترجمة واللغة والتاريخ والمنطق والفلسفة وآداب الحوار ومناهج النقد والتحليل. وعلينا أن ننهل من هذه الرُوح، إذ نحن أمام

¹ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 43-45.

² أنظر: المرجع نفسه، ص 47.

³ أنظر: الشاطبي، أبي إسحاق إبراهيم بن موسى (ت 790هـ): الإعتصام، ضبط: مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة التوحيد، لا، ط، د.ت، ج 3، ص 153.

قَضَايَا مُتَجَدِّدَةٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، مَعَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ مُقَدَّسٌ وَثَابِتٌ فِي الْفِكْرِ الْكَلَامِيِّ، وَمَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالْإِجْتِهَادِ الْبَشَرِيِّ وَالْقُدْرَاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْعَقَائِدِ، وَهُوَ عُضْوَةٌ لِلصَّوَابِ وَالْخَطَأِ، فَلَا بَحَالٍ لِتَقْدِيسِهِ وَالتَّعَصُّبِ لَهُ¹.

2- الذوق الصوفي: كما أنَّ لكلِّ نوعٍ من المعارفِ إجراءاتٍ مَنَهْجِيَّةٍ لاكتسابِ المعرفةِ واختبارها وتوظيفها، فإنَّ هذه المدرسة تعتمدُ على التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ الذَوِيقِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ، وَأَنْوَاعِ الْمَعْرِفَةِ الْأُخْرَى الَّتِي يَتِمُّ الْخُصُولُ عَلَيْهَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، أَوْ الْحِسِّ، أَوْ الْعَقْلِ... مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. إِنَّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ الذَوِيقِيَّةَ - بِخِلَافِ الَّتِي يَتِمُّ اكْتِسَابُهَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ أَوْ الْحِسِّ أَوْ الْعَقْلِ بِالْكَسْبِ - هِيَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَهْبُهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ، وَيَرْفَعُونَ بِهَا فِي مَرَاتِبِ التَّزَكِّيَةِ وَالتَّقْوَى، حَتَّى يَكُونُوا فِي حَالَةٍ مِنَ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ يَسْتَحِقُّونَ فِيهَا ذَلِكَ الْعَطَاءَ الرَّثَانِي، الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يُوصَفَ بِالْوَهْبِ².

وَمِمَّا اِمْتَارَ بِهِ الْأَخْلَاقِيُّونَ الْمَغَارِبَةُ، التُّفُورُ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعِرْفَانِيَّةِ، وَنُحْصُ بِالذِّكْرِ اثْنَيْنِ مِنْهُمَا: الْإِشْرَاقُ وَالْكَيْمِيَاءُ. فَكَانَ ذَلِكَ مِنَ الْعَوَامِلِ الَّتِي أَسْهَمَتْ فِي هَجْرَةِ صُوفِيَةِ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ، وَالتَّأْثِيرِ فِيهِ بِالتَّوَجُّهِ الْعَمَلِيِّ الْأَخْلَاقِيِّ. وَتَحَلَّى خَاصَّةً فِي اسْتِقْطَابِ الْحُكَّامِ الْأَيُّوبِيِّينَ لَهُمْ، بِقَصْدِ التَّخَلُّصِ مِنْ آثَارِ الْحِكْمَةِ الْعِرْفَانِيَّةِ وَالتَّصَوُّفِ الْفِرْدَانِيِّ الَّذِينَ رَسَخَتْهُمَا الدَّوْلَةُ الْفَاطِمِيَّةُ، وَكَذَا الْإِسْهَامُ فِي الْقَضَاءِ عَلَى تَأْتِيرِ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ فِي النُّفُوسِ، وَالتَّصَدِّي لِلْحَمَلَاتِ التَّنْصِيرِيَّةِ. وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ بِالنَّسْبَةِ لِلْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ؛ حَيْثُ إِنَّ رَحْلَةَ الْحَجِّ التَّقْلِيدِيَّةَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْحِجَازِ، أَثَّرَتْ بَجَرَبَةِ التَّصَوُّفِ فِي الظَّاهِرَةِ الصُّوفِيَّةِ الْمَصْرِئَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، بَلِ تَعَلَّغَ التَّصَوُّفُ الْمَغْرِبِيُّ فِي قُصُورِ السَّلَاطِينَ الْمَمَالِيكِ، كَالظَّاهِرِ بَيْبَرَسَ، الَّذِي انْتَسَبَ إِلَى طَرِيقَةِ السَّيِّدِ شَهَابِ الدِّينِ أَبِي الْفَتْيَانِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْبَدَوِيِّ الْفَاسِيِّ (ت 675هـ)³ عِنْدَمَا دَخَلَ مِصْرَ⁴.

¹ آيت الحيان، حميد: علم الكلام الأشعري بالغرب الإسلامي بين السلطة المعرفية والتوظيف السياسي، مجلة الشهاب، جامعة الوادي، المجلد 6، العدد 4، 2020/12/15م، ص 131.

² ملكاوي: منهجية التكامل المعرفي، مرجع سابق، ص 189.

³ هو سيدي أبو العباس، أحمد بن علي بن إبراهيم، عُرف بالبدوي لكثرة تلثمه، وبالشَّيْخِ أَبِي الْفَتْيَانِ الشَّرِيفِ الْعُلُوِي السَّيِّدِ أَحْمَدَ، وَكَانُوا يَسْمُونَهُ فِي مَكَّةِ الْعَطَابِ. وَلَدَ سَنَةَ 596هـ بِمَحْرُوسَةِ فَاسَ، وَعَاشَ حَوَالِي 79 سَنَةً. أَتَقَنَّ عِلْمَ الْقِرَاءَاتِ، وَاشْتَغَلَ بِالْفَقْهِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ. كَانَ الظَّاهِرُ بَيْبَرَسَ يَعْتَقِدُ فِي سَيِّدِي أَحْمَدَ اعْتِقَادًا عَظِيمًا، وَكَانَ يُجِلُّهُ وَيُزَوِّدُهُ. تَوَفِّي سَنَةَ 675هـ. (الشَّعْرَانِي: الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ج 1، ص 321. الْكُوهَن: طَبَقَاتُ الشَّاذِلِيَّةِ الْكُبْرَى، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ص 66).

⁴ زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 78.

وإذا أردنا الحديث عن جُسُور التَّلَاقِي الصُّوفِيِّ بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، فلا يُمكننا إلاَّ الحديث عن الشَّاذلي، والبدوي، وزُرُوق، والتَّجاني، كَثَقَافَةٍ، أو جُسُورٍ رَبطَت المَغْرِبَ بِسائِرِ أَقْطَارِ الشَّمالِ الإفريقيِّ، وإذا لم يُهاجر الشَّيْخُ، تَوَلَّى مُريدُوه المِهْمَةَ في المَشْرِقِ بعدَ وَفَاتِهِ، مِنْ قَبِيلِ المَدْرَسَةِ المَدِينِيَّةِ، والَّتِي مَثَّلَهَا الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ الجَزُولِي-تَلْمِيزُ أَبِي مَدِينِ الغوث- وقَامَ بِهَا أَحْسَنَ قِيَامٍ، قُرَابَةً عَشْرِينَ سَنَةً إلى أن تُوُفِّيَ بِهَا سَنَةً 592هـ¹.

لَقَدْ ظَهَرَ نَشَاطُ صُوفِيٍّ مَغْرِبِيٍّ مُمَيَّزٍ، بعدَ مَعْرَكَةِ العُقَابِ²، يَهْدِفُ إلى تَخْلِيسِ الفِكْرِ الصُّوفِيِّ مِمَّا عَلَقَ بِهِ مِنَ النَّزْعَةِ الإِشْرَاقِيَّةِ في المَشْرِقِ والأَنْدَلُسِ، وَتَمَّ طَبْعُهُ بِطَابَعٍ عَمَلِيٍّ، بِتَعَمُّيقِهِ لِقِيَمَةِ الجِهَادِ بَيْنَ أَتْبَاعِهِ، وإِعْلَاءِ فَضِيلَةِ الرِّبَاطِ عَلَى التُّغُورِ والسَّوَاحِلِ، فَجَمَعُوا؛ بِذَلِكَ، بَيْنَ الجِهَادِ والمُجَاهَدَةِ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ تَجْدِيرِ فِكْرَةِ الوَحْدَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، مِمَّا عَكَسَ الآيَةُ، فَصَّارَ التَّصَوُّفَ المَغْرِبِيَّ مُؤَثِّرًا في المَشْرِقِ، بعدَ أَنْ كَانَ مُتَأَثِّرًا وَمُسْتَقْبَلًا، وَمِنْ الأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ الطَّرِيقَةُ الخَلَوْتِيَّةُ الحَفْنََاوِيَّةُ، الَّتِي أَدخَلَهَا إلى المَغْرِبِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصِّقْلِيِّ الفَاسِي (ت 1177هـ)³، وَهِيَ الَّتِي صَارَتْ تُعْرَفُ بِالطَّرِيقَةِ الصِّقْلِيَّةِ الخَلَوْتِيَّةِ⁴.

وَلِتُعْبِيرَ عَنِ المَعْرِفَةِ الذَّوْقِيَّةِ اسْتُخْدِمَ الصُّوفِيَّةُ أَلْفَاظًا مُتَعَدِّدَةٌ مِنْهَا: الإِلْهَامُ، وَالكَشْفُ وَالشُّهُودُ، وَوَصَّفُوا عِلْمَهُمْ بِأَنَّهُ " الْعِلْمُ اللَّدُنِّي " إِنْشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى عَنِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ، صَاحِبِ مُوسَى عَلَيْهِ

¹ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 76.

² معركة العقاب، هي معركة وقعت في 609هـ، عند جبال الشارات بالقرب من مدريد، قاد جيوش المسلمين الموحدين السلطان الناصر لدين الله التي جاءت من أنحاء الأندلس ومن العرب والمغاربة، وقاد القوات الصليبية الملك ألفونسو الثامن ملك قشتالة. اغتَرَّ الناصر لعِظَم جَيْشِهِ، وَانْتَهَتْ المَعْرَكَةُ بِهَزِيمَةِ مَذَلِهِ لِلْمُوحِدِينَ، قَتَلَ فِيهَا عَشْرَاتِ الآلَافِ مَعْظَمُهُمْ مِنَ الْمُتَطَوِّعِينَ المَغَارِبَةَ وَقِبَائِلَ العَرَبِ. (أنظر: السرجاني، راغب: قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 2011م، ص 606).

³ أحمد بن الولي الصالح محمد بن أحمد بن إبراهيم الصقلي الحسيني العريضي. ولد سنة 1112هـ، حفظ القرآن، وتفقه على علماء عصره، ثم طالع كُتُب القوم سَيِّمًا شرح الشيخ ابن عباد على الحكم. زار الشيخ الطيب بن محمد الوزاني الحسني وتبرك به. وكانت له صُحْبَةٌ وَأُخُوَّةٌ كَبِيرَةٌ مَعَ الفقيه الصوفي عبد المجيد المنالي الشهير بالزبادي. وحجًا معًا عام 1158هـ. وطريقته شاذلية خلوتية، وقيامها الآن بالمغرب إنما هو من جهته، توفي عام 1177هـ. (أنظر: السملالي: الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، مرجع سابق، ج2، ص 386).

⁴ زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام مرجع سابق، ص 114.

السَّلام: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا﴾ [الكهف: 65]. لكنَّ المتصوِّفة يُؤثِّرون استخدام "المعرفة" بدلاً من "العلم" في التعبير عن تجاربهم الدُّوقِيَّة. وهذه المعرفة القلبِيَّة الإلهاميَّة لا تنشأ للسَّالك أو المريد من التَّجربة الحسيَّة، أو الإدراك العقليِّ، أو الأقيسة المنطقيَّة، ولا من تعلُّم القرآن والسُّنة، ولا من تعلُّم أستاذ أو شيخ، وإِنَّمَا يَصِلُ إليها بالسَّفر إلى الله عن طريقٍ يَعْرِجُ فِيهِ رُوحِيًّا مُسَافِرًا إلى الله، ولذلك الطَّرِيقُ مَنَازِلٌ يَقْطَعُهَا، أو مَدَارِجٌ يَرْتَقِي فِيهَا¹.

وقد استفاد الدكتور بن بركة في الحديث عن العلم والمعرفة عند الصوفية، في كتابه "التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان"²، وأورد عددًا من أقوال السادة الصوفية في ذلك، منها قول القشيري وهو يشرح قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 162]، فقال: إِنَّ الراسخ في العلم من لا يكون في الدليل مُقلِّداً، بل ينتهي إلى حد لا يكون للشك في عقله مساغ، وهذه المرتبة الدُّنيا، وفوقها مرتبة من يرتقي عن حد تأمل البرهان ليصل إلى حقائق البيان. وفوق هذه الرتبة أن الراسخ في العلم أن يكون بعلمه عاملاً حتى يفيد عمله عِلْم ما خفي على غيره³. ومن خصوصيات المعرفة عند الصوفية، أن كل علم من العلوم قد يتأتى حفظه ونشره من منافق أو مبتدع إذا حرص عليه؛ لأنَّه نتيجة الذهن، وثمره العقل، إلا علم الإيمان واليقين - أي التصوف - فإنَّه لا يستطيعه، ولا يتأتى ظهور مشاهدته والكلام في حقائقه إلا لمؤمن موقن، لأنَّه آيات الله وعهده عن مكاشفة قدرته وعظمته، وآياتُ الله تعالى لا تكون للفاسقين، وعهده لا ينال الظالمين، وعظمته وقدرته لا تكون شهادة للزائغين ولا وجدا للمبطلين⁴، فمن كان عريًّا من اليقين

¹ ملكاوي: منهجية التكامل المعرفي، مرجع سابق، ص 190. نقلاً عن: عبد الحميد مذكور: المنهج العرفاني الذوقي عند صوفية الإسلام، المنهجية الإسلامية، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2010م، ج 1، ص 564.

² أنظر: بن بركة، محمد: التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1427هـ/2006م، ص 251.

³ القشيري، عبد الكريم: لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج 1، ط 3، 2000م، ص 389.

⁴ أبو طالب المكي، محمد بن علي بن عطية: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق: محمود إبراهيم محمد الرضواني، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط 1، 1422هـ/2001م، ج 1، ص 475.

لابسته دواخل الشك. ومن أقوال الصوفية في المعرفة والتي ذكرها الهجويري في "كشف المحجوب"، منها قول ذي النون المصري: حقيقة المعرفة اطلاع الخلق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار، وقول الشبلي: المعرفة دوام الحيرة، وقول أبي يزيد: المعرفة أن تعرف أن حركات الخلق وسكناتهم بالله¹.

إنَّ مضمونَ التصوُّف هو سلوكُ طريقِ الله، الموصِلُ إليه عبرَ دِعَامَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ: الأولى: هي السَّفَرُ الرُّوحِيّ، وهو عبارةٌ عن عمليّةٍ مُجاهدةٍ شاقّةٍ للنَّفْسِ، عن طريقِ التَّخليّةِ ممَّا علّقَ بها من أدرانٍ وأمراضٍ قلبيّةٍ مانعةٍ من الهداية والتّوفيق، ثمَّ تَحْلِيَّتِهَا بالفضائل والأخلاق والسلوك الحسن، والدّعامةُ الثانية: هي الهدفُ الذي نَتَغَيَّاهُ جميعاً، وهو الوُصُولُ إلى معرفةِ الله عزَّ وجلّ، فالأولى ضرورةٌ للثانية، ولكنَّ تحقيقَ الثانية لا يتمُّ دائماً، إذْ دُونُهُ عَقَبَاتٌ كَثَدَاءٌ، لأنَّ الأولى كَسْبٌ، والثَّانيةُ وَهْبٌ، وطريقُ المجاهدةِ طويلٌ ودُرُوبُهُ وَعَرُهُ المَسَالِكُ، وقد يَحْتَاجُ المريدُ إلى شيخٍ مُتمرّسٍ على الطَّرِيقِ، خبيرٌ بأدواءِ النفوس، كي يأخذ بيده زويداً زويداً، ويرقى به في مدارج السَّالِكِينَ، ويتدرّج فيها بين المقامات².

وما قاله الطوسي في كتابه: "اللمع"، يوضح أنَّ المريد يتقلب بين المقام والحال؛ فالمقامات معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عز وجل. وأما الأحوال فهو ما يحل بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار. وقد حُكي عن سليمان الداراني أنه قال: إذا صارت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح؛ أي: استراحت الجوارح من المجاهدات، والمكابدات من الأعمال: إذا اشتغل بحفظ قلبه ومراعاة سره من الخواطر المشغلة، والعوارض المذمومة التي تشغل قلبه عن ذكر الله تعالى³.

¹ أنظر: الهجويري: كشف المحجوب، ترجمة: محمود أحمد ماضي أبو العزائم، تحق: أحمد عبد الرحيم السايح - توفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م، ص305.

² أنظر: ملكاوي: منهجية التكامل المعرفي، مرجع سابق، ص190.

³ أنظر: الطوسي، أبو نصر: اللمع، تحق: عبد الحليم محمود - طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر - مكتبة المثنى، بغداد، لا.ط، 1380هـ/1960م، ص65-66.

إِنَّ التَّصَوُّفَ يَنْدَرُجُ ضِمْنَ فِقْهِ الشَّرِيعَةِ، وَقَدْ اشْتَهَرَ هَذَا الْاسْمُ قَرِيبَ مَنِ الْمَائَتَيْنِ مِنَ
الهِجْرَةِ كَمَا ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ الْقُشَيْرِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ¹، وَيَنْقَسِمُ هَذَا الْفِقْهُ إِلَى نَوْعَيْنِ: فِقْهُ الظَّاهِرِ، وَهُوَ
مَعْرِفَةُ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأَفْعَالِ الْجَوَارِحِ، فِيمَا يَخُصُّ الْمِكَلَّفِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، أَوْ يَعْصِيهِمْ مِنْ عِبَادَاتٍ
وَعَادَاتٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ، وَهَذَا هُوَ الْمُسَمَّى بِالْفِقْهِ فِي الْمَشْهُورِ، وَحَامِلُهُ الْفَقِيهَ، وَهُمْ أَهْلُ
الْفُتْيَا وَحِرْسَةُ الدِّينِ. وَالتَّوَعُّ الثَّانِي، فِقْهُ الْبَاطِنِ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأَفْعَالِ الْقُلُوبِ، وَمَا
يَخُصُّ الْمِكَلَّفَ فِي نَفْسِهِ مِنْ أَفْعَالِ الْجَوَارِحِ فِي عِبَادَتِهِ وَتَنَاوُلِهِ لَضَرُورَاتِهِ، وَيُسَمَّى هَذَا فِقْهُ الْقُلُوبِ،
وَفِقْهُ الْبَاطِنِ، وَفِقْهُ الْوَرَعِ، وَعِلْمُ الْآخِرَةِ، وَالتَّصَوُّفُ².

وَتَظْهَرُ أَهْمِيَّةُ مَضْمُونِ عِلْمِ التَّصَوُّفِ فِي أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا حَقَّقُوا ظَاهِرَ الْإِسْلَامِ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ
بِكُلِّيَّتِهِمْ، تَوَجَّهَ اهْتِمَامُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لِمُرَاقَبَةِ أَعْمَالِ قُلُوبِهِمْ، فَكَانُوا يَحْذَرُونَ غُلُوبَهَا أَشَدَّ الْحَذَرِ؛ وَيُظْهِرُ
ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ سُؤَالِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِحُذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهُوَ يَسْأَلُهُ هَلْ ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ ضِمْنَ
الْمُنَافِقِينَ، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنَّ مُرَادَ عُمَرَ ﷺ مَدْلُولَ النِّفَاقِ الْمَشْهُورِ، مِنْ إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ وَإِضْمَارِ الْكُفْرِ؛
فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مُبْرَأٌ مِنْهُ، لَكِنَّ الَّذِي خَشِيَهُ سَيِّدُنَا عُمَرُ ﷺ هُوَ مَا يَكُونُ مِنْ أَعْمَالٍ خَفِيَّاتٍ،
وَمِنْ قَلَتَاتٍ فِي الْبَاطِنِ قَادِحَةٌ فِي الْإِسْتِقَامَةِ، مُهْلِكَاتٍ لِلنَّفْسِ، لَا يَعْلَمُهَا الْمَرْءُ مِنْ نَفْسِهِ³.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَتَبَيَّنَ صَفْحَةً أُخْرَى مِنْ مَضَامِينِ الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ، فَإِنَّ النَّازِلَ فِي كُتُبِ التَّرَاجُمِ
وَالْمُنَاقِبِ الَّتِي أَرْتَحَتْ لِحَيَاةِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ فِي الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيِّ، وَخَاصَّةً كِتَابَ "التَّصَوُّفِ"
لَابْنِ الزِّيَّاتِ، تُؤَكِّدُ حُضُورَ غُنْصَرِ الْكِرَامَةِ، وَالَّتِي كَانَتْ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ أَقْرَبَ إِلَى الْحِكَايَةِ الشَّعْبِيَّةِ
مِنْهَا إِلَى كَلَامِ الْعُلَمَاءِ، بَيِّدَ أَنَّ هَذَا الْعَرَضَ كَانَ بِسَبَبِ أَنَّ الْفِكْرَ الصُّوفِيَّ فِي الْإِسْلَامِ ظَلَّتْ "تُؤَدَّى

¹ وهذا ما أشار إليه ابن خلدون بقوله: "فلما كُتِبَتِ العلوم ودُونت وألّف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك،
كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم... وصار علمُ التصوُّف في الملة علماً مُدَوَّنًا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط". (ابن
خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ج3، ص1066).

² أنظر: ابن خلدون، عبد الرحمان: شفاء السائل لتهديب المسائل، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، ط1،
1996م، ص44.

³ أنظر: المرجع نفسه، ص40-41.

فيه الحكاية، والأمثلة، والاستعار، والتشبيه، وأضرب المقايسة الأخرى، دوراً أساسياً في إقناع المخاطب، وتقريب الأهداف إليه¹.

وهذا المنهج القصصي نجد له حضوراً كبيراً عند متصوفة فارس كالرومي والعارف وسنائي؛ فمشكلة اللغة الصالحة للعرفان اتخذت شكلاً حاداً عند الفرس؛ فإن القرون الطويلة التي عاشها الفرس يكتبون باللغة العربية واعتبارها لغة المثقفين في مقابل الفارسية التي هي لغة العوام، عقدت مشكلة التعبير عند أكثر متصوفة الفرس. ومن هنا نستطيع فهم: لماذا سمى المثنوى بالقرآن البهلوي أي القرآن الفارسي؛ لأنه استطاع أن يسد هذه الفجوة على حين تعرض سنائي للوم؛ لأنه يكتب بفارسية ذات مضامين عربية، وحل هذه المشكلة كان الشاعر الصوفي الفارسي يلجأ إلى الحكاية لتفسير بعض ما غمض من معانيه؛ ولذلك دائماً ما يردد سنائي: "هناك معان كثيرة في قلبي لا يستوعبها بياني". ومن هنا تكونت الحكاية نسبة كبيرة من التراث الصوفي. وكانت الحكايات مجالا عظيماً، يقدم الشاعر الصوفي من خلاله تصويره الكلي عن الحياة والعالم، وقد تناول الحكاية السيرة فيلبسها من المعاني والرموز ما قد يتعد بها عن أصولها تماماً².

وللمنهج الذوقي عند المتصوفة ضوابط، منها أن للمعرفة الصوفية مجالها وحدودها فيما وراء المعرفة العقلية، فالعقل قد يشك في الحقائق الدينية، لكن القلب وحده هو الذي تنعكس عليه حقائق الأشياء. والمعرفة الذوقية مضبوطة بضوابط الشرع، فهي مقرونة ومسبوقة بطاعة الله وليس فيها ما يخالف أحكام الشرع، ولا تتناقض مع العقل، وتقتضي الكتمان عند من يرزقه الله شيئاً منها³. فالمنهج العرفاني الذوقي - كما يؤكد عبد الحميد مذكور - منهج تكاملي في طبيعته، لأن الصوفية لا يهتمون المعارف العقلية، ولا يتجاهلون العلوم الشرعية، لكنهم يتطلعون إلى أفق آخر يضاف إلى آفاق تلك العلوم والمعارف الأخرى، فإذا جاءت نتائج المنهج العرفاني وفق الضوابط الشرعية، ومراعية

¹ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 118.

² الدسوقي شتا، إبراهيم: التصوف عند الفرس، دار المعارف، القاهرة، لا.ط، 1978م، ص 53، 55-56.

³ ملكاوي: منهجية التكامل المعرفي، مرجع سابق، ص 192. نقلاً عن: عبد الحميد مذكور: المنهج العرفاني الذوقي عند صوفية الإسلام، مرجع سابق، ص 580-583.

للمقتضيات العقلية، فلا ينبغي إنكارها، لا سيما أنّ هذا المنهج مقترن بالرغبة في السمو الروحي والتهذيب الخلقي¹.

يُمكن القول أنّ النزعة الصوفيّة ظهرت لما اختلف الناس، وعمّ خُرُوجهم عن الصواب والإستقامة على أمر الله عزّ وجلّ، وغفلوا عن أهمّ علمٍ في الشريعة وهو أعمال القلوب، واهتمّوا بالرُسُوم الظاهرة، وانشغل الفقهاء أيضاً بما عمّت به البلوى بالفتيا في الأحكام التبعديّة والمعاملات. فاخصّ ثلّة من الزهاد بأعمال الآخرة، غُرباء عن الناس، قابضين على سلوكهم كالقايض على الجمر. فكان التصوف بمثابة ردّة الفعل على هذه الأوضاع الجديدة التي سادت المجتمع الإسلاميّ، ثمّ طرقت آفة البدع في المعتقدات، وتداعى العبادة والزهد: مُعتزليّ ورافضيّ وخارجيّ، لا ينفعه إصلاح أعماله الظاهرة ولا الباطنة مع فساد المعتقد الذي هو رأس الأمر، فانفرد خواصّ السُنّة المحافظون على أعمال القلوب، المقتدون بالسلف الصالح في أعمالهم الباطنة والظاهرة، وسمّوا بالمتصوّفة².

لقد كان لغلبة جماعة من الفقهاء المتزمتين، أيام الدولة المرابطية، الذين سيطروا على العقلية الإسلامية، فكادوا يقضون على خصائصها بسبب غلوهم في التفرّيع والجدل والتشدد، وفرض أنفسهم وآرائهم على ضمائر الآخرين وخلجات صدورهم، مما بعث اليأس في النفوس وصرفها إلى سبيل أخرى، علّها تجد فيها متنفساً؛ فقد انسأقت إلى نوع من التصوف-الغريب- الذي حاول أصحابه أن يفروا إليه بأنفسهم من تشدد الفقهاء وتعنتهم وجدلهم، وفروضهم التي لا تنتهي عند حد³.

3-المنهج الفقهي: لقد بدأ الفقه مع بداية الإسلام⁴، وكان له مصدران: الكتاب والسُنّة النبوية الشريفة؛ لأنّ الإسلام عقائد وأخلاق وأحكام، كان الوحي ينزل بها على قلب النبي ﷺ فيبلغها للناس، أو كانت على سبيل الفتيا أو الجواب عن سؤال. ولكن اشتدّت الحاجة إليه بعد وفاة النبي ﷺ، ومع حدوث الحوادث، وفي عهد الصحابة اجتهد الصحابة فيها، فكان اجتهداؤهم مصدراً

¹ ملكاوي: منهجية التكامل المعرفي، مرجع سابق، ص193.

² أنظر: ابن خلدون: شفاء السائل لتهذيب المسائل، مرجع سابق، ص42-43. والنص في الرسالة للقيصري: "ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف". (القيصري: الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص21).

³ أنظر: ابن رشد: مناهج الأدلة في عقائد الملة، تحقيق: محمود قاسم، مكتبة الأجلو المصرية، ط2، 1964م، ص6.

⁴ لقد بدأ تدوين الفقه كفنّ عقب القرن الأول، عندما تشعبت القضايا التي كان المجتمع الإسلامي العريض يواجهها آنذاك. (أنظر: خان، وحيد الدين: تجديد علوم الدين، ترجمة: ظفر الإسلام خان، عالم الأفكار، المحمدية، الجزائر، 2016م، ص14).

ثالثًا. وفي القرنين الثاني والثالث الهجريين، دخلت في الإسلام شعوب كثيرة من غير العرب، واستجدت مشكلات ووقائع وكانت اجتهادات الأئمة مصدرًا رابعًا. وقد أصاب الفقه التأخر، نتيجة التعصب للمذاهب واقتصار الاستنباط على المذهب الواحد، وإبطال النظر في الترجيح والتعليل؛ الأمر الذي أدى إلى القول بسد باب الاجتهاد، وانصراف اهتمام الفقهاء بأحكام العبادات، وهو سبب من أسباب تأخر الأمة الإسلامية في عصورها المتأخرة¹.

وقد تحدث الدكتور الحجوي الفاسي في كتابه: "الفكر السامي"، عن مراحل الفقه الإسلامي، فقال: "ثم المقصد في الفقه على عهد الإسلام، وهو أقسام أربعة باعتبار أطوار الفقه الأربعة التي تطور فيها في نظري: الطور الأول: طور الطفولية، وهو من أول بعثة النبي ﷺ إلى أن توفي. ثم الطور الثاني: وهو طور الشباب، وهو عصر الاجتهاد، ويبدأ من زمن الخلفاء الراشدين إلى آخر القرن الثاني. ثم الطور الثالث: وهو طور الكهولة إلى آخر القرن الرابع، وفيه توقف الخط البياني للفقه عن الصعود، أي أنه لم تضاف للفقه أي إضافات جديدة بحركة الاجتهاد، وإنما انتشر خط جديد وهو التقليد والركون إليه. ثم الطور الرابع: وهو طور الشيخوخة والهرم المقرب من العدم، وهو ما بعد القرن الرابع إلى الآن².

لقد عرف الفقهاء في الغرب الإسلامي وخاصة في عهد المرابطين، توسعًا كبيرًا في الفروع، والاهتمام بالفقه وكتبه والحواشي التي ألقت فيه، وبلغت مكانتهم شأوا عظيمًا، ونازعوا غيرهم من العلماء على الريادة والسيادة وتولّى المناصب العليا في الدولة، وغبطهم الناس لهذه المكانة السامية، والتفضيل السلطاني لهم، حتى قال فيهم اليعمري أحمد بن محمد البني (ت 490هـ)³:

¹ أنظر: ملكاوي: منهجية التكامل المعرفي، مرجع سابق، ص 198.

² أنظر: الحجوي، محمد بن الحسن: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مرجع سابق، تحقق: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1416هـ/1995م، ج 1، ص 6-7، 59-60.

³ أديب أندلسي زمن المرابطين، كان شاعرا هجاء وعزّال. تفقّه على يد ابن رزق القرطبي، وهو من شيوخ المالكية. كان ناقدًا لسياسة المرابطين زمن الأمير علي بن يوسف نظرا لإبعاد أعلام الأدب من مجالس السلطان وتقريبه للفقهاء، الذين كانت علاقتهم سيئة للغاية بابن البني، خصوصا مع القاضي ابن حمدين. (ابن سعيد، علي بن موسى (ت 685هـ): المغرب في حلى المغرب، تحقق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1955م، ص 357. والأصفهاني، العماد: خريدة القصر وحريدة العصر - قسم المغرب والأندلس، الدار التونسية للنشر، تحقق: آذرتاش آذرنوش، ط 2، 1986م، ج 2، ص 536).

أهل الرياء لبستم ناموسكم***كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتكم الدنيا بمذهب مالك***وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب***وبأصبع صبغت لكم في العالم¹

لقد كَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ انْفَرَدَ بِرُجْحَانِ الرَّأْيِ والتَفَرُّغِ لهذا الأمرِ، فسَمُّوا بالفُقَهَاءِ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ اشْتَهَرَ بِجُودَةِ الفَهِمِ وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ فِي اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ نَبْهَ شَأْنُهُ وَأَخَذَ عَنْهُ رَأْيُهُ، فَكَانَ الدَّاعِي إِلَى الفِقْهِ تَشْرِيعُ الْأَحْكَامِ، وَمَنْ ثُمَّ عَرَّفُوهُ بِأَنَّهُ: "الْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الْمَكْتَسِبَةِ مِنْ أَدَلَّتِهَا التَّفْصِيلِيَّةُ"، وَكَانَ الْبَاعِثُ عَلَى كِتَابَةِ مَا اسْتَنْبَطُوهُ حِفْظُ تِلْكَ الْآرَاءِ لِيَحْفَظُوا عَلَى النَّاسِ زَمَنَهُمْ مِنَ الْعَوْدِ إِلَى عَمَلٍ قَدْ قَضَاهُ مِنْ قَبْلَهُمْ...وَكَانَ هُنَاكَ مَنَهْجَانِ لِكِتَابَةِ الفِقْهِ: الْأَوَّلُ: مَنَهْجٌ تُذَكِّرُ فِيهِ الْفُرُوعُ وَأَنْوَاعُ الْحَوَادِثِ مُذَيَّلَةٌ بِأَحْكَامِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ: الْمَدُونَةِ، الْمَرْوِيَّةِ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَمِثْلُ: الْجَامِعِ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ صَاحِبِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَالثَّانِي: مَنَهْجٌ تُذَكِّرُ فِيهِ الْكُلِّيَّاتُ الْفَقْهِيَّةُ الَّتِي يُسَمِّيهَا الْمُتَأَخَّرُونَ الْأَصُولَ الْقَرِيبَةَ وَيُفَرِّغُونَ عَلَيْهَا الْمَسَائِلَ الْجُرْيِيَّةَ، مِثْلُ: قَوَاعِدِ الْقَرَفِيِّ، وَالْأَشْبَاهَ لِابْنِ بُجَيْمٍ. وَقَوَاعِدُ عَزِ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ، وَمِنْ سَلَكَ طَرِيقَتَهُمْ، مِثْلُ: الْمُقَرِّي، وَالْوَنَشَرِيْسِي. وَهَذَا الْمَنَهْجُ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ، وَمَالُوا إِلَى التَّقْدِيرَاتِ وَإِلَى تِكْرَارِ الْفُرُوعِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَقْدَمَ فَسَادٍ أَوْجَبَ تَأَخُّرَ الفِقْهِ².

لقد ابتلي الفقه في القرن الثاني والثالث بداهية دهياء، وهي التنافس المذهبي الناشئ عن الخلافات والجدل، وانتصار كل مذهب لمذهبهم، كأنه دين مخالف لدين أهل المذهب الآخر، يدلك ذلك وقائع من التاريخ في المشرق والمغرب، وغالب ذلك مُحَرِّكُهُ التنافس على نوال الرياسة والقضاء. أما في القرن الرابع، فقد بدأت فكرة الاختصار وشرح تلك المختصرات، والإكثار من جمع الفروع بدون أدلة، وهو ما أوجب الكهولة بل القرب من الشيخوخة التي دخل فيها الفقه في القرون الأخيرة، فبعد ما كانوا في القرن الثالث مُصَنِّفِينَ مبتكرين كأسد بن الفرات وسحنون، وابنه، والبويطي، ومحمد

¹ عزاها صاحب نفح الطيب للأبيض محمد بن أحمد الأنصاري الإشبيلي (ت 525هـ)، وفي المعجب هي منسوبة لابن البني. (أنظر: المُقَرِّي: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مرجع سابق، ج 3، ص 448).

² أنظر: ابن عاشور، محمد الطاهر: أليس الصبح بقريب التعليم العربي الإسلامي، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط 1، 2006م، ص 170-171.

بن الحسن، وأمثالهم، صار الحال في القرن الرابع إلى الشرح، ثم الاختصار والجمع... والاختصار لا يسلم صاحبه من آفة الإفساد والتحريف، فقد اعترض عبد الحق الإشبيلي مواضع من مختصر بن أبي زيد القيرواني والبراذعي أفسدها الاختصار، وهكذا المزني، إعرض عليه ابن سريج¹.

لقد اشتغل القاصرون² في كثرة التفرع في الفقه، ولم يروا أنه محتاج إلى اجتهاد وتقليب نظر أو فكر، بل أخذوها صوراً مُسلّمةً، وتمّ حصر المسائل كلّها فيها، ونشأ عن ذلك كثرة الخلاف الفقهيّ في المسألة الواحدة، وصار هؤلاء يفرعون لتلفيق الأحكام: إمّا باستنباط من كلام أئمتهم، وهو غير جائز كما في القاعدة الثالثة قبل باب الصلّة من "قواعد" المقرئ، وإمّا بالرجوع إلى عمل علمائهم في الأندلس أو فاس أو تونس، وذلك قد ردّه أبو بكر ابن العربي ردّاً صريحاً في كتاب "العواصم". إنّ الفقهاء من الصحابة، ولشديد احتياطهم في الدين واستيقائهم لحرية الرأي في فهم أحكام الشريعة، وخوفهم من حمل الناس على فهم واحد قد يكون غير صواب، كلّ ذلك جعلهم لا يجزمون في الأحكام بالحلّ أو الحرمة، بل يعدّلون إلى ألفاظ من قبيل: لا بأس به، أو مكروه أو غير ذلك³.

لقد أراد الخليفة هارون الرشيد ذات مرّة، أن يرسم المذهب المالكي ويأمر الناس باتباعه فلم يأذن له الإمام مالك -رحمه الله-، بل قال للخليفة: لا تفعل، فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع⁴.

¹ أنظر: الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مرجع سابق، ج2، ص181-182

² غير أنّ هذا القصور في الفروع عند المغاربة، كان قصوراً مميّزاً وله ما يبرّره؛ فلقد كان إلى حدود القرن السادس الهجري ميل إلى المختصرات؛ نظراً لكثرة الفروع وتشعبها، ولذلك حاول أصحابها اختزال الأمهات والموسوعات في الفقه المالكي تسهيلاً للطلاب، ثم ظهرت الشروح على المختصرات، وهكذا ما زالت همة الطلاب تقتصر، ويستشكل عليهم الفهم من هذه الشروح، فظهرت الحواشي التي توضح ما أغفل في الشروح. فكلّ هذا الجهد الكبير في التفرع له ما يبرّره، وقد حفظ علينا مسائل الفقه، وقربها لمريديها من طلبة العلم.

³ أنظر: ابن عاشور: أليس الصبح بقريب التعليم العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص173، 171.

⁴ خان، وحيد الدين: تجديد علوم الدين، مرجع سابق، ص35. هذا لا يتعارض - في رأيي - مع ما قرناه من أن تبني وترسيم المذهب المالكي أسهم في الحفاظ على الهوية الثقافية والفكرية أمام المذاهب الدخيلة، ولم يكن انتشار المذهب المالكي بالغرب الإسلامي أمراً مفروضاً على الأمة، بقدر ما هو اختيار ذاتي تتبناه الأمة عبر تاريخ طويل من التفاعل والأخذ والرد والتهديب والتشذيب للآراء والمواقف الفقهية المختلفة، وهو ما تؤكد التجربة التاريخية للأمة التي عرفت ظهور عشرات المذاهب الفقهية، غير أنه لم تكتب السيادة والانتشار إلا للمذهب إمام دار الهجرة.

لقد تحدّث الإمام ولي الله الدهلوي عن هذا الفساد في الفقه والذي سبّب الافتراق والخلاف؛ وقال بأنّ الفقه لم يكن مُدوّنًا على عهد النبي ﷺ، ولم يكن البحث في الأحكام يومئذ مثل البحث من هؤلاء الفقهاء، الذين أفنوا أعمارهم وجهودهم في تبيين الأركان والشروط والآداب، وفرض الصور المفروضة بحدودها، في حين أنّ ذلك لم يكن على عهد النبي ﷺ، فقد كان يتوضأ فيرى الصحابة وضوءه، فيأخذون به من غير أن يُبيّن هذا ركن وذلك أدب. ولم يُبيّن أنّ فروض الوضوء ستة أو أربعة، ولم يفرض أنّه يُحتمل أن يتوضأ إنسان بغير موالاة حتى يحكم عليه بالصحة أو الفساد، وقلّما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوهم إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلُّهن في القرآن... قال: ما كانوا يسألون إلا عما ينفَعهم¹.

لقد نعى الشوكاني في مؤلّفاته على مظاهر التأخّر في العلوم وجُمود العلماء، وصاغ رؤيةً متكاملةً في الإصلاح العلمي، قوامها نظريّة في التجديد تقوم على: " ثلاثة أسُسٍ منهجيّة، وهي: تحرّم التقليد والدّعوى إلى الاجتهاد، وتحقيق علم أصول الفقه، وتحديد منهجيّة الدّراسات الفقهيّة"². والمنهج الفقهيّ اليوم لا يقتصر على عمل الأئمّة والمفتين في قضايا الدين من عبادات ومعاملات وأحكام شخصيّة، وإنّما يتجاوز ذلك إلى عمل القضاة والقانونيين في سائر مجالات حفظ الحقوق وفرض المنازعات³.

إنّ إهمال مسألة المقاصد كان سببًا كبيرًا في حالة الجمود لكثير من الفقهاء، ونتج عنه نقص فادح في الاستفادة من أحكام نافعة كانت ستفيد الأمة الإسلاميّة في كثير من القضايا والمشكلات المعاصرة. والقصور في النظر إلى مقاصد الشريعة مضمّن الخلف وتشعبه، فإنّ تتبع تصاريّف الأحكام، يُرشّد الفقيه الحاذق إلى مقاصدها، وفي السلف وعملهم أسوة⁴.

¹ أنظر: الدهلوي، شاه ولي الله: حجة الله البالغة، تحق: السيد سابق، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ط1، 2005م، ج1، ص243.

² نقلًا عن: بوكروشة، حليلة: معالم تحديد المنهج الفقهي: أنموذج الشوكاني، وزارة الأوقاف، الدوحة، كتاب الأمة، العددان: 90-91، رجب ورمضان 1423هـ، ص291.

³ ملكاوي: منهجية التكامل المعرفي، مرجع سابق، ص200.

⁴ أنظر: ابن عاشور: أليس الصبح يقرب التعليم العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص173-174.

ويُقرّر المؤرّخ الكبير ابن خلدون أنّ "الفقه"، والذي عبّر عنه بفقه الظاهر، وهو معرفة الأحكام المتعلقة بأفعال الجوارح، قد كثرت العناية به لعموم البلوى، واحتياج السلطان والكافة لمنصب الفتيا، فكثّر ناقلوه في كل عصر ومصر، وتعدّدت فيه الموضوعات. وما عبّاه ابن خلدون، هو إغفال فقه الباطن والذي هو أهمّ، وبقي مهجورا وربما يُخشى دُرُوسه وذهاب أهله¹.

إنّ المعرفة الفقهية تُعنى بالأحكام الشرعية العملية التي تهتم بتنظيم التصرف الإنساني عموماً، وإن كان الفقه في استعمال القرآن أوسع من ذلك؛ إذ أنّه يشمل أحكام العقائد والأحكام العملية. ولعلّ ما يضعنا أكثر في دائرة تحديد الملامح الشمولية للمعرفة الفقهية، ما يذهب إليه أبو الفتح الشهرستاني، في تحديده لموضوع هذه المعرفة بالتوازي مع علم أصولها، حيث يقول: "كل مسألة يتعيّن الحق فيها بين المتخاصمين فهي من الأصول، ومن المعلوم أنّ الدين إذا كان مُنقسماً إلى معرفة وطاعة، والمعرفة أصل والطاعة فرع، فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصولياً، ومن تكلم في الطاعة والشرعية كان فروعياً، فالأصول: هو موضوع علم الكلام، والفروع: هو موضوع علم الفقه، وقال بعض العقلاء: كلّ ما هو معقول، ويُتوصّل إليه بالنظر والاستدلال؛ فهو من الأصول، وكلّ ما هو مظنون ويُتوصّل إليه بالقياس والاجتهاد فهو من الفروع"². ومن ثمّ فالمعرفة الفقهية من حيث الطبيعة معرفة فروعية بامتياز، تهتمّ في مناحيها الكبرى بتنظيم تصرف العباد والمعاملات الإنسانية عموماً وفق وضع المكلف المرتبط بما تدرسه العلوم الإنسانية وما تقدمه من نتائج علمية معتبرة³.

وقد نُقلَ عن الغزاليّ في كتابه "الإحياء"، وهو يرمي إلى التمييز بين ما يهدف إليه الفقه و بين ما يتعيّاه التصوّف، ما مفاده أنّ: "نظر الفقيه في العبادات التي رأسها الإسلام إنّما هو من حيث إنّها هل تصحّ فتكون مجزئة ويقع بها الامتثال ويسقط القضاء، أو تفسد فلا تكون مجزئة ولا يقع بها الامتثال فلا يسقط القضاء، أو من حيث يُمتنع من الأداء فيباح دمه، أو يؤدي فيعصم دمه، وكذا

¹ أنظر: ابن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، مرجع سابق، ص44.

² الشهرستاني: الملل والنحل، مصدر سابق، ج1، ص40.

³ الخليلي: التكامل بين المعرفة الفقهية والعلوم الإنسانية وأثره في ترشيد الاجتهاد، مرجع سابق، ص411.

نظره في الحلال والحرام إنما هو من حيث إنه تصرف في مال الغير، فهل يُنتزَع من يده لمستحقّه شرعا أم لا؟ وما يترتب على ذلك من آثار سقوط العدالة أو ثبوتها، وهذه كلّها أمور دنيويّة¹.

المطلب الثالث: السياق الحضاري- مطلب البناء والمواجهة-

إنّ التكوين الفكري المتين لعلماء وأساطين الغرب الإسلامي، والمبني على المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والسلوك الجُنَيْدي، كان سداً منيعاً أمام كلّ دعاوى وأشكال الانعتاق من المذهبية، والدعوة إلى مبدأ طوباوي غير بريء وهو "إسلام بلا مذاهب" أو "مذهب اللامذهبية"، أو حسب زعمهم الأخذ من الكتاب والسنة مباشرة. هذه الدّعاوى وغيرها تستلزم الردّ عليها من تراثنا الإسلامي، الذي شيّد بنيانه علماء عظماء تركوا بصماتهم واضحة في الحفاظ على الهوية الثقافية والفكرية للغرب الإسلامي، والتمسك بالبناء الحضاري الذي تميّز به المغاربة عبر قرون من الزمن².

إنّ ازدهار الحضارة الإسلامية في زمن سابق، يُعبّر عن حالة الحركيّة المعرفية والفكرية، وحالة التخصيب العلمي الذي كان سائداً، وخاصة زمن الخلافة العباسيّة؛ أين ازدهرت التّرجمة وتداخلت العلوم وتكاملت، لكنّ وضعية الجمود الحضاري الشامل منذ اللحظة التي سقطت فيها بغداد على يد المغول في عام 656هـ/1258م حتى يومنا هذا. ولا نعتقد بأنّ الحضارة العربية الإسلامية قد شهدت ازدهاراً أو تألقاً منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا. يقول المفكر الماركسي الثائر غرامشي في كتابه "دفاتر السجن": "القديم لم يمت بعد... والجديد لم يولد بعد"، ويمكن أن نُعدّل قليلاً في قول غرامشي فنقول: بأنّ التخلّف في ثقافتنا يرفض الموت ويتوالد من جديد، وإنّ التجديد يموت في كل ولادة. فالتكامل العلمي حالة حضارية وهي تعبيرٌ عن روح العصر المتوتّب إلى عهد جديد من الحضارة. ونحن مع الأسف الشديد نعاني حالة انتحار حضاري قديم لا يموت وجديد لا يولد. نعيش حالة التبعية، بعضنا يُستغرق في القديم حتى الشمال، وبعضنا الآخر يدمن على أوهام الجديد دون أن

¹ أنظر: ابن خلدون: شفاء السائل لتهذيب المسائل، مرجع سابق، ص45. نقلاً عن: الغزالي، أبو حامد: إحياء علوم الدين، ج1، ص18-19.

² أنظر: زهري، خالد: الرسالة التوحيدية والروحية لدى فقهاء المغرب أبو مدين الغوث أنموذجاً، مقال ضمن فعاليات الملتقى الدولي الحادي عشر: التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة، - محور العلاقة بين أهل التصوف وغيرهم، الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية، أدرار، أيام: 9-10-11 نوفمبر 2008م، ص310.

يلعب ومض الحضارة. ونحن هنا نريد أن نتحدث عن التكامل الخلاق بين العلوم والمعارف بين الماضي والحاضر والمستقبل، بين المكان والزمان، بين الإنسان والحريّة، بين العقل والتنوير.¹

إنّنا ونحن نتحدّث عن البناء النّسقي للعلوم الإسلامية وفق السياق الحضاري الراهن، المصطبغ بصبغة المواجهة بين الأفكار والأديان والثقافات، يُحتّم تكامل العلوم وانسجام المعارف الإسلامية. ولا بُدّ من استحضار المسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتق المتخصّصين من أجل تحقيق هذا المطلب العظيم الجليل، والمقصد السامي الجميل. ومن غريب الأمر أن يحتاج في عصرنا هذا إلى التّخصّص عليه، والدعوة إلى فكّ العزلة عن كل علم، واتّقاء ما نتج عن المبالغة في الركون إلى التّخصّص العلمي من تعارض وتنافر أحيانا بين المعارف. ومن غريب الأمر أيضا أن يتوارى هذا الأصل في العلوم الإسلامية الشرعية في العصور المتأخرة بعد أن كان حقيقة راسخة رسوخ الجبال، وبعد أن كان واضحا في أذهان المحقّقين وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكنّ جُنوح النّاس إلى التقليد، وتهيّئهم الولوج إلى مَهْيَع الاجتهاد جعل الشّقة تزداد أكثر فأكثر.²

إنّ إكراهات العوملة تجعل الحاجة ماسّة إلى المضيّ قدّما نحو الانفتاح الذي تُترجمه التفاعلات الآلية المنهجية، والتداخلات المضمونية المعرفية، في سياق كوني بات من اللازم الانخراط فيه، والاستجابة لمستلزماته التي لا نَعُدّها مجرد إكراهات خارجية تُسلّط على فكرنا، بل نعتبرها سنّة حضارية كونية؛ لذلك فمناط التفكير الإسلامي المعاصر وجب أن يتعيّن انفتاح المجال التداولي والتفاعلي الإسلامي، بمناهجه ومضامينه المفضية إلى المشاركة في الإنتاج الفكري الكوني، والإفادة من هذا التفاعل الخارجي، وإلا سينتهي الحال بنا إلى التّفوق الذي من شأنه أن يُعجّل بالفناء من حيث يُصرّ على البقاء.³

¹ أنظر: وطفة، علي أسعد: فلسفة التكامل المعرفي في الفكر التربوي الإسلامي المعاصر، لقاء فكري حوار بين الدكتور وطفة والدكتور محمد مینار، 8 مارس 2021م، <https://watfa.net/archives/11464>. تاريخ التصفح: 2022/02/15م.

² أنظر: عكيوي، عبد الكريم: معالم التكامل المعرفي عند المحدثين، مقال ضمن الندوة العلمية الدولية: معالم التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية، مؤسسة دار الحديث الحسنية، المغرب، 2010م، ص13.

³ أنظر: مشروح، إبراهيم: مسوغات الإنفتاح في أفق رؤية تعارفية مفتوحة، مقال ضمن الندوة العلمية الدولية: مجلة الواضحة، مؤسسة دار الحديث الحسنية، المغرب، العدد6، 2010م، ص46.

مما لا شك فيه، ونحن نستهدف الصمود أمام الثقافات الوافدة بوحدة معرفية وثقافية متكاملة، أنّ الحدود والحواجز بين العلوم جاءت في فترات متقطعة من التاريخ، حيث بدأت هذه العلوم تنفصل تدريجياً عن الفلسفة (أم العلوم). ومع أهمية هذا الاستقلال نشأت فلسفات جديدة لصيقة بكل علم من هذه العلوم من أجل توجيهها وتحقيق تكاملها مع العالم بصيغته الشمولية. ونرى في هذا السياق أنّ التواصل المعرفي التكاملي بين العلوم لم ينقطع، وبقيت الفلسفة بصورة عامة تمثل الفعالية المعرفية التي حاولت أن تحافظ على مسارات التكامل والتفاعل بين مختلف العلوم والفنون. وإذا كان استقلال العلوم قد أسهم في تطور الحضارة الإنسانية في وقت ما، فإنّ تواصلها اليوم وتكاملها يُحقّق ثورة فكرية معرفية عظيمة. لأنّ التكامل المعرفي بين الحقول العلمية وخاصة الشرعية منها- وهو ما نستهدفه في بحثنا هذا- يُشكّل اليوم منطلق الثورات المعرفية التي تشهدها الإنسانية اليوم. وهنا يجب أن نأخذ بأهمية الجدل ما بين الانفصال والتواصل، ما بين التجزؤ والتكامل بين العلوم والفنون في مسارات تطوّر الحضارة الإنسانية¹.

إنّنا ونحن نتحدّث عن البناء التكاملي لعلوم الشريعة فيما بينها، فإنّنا لا نعني التداخل ولا التقريب؛ لأنّ مفهوم التكامل وبصورة عامة يتجاوز هذه المفاهيم - برأينا- إذ يدلّ مفهوم التكامل بين العلوم على علاقة جوهرية تفاعلية ووظيفية، يتجاوز فيها العلم ذاته ويتخطّى حدوده المرسومة إلى آفاق أبعد وأعمق، وهو في الوقت ذاته يفتح على معطيات العلوم الأخرى، ويغتنى بها في الوقت الذي يُغنيها. وفي الأحوال كلها، فإنّ التكامل وفق السياق الحضاري المعاصر، مفهوم يرمز إلى التجاوز والتوحد في صيغة أعمق، وهذا كما ذكرنا آنفا يُعبّر عن روح العصر الذي يميل إلى تحطيم الحواجز بين العلوم نحو وحدتها وتكاملها².

ولهذا فالحديث عن أزمة العلوم الإسلامية، هو حديثٌ عن أزمة تلك المبادئ والنمذجة التحليلية؛ أي أزمة البناءات النظرية في تأسيس العلوم الخادمة للوحي، والتأهضة ببيان العلم الإسلامي والفكر الإسلامي في التجربة الحضارية للمسلمين. ويعتبر هذا الحديث دعوة مُبطّنة لعصر تدوين جديد من داخل النصيّة الشرعية، وما تقدّمه من رؤية معرفية متجدّدة وتصويبيّة للعقلانية التراثية

¹ أنظر: وطفة: فلسفة التكامل المعرفي في الفكر التربوي الإسلامي المعاصر، مرجع سابق.

² أنظر: المرجع نفسه.

والعقلانية الغربية الحديثة. تدوينٌ جديد مرتكزُهُ مرجعيةُ الوحي، ومنطلقُهُ فقه الواقع بقصد أن يعيش العقل المسلم واجب الوقت، ويعيش معاصرة مستقبلية يخرج بها من استلاب التاريخ الخاص والعام. وهذه المعاصرة المستقبلية ليست إلا قراءة نسقيّة استكشافية واستنطاقية وتحليلية وتركيبية للوحي، في سياق تقصيدي شرعي كلي للواقع، فهي قراءة متجاوزة للباراديغم¹ القديم الذي استنفذ أغراضه، لبناء باراديغم جديد، أكثر فاعلية في قراءة الوحي واستنطاقه لبناء علوم متكاملة في مجال الوحي والكون والإنسان².

المطلب الرابع : مضار القطيعة المعرفية بين العلوم الإسلامية

إنّ ظاهرة إقصاء علمٍ مثل علم الأخلاق والتصوّف مثلاً، وقطعه عن نسقه وتواصله واتّساقه المنهجي مع باقي علوم الشريعة، ترك آثاراً سلبية وخيمة في مفهومنا عن العلوم الإسلامية وتطبيقاتها إلى يوم الناس هذا، وفي طُرُق تعاملنا مع أسسها ومضامينها المعرفية وغاياتها العملية، وفي طرق الاستفادة منها، واستثمارها فيما يخدم تقدّم الأمة وازدهارها³. كيف لا والتصوّف أصلُ الإحسان، كما قال الشيخ زروق الفاسي: "وأصلُ التصوّف مقام الإحسان، الذي فسّره رسول الله ﷺ بقوله: «بأنّ تعبّد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»⁴... كما دار الفقه على مقام الإسلام، والأصول على مقام الإيمان. فالتصوّف أحد أجزاء الدين الذي علّمه جبريل عليه السلام ليعلّمه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فافهم"⁵. ولأنّ ذلك الإقصاء يُعطلّ التجديد والإصلاح، فلا تجديد ولا إصلاح بدون الوقوف على هندسة شاملة لخريطة العلوم، وخاصّة الإسلامية، التي تبني كيان المجتمع وتقوم حضارته، وتحدّد خريطة الاشتغال في تناسق تام ومنسجم مع جميع المكونات وجميع التخصصات

¹ البراديغم أو النموذج العلمي الموجه، هو تلك الانجازات العلمية، والتي تُقبل في زمن معين، وتشكل أساساً قوياً لطرح المشكلات العلمية ولطرائق حلّها. (أنظر: حسن الحريري: التأويل الإبتيمولوجي اللاوضعي بين براديغم توماس كون وبرنامج بحث إيمر لاكاتوس، مؤسسة دراسات وأبحاث مؤمنون بلا حدود، الرباط-أكادال، المملكة المغربية، 2016م، ص3-4).

² العضاوي، عبد الرحمان: آليات التداخل المعرفي القرآني وتجديد البراديغم المنهجي والتنزيلي في العلوم الإسلامية، الرابطة المحمدية للعلماء، ركن دراسات وأبحاث/دراسات عامة، 2021/02/25م.

³ أنظر: بوزغية، مصطفى: التصوف ومبدأ التكامل بين العلوم الإسلامية، الرابطة المحمدية للعلماء، مرجع سابق.

⁴ سبق تخرجه، أنظر ص4.

⁵ زروق، أحمد: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص23.

حتى يكون البناء مستجمعا لجميع عناصره، لذلك قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»¹، فخصّص القول بالدين وهو عام وشامل لجميع التخصصات ومن قيّد فعله الدليل، لذلك فإنّ أي عملية تروم الإصلاح المجتمعي الناجح، ولا تضع على رأس أولوياتها وفي برامجها موضوع التكامل بين العلوم والتخصصات، وكيفية استثمارها بالطرق المثلى والشّبل الناجعة، فإنّ هذه العملية ستبوء بالفشل الذريع، وتكون قاصرة غير مكتملة البنيان².

وإن شئنا مزيداً إيضاح لقيمة كلّ علمٍ من العلوم الإسلامية الثلاثة-المقصودة في البحث-: فقه وأصول وسلوك، وتبيين أهميته، وعلاقة كلّ واحد بالآخر، وحاجته إليه، فلا أحسن من أن ننقل كلام الشيخ زروق -رحمه الله-، والذي يقول فيه: "لا تصوّف إلا بفقه، إذ لا تُعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوّف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجّه، ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصحّ واحد منهما بدونهما، فلزم الجميع لتلازمها في الحكم، كتلازم الأرواح للأجساد، إذ لا وجود لها إلا فيها، كما لا كمال له إلا بها، فافهم. ومنه قول مالك رحمه الله: "من تصوّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوّف فقد تفسّق، ومن جمع بينهما فقد تحقّق"³. قلت: تزندق الأول: لأنه قال بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام. وتفسّق الثاني: لخلوّ عمله عن صدق التوجّه الحاجز عن معصية الله تعالى وعن

¹ أبو داود، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، دمشق، 1430هـ/2009م، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، حديث رقم: 4291، ج6، ص349. والحاكم محمد بن عبد الله: المستدرک علی الصحيحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 1422هـ/2002م، كتاب الفتن والملاحم، 567/4، وصححه: السخاوي، محمد عبد الرحمن: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ص203. وقال العلقمي في شرح الجامع الصغير: اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح. وممن نص على صحته من المتأخرين: العراقي وابن حجر، ومن المتقدمين: الحاكم في المستدرک والبيهقي في المدخل. أنظر: العظيم آبادي، شرف الحق: عون المعبود على شرح سنن أبي داود، اعتناء: أبو عبد الله النعماني الأثري، دار ابن حزم، ط1، 1426هـ/2005م، ص1963.

² أنظر: بوزغيب، مصطفى: التصوف ومبدأ التكامل بين العلوم الإسلامية، الرابطة المحمدية للعلماء، مرجع سابق.

³ نسبت هذه المقولة الحكيمة للإمام مالك بن أنس-رحمه الله-(حاشية العلامة العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزبة في الفقه المالكي ج3. ص195). وهناك من ينكر نسبها إليه، وعلى كل حال، فهي قولة فيها ما فيها من حكم ومعاني لا تدرك إلا لمن تجرد من حجاب الغفلة والعناد وفتح طريقاً له نحو البحث بنية التسليم بعد تحقق و بعد تجربة ذوقية حضورية.

الإخلاص المشترك في العمل لله. وتحقق الثالث: لقيامه بالحقيقة في عين التمسك بالحق فاعرف ذلك¹.

وقريبا من ذلك ما جاء من الحكيم المديني: "من اكتفى بالكلام في العلم دون اتّصاف بحقيقته، تزدق، وانقطع، ومن اكتفى بالتعبّد دون فقه، خرج وابتدع، ومن اكتفى بالفقه دون ورع، اغترّ وانخدع، ومن قام بما يجب عليه من الأحكام، تخلّص وارتفع"².

لقد ذكرنا سابقاً أنّه لا كمال للإيمان والتوحيد إلا بالفقه والأخلاق والسلوك، كما قال الشيخ زروق -رحمه الله-، فالصلة وثيقة بين العقيدة والأخلاق؛ فالعقيدة الصحيحة تستلزم التحلي بكل خلق فاضل، والتخلي عن كل خلق ذميم، وذلك أنّ الأخلاق ترتبط بأركان الإيمان إرباطاً متيناً؛ فقد جاءت في كتاب الله آيات تخاطب المؤمنين بوصف الإيمان، حاثّة لهم على بعض الأخلاق الفاضلة أو ناهية لهم عن بعض الأخلاق الذميمة، وأنّ من صفات المؤمنين الالتزام بهذه الأخلاق فعلاً لحسنها، وتركاً لسيئها، ممّا يدل على ارتباط هذه الأخلاق بالإيمان ارتباطاً قوياً. قال الله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: 27]، وقال سبحانه ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11]، وغيرها من الآيات الكثيرة، التي جاءت مؤكّدة على هذه الآصرة المتينة والوثيقة، بين العقيدة والأخلاق والسلوك.

كما جاءت السنة النبوية الشريفة بمثل ذلك، ومنها: قول النبي ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»³. وقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت،

¹ زروق، أحمد: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص22. وورد: قلت: تزدق الأول لإبطاله رسم العبودية، وتفسق الثاني لإعراضه عن الله بالكلية، وتحقق الثالث لقيامه بالشرعية العلية". (أنظر: الناصري، محمد بن عبد السلام: المزاييا فيما احدث من البدع بأمر الزوايا، تحق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2002م، ص101).

² زهري، خالد: الرسالة التوحيدية والروحية لدى فقهاء المغرب أبو مدين الغوث أمودجا، مرجع سابق، ص328. نقلا عن: أبي مدين الغوث: أنس الوحيد ونزوة المريد، ص87.

³ الترمذي، محمد بن عيسى: الجامع الكبير، تحق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996م، أبواب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي ﷺ إياهم، مج2، ص498. وقال: حديث حسن، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث الثوري عن أبي حمزة.

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»¹. وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»²، ولما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ بماذا يأمر؟ قال له أبو سفيان: « يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة»³. إلى غير ذلك من النصوص الشرعية.

لقد أطلقها الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- كلمة مُدَوِّية، وهو يتكلم عن بعض مآخذ علم الكلام من بينها: أنّ الدرس الكلامي في الكتب المقررة لا يختلف عما تُخلفه شروح المعادلات الجبرية من أثر في نفوس السامعين؛ وكلاهما يستهدف ترويض العقل، لكنّه مبتوت الصلة بالفؤاد والروح، فالطالب يذكر طائفة من الأدلة على الوجود الدائم لواجب الوجود، ولا يستشعر في قرارة نفسه عظمة الخالق المتعال، أو يختلج في بدنه عرق من الرغبة أو الرهبة نحو من سواه، وألهمه فجوره وتقواه⁴.

إنّ من مضارّ القطيعة بين العلوم، دراسة العقيدة دون أن تُنتج في الواقع أخلاقاً وقيماً، فتوقع صاحبها في الاختلاف والتنازع المذموم، بل وإلى إسناد الفسوق والكفر والإلحاد من كل فريق إلى الفريق الآخر، وقد يُفضي في بعض الأحيان إلى التقاتل والتناحر، وقد كان حرّاً أن تبقى هذه الخلافات ممّا لا ينبغي أن تتجاوز حدود المناظرات المنطقية والعلمية والفنية، ولكنّا أقحمنا اسم الله في مناقشاتنا التي لا معنى لها، سوى مزيدٍ من تمزيق الصفّ، واختلاف الأمة، وتشتيت الجهود، وضياع الثمار المرجوة لهذا العلم النفيس... فلا يوجد أمة على وجه الأرض مثل الأمة الإسلامية، تجترّ ماضيها السّحيق لتلوك منه خلافاً قاسية، وتقحمها إقحاما في قضايا العقيدة، وتأبى أن تُبقيها في نطاق الذكريات التاريخية، التي تُدرّس كأبي تاريخ لتؤخذ منه العبرة فحسب⁵.

¹ البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط1، 1423هـ/2002م، كتاب الرقائق، باب: حفظ اللسان. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، ص1611.

² البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ص13.

³ البخاري: صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب، ص9-10.

⁴ الغزالي، محمد: عقيدة المسلم، نخبة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003م، ص4.

⁵ أنظر: الغزالي: عقيدة المسلم، مرجع سابق، ص5-6.

والأمر ذاته ينسحب على الفقه وعلاقته بالقيم؛ فالفقه هو المسار الذي من خلاله يتم الإجابة فيه عن أسئلة الحياة بمختلف مظهراتها، والتعبير عن القيم وأخلاقيات المجتمعات ورؤيتها، من خلال السياق الذي تُمرَّر فيه أكثر إجاباتها أو غالبها. فالدرس الشرعي الفقهي مدعُو لأن ينظر في انتظام المسائل الفقهية تحت سقف القيم والأخلاق. ولاشك أنَّ النصَّ القرآني والنبوي عند تقرير الأحكام يرسمان البعد القيمي الأخلاقي من الحكم الشرعي، تأكيداً على البعد المقاصدي في خارطة التشريع. أي أنَّ الأمر لا ينتهي عند حلال أو حرام، بل الأمر يتعدى ذلك إلى استحضار القيم والأخلاق من الأحكام؛ لأنَّ الشريعة بطبيعتها أخلاقية قيِّمة. فالأحكام قد تكون في وقت ما عند تطبيقها لا تُعبّر عن القيمة الأخلاقية، أو لا تُحقّق مقصد الحكم، فيتأخّر التطبيق أو يتعذّر حين تتقدم القيم والمقاصد أولاً والأحكام ثانياً. وقد يكون الفعل جائزاً فقهاً لكنّه لا يُقبل أخلاقاً وقيماً، فالمنظور القيمي يُعدّ المنهج المسدّد للنظر الفقهي. وطرح الأسئلة الفلسفية الكبرى وتحويلها إلى ممارسات، يحتاج إلى جهد مكثّف، والنظر الفقهي القيمي أحدها؛ والإشكالية العميقة عدم تحويل القيم، إلى واقع في الحياة¹.

ولأهمية الأخلاق كانت أمّ الإمام مالك -رحمه الله- توصي ولدها وهي تبعته إلى حلقة الدرس، أن خُذ من شيخك أدبه وسمته وأخلاقه قبل علمه. يقول الإمام مالك بن أنس -رحمه الله- عن نفسه: "كانت أُمِّي تُعَمِّني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلّم من أدبه قبل علمه"². وقد ظهرت آثار هذا الأدب على إمام دار الهجرة؛ فها هو ذا عبد الله بن وهب يقول: "ما نقلنا من أدب مالك أكثر ممّا تعلمنا من علمه"³.

ونظير ذلك ما نقله الحسن بن إسماعيل عن أبيه، أنّه قال: "كان يجتمع في مجلس أحمد بن حنبل زهاء على خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون، والباقون يتعلّمون منه حسن الأدب والسمت". وقال أبو بكر المطوعي: "اختلفت إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل ثنتي عشرة

¹ أنظر: المعماري، أحمد مرعي: نحو... فقه قيمي، مركز نهوض للبحوث والدراسات والنشر، الكويت، 2020/04/21م، ص3.

² القاضي عياض: ترتيب المدارك، مرجع سابق، ج1، ص130.

³ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج8، ص113.

سنة، وهو يقرأ المسند على أولاده، فما كتبت منه حديثاً واحداً، إنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه وآدابه"¹.

ومن الأمثلة العملية اللطيفة، التي تدل على أهمية الأخلاق والسَّمَت قبل العلم، ما نقله الحافظ ابن الجوزي عن أحد شيوخه، قائلاً: "وكنْتُ إذا قرأتُ عليه أحاديث الرقائق، بكى واتَّصل بكأوه، فكان - وأنا صغير السنَّ حينئذ - يعمل بكأوه في قلبي، ويبيني قواعد الأدب في نفسي"².

لقد شكَّلَ الدرس الفقهي الذي يُقدِّم إجابات فورية موصوفة بالحكم الشرعي، أنماطاً مختلفة من التدبُّن، الذي غالباً ما يستحضر الصورة والشكل للفعل، ويحكم عليه بالحل والحرمة تبعاً لذلك بمعزل عن القيم المقاصدية، والأخلاق البنيوية التشريعية. ودون استحضار للسياقات الشرعية الأخرى: (العقدية، الأخلاقية والمقاصدية)؛ لأنَّها بجملتها تعبر عن الواقع التشريعي المنزل، فالقصد أن ينتقل الفقه من الإجابة على مستوى الحلال والحرام، إلى التأسيس للقيم وترسيخها من خلال الأحكام الفقهية العملية، والتحدّي الأكبر هو الانتقال إلى إنتاج حلول للأزمات الواقعية والمستقبلية، وهذا ما يُوحيه معنى الفقه، والذي يدل على أنَّها مادة عميقة تتجاوز السطحية، فهو معنى ذو أبعاد غائية مفاهيمية منهجية³.

كنا قررنا الطبيعة العملية للدرس العقدي بالغرب الإسلامي، الذي يأبى أن يكون مُجرَّد مجادلات فلسفية كلامية، لا تتعدّى الفعل، ولا تنفُذ إلى الواقع الاجتماعي للناس، وكذا هي طبيعة علم الفقه؛ إذ "أنَّ مجال الفقه له علاقة كبيرة في مجال ضبط الصياغة الفكرية في التنظيم الفقهي؛ وهذا له علاقة بالقانون والدستور الذي يُنظَّم حياة الناس ويعالج مشكلاتهم؛ ويُجري قضايا العقوبات والجنایات في مخالفتهم؛ إذ هو وسيلة ضبط وزجر؛ ففيه زواجر وجوابر، وبما أنَّ علم الفقه مهتم بفقه النص فهو كذلك فقه في أحوال النفس؛ فإن كانت الأحكام التكميلية بيئة النص؛ فالأحكام الوضعية بيئة الأنفس؛ ومن هنا نجد كثيراً من علومه ملتصقة بالواقع الاجتماعي؛ فعلم القضاء والموارث لهما علاقة واضحة بعلم الحقوق والتبعات الإنسانية، وعلم السياسة الشرعية يتقاطع مع فنون السياسة ونظرياته

¹ ابن الجوزي، عبد الرحمن: مناقب أحمد بن حنبل، مكتبة السعادة، مصر، ط1، د.ت، ص210.

² ابن الجوزي: صيد الخاطر، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1992م، ص147.

³ المعماري: نحو... فقه قيمي، مرجع سابق، ص3.

المعاصرة، وما يستجدُّ من إجراءات إدارية وتنظيمية، وفي الفقه مسائل البيوعات والمعاملات التي لها علاقة كبيرة في مجال الاقتصاد؛ إذ تحيي فيه حيوية الحراك المالي، والعطاءات وسوق المصافقة التجارية، والصناعية، والزراعية، وهذا لا يجد بيئته إلا في مجال الاقتصاد"¹.

من خلال ما سبق، يتبيّن خطأ وخطر الفصل بين هذه العلوم الإسلامية، التي أصلها التكامل والتوأمة والتقاطع في كثير من مراميها وغاياتها وأهدافها، والتي تخدم في المحصلة إنسانَ الخلافة، كي يُعمّر الأرض ويسكنها ويصلح فيها على ضوء من نور الوحي، متمثلاً في عقيدته وأحكامه وأخلاقه.

¹ الحمد، خباب: طلبه العلم والتكامل المعرفي بين الدراسات الشرعية والعلوم الإنسانية، 27 جمادى الأول 1439هـ، <https://almoslim.net/elmy/285755>، تاريخ التصفح: 2021/12/15م.

المبحث الثالث: التكامل المعرفي وسؤال الراهن

إنّ حديثنا عن التكامل المعرفي بين العلوم الشرعية، يقودنا نحو القول بتغلغل "علم الكلام" في "الفقه" و"التصوّف" حتى صار الكلام من صميم الفقه، ويجعلنا لا نتردّد في وصف علم الكلام؛ عند المغاربة، بفقه الكلام؛ وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على المنحى العملي للدّرس العقدي بالغرب الإسلامي، ممّا يُبطل ما ذهب إليه بعض علماء الكلام في تعريفهم لعلم الكلام، أنّه يُقابل الفعل؛ إذ لا عمل تحته، أي وصفوه بانعدام الجدوى العملية، كما يُبطل الزّعم بأنّ علم الكلام يُوازي ما يُعرف عند الأدبيات الغربية والكنيسة، بعلم اللاهوت (théologie)، كما يرى عبد الله العروي، وهي رؤية استشراقية يُفنّدُها الواقع؛ حيث إنّ مُتكلّمي المغرب الإسلامي، جعلوا علم الكلام من صميم الفعل والعمل، كما أنّ هذا التكامل يُفنّد- كما يرى عبد المجيد الصغير- أطروحة إدراج التصوّف ضمن ما سمّاه محمد عابد الجابري بـ "العقل المستقل"، أو "العرفان" المضادّ لـ "البيان" ولـ "البرهان"، مع إناطة دور سلبيّ بالفكر الصّوفي¹.

هذا وإنّ الإجهاد والتجديد في الفكر الديني، والإبداع في التأليف والتصنيف في شتى العلوم الإسلامية المختلفة لدى علماء المغرب الإسلامي، ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتداخل وتكامل العلوم الثلاثة (العقيدة، الفقه، التصوف)؛ إذ نجد في ترجمات أعلام المغرب التركيز في تحلية المترجم له على نعتة برفعة المزيّة في العلوم الثلاثة، مثال ذلك، أنّ صاحب "الذيل والتكملة"، حلّي علي بن خيار الفاسي (كان حياً عام 601هـ)، بأنّه كان حافظاً، فقيهاً، رافضاً للتقليد، ميالاً إلى النظر والاجتهاد، متفتناً، حسن المشاركة في العربية، وعلم الكلام، وأصول الفقه، والتصوف، حيث يلفت انتباهنا ارتباط حسن المشاركة في "علم الكلام" و"أصول الفقه" و"التصوف"، بعناصر لها دلالة عميقة في تقرير ما نحن بصددده، وهي رفض التقليد، والميل إلى النظر والاجتهاد في قضايا النوازل الواقعة، والتفنن².

ويمكن أن نضرب مثالا في واقعنا المعاصر، بالشيخ البوطي -رحمه الله- الذي كانت له مساهمات في الأصول والكلام والعقيدة والأدب والأخلاق، وقد أبدع وأفاد وأجاد. ومن مؤلفاته،

¹ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 127-128-129.

² أنظر: المرجع نفسه، ص 124-125.

رحمه الله: كتاب المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة، وكتاب اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية، وكتاب الحكم العطائية شرح وتحليل، وكتاب نقض أوهام المادية الجدلية، وكتاب كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق، وكتاب محاضرات في الفقه المقارن، وكتاب العقوبات الإسلامية وعقد التناقض بينها وبين ما يسمى بطبيعة العصر، وكتاب ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، وغيرها من المصنفات البديعة، التي تدل على علو كعب الشيخ في التصنيف والتأليف، في شتى أنواع العلوم الإسلامية.

المطلب الأول: الأبعاد السياسية والاجتماعية للتكامل بين الكلام والفقه والتصوف

من المتعارف عليه عند مفكري الاجتماع السياسي، أن: "كل طرق المعرفة في الإسلام تؤدي إلى السياسة"¹. وأن ثمة تداخل مشهود في الإسلام بين "المعرفي" و"السياسي"؛ لأن كلاهما ينطلق من كتاب يعتبر الدليل الأول والأصل المطلق الذي تلحق به الأحكام كلها؛ والمرجع المعياري الأول لما ينبغي أن يضبط به مجتمع الناس².

إننا ونحن نقرر ضرورة التكامل المعرفي بين العلوم الثلاثة: الدرس الكلامي، والفقه، والتصوف، فإننا نتطلع إلى الهدف المنشود من حصل هذه العلوم مجتمعة، في تحقيق مهمة التربية والإصلاح السياسي والاجتماعي. فالمسؤولية جسيمة للعالم الذي تحلى بعلم الظاهر: الكلام والفقه، وعلم الباطن: السلوك والتصوف؛ فالتصوف بالنسبة لعلم الكلام والفقه هو روحهما، كما أنهما له كالجسد لا إكمال لهما إلا به، كما لا ظهور له بدونهما، فهما شرطان في صحته، كما أنه شرط في كمالهما. فالتصوف ليس انعزالاً ولا رهبانية، بل هو روح تسري في جسد الأمة كي تحييها، فهو مذهب أخلاقي مجتمعي، يسعى فيه الصوفي لمشاركة الناس حياتهم، والتألم لألمهم، والفرح لفرحهم، وهو مع ذلك مستعلي بإيمانه، محافظاً على سمته، قائم بأمر ربه، فهو بذلك يُشكّل النموذج الذي يتطلع إليه الناس ويقتدون به³. فالصوفية الحقّة، هي في الثورة على الظلم الاجتماعي والسياسي، بدّل الجئوح إلى الانعزال السلبي، بله الركون

¹ الصغير، عبد المجيد: الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، قراءة في نشأة علم الأصول ومقاصد الشريعة، دار المنتخب العربي، ط1، 1994م، ص9.

² أومليل، علي: السلطة السياسية والسلطة العلمية: "الغزالي، ابن تومرت، ابن رشد"، ضمن ندوة: أبو حامد الغزالي: دراسات في فكره وعصره وتأثيره، كلية الآداب، الرباط، 1988م، ص12.

³ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص134-135.

للظلمة ومعونتهم، والتبرير لأفعالهم في قهر الناس وظلمهم"، فلطالما أكد ابن عجيبة (ت 1224هـ)¹، أن العزلة، ليست في اعتزال الناس وذكر الله، وإنما الكمال في العيش وسط الناس دون أن يشغله ذلك عن ذكر الله².

إنّ فساد الأديان القديمة جاء على أيدي رجال، اكتفوا بالعيش على هامش المجتمع، ورضوا لأنفسهم العزلة السلبية، واستثقلوا ضريبة الجهر بالحق في وجوه الظلمة، وجبّئوا عن مقاومة المبتطلين... هذا الصنف من الناس، هو الذي قال لآمرين بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمُ وَعَلَهُمُ النَّفْثُونَ﴾ [الأعراف: 164]. وإنّ الواحد منا ليؤجل من مصير هؤلاء حينما تقرأ قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116]، ومعنى هذه الآية يؤكد المعنى المستفاد من الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَاسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 165]. إنّ ترك الضلال ينفرد بزمام الحياة ينتهي حتما بضربة من القدر لا تبقي ولا تذر: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117]، فقد قال الله، وأهلها مصلحون ولم يقل وأهلها صالحون؛ لأنّ الصلاح الشخصي المنزوي بعيدا، لا يأسي لضعف الإيمان، ولا يبالي بهزيمة الخير، صلاح لا قيمة له ولا خير فيه! كن صالحا مصلحا وراشدا مرشدا... أما أن تجلس بعيدا تنتظر النتائج، وتستسلم للواقع فلا...!!³

¹ العارف الصوفي المفسر: ابن عجيبة أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الأنجوري الحسني. شريف النسب، شاذلي المشرب، ولد بقرية أعجيش من قبيلة حوز تطوان وذلك سنة 1160هـ، رحل لفاس وقرأ على الشيخ التاودي بن سودة والشيخ محمد بنيس والشيخ الطيب بن كيران. عاش أحوالا من المجاهدات والرياضات على يد شيخه محمد البوزيدي. قرأ القرآن ومقدمة الأجرمية، والألفية، وابن عاشر، والخراز، وجزءا من حرز الأمان. (أنظر: التليدي، عبد الله: المطرب بمشاهير أولياء المغرب، دار الأمان للنشر والتوزيع، ودار البشائر الإسلامية، الرباط، ط4، 2003م، ص220. ابن عجيبة: الفهرسة، تحقق: عبد الحميد حمدان، دار الغد العربي، القاهرة، ط1، 1990م، ص26-27).

² الصغير، عبد المجيد: التصوف كوعي وممارسة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط1، 1999م، ص171.

³ أنظر: الغزالي، محمد: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، لا ط، 1409هـ/1989م، ص68-69.

إننا قد نبیح عزلة مؤقتة، يُحصَّن المرء فيها نفسه ويَسُدُّ الثغور التي ينفذ منها عدوه، حتى إذا قَوِيَ واستكمل الأهبة خرج منازلًا لأعداء الله، ومُعَلِّيًا شعار الحق. أما أن تُقَرَّر طوائف من المسلمين التوقع، أو التجمُّع على أورد خاصة وحسب، فهذا هروبٌ من الواجب ونُكُوص على الأعقاب لا يُساغ فيه عذر. إنَّ المرء قد يستجِمُّ ليعاود الكدح! أما الاستقالة من الوظيفة فقضية أخرى¹.

وفي سياق التأكيد على واقعية التصوف، ما أجمل ما حلَّى به محمد بنُ العربي الرباطي مُحمَّدًا الحراق، أنَّه لما: "أخذ من علم الظاهر الحظ الأوفر، أكمل الله نعمه بعلم الباطن؛ ليكون رحمة في البلاد، وقُدوة للعباد"². وما هذه التحلية إلا توضيحًا للدور الاجتماعي والسياسي الذي تقع مسؤوليته على العالم، حينما يُحصِّل علوم الظاهر (علم الكلام والفقه)، وكذا علوم الباطن، في القيام والاضطلاع بمهمة الإصلاح الاجتماعي والسياسي³.

ما أحرانا ونحن نتحدَّثُ بألمٍ وحسرةٍ عن آلامنا ومآسينا الاجتماعية، والتي أصبحت تُورِّقُ كلَّ مصلح بأن يجد العلاج النَّاجع والشافي لجملة هذه الأدواء التي استعصت على المرَّين، فاهتمأنا بِرُقِّ الصِّدع بين علوم الظاهر والباطن، وإيلاء الأهمية الكبرى للشقِّ الأخير والذي هو فقه القلوب، وإرجاع مكانته التي يحتلُّها بين علوم الإسلام، يجعلُنا نضع أيدينا على الجرح، كيف لا وهو يُعنى بإصلاح الباطن وتحليته بالفضائل، وتحليته من كلِّ الرِّذائل، ويتحقَّق به الأمن المجتمعي، والذي في تطبيق منهجه تزكو النفوس البشرية، وتسعد الإنسانية، وتطرح عنها أنواعا من أمراض القلوب من: حسد وغلٍّ وحقد، وعُجْب وكِبَر وخيانة، وكراهيةً وأنانيَّة، وحُبٌّ للذَّات وإقصاء الآخر والانصياع لخدمة المصالح الذاتية، على حساب مصالح المجتمع والأمة، وغيرها من الأخلاق المرذولة القاتلة، والتي كثيرا ما أفسدت على الإنسانية بمحنة حياتها، وتوارت في ظلماتها وسائل الخير والإصلاح، فعِلْمٌ مثل

¹ الغزالي، محمد: المحاور الخمسة للقرآن الكريم مرجع سابق، ص 68.

² أنظر: زهري: الفقه المالكي والكلام الأشعري، مرجع سابق، ص 121. نقلا عن: ترجمة الشيخ أبي عبد الله محمد الحراق الحسني، مخطوط محفوظ في الخزانة الحسينية بالرباط، مسجل تحت رقم 13905، الصفحة 395.

³ أنظر: زهري: المرجع نفسه، ص 121.

التصوّف - كما قال صاحب كشف الظنون- يُعرف به كَيْفِيَّةٌ تَرْقِي أهل الكمال من النّوع الإنساني في مدارج سعادتهم¹.

إنَّه إذا لم يتوفّر الإخلاص لله في القلب، لم تُثمر الطاعات الظاهرة على اختلافها أيّ قرب إلى الله جل جلاله، وإذا لم تتهدّب النفس بالأخلاق الفاضلة التي أمر الله المسلم بأن ينسج منها ثوبا سابغا خفيا لها، لم يُغنّها أيّ غناء ما قد يلبسه صاحبها على مرأى من الناس من ثوب الصلاح والتعبّد والتقوى. والقلب الذي سيطرت عليه نوازع الكبر أو الضغائن والأحقاد أعجز من أن يمدّ الطاعات والعبادات الظاهرة بشريان العبودية لله تعالى... ولم يبق فيها أي وقاية تُحجزه عن مطارح الدنيا ومنزلقات الشياطين والأهواء... وصفوة القول، أنّ الحقيقة الإسلامية التي تعبّدنا الله تعالى بها، لا تتكوّن إلا من تناسق البواعث القلبية مع ظاهر السلوك والأعمال، ثم السّير معا على المنهج الإلهي الذي اختطّه لنا كلٌّ من كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، فإن تخلّف أحدهما فإنّ سير الآخر وحده لا يُعبّر عن أيّ حقيقة إسلامية².

هذا وإنَّه لا يتحقّق ما ذكرناه آنفا إلا بتبيان أهميّة التصوّف، باعتباره أحد العلوم الإسلامية التي تهتمّ بالجانب الروحي والتركوي، وإصلاح المنظومة القيمية والأخلاقية للفرد والمجتمع والأمة، يقول مصطفى النشار: "إنّ التخلّف العلمي لدى العرب والمسلمين ارتبط بتوقّف الاجتهاد في ميدان الدين، ولما كان التّجديد والاجتهاد الدّيني يمثّل إحدى القوى الدّافعة للإبداع في العلم الإسلامي، فقد أدّى إغلاق باب الاجتهاد إلى ضعفٍ علمي ملحوظ، وإلى تخاذل واضح من العلماء في بقيّة التخصصات، إذ إنّ الازدهار في علوم العقل كلّ لا يتجزّأ، فالتخلّف عن ركب التّقدّم العلمي في أيّ علم من العلوم: دينيّة كانت أو رياضيّة أو طبيعيّة أو اجتماعيّة أو إنسانيّة، وليس أدلّ على صحّة ما نقول إلّا النّظر في تاريخ الحضارات، قديمها وحديثها، فسنجد أنّ مظاهر التّقدّم تتكامل كلّها حينما تتوافر لها البيئة والمناخ الملائمان"³.

¹ أنظر: عكاش، حسين علي: علاقة التوازن والتكامل بين الفقه والتصوف، مجلة أصول الدين، الجامعة الأسمرية الإسلامية، ليبيا، العدد 1، ديسمبر 2016م، ص 31.

² أنظر: البوطي: باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، مكتبة الفارابي، دمشق - سوريا، ط 1، 1980م، ص 9، 6.

³ النشار، مصطفى: العقلية العربية بين إنتاج العلم واستيراد الثقافة، مجلة المستقبل العربي، العدد 200، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، أكتوبر، 1995م، ص 119.

لقد كان تفاعل الطّرق الصّوفية مع الواقع السياسي شيئاً معهوداً ومألوفاً؛ ولا بأس أن نُشير إلى مثال مُهمّ، ورد الحديث عنه من قِبَل الباحث سعيد أختاري في بحثه الموسوم بـ: " الغزالي والسياسة"¹، إذ أورد فيه آراء من يطعنون في التّصوّف وأهلِهِ، ويَصُمُونَهُمْ بأنّهم أبعد النّاس عن الواقع، ولا شُغل لهم إلّا عزلة النّاس والاعتكاف في كهوفهم، ومن بينهم، بل ومن أهمّهم، الإمامُ حجّة الإسلام الغزالي، وموقفه من الصليبيين، فكثيراً ما تحامل عليه الدّارسون والمفكّرون، كأنّه هو الذي أدخل الصليبيين إلى ديار المسلمين، ومن هؤلاء المنتقدين، الدكتور زكي مبارك في كتابه الموسوم بـ: " الأخلاق في نظر الغزالي"، وغيره من الأساتذة والباحثين، وقد جمع الدكتور سميح عاطف الزين أقوالهم - وهو واحد منهم - في كتابه: "الإمام الغزالي؛ حيث يقول: "...وقعت تلك الأحداث الداهية، الخطرة، ولم تصدر أي دعوة للجهاد... فأين كان العلماء، والراسخون في العلم؟ أُولم يكن أبو حامد الغزالي حجة الإسلام في ذلك العصر؟ فلماذا لم يلقِ خطبةً، ولم يصدر فتوى، ولم يَقم بأي عمل يدعو فيه إلى الجهاد؟ لا ندري... ولكن من الثابت أن تلك الأحداث - رغم ما رافقها - لم تُحرّك عاطفة الغزالي بشيء، ولم تُحدث فيه أيّ تأثير ديني.. بل على العكس، كان علمه الصوفي هو كلُّ شيء عنده، وهذا العلم -على ما يبدو- لا يدعو إلى الجهاد وفق المفاهيم الإسلامية، بل يدعو إلى صَرْفِ النّاس عن الجهاد من خلال تفاسير لبعض آيات القرآن الكريم، أقل ما يقال فيها: إنّها تفاسير صوفية غريبة شاذة عن أيّ فهمٍ لكتاب الله المبين²... ثم قال: أُرأيت أيّة عقلية تسيطر عليهم حتى في أدقّ الساعات وأحرجها، كما هي الحال عند الإمام الغزالي؟ الصليبيون يُذَلُّون المسلمين، ويحتلّون بيت المقدس، وشيخ الصوفية قابع في خلوته، صامت كصمت الجدران من حوله، غافل على تحيّلاته الوفية كغفلة أهل الكهف، لا تعنيه شؤون المسلمين وأحوالهم بشيء، وكيف تعنيه وهو لم يُحرّك ساكناً؟³.

ومن اتّهم الغزالي بهذا الإتهام، الدكتور عمر فروخ، فيقول: " ألا يعجب القارئ إذا علم أنّ حجة الإسلام أبا حامد الغزالي-الذي وقف نفسه وعلمه على خدمة الدين لحفظ الإيمان على

¹ أنظر: سعيد، أختاري: الغزالي والسياسة رؤية مقاصدية لواقع الأمة، بحث منشور بشبكة الألوكة، ثقافة ومعرفة / التاريخ والتراجم / سير وتراجم / سير وتراجم وأعلام، 2015/02/12م. /الغزالي- والسياسة/0/82467، <https://www.alukah.net/culture/0/82467>، تم التصفح يوم: 2021/09/12.

² نقلاً عن: سعيد، أختاري: المرجع نفسه، ص77.

³ نقلاً عن: سعيد، أختاري: المرجع نفسه، ص82.

العامة- شهد القدس تسقط في أيدي الإفرنج الصليبيين، وعاش اثنتي عشرة سنة بعد ذلك، ولم يُشير إلى هذا الحادث العظيم، ولو أنه أهاب بسكان العراق وفارس وبلاد الترك لنصرة إخوانهم في الشام، لنفر مئات الألوف منهم للجهاد في سبيل الله، ولو فُروا إذن على العرب والإسلام عصوراً مملوءة بالكفاح، وقروناً زاهرة بالجهل والدمار، وما غفلة الغزالي عن ذلك إلا لأنه كان في ذلك الحين قد انقلب صوفيّاً، أو اقتنع على الأقل بأنّ الصوفية سبيل من سبل الحياة، بل هي أسدّ السبل وأسعدّها"¹.

وهذا لعمري تجلّي فاضح، وافتراء واضح على الشيخ الغزالي -رحمه الله-، لا يليق بمن يروم الحق وينتهج المنهج العلمي والموضوعي في النقد، وإلا كان حرياً بالدكتور عاطف الزين، أن يُبين ويوضح لنا عن أيّ تفسير صوفي شاذ يتحدّث، وأن يُعطينا دليلاً عن ادّعائه لتفسير صوفية قالها الغزالي، تدعوا إلى صرف الناس عن فريضة الجهاد والعودة عن الدفاع عن حياض الدين! إن أمراً جليلاً كهذا الذي حصل من اجتياح الصليبيين ديار الإسلام، حرّك في نفس الدكتور عاطف وهو في القرن العشرين، وجيَّش فيه عواطف النخوة والانتصار للمقدسات المنتهكة، كيف يُتصوّر أنه لم يحرك شيئاً في علَمٍ من أعلام الإسلام آنذاك، وهو حجة الإسلام الإمام الغزالي!! وإننا لنعجب من تناقض الدكتور فروخ، فهو من جهة يثني على جهود الإمام الغزالي وخدمته للإسلام، ويصفه بالذي وقف نفسه وعلمه على خدمة الدين لحفظ الإيمان على العامة، ثم هو بعد ذلك يتهمة بالعودة عن نصرة القدس وعن إغاثتها وهي تسقط في أيدي الصليبيين!! وللقارئ أن يطلع على كتاب الباحث ماجد عرسان الكيلاني: "هكذا ظهر جيل صلاح الدين"، فقد أجاد وأفاد وهو يتحدث بعمق وإنصاف عن دور المدرسة الغزالية في التجديد والإصلاح والإعداد لجيل صلاح الدين، بعد أن تكلم عن التكوين الفكري المضطرب للمجتمع الإسلامي المنقسم طوائف ومذاهب، قبيل الهجمات الصليبية². إننا وقبل أن نُورد أقوالاً ومحاولات صادقة، لبعض من انتصروا لحجة الإسلام الغزالي -رحمه الله-، نودّ أن نشير إلى أمر مهمّ ألا وهو أنّ كثيراً من العلماء لم يسلّموا من العبث بكُتبهم، إمّا زيادة

¹ فروخ، عمر: التصوف في الإسلام، مكتبة منيمنة، بيروت-لبنان، ط1، 1947م، ص9-10.

² أنظر: الكيلاني، ماجد عرسان: كيف ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، دار القلم، الإمارات العربية المتحدة، ط3، 1423هـ/2002م، ص101 وما بعدها.

بحيث يُقَوِّلون ما لم يقولوا، أو نقصانا بحذف ما قالوه، وقد أورد الدكتور محمد عبدو في كتابه: "الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي"، فصلاً خاصاً في الدلالة على أنّ تصانيف الغزالي قد أُدخل فيها أشياء مستبشرة ليس منها، وبدأه بقول الغزالي نفسه: "فلما استجيت الدعوة واستمر عمل التدريس ناشطاً، وأخذ طلبة العلم من أطراف العالم يفدون، هاج حسد الحُساد، ولم يجدوا أي طعن مقبول، غير أنهم لبسوا الحقّ بالباطل، وغيّروا كلمات من كتاب "المنقذ من الضلال"، وكتاب "مشكاة الأنوار"، وأدخلوا فيهما كلمات كفر، وأرسلوا إليّ حتى أكتب على ظهرهما "خط الإجازة"، ولكنّ الله سبحانه وتعالى قد ألهمني بفضله وكرمه حتى طالعت ووقفت على تلييسهم"¹، ثمّ قال محمد عبدو: ولا يبعد أن تكون هذه الزيادات غير مقتصرة على الكتب المذكورة، فما من كتاب إلا ويتوقع أن يكون خصوم الغزالي قد دسّوا فيه أباطيل وشبهات، سواء في حياته أو بعد وفاته رحمه الله ورضي عنه. وهذا خطبٌ جليل لم ينتبه إليه بعض أفاضل العلماء...².

ومن الذين انتصروا للغزالي، الأستاذ مأمون غريب، حيث يقول: "ولقد عاب البعض على الغزالي، أنّه لم يقل رأيه في الحملات الصليبيّة التي غزت فلسطين... واستنتج بعضهم أنّه كان مشغولاً بالتصوّف.. وابتعد عن السياسة، وخاصة بعد قتل نظام الملك الذي حزن عليه حزناً شديداً..، وأغلب الظنّ أنّ الغزالي ربّما كان أعلن رأيه ولم يُسجّل..؛ لأنّه كان في مرحلة الزهد والانقطاع عن الدنيا، أو أنّه عبّر عن رأيه ولم يصل إلينا، ولكن من خلال دراسة هذه الشخصية ودورها الفكري الخطير يمكن أن نقول: إنّ الغزالي كان ساخطاً عليهم؛ لأنّهم كانوا خطراً جسيماً على الإسلام.. وليس من المعقول ولا من المنطقي أن يرضى حجة الإسلام عن جيوش جاءت لتقضي على الإسلام.. المنطق يقول ذلك.. وتاريخ الرجل ومواقفه تقول ذلك.. فهو لم يخشَ أحداً عندما تحدّث عن مهمّة الحاكم ودوره في الحفاظ على أمن المواطن.. وعلى رعاية الدين.. ومسؤوليته عمّا يُصيب رعاياه من ظلم من يُوكّلهم بالحكم عن المسلمين.. كما دخل معارك حادّة، وخاض مساجلات رهيبة مع الفلاسفة وعلماء الكلام.. انطلاقاً من إيمانه العميق بأنّ دوره هو حماية الإسلام من كلّ من

¹ الغزالي، أبو حامد: فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام الغزالي، ترجمة: نور الدين آل علي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972م، ص45.

² عبدو، محمد: الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2009م، ص19.

حاول أن يوقع ضرراً بالعقيدة باسم الفلسفة، أو تحت أي اسم آخر كان يراه الغزالي بعيداً عن الإسلام، وزُوج الإسلام، فليس من المعقول إذن أنه أثر الصّمت إزاء الحملات الصليبية المذكورة التي جاءت من أجل كنوز الشرق.. وسحر الشرق، لا من أجل حماية الصليب، كما كانوا يزعمون¹. وهذه رؤية موضوعية وتحليل جيد لموقف الغزالي -رحمه الله- من الباحث مأمون غريب، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار المكانة العلمية والفكرية لحجة الإسلام الغزالي.

ويمكن أن نأخذ في هذا الصّدّد برّد ودفاع آخر، وهو دفاع الشيخ يوسف القرضاوي -رحمه الله-، إذ يقول: "ولعلّ عُذر الإمام الجليل أنّ شُغله الشّاغل كان الإصلاح من الداخل أولاً، وأنّ الفساد الداخلي هو الذي يُمهّد للغزو الخارجي، كما تدلّ على ذلك أوائل سورة الإسراء؛ فإنّ بني إسرائيل كلّما فسدوا وأفسدوا في الأرض، سلّط عليهم عدوّهم، وكلّما أحسنوا وأصلحوا رُدّت لهم الكرة عليهم. لقد وجّه أكبر همّه إلى إصلاح الفرد، الذي هو نواة المجتمع، وإصلاح الفرد إنّما يكون بإصلاح قلبه وفكره، وبذلك يصلح عمله وسلوكه، وتصلح حياته كلها، وهذا هو أساس التغيير الاجتماعي، وهو ما أرشد إليه القرآن، إذ يقول رب العزة عز وجلّ: ﴿لَهُ، مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَّالٍ﴾ [الرعد: 11]، ويدخل في ذلك إصلاح الحُكّام بحسن توجيههم، والنصيحة لهم، والله أعلم بحقيقة عذره"².

وهذا العذر الذي التمسّه الشيخ القرضاوي -رحمه الله- للدفاع عن الغزالي، هو ما نجده منهجاً يكاد يكون عاماً عند كثير من دعاة الإصلاح في ساعة الأزمات والحروب، فهم يجنحون لإصلاح الداخل وبناء المجتمع والتركيز على التربية والتعليم، والمساهمة بالشيء الذي يملكون من أجل صناعة جيل يحمل الفكرة ويدافع عن العقيدة ويضحّي بالغالي والنفيس من أجلها، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الإصلاح الداخلي ولم الشمل ونبد الفرقة، ودفع الفساد في الرعيّة والحكّام على حدّ سواء. ويُضيف الأستاذ أمّختاري- في بحثه السالف الذّكر- وفي معرض الرّدّ والانتصار لحجّة الإسلام الإمام الغزالي، فيقول: "وبعد هذين الموقفين نحاول أن نضيف عذراً آخر للغزالي، خطر البلبال، ولعلّه

¹ غريب، مأمون: حجة الإسلام الإمام الغزالي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1997م، ص103-104.

² القرضاوي، يوسف: الغزالي بين مادحيه وناقديه، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط4، 1994م، ص174.

يقترّب من الصواب إن شاء الله؛ وذلك أنّ ابن كثير -رحمه الله تعالى- ذكر أحداث سنة 492هـ حينما هجم الصليبيون على المسلمين، فقال: "... وندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد؛ ليحرّضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل، وغير واحد من أعيان الفقهاء، فساروا في الناس، فلم يُفد ذلك شيئاً، فإننا لله وإنا إليه راجعون"¹، على ضوء هذا الكلام نحن أمام أمرين:

- أن الخليفة ندب الفقهاء الذين منهم ابن عقيل وهو العالم الكبير.
- وأنه ندب غير واحد من أعيان الفقهاء.

هنا نجد أنّ الفقهاء شاركوا في الدعوة إلى محاربة الصليبيين، وخصوصاً أعيان الفقهاء، وليس كل الفقهاء، ورغم ذلك لم تحصل أي فائدة، قد يكون الغزالي من هؤلاء الفقهاء - لا ندري - وقد يكون الغزالي يئس بعد طول نضال ودعوة إلى جمع الشمل قبل فوات الأوان، حتى إذا رأى أنه حدث ما كان يخشاه أقبل على نفسه لعله ينجو بها - على الأقل - عند الله، عندما صارت أحوال الأمة إلى تلك الحالة، وهو الذي كان دائماً يدعو إلى وحدة الصف، وتوحيد الكلمة، والحفاظ تماسك وحدة الأمة وقوتها، أما من يقول: إن الغزالي لم يكن يحمل هموم أمته، فما أبعده عن الصواب، ولو قرأ رسائل الغزالي بتمعن وصدق، وقرأ على الأقل ما بذله الغزالي من جهود سياسية منقطعة النظير في توحيد المشرق والمغرب الإسلاميين - وقد حقق ذلك أيام يوسف بن تاشفين المغربي، والخليفة المستظهر العباسي المشرقي² - لعلم أنه جُني على الغزالي أيما جناية³.

ومّا يُدلل على تفاعل الصُوفية السنيّة مع واقعها، تبوّء شيوخ الصُوفية الصّفوف الأولى لمقاومة الإستعمار في شتّى بقاع المغرب الحديث، كالأمير عبد القادر الجزائري (ت 1883م)، والذي بدأ حياته متصوفاً على الطريقة القادرية، وللاستدمار الفرنسي مقاوماً، ثمّ ختم حياته مُصلحاً إنسانياً عالمياً، وداعياً للسلام وقيم التسامح والحوار بين الشعوب والثقافات. "وكذلك الشيخ العربي الدرقاوي (ت 1239هـ)⁴، الذي كانت حياته السياسيّة نشطة وغنيّة، والدور السياسي الذي لعبته الدرقاوية في الجزائر، أو المغرب، يُنبئ عن

¹ ابن كثير، إسماعيل ابن عمر: البداية والنهاية، تحقّق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1419هـ/1998م، ج16، ص166-167.

² أنظر: بحث الأستاذ الشيخ محمد المنتصر الكتاني: الغزالي والمغرب، في مهرجان الغزالي، ص69.

³ أنظر: سعيد، مختاري: الغزالي والسياسة رؤية مقاصدية لواقع الأمة، مرجع سابق.

⁴ الفقيه أبو حامد سيدي العربي بن أحمد بن الحسين بن علي بن محمد الحسني الإدريسي الزروالي، الشهير بالدرقاوي، كان والده من أفراد الكامل العارفين بالله، أخذ عن الشيخ أبو الحسن علي الجمل، تعدّ رسائله من أنفع الرسائل للمريد، وأدّ لها على كيفية السلوك والتجريد. توفي ببني زروال عام 1239هـ. (أنظر: الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقّق: عبد الله الكامل الكتاني - حمزة بن محمد الطيب الكتاني - محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1425هـ/2004م، ج1، ص191-192).

إيمانهم بأنّ التصوّف، إذا كان يؤكّد من النّاحية الأخلاقية على قيمة التجرّد والزّهّد، فإنّه لا يُهمّل الواقع وشروطه الخاصة... وهو ما يحلّ مشكلة العلاقة بين التصوّف وواقع النّاس، لأنّ لدى المدرسة الدرقاوية وعيٍّ دائم بضرورة الجمع بين المثلّ الأخلاقية والواقع المحسوس¹.

إنّ فساد الأخلاق في المجتمع الإسلامي وفساد السّاسة والحكّام، كان هو الوقود الأول والدافع الأساسي لاشتداد شوكة التصوّف وسرعة انتشاره، والتفاف النّاس حوله، وتبوّئه المكانة اللائقة به كقائد للإصلاح بالأمة، وصانع لجيل النصر وتبوء مقام الريادة والسيادة بين الأمم، ومن مظاهر الفساد ما كان أيام دولة المرابطين؛ حينما تمّاهت الفقهاء على الدنيا وتراجعت القيم والأخلاق، ولم يجد الفقراء أمام الطبقيّة التي استحكمت حلقاتها إلاّ الالتجاء إلى المتصوّفة، الذين كانوا نعم السّند ونعم النّصير والظهر، ولاقوا صنوف الإيذاء والتّنكيل؛ من إحراق كتب حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي -رحمه الله- إلى نكبة ابن العريف (ت 537هـ)² وأبو الحكم بن برجان (ت 536هـ)³ بمراكش⁴، وحتى الدولة الموحّدية التي سمحت بتداول كتب الغزالي، ونشرت الأشعرية كمذهب اعتقادي يُقرّ بالأولياء والصالحين، إلاّ أنّها سرعان ما اصطدمت مع رموز التصوّف من خلال سجن الوليّ ابن يعزّي يلنور (ت 572هـ)⁵، من طرف السّلطان عبد المؤمن بن علي عام 541هـ، والمصير نفسه لقيه أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي (ت

¹ أنظر: الصغير: التصوف كوعي وممارسة، مرجع سابق، ص 171.

² أبو العباس أحمد بن موسى ابن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن عريف من أهل الزهد والعبادة، توفي بمراكش سنة 537هـ. واحتفل الناس بجنائزته. فندم السلطان على ما كان منه في جانبه وظهرت له كرامات. (أنظر: ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص 118).

³ أبو الحكم بن برجان هو عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي، اشبيلي غرّب إلى مراكش، وهو الذي أمر ابن حرزهم الناس بوجوب حضور جنازته، وقال: احضروا جنازة الشيخ الفاضل الفقيه الزاهد أبي الحكم بن برجان، ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله. توفي بها سنة 536هـ، قال فيه ابن الزبير: كان من أجلّ رجال المغرب، إماما في علم الكلام ولغات العرب والأدب. (أنظر: ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، هامش ص 156، 170).

⁴ جلاب، حسن: بحوث في التصوف المغربي، المطبعة الوطنية، مراكش، ط 1، 1995م، ص 7.

⁵ الشيخ أبو يعزّي يلنور بن ميمون من هزيمة إيروجان، مات وقد أناف على مائة سنة بنحو الثلاثين سنة، ودفن بجبل إيروجان في عام 572هـ. وكان قطب عصره وأعجوبة دهره في التصوف والزهد. يقول أبو مدين: رأيت أخبار الصالحين من زمان أويس القرني إلى زماننا فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعزّي. (أنظر: ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص 213-214).

561هـ¹)، لولا الطبيعة السلمية لتصوّف هؤلاء، وسكوت البعض الآخر من متصوّفة ذلك العصر، درءاً للفتنة وزهداً في السّلطة لكانت العواقب وخيمة جداً². ويبدو أنّ هزيمة الموحدين بمعركة العقاب، كان له الأثر المباشر في اندماج الكثير من العامّة في هذه الثورة السلميّة، وازدياد قاعدة التصوّف ببلاد المغرب، ولعل ذلك يعود إلى ضعف السلطة المركزيّة وتبؤ رجال التصوف مهمّة الدفاع عن الثغور، وحماية السلم العام بالبوادي بعد ضعف الولاة³.

ومّا يُذكر في التفاعل العملي للفكر الصوّفي مع الحدث السياسي، ما كان من موقف سياسيٍّ رائع للصوّفي الشهير ابن عجيبة، والمتمثّل في موقفه المتميّز من ظاهرة الرقّ، التي كانت منتشرة في عصره، فأخرج فتوى باعتبار الرقّ وصمة عارٍ، يجب التخلّص منها لتناقضها ومقاصد الإسلام، فكانت هذه الفتوى عبارة عن صرخة كبرى في وجه السّلطان أولاً، ودعوة موجّهة لعلماء عصره وفقهائه ثانياً، يدعّوهم فيها إلى الإلتزام بمحاربة نظام الرقّ وأن يوقّعوا على عريضةٍ لمنعه، ومن لم يفعل كان موافقاً على ظلم أناسٍ أحرار، وأجداؤهم مسلمون⁴.

وإذا كان هذا حال التصوّف إجتماعياً وسياسياً، فإنّ الأمر نفسه بالنسبة للدّرس الكلامي؛ فمن أهمّ أصوله، الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والذي يُعدّ الأصل الخامس من الأصول الكلاميّة عند المعتزلة، بعد التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، فهو يُعتبر أصلاً من أصول علم الكلام الفكريّة والاجتماعيّة، وهو أصلٌ شديد الارتباط بالواقع المجتمعي للمسلمين، والأمة مُجمعةً على العمل به، وهذا يستلزم أنّ علم الكلام يجب أن يكون مرتبطاً، هو الآخر، بواقع النّاس⁵.

¹ أبو شعيب السارية أيوب بن سعيد الصنهاجي أو مولاي بوشعيب الرداد، كان من أشياخ أبي يعزى، وقد أخذ بالأندلس عن الشيخ أبي جعفر إسحاق بن سعيد الأمغاري من أهل تيط، والشيخ أبي العباس أحمد بن العريف دفين مراكش، والإمام القاضي أبي بكر بن العربي الأندلسي الإشبيلي دفين مدينة فاس، والقاضي عياض دفين مراكش. وقد تتلمذ على يد أبو ينور عبد الله بن وكريس الدكالي. (أنظر: ابن الزيات التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص187، والسملالي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مرجع سابق، ج1، ص396).

² بوداود، عبيد: ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط بين القرنين السابع والتاسع الهجريين، دار الغرب، وهران، 2003م، ص29.

³ المرجع نفسه، ص55

⁴ أنظر: الصغير: التصوف كوعي وممارسة، مرجع سابق، ص189.

⁵ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص138.

لقد نأى علماء المغرب الإسلامي عن التنظير الكلامي العقيم، الذي ساد في المشرق، فأنزله من برجه العاجي، وأسَّسوا عليه مشاريع سياسية واجتماعية عظمى. ولا أدل على ذلك، دور المذهب الأشعري في العصر الوسيط عند أبي عمران الفاسي، في التخطيط للقضاء على الدولة البرغواطية، وكذا دوره في محاربة الفرق الضالة والتيارات العقدية المنحرفة التي كانت تُهدد المسلمين في عقيدتهم السنّية¹؛ " فأمام تعاظم المدّ الشيعي العبيدي، والفكر اليربالي الاعتزالي، وفرق الزندقة المتشعبة بالمروروث العقلاني الفلسفي، والآراء والأفكار الغامضة لحضارة ما قبل الإسلام، وعجز الخلافة العباسية عن مواجهتها لا سيّما فكريا، كان لا بُدَّ من الاعتماد على المذهب الأشعري للارتفاع بعقيدة السنة إلى مستويات التحديات، وهو ما نجح فيه أبو عمران الفاسي بشكل كبير، حيث تمكّن من تقديم الصيغة الإيديولوجية المناسبة للغرب الإسلامي².

وكما كان للمذهب الأشعري دوره في محاربة الفرق الضالة، فقد كان للفقه المالكي الدور ذاته؛ من قبيل الحرب الحامية الوطيس، التي خاضها فقهاء المالكية مع الدولة العبيدية الفاطمية، في الوقت الذي عمل تحت لوائها، بل تحالف معها، كثير من المعتزلة والفقهاء الأحناف. ولعلّ من أهمّ تجلّيات التوظيف السياسي للمذهب المالكي، ما كان من الفقيه المالكي أبي عمران الفاسي، وذلك في سبيل فرض الوحدة المذهبية وتحقيق الوحدة السياسية، وتوحيد الأمة، وجعلها في معزل عن الخلافات المذهبية، التي كانت تعصف بالمشرق، وتمزّقه شذر مذر، ولم يكن المغرب في منجاة منها³. لذلك عارض الفقيه أبو عمران الزناتيين⁴، الذين أثقلوا الضرائب على الرعيّة، نظرا لانتشار سلسلة من المجاعات استمرّت من سنة 380هـ إلى 462هـ، وأعلن الثورة ضدّهم ودعاهم إلى تغيير منكر المظالم

1 أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 290-291.

2 أنظر: إسماعيل، محمود: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي في طور الازدهار³، مؤسسة الانتشار العربي، القاهرة، 2000م، ج 3، ص 78-95.

3 أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 291.

4 الزناتيين هم بنو مغراوة، استقلوا عن الدولة الأموية في الأندلس سنة 390هـ، وبسطوا سيطرتهم تدريجيا بدء من فاس حتى سجلماسة وأغامت وتامدولت، بعدما خاضوا صراعات مستمرة وفوضى سائدة جعلت الحياة اليومية لا تطاق، وحالت دون أي نشاط اقتصادي طبيعي في عهد الزناتيين. (أنظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972م، ص 113-114).

وأمرهم بمعروف ردّ الحقوق إلى أصحابها، الأمر الذي يؤكّد الروابط الوثيقة بين آراء الفقهاء المعنّين بالحركة المرابطية، منذ كانت مشروعاً إلى أن أضحت حركة فدولة...¹.

هذا ولقد أكّد التلاحم بين الفقه والتصوّف والكلام فعاليّته في التصدّي للواقع السياسي المتردّي والفساد، الذي كان يعاني أهله الأمرّين من الحُكّام، وكذا انحراف الطُّرق الصوفيّة، وانتشار الدّجل والشعوذة وسلوكات تأبأها الفِطْر السّليمة، مثل طقوس الطّريقة العيساوية، والطريقة الحمدوشية، هذه الأخيرة التي تتخذ طقوساً غريبة، من قبيل أكل الحيوانات وهي حيّة، وشرب دمها، وتعذيب الجسد بإدخال السيخ وغيره، وعدّ ذلك من الكرامة وخرق العادة. وهذا لعمرى من تلبّس إبليس ومن عمل الشيطان، بل ومن الجنون، كما عبّر عن ذلك عبد السلام الأسمر (ت 981هـ)²، وشبّه هذه الأعمال بالوسخ والدّرن المنافي لصفاء التصوّف. فلا شك إذاً أن يتدخّل علم الكلام ليضع حدّاً لهذه الممارسات المنحرفة والأعقلانية، والخارجة عن سياق الإسلام الصّحيح، ويخلي التصوّف من هذه الشوائب، المخالفة لأهمّ ما جاءت به الشريعة الغراء، وهو التوحيد، وأن يتدخّل الفقه، في تحالفٍ عميق مع علم الكلام، لأداء الدّور المكمل، وهو تخليص الشرع من المظاهر التي سادت في بعض الطُّرق، أهمّها مظهر إسقاط التكليف، ومُن يُتّهم بذلك، ويدعّوا مُريدية لترك الشريعة، الشيخ عبد الله بن عزوز الشاذلي المراكشي (ت 1204هـ)³، الذي يذهب في بعض كتبه،

¹ أنظر: ولد السّالم، حمّاء الله: الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2010م، ص 37-38.

² عبد السلام بن سليم الأسمر، من مدينة زليتن، كفله عمه السيد أحمد الفيتوري، الذي أصبح زوج أمه بعد وفاة أبيه، وعلى يديه تعلم النحو والمنطق والتوحيد والفقه، ثم أسلمه إلى شيخ مربّي وهو الشيخ عبد الواحد الدكالي، فقرأ عليه المختصر والرسالة والحكم العطائية والتوحيد. عاصر الشيخ أحمد زروق، الذي تنبأ بنبوغه. أخرج من بلدته زليتن ما يزيد عن السبع مرات ليستقر به المقام بها أخيراً ويموت فيها عام 981هـ. (انظر: القطعاني، أحمد: القطب الأنور عبد السلام الأسمر، دار الكتاب الليبي، بنغازي - ليبيا، مكتبة جمهورية مصر، القاهرة، ط2، 1993م، ص 40 وما بعدها).

³ أبو محمد عبد الله بن عزوز القرشي المراكشي التلمساني، وكان شاذلي الطريقة ويدعى أيضاً سيدي بللا، عرف بالكتابات التي جمعت بين علوم التصوف وعلوم الحكمة، ومنها الطب والفلك وغيره. من كتبه: لباب الحكمة في علم الحروف ونعم الأسماء الإلهية. توفي سنة 1204هـ. (انظر: سعد الله، أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م، ج2، ص 411).

وبعبارات تُوحي بإسقاط التكاليف الشرعية¹، من قبيل اعتباره تفضيل الاسم الأعظم وفضله على سائر الأذكار، وسائر العبادات، وسائر الأعمال الصالحات... وظهور جماعة ما يسمّى بـ"العكاكزة"، التي تغطّت بغطاء صوفيّ، وكانت تأتي أعمالاً- كما يُحكى عنها- بإباحية إلى أبعد الحدود². "وما حصل في "أمّ الزوايا" بدرعة، من بدع منكرة، سجّلها الناصري، منها" وقوف الإمام بساحتهم، وإشراف المخدرات؛ ليلاً أو نهاراً؛ عليهم، وتأخير الصلاة عن وقتها، وتشويشهم على المصلين"³.

ولقد كشف سيدي عبد الكريم الفكون زيف ادعاء التصوف، وكان انحراف بعض المتصوفة دافعاً له لكتابة مصنّف في ذلك أسماه "منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية"، وعن الدافع من وراء تأليف هذا الكتاب، يقول: "فلما رأيتُ الزمان بأهله تعثّر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسّر، وسحائب الجهل قد أظلمت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيساً، والعالم يُدعى من أجلها خسيساً، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة، وروايح السلب والطرّد من المولى عليه فائحة، إلا أنهم تمسكوا من دنياهم بمناصب شرعية، وحالات كانت قدما للسادة الصوفية، فموّهُوا على العامة بأسماء ذهب مسمّياتها، وأوصاف تلاشت أهلها... والطائفة الأخرى-أي ادعاء التصوف- أعلنوا بأنّ سابق الأقدار منوطة بإرادتهم، وتأثيرات الأكوان

¹ يُفنّد الدكتور خالد زهري في كتابه: "الفقه المالكي والكلام الأشعري" ما أُتّم به الشيخ ابن عزوز، من كونه يذهب إلى ترك الشريعة؛ لأنّ مردّ ذلك لكثرة ما يدّعي أنه يتكلم بلسان الكشف، مما يُفهم منه التحلّل من الشريعة، بيد أنّ الرجل إذا رجعت لكتّبه ورسائله، ومنها خطبة كتابه "الأجوبة النورانية"، يعتبر نفسه من عامة المسلمين، ولو كان ادّعى إسقاط التكاليف الشرعية، لنسب إلى نفسه دعوى الخصوصية، لا أن يعترف بالتقصير. وفي تعريفه للتقوى، يقول بأنّها تتحقق بأمور، منها: لزوم الاقتداء بالكتاب والسنة والآثار. ويقول في فريضة الصيام: الصوم ركن من أركان الإسلام، وفرضه على كل عاقل بالغ، ولكل فرض نوافل من جنسه، يجبر بها ما أنقضه من فرضه. وكذلك الأمر في الزكاة، والطهارة، ويقول في الصلاة: اعلم، أيها السائل، أنّ الصلاة، هي أكبر العبادات، بعد الشهادة. وهي ممّا يجب للخالق على مخلوقاته... وهكذا يستمر في سائر الكتاب بما يُؤكّد، أنه لا يجيد عن الشريعة قيد أتملة. (أنظر: زهري: الفقه المالكي والكلام الأشعري، مرجع سابق، هامش ص126).

² أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص138-139-140.

³ الناصري: المزايما فيما أحدث من البدع بأمّ الزوايا، مرجع سابق، ص101.

صادرة عن اختياراتهم، فزادت بهم العامة شغبا إلى شغبهم، وتشويشا دخل القلوب فما أعظمه وأصعبه!¹

وفي السياق نفسه، انتقد الشيخ الأخضرى-رحمه الله- بعض طوائف الصوفية وما يصدر منهم من بدع وانحراف، كمثل انتقاده عليهم في طريقة الذكر، فقال:

وصنعوا في الذكر صنعا منكرا*** طبعا فجاهدهم جهادا أكبرا
خلوا من اسم الله حرف الهاء*** وألحدوا في أعظم الأسماء
قد غيروا اسم الله جل وعلا*** وزعموا نيل المراتب العلا
فزعموا أن لهم أسراراً*** وأن في قلوبهم أنوارا
وزعموا أن لهم أحوالا*** وأنهم قد بلغوا الكمالا
والقوم لا يدرون ما الأحوال*** وكونها مثلهم مُحال
حاشا بساط القدس والكمال*** تطؤه حوافر الجهال².

إنَّ الدعوات اليوم أصبحت تُرفع من أجل الحفاظ على الوحدة الوطنية، والتمسُّك بالأمن المجتمعي بعيدا عن نار الفتنة الطائفية أو المذهبية الدينية بين أبناء الأمة أو الوطن الواحد، وأصبح لا يكفي مُجرّد رفع هذه الشعارات، بل لا بُدّ من تدخّل أجهزة الدولة، ومن عمل مؤسّساتي تشرف عليها السلطات المعنية، قصد تفعيل نموذج الغرب الإسلامي في حفاظه على هويته، ممثّلة في التصوّف السنيّ الجنيدي، والمذهب الفقهي المالكي، والعقيدة الأشعرية. فإنّ هذا كلّه من شأنه أن يجنّبنا مآسي التطرّف والإرهاب والتكفير والتفجير. " إنَّ تشبُّث المغاربة والأندلسيّين منذ زمن الموحّدين إلى اليوم، بالعقيدة الأشعرية حتى أضحت ثابتا من ثوابتهم الدينية، ومُقوِّما من مقوِّماتهم الفكرية، إلى جنب

¹ الفكون، عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ/1987م، ص31-32-33.

² وهي من منظومة الشيخ الأخضرى المسماة بالقصيدة القدسية، شرحها الباحث: الدراجي، بوزياني: عبد الرحمن الأخضرى العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، دار الأمل للدراسات، الجزائر، ط2، 2009م، ص163-164.

المذهب المالكي والتصوّف، كلّ ذلك أسهم في خلق انسجام مذهبي وعقدي في المغرب والأندلس، جنبهما كثيرا من القلاقل التي كانت تدور رحاها في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي¹.

وفي هذا السياق، ونحن نتحدث عن الدرس الكلامي ليتفاعل والواقع السياسي والاجتماعي، ويؤدي الدور المنوط به، لعلنا نشير إلى بعض الوثائق التاريخية المهمة، والمتعلقة بما قرّره سالفنا، وهي منظومة لغزاليّ المغرب، الذي تبوّأ مقام الرئاسة في العلوم الثلاثة: العقيدة والفقه والتصوف، وهو الهبطي الكبير، واسمها: "الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية" لأبي محمد عبد الله الهبطي (ت 963هـ)²، وقد عبّر فيها عن واقعه السياسي والاجتماعي والديني والفكري، بما يجعل المطلّع على كتبه ورسائله يدرك سرّ إصراره على أن يجعل الكلام، والفقه، والتصوف، تسير في طلق واحد، دون أن تكون بينها أية فواصل أو حدود. وبما يؤكّد أنّه إذا كان علم الكلام - بعد القرن الخامس خاصة - صار مجرّد ممارسة نظرية عقائدية، لا علاقة ضرورية بينها وبين الممارسة السياسية، فإنّه نزل من بُرجه العاجي، ليُلامس الواقع السياسي والاجتماعي، وليؤدّي دوره في الإصلاح، وليؤكّد تلك العلاقة الوطيدة بين علم الكلام والانشغال بالمشكل السياسي³.

ولعلّ من أبرز أمثلة التوظيف السياسي لعلم الكلام، عند المغاربة، ما صنعه محمد المهدي بن تومرت الموحد، حيث يظهر أنّه رجع إلى المغرب من المشرق بروح رافضة للواقع الكلامي لهذا المشرق. هذا المهديّ، الذي كان مشروعه السياسيّ قائما على الفكر الدينيّ التجديدي عند شيخه أبي حامد الغزالي. وقائما على فكرة نجاعة إنزال علم الكلام من بُرجه العاجي، ليتحوّل إلى وسيلة للتغيير السياسي، والإصلاح الاجتماعي، هذا المشروع الذي لقي استحسانا من الإمام أبي حامد الغزالي، حيث قال في مقدمة كتابه: "سرّ العالمين": "فأول من استحسنه"⁴، وقرأه عليّ بالمدرسة النظامية سرّا من الناس في النوبة

¹ أنظر: زوهري، وليد: ابن المرّة الأندلسي وجهوده في التصوف وعلم الكلام، مجلة آفاق للعلوم، جامعة زيان عاشور الحلفة، الجزائر، مجلد3، عدد1، 2018/01/02م، ص283-284.

² أبو محمد عبد الله بن محمد الصنهاجي الهبطي، جنيد زمانه، من مؤلفاته: "الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة"، أخذ عن: محمد عبد الله القسطلي، وعمدته في التصوف سيدي عبد الله الغزواني، له معرفة بالأصليين والبيان والمنطق والجدل والرياضيات، توفي سنة 963هـ/1556م، وقبره مشهور بزوايته الواقعة في جبل الأشهب، بلاد بني زحل جنوب شرق شفشاون. (أنظر: ابن عسكر: دوحة الناشر، ص7. وابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، مرجع سابق، ج2، ص440).

³ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص145-146.

⁴ الضمير يعود على كتاب: "سر العالمين وكشف ما في الدارين".

الثانية بعد رجوعي من السفر، رجلٌ من أرض المغرب، يقال له: محمد بن تومرت من أهل سلمية، وتوسّمت منه المملك¹. فالإمام الغزالي بهذا يقرّ تلميذه على تحويل علم الكلام إلى وسيلة ثورية للتغيير السياسي؛ وقد كان محمد بن تومرت كثيرا ما يُحدّث نفسه بالقيام والثورة على المرابطين، انتصارا لشيوخه المغتاز مّا يفعله السلطان المرابطي علي بن يوسف من إحراقٍ لكتبه بالمغرب، ويحكي صاحبُ كتاب "المعجب" فيقول: "وقيل إنّه² لقي أبا حامد الغزالي بالشام، أيام تزوّده، فالله أعلم³. وحكي أنّه ذكر للغزالي ما فعل أمير المسلمين-أي علي بن يوسف- بكتبه، التي وصلت إلى المغرب، من إحراقها وإفسادها، وابنُ تومرت حاضِر ذلك المجلس، فقال الغزالي حين بلغه ذلك: ليذهب عن قليل مُلكه، وليقتلن ولده، وما أحسب المتولي لذلك، إلا حاضرا مجلسنا!". وكان ابن تومرت يحدّث نفسه بالقيام عليهم؛ فقوي طمعه⁴.

يمكننا القول في ختام هذا المبحث، أنّ تجربة فقهاء المغرب الإسلامي في تحديد وإحياء الدرس الكلامي، تُعدّ تجربة رائدة ومتميزة، وفريدة، فتحت آفاقا رحبة جديدة، زانتها جمالية التجربة الروحية والصوفية، وفعلتها حيوية الفقه المالكي، وضبطتها امتلاك علماء الغرب الإسلامي ناصية الاجتهاد والنظر العقلي الحصيف، والإبداع وعدم التقليد والتكرير، ويُمكن القول أيضا، أنّ التجديد المعاصر لعلم الكلام الإسلامي، يمكن أن يكون امتدادا لما صنعه فقهاء المغرب الإسلامي⁵.

المطلب الثاني: التكامل المعرفي وإنسان الخلافة - التأسيس للعبودية والاستخلاف -

إنّه من البدهة بمكان، التّصريح بمكانة الخبرة المعرفية الإسلامية⁶ التي ألهمت البشرية، وكانت لها اليد الطولى في الإسهام في بناء صرح الحضارة لعدة قرون. وإنّ مّا يتفق عليه الباحثون في التاريخ

¹ الغزالي، أبي حامد: سر العالمين وكشف ما في الدارين، المجموعة السادسة من رسائل الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 478.

² الضمير يعود على "محمد المهدي بن تومرت".

³ روى ابن خلّكان أنّه لقي الغزالي، والكيّ الهراسي، والطّرطوشي، وغيرهم. (أنظر: ابن خلّكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مرجع سابق، ج 5، ص 46).

⁴ المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مرجع سابق، ص 178-179.

⁵ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 157-158.

⁶ تمثّل الخبرة المعرفية الإسلامية كل العلوم المولودة في سياق خدمة الوحي الشريف وتوظيفه لأجل عمارة الأرض، ولب تلك العلوم قاطبة شرعية وغير شرعية هو التوحيد أو علم الكلام... والتركيز على جوهرية ومركزية علم الكلام في الخبرة المعرفية يجعل منه هو أيضا خبرة معرفية، في إطار تكامل وتداخل معرفيين بين العلوم الإسلامية. (طبي: النظرة الحدائنية لعلم الكلام بين التجديد والتجاوز، مرجع سابق، ص 1655).

وفهرسة العلوم، أنّ من أسباب النكوص والتراجع والتخلف التي أصابت الأمة، هي تنكُّبها طريقة الأسلاف، وعدم الاستثمار في المخزون المعرفي الإسلامي المتكامل، هذا المخزون الذي بوأ الأمة الإسلامية المكانة الرفيعة ردحاً من الزمن، وإنّ أي مشروع إصلاحيّ يستهدف استلام دقّة توجيه الحضارة المعاصرة اليوم، لا بُدّ له من تحريك السواكن، والبدء من المنطلقات والأسس الأولى، المبنية على العلوم وتكامل مخرجاتها، وخاصة الشرعية منها، موظفة إياها بما يخدم التجديد وتهيئة إنسان الخلافة، كي يُعيد بناء الصّرح من جديد، وتحقق الأمة مقام الشهادة على الناس - بدل مقام المشاهدة والتفرُّج والسلبيّة- وفق آليات الفعلية، المحتكمة إلى المنجز الحضاري، الذي استلم زمامه الآخر بعيداً عن توجيهه من الوحي الإلهي¹.

إنّ النداء الأول للوحي ابتداءً بقول الله ﷻ: ﴿تَٰلَفَلَمْ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:1]، هذا النداء الذي يؤصّل لمبدأ الإعمار والاستخلاف في الأرض على أساس من نور الوحي، وأن يكون طلب هذا العلم باسم الله ﷻ، وإلاّ كان دماؤه وخرايبه أكبر من صلاحه، والواقع المعاش يُؤكّد بقوة صدق هذا الطرح؛ حينما تتخنّص الأمم المتغلّبة، إلى استخدام سلاح العلم من أجل الاستبداد والقهر ونهب ثروات الشعوب المستضعفة، وإذكاء نيران الحروب بين الدول لاستثمار ذلك في بيع الأسلحة والإمداد بالمرتزقة المحاربين، وجني فوائد وأموال ضخمة من وراء ذلك، غير مباليين بحجم الدمار بشريا وماديا، وهذا حينما يغيب الوازع الإنساني أو الديني ويغيب الضمير الحيّ، وتنقطع ببعض البشر العلاقة مع الوحي المنزل من عند الله سبحانه وتعالى.

إنّ الإنسان في الرؤية الإسلامية وهو يريد إعادة بناء الزمان والمكان، لا يسعى أبداً إلى إشباع نزواته المنحرفة ولا إرادته الخلاقة التي تدفعه للفساد في الأرض، بل إنّ سعيه الحثيث متّجه دوماً نحو الاستجابة لإرادة الله تعالى في الكون. وتأسيساً على ذلك تصير عملية إعادة البناء الزمانية والمكانية عبادة لله ﷻ وطاعة له، وليست غزواً للطبيعة، ولا قهراً لها، ولا تحدياً لها، على شاكلة سلوك الإنسان الغربي، الذي ضلّ عن هدي الوحي، ويتحصّن المسلم ويتترسّ بتلك الرؤية الكونية من

¹ أنظر: طيبي: النظرة الحداثيّة لعلم الكلام بين التجديد والتجاوز، مرجع سابق، ص 1651-1652.

الإصابة بآفة من آفات ثلاث؛ ادّعاء القدرة على قهر الطبيعة ومحادّة الله وقدرته وسُنّته في الكون، الإصابة بمرور القوة حالة نجاحه، الإصابة باليأس والإحساس بالعجز حالة فشله¹.

إنّ الذي يحجز الإنسان عن الفساد والطغيان في الأرض هو وحي السّماء؛ فالحادث الضخم المتمثّل في نزول الوحي، هي أعظم لحظة مرّت بهذه الأرض لتكون ملتقى نور الله ﷻ، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، ومثل قدره الذي يريده بهذه الخليقة. ودلالة هذا الحادث الضخم - في جانب الإنسان - أنّ الله تعالى قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصوّرها... أنّ يذكره الله، ويلتفت إليه، ويختار من جنسه رسولا يوحى إليه بكلماته. وأن تصبح الأرض مسكنه، ومهبطا لهذه الكلمات التي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشوع وابتهاال. وهكذا فالآيات الأولى من سورة العلق، تُمثّل الحقيقة الأولى، التي تلقاها قلبُ رسول الله ﷺ في اللحظة الأولى، هي التي ظلت تصرف شعوره، وتصرف لسانه، وتصرف عمله واتجاهه، بعد ذلك طوال حياته. بوصفها قاعدة الإيمان الأولى².

ولكن، كيف يطلب الله ﷻ من النبي ﷺ أن يقرأ وهو أمّي لا يعرف القراءة والكتابة؟ وهو الذي قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2]، وقال الله تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]، إنّ الاصطفاء والاستخلاف لا بُدّ له من تحضير وأهلية؛ و"إنّ الذي خلق الإنسان من علقه، قادر على أن يجعل الأمّي عالما، ومحمد ما تطلّع إلى وحي أو رسالة، فقد بُوغت بما كان، فلمّا استيقن من اصطفاء الله له شرع يبيّن الأمة الجديدة كما فعل من قبل إبراهيم وموسى. والباحث التّزيه في سيرته وفي كتابه وفي جهاده، يدرك أنّ محمّد بلغ المدى وزاد، ويؤمن بأنّ العالم لم يعرف إماما يُدانيه في شمائله وفضائله"³.

¹ أنظر: الفاروقي، إسماعيل راجي: التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة، ترجمة: السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، 1435هـ/2014م، ص36-37.

² أنظر: قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط32، 1423هـ/2003م، ج6، ص3936-3939.

³ الغزالي، محمد: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط4، 1420هـ/2000م، ص530.

والأمر بقراءتين في الآيات الأولى من سورة العلق، يدل على أن لكل منهما معناها المراد بها؛ فالأمر بالقراءة الأولى هو " أمر بقراءة باسم الله أو على اسمه تعالى ومعه، لهذا الوحي النازل... تتلوه يا محمد على الناس، وتبينه لهم ليتعلموا منه الحكمة والهداية والرشد فتزكو نفوسهم، وتطهر حياتهم، ويهتدوا به في أداء مهام الاستخلاف، والقيام بواجب الائتمان، وحق العمران. والقراءة الثانية هي قراءة الكون والنظر في الخلق، ومعرفة ما دَوَّنَته البشرية من فهم له، وتجارب فيه بأقلامها؛ فهذه القراءة هي التي صاغ القرآن المجيد بحسبها دليل الخلق ودليل الإبداع، والتكليف بالنظر العقلي في الوجود"¹.

إنَّ هذا الاستخلاف، هو هدف وجود الإنسان على الأرض، وهو مشروط بالقيام بمقتضياته ومتطلباته، لعمارة الأرض مادياً وقيماً، لقصد إقامة الحق والعدل فيها ابتغاء وجه الله تعالى، وسيادة منهجه القويم فيها، وأداء الأمانة والمسؤولية التي حَمَلَهَا الإنسان طوعاً، بعد أن أَبَتِ السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: 72]. إننا نقصد بالاستخلاف، الصَّنَف التكليفي منه، والذي مضمونه إظهار الإنسان لربوبية الله تعالى وألوهيته في الأرض، بالعبودية والعبادة، على المستوى الصفاتي، يقول الإمام الألوسي -رحمه الله-، وهو بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 30]، وهذا يعني أنَّ هناك جانباً لم تبصروه بعد ولم تعلموه « إنَّ المراد من الآية، بيان الحكمة من الخلافة على أدق وجه وأكملها، فكأنَّه قال جل شأنه: أريد الظهور بأسمائي وصفاتي ولم يكمل ذلك بخلقكم، فإني أعلم ما لا تعلمونه لقصور استعدادكم ونقصان قابليتكم، فلا تصلحون لظهور جميع الأسماء والصفات فيكم، فلا تتمُّ بكم معرفتي، ولا يظهر عليكم كنزي، فلا بد من إظهار من تمَّ استعداده، وكملت قابليته، ليكون مجلِّي لي ومرآة لأسمائي وصفاتي ومظهراً للمقابلات فيّ، ومظهراً لما خفي عندي، وبني يسمع وبني يبصر²،

¹ العلواني، طه جابر: الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 1427هـ/2006م، ص17-18-19.

² وهذا إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله قال: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبُهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ وَيَدَّهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتُهُ، وَلَوْ اسْتَعَاذَ بِي لِأَعِذْتُهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ

وبي...¹، وبالتالي فإنّ هذا النوع من الاستخلاف مقصور على الذين يلتزمون بالوحي، ولا ينحرفون عن هدي السماء.

إنّ الإعلان الإلهي عن خلق الكائن الجديد (الإنسان)، جاء مرفوقاً ببيان المهمة التي أنيط بعهدته الاضطلاع به، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30]، ولقد جاءت تسمية هذا المخلوق الجديد بحسب وظيفته وهي الخلافة، وذلك ينطوي على دلالة بالغة في إبراز هذه الوظيفة والتنويه بشأنها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:165]. وأعظم ما يعين هذا الإنسان في أداء مهمته ورسالته، هو الاستمداد من وحي السماء وتوثيق الصلة بالله، فهو مطلب أساسي في القيام بمهمة الخلافة، التي هي غاية وجوده. وهذه الخلفية عن الله تقتضي أن يكون الهمُّ الأكبر للخليفة-الإنسان- ترقّيه نحو مُستخلفه، واقترابه منه ليحقّق معنى الاستخلاف على الوجه الأفضل والأكمل، ويقوم بمهمّته الوجودية التي هي الخلافة، والتي تعني الخلافة عن الله تعالى لتنفيذ مُرادِه وأمره في الأرض، وإجراء أحكامه وتطبيق شريعته فيها، وهذا معناه أن يكون الإنسان سلطاناً في الكون، بتسخير ما في الكون بين يديه، بغاية تطبيق المهمة التي كلفه بها المستخلف- وهو الله تعالى- ائتماراً بما أمر وانتهاء عمّا نهى².

ومطلب الاستخلاف في الأرض وبلوغه، أمرٌ لا بدّ له من تهيؤ واستعداد؛ " فإنّ الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد. وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر. وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان!... لقد تحقّق وعد الله مرة. وظل متحققاً وواقعاً ما قام

=نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته. رواه البخاري: صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الرقائق، باب التواضع، ص1717.

¹ أنظر: الألوسي، شهاب الدين: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط4، 1353هـ، ج1، ص223.

² النجار، عبد المجيد: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا-الولايات المتحدة الأمريكية، ط3، 1420هـ/2000م، ص61-62.

المسلمون على شرط الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55]، لا من الآلهة ولا من الشهوات. ويؤمنون - من الإيمان - ويعملون صالحاً. ووعد الله مذكور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة. إنما يُعطى النصر والاستخلاف والتمكين والأمن، لتخلف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة، أو في تكليف من تكليفه الضخمة، حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء، وجازت الابتلاء، وخافت فطلبت الأمن، وذلت فطلبت العزة، وتخلفت فطلبت الاستخلاف، كل ذلك بوسائله التي أرادها الله، وبشروطه التي قررها الله، تحقق وعد الله الذي لا يتخلف، ولا تقف في طريقه قوة من قوى الأرض جميعاً¹.

وانطلاقاً من قول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَمَرُوا الصَّالِحِينَ فَلْيَقُومُوا لَهُمْ مَّا لَكُمْ بِهِ مِنْ آلِهَةٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: 61] التي توجّه الإنسان إلى عمارة الأرض وتسخيرها، في سياق قيام الإنسان بوظيفته المتمثلة في عبادة الله على أكمل الوجوه²، والتي تتطلب القيام بكل ما من شأنه تيسير سبل هذه العمارة، من علوم ومعارف كونية ومعنوية تصنعها وتوجّهها العلوم الشرعية، وعلى رأسها الدرس الكلامي، وهو ما أشار إليه الإمام الزمخشري -رحمه الله-، من تعدّد أنواع العمارة بتعدد الواجب والمندوب والمكروه، لأنّ صلاحية الأرض للعمارة وال عمران، دليل قويّ وكاف على وجود البارئ ﷻ ووحدانيته³. وهذا توجيه واضح وجليّ إلى أهمية الخلفية الدينية في العمارة والاستخلاف، واهتمام المسلمين بدراسة الوحي -على رأسه العلوم الخادمة له كعلم الكلام- واستثماره وخدمته وتبليغه إلى بقية الخلق ترجمةً لهذا الفهم... إنّ أساس الاستخلاف مبنيّ على منطلق بناء الإنسان المكلف بعمارة الأرض، كونه مطالب بتأدية الأمانة التي حمّلها، فهو بمثابة مؤتمن على التصرف كمملوك وفق إرادة المالك الخالق، الذي ينبغي أن يُفرد بالطاعة والانقياد

¹ قطب، سيد: في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، ص 2529-2530.

² أنظر: الزمخشري، جار الله (ت538هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط3، 1407هـ، ج2، ص 407.

³ أنظر: المرجع نفسه، ج2، ص 407.

والعبادة بوجه عام، وهذا الأساس هو ضلع من أضلاع الفهم للخبرة المعرفية، المتمثلة في علم الكلام، والمنضوية في جملة مفاهيم من قبيل: الطاعة، والتسخير، والهداية والتوفيق¹.

إنَّ الرُّكن الأساسي الذي يقوم عليه مفهوم الشهود الحضاري للأمة هو عقيدة التوحيد، وقد مضى على الأمة حين من الدهر أصاب الفكرة الإسلامية شيءٌ من الغبش فيما تحدّد من مفهوم الحقيقة الوجود وغاية الحياة وعلاقة الإنسان بالبيئة الكونية، فانحسرت حقيقة التوحيد إلى معاني مجرّدة سطحية، لا تتنقذ إلى دواخل الإنسان وملكاته فتدفعه إلى التغيير، ولم تعدّ قوامها يتقوّم به كل تفكير وسلوك، وتعمّلت فيها قوة الدفع الحضاري لإرادة الأمة، فالشهود إلى غياب وأفضى ذلك إلى تخلف معنى الخلافة لله، والشهادة على الناس وارتفاق الكون، وكان من نتائج ذلك أن حلّت العطالة الحضارية بالأمة الإسلامية، واستقالت من ممارسة مهمة الخلافة في الأرض إلا في حدود بدائية لا ترقى إلى حافة التحضر².

إنّنا لو ذهبنا نستكشف أسباب النكوص الحضاري، وتخلّف الأمة عن موقع الريادة والسيادة والشهادة على الناس، فإنّنا لن نعدم العثور على أسبابٍ لذلك، وأعظم سببٍ لا يجبُ أبدًا أن نُغفله أو نُؤخّره، هو غياب الجهاز المركزي في عقول أفراد الأمة اليوم، وهو مركزية التوحيد الذي يُنظّم كلّ الصّور والأفكار والرّؤى ويُشرف عليها ويوجّهها، فبغيب حقيقة التوحيد غدت الفكرة الإسلامية شتاتًا لا يجمعه رابط واحد، بل إنّ التجاوز المعرفي هو سمة العلاقة بين عناصرها، لا سمة الترابط والاتّساق والتّكامل التي وجب أن تسلك الجميع نحو الغاية الموحّدة. وأوضحُ مثالٍ للغبش في صورة الفكرة الإسلامية وعدم مركزية حقيقة التوحيد، ذلك التناقض والتشاكس بين صورة الولاء لله والخضوع له في الصلاة والصوم وسائر العبادات، وبين صورة الولاء للسلطان والخضوع له ولو فيما حرّم الله، ويلاحظ هذا التناقض أيضًا بين صورة مصدرية الوحي ومركزيته في التشريع، وبين حاكمية بعض القوانين الوضعية التي تُحلّ الربا والزّنى وتُقتنّهُ، فهذا الخليط المتدابّر الذي لا ينتظم بنظام، ولا

¹ أنظر: طيبي: النظرة الحداثيّة لعلم الكلام بين التجديد والتجاوز، مرجع سابق، ص1658. نقلا عن: فاروق، بتول: فلسفة الفقه دراسة تحليلية في الأسس النظرية للفقه الإسلامي، شركة المعارف للطبوعات، بيروت-لبنان، ط1، 2013م، ص95 وما بعدها.

² أنظر: النجار، عبد المجيد: عوامل الشهود الحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1427هـ/2006م، ص7-8، 15.

يرجع إلى مرجع أو مُوجّه، كان سببا أساسيا في حالة الإعاقة عن الانطلاق الحضاري، والاضطلاع بمهمة الاستخلاف في الأرض على الوجه الأكمل¹.

ونحن نتحدّث عن ضرورة امتلاك وتوظيف الخبرة المعرفية بما يخدم وظيفة الاستخلاف في الأرض، كان لا بد للمُصلحين من الزّاد الكافي والمتكامل من العلوم الشرعية جميعا، وما يَسُنُّها من العلوم الخادمة لها، لذلك يجب أن ندرك أنّ علماً كعلم التصوف مثلاً، يضطلع بالدور البارز والأكبر في تصحيح مسار العلوم الشرعية، لاسيّما الفقه والعقيدة؛ قال الشيخ زروق الفاسي: "صدقُ التوجّه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه، ولا يصحُّ مشروط بدون شرطه، ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾، فلزم تحقيق الإيمان، ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾، فلزم العمل بالإسلام"²، ويكفي أن نُلقِي نظرة على أشهر الكتب الصوفية، حتّى ندرك أنّ كتب التّصوّف قد تناولت مباحثهما بمزيد من التّمحيص والتّحليل والإضافات النّافعة، إذ بصُر المتصوّفة بما لم يَبصُر به الفقهاء والمتكلمون، من الحديث عن الأوراد وأسرارها والأذكار وأنوارها والأحوال وأذواقها، وأضافوا إليها مباحث القلوب والأخلاق، وأشاروا إلى لفتاتٍ لم يأبه بها علماء الكلام، كتجليات الصّفات، والحقيقة المحمّدية، ووحدّة الوجود، وبيرون الفقه والعقيدة من دونهما خواء، ناهيك عن أن تُسهم في نقل المتديّن من التّصديق العقلي إلى الشهود اللَّحظي، لهذا، وفي هذا السّياق كتب حجة الإسلام الغزالي -رحمه الله- كتابا في هذا الشأن، وأبدع في تسميته بكتاب "إحياء علوم الدين"، وكأنّه أراد إحياء علوم مَوَات، أي الفقه والعقيدة؛ فالتصوف السني لا يرتضي علم العقيدة -وهو اجتهاد بشري غير العقيدة نفسها فهي نقليّة مرويّة- لأنّ علم العقيدة في عصور مختلفة يكتفي بالتصديق دون سُمُوّه إلى تحقيق الشهود، ومرّد ذلك إلى أربعة أسباب: 1- الاقتصار على قشور المسائل العقدية. 2- إغفال العديد من المباحث العقدية. 3- ترك النّظر في آثار الأصول العقدية والتحقّق بها. 4- طغيان النظر العقلي على الدرس العقدي. وهذا ما يجب التّنبية عليه والتّأكيد على أهمّيّته، وهو أن تُنتج الأحكام الفقهية والعقدية مُسلِّماً مُتَحليّاً بأخلاق الإسلام، مُتمثِّلاً لمبادئه، مُتَبِعاً لِسَمْتِ نبيّه ﷺ ومُتَصَفّاً بِخِلالِهِ، مُلتزِماً ظاهراً وباطناً، قال الإمام القشيري -رحمه الله-: "الشرية: أمر بالتزام العبودية، والحقيقة:

¹ أنظر: النجار: عوامل الشهود الحضاري، مرجع سابق، ص 20-21.

² زروق، أحمد: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص 22.

مشاهدة الربوبية، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول¹، وقال أيضا: "الشريعة جاءت بتكليف الخالق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدر، وأخفى وأظهر"². فيكون المسلم بذلك مُستعداً لحمل الأمانة العظيمة، ومُستيقناً بهدف الرسالة المحمدية، فمن خلال هذه الرؤية يكون النصر والاستخلاف بحق، في الأرض التي يُؤوئها الله للمتقين الطائعين المؤمنين³.

وحتى تكون خلافة الإنسان في الأرض خلافة كاملة، ويكون أثرها النفع والبناء والإعمار، لا بد أن يمتلك الإنسان أدوات الاجتهاد والنظر في ما يستجدّ عليه من مشكلات، ويحدّ لها الحلّ المناسب من خلال المحكّمات من الوحي، ومن خلال الاجتهاد في قضايا النوازل، ولا يخرج عن القواعد والمقاصد العامّة للشريعة الإسلامية؛ يقول جمال الدين عطية: "وإذا كانت ظروف المجتهدين في الماضي قد مكنتهم من الإحاطة بعلوم عصرهم وظروف معاصريهم الحياتية وأعرافهم، فإن تعقّد الحياة المعاصرة والإغراق في التخصص الذي أصبح ظاهرة عامة، يدعوا إلى التنبيه إلى أهمية مرحلة تعرّف المجتهد على الواقعة محلّ الاجتهاد، وضرورة اعتماده في ذلك على معارف وخبرات غيره من المتخصصين في كلّ فرع من فروع المعرفة، وذلك ريثما يتيسّر تخصّص المجتهدين في كلّ فرع من هذه الفروع، بأن يجمع بين علوم الشريعة اللازمة للاجتهاد في فرع مُعيّن، وبين التخصص في هذا الفرع..."⁴.

وعلى كلّ حال، وكما يقول ملكاوي: فإنّ ثمة بُعدين لعلمية التكامل المعرفي؛ بُعداً إنتاجياً، وبعداً استهلاكياً. والذي يهْمُنّا خاصّة التكامل في بعده الإنتاجي: فهو صورة من صور الإبداع الفكري الذي يحتاج إلى قدرات ومؤهلات خاصة. فمثلاً التكامل بين معارف الوحي والعلوم الإنسانية

¹ القشيري، عبد الكريم: الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحق: أحمد عناية ومحمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، 2004م، ص50.

² المرجع نفسه، ص31.

³ أنظر: فرحات، عبد الحكيم: من التصديق إلى الشهود: دور التصوف في إحياء العلوم الشرعية(العقيدة والفقه)، الجامعة الإسلامية العالمية، مجمع البحوث الإسلامية، مجلة الدراسات الإسلامية، مجلد 49، عدد2، أبريل 2014م، ص91 وما بعدها.

⁴ نقلا عن: السوسوة الشرفي، عبد المجيد: الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، مجلة كتاب الأمة، قطر، العدد 62، السنة السابعة عشرة، ذو القعدة 1418هـ، ص92. (عطية، جمال الدين: المنظومة العامة للشريعة الإسلامية، ص229-230).

والاجتماعية في صياغاتها الغربية المعاصرة، يحتاج إلى العالم الباحث الذي يستلهم هداية الله سبحانه في فهم مقاصد النصوص والأحكام، وكيفية تنزيلها على الوقائع والأحداث، ضمن إطار ثقافي حضاري معاصر، وهذا الفهم والتحديد والكيفية جهدٌ تحليلي تفكيكي أساسي. لكنَّ الباحث سوف يحتاج في الوقت نفسه إلى فهم الواقع الذي يتعلّق بمجال معرفيٍّ مُعيّن، أو قضية مُحدّدة: اقتصادية أو اجتماعية أو تربوية... كمّاً وكيفاً. وهذا يعني بالضرورة قدرة الباحث على تفكيك القضية وتحديد عناصرها وفهم آليات عملها وافترضاها النظرية الكامنة. وهذا التفكيك في المجالين شرط ضروري مسبق، إذا تحقق سيكون أساساً لتحقيق التكامل المعرفي بين المجالين في عملية تركيب نقدية إبداعية، يرافقها عادة تقويم للعناصر التي ستدخل في التركيب الجديد، وإنشاء شبكة العلاقات التي تصلها أو تجمعها أو توحيدها لمقصد جديد، أو غاية جديدة¹.

إنّنا إذا نظرنا إلى اجتهادات السابقين وفتاواهم فيما يستجدّ من المسائل والأقضية، نرى مدى تمكّنهم من ناصية الاجتهاد والفتوى، ومدى إلمامهم بعلوم الشريعة كاملة، وخاصة علوم الظاهر والباطن، أو علم الشريعة وعلم الحقيقة، كما هو حال شيخنا الإمام زروق الفاسي -رحمه الله تعالى- . ونحن اليوم في "عصر تفاقمت مشاكله، وأمعن في الشُّرود عن الدين أهله، وتجاوز ما ورثناه من علم وفقه حتى أصبح مقام الشرع في النفوس مهيناً، ومناطق الأحكام فيه لا يكاد يُبين"². ولذلك فقضية التكامل المعرفي على مستوى المضمون ذات أهمية بالغة عند الحديث عن التّوازل والمشكلات المستجدة، وخاصة التكامل بين "الفقه والأصول والتصوف" وبين "مقاصد الشريعة" أيضاً، فالفقيه أو المتكلّم أو المجتهد عموماً، أمام نوازل تتجاوزها عدّة تخصّصات، ولا يستطيع البتّ فيها ولا الحُكم عليها ولا النّظر فيها انطلاقاً من رؤية وحيدة وواحدة، وإنّما لا بدّ من تداخل "الثقافتين"³ وتكاملهما عند الفقيه

¹ أنظر: ملكاوي، فتحي حسن: مفاهيم في التكامل المعرفي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة الخامسة عشرة، المجلد 15، العدد 60، ربيع 1431هـ/2010م، ص7-8.

² أنظر: ياسن، عبد السلام: نظرات في الفقه والتاريخ، دار الخطابي للطباعة والنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1989م، ص73.

³ في حوالي منتصف القرن العشرين لاحظ الكاتب اللورد البريطاني "ت. ب. سنو" الفجوة في القدرة على التواصل بين من يتخصصون في العلوم الإنسانية ومن يتخصصون في العلوم الطبيعية والتطبيقية، حتى إنّه وصّف كلّ فئة من الفئتين بأنّها تملك ثقافة خاصة بها، لا علاقة لها بالثقافة الأخرى. وكتب تقريره المعروف "الثقافتان: the two cultures" داعياً إلى التكامل بين الثقافتين. (أنظر: تشارلس سنو: الثقافتان، ترجمة: لطيفة الدليمي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2018م، ص21 وما بعدها)

المجتهد، من أجل الإحاطة بكل جوانب التّأزلة: سواءً كانت فقهية أو عقدية أو في جانب السُّلوك والتصوّف، ومن ثمَّ يحصل معالجة القضايا من كل جوانبها وملابساتها، ويُتوصَّل فيها إلى رأي صواب أو يقترب من الصواب على الأقلّ.

المطلب الثالث: نماذج من التكامل المعرفي في التأليف عند علماء الغرب الإسلامي

قبل أن نسرد بعضاً من مُصنّفات المغاربة، والتي اتّسمت بالنّظرة التكاملية في التأليف، لا بُدَّ وأن نشير إلى مُؤلّفٍ مُهمٍّ ومؤثّر، أثري الحياة الفكرية والثقافية بالغرب الإسلامي، وقعد لها من خلال اهتمام العلماء والصُّلحاء به، واعتمادهم عليه في البحث والدّرس. وعلى رأسهم "أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي (ت 543هـ)، الذي لقي أبا حامد الغزالي ورجع منه بنسخة من هذا الكتاب، ومنهم أيضاً صالح بن حرزهم الفاسي، الذي كان قد رحل إلى المشرق، وانقطع للعبادة في مسجد بضواحي بيت المقدس، فلقي هناك أبا حامد، وأخذ عنه سنده الصُّوفي وكتابه. ومَن يُذكرون أيضاً، ميمون بن ياسين اللمتوني المراكشي، لقي أبا حامد في حَجَّته عام 497هـ، وحمل معه نسخة من كتاب الغزالي، كانت مصدر النُّسخ التي كانت بيد الفقهاء والصُّوفية في عاصمة المغرب مراكش آنذاك"¹، هذا الكتاب هو: **إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي**، ألفه بعد سنة 488هـ، وهو أكبرُ كُتبه دِلالةً على توجُّهه الصُّوفي-اعتقادي، وعبادةً، وسلوكاً، وقد قسّمه إلى أربعة أقسام، وينقسم كل قسم من هذه الأقسام إلى عشرة كتب:

– قسم للعقائد والعبادات – قسم للعادات – قسم للمهلكات – قسم للمنجزات.

يتبدى أبو حامد الكتاب بتبيان مقصده من تصنيفه، فيقول إنّه لما كانت علوم الآخرة قد كادت تختفي، واهتمام المترسمين من بقية العلماء في عصره بعلوم لا تنفع، ويُعوّزها الإخلاص، ويُتوسَّل بها إلى المناصب والمباهاة واستدراج العوام، قال: «فأما علمُ الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ممّا سمّاه الله سبحانه في كتابه: فقها وحكمة وعلماء وضياء ونورا وهداية ورشدا، فقد أصبح من بين الخلق مطوّياً وصار نسيّاً منسياً. ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً وخطباً مدلهماً، رأيتُ الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مُهماً إحياءاً لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لمباهي العلوم النافعة عند النّبیین والسلف الصالحين»².

¹ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 75.

² الغزالي، أبو حامد: إحياء علوم الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، 2018م، خطبة الكتاب، ج 1، ص 12.

ومن الذين أثنوا على كتاب الإحياء، الحافظ عبد الرحيم العراقي (ت 806هـ)، الذي خرج أحاديث الإحياء، وبين أنه اشتمل على الفقه والسلوك والآداب، إذ قال: "إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام، لم يقتصر فيه على مجرّد الفروع والمسائل، ولم يتبحّر في اللجة بحيث يتعدّر الرجوع إلى السّاحل، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن، ومزج معانيها في أحسن المواطن، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه، وسلك فيه من النمط أوسطه، مقتديا بقول علي عليه السلام: "خير هذه الأمة النمط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي"¹.

"والملاحظة التي يمكن تسجيلها، أنّ "الإحياء" حظي بالاهتمام الكبير في المغرب العربي، خاصة من قبل الصوفية، أو من الفقهاء الذين لهم اهتمام بالتصوّف؛ قال الشيخ سيدي شعيب أبو مدين: "نظرت في كتب التصوّف، فما وجدت مثل "الإحياء"، وقال أبو الحسن الشاذلي لتلميذه أبو العباس المرسي: "كتاب قوت القلوب يورثك النور، وكتاب إحياء علوم الدين يورثك العلم"². ويقول ابن الزيات في مقدمة كتابه "التشوف": "وجردت هذا الكتاب من علوم التصوف واقتصرت على إيراد أخبار الرجال. فإنّ إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الطوسي الغزالي، رضي الله عنه، هو المنتهى في ذلك... وما طعن عليه إلا علماء الدنيا الذين أظهر عوارهم، والنهار لا يحتاج إلى دليل"³.

يقول الشيخ ابن الخطيب القسنطيني في رحلته، وهو يتكلّم عن الشيخ سيدي أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي رحمه الله (ت 764هـ)⁴، والمشهور بسيدي بنعاش، واهتمامه بكتاب "الإحياء": "وطريقه أنّه جعل كتاب إحياء علوم الدين بين عينيه، وأتبع ما فيه بجدّ واجتهاد وصدق

¹ المرجع نفسه، ج1، ص10. والحديث برقم 35502 كما في مصنف ابن أبي شيبة إسناده مرسل، يزيد بن الحارث لم يدرك علياً عليه السلام. أنظر: ابن أبي شيبة، أبي بكر عبد الله بن محمد: المصنف، تحقق: أسامة بن إبراهيم بن محمد، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1429هـ/2008م، كلام علي بن أبي طالب عليه السلام، كتاب الزهد، ج12، ص66. تحت رقم 2679 وذكره: اللالكائي، هبة الله بن الحسن: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقق: نشأت بن كمال المصري، دار البصيرة، الإسكندرية، دار الآثار، صنعاء، 1422هـ/2001م، ج8، ص1218.

² نقلا عن: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص77.

³ ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص36.

⁴ نزيل سلا الولي الزاهد المشهور، صاحب الكرامات، حتى قال ابن عرفة: ما أدركت مبرّزا في زماننا هذا إلا أبا الحسن المنتصر وأحمد بن عاشر نزيل سلا. وارتحل إليه الملك أبو عنان سنة 757هـ فلم يقدر عليه بوجه وحُجِب عنه. كان قوّته من نسخ "عمدة الأحكام" في الحديث. توفي عام 765هـ. (أنظر: التنبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص96. ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقيير، مرجع سابق، ص9-10).

وانقياد، وكان الحجة في ذلك الطريق"¹، وعلى الاحترام والاهتمام والعمل نفسه سار تلميذه الولي القطب أبو عبد الله محمد بن عباد الرندي، وتلميذ تلميذه القوري، شيخ أحمد زروق الذي أخذ عنه الفقه والحديث والتصوف، فكان كل هذا امتداداً للمدرسة الصوفية الغزالية، وتمكيناً لها في أواخر العصر المريني، والعصر الوطاسي، فكان لها الحضور من خلال هذا الكتاب في حلقات الدروس بالزوايا، حيث اهتم الصوفية بتصحيح عقيدة المريدين لهم².

ومن بين النصوص والتأليف الخالدة التي جمعت بين الفقه والعقيدة والتصوف، وكانت حمالة أوجه، وموضع نظر وبحث وتقليب وتأويل، "الرسالة لابن أبي زيد القيرواني"؛ فالعناية التي عرفت بها لم تتأت باعتبارها متناً فقهياً فقط، يجب تدريسها وبحثها، ولكن أيضاً باعتبار أن مقدمتها تُعتبر من أهم النصوص التي كثر حولها النقاش، وتعدّ بشأنها التأويل، بحيث كانت تُقرأ بحسب عقيدة القارئ، وكذا بحسب الجوّ العقائدي الرسمي السائد؛ فلا شك أن تكون عقيدة سلفية في عيون القارئ المرابطي، وعقيدة أشعرية في عيون القارئ الموحد، إلخ³.

هذه "الرسالة القيروانية" التي أحبها المغاربة ودوّنت حولها الكثير من الشروح والحواشي، وخاصة على مقدمتها التوحيدية، يدلّ دلالة عميقة على أنّها نصّ خالد، لأنّ أهم ما يُقرّره علم التأويل أو ما يسمّى "الهرمونيظيقا"⁴، أنّ النصّ الذي لا يخضع للتأويل نصّ ميت، وبالمقابل، النصّ الذي لا ينقطع عنه التأويل، هو نصّ خالد، ويجعل منه نصّاً حملاً بين طيّاته لأسباب الإسهام الايجابي في المجال التداولي المغربي خاصة. وهذا ما يدفعنا إلى القول أنّ تلك الشروح وباعتبارها من صميم التأويل، يمكن أن تُعيننا في فهم الكثير من غوامض التاريخ المغربي، والوقوف على مغاليقه، ذي الصلة بـ "الكلام"، و"الفقه" و"التصوف"، وهو ما كانت تتمحور حوله المباحث في هذه الرسالة

¹ ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، مرجع سابق، ص9.

² أنظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص77.

³ زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص166.

⁴ الهرمونيظيقا أو Herméneutique: تأويل، وهي تفسير نصوص فلسفية أو دينية، وينحو خاص الكتاب-شرح مقدس-.

تقال هذه الكلمة خصوصاً على ما هو رمزي. (أنظر: لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001م، مج2، ص555).

القيروانية¹؛ فقد قال ابن أبي زيد القيرواني -رحمه الله-: "فإنك إن سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانات، مما تنطق به الألسنة، وتعتقد القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من الشئ، من مؤكدها، ورغائبها، وشيء من الآداب منها"².

ومن بين شُروح عقيدة "الرسالة" الكثيرة³ - هذه الشُروح التي تُطْلَعُنا على بعض أسباب اختيار المغاربة لمذهب أبي الحسن الأشعري في الكلام، ومذهب الإمام مالك -رحمه الله- في الفقه، ومذهب الجُنيد -رحمه الله- في السُّلوك- شرح الشيخ محمد الطيب بن كيران (ت1227هـ)⁴، الذي يُبَيِّن أنَّ المقصود بعبارة الشيخ القيرواني السَّالفة الذِّكر، تقريرُ الجمع بين العلوم الثلاثة، يقول: "ضَمَّن كتابه ثلاثة علوم: أصول الدين، والفقه، والتصوف. الأول: مُتعلِّق بالمعتقدات، والثاني: بالعمليَّات، والثالث: بالأديَّات. وهي: الإيمان، والإسلام، والإحسان، ومجموعها هو الدين، كما في حديث جبريل. وقد مدح العلماء كُلاً من الفنون الثلاثة:

فمما قيل في "العقائد":

أيها المقتدي ليطلب علماً***كلُّ علم عبد لعلم الكلام
تطلب الفقه كي تُصحَّح حُكماً***ثم أغفلت مُنزل الأحكام.
ومما قيل في "الفقه":

إذا ما اعتزَّ ذو علم بعلم***فعلم الفقه أشرف في اعتزاز
فكم طيب يفوح ولا كمسك***وكم طير يطير ولا كباز

¹ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص168-169.

² القيرواني، ابن أبي زيد أبي محمد عبد الله (ت386هـ): الرسالة في فقه الإمام مالك، ضبط: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، لا.ط، د.ت، ص5.

³ سرد الباحث زهري خالد في كتابه "من علم الكلام إلى فقه الكلام"، عددًا من شُروح هذه الرسالة، من شُروح مشرقية، ومغربية، وأندلسية. وذكر لها عددا من الترجمات إلى لغات متعددة: الأمازيغية، الفرنسية، الإنجليزية. (أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص178 إلى ص226).

⁴ أبو عبد الله محمد الطيب بن عبد المجيد بن عبد السلام بن كيران. الفاسي داراً، ومنشأً ومزاراً، تفرد بعلم الأصول والفروع. أخذ عن: محمد بن قاسم جسوس، وأبي عبد الله التاودي بن سودة، وأبي محمد الفاسي عبد القادر بن شقرون، وغيرهم. وقد أجازته من العلماء: أبو عبد الله محمد ابن سالم الحفناوي مُحَقِّق الشافعية في الديار المصرية، الذي كتب له إجازة مطلقة. أخذ عنه الكثير، منهم: ابن عجيبة، عبد القادر الكوهن، وغيرهم. (أنظر: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس، مرجع سابق، ج3، ص3-4).

ومما قيل في "التصوّف":

يا من تغافل عن مكارم خلقه*** ليس التفاحر بالعلوم الظاهرة
من لم يُهذّب علمه أخلاقه*** لم ينتفع بعلمه في الآخرة¹.

وقد عُني الكثير من العلماء بـ"الرسالة" شرحًا وتفسيرًا، فكان أكثرها شروحًا فقهية، وبعضها شروحًا عقديّة تولّت أفراد المقدمة التوحيدية لـ"الرسالة" بالشرح والتعليق. وكان التعاطي معها فروعياً، لكنّها لم تخلُ من تأصيلٍ فقهيّ، كما لم تخلُ من إشارات صوفيّة، لاسيّما في المواضع التي تكلم فيها ابن أبي زيد القيرواني على الآداب والسّنن. ولذلك شرحها مُحمّد بن قاسم جسوس (ت1182هـ) شرحاً كاملاً، موسوماً بـ"شرح الرسالة القيروانية"، وشرحاً جزئياً، موسوماً بـ"شرح عقيدة الرسالة القيروانية"، وآخر موسوماً بـ"شرح فقه الرسالة القيروانية". وهذا الاهتمام من المغاربة لشرح هذه الرسالة يُفسّره لنا الشيخ زروق الفاسي رحمه الله، فيقول: "يكفي في أرجحيّته كونه إمام دار الهجرة في خير القرون، ومتبوع أهل المغرب الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة، كما صحّ في الحديث وإن اختلفت روايته، وعصم الله مذهبه من أن يكون فيه ذو هوى مسوم بالإمامة"²، نفهم؛ ولو تلويحاً؛ أنّه المذهب القمين بتوظيفه في حفظ عقائد أهل السنة من شوائب المذاهب غير السنيّة، والحامل لأهم أسباب اصطفاؤه دون سائر المذاهب الفقهية، وهو عصمة أئمّته من شوائب البدع"³.

ومما يُشِيرُ أيضاً إلى قضيّة التداخل والتكامل بين العلوم الإسلامية الثلاثة، أنّ أغلب كتب وتصانيف الشيخ ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله كان أكثرها في "الفقه"، وله في "أصول الفقه"، كما أنّ له في "أصول الدين"، و"الزهد"، و"الرقائق". كما أنّ الشيخ القيرواني كان ذا منحى صوفي؛ إذ كان مُجاب الدعوة، دعا لمن حفظ هذا الكتاب، وعمل بما فيه، وصرف همّته إليه، أن يرزقه الله المال،

¹ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص169-170 نقلا عن: ابن كيران، محمد الطيب: شرح عقيدة الرسالة القيروانية، مخطوط محفوظ بالخرانة الحسينية بالرباط.

² زروق: شرح العلامة أحمد بن محمد البرنسي الفاسي المعروف بزروق على متن الرسالة للإمام أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2006م، ج1، ص22-23.

³ زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص171. نقلا عن: جسوس، محمد: شرح عقيدة الرسالة القيروانية، مخطوط محفوظ في الخزانة الحسينية، الرباط.

والعلم، والدين، وإنّ الأولياء كانوا يأخذون وردًا في قراءتها، ووُصِفَ محمد بن محمد بن يعقوب الولائي¹ بأنه "كان متنسكا، متعبدا، يحفظ الرسالة كما يحفظ القرآن"².

ولقد قال الشيخ زروق الفاسي -رحمه الله- في عِظم شأن كتاب "الرسالة"، ومكانتها عند علماء الغرب الإسلامي وعند الناس عامة، أنّه يَنْتَفِعُ بها أهل الظاهر والباطن، حتى صارت، بحيث يهتدي بها الطالب المبتدي، ولا يستغني عنها الراغب المقتدي، وأنّ العلماء على مرّ السنين والدهور، لا يزالون يتداولونها ويتأولون ما فيها من مشكل الأمور نحوًا من خمسمائة سنة! ولم تنقص لها حرمة، ولا طعن فيها عالم مُعْتَبَر في الأمّة، مع ما فيها من عظيم الإشكال، ودواعي الإنكار من الحُسَاد والإشكال، وهذه كرامة من الله لا تُنال بالأسباب. ويُذكر أنّه من التزمها علما وعملا فُتِحَتْ له الأبواب الموصدة، فكان ذا أربعة أو أحدها أو اثنين أو ثلاثة، أحدها: علمٌ حاصل، أو مالٌ واصل، أو صلاحٌ كامل، أو جاةٌ فاضل، حسبما استقرئ ذلك في الغالب... وما ذلك إلا لإرادة وجه الله، ودوام اللجوء إلى الله، فقد حُكي أنّه كان يجعلها في محرابه الذي يُصَلِّي فيه ليلاً ويدعو الله³ أن يجعلها مكان عَقْبِهِ؛ لأنّه لم يكن له عَقْب، فلم تزل تُنلَى حتى لقد ذُكِرَ أنّها منذ وُجِدَتْ إلى الآن يَخْرُجُ لها في كل سنة شرح⁴ وتبيان⁵. وهذا الكلام يُدَلِّل على مكانة القيرواني، وكذا محورية "الرسالة" عند المغاربة؛ فقد كانوا يحفظونها كما يحفظون الفاتحة، ويتباحثونها ويدرسونها درسَ نظر وتحقيق؛ كما تدلُّ على

¹ هو أخو أبي العباس أحمد بن محمد بن يعقوب الولائي صاحب "مباحث الأنوار".

² زهري: المرجع نفسه، ص172. نقلا عن: أبي العباس الولائي: مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار، تحق: عبد العزيز بوعصاب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط1، 1999م، ص274.

³ ذكروا أن ابن أبي زيد حج بيت الله الحرام، وطاف بالرسالة، متوسلا بها إلى الله تعالى، أن يرزق قارئها العلم، والدين، والمال، وفي ذلك يقول الشاعر: دعا ابن زيد وطاف بكعبة***لقارئها بالعلم والمال والدين

فكن حازما في حفظها ودراسها***لعلك أن تحظى ولا ترضى بالدون. (البونسي الرحوني، سيّد عثمان: معين التلاميذ على قراءة الرسالة المعروف بذهب مالك، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 2007م، ص4).

⁴ ذكر بروكلمان ثمانية وعشرون شرحا على "الرسالة"، ودُكِرَ لها، في "دائرة المعارف الإسلامية" ثلاثون شرحا. والذي عليه المعوّل أنّها تجاوزت مائة شرح، بل بلغت مائة وأربعين شرحا، وعلى كثرة الشروح عليها، لم يكن يُسْتَعَنَ بواحد منها عن غيره. (أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص178).

⁵ زروق: شرح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص9.

ذلك عبارة ابن غازي، لدى كلامه على شيخه عبد الرحمن الكاواي: "وحَقَّقْتُ عليه "الرَّسالة"...¹. وكان المغاربة يُدرِّسُونها، ويجعلونها في منظومة التدريس والتعليم، وقد وضع السلطان محمد بن عبد الله العلوي (ت 1204هـ²)، في كتابه الموسوم بـ: "مواهب المنان"، مسائل مُهمَّات من علم أمور الدين... ليسهل حفظها على الصبيان، ووسم الباب الأول بـ "باب ما يجب اعتقاده من أمور الدين، ممَّا تنطق به الألسنة، وتعتقده الأفئدة، حسب ما احتوت عليه عقيدة الشيخ ابن أبي زيد"، وهو لا يزيد عن كونه نقلا، حرفا بحرف، لعقيدة الرسالة³.

وإنَّ الباحث ليلفت نظره أنَّ أغلب الصلحاء والفقهاء المغاربة، الذين شرحوا "الرَّسالة"، متصوِّفة، وهذا الأمر يُحيلنا إلى استنتاج عدَّة نقاط مهمَّة:

- محورية كتاب "الرَّسالة" في الثقافة المغربية، وفي ترتيب مصادر المذهب المالكي.
- تلازم الفقه (الشريعة) والتصوف (الحقيقة)، لدى الكثير، أو أغلب فقهاء الغرب الإسلامي.
- الفقه لا يُثمر، إلا إذا ارتبط بالسلوك الصوفي، أي بالزُّهد والصلاح.
- العلم هو الذي جَمَعَ فيه صاحبه، بين "الفقه الظاهر" و"الفقه الباطن" وأيضا "فقه التوحيد"، ولا يُمكن الإقتداء بأحدٍ لم يُحسِّن الجمع بينهم.
- أنَّ الممارسة الصوفيَّة مسلكٌ من مسالك فهم "الرَّسالة"⁴.

وفي تقرير ضرورة الجمع بين العلوم الإسلامية الثلاثة والتَّكامل بينها، يقول أحمد بن غنيم النفراوي: "فالمصنَّف إمامٌ عظيم، جَمَعَ في كتابه⁵ هذا، ما يَجِب على المكلف معرفته، من عقائد

¹ الحُصَيْنِي، محمد بن أحمد (ت 1189هـ): طبقات الحُصَيْنِي، تحق: أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2006م، ج 2، ص 534.

² السلطان مولاي محمد بن عبد الله، الذي كان لا يرتضي الخوض في علم الكلام والخوض في مسائله؛ ويبدو هذا في الأوامر التي كان يُصدرها بشأن تنظيم الدراسة في القرويين، التي كان يشير فيها إلى الاختصار في علم الكلام على عقيدة ابن أبي زيد القيرواني. (أنظر: كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، مرجع سابق، ج 1، ص 276-277).

³ السلطان العلوي، محمد بن عبد الله: مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1996م، ص 43.

⁴ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 237.

⁵ أي: "الرسالة".

الإيمان، وأحكام العبادات والمعاملات، وما يُسنّ أو يُندب من الآداب"¹. وهذا الكلام يُرْهَنُ على القيمة العلمية السَّامية للشيخ القيرواني، ورئاسته العلمية، وقدرته على الجمع بين "التوحيد" و"الفقه" و"التصوّف"، وتمثُّلها في واقعه العملي؛ كتعميقه لقيمة الجهاد، وإعلاء فضيلتها، من خلال تصنيفها ضمن العقائد المائة المضمّنة في العقيدة: "وأنّ الشهداء أحياء، عند ربهم يرزقون"². ولذلك كان له إسهامٌ في الجهاد عام الخندق، في ولاية عبد الرحمن النّاصر بالأندلس³، كيف لا وقد كان تلميذاً لأبي ميمونة دزّاس بن إسماعيل الفاسي، الذي "دخل الأندلس مُجاهداً مرّات"⁴.

وقد يكون سرّ الإقبال الشّدِيد للمغاربة على "الرّسالة"، هو تجسيد الإمام القيرواني لأركان العلوم الثلاثة المذكورة، وكذا تمثُّله للتداخل والتكامل بينها في واقعه العملي، ممّا يجعلنا نُقرّر أنّ "الرّسالة" تُعتَبَر من أهمّ المصادر التي أسّست للتداخل العلمي والعملي، بين "الفقه" و"الأصول" و"السلوك"، في ثقافة المغرب الإسلامي. ولذلك كانت محطّ أنظار علماء الظاهر من الفقهاء والمتكلمين، وعلماء الباطن من المتصوفة؛ كما قال سيدي زروق الفاسي، رحمه الله: "وانتفع بها أهل الباطن والظاهر"⁵. وكان المتصوفة مثل غيرهم لهم حضور في مناقشة المسائل العقدية فيها.

ولتقرير التّلازم والتكامل بين الفقه المالكي والتصوف، يُعلّق أبو الحجاج الأنفاسي (ت761هـ)⁶ على كلمة "المتفكّحين" الواردة في عقيدة "الرّسالة" بقوله: "وإنّما أراد بـ"الفقهاء": العارفين". وأيضاً يظهر هذا التلازم من خلال وصف الصوفي المغربي الشهير، وتلميذُ الشيخ أبي مدين الغوث، أبي مُحمّد صالح

¹ النفراوي، أحمد بن غنيم بن سالم بن مهنّا (ت1126هـ): الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ضبط: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1997م، ج1، ص17.

² القيرواني: الرسالة في فقه الإمام مالك، مرجع سابق، ص9.

³ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص246. نقلا عن: الأجهوري: شرح عقيدة الرسالة القيروانية، الورقة7أ-ب.

⁴ الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج2، ص337.

⁵ زروق: شرح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص9.

⁶ أبو الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسي، ولد سنة 661هـ، كان من فقهاء فاس، أخذ عن عبد الرحمن الجزولي وغيره. له تقييد مشهور لطلبته على الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، ولقد كان إماماً وخطيباً بجامع القرويين، ويُحْيِي فيه ما بين العشاءين أبداً، وله أورداد ومجالس لقراءة العلم والتصوف، توفي سنة 761هـ. (أنظر: مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مرجع سابق، ج1، ص235. والتنبكّي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص627).

الماجري(ت631هـ)¹ بـ"الفقيه"، في معرض الكلام على مسائل "التوحيد"، إذانا بعدم إمكانية الفصل بينهما؛ فكل فقيه مالكي متكلم أشعري، وكل متكلم أشعري فقيه مالكي².

وقد يعترضنا إشكال وهو: كيف جمع علماء الغرب الإسلامي بين "الرسالة" وما في مُقدّماتها من عقيدة سلفية³، وبين توجّه عامّة الغرب الإسلامي وأخذه بالعقيدة الأشعرية؟ وفي هذا الصّدّد يقول الباحث يوسف احنانة: "وحيث إنّّه لم يكن من السّهل الفصل في "الرسالة"، بين المقدّمة العقديّة وجانب العبادات والمعاملات، فإنّ الذين تولّوا شرحها، من أشاعرة الغرب الإسلامي المتأخّرين، قرؤوا مقدّماتها قراءة أشعرية، فأسقطوا عليها التّصوّرات الأشعرية، وجعلوا من ابن أبي زيد القيروانيّ أشعريّاً رغم أنّه"، وهذا ما يجعلنا نفهم سرّ الحضور القويّ في التعاطي مع "الرسالة" في عصر الموحّدين، رغم مخالفتها لعقيدة الدولة الموحدية، التي انتصر فيها المهدي بن تومرت للعقيدة الأشعرية، في مُقابل عقيدة التفويض والتّسليم التي كان يعتنّقها المرابطون، كما فصلّناه سالفاً⁴.

ومن التّأليف التي تضمّنت الجمع بين العلوم الثلاثة: الفقه، والسلوك، والأصول؛ كتاب *المقدمة الوغليسية* أو "الأحكام الفقهية"، لعبد الرحمن الوغليسي(ت786هـ)⁵، ويندرج كتاب «المقدمة أو

¹ أبو محمد صالح الدكالي الماجري، صوفي مغربي عاش زمن الدولة الموحدية. نزيل ربط آسفي. كان من أرباب الدولة، فزهد في الدنيا وصحب عبد الغفور بن يوسف ونزل بأدوز من بلاد ايلان، فأقام هناك إلى أن لحق بالله ﷻ، وكان الشيخ أبو يعزى يذكره، ويتمنى لقاءه. ضريحه معروف إلى الآن بجبل ايمسيوان على بعد عشرة كلم قبلي أغمات. (أنظر: ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، مرجع سابق، ص250. والناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، ص263)

² أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص248-249.

³ هذا لا يدل أن الشيخ القيرواني رحمه الله لم يكن أشعريا؛ فمقدمة "الرسالة" ذات المنحى السلفي، وبالسّياق البسيط البعيد عن أساليب المتكلمين، لا تعكس المذهبية الكلامية لصاحبها، ما دام قد كتبها لمن يجب إلجامهم عن علم الكلام، وهم الصّبيان والعامة، وهذا ديدن الكثير من رؤوس الفكر الأشعري، كالغزالي رحمه الله. (أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص284).

⁴ أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص251.

⁵ الوغليسي: نسبة إلى بني وغلّيس بجنوب بجاية، العالم الفقيه الأصولي والمتكلم، المحدّث المفسر شيخ الجماعة بجاية. أخذ عن الفقيه الصوفي أبي العباس أحمد بن إدريس البجائي الأيلولي(ت760هـ) وغيره. وعنه أبو القاسم المشدالي وغيره. له تآليف كثيرة منها الأحكام الفقهية تسمّى الوغليسية، ومقدمة في الفقه وفتاوى مشهورة ومثورة في كتب النوازل. توفي سنة 786هـ (أنظر: مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مرجع سابق، ج1، ص138. والمجاري الأندلسي، محمد: برنامج المجاري، تحق: محمد أبو الأحنان، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1982م، ص137-342).

العقيدة الوغليسية» في إطار المختصرات الفقهية الموضوعة في المذهب المالكي، المقتصرة على رؤوس المسائل والمجردة من الدلائل، وذلك من قبيل تسهيل حفظ المتن، وهو سِفْرٌ صغير الحجم، عظيم النفع، وضعه عالم الجزائر وعمدة أهل زمانه الإمام الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله الوغليسي البجائي، ويكفي في ترجمته أنه شيخ شيخ الإمام الثعالبي (ت875هـ)، صاحب "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، والإمام المجاري (ت862هـ)، صاحب كتاب "البرنامج" المعلوم¹.

يُعتبر الفقيه الصوفي أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي، ذو اللفظ الواضح والأسلوب الرقيق والنفس الحريصة على الإصلاح، أحد أعمدة المدرسة الفقهية الصوفية التي ظهرت ببجاية في القرن الثامن الهجري، والتي تصدّى من خلالها إلى غلاة الصوفية، وصاحب كتاب "الوغليسية"؛ الذي هو كتاب أحكام فقهية وتربية، والتي تعكس منهجه في الفقه والتصوف. فالوغليسية مقدّمة في فقه العبادات، اقتصر فيها الوغليسي على القول المشهور وفق مذهب الإمام مالك رحمه الله، واجتنب الخوض في خلاف المسائل ونزَع إلى الجمع بين فقه العبادات وأسرار أحكامها، مُركِّزاً على الجانب الروحي، مخاطباً القلب والعقل لتحقيق كمال الإنسان الأخلاقي على طريقة الصوفية، فقدّم بذلك نموذجاً مزج فيه بين الفقه والتصوف، ويُقوِّي بذلك نظرية سيادة ظاهرة الفقهاء الصوفية في بجاية خلال القرن (8هـ-14م) والذي يُعدُّ واحداً منهم، فهو الفقيه الصوفي الذي جمع بين علم الشريعة والتصوف، خاصة وأنّ ظاهرة الجمع بين هذين العلمين ببجاية تعود إلى القرن السابع الهجري، حينما كان التصوف يُدرس ضمن علوم الدراية إلى جانب علم تفسير القرآن وعلم الحديث وعلم الفقه وعلم العربية، كما أكّد على ذلك فقيه بجاية وقاضيهَا، أحمد الغبريني (ت704هـ)²، وبالتالي فإنّ رواج التصوف ببجاية خلال القرن (8هـ-14م)، بين الفئة المثقفة من الفقهاء، ليس كمنهج روحي فحسب بل كثقافة من ثقافة العصر. وهذا المزج بين الفقه والتصوف صرّح بطريقته الصوفية القائمة على المجاهدات دون إنكار العقل الذي يعتبره وسيلة للتأمل، لكنّه يَعتبر إدراك الحقائق الإلهية من

¹ طاطمي، طارق: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، المملكة المغربية، 2013/09/30م.

² بونابي، الطاهر: أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي الفقيه الصوفي، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد7، 2007م، ص86.

اختصاص القلب وليس العقل، وبذلك تمكّن من إدماج تصوّف في المنظومة السنيّة المالكية وإبقائه داخل الشريعة من خلال ممارسته ضمن فقه العبادات¹.

هذا الكتاب، وكما يتّضح من اسمه (المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية)، مختصرٌ أوجزَ فيه مُصنّفه أحكام الفقه المالكي في الطهارة والوضوء والتميم والصلاة والصيام، وجاءت في نحو اثنين وعشرين مبحثاً، والمختصر رغم صغره لم يقتصر على أحكام هذه العبادات، بل قدّم لها بالحديث عن بعض المباحث العقدية، عرّف من خلالها بالإسلام والإيمان وأركانها، ثم تطرّق في الأخير إلى مباحث المواعظ والرقائق والزهد، في نحو أحد عشر مبحثاً. وقد ذكر فيه أنّ الغرض من تأليف هذا الكتاب، "التنبيه على ما يلزم العبد فيتنبّه ويسأل؛ حتى يتحقّق ويتعلّم ما لا بدّ له منه، ويقف الطالب على ما يكفيه من ذلك من مختصرات العقائد فيتفهّمها ويُحصّل معناها، كعقيدة إحياء علوم الدين للغزاليّ لقرّبها وبسطها ... ونحو ذلك والله تعالى الموفق بمنّه"².

أمّا عن عناية أهل العلم بهذه المقدمة، فتتجلّى في ما سجّلته كتب التراجم والفهارس من شروح عليها، فتنسبُ بعضها شرحاً للمؤلّف، وشرحاً للشيخ زروق البرنسي، وهو مطبوع متداول³، وقد ألمّ بوظيفتها الفقهية وأبعاد معانيها الصّوفية. وشرحاً للشيخ أبي عبد الله السنوسي (ت895هـ) لم يُتمّه، وشرحاً لللخمي وهو مخطوط، وآخر لأبي محمد عبد الكريم بن علي الزواوي، في كتابه الموسوم بـ"عمدة البيان في معرفة فرائض الأعيان"، وهو معدودٌ في جملة المفقود، لكن هذا الشرح الأخير اختصره أبو زيد الصباغ في كتاب سمّاه «مختصر عمدة البيان في شرح بيان فرائض الأعيان» ولا زال مخطوطاً⁴.

¹ أنظر: شرح وإجازة لكتاب: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، تأطير: فضيلة الأستاذ الدكتور: أبو بكر كافي، زاوية سيدي احسن، بلدية غيلاسة. 21 جويلية 2019م.

² الوغليسي، عبد الرحمن بن أحمد: المقدمة الوغليسية على مذهب المالكية، تحق: أمل محمد نجيب، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط1، 2007م، ص30.

³ هذا ويعتبر أحمد زروق البرنسي، أوّل من فسّر ألفاظ التوكل والورع والإخلاص واليقين الواردة في نصوص الوغليسية تفسيراً صوفياً سليماً، وقد استعان في ضبط معانيها بأقوال وآراء كبار الصوفية: عبد القادر الجيلاني (ت560هـ)، وأبي مدين الغوث (ت594هـ)، وأبي العباس المرسي (ت601هـ)، وأبي الحسن الشاذلي (ت656هـ)، وهي أسماء تحيل في حد ذاتها إلى كتب أبي حامد الغزالي (ت505هـ) وكتابه إحياء علوم الدين. (أنظر: بوناوي: أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي الفقيه الصوفي، مرجع سابق، ص86-87).

⁴ طاطمي، طارق: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، مرجع سابق.

ويظهر من خلال ترجمة الشيخ الوغليسي من قبل الكثير من أصحاب التراجم، إلمامه بالكثير من العلوم الإسلامية، لا سيّما: الأصول والفقه والتصوّف؛ فقد وصفه معاصره ابن قنفذ القسنطيني (ت 810هـ) بـ"الفقيه الصالح المفتي"¹. ونعته الولي عبد الرحمن الثعالبي (ت 875هـ) بـ"الفقيه الزاهد"²، ووسّمه عبد الكريم الزواوي في شرحه للوغليسية بـ"الصالح الورع"³. ووَصَفَهُ عبد الله محمد الأندلسي بـ"الإمام"⁴. وألقى عليه بعض المتأخرين لقب "الفقيه المحدث الأصولي المفسّر"⁵. وحلّاه الحسين الورتلاني بصفة "الكرامة"⁶.

فَلَقَّبَ: الصالح والورع والزاهد، كلّها ألقاب وتحليات تشيرُ إلى البعد الصوفيّ، الحاضر بقوة في الثقافة المغاربية، كما تُدَلِّل على أنّ الوغليسي كانت له القدم الراسخة في سلوك مذهب التصوّف، ولن يكون إلّا مذهب الجنيد رحمه الله. كما أنّ لَقَبَ: الفقيه والمفتي، والإمام، كلّها ألفاظ تُعبّر عن البُعد المذهبي المالكي في الفقه. ولفظة: الأصولي، تُحيل إلى العقيدة الأشعرية. وهذا كلّهُ يُعْطِي دلالة واضحة على تميّز المغاربة عموما، بنسج ثقافتهم نسجًا مُحْكَمًا على منوال هذه المذاهب الثلاثة.

إنّهُ لمن الواضح للدارس والباحث على المستوى الكوديكيولوجي⁷، أنّه كثيرا ما يُحدّد النُسخ المغاربة هويّتهم الدينية والثقافية، من خلال تحلية أنفسهم بما يُفيد تداخل وتكامل العناصر الثلاثة... ولذا، نجد في تراجم الأعلام المغاربة، التركيز على الوصف برفعة المزية في العلوم الثلاثة المذكورة. مثال ذلك: أنّ

¹ ابن قنفذ القسنطيني: الوفيات، تحق: عادل نويهض، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1971م، ص371.

² بونابي: أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي الفقيه الصوفي، مرجع سابق، ص84. نقلا عن: كتاب الجامع، مخطوط زاوية طولقة، در، ص79.

³ بونابي: المرجع نفسه، ص84. نقلا عن: عبد الرحمن الصباغ: مختصر عمدة البيان في شرح بيان فرائض الأعيان، مخطوط، ورقة1.

⁴ بونابي: المرجع نفسه، ص84. نقلا عن: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 2596، ورقة7-9.

⁵ مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مرجع سابق، ج1، ص342.

⁶ ورثيلاني، الحسين بن محمد: نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار، تصحيح: محمد بن أبي شنب، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1908م، ص27.

⁷ علم الكوديكيولوجيا *codicologie* أو علم صناعة المخطوط، يتكون من الكلمة اليونانية *logos* وتعني علم، والكلمة اللاتينية *codex* بمعنى الرأسي المكون من كراسات. نشأ في الغرب الأوروبي وهو خاص بدراسة الشكل المادي للمخطوطات اليونانية واللاتينية، وتعني علم دراسة كل أثر لا يرتبط بالنص الأساسي للكتاب الذي كتبه المؤلف، أي أنه يعني بدراسة العناصر المادية للكتاب المخطوط من ورق وحبر، وممداد وتجليد وغيره. (أنظر: فرانسوا، ديروش: المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي، ترجمة: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2005م، ص14).

صاحب "الذيل والتكملة"، حليّ علي بن خيار الفاسي (كان حيا عام 601هـ)، بأنّه كان حافظا، فقيها، رافضا للتقليد، ميالا إلى النظر والاجتهاد، متفنّنا، حسن المشاركة في العربية، وعلم الكلام، وأصول الفقه، والتصوف¹... فلهذا فإنّ العقيدة الأشعرية، في الغرب الإسلامي تمثّل مثلثا متساوي الأضلاع، مع مذهب مالِك الفقهِي، وتصوّف الجنيد السَّالِك².

ومن التّصانيف والمؤلّفات التي أبدع فيها علماء الغرب الإسلامي، والتي ضمّت كلاً من: الفقه، والسلوك، والأصول، ووُجدت لها تربة خصبة، فذاع صيتها، وانتشر متنها، وحفظها الكبار والصغار، متن "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين"، لسيدي أبي محمد عبد الواحد بن عاشر، المالكي الأشعري الصوفي (ت 1040هـ)، وقد ذكر أحدُ شُرّاحها، وهو ميارة المالكي، أنّ بعض الأصحاب والإخوان، من الطلبة المقرّبين والخلان، طلبوا منه وضع شرح على هذا النّظم، لكونه نظما مختصرا يستدعي شرحا وبياناً، وكذا لكونه احتوى على كثير من الفوائد: من الفقه والتصوف والتوحيد والعقائد، وقد سمّاه: "الدر الثمين والمورد المعين، في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين"³.

وذكر الشيخُ ميارة، أنّ شيخه ابنَ عاشر كان يحفظ نظم ابن زكري عن ظهر قلب. ولما نظم "المرشد المعين"، اتّخذه من بعده مرجعا مختصرا لعلم العقائد والعبادات والتصوف. فالذي يقرأ "مقدمة كتاب الاعتقاد" من منظومة ابن عاشر رحمه الله المشهورة (المرشد المعين في الضروري من علوم الدين)، يجدها خلاصة لما أثاره علم الكلام الأشعري، فهو - وكباقي علماء الأشاعرة - يعتبر النّظر العقليّ أولَ واجب عيني على كل مكلف، فيقول:

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى مَنْ كُفِّلَا *** مُمَكِّنًا مِنْ نَظَرٍ أَنْ يَعْرِفَا

اللَّهُ وَالرُّسُلَ بِالصِّفَاتِ *** مِمَّا عَلَيْهِ نَصَبَ الْآيَاتِ⁴

¹ الأنصاري، ابن عبد الملك: الذيل والتكملة لكتّابي الموصول والصلة، مرجع سابق، ج8، ص164.

² أنظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص124، 121-125.

³ ميارة المالكي، محمد بن أحمد: الدر الثمين والمورد المعين، تحقق: عبد الله المنشاوي، دار الحديث، القاهرة، 2008م، ص5-6.

⁴ ابن عاشر، عبد الواحد: المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، دار القاهرة للطباعة، القاهرة-مصر، لا.ط، د.ت، ص2-3.

فوجوب المعرفة في الإيمان، وتحريم الاكتفاء فيه بمجرد التقليد، هو الراجح عند أكثر أئمة الأشاعرة، كإمام الحرمين، والشيخ الأشعري وغيرهما. ثم عدّد صفات الله تعالى الواجبة والمستحيلة والجائزة، وذكر براهينها ودلائلها ليُخرج المكلّف بمعرفتها عن رقة التّقليد. وتحدّث عن قضية حدوث العالم مستدلاً على ذلك بملازمته للأعراض الحادثة. ثمّ بعد ذلك انتقل للحديث عن الجزء الثاني من جزأي الإيمان، لأنّ الإيمان مركب من جزأين: أحدهما: الإيمان بالله تعالى، وهو حديث النفس التابع للمعرفة بما يجب له تعالى وما يستحيل وما يجوز. وثانيهما: الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام، وهو أيضاً حديث النفس التابع للمعرفة بما يجب لهم، وما يستحيل، وما يجوز. ولما كان الجزء الثاني موقوفاً على الجزء الأول، إنّما يُعرف ويُحصّل بعد معرفته، قدّم الكلام على الجزء الأول، ثمّ أخذ في الكلام عن الجزء الثاني، وهو الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام، وما يجوز في حقهم، وما يستحيل، وما يجوز¹.

وقد كان ديدنُ الشيخ عبد الواحد بن عاشر رحمه الله في كتاباته، الجمع بين الفقه والتصوّف والتوحيد؛ وممّا يُدللّ على ذلك، أنّه إلى جانب تأليفه للمرشد المعين (الذي تضمّن جمعا لمباحث عقدية، ومباحث فقهية وأخرى سلوكيّة)، ألّف الشيخ ابن عاشر أيضاً مجموعة من الكتب، مُستصحّباً نفس المنهج الذي سار عليه غالباً علماء الغرب الإسلامي في التأليف والتّدريس، نذكر منها:

- تقايد على العقيدة الكبرى للإمام الشُّنوسي. وهي في الدّرس العقدي الأشعريّ، موضوعة للطلبة من أجل المذاكرة والدّرس. ذكرها العلامة ميارة شارح المرشد المعين ضمن مؤلفاته، وكان ينقل منها كلام الشيخ ابن عاشر بين الحين والآخر في شرحه المذكور².
- ابتداءً شرحاً على مُختصر خليل من باب النّكاح إلى السلم أجاد وأفاد، والتزم في شرحه هذا نقل لفظ ابن الحاجب ثم لفظ التوضيح، وأضاف إلى ذلك فوائد عجيبة ونكتا غريبة، هذا الكلام ذكره ميارة. وهو شرحٌ يندرج ضمن الفقه المالكي³.

¹ أنظر: ميارة المالكي: الدر الثمين والمورد المعين، مرجع سابق، ص 29-30-31

² بصير، عبد المغيث مصطفى: الفقيه عبد الواحد بن عاشر حياته وآثاره الفقهية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2007م، ص 89، 126.

³ المرجع نفسه، ص 126.

• وفي التصوف نظّم بابا ضمن كتابه "المرشد المعين" سماه: كتاب التصوّف وهوادي التعرّف، وهو خاتمة المنظومة¹.

ومن الشُّراح الذين كان لهم طريق خاص في شرح كتاب "المرشد المعين" لابن عاشر-رحمه الله-، الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوه، والذي انتهج في شرحه هذا منهجا صوفيا، فقال-رحمه الله-: "لما مرّ الله عليّ بؤرود منهله المعين، أرشدني إلى طريق مُرشده المعين، وأنقذني من ربقة طريده المريد اللّعين، ووفّقني لفتح مُغلقات هذا النّظم العجيب، المحتوي ظاهراً على أركان الدّين وباطناً على مَسلك من مسالك الإشارة غريب"².

فالشيخ سيدي أحمد بن مصطفى -رحمه الله-، يُقرّر أنّ متن "المرشد المعين" قد جمع بين علمي الظاهر والباطن، أي بين فقه العبادات وبين السّلوک والتصوّف والأخلاق، إلّا أنّه يُفصّح عن سبب تأليفه وشرحه للمرشد المعين بمسحة صوفيّة خالصة، وأن مرّد ذلك لاهتمام الناس البالغ بفقه العبادات وعلم الظاهر، على حساب فقه القلوب وعلم الباطن، فيقول بشأن ذلك: "فوجدته قد أقبل على ظاهره جمّ غفير من أهل الظاهر، وتوقّف في التفحّص عن باطنه أهل الباطن؛ غير أنّهم على إفشاء السرائر، فبقّيت نفوس بعض من ينتمي لهذا المشرب طامحة للبحث عن إشاراته، مُتَشَوِّفة لما يلوح من معاني ألفاظ عباراته، فحملتني الغبطة في هذا الفن وكثرة الاشتياق، على الإقدام من غير سلاح وارتكاب المشاق..."³.

لقد قرّرنا أنّ المغاربة قد استقرّر الأمر عندهم على الجمع بين عقديّ الأشعريّ وفقه مالک، وطريقة الجنيد السّالك، هذا البيت الذي أورده ابن عاشر في منظومته "المرشد المعين"، يُعلّق عليه الشيخ ابن عليوه أنّ المراد منه التخلّق بهذه الأحوال والاتّصاف بها من قبل الصوفي؛ وذلك بأن يكون متلبّساً في أفعاله وعبادته بفقه مالک، أو بأحد الأئمة، ويكون مستغرقاً في باطنه ومستحضراً في الشُّهود طريقة الجنيد، أحد الأئمة الصوفية المعترّبين عند المغاربة، والمراد منه أن لا يرى في الوجود إلا موجوده، وذلك يُدرّكه من طريق الشُّهود والعيان لا من طريق العلم؛ فكل ما نطقت به ألسنتهم وما خطته أيديهم هو من تجليات الفيض

¹ المرجع نفسه، ص130.

² ابن علويّه المستغامي، أحمد بن مصطفى: المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية، تحق: سعود القواص، دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986م، ص6.

³ أنظر: ابن علويّه المستغامي: المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية، مرجع سابق، ص6.

الإلهي. ثم إن كان له رسوخ في هذا المقام فلا ينبغي له أن يتلقظ إلا بما يناسب عقول الخلق من العقائد، كعقائد الأشعري وما وقع عليه الإجماع، لئلا يكون حديثه عليهم فتنة¹.

ولا أجمل للمريد، المستغرق في التوحيد، أن يرجع لرتبة الإيمان ويُقيّد نفسه بما أخبر به الشارع عن مظاهر الآخرة وأحوال القيامة، ويجب على المرشد أن يدرّب المريدين - كلما صحوا من سكرتهم - حسبما اقتضته الظواهر من أحوال الآخرة، ولا يرضى من أحدهم قولاً ولا تأويلاً يميل به سكره إلى حالة غير محمودة شرعاً، لأنّ الحقيقة عين والشرعية أمرها، فمن خالف الأمر خالف العين. وهذا لعمري فهم من خبر وعلم حقيقة الأصول عند المريد، وكيف أنها معينة في فروعها على الأصول، كما ذكر ذلك ابن عاشر في منظومته؛ ليكون المريد على بصيرة فيما للقوم من الأحكام، حتى إذا عرفها وحققها ذوقاً وحالاً تكون معينة له على علم الفروع².

لقد كان من ملامح التكامل بين الفقه والعقيدة والسلوك عند ابن عاشر من خلال منظومته "المرشد المعين"، أنّه عقد لموضوع العقيدة في 42 بيتاً؛ فمهدّ لعلم العقيدة في 08 أبيات، تعرّض فيها لتعريف الحكم العقلي وبيان أقسامه، وبيان أول واجب على المكلف، وشروط التكليف. ثم نظم باب العقيدة فيما يتعلق بالإلهيات والنبوات تحت عنوان: كتاب أم القواعد وما انطوت عليه من العقائد، وهذا في 27 بيتاً، مبيناً فيها ما يجب اعتقاده في الله ﷻ وما يستحيل وما يجوز، وكذلك الأمر بالنسبة للرسول، خاتماً كلامه بأنّ لفظ الشهادة يحوي كلّ ما سبق ذكره من صفات في حقّ الله ﷻ. ثم ختم باب العقيدة بفصل في 07 أبيات، بيّن فيه ضرورة تكامل واجتماع علم العقيدة والفقه والتصوف، الممثلة لقسم الإيمان والإسلام والإحسان، وأكد أنّ مجموع هذه الأقسام الثلاثة هي الدين: (والدينُ ذي الثلاثُ خُذْ أقوى عُراك)³.

وتقدّم الحديث عن العقيدة في منظومة ابن عاشر ليس بدعا من الأمر، وذلك لأنها كانت سنّة متّبعة في التأليف عند علماء الغرب الإسلامي خاصة، ولو كان الأمر متعلّقاً بالكتابة حول موضوع الفقه فلا بُدّ أن تجد المصنّف يستهلّ كلامه بالحديث في العقائد.

¹ أنظر: المرجع نفسه، ص23.

² أنظر: المرجع نفسه، ص66، 78.

³ أنظر: بن قومار، لخصر: ملامح التكامل المعرفي عند الشيخ عبد الواحد بن عاشر الفاسي، من خلال منظومته "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين"، مجلة روافد للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، المجلد 05، العدد 01، جوان 2020م، ص16-17.

وقد أعقب ابنُ عاشر حديثه عن العقيدة بالتطرق إلى مباحث الفقه، فجاء باب الفقه في حوالي 245 بيتاً، افتتحه بمقدمة في أصول الفقه، بعنوان: مُقدمة من الأصول مُعينة في فروعها على الوصول. وكما هو ديدن علماء الغرب الإسلامي، فإنَّ الشيخ ابن عاشر لم يخرج في الفقه-غالباً- عن المشهور في مذهب مالك. ثمَّ كان الختام المسك في هذه المنظومة، من خلال الحديث عن التصوّف ومبادئه في 27 بيتاً، وعنون له: مبادئ التصوف وهوادي التعرف، على منهج وطريقة الإمام أبو القاسم الجنيد البغدادي - رحمه الله - فيما يخصُّ التوبة والاستغفار والكفَّ عن الحرام وتطهير القلب ومحاسبة النفس، والحديث عن التوبة وشروطها، وعن حقيقة التقوى وأقسامها، وكذا الحديث عن ضرورة مصاحبة شيخ حاذق بصير بأدواء النفس، وملازمته والأخذ عنه¹.

¹ أنظر: المرجع نفسه، ص 17-18-19.

الفصل الثاني: الشيخ زروق الفاسي، عصره وحياته وشهادات العلماء فيه

المبحث الأول : عصر الشيخ زروق الفاسي

المطلب الاول : الواقع السياسي

المطلب الثاني : الواقع الاجتماعي

المطلب الثالث : الواقع الثقافي

المطلب الرابع : تأثير الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي في حياة الشيخ زروق

المبحث الثاني : حياة الشيخ زروق الفاسي

المطلب الاول : مولده ونشأته

المطلب الثاني : مساره العلمي ورحلاته

المطلب الثالث : آثاره

المبحث الثالث : صفات الشيخ أحمد زروق وكراماته وأقوال العلماء فيه

المطلب الاول : صفاته

المطلب الثاني : شهادات في حق الشيخ

المطلب الثالث : كراماته

الفصل الثاني: الشيخ زروق الفاسي، عصره وحياته وشهادات العلماء فيه

يُعتبر الشيخ أحمد زروق الفاسي -رحمه الله-، -الجامع بين الحقيقة والشرعية-، آخر الصوفية المحققين لعلمَي الشرعية والحقيقة؛ فهو من جهاذة علماء المغرب الإسلامي؛ بل العالم الإسلامي شرقا وغربا. وإذا كان الشيخ زروق لا يهتُم إلى أيِّ بلد أو وطن ينتمي؛ لأنَّ انتماءه يَسع موطنه الأصلي، ويتعداه ليشمل سائر أقطار العالم الإسلامي؛ فكُلُّها يُشرفها أن ينتمي إليها هذا القطب، وكُلُّها تتواضع أمام جلال قدره، ومُعظَّمها تحتفظ بذكرى مُروره بأرضها، أو تتلمذ بعضُ أبنائها على يديه، أو اغترفوا من فيض علمه، وأنوار مدرسته، الفقهية الصوفية الروحية السُّنية¹.

يعلق الأستاذ مارتن لنكرز² في كتابه "ما هو التصوف؟" على كتاب فهمي خشيم "أحمد زروق والطريقة الزروقية"، ما نصُّه: "كُنَّا نحسب أنَّ أعلام التصوف الإسلامي ينتهون عند عبد الكريم الجيلي، حتى جاء فهمي خشيم فأبان لنا عن شخصية صوفية تضارع أبا حامد الغزالي، ألا وهي الشيخ أحمد زروق..." وإذا كان الأستاذ عبد الله النجمي في مقارنته الطريفة والمهمة بين أحمد زروق الصوفي المسلم ولوثر اللاهوتي النَّصراني³، قد أبدى انزعاجه من ظهور نحو ألفي كتاب منفرد عن الأخير، عدا المقالات والكراريس المصنَّعة عنه، بينما لم تظهر سوى مقالتين إحداهما بالعربية للأستاذ كنون والأخرى بالفرنسية للأستاذ ج.س. كولان، عن زروق في أواخر القرن الماضي، فقد اهتمَّ

¹ انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشرعية والحقيقة، مرجع سابق، ص13.

² Martin Lings عالم انجليزي أسلم وجعل اسمه عبد الكريم نور الدين، ألف كثيرا في التصوف وخاصة ما يتعلق بالشيخ العربي الدرقاوي. وقد كتب مادة sufism في دائرة المعارف البريطانية. ترجم كتابه "ما هو التصوف" what is sufism إلى عدة لغات منها العربية. توفي سنة 2005م. (دُكرت هذه الترجمة في مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب: خشيم: أحمد زروق والزروقية، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، ط3، 2002م، ص9. ودُكر في ترجمته أنَّه غيَّر اسمه إلى أبي بكر سراج الدين، انظر: "المفكر الإنجليزي مارتن لينجز". قصة الإسلام. 24 تموز/يوليو 2008. مؤرشف من الأصل في 22 يونيو 2012م، تاريخ التصفح: 2022/11/28م).

³ نشأ مارتن لوثر في ألمانيا في بيئة كاثوليكية تعج بالخرافات، درس القانون ولم يتم دراسته واتجه إلى الدراسات اللاهوتية، كان له آراء ناقدة للكنيسة آنذاك؛ فهو ينتقد دعاوى غفران الذنوب، وامتلاك سر التوبة، وحق منح صكوك الغفران، وكتب في ذلك وثيقته المشهورة التي تتضمن خمسة وتسعين مبدأ في معارضة الكنيسة وهذا عام 1517م، وهذا ما أدى إلى اعتباره خارج عن القانون، ومُنعت كُتبه، وُوُدي بحبسه لولا أنه هرب. توفي عام 1546م. (انظر: كامل عمر، عمرو: حصان طروادة الغارة الفكرية على الديار السنية، تقلد: محمد موسى الشريف، دار القمري، ط2، 1435هـ/2014م، ص266).

الباحثون مؤخرًا بآثار زروق وأعيد نشر بعض مؤلفاته، وقُدِّمت عنه وعن أعماله بعض الرسائل الجامعية¹.

لقد وصل الشيخ أحمد زروق بمنّ الله وفضله، ومجاهدته الروحية والتزامه بتعاليم الشريعة الإسلامية، إلى درجة التمكن، وهي صفة أهل الحقائق/التحقيق، فحقّ له أن يقول:

وقال لي أنت القطب في الأرض كلّها*** وكلّ عبيد الله صاروا رعيّتي²

وحقّ له أن يُصرّح بقطبيته، وأنّ كلّ السالكين طريق الحق صاروا أتباعه؛ وهذا ما يؤيِّده الواقع؛ فلقد انتشرت طريقته في حياته وبعد مماته؛ ولقد لقيه الإمام السخاوي بمكة، وقد صار له أتباع³. رغم أنّه معروف عنه في حياته أنه كان يأبى الشهرة والسُّمعة والرياسة، وكان يقول لمريده وتلميذه أحمد عبد الرحيم منصور، الذي أراد أن يبنى له زاوية وتكون لها أوقافا، فقال له: نحن لا تفوح رائحة مسكنا حتى نتسوس تحت التراب. وقد تحقّق هذا القول بعد وفاة الشيخ بعشرين عاماً كاملة، حتى صارت الطريقة الزروقية من أكثر الطرق انتشاراً، وزاد خلالها عدد الزائرين لضريحه، وذاع صيته في الأفاق، وبنى أحمد عبد الرحيم جامعاً بجانب الضريح وعاش فيه، وصار هذا الجامع بمرور الزمن "زاوية سيدي أحمد زروق" وأصبحت أحد المعالم الرئيسية في المنطقة، ومعهداً دينياً معروفاً في البلاد الليبية، وغيرها من أصقاع العالم الإسلامي؛ حتى إنّّه ليذكر أنّ وزير خارجية جزر الرأس الأخضر طلب في زيارة له إلى ليبيا أن يوضع على قمة جدول لقاءاته في مهمته الرسمية زيارة ضريح الشيخ زروق، لأنّه هو ذاته كان شيخ طريقته في بلاده⁴.

إنّ الشيخ أحمد زروق الفاسي رحمه الله، لم يسلم من الإذاية في حياته وبعد موته؛ فقد كان شديداً في الحق ولا يخشى في الله لومة لائم، وكان غضبه لله وشدّته يدفعانه إلى عدم مُداهنة الحُكّام وأهل الأهواء، ولذلك تعرّض لصنوف من العداة وألوان من الإيذاء، حتّى بعد أن توفّي ودُفن في

¹ خشيم، علي فهمي: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 9، 11-12.

² زروق، أحمد: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقية، تحق: محمد إدريس طيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971م، ص 31. وقد ذكّر هذا البيت في معرض الترجمة لزروق الفاسي ابنُ مريم التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، اعتناء: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعلبية، الجزائر، لا.ط، 1908م، ص 49.

³ زروق: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقية، مرجع سابق، ص 82.

⁴ انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 10.

التّراب؛ حيث نُبش قبره من طرف الغوغاء والسّفهاء في منطقة الزُّروق بمصرّاتة، وسيبقى ذلك الفعل الشّنيع - الذي أدّاه العالم الإسلامي قاطبة - عارًا في جبين المصرّاتيين خُصوصًا، واللّيبّيين عمومًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ورغم ذلك فإنّ الشّيخ قد حَفَرَ اسمه في قلوب أحبّائه ومُريديه، وإنّ مدرسته الفقهيّة الصّوفيّة السّنيّة خالدةٌ بخلود آرائه الإصلاحية، فهل سيَجْتثُّون هذه الأفكار والآراء من القلوب؟ أم سيَتَبَّعون كُتبه المتوفّرة في الخزانات العامّة والخاصّة في أرجاء العالم؛ ليصادرونها؟ عُمومًا فإنّ الله ناصرٌ عبده ومُعزٌّ جُنده ومنتقمٌ لأوليائه، ولو بعد حين¹.

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشّيخ شهاب الدّين أبي العباس أحمد زُّروق من خلال كتبه وشروحه، مرجع سابق، ص10.

المبحث الأول : عصره الشيخ زروق الفاسي

كان لزاما علينا التعرف على العصر الذي عاشه هذا الشيخ الفقيه العارف بالله؛ لأنّ أحداث الزمن وأحواله تلقي -دون شك- أضواء على الجوانب السياسية، والاجتماعية، والفكرية، ليعرف القارئ إلى أي حدّ تأثر الشيخ زروق بعصره وأثر فيه. وقد قيل إنّ تراجم العظماء ما هي إلا خيوط ضمن أنسجة التاريخ الواسعة؛ ذلك التاريخ الذي لا بد من أن تخامر روحه روحهم، وتتوغل إلى أعماق ساحات وعيهم¹.

لقد كان المغرب الإسلامي (أو ما يُسمّى حديثا بالمغرب العربي الكبير) في عصر الشيخ أحمد زروق يَعُجُّ بالصّراع الدائم، والحروب المستعرة بين الفينة والأخرى، بين الدول الثلاثة: دولة بني حفص في المغرب الأدنى (تونس)، ودولة بني زيان في المغرب الأوسط (الجزائر)، ودولة بني مرين في المغرب الأقصى²، هذه الدول التي قامت على أنقاض دولة الموحّدين بعد أفول شمسها وذهاب ريحها³. ولقد وُلد الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- أواخر الدولة المرينية، التي كانت بدايتها عام 668هـ/1269م، ونهايتها عام 869هـ/1465م، وبداية عصر الوطاسيين، الممتدّ من عام 876هـ/1472م إلى عام 961هـ/1554م. هذه الدولة تعتبر ذيلا للعصر المريني من الوجهة السياسية، وفرعا من بني مرين، غير أنّهم ليسوا من بني عبد الحق بن محيو، الجد الأعلى لبني مرين⁴. وكان الشيخ أحمد زروق -رحمه

¹ انظر: بلشير، عمر: جوانب من الحياة الاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأدنى من القرن 6 إلى 9هـ من خلال كتاب المعيار للونشريسي، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، أطروحة تدخل ضمن متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، 2010/2009م، ص4.

² من التسامح القول بهذا التقسيم، ذلك أنّ جزءا كبيرا من الشرق الجزائري اليوم، بما في ذلك قسنطينة وعنابة وبجاية وبسكرة وتقرت، كانت تحت هيمنة الدولة الحفصية، وكان ما يُعرف اليوم بالغرب الجزائري تحت نفوذ الدولة الزيانية، التي اتخذت من تلمسان عاصمة لها. أما وسط القطر الجزائري الحالي فقد كان منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين. (انظر: سعد الله، أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 1998م، ج1، ص40).

³ انظر: زروق، أحمد: شرح المقدمة القرطبية، تحق: أحسن زقور، دار التراث - ناشرون، الجزائر، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط1، 2005م، ص13.

⁴ زروق، أحمد: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص6.

الله- متنقلا بين أقطار المغرب العربي، وبالخصوص بين أشهر مُدنه: فاس، وتلمسان، والجزائر، وتونس، وطرابلس، حيث كانت تعتبر أكبر المراكز العلمية حينئذ¹.

المطلب الاول: الواقع السياسي

كانت الفترة التي عاشها الشيخ أحمد زروق الفاسي -رحمه الله- بين عصر المرينيين والوطاسيين، " فترة صراع ذوي الطّموحات الخاصّة على الحُكم؛ وتسخيرهم لبعض الفقهاء، وبعض الطّرقين لتحقيق مآربهم؛ فكّر الشيخ منهم ذلك، لأنّ الظّرف الذي كان يمرُّ به المغرب آنذاك كان يستوجب الحفاظ على وحدة الأمة تحت قيادة الحاكم الشرعي، وتوجيه طاقاتها نحو الدفاع عن حوزة الوطن في وجه الأطماع الإسبانية والبرتغالية"².

لكن للأسف، شاءت الأقدار أن تعرف هذه الفترة اضطرابات سياسيّة واجتماعيّة من المغرب الأقصى إلى طرابلس ليبيا. حيث أصابت المغرب نكبة استعمارية احتلّت فيها الثغور؛ فقد استغلت البرتغال الأوضاع المتردّية داخل المغرب الأقصى (النزاعات والانقسامات السياسية، المجاعة والجفاف، الأزمة الاقتصادية...)، وعملت على احتلال: مدينة سبتة³ سنة 818هـ/1415م⁴، وهذا بحُكم موقعها الاستراتيجي المشرف على التجارة بين أوروبا وإفريقيا عبر بوغاز جبل طارق، وتوقّرها على مناجم الذهب⁵. وأتى الاحتلال أيضا لمدينة أصيلا عام 876هـ/1471م⁶، ويقول الوزان في هذا الصّدّد: "هاجم

¹ مراري، عبد القادر: الفكر العقدي للشيخ أحمد زروق البرنسي، مذكرة ماجستير عقيدة، كلية العلوم الإسلامية بالخروبة، قسم العقائد والأديان، جامعة الجزائر 1، 2015/2014م، ص13.

² زروق: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقية، مرجع سابق، ص17.

³ وفي هذا الصدد يقول حسن الوزان حول احتلال مدينة سبتة: "استحوذ أسطول البرتغال على سبتة عام 818هـ، وفر من كان بها، فدخلها النصارى دون عناء، ومكثوا فيها نحو ثلاثة أسابيع متوجسين خيفة من ملك فاس أن يأتي لنجدتها، لكن أبا سعيد (المريني) الذي كان ملكا على فاس آنذاك تخاذل ولم ينهض لاستردادها، بل بالعكس أتاها الخير وهو في وليمة والناس يرقصون فلم يوقف الاحتفال. وقد قضت مشيئة الله أن يقتل هذا الملك بعد ذلك شر قتلة بيد أحد كتّابه السابقين... عام 824هـ". (انظر: الوزان: وصف إفريقيا، مرجع سابق، ج1، ص318).

⁴ انظر: الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج4، ص92-93.

⁵ كريم، عبد الكريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، منشورات المؤرخين المغاربة، الرباط، المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط3، 1427هـ/2006م، ص6.

⁶ الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج4، ص116. والوزان: وصف إفريقيا، مرجع سابق، ج1، ص312.

البرتغاليون أصيلا على غيرة¹ واستولوا عليها وأخذوا كل من وجدوا بها من السكان أسرى إلى البرتغال، ومن بينهم محمد (الوطاسي)، وكان حينئذ طفلا في السابعة من عمره، وأسرت معه أخت له في نفس السن، لأن أباهما الذي ثار بإقليم الهبط كان يسكن آنذاك بأصيلا... ومكث محمد البرتغالي أسيرا سبعة أعوام تعلم أثناءها اللغة البرتغالية وأتقنها، ثم افتداه أبوه بمال كثير. ومن أجل ذلك لقبوه عندما آلت إليه السلطة بالملك محمد البرتغالي²، وحاول مرارا أن يثار من البرتغاليين وأن يسترجع منهم أصيلا³.

وبعد احتلال مدينة أصيلا، فُتح الباب على مصراعيه أمام البرتغاليين الذين اقتحموا مدينة طنجة بعد ثلاثة أيام، واحتلوها بعد أن فشلوا في ذلك من قبل، وكان هذا بقيادة الدون جواو الذي استولى عليها في ربيع الأول من عام 876هـ/1471م⁴.

بينما استطاع الأسبان أن يستولوا على المرسى الكبير سنة 911هـ/1505م بمباركة من الكنيسة المسيحية ودعمها، ثم احتلوا مدينة وهران سنة 915هـ/1509م، كما استولوا على مدينة بجاية سنة 916هـ/1510م ونهبوها ونقلوا جميع ما فيها من تحف ونفائس إلى إسبانيا في ثلاثين مركبا⁵. وكان الإسبان قد اعتدوا وقاموا بتهجير أهل الأندلس وطردهم من غرناطة وضواحيها إلى

¹ استغل البرتغال غياب حاكم أصيلا وهو محمد الشيخ، وقاموا بغزوهم لهذه المدينة بقيادة ألفونسو الخامس بأسطول قوامه 477 سفينة بما ثلاثون ألف مقاتل، في حين كان محمد الشيخ يحاصر خصمه في فاس الشريف محمد، هذا الأخير الذي فر إلى تونس ودخل محمد الشيخ العاصمة فاس عام 1472م، مؤسسا بذلك دولة بني وطاس. (انظر: الغنيمي، عبد الفتاح مقلد: موسوعة تاريخ المغرب العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1414هـ/1994م، ج6، ص23).

² أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي الشهير بالبرتغالي، آلت إليه الأمور بعد وفاة أبيه مؤسس الأسرة الوطاسية والذي حكم اثنين وثلاثين، وكان البرتغالي أكبر إخوته. وكان هذا السلطان هو الذي كلف الحسن الوزان عام 1517م القيام برحلات في الممالك الإسلامية المجاورة وخاصة جنوب الصحراء. توفي عام 1525م. (انظر: الغنيمي: موسوعة تاريخ المغرب العربي، مرجع سابق، ج6، ص29).

³ الوزان: وصف إفريقيا، مرجع سابق، ج1، ص312-313.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ج1، ص314-315. وعبد الكريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، مرجع سابق، ص8.

⁵ انظر: بلشير: جوانب من الحياة الاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأدنى من القرن 6 إلى 9هـ من خلال كتاب المعيار للونشريسي، مرجع سابق، ص9.

المغرب، وتشريدتهم والتّكّيل بهم أشدّ تنكيل، إلى أن سقطت الخلافة الإسلامية من الأندلس سنة 897هـ/1492م، في عهد الأمير عبد الله الأحمر¹.

وهكذا، كما تقول زيغريد هونكه: "في 2 يناير 1492م رفع الكاردينال "ديدر" الصليب على الحمراء، القلعة الملكية للأسرة الناصرية، فكان ذلك إعلانا بانتهاء حكم المسلمين على إسبانيا. وبانتهاء هذا الحكم ضاعت تلك الحضارة العظيمة التي بسطت سلطانها على أوربا طوال العصور الوسطى، وقد باشرت المسيحية المنتصرة حملة للقضاء على كلّ ما يرمز للإسلام ونقضت اتّفاقاتها مع المسلمين، فلم يبق مسلم واحد يستطيع إشهار إسلامه².

وقد دخل الإسبان ضد البرتغاليين في منافسة حامية الوطيس لاحتلال بعض المدن المغربية، بل والاستيلاء على ما احتلّه البرتغاليون، فاحتلوا الجنوب الغربي عند وادي زون، وبنوا به حصنا عام 1478م، ثم استولوا على مليلة في سبتمبر 1497م، وواصل الأسبان هجومهم على أفران وأفني وتامانار عام 1499م، كما احتلوا سنة 1506م مدينة "غصاصة" أو غساسة "في إقليم الناطور" شمال المغرب، بينما فرض البرتغاليون سيطرتهم على منطقة الصويرة ثم آسفي سنة 1508م، وفي العام نفسه احتل الإسبان "حجرة بادس"، وفي عام 1509م وقع اتفاق بين الفريقين المتنافسين على اقتسام مناطق النفوذ بينهما على السواحل المغربية؛ ولذلك وقعت السواحل الشمالية والغربية للحكم الأجنبي؛ مما زاد من ضعف البلاد، وقويت الفتن الداخلية³.

وبعد هذا العرض للحالة السياسية بالمغرب، يمكن أن نُفصّل حال البلاد وأطرافها في تلك الحقبة من الزمن-أي زمن المرينيين والوطاسيين-، فهذا من شأنه أن يوضّح البيئة التي كان يُكابدها سيدي زروق-رحمه الله-، والمشاق التي كان يواجهها في طريق طلبه للعلم، وكذا العوامل المساعدة التي جعلت منه علّما من أعلام المغرب، بل العالم الإسلامي أجمع، كما سنذكر.

¹ زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص6.

² انظر: العالم، جلال: قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله، لا.ن، طرابلس، لا.ط، 1974م، ص9

³ انظر: بن غازي، أي عبد الله بن أحمد: الروض المتهون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقق: عطا أبو ريه- سلطان بن مليح الأسمرى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، لا.ط، 2018م، ص11.

1- المغرب الأقصى:

أ- دولة بني مرين:

استطاعت قبيلة بني مرين أن تُسقط دولة الموحدين عام 668هـ، وهم يتفرعون من قبائل "زناتة" مثل "مغراوة" وبني "يفرن" وكانت مضاربهم في الصحراء الكبرى وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة، وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقوى وسلامة العقيدة والابتعاد عن الأفكار التومنتية¹ المنحرفة. ومن أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى مرحلة الدولة: عبد الحق بن محيو المريني(ت 614هـ)، والذي خلفه بعده أبنائه الأربعة: أبو سعيد عثمان(ت 642هـ)، وأبو بكر عبد الحق(ت 656هـ)، ويعقوب بن عبد الحق، هذا الأخير الذي استطاع أن يقضي على الموحدين وصار أمير المغرب سنة 668هـ، وكانت له سيرة جهادية مشرفة في الأندلس².

لقد ظلت دولة بني مرين صامدة قوية إلى ما بعد منتصف القرن الثامن الهجري، ثم بدأ يؤول حالها إلى الضعف والزوال؛ حيث أصبح أمر الحكم والسياسة في أيدي الوزراء والحجّاب، فهم الذين يعزلون وهو الذين يعينون، ولا يستطيع السلطان أن يقطع أمرا من دونهم، وأصبحوا هم الحُكّام الفعليين يفعلون ما يحلو لهم، خاصّة في عهد آخر سلاطين الدولة المرينية، وهو "أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد المريني"(823/869هـ)، أمّه علجة إسبانية، على ما ذكره منويل، والذي شهدت أيتامه حالة من الضعف الشديد وسقوط الدولة³.

لقد عمّد عبد الحق المريني إلى تقريب اليهود من مقاليد الحكم، وبذلك تسلطوا على رقاب الأهالي، فانفجرت الثورة التي عمّت أحياء فاس كلها واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبد الله محمد بن علي الإدريسي، نقيب الأشراف بفاس سنة 869هـ، وبذلك انتهت دولة بني مرين⁴.

¹ لعله يقصد أفكار ابن تومرت المهدوية التي اشتهر بها مؤسس دولة الموحدين، ولذلك لُقّب بالمهدي.

² الصلابي، علي محمد: كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط1، 2015م، ص66.

³ انظر: الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج4، ص95.

⁴ الصلابي، علي محمد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط3، 1430هـ/2009م، ص482.

ومن وزراء السلطان المريني الذين استقلوا بالحجابه، أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عمر بن زيان الوطاسي، الذي كانت وزارته مبدأ كل شرّ وفتنة، فقد غيّر مراسم الملك وعوائد الدولة، ونقض جُلَّ ما أبرمه قبله الوزراء، وعامل الرعيّة بالعسف، وعزل قاضي فاس العادل، الفقيه أبا عبد الله محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودي، وجعل مكانه الفقيه يعقوب التّسولي، وألحق معه الوطاسيين رداء الملك وأشركهم شؤون الوزارة. فلمّا شعر السلطان عبد الحق أنّهم كادوا يغلبونه على أمره، سطا بهم سطوة استأصلت جمهورهم، إلّا أخوين للوزير هما: مُحَمَّدُ الشَّيْخ ومُحَمَّدُ الخُلُو كانا غير حاضرين الواقعة. ثمّ ما كان من أمر السلطان إلّا أن أقسم أن لا يُعيّن أحدًا من المسلمين وزيرًا له أبدًا، فعهِدَ بالوزارة إلى يهوديّين: هارون وشاويل، تأديبًا لأهل فاس وتشقيًا فيهم، وأطلق أيديهما في شؤون الحكم وتدير أمور الدولة، وخاصة ما يتعلق بجمع المال والضرائب، وكان السلطان قد وصله أنّ العامّة وكثيراً من الخاصّة، آذاهم صاغيةً إلى محمد الشيخ صاحب أصيلا، وكان قد استولى عليها بعد فراره¹.

ولما آل الحال إلى ما ذكرنا، من العسف والخسف الذي انتهجه اليهود بأهل المدينة بالضرب ومصادرة الأموال، والتحكّم في الأشراف والفُقهاء ومن دُونهم، فكانت النتيجة أن ازداد غضب الشعب وحنقه وثارَت ثائرة المسلمين امتعاضا من أن يحكمهم غير مسلم، إلى أن وصل بالناس حال جعلهم يستغيثون ويستنجدون بخطيب القرويين، الفقيه أبي فارس عبد العزيز الوريّاغلي (ت 880هـ)²، الذي كانت له صلابَةٌ في الحقّ وجلادةٌ عليه، بحيث يُلقِي بنفسه في العِظام ولا يبالِي، كما قال عنه الشيخ أحمد زروق -رحمه الله-³، وقالوا له: "ألا ترى إلى ما نحن فيه من الدلّة والصّغار، وتَحكّم اليهود

¹ انظر: الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج4، ص97-98.

² الشيخ الفقيه الخطيب، العلامة المدرس الأريب، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو فارس سيدي عبد العزيز بن موسى الوريّاغلي. كان يدعى الصاعقة وهذا لجراته وحدته، وكان إماما وخطيبا بجامع القرويين، ومفتيا بفاس. وعلى يديه كان القيام(الخروج) على عبد الحق المريني. توفي سنة 880هـ ودُفن في روضة الشيخ الفقيه الولي الصالح: أبي زيد الهزميري. (انظر: الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، مرجع سابق، ج2، ص89-90-91. والسخاوي، محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م، ج4، ص236).

³ انظر: الكتاني: سلوة الأنفاس، مرجع سابق، ج2، ص90. وانظر: التنبكي: نيل الابتهاج بتطيريز الديباج، مرجع سابق، ص275.

في المسلمين والعبث بهم، حتى بلغ حالهم إلى ما سمعت"، وكان ذلك عقب حادثة ضرب اليهودي لامرأة من أهل حومة البليدة والتشنيع عليها. فما كان من أمر الفقيه الصّادع بالحقّ إلا أن نادى بخلع البيعة من السلطان عبد الحق، وقام ببيعة الشريف أبي عبد الله محمد بن علي الإدريسي الجوطي الحفيد¹.

ولقد استجاب الناس للفقيه الورياغلي واستدعوا الشريف المذكور فبايعوه، والتفتوا حوله، وقد كان عبد الحق في تلك الآونة على رأس حملة لقمع ثورة قبائل الهبط، فانتهاز القوم الفرصة، وقصدوا فاس يتقدمهم مفتي فاس وأحد شيوخ أحمد زروق، الفقيه أبو فارس الورياغلي²، ودخلوا حارة اليهود فقتلوه واستلبوا أموالهم، واقتسموها بينهم، وانفضّ السلطان مسرعاً إلى فاس لما علم بالأمر، واضطرب عليه أمر الجند، ففسدت نيتهم بجأهه، وتكرّرت وجوههم عليه، وجعلوا ينسحبون عليه فوجاً بعد آخر، ولما قُرب من فاس أشار عليه هارون اليهودي بالألّا يقُدّم على فاس والفتنة تغلي، وإلّا يذهبان إلى مكناسة الزيتون؛ ففيها أعوانهم ومن ينصرونهم، فما استتمّ اليهودي كلامه حتى انتظمه بالرُمح رجلٌ من بني مرين، ثمّ اقتادوا السلطان عبد الحق، إلى أن بلغوا عين القوادس خارج فاس، واجتمع الناس حوله يذمّونه ويقدحون فيه، ويتشفّقون فيه؛ لِمَا فَعَلَهُ فيهم، ولحقه الشريف عبد الله الحفيد إلى خارج فاس، وانتزع منه خاتم الملك، وأخذ أمواله وما يملك، ثمّ جنب إلى مصرعه، فضُربت عنقه صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة 869هـ، ودُفن ببعض مساجد البلد

¹ هذا الشريف العمراني من بيت بني عمران فرقة من أدارسة فاس، وهم واسطة عقد البيت الإدريسي، قال ابن خلدون: "ليس في المغرب فيما نعلمه من أهل البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبلغ أعقاب إدريس". قال: "وهم نقباء أهل البيت هناك والساكنون ببيت جدهم إدريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة". (انظر: الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج4، ص114)

² يذكر صاحب الاستقصا، أنّ الشيخ زروق كان قد ترك الصلاة خلف الفقيه أبي فارس الورياغلي؛ لما صدر منه في حق السلطان عبد الحق، وكان يقول: "لا آمن الغندور على صلاتي بعبه بذلك"، والغندور في لسان المغاربة ذو النخوة والإبابة وما أشبه ذلك، وزعم الناصري أنّ هذا القول نقله ثقات. وقد عارض زروق شيخه الزيتوني وابن قبيلته عبد العزيز الورياغلي، اللذين ترعّما الخروج على عبد الحق المريني، لأنّ الشيخ زروق -كما يقول حفيده الشيخ محمد إدريس طيب- رأى في خروجهما خروجاً على الشرعية، ودعوة للفتنة، وفتنوا لما رتق من أمر الأمة، وإضعافاً لقوتها أمام أعدائها الإيبيريين. (انظر: الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج4، ص100. وزروق: النصائح الزروقية، تحق: محمد إدريس طيب، كتاب-ناشرون، بيروت-لبنان، 2017م، ص10)

الجديد، ثم أُخرج بعد سنة ونُقل إلى القلة فدفن بها، ونُصّب الشريف الحفيد سلطاناً، وكان يومئذ على نقابة الأشراف الأدارسة بفاس¹.

ب- دولة الوطاسيين:

الوطاسيون هم فرع من بني مرين، غير أنهم ليسوا من بني عبد الحق، وكان بنو الوزير منهم يحاولون الخروج دائماً عن طاعة بني عبد الحق، ويسعون إلى الرياسة، بيد أنهم أذعنوا على مضض، ورَضُوا بمنصب الوزارة، والتقلّب في الولايات والأعمال، فتعدّد الوزراء منهم إلى يحيى الذي قتله عبد الحق. وأشهر ملوك هذه الدولة، مؤسسها: محمد الشيخ الوطاسي، النَّاجي من المذبحة².

لقد كان الصراع على السلطة بعد أفول الدولة المرينية على أشده، فبعد تولي الشريف الإدريسي حُكم المغرب، استطاع محمد الشيخ أن يجهّز جيشاً لنزع السلطة والحكم من الشريف الإدريسي، ودخل في حروب طاحنة، واحتل فاس عام 877هـ، وكلفه ذلك ضياع مدينة أصيلا، التي احتلها البرتغال إلى جانب مدينة العرائش³.

وفي عهد دولة الوطاسيين تغيّرت حال المغرب في جميع مرافق الحياة، فحلّت به نواب ونكبات، يأتي في مقدّماتها، كما ذكرنا سالفاً: الغزو البرتغالي لسواحله، واحتلاله للشواطئ المغربية⁴؛ فبعد استيلائه على سبتة عام 818هـ، اكتسح القصر الكبير عام 863هـ، واحتل طنجة عام 876هـ، وكان قد استولى على آنفّا⁵ أو آنفي سنة 874هـ، وبالتالي أتى على أصيلة في ربيع الأول من عام 876هـ.

¹ انظر: الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج4، ص99-100.

² المرجع نفسه، ج4، ص100.

³ انظر: الصلابي: كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، مرجع سابق، ص71.

⁴ الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج4، ص110.

⁵ آنفّا هي مدينة الدار البيضاء الحالية بالمغرب الأقصى، ويذكر الوزان أن هذه المدينة أسسها الرومان على شاطئ البحر المحيط على بعد نحو ستين ميلاً شمال الأطلس، ونحو ستين ميلاً شرق أزموور، وكانت في غاية الحضارة والازدهار. (انظر: الوزان، حسن: وصف إفريقيا، مرجع سابق، ج1، ص196-198)

⁶ الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج4، ص116.

ومن الأزمات التي حلت بالبلاد في هذه الحقبة من تاريخ المغرب: تصاعد الهجرات الأندلسية إلى المغرب في وفادات مُتعدّدة، لما أخذ الأسبان يستردّون مُدن الأندلس، وحصونها، فيقومون باضطهاد المسلمين المقيمين؛ والتّضييق عليهم في شعائرهم، رغم أنّهم تعهّدوا باحترام العقود والمواثيق التي أبرمت بينهم وبين المسلمين، وهذا لكي يضطّروهم إلى الخروج ومغادرة الأندلس فارّين بدينهم إلى المغرب¹.

بعد سقوط غرناطة - آخر معاقل المسلمين بالأندلس - عام 898هـ على يد الإسبان، وتوغّل سراياهم وبعوثهم في الأطراف المجاورة التي احتلوها، قدّم أهالي الأندلس في هجراتٍ عظيمة، وزحفت أعدادٌ غفيرة من الغرناطيّين نحو المغرب²، ومُن وفد على مدينة تلمسان فارّاً من الإسبان، ملك غرناطة أبو عبد الله بن الأحمر، الذي خرج باكيا كالنساء على ملك لم يدافع عليه كالرجال، واستقبله الأمير محمد الثابتي الزباني وأكرم وفادته³.

ولقد أثر ذلك النزوح على طبيعة التركيب السكاني في المغرب، وكان عددٌ كبير من هؤلاء الزاحفين من اليهود؛ بعد أن اتخذ مسيحيّو الأسبان الإجراءات التعسفيّة ضدهم، فشكّل هؤلاء اليهود عنصراً آخر يضاف إلى تركيبة السكان ببلاد المغرب، وقد لعبوا دوراً هاماً وخطيراً في الحياتين الاقتصادية والسياسة، كما أحدثوا فساداً في المجتمع الفاسي بصفة خاصة؛ بأخذهم الربا والتعامل بالغشّ في البيع والشراء، وفي إقليم شفشاون شمال المغرب، دخل اليهود المدينة منذ تأسيسها على يد علي بن راشد سنة 876هـ، واندمجوا في المجتمع الإسلامي اندماجاً كبيراً... كذلك ظهرت بعض العادات السيئة في المناطق التي احتلتها البرتغال، من انتشار الزنا والخمر والتماس البركات من الموتى بالقبور وغيرها⁴.

وهذا الواقع المرير وخاصة على المستوى الاجتماعي والأخلاقي والعقائدي، هو ما أدى بالعلماء والفقهاء والمصلحين إلى التشمير عن سواعد الاجتهاد، والجهاد بالكلمة ونشر العقيدة

¹ انظر: عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ط2، 1966م، ص180.

² انظر: الصلابي: كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، مرجع سابق، ص72.

³ المدني، أحمد توفيق: كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، لا.ط، 1931م، ص32.

⁴ انظر: نوال علي، محمد عبد العزيز: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في عهد الدولة الوطاسية، مجلة المؤرخ العربي، الأمانة العامة للمؤرخين العرب، بغداد، المجلد6، العدد6، 1978م، ص324.

الصحيحة، والدعوة إلى التحلي بأخلاق الإسلام والابتعاد عن الرذائل، وكان على رأس هؤلاء الصلحاء العاملين، الشيخ زروق الفاسي رحمه الله.

وقد نشطت حركة الكُشُوف الجغرافية، وجاء كشف طريق رأس الرّجاء الصّالح عام 902هـ، كردّ فعل أوروبيّ لسيطرة المسلمين على منافذ التجارة العالمية في تلك الفترة. كما عاصر الوطاسيون امتداد النفوذ العثماني على الشمال الإفريقي وامتلاك الأتراك للجزائر، وانتهت هذه الحقبة بسيطرة العثمانيين على معظم العالم الإسلامي شرقه وغربه، باستثناء المغرب الأقصى. وعانى المغرب الأقصى في تلك الفترة، من الإخيار الداخلي الذي أصابه، وهو جزء من الإخيار العام الذي عمّ المغرب والمشرق في ذلك الوقت¹.

2- تلمسان

منذ سقوط دولة الموحدين وتفكك وحدة الشمال الإفريقي، أشرقت فيه ثلاث إمارات أو ثلاث دول إسلامية مغربية، تتنازع النفوذ وتتزاحم على الاستحواذ على هذا القطر الهام، وهي: دولة بني حفص، شرقا، ودولة بني مرين، غربا، ودولة بني زيان بالأوسط، فكانت الحروب بينها طيلة قرن كامل². حينما تضاءل نفوذ بني عبد المؤمن الموحيدي، أسس جابر بن يوسف سنة 627هـ دولة بني عبد الواد وعاصمتها تلمسان، وأعلن استقلالها عن سلطة الموحدين سنة 633هـ على يد يغمراسن العظيم، هذا الأخير الذي كانت تنازعه في الشرق الدولة الحفصية التونسية (625-981هـ/1228-1574م)، وفي الغرب الدولة الموحدية المراكشية، وفي نفس مملكته تزاخم بعض القبائل الوطنية، فاستطاع بحنكته وسياسته أن ينجوا من كيد هؤلاء كلهم... ولما تأسست دولة بني مرين في المغرب الأقصى بعد موت يغمراسن سنة 681هـ، واستيلائها على تلمسان عنوة في عام 737هـ انتهت بذلك دولة بني عبد الواد. لكنّ حُكم المرينيين لتلمسان لم يدم طويلا، فما هي إلا 23 عاما حتى جهّز أبو موسى حمو سنة 760هـ جندا عربيا من تونس، ووثب على تلمسان وأعاد ملك بني عمه ونشأت بذلك دولة بني زيان³.

¹ انظر: نوال علي: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في عهد الدولة الوطاسية، مرجع سابق، ص 323.

² الجليلي، عبد الرحمان: تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1385هـ/1965م، ج2، ص7.

³ المدني: كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 28-29-30.

لم تكن تلمسان بأحسن حال من المغرب؛ فقد كان بنو زيان بتلمسان يعيشون صراعاً شديداً فيما بينهم على السلطة¹، أهلكوا بهذا الخلاف البلاد والعباد، "وقد كانت الدولة الحفصية كثيرة التدخل في أمر مملكة تلمسان؛ وكانت لا تتدخل إلا لنصرة أخ على أخيه أو قريب على قريبه وكان بعض ملوك الزيانيين إذا اشتدت عليهم الأزمة يلتجئون إلى قبيلة بني عامر فتحميهم وتنصرهم"².

وامتدّ النزاع وحب السيطرة على تلمسان إلى الدول المجاورة، شارك فيها المرينيون بفاس، والحفصيون بتونس؛ حيث أنّ سبب هذا الصراع، نزاع بين السلطان المريني أبي سعيد، والسلطان الحفصي أبي فارس صاحب تونس، ويرجع ذلك إلى خلاف نشب بين أبي فارس الحفصي، وبين أعراب إفريقية، فاستنجدت طائفة منهم بالسلطان المريني بفاس، على صاحبهم أبي فارس، فألفوا أبا عبد الله محمد بن زكريا الحفصي عنده، حيث تمرد هذا الأخير على أبي فارس ولجأ إلى فاس، فأمر لهم السلطان أبو سعيد بجيش تحت إمرة أبي عبد الله، لكنّ أبا فارس تغلب عليه وقتله، وبعث برأسه إلى فاس، تشفيًا ونكاية بأبي سعيد، وهذا سنة 812هـ، ورغم هذا لم يكتف السلطان أبو فارس بهذا، بل استولى على تلمسان، ثمّ قصد فاس، يُريد الانتقام من أبي سعيد، إلّا أنّ السلطان المريني جنح إلى السلم، فأرسل إلى أبي فارس هدايا جلييلة، حظيت بالقبول لدى السلطان الحفصي وقفل راجعا إلى حضرته، ولحقته في طريقه بيعة أهل فاس، وانتظم له ملك المغرب وبايعه صاحب الأندلس أبو عبد الله محمد الباجي³.

بعد أن عمّرت مدينة تلمسان أكثر من ثلاثمائة سنة، بدأ تهالك أمراء بني زيان على الملك يستشري فيهم، وغرّتهم مظاهر النعيم والجلال التي فيه، وأصبح بعضهم ألوبة في أيدي الطامعين من الإسبان، وكان هذا الأمر إيذانا ببداية أفول هذه الدولة وسقوطها⁴.

¹ هذا التطاحن العائلي على الملك والسلطة شمل كل أسرة من أسر: المرينية والزيانية والحفصية، فكان الابن ضد أبيه والأخ ضد أخيه وابن العم ضد ابن عمه وهكذا. وكان العامة حطبا لنار التآمر والعداوة، ولذلك كثرت الحروب وسادت الفوضى وغاب الأمن، وقد أشارت إلى ذلك المصنفات التي عاصرت هذه الأحداث، مثل: نوازل المازوني، ومعيّار الونشريسي، والفارسية لابن قنفذ. (انظر: سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص41).

² انظر: المدني، أحمد توفيق: كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص31.

³ انظر: الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج4، ص94.

⁴ انظر: المدني، أحمد توفيق: هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، لا.ط، 1956م، ص65-66.

وقد اشتهر في هذه الدولة من أعلام الأدب ورجال العلم العدد الكثير، وقد ألفت فيهم عدة كتب، أهمها: كتاب "البستان" لابن مريم التلمساني (ت 1020هـ)، وكتاب "الدرر والعقيان" للتنسي التلمساني (ت 899هـ)، وكتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" لأبي زكرياء يحيى بن خلدون (ت 788هـ)، ومن الأعلام: المفسر الكبير محمد بن مرزوق التلمساني (ت 842هـ)، والعالمين المؤلفين: أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني (ت 914هـ) ومحمد بن يوسف السنوسي التلمساني (ت 895هـ)، وأديب الجزائر الأكبر: أحمد المقرئ التلمساني (ت 1041هـ)، صاحب ديوان نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وغيرهم كثير¹.

3- الجزائر

إنّ الحدود السياسية لجزائر القرن التاسع -وهو عصر الشيخ زروق- لم تكن مضبوطة وثابتة، وكلمة الجزائر عندئذ لم تكن تطلق إلا على مدينة ساحلية صغيرة قليلة الأهمية، ولم تكن تعني بأية حال القطر الجزائري المعروف الآن. فالجزائر بهذا المصطلح لم يُعرف إلا في العهد العثماني، أي منذ القرن العاشر الهجري. وقد كانت الجزائر آنذاك منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين، ومن ثمّ كانت منطقة صراع دائم بينهما. وكان الصراع والتنافس يصل إلى المرينيين أيضاً؛ وهكذا وصلت جيوش المرينيين في بعض الأحيان إلى الحفصيين البعيدين في تونس والزاب وقسنطينة، كما وصلت جيوش الحفصيين إلى المدية ومليانة وتلمسان².

وهناك رسالة لعبد الرحمان الثعالبي (ت 875هـ)، قام بدراستها الدكتور سعد الله أبو القاسم -رحمه الله- في كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر"، وأوضح من خلالها تدهور الأوضاع السياسية في وسط البلاد، وكذا ضعف القادة السياسيين وأهمية دور العلماء والمرابطين في قيادة العامة في الحروب ورد غارات الأجانب. وأشار الدكتور سعد الله أنّ الرسالة الموجهة إلى أحد علماء زواوة أشارت إلى كلّ ذلك، وخصوصاً ما تعلّق ببجاية وسهل متيجة. كما أنّ الثعالبي في رسالته لم يُشير إلى أمير أو سلطان، بل كان يهيب بالعلماء أن يتحمّلوا مسؤولياتهم أمام الله والناس؛ لصدّ غارات العدو أو بني الأصفر كما يُسمّيه³.

¹ انظر: المدني، أحمد توفيق: هذه هي الجزائر، مرجع سابق، ص 66-67.

² انظر: سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج 1، ص 40.

³ انظر: المرجع نفسه، ج 1، ص 43.

وقد انعكست هذه الاضطرابات السياسية وسوء الأحوال المعيشية انعكاسا سلبيا على الحياة الثقافية؛ فחסرت الجزائر قامات علمية وازنة، أمثال: أحمد بن يحيى الونشريسي، الذي هاجر إلى فاس لأسباب سياسية. كما هاجر المفكر محمد بن عبد الكريم المغيلي من تلمسان إلى السودان القديم، وهناك من اتخذ من المشرق دارا ومستقرا وتوفي به، أمثال: محمد المشدالي البجائي وأحمد بوعصيدة البجائي وأحمد بن يونس القسنطيني ومحمد بن أحمد المعروف بابن سعد التلمساني، وغيرهم. بينما انحاز عددٌ من العلماء إلى السلاطين، أمثال: ابن القنفذ، الذي ألف كتاب " الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" للسلطان أبي فارس الحفصي، ومحمد التنسي، الذي ألف كتاب " نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان" للسلطان أبي عبد الله محمد بن أبي تاشفين الزياني. بينما اختار جُملة من الصلحاء والعلماء حياة العزلة والتصوّف، من أمثال: عبد الرحمان الثعالبي وتلميذه أحمد الزواوي الجزائري، ومحمد بن يوسف السنوسي¹.

وفي سنة 911هـ، أي بعد وفاة الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- بضع سنوات، دخل الأسبان إلى وهران، ومنها بدؤوا غاراتهم نحو الدّاخل، ثم احتلّوا بجاية سنة 915هـ، وطرابلس سنة 916هـ، وتونس سنة 941هـ؛ وكان هذا الاحتلال أفظع وأبشع احتلال عرفه التاريخ؛ إذ ارتكبوا من المذابح والنهب وانتهاك الحرمات ما يعجز عن وصفه القلم ويحجل من ذكره الفم². فأدّى كلّ هذا إلى تدهور الحالة الاجتماعية والاقتصادية، وتقلّص طرق التجارة الخارجية، بعد السّيطرة على مراكز المبادلات التجارية، من المدن والموانئ³.

المطلب الثاني: الواقع الاجتماعي

إذا ما تتبعنا كتب التراجم التي ذكرت ترجمة الشيخ زروق، فإنك تلاحظ أنها لم تركز ولم تسلط الضوء على الحياة الاجتماعية بمصراته، البلد الذي استقرّ فيه الشيخ في آخر حياته، وإن كان الأستاذ علي فهمي قد ذكر أنّها - خاصة ميناءها قصر أحمد- كانت مَعبرًا ومَحطّة مُهمّة لقوافل الحجيج، القادمين من شمال إفريقيا قبل دُخولهم صحراء بَرّة الموحشة في طريقهم إلى الأراضي المقدسة، وقد

¹ انظر: سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج 1، ص 44.

² المدني: كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 32.

³ انظر: المنوني، محمد: ملامح من تطور المغرب في بداية العصور الحديثة، مكتب الدراسات، جامعة تونس، لا.ط، د.ت، ص 773.

ازدهرت علاقتها التجارية مع البندقية وجنوة بالقرن التاسع الهجري، وكانت مصراته تُصدّر الصوف وزيت الزيتون والملح، وتستورد الحرير والبضائع المتنوعة من أقطار بعيدة في داخل إفريقيا وغربها¹. وقد قال عنها الحسن الوزان أو ليون الإفريقي، الذي زارها في بداية القرن السادس عشر الميلادي - بعد وفاة الشيخ أحمد زروق - فكتب يقول: "إنَّ هذا الإقليم... يحوي قرى كثيرة في السَّهل وعلى الجبال². وسكَّانه أثرياء ولا يدفعون خراجًا على الإطلاق"³، أمَّا الحالة الاجتماعية بفاس، ففي عام ولادة الشيخ زروق 846هـ، "كان هناك وباءٌ عظيمٌ بالمغرب، هلك فيه جمعٌ من كبار العلماء والأعيان والعامة، ويُسمَّى هذا الوباء عند أهل فاس بوباء عزونة"⁴.

وقد كانت فاس في عصر زروق - رحمه الله - متميِّزة بكثرة الزوايا التي أنشئت من أجل التدريس، ومُحاربة البدع والضَّلالات التي انتشرت في عهد زروق بشكل فاحش⁵، زيادةً على ظُهور الزندقة والإلحاد، ومن بين الأدعياء الذين كانت لهم يدٌ طولى في نشر الفساد والإلحاد، عمرو بن سليمان السيف⁶، مُدَّعي النبوة ونزول الوحي إليه إلهامًا، وبسبب هذا وأمثاله استشرى الفساد في البلاد وانتشرت المنكرات، ممَّا أدَّى إلى تحرُّك العلماء لسانًا وقلمًا، فنشطت الحركة الفكرية نشاطًا ملحوظًا، وخاصةً في المجال الفقهي والأصولي والتصوُّف. فامتلأت المساجد والزوايا بطُلاب العلم والمدرِّسين، من هذه الزوايا تكوَّن زروق،

¹ انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، هامش ص 58.

² وهو يقصد الكشبان الرملية؛ إذ المعروف أن مصراته تقع في سهل غير ذي جبل، وبسبب من هذه الكشبان تدعى مصراته أحيانًا ذات الرمال. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، هامش ص 58).

³ انظر: ليون الإفريقي: وصف إفريقيا، مرجع سابق، ج 2، ص 111.

⁴ انظر: الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج 4، ص 101.

⁵ ولذلك ألف الشيخ زروق كتابه "عُدَّة المريد الصادق"، لما كثرت البدع والخرافات والخزعبلات، فانتقد بشدَّة هذا الانحراف في سلوك هؤلاء المتصوفة المبتدعين.

⁶ كان ابتداء أمره تلميذًا لدى الشيخ الجزولي صاحب دلائل الخيرات، ويقال له المريدي، وكان يتردّد على شيخه ويأتيه بالوُح فيها كلام منسوب إلى الخضر عليه السلام، فلا يقول له في ذلك شيئًا، غير أنه أثنى عليه مرات كثيرة، ولما مات الجزولي سنة 870هـ، ثار عمرو مُظهرها الطلب بثار الشيخ والانتقام ممَّن سمّوه من بعض فقهاء عصره، وتبعهم حتى قتلهم، ثم صار يدعو الناس إلى الصلّاة ويقاتلهم عليها، فانتشر أمره وشاع ذكره، ثم أصبح يدعو الناس إلى نفسه، وسَمَّى أتباعه المريدين، وما أخرى أن تُفتح الميم كما قال زروق (نسبة لمردة الشياطين)، وجعل يقتل المنكرين عليه، ويتفوّه بالمغيبات، وربّما ادّعى النبوة، وأخرج شلو الشيخ الجزولي وجعله في تابوت وصار يُقدِّمه بين يديه في حروبه، وقاد الجيوش، وسفك الدماء، واستمرَّت فتنته في النَّاس عشرين سنة من 870 إلى 890هـ! (انظر: الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج 4، ص 122).

ومن هذه الأحداث اكتسب العلم والتقد، فصار عالماً ناهضاً، اندمج في سلك العارفين المميزين الذين كانوا يحظون بعناية فائقة عند ملوك بني مرين وبني وطاس، أبلغ من مرتبة الوزراء¹.

ومن المظاهر الدالة على انتشار الخرافات والأساطير والقصص المختلقة التي تُجَدِّد الخوارق وتحتفي بها، ومدى تمكن هذا كله في المجتمع، أنَّ الشيخ أحمد زروق - كما يذكر ابن عسكر الشفشاوني - اتفق له أنه دخل على شيخه الزيتوني في خلوته، وكان رجلاً أعمى، فرأى عنده امرأتين جميلتي الصورة، إحداهما عن يمينه، والأخرى عن شماله، وهو يلتفت إلى هذه تارة، ويُقبِّلُها، ويلثم الأخرى تارة، فقال أبو العباس زروق: إنَّ هذا الرجل من الزنادق، وولَّى راجعاً، فنادى به الشيخ الزيتوني: يا أحمد الكذاب! ارجع! فرجع فلم يجد معه أحد، فعلم أنه امُتْحَن². وعند صاحب كتاب "طبقات الشاذلية الكبرى"، فقال له الأستاذ: اذهب يا يهودي! فخرج من عنده، فكأنه ألقى عليه سمة اليهود، فصار يبكي، ويتضرع إلى الله تعالى، ومشى إلى بعض أحبابه، فسأله أن يمشي معه إلى الأستاذ، ويستعطفه، فمشى معه إلى الأستاذ، فاستعطفه، فعطف عليه وقبله، وقال له: بشرط أن لا يجلس معنا في بلاد أنا فيها، ثم التفت إليه وقال له: يا زروق المرأتان اللتان تشبَّهتا عليك فهي الدنيا والآخرة، فالدنيا تريد إقبالي عليها، والآخرة تريد إقبالي عليها، وأنا لا ألتفت إلى قولهما!!³.

ولا يخفى على كل ذي لبِّ حصيل وعقل سليم اختلاق هذه القصة، ويبدوا أنَّ القصة الصحيحة يرويها أحمد زروق بنفسه، وهي أنَّ الزيتوني أنبأه مرّة بسرِّ مآ، وطلب إليه أن لا يُفشيهِ لأحد، ثم اتَّهمه من بعد أنه فعل؛ جاء في الكُنَّاش: "وفي ما وقع للشيخ الزيتوني أن قال: عبيد سلطانين جديدين⁴! ثم استكتمني إياها، وكتمتها. ثم إنه قال لي: سمعتك تقولها لفلان، فحلفت بكلِّ

¹ زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص6.

² انظر: ابن عسكر، محمد الحسني الشفشاوني: دوحة الناشر لمحسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب، ط2، 1977م، ص48-49.

³ الكوهن الفاسي، الحسن بن محمد بن قاسم: طبقات الشاذلية الكبرى، تحق: مرسي محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 2005م، ص118.

⁴ إشارة إلى ما سيطر على الملك بالمغرب من تعاقب سلطانين جديدين غير السلطان القائم على الحكم آنذاك؛ وهو عبد الحق المريني. وكلام الزيتوني: إما أن يكون على سبيل الكشف، أو أنه كان على علم بما كان يدبر في الخفاء ضد السلطان عبد الحق؛ وهذا هو الراجح. ولما كان زروق مقرباً من شيخه الزيتوني، ومحل ثقته؛ فقد أطلعه على هذا السر الخطير، وهو التخطيط للخروج على عبد الحق. (انظر: زروق: فوائد من كنش، مرجع سابق، هامش ص61).

يمين، فلم يقبل مّي، فلم أقدر على تكذيبه، ولا صحّ عندي تصديقُه؛ لما أعلم من نفسي. فكنتُ أجوز أنّ الله ابتلاني بشيطان أسمعَه ذلك"¹.

وبمضي الشيخ زروق -رحمه الله- يسرّد بحسرة ما وقع له بعد غضب شيخه عليه، قائلاً: "ثمّ ضاقت عليّ الأرض بما رحبت. فخرجتُ لزيارة الشيخ سيدي أبي مدين (التملساني)، وكنتُ أجدُ في زيارته نفس الرّحمة وخطاب الحال... ثمّ مضيتُ إلى تلمسان، فوصلتُ يوم تاسع وثلاثين تاريخ الخروج من فاس، فقلتُ: اليوم أزورُ الشيخ أبا مدين. فلم أقدر على ذلك إلّا من الغد... بقيّة الأربعين يوماً المذكورة في الرؤيا. فررتُه، وفتح الله بما فتح"². هذه الرؤيا التي يتحدّث عنها زروق جاءته في أثناء سياحته تلك. وهو يحكي أنّ الرّيتوني ظهر له في المنام وقال له: "إنّك مسجونٌ أربعين يوماً"³.

وكان الجوّ السائد إضافةً إلى انتشار الخرافات، كثرةُ القُصّاص في عصر الشيخ زروق؛ وهو ما حكاه هو عن نفسه أنّه جلس إلى أحد القُصّاصين في سوق المدينة، يستمع إليه في شغف وانتباه كعادة كلّ الصّبيان، فرآه عمُّ جدته، فغضب منه ونهره، وقال له: "إنّما يجلس هنا من لا خير فيه"، فامثل الأمر ولم يُعد إلى ذلك⁴.

وقد كان النّاس يعتمدون في معاشهم على الأعمال الحزّة، كالحرف والصنائع، ومنها الحياطة، والخرازة: فقرّرت جدّة الشيخ أحمد زروق أن تُرسله ليتعلّم الخرازة إثر مشورة أحد أقاربه، وقد تعودت الجدّة أن تُعيد على مسمع حفيدها كلّ يوم: "لا بُدّ من تعلّم القراءة للدين والصّناعة للمعاش"⁵، حيثُ كان يذهب لتعلّم الخرازة ثلاث مرّات في الأسبوع⁶.

¹ زروق، أحمد: الكناش صور من الذكريات الأولى، تحق: علي فهمي خشيم، منشورات الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، الجماهيرية الليبية، 1980م، ص28.

² زروق: المرجع نفسه، ص31، 28.

³ خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص38.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص32.

⁵ زروق، أحمد: فوائد من كناش، تحق: محمد إدريس طيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لا.ط، 2011م، ص36. وهذه القاعدة كانت معمولاً بها في عائلة الشيخ أحمد زروق؛ فخال جدته الشيخ الفشتالي، كان ينجر أعواد السرج ولذلك سُمّي بنور الله، والفقير العبدوسي كان يصنع الخوص، ويسلمها لمن يبيعها له، ويقتات من ثمنها، وأم هانيّ العبدوسية كانت تصنع السباني، وهي أقمشة مطرزة لغطاء الرأس، وزوج جدته الفقيه الوزروالي، كان يستثمر ماله بالزراعة وتربية المواشي، ولذلك سمي أبو العجل... إلخ.

⁶ انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص32.

وقد ازدهرت التجارة ازدهارا كبيرا، وخاصة مع البرتغال والإسبان بالشمال المغربي: من بيع للزروع والغلال والفواكه والماشية والمنتجات الصناعية، وهذا رغم الحظر الذي كان يفرض أحيانا على ذلك من طرف السلطة¹.

وكانت بعض العادات الموروثة من الدين مُستحكمة في الناس، وذلك من قبيل المحافظة على التقاليد الدينية، ومنها: أن للنساء حُرمة واستقلال عن الرجال، فلذلك فإن الشيخ زروق لما صبح يديه وقدميه بالحناء، أنكرت عليه أخت الفقيه العبدوسي، أم هانئ العبدوسية (أمهاني)، وأثبتته كثيرا، لأنه ارتضى لنفسه شيئا خاصا بالنساء، فامتنل ولم يصبغ بعد ذلك أبدا².

هذا وقد تميّزت الحياة الاجتماعية في عصر الشيخ زروق بتلاحم الأسر، وقيامها على العصبية القبلية، وكذا ارتباطها بأراضيها بالبادية؛ لأنها مصدر قوتهم ورزقهم، فيما تُخرج الأرض من ثمار وزروع وخيرات، يبيعونها ويقتاتون من ثمنها³.

وعن الحياة بالمدن المغربية، وطبيعة كل مدينة وسجاي أهلها، سجّل ابن الخطيب ذلك كله في كتابه "معيّار الاختيار"، وجاء وصفه دقيقا لأنماط الحياة الاجتماعية بعدد من مدن المغرب المشهورة، فوصف أهل "سبتة" بالتكلف في الولائم وشدة الاقتصاد، حتى أنهم يمتصّون البلالة مصّ المحاجم، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم، وأنهم يفاخرون بمدنيتهم غاية المفاخرة... وعن أصيلا قال: هي كثيرة المرافق، أرضها خصبة، ويستعملون الإدام بكثرة، وسكّانها براءة، وقد كانت مركزا للتجار الأجانب، وكان يُباع بها الملف والتوابل، فضلا عن مصيدها الغزير السمك. وقال عن "سلا" إنها جامعة بين البداوة والحضارة، وأنها معروفة بالقطن والكتّان، ومعروفة بأسواقها، وخصوبة أراضيها...⁴.

والذي يعنينا أكثر في وصف المدن الذي جاء في كتاب "معيّار الاختيار"، مدينة الشيخ زروق الفاسي، وهي مدينة فاس، فقد وصفها ابن الخطيب: بعرين أسود بني مرين، بلد المدارك والمدارس، والمشايخ والفهارس، وأسواقها ممتلئة بالخيرات وصنوف الثمرات، تمتاز نساؤها بالحسن، ويكثر فيها الخشب والرقيق،

¹ طيب: الشيخ زروق محتسب العلماء والأولياء، مرجع سابق، ص 97.

² خشيم، علي فهمي: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 32.

³ انظر: طيب: الشيخ زروق محتسب العلماء والأولياء، مرجع سابق، ص 96.

⁴ انظر: الخطيب، لسان الدين: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحق: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، ص 146، 152، 150.

وجيّد الدقيق، ووفرة الإدام، وتعدّد الخدام، وكثرة المساجد والجوامع. وذكر أنّ حرّما شديداً، وأهلها متحايلون، ووصفها بفاس الجديدة "المدينة البيضاء" وبأنّ أهلها يرون لأنفسهم مزيّة الفضل، يلقي الرجل أبا مثواه فلا يدعوه لبيته، ولا يسمح له ببقوله ولا بزيتته، فلا يطرق الضيف جِماهم...¹.

وبعد سقوط غرناطة وتوافد الناس إلى المغرب وكان من ضمنهم عدد كبير من اليهود، كما أسلفنا الذكر، انتشرت عادات كثيرة سيئة؛ "خاصّة في بعض المناطق النائية، والبعيدة عن العاصمة، والتي لم يصلها إلّا النزر اليسير من التقدم الحضاري، ففي مناطق الأطراف يَحْفَت بصفة عامّة الضحّ الحضاري وتسودُ الهمجية، وتنتشر اللصوصية²، ولذلك كثرت البدع والدعاوى الباطلة، وامتنطى المغرّضون هذه الموجة لخدمة مصالحهم، مُدّعين الكرامة والولاية"³.

وقد ذكر أحمد بن عرضون (ت 992هـ) وهو يُحدّر من التعامل مع اليهود، أنّ اليهوديات كنّ يُفمن بتعليم الحياكة للفتيات المسلمات، وكُنّ يدخلن بيوت المسلمين من أجل ذلك... ونظرا لسوء الحالة الإقتصادية فقد كنّ ينتهزن حالة العوز من أجل مزيد من الإثراء، وذلك عن طريق قيامهم بالمعاملات الربوية، وقرض النقود بفوائد باهضة⁴.

وكنا قد أسلفنا الحديث عن العادات السّمجّة، والتي تنافي مبادئ الدين الإسلامي؛ من شرب الخمر والزنا والتواكل والتماس البركات من الموتى بالقبور، وغيرها من العادات التي انتشرت في المناطق التي احتلها البرتغال. فنهض لهذا بعضُ الفقهاء المعاصرين، الذين كان لهم يدٌ مُتفضّلة في الإصلاح والإرشاد ووعظ الناس، وإرجاعهم للجدّة وهدي السلف وأخلاقهم.

¹ انظر: الخطيب، لسان الدين: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مرجع سابق، ص 172 وما بعدها.

² هناك دراسة علمية، بعنوان: اللصوصية وقطع الطرق ببلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، للباحث: يونس شكير، وهي عبارة عن أطروحة دكتوراه في التاريخ، مختبر التاريخ والمجتمع في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بالقنيطرة، السنة الجامعية: 1442/1443 - 2021/2020. وجعلت من أسباب هذه الظاهرة ضعف الدولة وعدم استقرارها.

³ انظر: نوال علي: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في عهد الدولة الوطاسية، مرجع سابق، ص 330-331.

⁴ نقلا عن: البكوري، معاذ: قبائل غمارة: قراءة في الجبال والتراث، دار الكتب، 2017م، ص 113-114. (بن عرضون، أحمد أبو العباس: مقنع المحتاج في آداب الأزواج، مخطوط بالمديرية الملكية للوثائق، الرباط، تحت رقم: ك 1026، ص 173).

ومن الذين كرّسوا حياتهم لمحاربة البدع والأهواء: الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي (ت 963هـ)، والمعروف بالهبطي الكبير، فقد كان ذا شكيمة شديدة في محاربة وفضح عوارث المبتدعة، والتنديد بالفرق الضالة التي مخرت عباب مجتمعه، وله في ذلك منظومة "الألفية السنية في تنبيه الخاصة والعامة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية"، وقد استنكر فيها ما ساد من بدع وعادات سيئة منافية للأخلاق والشرعية كالاختلاط بين الجنسين، والاستهتار بالمحرمات¹.

وكرّد فعل على هذه الحالة الاجتماعية الفضيعة، تدخّلت الطُّرق الصُّوفية السّنية من أجل تصحيح المسار، وإرجاع النَّاسَ لدينهم وعقيدتهم، وربطهم بالأسوة الحسنة المتمثلة في السلف الصالح. فكانت طريقة الإمام الجزولي محمد بن سليمان السملالي الحسني (ت 870هـ) دفين مراكش، وكان من تعاليمه لأصحابه تعريفهم بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، وأيضاً الطريقة الزُّروقية، لصاحبها الإمام الشيخ أحمد زروق. ولم يقتصر هؤلاء على التبصير الديني فقط، بل قدّموا الرّعاية الاجتماعية للطبقات الدُّنيا في المجتمع، وقاموا بحماية المظلومين وإيواء الفقراء وأبناء السبيل، وكانت مواردهم للصّرف على ذلك من أموال النذور والهدايا وغيرها².

المطلب الثالث: الواقع الثقافي

في العصر المريني، أقرّ المغاربة المذهب الأشعري بعدما استبعدوا منه الأفكار الشيعية التي أضافها مؤسس دولة الموحّدين المهدي بن تومرت³. ومن أهمّ الكتب التي كانت تُدرّس في العصر المريني في مجال العقيدة: عقيدة الرسالة القيروانية، والمرشدة لابن تومرت في الأقسام المتوسطة، وكتاب الإرشاد لإمام الحرمين الجويني في الصُّفوف النّهائية. أمّا المذهب الفقهي فقد كانت السيطرة للمذهب المالكي على ميدان العبادات والتشريع والقضاء؛ كما كان في العهد المرابطي، وعادت كتب الفروع في

¹ الهبطي، عبد الله بن محمد: رسائل التوحيد والهيللة، تحق: خالد زهري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، لا.ط، 2002م، ص13.

² انظر: نوال علي: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في عهد الدولة الوطاسية، مرجع سابق، ص324-325.

³ يقول الدكتور عبد المجيد النجار، أنّ ابن تومرت كان واضح التأثير بالأفكار الشيعية المتمثلة في الإمامة وما يتبعها من مهدية وعصمة، ولكن ابن تومرت له آراؤه الخاصة في كل هذه المسائل؛ فترتيب الأئمة عنده مُخالفٌ لترتيبهم عند الشيعة، والمهدي المنتظر الذي قال به يُخالف في شخصه المهدي الذي عند الشيعة، والعصمة التي شرحها تختلف عن تلك التي يقول بها الشيعة، ولذلك فإنّ تأثير ابن تومرت بالشيعة لا يعدّو أن يكون اقتباساً للفكرة العامة من المسائل المذكورة، أمّا التفاصيل فهي من إنشائه الذاتي الذي اقتضته الظروف السياسية. (انظر: النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، مرجع سابق، ص363).

الفقه (مختصر ابن الحاجب، شروح مختصر خليل، شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني... الخ)، لتفرض حضورها في حلقات العلماء بالمساجد والمدارس¹ الرسمية للدولة: جامع القرويين²، المدرسة البوعنانية³، مدرسة الصهريج⁴، مدرسة العطارين⁵، مدرسة البيضاء⁶... التي كانت تعيش على نظام الوقف الذي خُصص لها. حيث كان العلماء في البداية يتطوعون للتدريس بها بلا مقابل؛ في حين يشتغلون خارج أوقات الدروس بأعمال ووظائف معينة: العدالة، الكتابة، الوراقون، القضاء، أعمال ومهن حرة كالفلاحة والتجارة... أما الذين ليس لهم عمل؛ فيتقاضون رواتبهم من أوقاف المعاهد التعليمية؛ التي كان يُسند أمرها لقاضي مدينة فاس⁷.

إنَّ طريقة التدريس الجاري بها العمل آنذاك، كانت طريقة قائمة على الإلقاء والشرح؛ حيث يقوم أحد الطلبة النجباء بقراءة نصٍّ من كتاب مشهور في المادة المدروسة، ويتولَّى الأستاذ شرحه فقرة بعد فقرة، حسبما يتييسر له من غزارة حفظه وسعة اطلاعه، والطلبة يُقيِّدون في كرايسهم ما يسترعي انتباههم من شرح الأستاذ وأجوبته على أسئلة الطلبة⁸.

¹ لمزيد من الاطلاع على تاريخ المدارس في العهد المريني وظهورها وطرق تمويلها، انظر: أسكان: تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الدراسات والأطروحات، رقم 1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، لا.ط، 2004م، ص55.

² وصفه ليون الإفريقي بقوله: "وفي المدينة جامع عظيم يدعى جامع القرويين، توجد بداخله وعلى طول جدرانها الأربعة، سلسلة من الكراسي العلمية لمختلف الفنون: يتصدرها الفقهاء والأساتذة؛ لتثقيف الشعب والطلبة في شؤون الدين"، ويتعلق التعليم بالعلوم الأخلاقية والروحية المتصلة بالشرعية المحمدية. (انظر: ليون: وصف إفريقيا، مرجع سابق، ج1، ص224).

³ كانت بفاس، بناها السلطان أبو عنان ابن أبي الحسن المريني سنة 757هـ، وكان لها أوقافا كثيرة. (انظر: ليون: وصف إفريقيا، مرجع سابق، ج1، ص225. وزروق: شرح المقدمة القرطبية، مرجع سابق، ص32).

⁴ وهذه المدرسة كانت بفاس، بناها أبو الحسن سنة 721هـ، قرب مسجد الأندلس، وكان يومئذ خليفة لوالده. (انظر: زروق: شرح المقدمة القرطبية، مرجع سابق، ص32).

⁵ بنيت سنة 723هـ، في عهد أبي سعيد عثمان على يد الشيخ عبد الله بن القاسم المزوار بفاس. (انظر: زروق: شرح المقدمة القرطبية، مرجع سابق، ص32).

⁶ أو مدرسة فاس الجديدة، بناها أبو سعيد سنة 720هـ، وكان لها طلبة يرتلون القرآن وأحباسا كثيرة، وفي عهد العلويين حولت إلى معهد للتخصص العلمي. (انظر: زروق: شرح المقدمة القرطبية، مرجع سابق، ص32).

⁷ طيب، محمد إدريس: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، كتاب- ناشرون، بيروت- لبنان، ط2، 2008م، ص99.

⁸ زروق: شرح المقدمة القرطبية، مرجع سابق، ص35. وليون: وصف إفريقيا: مرجع سابق، ج1، ص227.

وقد كانت مدينة " فاس " دار علم ودين قديما وحديثا، وقد ذكر بعض المؤرخين أنها كانت تتوفر على عدد كبير من المدارس؛ كما قال ليون الإفريقي: " وفي فاس إحدى عشرة مدرسة¹ للطلاب، جيدة البناء... وتحتوي كل مدرسة على عدة حجر، في هذه مائة حجرة أو أكثر، وفي تلك أقل من هذا العدد، وكلها من تأسيس مختلف ملوك بني مرين..."².

وقد عرفت الحياة الفكرية والثقافية³ في العصر المريني، خصوصا في عهد أبي عنان، ازدهارا كبيرا. حيث تجلّت مظاهر الازدهار في:

1. بناء المدارس وتزويدها بالمكتبات، وقد كانت فاس تزخر بمكتبات ملحقة بالزوايا والمساجد والمدارس، تحوي على كتب في شتى الفنون، وفي هذا الصدد، ينقل عبد الهادي التازي في كتابه: " جامع القرويين " عن علي بن ميمون الغماري (ت 917هـ)⁴، وهو يصف حالة الدراسة بالقرويين، وحالة خزائن الكتب، وطريقة المطالعة: " وتأتي خزانة الكتب التي يطالع فيها طلبة العلم فيها ما يحتاج إليه المشايخ وغيرهم، كل واحد على ما يشتهي، وذلك لأن فاس المذكورة فيها خزانتان

¹ لم تكن فاس تعرف المدارس، إلى أن جاء قاضي الجماعة مفضل بن محمد الدلاي العذري، الذي يعتبر أول من سن سنة بناء المدارس بحضرة فاس. والذي كانت على يديه بناء مدرسة الصغار سنة 675هـ، وهي مدرسة بالحلفاويين قرب رجة البقر إلى قبلة من القرويين دشنها السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق. (انظر: أسكان، الحسين: تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط، مرجع سابق، ص 63-64).

² ليون الإفريقي: وصف إفريقيا، مرجع سابق، ج 1، ص 225.

³ أصبح مدلول النشاط الفكري أو الثقافي مرتبطا بكل رقي حضاري وازدهار فكري وتميز ثقافي، يجمع بين المادي والمعنوي والروحي، وتتكامل فيه فروع المعرفة، وهذا عند جميع العلماء على اختلاف معتقداتهم المذهبية وتوجهاتهم الدينية وتباين مشارهم ومدارسهم. (انظر: ابن شقرون، محمد: مظاهر الثقافة المغربية من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر، دراسة في الأدب المغربي، مطبعة الرسالة، الرباط، لا.ط، 1982م، ص 131).

⁴ أبو الحسن علي بن ميمون الشريف الحسني، تولى قضاء شفشاون في أيام الأمير علي بن راشد الأكبر، إلا أنه ترك القضاء وغادر المدينة متوجها نحو فاس، ودرس على أكبر شيوخها وعلمائها، وظهر في فنون كثيرة مثل الفقه واللغة العربية وغيرها، ثم تآقت نفسه إلى الزهد، فصحب الشيخ عرفة القيرواني وأحمد الدباسي ومن عنده توجه إلى المشرق. وهناك ذاع صيته وانتشرت طريقته فالطريق الميمونية بالمشرق كالطريق الشاذلية بالمغرب. ألف كتب كثيرة، منها: بيان غربة الإسلام بواسطتي صنفين من المتفقهة والمتفكرة من اهل مصر والشام وما يليهما من بلاد الأعجام. توفي ببلاد الشام عام 917هـ. (انظر: ابن عسكر: دوحة الناشر لحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، مرجع سابق، ص 28).

عظيمتان مشهورتان... كلّ خزانة فيها كتبٌ موقوفةٌ على طلبة العلم للمطالعة كلّ يوم... والكتب كثيرة لا تكاد تُحصى إلا بمشقة في كلّ فنٍّ من فنون العلم¹.

وقد ألف أبو الحسن علي بن ميمون كتاب "الرسالة المجازة في معرفة أحكام الإجازة" وكذلك ألف كتاب "رسالة الإخوان من أهل الفقه وحملة القرآن"، وضمّن كتابيّيه الحديث عن أيام دراسته بفاس، وكذا المنهج التعليمي المتبع آنذاك، وطريقة التحصيل العلمي المبنية على التداخل المعرفي بين العلوم عامة، وبين التوحيد والفقه والتصوف خاصة، ممّا جعله يُصدر حكمه وهو يقارن بين نظامي التدريس في المغرب والمشرق، بأنّ فاس هي أكبر حاضرة علمية في العالم².

2. اهتمام الملوك عموماً، على مرّ التاريخ، وملوك بني مرين في عصر الشيخ أحمد زروق بال مجال العلمي والثقافي؛ ويظهر ذلك من خلال بناء المدارس الكثيرة التي كانوا يهدفون بها إلى إحياء رسوم العلوم وتحديد العناية بالمنقول والمفهوم، وإرفاقاً لطلبة العلم وأرفادا وإعانة لهم على طلبه. كما أرادوا من وراءه استمداد القوة والدعم من خلال توقييرهم للعلماء والصّالحاء، الذين يُجلّهم ويحترّمهم الناس ويطيعون أقوالهم³.

3. اتّساع الحرّية في التفكير والاختيار؛ فبنو مرين لم يُلزموا أحداً من النّاس مذهبا عقدياً أو فقها معينا، فمن المعلوم أنّ الدولة المرينية لم تعتمد بالضرورة على دعوة دينية للوصول إلى الحكم، كما حصل مع الشّرفاء الأدارسة والمرابطين والموحدين. فإذا كانت جُلّ الدول المغربية المتعاقبة استندت في تثبيت مشروعيتها حُكمها على دعوة إصلاحية أو الانتماء إلى السّلالة النبوية، فإنّ بني مرين بادروا إلى القيام بمجموعة من التّدابير والإجراءات ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية⁴؛ لبناء قاعدة شعبية وكسب تأييد الناس لمشروعهم. "واعتمدوا على التّزعة القبليّة التي غدّوها بقوة عدّدهم وشِدّة عدّتهم،

¹ التازي، عبد الهادي: جامع القرويين، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1، 1973م، مج2، ص413.

² انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص751-752.

³ انظر: أسكان: تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط، مرجع سابق، ص70-71.

⁴ انظر: الصلابي: كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، مرجع سابق، ص67.

واستغلوا وضعيّة المغرب التي اهتزّت بعد هزيمة الموحّدين في معركة "العقاب"، وكذا انتشار وباء الطاعون الذي أزهد أرواح العديد من المغاربة، وعلى رأسهم جُند الدولة الموحّدية¹.

وقد كان بابُ الإجتهد مفتوحًا، إلّا أنّه في الغالب كان يدور في فلك الأقوال المعتمدة في المذهب المالكي، فالوضع الجديد الذي صنعه المرينيّون، من إطلاق العنان والحرية للناس للتعبير، واعتقاد واعتناق ما رغبوا في اعتناقه من المذاهب والأفكار، ساهم في عودة الفقهاء إلى بحث الفروع ووضع المطولات والمختصرات على نطاق جدّ واسع، كردّ فعل اتّجاه الكبت المذهبي الذي لقّوه من سياسة حُكّام الدولة الموحّدية². وبدلًا على ذلك الكتب المعتمدة آنذاك في التدريس: الرّسالة، مختصر خليل، المدوّنة، أو التقايد والشّروح التي وُضعت حولها³.

وقد قرّب المرينيّون إليهم العلماء والصلحاء، وساروا على نهجهم واكتسبوا منهم جملة من الصّفات التي تحدّثت عنها بإسهاب المصادر التاريخية، منها ما قيل عن عبد الحقّ الأول بن محيُو جدّ المرينيين (ت 614هـ): "كان في قبائل بني مرين مشهورًا بالتّقى والصّلاح والبركة، معروفًا عندهم بالورع، موصوفًا في أحواله وأحكامه بالعدل... وكانت له بركةٌ معروفة ودعاءٌ مستجاب"⁴، وقال عنه ابنُ أبي زرع: "وكان (عبد الحق بن محيو) في بني مرين مشهورًا بالتّقى والفضل والدين والصّلاح والبركة واليقين، معروفًا بالورع والعفاف"⁵. كما قاموا بمهمّة الجهاد في الأندلس، وسيّروا عدّة حملات لإيقاف الزحف المسيحي على المدن والقرى الأندلسيّة. وعلى مستوى آخر، أعاد بنو مرين تنظيم ركب

¹ بوانو، إدريس: ملامح الفكر المقاصدي في الخطاب الصوفي عند الشيخ أحمد زروق، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2012م، ص15.

² انظر: المرجع نفسه، ص16. نقلا عن: الجراري، عباس: وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1976م، ص9.

³ انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص103.

⁴ السيد، فؤاد صالح: معجم السياسيين المثقفين في التاريخ العربي والإسلامي، مكتبة حسن العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 1432هـ/2011م، ص376.

⁵ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مرجع سابق، ص285.

الحجيج بعد توقُّفه لسنين عديدة؛ من جرَّاء الأحداث الأليمة التي واكبت اضمحلال دولة الموحِّدين. واشتهر بنو مرين أيضا بتعظيم العلماء والشرفاء وتوقيرهم¹.

4. هجرة العديد من الأندلسيين إلى المغرب؛ فقد كانت القبائل العربية المسلمة بالأندلس مضطهدة، وكان الإسبان يتعمَّدون اضطهادهم من أجل تهجيرهم، فأثرت هذه الأسر الهجرة إلى المغرب بحثًا على الاستقرار بفاس؛ لأنها كانت عاصمة المغرب السياسية والعلمية، ولذلك حَفَلَتْ هذه المدينة بكثير من العلماء الأندلسيين المهاجرين الذين أثَّروا الساحة الفكرية والثقافية بفاس².

5. التَّلاقح الفكري والثقافي، الذي كان يتمُّ بين المغاربة والمشاركة عن طريق رحلات الحج، فقد ذكر عبد الحي الكتاني في تقريره لصاحب كتاب "دليل الحج والسياسة"، قائمة طويلة بمن رحل إلى الحج، واقتصر فقط على من اشتهرت رحلاتهم بين الناس، فَعَدَّ منها أربعين رحلة حجازية، ونفس الأمر قام به باحثون آخرون³، مما ينمُّ عن كثرة المغاربة الذاهبين إلى الحجاز، ولا عجب في ذلك، فالحجاز بلد مقدس تحتضن تربته أشرف الخلق جميعهم، والبيت الذي يتجه إليه كل المسلمين في صلواتهم، ولذلك تبَّيَّ المغاربة المذهب المالكي الذي كان صاحبه يستوطن الحجاز؛ فقد ذكر ابن خلدون في المقدمة بأنَّ رحلة المغاربة "كانت غالبا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يؤمُّذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصرُوا على الأخذ عن علماء المدينة. وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك"⁴.

وقد كان للرحلة نصيبٌ في حياة الشيخ أحمد زروق -رحمه الله-؛ طلبا للعلم على أصحابه والإجازة على أيديهم في فنون العلوم المتنوعة، وقد رحل الشيخ زروق إلى الحج سبع مرات⁵:

¹ عوني، موسى: دور الوقف في دعم الحركة العلمية بمدينة فاس خلال العصر المريني، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، العدد 404 صفر 1434هـ/ يناير 2013م.

² انظر: طيب، محمد إدريس: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص102.

³ انظر: المنوني، محمد: الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية وما إليها، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1398هـ/1978م، المجلد 29، ص150 وما بعدها. والجراري، عباس: مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية، مجلة المناهل، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط- المغرب، العدد 10، السنة الرابعة، 1397هـ/1977م، ص44-66.

⁴ انظر: ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ج1، ص568.

⁵ انظر: زروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، هامش ص29-30.

- سنة 874هـ، جاور بعدها بالمدينة المنورة. أُلّف خلالها شرحه الخامس على الحِكْم العطائية.
- سنة 875هـ، وسنة 884هـ حيث استغلَّ مجاورته بالمدينة المنورة ليُحجَّ مرّة ثانية وثالثة. أشار إلى هذه الحِجّة، والتي بعدها في شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني، عند تعرّضه للمبيت في منى ليلة التاسع من شهر ذي الحجة¹.
- سنة 885هـ، حيث استغلَّ مجاورته بالمدينة المنورة ليُحجَّ للمرّة الرابعة. سنة 888هـ، أشار إليها في خاتمة أرجوزته لعيوب النفس ومداواتها².
- سنة 894هـ، وهو ما أشار إليه شيخه السخاوي؛ إذ قال: "ولقيني بمكة في سنة أربع وتسعين، وصار له أتباع ومحبون"³. وقد أشار الشيخ زروق إلى هذه الحجة والتي قبلها في شرحه على الرّسالة⁴.
- سنة 895هـ، حيث استغلَّ وُجُوده بمصر- لما سافر إليها إثر بُلوغِه نبأ موت شيخه الحضرمي⁵- ليعود إلى الدّيار المقدّسة لأداء الحِجّة الأخيرة في حياته⁶.
- وفي أثناء رحلاته للحج، كان يُمُرُّ بمصراته وطرابلس، هذه الأخيرة التي سطرَّ في كتابه "الكناش" بعضًا ممّا استقرَّ في ذهنه عن مشاهير رجالها الذين عرفهم، وهو- أي زروق- ربّما استقرَّ في طرابلس لفترة من الزمان، إذ يوجد رجالان من علماء طرابلس يُعدّان ضمن شيوخ أحمد زروق، وهما: أحمد بن عبد

¹ انظر: زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1402هـ/1982م، ج1، ص354.

² انظر: زروق، أحمد: عيوب النفس ودواؤها وعلى هامشه عيوب النفس للسلمي، تحق: محمد طيب، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2010م، ص122.

³ انظر: السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مرجع سابق، ج1، ص222.

⁴ انظر: زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج1، ص354.

⁵ تاج الدين أبو العباس أحمد بن عقبة الحضرمي اليمني الشاذلي الوفاي. كان جامعا بين الشريعة والحقيقة، عالم بالزهد متصف، وعارف من بحر العناية يغترف، أخذ عن يحيى القادري بن وفا أقبل عليه أهل مصر، وأخذ عنه الأكابر، وهو شيخ أحمد زروق، وله مؤلفات كثيرة منها: صدور الترتيب. مات في شوال سنة 895هـ، ودفن بالقرافة الشاذلية الكبرى. (المنوي: الكواكب الدرية، ج3، ص138. وانظر: السخاوي: الضوء اللامع، مرجع سابق، ج2، ص5. الكوهن الفاسي: طبقات الشاذلية الكبرى، مرجع سابق، ص114).

⁶ زروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، هامش ص29-30.

الرحمن، المعروف بجلولو اليزليني¹، وعلي الخروبي الطرابلسي²، وكان صديقاً حميماً للشيخ زروق وصار ابنه محمد أحد أتباع الشيخ المخلصين له فيما بعد. وكان قريباً من آل الخروبي حتى إنه كان يتدخل في شؤونهم العائلية، إما في طرابلس أو في مصراته³.

إلا أنّ أهم العوامل في الازدهار العلمي في عصر بني مرين يرجع إلى استقلال الجوامع، والمدارس، والمساجد، والزوايا بأوقافها ومواردها المالية. حيث لم تكن هذه الموارد تتأثر كثيراً بضعف النفوذ السياسي، أو الموارد المالية للدولة الحاكمة، ورغم ضعف الدولة المرينية في آخر أيامها، فقد بقيت سوق العلم رائجة؛ لأنّ الطلبة والعلماء المعوزين كانوا يعتمدون في نفقاتهم على أموال الأوقاف التي كانت وفيرة⁴.

ومما يؤكد استقلال المدارس، قيام الفقهاء بمعارضة بنائها في بعض الأحيان؛ وهذه المعارضة ليست لفكرة بنائها في حدّ ذاتها، وإنما للحفاظ على طريقة تمويلها من المداخل المشبوهة كالمال المغصوب الحرام، ولذلك فإنّ أغلب الفقهاء المالكين وغيرهم لا يجيزون أحباس السلطان والحكّام؛ لأنّ ذمهم مستغرقة، ولكون أموالهم مغصوبة، والمورد الوحيد الحلال بيت المال في نظر الفقهاء آنذاك هو جزية اليهود، أو غنائم الروم، وهو ما يُفسّر لجوء السلطان المريني إلى صرف مرتبات المدرّسين من جزية اليهود⁵.

ولم يكن طلب العلم الشرعي في عهد الشيخ أحمد زروق موثقاً على الرجال وحدهم؛ بل نجد للنساء نصيباً وافراً منه، وهذا ليس بدعا من الأمر؛ بل يعدّ امتثالاً لما كانت عليه الصحابيات زمن النبي ﷺ من طلبهنّ للعلم والفقّه، وتخصيص وقتٍ لهنّ كالرجال، ولعلّ السيّدات: أمّ هانئ العبدوسية، وأختها

¹ أحمد بن عبد الرحمن بن موسى بن عبد الحق اليزليني، عرف بجلولو القروي، من الأئمة الحافظين لفروع المذهب المالكي، أخذ عن الإمام البرزلي، وابن عمر القلشاني، وابن ناجي، وأخذ عنه الشيخ أحمد زروق، وأحمد بن حاتم. كان قاضياً لطرابلس، له شرح لمختصر خليل وجمع الجوامع لابن السبكي وتنقيح القرائي وعقيدة الرسالة. توفي بعد 875 هـ. (انظر: التنبكي: نيل الابتهاج، مرجع سابق، ص 127. والزواوي، الطاهر أحمد: أعلام ليبيا، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 3، 2004 م، ص 81).

² والد الخروبي الصغير، الفقيه المشهور وتلميذ الشيخ زروق.

³ كان زروق هو الذي زوج الخروبي الكبير سيدة مصراتية، هي والدة الخروبي الصغير، وكان يرعى الأسرة بعد وفاة صديقه. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 59).

⁴ انظر: طيب، محمد إدريس: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 102.

⁵ انظر: أسكان: تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط، مرجع سابق، ص 65-66.

فاطمة، وأم البنين جدّة أحمد زروق خيرٌ مثال على ذلك، وقد كانت جدّة زروق رفيقةً لأمّ هاني، وأختها فاطمة الفقيهتين، بل كانت تربطهما علاقةً أُسرّة¹.

أمّا حالة التصوّف في عصر الشيخ أحمد زروق، فرغم الجهود الكبيرة والمضنية لأعلام التصوّف السنيّ، قصد تصحيحه وإرجاعه إلى أصله، فإنّه قد ابتعد كثيرا عمّا كان عليه من معاني المجاهدة والصبر والعمل الصالح، وانحرف عن طريق المتصوّفة الأوائل، الذين كان ميزانهم مع الشريعة، وهوامهم معها يميلون حيث مالت، لا يحيدون عنها قيد أنملة، وقد انغمس بعض أدعياء التصوّف في المللّات والشهوات والضلالات والبدع، ولذلك كانوا عُرضة للانتقاد والتتبّع من قبل بعض الفقهاء والمتصوّفة المصلحين، كأبي الحسن الصغير الزرويلي²، والوغلّيسي، وابن مرزوق. ومن أشهر العلماء وشيوخ التصوّف في العصر المريني، ابن عاشر، وتلميذه ابن عباد، وابن البنا التجيبي السرقسطي³، وأهمّ الكتب التي كانت مُقرّرة في التصوّف في العصر المريني: المباحث الأصلية لابن البنا، وشرح ابن عباد على الحكم، والبُرْدَة للبصيري⁴.

وقد ظهرت بعض الفرق المنحرفة والجماعات المتطرّفة، ومنها: الفاطميون، المهديون، العكازيون... ممّا دفع الفقهاء إلى التعرّض إليهم بالتشنيع وفضح ممارساتهم الخاطئة... " وقد تميّز عصر

¹ لقد أشار الشيخ أحمد زروق إلى ذلك في كُناشه. (انظر: زروق: فوائد من كُناش، مرجع سابق، ص43-44)، وعدّ الشيخ عبد الله كنون جدّة زروق من الفقيهات الواتي كُرنّ السند والمدرسة الأولى. (انظر: كنون، عبد الله: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، اعتناء: محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1430هـ/2010م، ج1، ص544).

² أبو الحسن الصغير الزرويلي، قاضي فاس، وفقه مالكي، جمع السجلّ ماسي بعض فتاواه في كتاب سماه: الدر الثمر في أجوبة أبي الحسن الصغير، وله تقييد على المدونة، كان يُضَيّق على الصوفية، ويُغَلّب كفة الفقهاء عليهم، بإيعاز من السلطان المريني أبي الربيع سليمان، لأنّ الصوفية أصبحوا ينازعون السلطان احترام العامة، ويقاسمهم موارد الأوقاف الحبسية. توفي سنة 719هـ. (انظر: الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج4، ص334. وطيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء، مرجع سابق، ص104).

³ ابن البنا السرقسطي، هو الشيخ الفقيه الصالح الولي الناصح أبو العباس أحمد بن محمد يوسف التجيبي، ينتسب إلى سرقسط، بلده بتخوم الجزيرة، كان أصل نسبه منها، ثم تقرر بفاس، وبها توفي. قال الشيخ زروق رحمه الله: لم أقف على تاريخ وفاته، غير أن الظن الغالب أنه قريب العهد. قال: ولم يكن مشهورا بالعلم، مع ما له فيه من القدم الراسخ الذي دل عليه كتابه، فعُدّ من عجائب مدينة فاس، إذ كان من عاينتها وألّف، كابن أبي زرة صاحب التاريخ. وابن البنا هذا غير صاحب الحساب، فإنّه ابن البنا الصوفي، الذي توفي بمراكش سنة 721هـ، كما ذكره صاحب الجدوة. (انظر: بن عجيبة، أحمد بن محمد: الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، تحق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، لا.ط، 2010م، ص6).

⁴ طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص100-101.

الشيخ أحمد زروق رحمه الله بتعدد الطرق والزوايا الصوفية، وقد كان انتشارها لافتا في العهد الوطاسي، ومكّن ذلك الانتشار من تعدد المنتمين إلى الزوايا، ممّا جعل بعض الناس الذين لا علاقة لهم بالتصوّف وأهله ينضمّون إليها، بسبب السُلطة والنّفوذ التي كانت للزوايا في تلك الفترة، والدور السياسي الذي كانت تؤديه في البلاد، الأمر الذي ساهم كثيرا في انتشار البدع والخرافات في التصوّف المغربي، بسبب هؤلاء المنتمين زورا إلى التصوّف، الذين كانوا يتّخذونه وسيلة للإثراء والاستغلال ونيل المجد والحظوة، فكانوا يُثقلون على الناس بالمغارم¹.

ولذلك لم يَعدِم هذا العصر من القرن التاسع الهجري علماء وصوفية، صدّعوا بالحقّ وقاوموا هذا الابتذال والتمسّح بالتصوّف، وبينوا أصول التصوف الصحيح المبني على الكتاب والسنة، ومن أهمّ هؤلاء الصّوفية الصّادعين بالحقّ: عبد الله العبدوسي، وعبد العزيز الورياغلي، والقوري²، والفشتالي، والثعالبي³، وغيرهم⁴.

إلا أنّ أهمّ من كرّس حياته للتنديد باتباع الطائفة الصوفية الضالة المبتدعة، والخارجة عن تعاليم التصوّف السنيّ السليم: تصوّف السلف الصالح، هو الشيخ أحمد زروق، وهو ناقدٌ من داخل دائرة الصوفية، حيث نجده يقول في انتقادهم: "وصوفية صوف بأغراض الدنيا موسومون، عظمت الدنيا في قلوبهم، فلا يَرون فوقها مطلبا، وصعُر الحقّ في أعينهم، فأعجلوا عنه هربا، حافظوا على السجادات والمرقعات والمشهرات والعكاكيز والسبحات المزينات، كالعجائز طغام، صبيان الأحلام، لا علم عن الحرام يرُدُّهم، ولا ورع عن الشبهات يصدُّهم، ولا زهد عن الرغبة في الدنيا يصرفهم..."⁵.

¹ انظر: حجي، محمد و توفيق، أحمد: موسوعة التراجم المغربية، جمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المملكة المغربية، 1435هـ، ج16، ص517.

² الشيخ العالم العلم العلامة المفتي الحجة الأنزه الحافظ المكثّر: أبو عبد الله محمد بن قاسم القوري اللخمي المكناسي، كان رحمه الله آية في التبحر في العلم والتصرف فيه، واستحضر النوازل وقضايا التاريخ، توفي سنة 872هـ، بمدينة فاس. (انظر: فهرسة ابن غازي، تحق: محمد الزاهي، دار المغرب، 1979م، ص70).

³ الشيخ الإمام حجة الإسلام العالم العامل الزاهد العابد الورع الصالح الولي الناصح: أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي الجزائري صاحب تفسير الجواهر الحسان وغيره من المصنفات العديدة والمفيدة. (انظر: السخاوي: الضوء اللامع، مرجع سابق، ج4، ص152).

⁴ انظر: القاسمي، عبد المنعم: أعلام التصوف في الجزائر، دار الخليل القاسمي، المسيلة- الجزائر، ط1، 1427هـ، ص40 وما بعدها.

⁵ زروق، أحمد البرنسي الفاسي: عدة المريد الصادق، تحق: الصادق الغرياني، دار ابن حزم، ط1، 2006م، ص274.

ونُقل عن الشيخ زروق، قوله في أدعياء التصوف: "ثم لقد تتبعتُ بفكري الطرق الإصلاحية الموجودة بأيدي الناس الآن، فلم أجد عند أهلها نفحة من فتح ولا نور، ولا حقيقة ولا علم ولا ذوق، ولا فهم خارج عن القياس الأول، إلا لذة نفسانية، غالبها من استشعار لذة الرئاسة، والالتذاذ بالامتياز، والاختصاص بالنسبة ونحوها! هذا ما وجدته في صادقهم، فأما غيره، فلم أر منه إلا لعبا ولهوا، وفخرا وكبرا وتعصبا"¹.

وما أدق وصف حال التصوف في هذا العصر، من متصوف خبر هذا العلم وتقلب في أحواله ومقاماته، وألف فيه وقعد الأصول والقواعد، فهو حقيق أن يُستنار بعلمه ويُؤخذ بقوله، ويُسترشد بما صنفه في هذا الباب من قبل القائمين على الطرق الصوفية؛ قصد تلافي الأخطاء والنهوض بالتصوف وتحسين صورته عند الناس.

إنّ المشهد المخزي الذي آل إليه التصوف زمن زروق، والذي شوّش على العوام، واستغلّ عواطفهم وجهلهم بدينهم، اقتضى أن يُبرم الله لهذه الأمة مُصلحاً عاملاً تقياً صالحاً، يُعيد للتصوف بهاءه وصفاءه ونقاءه، ويُرجعه إلى عهده ورونقه، ويربطه بأصوله، وينفي عنه الخبث الذي علق به، من شعوزات وضلالات وخرافات وأساطير، فكان لا بُدّ من ظهور (جُنَيْدِيَّ عصره)، فكان الرجل هو: الشيخ أحمد زروق عليه رحمة الله، الذي كان مُمارساً للتصوف عن حقّ، ومنتقداً لشطحات الصّوفية عن علم، ومُحارباً لغلّاتهم عن قُرب، فجاز تلقيه بـ "الجامع بين الشريعة والطريقة، ومُحتسب الصّوفية". هذا الرجل الشاذلي، أعادت كتبه ومُصنّفاته للطريقة الشاذلية صفائها، وأنتجت مدرسة إصلاحية شاذليّة زروقية قادريّة، عمّ نفعها البلاد والعباد، فكان قيامها بواجبها الإصلاحي الداخلي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أمام ضُعف السُلطة المركزيّة، وكثرة الأوبئة والمجاعات، وتسلّط الاحتلال الإسباني والبرتغالي على مساحاتٍ شاسعة وواسعة من بلاد المغرب².

ورغم أنّ المغرب في عصر الشيخ زروق، أواخر الدولة المرينية وبداية الدولة الوطاسية، كان يئنّ تحت وطأة الاضطرابات والقلق السياسي والاقتصادية، إلا أنّ الحركة العلمية بمدينة فاس، وخاصةً باديتها قبائل اجبالّة السُفلى، كانت تعرف نشاطاً فكرياً وثقافياً متزايداً، فازدهرت العلوم الإسلاميّة

¹ زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 71-72

² انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 106-107.

بها، وبخاصة الفقه، والتصوف، وتقدمت الفنون والمعارف، حتى أصبحت هناك نهضة علمية جبارة، لم يعرفها المغرب من قبل¹. ويكفي للتدليل على ذلك، الرجوع إلى كتب التراجم والتاريخ والفقه، مثل "الاستقصا" للناصري، و"رحلة الوزان"، المشهور بليون الإفريقي، وكتاب "جامع القرويين" للتازي، للتعرف على كبار العلماء والمفكرين والتابعين الذين برزوا في هذا العصر، والذين خرجوا من بادية اجباله السفلى².

وإذا اهتمت المساجد بالتكوين العلمي النظري للطلاب، ولخصوص الشعب المغربي آنذاك؛ فإن الزوايا كانت تهتم بتربية المريدin من طلاب النظري وعموم الشعب - من تجار، وصناع، وحرفيين - تربية صوفية تقوم على المجاهدة الروحية (التخلية ثم التحلية). ولقد عرف التصوف الشاذلي ازدهارا كبيرا بالشمال المغربي بعد اشتهاار عبد السلام بن مشيش، وتلميذه الشاذلي، لأتهما من قبيلة غمارة بشمال المغرب. وهذه الطريقة الشاذلية كانت تتوقر على فروع كثيرة بالمغرب، وكان هدفها إصلاح الأخلاق، وتطهير الإسلام مما علق به من الشوائب³.

المطلب الرابع: تأثير الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي في حياة الشيخ زروق

إن جولة بسيطة حول الواقع السياسي والاجتماعي والفكري، الذي كان في عصر الشيخ أحمد زروق رحمه الله، يظهر أنه لم يكن مواتيا ولا مساعدا لنُبوغ شخص، وتبؤته مكانة علمية رفيعة، " فالظروف كلها كانت معية للشيخ أحمد زروق رحمه الله، وكل رباحها معاكسة لميولاته، ومطبعة بطموحاته، ودافعة له للانزواء والاعتزال، والاستسلام لما يفعله ويربته له القدر الإلهي، وهذا شأن العظماء، ومن رحم المحنة تولد المنحة، ولذلك جاءت هذه النصيحة من شيخه الحضرمي كبلسم على قلب الشيخ زروق:

سَلِّمْ لِسَلْمَى وَسِرِّ حَيْثُ سَارَتْ*** وَاتَّبِعْ رِيَّاحَ الْقَضَا وَدُرِّ حَيْثُ دَارَتْ⁴.

¹ بن شقرون، محمد: مظاهر الثقافة المغربية، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1970م، ص131.

² انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص101-102.

³ المرجع نفسه، ص103.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص110.

ومعنى هذا البيت عند أهل التصوف، أن: "كلّ فعل من الأفعال مُتَحَلِّلٌ بالقدر حلوا كان أو مرًا إسلامًا أو كفرًا، ما من شيء في الوجود إلا وللقدر فيه يد، ولهذا استراح العارفون رضي الله عنهم من أثقال التدبير وتلذذوا بإسهام التقدير، وسلّموا أنفسهم لمولاهم ورضوا بما قدره لهم، فهم مع المقدّر لا القدر ومع المؤثّر لا الأثر، غائبين عن الخلق في شهود الملك الحق، يدورون مع الإرادة حيث دارت"¹.

وقد كان للخلاف السياسي والفقهّي تأثير كبير على حياة الشيخ أحمد زروق رحمه الله، وهذا لما عارض ابن بلدته الفقيه أبو فارس الورياكلي (الورياغلي)، رغم قرّبه منه، وعارض شيخه الزيتوني الشفشاوني أيضا، فهذا الأخير روى زروق سبب خلافه معه، وهو أنّ الزيتوني أسرّ له بأمر وطلب منه عدم إفشائه، ثمّ اتهمه بأنّه أفشاه؟ ويذكر حفيد الشيخ زروق، محمد إدريس طيب - بعد بحثٍ وتنقيبٍ وتحريٍّ في كُتُب كثيرة من قبله - أنّ السرّ، هو عزم الورياكلي والزيتوني خلع السلطان عبد الحق المربني، ومبايعة محمد الشيخ الوطاسي - الذي كان أحمد زروق يعارضه معارضة شديدة - ولسبب شرعي وموضوعي. فرأى الشيخ زروق - وقد وافق شيخه القوري في هذا الرأي - المستند إلى الفقه المالكي، عدم خلع السلطان ولو كان جائرا، ما لم يجاهر بمعصية، تجنّبا للفتنة لأنّها أشدّ من القتل، لذلك لما أفتى الفقيه الورياكلي بخلع السلطان عبد الحق، اعتزل الشيخ زروق الصلابة خلفه، وكان يقول مُعَقِّبا على ذلك: "لا آمن الغندور² على صلاتي"³.

وهو تأكيد على أنّ خلفيّة الصراع كانت سياسية بالدرجة الأولى، وما قصّة استوزار اليهوديين إلا ذريعة فقط لتأليب العامة وإثارتهم، وإثارة عواطفهم لكسب تأييدهم وولائهم، لأنّها وجدت مُتَكِنًا

¹ بن عليوه المستغامي، أحمد بن مصطفى (1353هـ): المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين بطريق الصوفية، تحق: عاصم إبراهيم الكيّلي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2009م، ص 64.

² الغندور كلمة إسبانية، معناها الصعلوك أو الفتى الجسور. وهذا يدل على أن أصل زروق من الأندلس، وهاجرت أسرته إلى فاس وباديتها. وقد قال الشيخ زروق عن الورياكلي: "الفقيه الخطيب البليغ الرئيس. كان جلدا في ذاته تعالى، صلبا في دينه، يلقي نفسه في العظام ولا يبالي". وقال عنه التنبكي: "كان فقيها خطيبا صاعقة الزمان، وعلى يديه كان القيام على عبد الحق المربني". (انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، هامش ص 111).

³ انظر: مرجع نفسه، ص 110

عند الناس؛ نظرا لجور الوزراء اليهود، وممارستهم العنف والظلم على العامة والخاصة من العلماء والصُّلحاء ببلاد فاس¹.

ولقد سطر الشيخ أحمد زروق رحمه الله معارضته للشيخين: الوريكلي والزيتوني، في كتابه "عدة المريد الصادق"، حيث يقول: "فقد كان ببلادنا رجلٌ من الصالحين يُحوم حول التعرض للأمور الجمهورية، كالجهد وردّ الظلامات وتغيير المناكر بطريق القهر والاقتدار دون يد سلطانية، ولا ما يقوم منها من المراتب الشرعية؛ وفي ذلك من فتح باب الفتنة وإهلاك المساكين ما لا خفاء فيه..."².

وهذا كلامٌ نفيسٌ من فقيه ضليع، عالمٌ بأصول الحسبة في الإسلام، عارفٌ بشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضرورة توحيد السلطة لذلك؛ وما الفتنة التي تعرضت لها الأمة الإسلامية -ولازالت- إلا بسبب تغييب هذه الرؤية المقاصدية الزروقية الفطنة. وليس الشيخ زروق بدعا في هذا الرأي؛ فقد قال به غيره، ومنهم: الإمام ابن عبد الله الحليمي وهو من فقهاء القرن الرابع الهجري، حيث يقول: "إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس يليق بكل أحد ولا يجب أيضا على كل أحد، وإنما هو من الفروض التي ينبغي أن يقوم سلطان المسلمين بها، إذا كانت إقامة الحدود إليه، والتعزيز موكل إلى رأيه، والحبس والإطلاق له دون غيره، والنفي والتعذيب مطلقا إن رآه في سياسته، فينصب في كل بلد، وفي كل قرية رجلا صالحا عالما أميناً، ويأمره بمراعاة الأحوال التي تجري، فلا يرى ولا يسمع منكرا إلا غيره، ولا يبقى معروفا محتاجا إلى الأمر به إلا أمر به"³.

وقد كان الشيخ أحمد زروق يُعارض الخروج عن السلطان المسلم الذي في عنقه بيعه له؛ لأنّ ذلك فتحٌ لباب فتنة، وإهلاكٌ للضعفاء والمساكين من المسلمين بغير حق، ونشرٌ للفساد والهلاك للعباد والبلاد، وجالبٌ للنّدم وطلب التنصّل من تبعات الخروج على الحاكم المسلم، والهروب من تحمل نتائج الوخيمة، في وقت لا ينفع فيه الندم، ويتبنّى الشيخ زروق هذا الموقف رغم بُعدِه عن

¹ انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص111.

² انظر: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص68.

³ الحليمي، الحسين بن الحسن: المنهاج في شعب الإيمان، تحق: حلمي محمد فوده، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1979م، ج3، ص216-217. وإن كان الشيخ الحليمي في نفس الموضوع، يدعوا علماء المسلمين الذين يجمعون من فضل العلم وصلاح العمل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمقدار طاعتهم وفيما ليس طريقه الحد والعقوبة فذلك للسلطان.

بجالس السلطان وعن عطاياه، إذ كانت نفسه تأبى غشيان تلك المجالس، فقد كان ورعا زاهدا يُؤثر العزلة ولا يُحبُّ الظهور والرياسة.

وهذا الموقف من الشيخ زروق -رحمه الله- مبنيٌّ على فقهه وعلمه؛ فهو لم يخرج في قوله وموقفه عن المذهب المالكي وعن قول مالك -رحمه الله- في هذه المسألة، إذ يقول الشيخ محمد أبو زهرة نقلا عن الإمام مالك بن أنس -رحمه الله-: " وإن خرجت خارجة على الحكم فما هي أعدل منهم، ولا أحفظ للحقوق من أقلهم عدلا وأكثرهم ظلما. فوق ما في الخروج من فوضى في الأمور واضطراب للنظام، وفساد لأحوال الناس، وهتك للحرمت، وتعريض الأعراض والأنفس والأموال لشذاب الناس وشطّارهم، وفوضى ساعة يرتكب فيها من المظالم ما لا يرتكب في ظلم منظم سنين¹.

ثم يضيف الشيخ أبو زهرة، وهو ينقل رأي علم من أعلام المذاهب الفقهية التي يدين الناس بها في الغرب الإسلامي كله، وفي مسألة من أخطر المسائل التي اختلف الناس حولها قديما وحديثا، وكان عدم الثبّت فيها سببا للمآسي في كثير من الأحيان، فيقول: " ومن يعيش في وسط ذلك الجو اليأس من أن يقوم حكم الشورى على وجهه الصحيح، كما كان الشأن في حكم أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، فلا بُدّ أن يرضى بالحال القائمة لا على أنّها الحكم الأمثل الذي ينبغي أن يكون، والذي دعا إليه الإسلام، ولكن على أنّها الأمر الواقع الذي لا سبيل إلى دفعه إلا بالتعرّض لضرر أشدّ، وفساد أعمّ؛ والنتيجة غير مستيقنة بل غير مأمونة، وقد دلّت التجارب الواقعة على أن الانتقال يكون لمن هو أشدّ ظلما، وأكبر ضررا...²

وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله، أيضا: " وكان آخر كثير الشفقة على العامة والمহারبة عليهم، فأدّاه ذلك لمحاربة الملوك ومعاداتهم، وإذابتهم والتجاسر عليهم، وربما دخل في خلع بعضهم، وهو يرى ذلك كله دينًا قيما، وربما آذى من خالفه في ذلك من جنسه، وهو في ذلك يعتقد أنّه على صراط مستقيم، فكان ذلك سبب الفساد والهلاك، فندم عليه وصار يطلب التنصّل فلم يجد مساعا،

¹ انظر: أبو زهرة، محمد: مالك حياته وعصره -آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، 1952م، ص 63.

² المرجع نفسه، ص 64.

وكان ذلك سبب حتفه بوجهه، والله أعلم بحقيقته، أعادنا الله من حبّ الرئاسة، ورزقنا العافية في جميع الأمور بمنّه وكرمه¹.

ولذلك فإنّ الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- لما قُتل السلطان عبد الحق المريني، واعتقد أنّ الأمر سيؤول إلى غريمه محمد الشيخ الوطاسي، كما كان مُحطّطاً له، خرج هائماً على وجهه، وضاعت عليه الأرض بما رحبت، كما قال في كناشه: "ثم ضاقت عليّ الأرض بما رحبت، فخرجت لزيارة الشيخ سيدي أبي مدين"²، فلمّا لم يستقم الأمر على ما حُطّط له، وذلك أنّ مُحمّد الشيخ تأخّر في المجيء إلى فاس، بسبب انشغاله بحرب البرتغال في أصيلا، استغلّ الشريف الإدريسي الجوطي العمراني الفتنة، واستولى على الملك لنفسه³، عندها فقط رجع زروق إلى فاس، بعد زوال الخطر، وسُكون الفتنة. إذن فخرج الشيخ زروق من فاس كان لأمر سياسي، وهو معارضته الشديدة لمحمد الشيخ الوطاسي⁴، وهو أمرٌ سيؤثر عليه وعلى استقراره وعطائه الفكري، خصوصاً عندما هاجر من موطنه الأصلي دوار البرانس⁵.

¹ زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 68-69.

² حشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 38. (نقلا عن: زروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، ص 69).

³ غير أنّ إمارة الجوطي لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما خلعه أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي سنة 875هـ، وبقيت فاس في يد أخت أبي الحجاج الزهراء المدعوة بزهور الوطاسية مع قائده السجيري إلى أن تولى الأمر أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي. قال في المرأة: "لما بايع أهل فاس أبا عبد الله الحفيد قام محمد الشيخ الوطاسي في أصيلا واستتبع القبائل واستفحل أمره، وحاصر فاسا وقتاً بعد وقت، إلى أن دخلت في طاعته في رمضان سنة 876هـ". (انظر: الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج 4، ص 117، 119-120).

⁴ يذكّر حفيد الشيخ أحمد زروق: الشيخ طيب محمد إدريس، أنّه إضافة للسبب السياسي، فإنّ زروق له موقف شخصي من محمد الشيخ الوطاسي؛ وهو أنّه زمن الطاعون تركت جدّاً زروق طفلة شقيقة-وكانت مريضة- عند إحدى الجارات القريبات في الدوار، ثمّ ما لبثت الطفلة أن كبرت وأصبحت جميلة جداً، ومّر محمد الوطاسي بالدوّار، بينما هو فارّ من بطش عبد الحق المريني، وباحثاً عن أنصار وأتباع، فوهبوا له هذه الفتاة -أخت أحمد زروق- كهدية ليتسرّى بها!! وكان أحمد زروق، عزيز النفس، شديد الغضب والغيرة على عرضه. فكانت هذه الحادثة سبباً في التقاطع بين الشيخ وبين محمد الوطاسي، فلم يقف له بباب ولا ولاء أو صافاه في حياته قط، كما أنّه قاطع أهل قريته وفضّل الإقامة عند أبناء عمّته بقرية لجاية عوض إقامته عند أقاربه في دوار البرانس؛ لأنّه ما نسي فعلتهم وتفریطهم في عرضه، رغم ما بذلوه من محاولات لاسترضائه. (انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، هامش ص 112-113).

⁵ انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 111-112.

وقد كان الزُّرُوقِيُّونَ بعد الشيخ أحمد زروق في الشمال المغربي، مُوالين للدولة الوطاسية خصوصاً في عهد مُحمَّد بن محمد الوطاسي البرتغالي، وولده أبي العباس أحمد بن محمد بن محمد الوطاسي؛ لكن الزُّرُوقِيِّينَ في الجنوب المغربي، كانوا من أسباب انهيار الدولة الوطاسية؛ حيث بُحِدَ عبد الله بن عمر المدغري، وهو من أصحاب الشيخ أحمد زروق، وكذا عبد العزيز القسَمَطيني، هما اللذان مهَّدا لدولة مُحمَّد الشيخ السَّعدي، ولقد بالغ محمد السعدي بعد استيلائه على ملك فاس في امتحان شيوخ الزَّوايا الزُّرُوقِيَّة بِشمال المغرب، حيث اتَّهمهم بِمُوالاة الوطاسيين، وإخفاء أموالهم، وازداد التباعد بين الزُّرُوقِيِّينَ والسَّعديين، بعدما سلَّم المأمون السَّعدي مدينة العرائش للإسبان، وتعرَّضه للنَّقد الشَّدِيد من طرف شيوخ الطريقة الزُّرُوقِيَّة، وفي مقدِّمتهم محمد بن علال الحاج، وعبد القادر الفاسي، فكان ذلك سبباً في قتل الأول، ومحنة الثاني، وضعف نفوذ المدرسة الزُّرُوقِيَّة¹.

إنَّ هذا الوضع السياسي المتقلَّب والمتدهور، وكثرة الصِّراعات على الحكم والنفوذ والرياسة، خاصَّة في نهاية عصر المرينيين وبداية العهد الوطاسي، كان عاملاً مُؤثِّراً على الشيخ أحمد زروق؛ فبعد عودته من حَجَّتِه الأولى إلى المغرب، وجد أنَّ الفتن والأهواء قد استشرت واستفحلت، وأنَّ أسباب الضعف والهوان قد تمكَّنت من الأُمَّة؛ فتيقَّن - بعد استقراره ببلدته لجاية² ما بين أواخر سنة 878هـ، وأوائل سنة 884هـ³ - بأنَّ العلاج يكمن في البناء الدَّاخلي للأُمَّة، فكرَّس حياته للأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، بمدرسته الصُّوفيَّة الفقهيَّة لجاية، وهذا بعدما اصطدم ببعض علماء فاس، بتأييد من محمد الشيخ الوطاسي⁴، فلقي - هو وأصحابه ومريدوه - جرَّاء ذلك عنتاً كبيراً من طرف السَّاسة، ومن

¹ طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 283.

² لجاية: وهي أحد قبائل أوربة بنواحي مدينة تاونات بمنطقة اجباله أو بلاد الهبط (جبال غمارة). ولجاية أو بجاية هي قبيلة تجاور بني زروال من جهة الجبل ويحدها نهر ورغة من الجنوب، وبذلك يكون لها موقع جغرافي مشابه لبجاية الجزائر - بين الجبل والنهر - والقبيلتان لجاية/بجاية لهما جذور واحدة؛ كما هو الشأن بالنسبة لقبيلتي بني ورياكل وكتامة. (انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 67. وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مرجع سابق، ج 6، ص 192).

³ يجهل المؤرخون الشيء الكثير عن حياة الشيخ زروق في هذه الفترة، واكتفى البعض منهم بالقول بأنه مال إلى بجاية؟ حوالي سنة 878هـ... لأن عددا من رفاقه وأتباعه كانوا منها. (انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 165).

⁴ صُدِّم الشيخ زروق من المقابلة التي قوبل بها من طرف علماء فاس، ومقاطعتهم له بإيعاز من الحاكم محمد الشيخ؛ فقرَّر أخيراً الأخذ بنصيحة شيخه الحضرمي، واعتزال الحياة العامة على الأقل بمدينة فاس، والبحث عن مكان آخر لنشر أفكاره الإصلاحية. (انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 165).

ساندهم من خصومه أدياء التصوف، كما يُستفاد من رسالة شيخه الحضرمي سنة 880هـ: "... توجه إلى الله فقط، وترك ما سواه فقط، واحتمل الأذى من كافة العُصاة أكثر من الطّاعة، ولا تجعل لك حظاً، واستعن بالله في ذلك جميعه. أعانكم الله كلُّكم، والسَّلام"¹.

يتبيّن بوضوح وجلاء من رسالة الحضرمي، أنّ الشيخ أحمد زروق رحمه الله - ومن معه من مريديه وتلاميذه - كان يعاني ويكابّد الأمرين؛ ويناضل على أكثر من جبهة: من جهة بعض الطريقين الغلاة والمنحرفين، ومن جهة أخرى أصحاب السُّلطان والأهواء والوُجهاة، ومن يدور في فلكهم من المتنفعين، وهذا نتيجة أفكاره الإصلاحية المناهضة لتوجُّهاتهم، ويدخل هذا ضمن ما أصبح يعرف بالخلاف بين الفقهاء والصوفية² من تنافر وتباعد في الغالب الأعمّ؛ حيث كانت المصالح تُؤثر على العلاقة بين العلماء الذين يُمثّلون قاعة الحُكم وركيزته بالإضافة إلى الجُند، وبين الصوفية الذين يُمثّلون - في الأصل - تطلّعات ومصالح عموم الشَّعب؛ ولكنّها كانت تنحصر في الغالب على ما يخدم مصالح شيخ الطريقة أو الزاوية، وهذا كلّهُ تُدار خيوطه بالتّزان، وبما يخدم مصالح الحُكّام في عهد الاستقرار السياسي، وعهد الحُكّام الأقوياء³.

وقد خاض الشيخ أحمد زروق - رحمه الله - حملة شعواء في كُتبه ورسائله⁴، وهذا بعد أن رجع إلى فاس سنوات ما بين 879 إلى 884هـ، كان خلالها دائم الهجوم على الفقهاء الجاهلين، والقراء المداهنين، والصوفيّة المنافقين؛ ردّ فيها على المبتدعة ومُدّعي التّصوّف، والمترلّفين إلى الحُكّام باسم التّصوّف يَرجّون من وراء ذلك نوالاً، وشنّ عليهم وبين عوَار أفكارهم وسُقم أعمالهم، ورسم

¹ انظر: زروق: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقية، مرجع سابق، ص 17.

² لقد هاجم الفقهاء المتصوفة، وخاصة أصحاب التصوف الفلسفي الإشرافي العرفاني، ورمّوهم بالزندقة والمروق عن الدين، ومن هؤلاء المتصوفة: ابن سبعين - ابن عربي الحاتمي - الششتري... ولذلك هاجر الكثير من هؤلاء الأندلس؛ نتيجة المضايقات التي كانوا يتعرضون إليها. (انظر: زروق، أحمد: شرح النونية والمقطعات الششتريّة، تحق: محمد إدريس طيب، كتاب - ناشرون، بيروت - لبنان، 2019م، ص 35-36).

³ انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 104.

⁴ في كُتبه: عدة المريد الصادق، والجامع، والنصيحة الكافية، نجد الشيخ زروق، وهو يتحدث عن ضرورة صحة المذهب وسلامة السلوك في الطريق الصوفي، يضمن كل فقرة من فقرات هذه الكتب تقريباً هجوماً على الخارجين عن الطريق ونقداً مرّاً لما هم عليه من عقيدة وسلوك، ويبلغ نقده لهم ذروته في مؤلفه: الرد على أهل البدع - الكتاب الصغير ذي الخطر الكبير. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 281-282).

للتصوّف منهاجا وطريقا لا يجب الانحراف عنه، لمن كان يبغى ارتقاءً في معارج السالكين إلى الله، ولذلك أَلَفَ كتابه العظيم الفائدة، النفيس المحتوى: "قواعد التصوّف"¹.

وكان لا بُدّ لهذا المنهج الإصلاحي وسلوك طريق الحسبة من الشيخ زروق من ضريبة، فقد تعرض لكثير من الإيذاء. ولذلك فإنّ الحضرمي كان يتعاهد تلميذه أحمد زروق بين الفينة والأخرى، بالنصح والمعونة وشدّ الأزر، فكانت آخر رسالة منه-أي الحضرمي- عام 884هـ، وصلت إلى الشيخ أحمد زروق حتّى بلدته لجاية/بجاية، ومّا ورد فيها: "...وبلغني أنّه حصل لك بعض تشويش من بعض الناس، فإن يكن هذا حقّاً، فبالله زِدْ لومك على نفسك، فإنّها أصل ما وصل إليك من الأذى-إن تأملت- وأنصف، واصبر على ما أصابك كما قال لقمان عليه السلام لابنه..."².

لقد شَعَرَ الشيخ أحمد زروق رحمه الله، وهو الفقيه والمتصوّف الذي جمع بين علمي الشريعة والطريقة أنّ ما علق بالتصوّف من نُعوت وشوائب، وأنّ ما ناله من نقد وهجوم إنّما بسبب ما أُلصِقَ به، وما أُضيف إليه من أمور خارجة عن دائرته، ولَمَسَ أنّ ثمة انحرافا وانصرافا حادثا في طريق التصوّف، فأخذ على عاتقه مهمّة التصحيح والتقويم لهذا الطريق، مُزيلا جُلّ ما عُلّقَ به بفكر صوفيّ كَسَتَهُ رؤية مقاصدية واضحة المعالم والمسالك... ولم يكن مَسْعاه هذا خِلْواً من بعض الصعوبات والعقبات، كما لم يكن بمنأى أن تُصَوَّبَ ضده سهام خصوم وأعداء رغبوا عن طريق التصحيح الذي حمل لواءه، فأذاعوا وأشاعوا ما شاءوا من الأقوال، لكنّها ما نالت من صموده وعزيمته القويّة في إنارة طريق السالكين. وقد كان يدفع السيئة بالحسنة، ويردّ على مخالفه بأسلوب نقدي بَنَاء مُشَبَّع بقدر كبير من الاحترام والتقدير...وقد ساعده على هذا كلّهُ تسلّحه بفكر مقاصدي تجلّت ملامحه في كثير من مُصنّفاتهِ وكتبهِ³.

وأمام هذا الوضع المتأزّم والمضطرب، ومع استمرار معاناة الشيخ أحمد زروق وتعبه من مُقارعة هؤلاء الخصوم وعلى أكثر من جبهة، قرّر مغادرة منزله بدوار البور(لجاية/بجاية) بالمغرب، عام

¹ انظر: فوزار، محمد: أحمد زروق الفاسي ت899هـ، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث/أعلام، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، 2012/11/05م.

² انظر: زروق: شرح النونية والمقطعات الششتية، مرجع سابق، ص18-19.

³ بوانو، إدريس: ملامح الفكر المقاصدي في الخطاب الصوفي عند الشيخ أحمد زروق، مرجع سابق، ص9-10.

884هـ، مُهاجرا إلى ربّه وشوقا لنبيّه محمد ﷺ، بعدما وردّه وارذ، أغرقه في حال من الوجد جعله يفرّ من وطنه وبلدته وأهله وعشيرته، وقد ترك وراءه زوجته مع رضيع له لم يُكمل سنته الأولى؛ وهو الذي سيُعرف فيما بعد باسم أحمد الأكبر؛ وإلى ذلك يشير في قصيدته التائية الشهيرة¹:

ألا قد هجرتُ الخلق طرّاً بأسرهم***لعلّي أرى محبوب قلبي بمقلتي
وخلفتُ أصحابي وأهلي وجيرتي***ويتمتُ نجلي واعتزلتُ عشيرتي
ووجهتُ وجهي للذي فطر السّما***وأعرضتُ عن أفلاكها المستنيرة²

ومن الباحثين من أنكر نسبة هذه القصيدة للشيخ أحمد زروق رحمه الله³؛ لما حوته من دلالات وكلمات وبعض شطحات صوفيّة، لا يُمكن -حسبهم- أن تكون من كلام الشيخ أحمد زروق رحمه الله، لكنّ حفيد الشيخ أحمد زروق، وهو الشيخ محمد إدريس طيب، يذهب في تحقيقه لهذه القصيدة إلى تفنيد ذلك، ويؤكد نسبتها إلى الشيخ أحمد زروق، فيقول: "... وأنكروا نسبة القصيدة له؛ ولو تعمّقوا في معانيها وفتح الله عليهم بفضّ بواكر أسرارها، لعلموا أنّها بعيدة كل البعد عن الغلوّ

¹ وهذه القصيدة وصفٌ للحالة التّفسية التي كان يمرُّ بها الشيخ أحمد زروق في هذه المرحلة من حياته. ولقد ذكر فيها المقامات التي سلكها في مجاهداته الرّوحية، وفي طريق سلوكه إلى الله الواحد الأحد. مع إخلاص النية والاعتماد عليه في كل حركاته، وسكناته من اعتقاد وسلوك. (انظر: زروق، أحمد: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقية، مرجع سابق، ص 19-20).

² انظر: زروق: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقية، مرجع سابق، ص 54. وأوردها الشيخ الثعالبي، ونسبها للشيخ زروق. انظر: الثعالبي، عبد الرحمن: تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، تحق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط 1، 1418هـ/1997م، ج 1، ص 35. وابن مریم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مرجع سابق، ص 48. والتنبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص 132.

³ من هؤلاء المنكرين: عبد الله كنون الذي ترجم للشيخ زروق في موسوعته: موسوعة مشاهير رجال المغرب، وقدّ نسبة هذه القصيدة لزروق، وبرر ذلك بأن ما جاء فيها يعارض ويخالف طريقته واعتقاده وهضمه لنفسه وإهداره للدعاوى بالكلية. وقال بأن هذا من عمل أحد أتباعه المغرورين. (انظر: كنون: موسوعة مشاهير رجال المغرب، مرجع سابق، ج 3، ص 40). ومَن أنكرها الدكتور علي فهمي خشيم، الذي علّق على بعض ما جاء في أبياتها أنه ضرب من التبجح والادعاء لا يمكن أن يصدر من زروق المؤمن السني الخائف الورع، الذي كانت دموعه تنهمر كلما جاء ذكر الله. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 87).

والتطرف؛ ولكنهم وقفوا عند ظاهرها، فالتبس عليهم باطنها، وعميت عليهم أسرارها، وأنوارها الربانية¹.

إن القصيدة التائية، هي تعبير صادق عن كمّ الفيض والارتواء الذي حصّله الشيخ أحمد زروق في توجّحه إلى الله وبالله والله، فصفت سريره، وذاق معاني المعارف، وحلاوة الشريعة، فأصبح صاحباً بالحق، فانيا عن حظوظ الدنيا، ولم تزده بعد ذلك، الحن والإحن والفتن التي تعرّض لها من الحاقدين إلا تشبّثاً بالطريق، الذي آل على نفسه سلوكه بعيداً عن الأعراض والأغراض والحسابات والمصالح الشخصية، والانتصار للنفس، ولقد نظّم الشيخ قصيدته التائية، وهو في حال من الوجد والفيض الإيماني، فانقادت له الكلمات، وتدافعت التعابير مناسبة جزلة، مُعبّرة عن مقام العبودية في قلبه، والتسليم للأقدار حلولها ومرّها، وسَلِمَ في ذلك من غلوّ بعض الصوفية وشطحاتهم، وكان الشيخ أحمد زروق رحمه الله بحق: "سلك مسالك الرجال ومناهج الأبطال. ذي مقام، وحال. إلا أنّه ثابت في المقام، وحالُه غير مستدام"². كما قال تلميذه الفقيه محمد بن علي الخروبي (963هـ)³. وهذا الأخير من الذين أثبتوا هذه القصيدة للشيخ زروق في كتابه: "كفاية المريد وحلية العبيد" في بيان أهمية الوظيفة الزروقية، وتخرج أحاديثها⁴.

¹ زروق، أحمد: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقية، مرجع سابق، ص20. وقد نسبها أحمد القطعاني في كتابه - اعتماداً على فتح المغام - للشيخ الهادي محمد بن عيسى الذي ولد سنة 872، وتوفي سنة 933هـ، ومعلوم أن ابن عيسى لم يهاجر من موطنه مكناسه حتى يقول: ألا قد هجرت الخلق طراً. كما أنه ما عرف الديار الشرقية حتى يقول: وكل بلاد الشرق في طي قبضتي. (انظر: زروق، أحمد: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقية، مرجع سابق ص25-26).

² الخروبي، محمد بن علي: الأُنس في شرح عيوب النفس، تحقيق: محمد طيب إدريس، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2010م، ص19.

³ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الأصل أو (السفاقسي) الجزائري المالكي، أبو عبد الله: كان ذا حضوة عند العثمانيين، من أشهر تلاميذ الشيخ أحمد زروق، تربى تحت رعايته؛ لذا فلا غرابة أن يهتم الخروبي الابن بالمدرسة الصوفية الزروقية: تعلماً، ودراسة، وسلوكاً. فقيه الجزائر في عصره. دخل مراكش سنة 959هـ سفيراً بين سلطان آل عثمان والأمير أبي عبد الله الشريف، للمهادنة بينهما. توفي بالجزائر عام 963هـ. له مؤلفات، منها كتاب في التفسير والحكم الكبرى وشرح كتاب عيوب النفس ومداواتها. (الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج6، ص292. والخروبي: الأُنس في شرح عيوب النفس، مرجع سابق، ص5. وسعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص498).

⁴ انظر: زروق، أحمد: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقية، مرجع سابق، ص21-22.

ورغم كيد السلطان في تحريش أدياء الصوفية عليه، إلا أنه لم يدع للخروج على السلطان وإن لم يكن مؤيِّداً له، ولعلّه نابعٌ من موقف اللاعنْف الصوفي ومذهب المسألة الصوفية، الذي يستنكف سفك الدماء، وبخاصّة دماء المسلمين. وكان من جملة مبادئ زروق التي اعتمدها طوال حياته وكوّنت جانباً من تفكيره وطريقته أيضاً، ذلك حتى يُمكن حفظ وحدة المسلمين في وجه الأعداء بإطاعة الأمراء والملوك، أمّا حين يتحوّل أحدهم إلى طاغية ظالم فيجب البعد عنه جهد الطاقة، وتحاشيه وتجنّب التعاون معه، لكن دون أن يُخلع بالقوّة¹.

ولذلك عقد الشيخ زروق فصلاً في كتابه: "عدة المريد الصادق"، يذكر فيه ما احتواه الزمان من فساد وباطل وفتن، حرّياً بالمؤمن اجتنابها واجتناب أسبابها، ومنها مسألة منازعة السلطان المسلم والخروج عليه، وكذا الميل إلى الدنيا وغشيان مجالس السلاطين، وساق في ذلك جملة من الآثار التي تُنبّه على خطورة الأمر وأثره في حفظ الأمن والأنفس والأعراض والأوطان؛ فقد أخبر أنه كثيراً ما كان يسمع شيخه السطحي يرّدّد في مجالسه قول رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء، وأمناء الرسل، ما لم يميلوا إلى الدنيا، أو يداخلوا السلاطين، فإذا مالوا إلى الدنيا أو داخلوا السلاطين، فاحشوهم في دينكم»².

وهذا ما يُفسّر رفض الشيخ زروق مُقابلة السلطان الحفيد، محمد بن علي الإدريسي الجوطي، حين لاقاه وجُنّده في الطريق، وطلب إليه بعض أعوان السلطان المشوّل بين يديه³؛ لأنّه لم يكن يعتبره حاكماً شرعياً، إذ جاء إلى الحكم إثر ثورة دموية⁴. فرفض زروق مُقابلة هذا السلطان أمراً طبعياً من رجلٍ رفض الاشتراك في خلع السلطان السابق عبد الحق المريني؛ ولأنّ مبايعة وليّ الأمر أمانة في عُنق الإنسان يجب عليه أن لا يخلعها من دون نصّ من الشرع. ولذلك وجدنا الشيخ زروق يرفض الصلاة وراء "قائد الثورة" آنذاك

¹ خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 40. انظر: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 273 وما بعدها.

² قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص 286 حديث 703: رواه أحمد وأبو داود والترمذي وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً، وصححه الحاكم وابن حبان، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها. والحديث في أبي داود رقم 3641، وأوله: "من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله له به طريقاً إلى الجنة... وإن العلماء ورثة الأنبياء". وهو في صحيح سنن أبي داود رقم 3096، وأما قوله: وأمناء الرسل إلخ، فقال العجلوني: رواه الحسن بن سفيان والعقيلي عن أنس، فكأنه من قول أنس رضي الله عنه، والله أعلم، انظر: العجلوني، إسماعيل بن محمد: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تحقق: يوسف بن محمود الحاج أحمد، مكتبة العلم الحديث، القاهرة، 1424هـ، 75/2.

³ خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 40. نقلاً عن الكناش، مرجع سابق، ص 37.

⁴ المرجع نفسه، ص 40-41.

وهو شيخه" الورياعلي"؛ وإن دلّ هذا على شيء فإنه يدلّ على تعظيم زروق لشأن البيعة، وتجريمه الخروج على السلطان المسلم، وكذا تغليبه مقصد حفظ الأعراض والأنفس والديار وجمع كلمة المسلمين أمام العدو المتربص آنذاك. فإذا طغى الحاكم واستبدّ كان تجنبه والابتعاد عنه هو السبيل الوحيد لالتقاء شرّه. وهذا ما يمكن تسميته "المقاومة السلبية" لجبروت بعض الحكام والساسة¹.

هذا الموقف الذي اتّخذه الشيخ أحمد زروق، جعله يتحمّل تبعاتِه ونوائجه المترتبة عليه، لكنّه رغم ذلك صبر وواجه الأمر بنفس أبيّة وجلد كبير، يقول عن ذلك: " فأول خروجي من البلد فاس، قال رجلٌ من البلد الآخر: هذا من يهود فاس. فشكّكه في ذلك. فحلّف بالصّوم، فسمعه طالب يعرفنا، فنازعهما. ثمّ لما كان الليل دخلنا مسجدًا بعد صلاة المغرب، لبنيت فيه، فإذا أصحابه يتحدّثون بنا، معتقدين أنّا يهود، فإذا بشيخ منهم يعرفنا، وقال: هذا طالب أعرفه من فاس. ثمّ لما أتينا بادسًا مسكونا لنردّ الخبر على أميرها، فنحن عند باب القصبة فإذا بعبدین خرجا، فبصقا علينا ولعنانا، اعتقادًا منهما أنّا يهود، فانتهرهما الناس².

فهذا كلّ - وغيره كثير - يُدللّ على شدّة العنت والأذى الذي تلقّاه شيخنا زروق رحمه الله، من جرّاء منهجه القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم السكوت على الفساد والباطل، والبدع التي انتشرت باسم الإسلام والتصوّف، والتصوّف السيّئ منها براء، وقد أثّرت مثل هذه الوقائع على الشيخ؛ من خلال خروجه من فاس ورحلته إلى تلمسان حيث ضريح سيدي أبي مدين، من أجل البحث عن راحة النفس واستمداد القوة الروحية من هذا القطب الكبير، ولذلك فإنّ الشيخ أحمد زروق لما عاد من تلمسان إلى فاس، رجع بعد رحلة تطهير وتنقية، وتخلية وتخلية وتبرّك بسيدي أبي مدين الغوث، وقد صالح شيخه وأستاذه، وازداد الرّيتوني إعجابًا بزروق؛ حتّى كان يقول عنه إنّه " رأس الأبدال السبعة"³. لكن كلّ هذا كان بعد رحلة شاقّة، واجه فيها مخاطر عديدة وعناءً شديداً، ومكث بعدها في فاس ثلاث سنين، مشغولاً - كعادته - بالدّرس والتأليف، ولا يُعرف شيءٌ عن حياته في هذه الفترة على الإطلاق⁴.

¹ انظر: زروق: الكناش، مرجع سابق، ص 48-49.

² انظر: المرجع نفسه، ص 28-29.

³ انظر: الأنصاري، أحمد بك النائب: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب - ليبيا، د.ت، ج 1، ص 183-184.

⁴ حشيم: أحمد زروق والزّروقية، مرجع سابق، ص 41-42.

ومن تداعيات وآثار التضييق والأذى الذي يتعرّض له الشيخ دائما أينما حلّ وارتحل؛ نظراً لأفكاره التصحيحية والتجديدية، أنّه في سنة (886هـ/1481م) قرّر الشيخ السّفر إلى مصراته بليبيا. وقد كان وقتئذ بالقاهرة، وقبل رحيله ذهب لشيخه الحضرمي يودّعه، فأخذ الحضرمي رُقعة وكتب عليها هذين البيتين، وكان زروق كثيرا ما يستشهد بهما:

عش حامل الذكر¹ بين الناس وارض به *** فذاك أسلمٌ للدنيا وللدن

من عاشر الناس لم تسلم ديانته *** ولم يزل بين تحريك وتسكين²

و" إنّما قصد الحضرمي من تلميذه، تأديب النّفس وإرجاعها لحدها عن الدعوى لا التسرّع عن الخلق؛ لأنّ التسرّع منهم تعظيم لهم وادّعاء للمزيّة عليهم؛ وذلك كلّه عكسه المقصود، إلّا أن يُراد إراحة النّفس من مُلابسة الأغيار؛ فله وجه في طلب البراء والسّلامة"³.

ولننظر كيف أنّ جملة واحدة أو كلمة واحدة، تأتي من عزيز أو قريب قد تُغيّر كلّ تفكيرنا وتخطيطنا، وتفتح لنا آفاقا جديدة ورحبة، وهذا ما حدث لسيدي زروق؛ الذي ملّت نفسه من فاس، وضجرت من أهلها وفقهائها⁴، فقرّر الرحيل إلى مصراته، بعد أن تنكّرت له فاس وتنكر له أهلها؛ من خلال الاستقبال الخشن الذي قُوبل به من طرف الفقهاء وكذا ما حكاه ابن غازي عن إحدى كرامات

¹ يوضح الشيخ طبيعة الخمول، بأن يرى العبد النقص في نفسه ذاتيا أصليا، والكمال لها عارضا، فلا يثق بشيء منها، ولا يعتدّ به، ولا يعتمد عليه، ويهتدي بذلك إلى إحسان مولاه له وتفضله لديه. ولذلك يقول: ثم كما لا يصح دفن الزرع في أرض رديئة كذلك لا يصح الخمول بحالة غير مرضية؛ وهي كل محرم متفق عليه، بل مباح مستبشع، أو مكروه لم يمنع. فحياة الخمول والابتعاد عن دنيا الناس لو يمنعه من التجرد لنشر العلم، وهداية الخلق. (انظر: زروق، أحمد: مفتاح الفضائل والنعم في الكلام على بعض ما يتعلق بالحكم، تحقيق: محمد إدريس طيب، كتاب- ناشرون، بيروت- لبنان، 2015م، ص88-89).

² انظر: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص213.

³ زروق: مفتاح الفضائل والنعم في الكلام على بعض ما يتعلق بالحكم، مرجع سابق، ص89.

⁴ لما عاد زروق إلى فاس بعد سبع سنوات من الغياب، يقول ابن عسكر على لسان القاضي الكراسي " لما قدم زروق على فاس قادما من البلاد الشرقية خرج الفقهاء إلى لقائه. قال: وكنتُ ممن خرج معهم. فلما سلمنا عليه وجلسنا في خبائه صار يسأل الفقهاء عن أسباب أقواتهم فقال بعضهم: معظم القوت من الأوقاف المحبسة على قبور الموتى. فقال الشيخ: لا حول ولا قوة إلا بالله.. تعيشون من لحوم الميتة؟! فأجابه الفقيه ابن الحباك بأن قال: يا سيدي.. الحمد لله الذي جعلنا نقتنص من لحوم الميتة، وهي مسوغة عند الضرورة في الشريعة، ولا جعلنا نقتنص من لحوم الأحياء الممنوعة من كل وجه. فصاح الشيخ وخر مغشيا عليه. فخرجنا وتركناه كذلك". (انظر: ابن عسكر: دوحة الناشر، مرجع سابق، ص49-50).

الشيخ¹ التي تبين حجم المقاطعة الاجتماعية للشيخ في بلده؛ من خلال عزوفهم عن تلبية دعوته والجميعة معه إلى وليمة أعدّها صديقه الحميم ابن غازي².

شُرّفت مصراته بمقام الشيخ أحمد زروق بها عام 886هـ/1481م، وطاب له فيها المقام، حيث قضى فيها بقيّة أيام حياته؛ وهذا ربما لهدوئها وبساطتها، ولعلّ ما ذكره المؤرخ الصوفي محمد بن ناصر الدرعي بعد مرور قرن من ذلك الزّمان، وهو يصف مدينة مصراته، يبرهن على ذلك، فيقول: "وحسب مصراته أنّ زروقاً اختارها مسكناً وأنّ الله اختارها له مدفناً، ذلك لما طُبِعَ عليه غالبُ أهلها من الحياء والنقشُف ومحبة الصالحين والاعتناء بالمتنسب إلى طريقتهم، ولما طُبِعوا عليه من الكلام من عدم الفحش، ولما فيهم من السخاء ولين الجانب للغريب، وغير ذلك"³.

وقد كان من أقران الشيخ زروق، وليّ مسلاته الشيخ عبد الواحد الدكالي (ت 763هـ)⁴، وهو شيخ وليّ زليتن الشهير عبد السلام الأسمر، ويروى عن زروق أنه: "من أقران شيخنا الدوكالي ومن أجلّ أحبائه ومن أهل عصره، وكان رفيقا له بجامع الأزهر وجارا وخلا، يأكلان معا في العشاء والغداء إلى أن وصلا إلى طرابلس. وكان لا يفارق شيخنا الدوكالي ببلد مسلاته، ويأتي إليه من بلد مصراته على فرس حمراء ويبيده رمح"⁵، وقد أصاب الشيخ أحمد زروق في مصراته، المكانة الرفيعة والتوقير العظيم من أهلها بسبب مكانته العلمية وشهرته الصوفية، وأصبح واحداً من أهلها، وتجمّع الطلبة والمريدون من حوله، وصارت له الصّدارة في مجالسهم، وغدا ينشر علمه بين الناس في المسجد الذي كان يؤدّي فيه صلاته قُرب منزله⁶.

¹ انظر قصة هذه الكرامة: ابن عسكر: دوحة الناشر، مرجع سابق، ص 50-51.

² انظر: خشيم: أحمد زروق والزُّوقية، مرجع سابق، ص 54.

³ الفيتوري، عبد السلام: الإشارات لبعض ما بطرابلس الغرب من المزارات، اعتناء: روفائيل رافكس، طبعة طرابلس، 1921م، ص 7.

⁴ محمد بن علي بن عبد الواحد الدكالي ثم المصري، أبو أمانة، ويقال له ابن النقاش، قال ابن كثير كان واعظا بارعا، وفقها نحويا شاعرا. تعلم القراءات والعربية وتقدم في الفنون. له شرح العمدة وكتاب في الفروق، وتفسير مطول سماه السابق واللاحق. مات بالقاهرة سنة 763هـ. (انظر: الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج 6، ص 286. والعسقلاني، بن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مرجع سابق، ج 4، ص 71-73).

⁵ انظر: خشيم: أحمد زروق والزُّوقية، مرجع سابق، ص 63. نقلا عن: المصري، الطيب: فتح العلي الأكبر في تاريخ حياة سيدي عبد السلام الأسمر، ص 194.

⁶ خشيم: أحمد زروق والزُّوقية، مرجع سابق، ص 63.

المبحث الثاني : حياة الشيخ زروق الفاسي

المطلب الاول : مولده ونشأته

ويمكننا أن نتحدث في هذا المطلب عن عدة نقاط:

1- اسمه ومولده:

هو الشيخ الإمام العالم العلامة الصوفي الهمام العارف الأشهر والقطب الأكبر، أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس¹ سيدي أحمد بن أحمد بن محمد² بن عيسى البرنسي³ التفرنوشي البوري الوريكلي أصلاً وولادة، الفاسي نشأة وداراً وقراراً. المعروف والمشهور بزروق. وُلد يوم الخميس 22 محرم سنة 846هـ الموافق 3 يونيو 1442م⁴. وهو ما تحدث عنه الشيخ زروق في كتابته⁵، فقال: "

¹ كنيته عند الليبيين أبو الفضل على اسم ابنه أحمد أبو الفضل، من زوجته أمة الجليل المصرية، وكانه المشاركة: شهاب الدين، أما كنيته عند المغاربة فهي أبو العباس، وهي الكنية التي غلبت عليه، واشتهر بها. (انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، هامش ص7).

² بضم الميم وهو المشهور، وإن كانت تنطق بالفتح أيضاً. (انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، هامش ص19).

³ بعض المراجع تسميه: البرنوسي، وبالرغم من قبول العربية لهذه النسبة فإننا نستطيع أن نستخلص من بداية قصيدته "أرجوزة في عيوب النفس" أن البرنسي دون واو هو النطق السليم؛ فهو يقول في بداية هذه القصيدة:

يقول راجي رحمة الغفار***أحمد بن أحمد الحضار (أو الحضاري)

البرنسي الأصل ثم الفاسي***المشتهر زروق بين الناس.

ويرى عبد الله كنون تارة: أنَّ الحضار كان لقب أبيه ومهنته، وتارة يقول الحضاري: نسبة إلى وادي الحضار، وهو وادي في المنطقة التي يسكنها البرانس. واختلط الأمر حتى على ناسخ مخطوط "شرح عيوب النفس" للخروبي، فكتبها الحضاري، حلاً للإشكال. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص27).

⁴ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، هامش ص7.

⁵ نجد أنَّ الشيخ زروق يذكر تاريخ ولادته، ولا يذكر مكان الولادة، والصحيح أنَّه ولد بحج البرانس من دوار خد البغال بقبيلة بني ورياكل. كما أنَّه لا يذكر هل كان بكر أبيه أم لا؟ والذي أخبر به حفيده طيب إدريس، أنَّه كانت له أخت هي بكر أبيها تكبر أحمد بسنة، أو سنة وبضعة أشهر. (انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، هامش ص25).

كان مولدي عند طلوع الشمس من يوم الخميس، الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ستة وأربعين وثمانمائة. أخبرني بذلك جدّي، أم البنين، الفقيهة، وكانت من الصالحات¹.

ومن كرامات الشيخ أحمد زروق قبل أن يولد، أنّ جدّته للأب رأت ليلة، كأنّ البحر أخذ أحمد، فأنت مُعَبَّرًا للرؤيا، فأخبرها بأنّه يغرق في بحر العلم، ورأت الجدّة كأثما أعطيت لوحا من ذهب مكتوبا، فعبر لها بولد عالم لها أو لولدها، وكانت الأمّ حاملا إذ ذاك. وقد حدّثت المرضعة أنّها لم تجد الرضيع أحمد ليلة، ووجدت في موضعه نُورا...².

ولقد سمّاه والده مُحَمّدا، ثم نقلوه إلى أحمد بعد تيّمّمه من أبيه، قال في الكناشة: "وكان الوالد قد سمّاني مُحَمّدا، فلمّا توفي نقلوني لاسمه أحمد، فجمع الله لي بين الاسمين الشريفين"³، وكان يعتزّ باسمه أحمد، ويبرر سبب تعلقه به، فيقول: "واخترتُ أحمد لثلاثة أوجه: أحدها لإلّفي به وجريانه على لسان جدّي التي كنتُ أسكن إليها؛ لأنّها كانت أرفق بي، مع أنّها عاملة صالحة. والثاني قويت ذلك بأنّه لم يتغيّر في السنة العامة، بل هو باق على أصل الوضع، بخلاف الآخر، فإنّ العامّة غيّرت حركاته، ولو أنّ رجلا تمسّك بوضعه الأول لكفّروه وأنكروه. والأسماء معتبرة باللفظ، لقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ صَرَفَ عَنِّي أَدَى قَرِيشَ وَسَبَّهْمَ؛ يَسْبُونُ مُذَمِّمًا وَأَنَا مُحَمّدٌ»⁴. والثالث أنّه الاسم الذي وقعت به بُشْرَى عيسى عليه السلام، ولم يتسمّ به أحدٌ قبله عليه السّلام"⁵.

والبرُنسي: هكذا كتبها الشيخ أحمد زروق في جميع كتبه، وكما ضبطها صفيّه وصديقه ابن غازي في هامش "درة الحجال في أسماء الرجال"، وقال: هم عربٌ بالمغرب⁶، فهو ينسبُه إلى العرب

¹ وهي التي كفلته ورثته، واسمها فاطمة، وكنيتها أم البنين، وكانت فقيهة، فقد نشأت في بيت علم وصلاح، فخالها الفقيه الصالح أحمد بن محمد الفشتالي، وعمّتها هي الفقيهة الصالحة أمهاني العبدوسية. (انظر: زروق: الكناش، مرجع سابق، ص11).

² زروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، ص33-34.

³ زروق: الكناش، مرجع سابق، ص12.

⁴ الحديث الذي وجدته في البخاري، نصه: عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "أَلَا تَعَجُّبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ؟! يَسْبُونُ مُذَمِّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمِّمًا، وَأَنَا مُحَمّدٌ". رواه البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المناقب، باب من أحب أن لا يُسبَّ نَسبه، مرجع سابق، ص873.

⁵ زروق: الكناش، مرجع سابق، ص12-13.

⁶ ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، مرجع سابق، ج1، هامش ص90.

وليس إلى البربر، وهذا هو الصحيح عندنا، لأنّ المعروف عند المؤرّخين أنّ البرانس قبيلة بربرية تعرّبت وليست قبيلة عربية¹.

وقد حقّق طيب محمد إدريس، حفيد الشيخ أحمد زروق هذه النّسبة، فقال أنّها نسبة إلى حيّ البرانس من دوّار خد البغال² قبيلة بني ورياكل الجبلية بشمال المغرب، لا قبيلة البرانس بعمالة تازة - كما ذهب إلى ذلك بعض المتأخّرين خطأ³ - وأوّل من أطلق عليه هذا اللّقب جدّه سيدي عيسى⁴؛ حيث كان موظّفا مكلّفا في العهد المريني بجمع الضرائب، يدفعها السّكان للمخزن، من قبيلته والقبائل المجاورة لها، فلُقّب بالبرنّسي؛ لأنّ من عادة موظّفي المخزن آنذاك لباس البرنّس⁵/السلهام، ثم سرى على عقبه، كما أطلق على الحيّ الذي سكنوه بعد ذلك، وهذا شائع عند القبائل، حيث يَنْسُبُون المحلّ لساكنيه، أو العكس⁶.

¹ انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 20.
² كان سكان القرية الكبار السن يتداولون قصة هلاك القرية بسبب الوباء بعدما كانت عظيمة وغنية، قائلين: كانت تُخرّج منها كل صباح للعمل بالحقول "مائة حلّيمة، ومائة صرّمة"، أي مائة امرأة راكبات مائة بغلة بلجامها، كناية عن القوة والعدد والغنى، وفي تسمية الدوّار بعد ذلك بـ "خد البغال" دليل صحة القصة. (انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، هامش ص 30).

³ من هؤلاء الشيخ عبد الله كنون، وهذا في كتابه مشاهير رجال المغرب، أحمد زروق عدد: 23. (انظر: طيب: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 20).

⁴ كان جد أحمد زروق وهو الشيخ عيسى، مكلّفا بالضرائب في عهد المرينيين وكان ذا علم وديانة ومروءة، فامتحن في أمانته إلا أنّ الله أظهر براءته، فاعتزل عمله وتفرّغ لعبادة ربه إلى أن وافته المنية، ولما ثوّف سيدي عيسى بدوار البور، انتقلت زوجته وابنها سيدي محمد لتسكن أسفل دوار خد البغال (تافرنوث)، بجوار عائلتها فسُمّي المكان باسمهم: البرانس. (انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 26).

⁵ يقول حفيد أحمد زروق، الشيخ طيب إدريس أنّه كان مترددا في ما قاله له أبوه من علاقة البرنّسي بجمع الضرائب، حتى عثر خلال بحثه أنّ البرنّس: هي ضريبة مرينية كان يؤديها سكان البوادي للمخزن المريني، فتأكد من صحة كلام أبيه، وإن لم يكن نفسه يدري معنى اللقب ولا مصدره. (انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 27).

⁶ زروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، ص 22.

وقد أوضح حفيد زروق، الشيخ طيب إدريس - وهو أقرب إلى الشيخ زروق، وأحسن من أورد ترجمة لجده من بين المؤرخين والمهتمين بالتراجم - عددًا من المصطلحات والكلمات التي احتوتها ترجمته في كثير من كتب الشيخ أحمد زروق التي حقّقها، فقال:

والفاسي: يُستفاد من نسب الشيخ أحمد زروق أنّ "الفاسي" لقبٌ طارئٌ عليه عُرف به، والسبب في ذلك راجع إلى نشأته بفاس، ودراسته بها. حيث قضى بها مرحلتى صباه وشبابه، ولأنّ فاس كانت عاصمة العلم والملك آنذاك، والمعمول به لدى المؤثّقين المغاربة أنّهم ينسبون الرّجل لأصله ومكان ولادته ومكان نشأته أو استقراره؛ لذا قالوا: "الفاسي دارًا". كما قرّر ذلك صاحب شرح المقدمة الوغليسية؛ إذ بالرجوع إلى نسخة: "مختصر الشيخ أحمد زروق على المقدمة الوغليسية" الموجودة بخزانة الجامع الكبير بمكناس، والذي نصّ في مقدمته بأنّه: "...فاسيّ الدار...", وكما أكد على ذلك عبد الحي الكتاني في كتابه "فهرسة الفهارس"، حيث قال: "هو الإمام العارف المحدث الرّحالة الصوفي الفقيه، أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي دارا، الشّهير بزروق"¹. وهو ما يؤكّد أنّ الشيخ زروق نُسب لفاس لأنّه نشأ وتربّى بها، وقضى بها معظم مرحلة شبابه؛ وإلّا لقال: الفاسيّ الأصل"².

ومن المعلوم عند أصحاب التراجم والتاريخ، أنّ فاس تُطلق على المدينة وأيضاً تطلق على النّواحي والبوادي التابعة لها؛ وتزداد صلة فاس بضواحيها كلما كان الوضع السياسي مستتباً وقويّاً، والعكس، كلما ضعفت الدولة واضطرب الوضع السياسي كلما وهنت العلاقة بين المدينة العاصمة وبواديها، ولذلك فقد قويت أواصر فاس بباديتها في عصر قوة الدولتين المرينية والوطاسية، ومن القبائل الشمالية التي أثّرت في فاس، والتصقت بها على مدى تاريخها قبائل: بني ورياكل، وبني زروال، والحاية، وفشتالة، وسلاس...³.

¹ الكتاني، عبد الحي: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات، إعتناء: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط2، 1982م، ج1، ص455

² طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص21.

³ انظر: المرجع نفسه، ص22.

وقد أغرب الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي¹ حيث قال: "الطرابلسي المولد!!" والصحيح أنه ولد بفاس كما ذكر غير واحد ممن ترجم له². ومردُّ هذا الخلاف بين المؤرخين في مكان ولادته، أن الشيخ زروق نفسه في كناهه لم يذكر مكان ولادته، وإنما ذكر تاريخ ولادته³.

الوريكلي: نسبة إلى قبيلة بني ورياكل بالكاف المعقوفة، بطن من بطون صنهاجة البرانس) نسبة إلى صنهاج بن برنس أب البربر البرانس)، خالطهم عبر التاريخ بعض المصامدة، وبعض الأسر العربية، أسكنهم معهم المرابطون والموحدون، وقد تعرَّب سكان القبيلة والقبائل المجاورة لها تعريبا كاملا؛ وذلك: لمساكنتهم الأسر العربية واختلاطهم بها، ولقربهم من فاس حاضرة المغرب وعاصمة العلم آنذاك، ولكثرة حفظة القرآن الكريم والعلماء من أبناء القبيلة⁴.

البوري: هي نسبة إلى دُوَّار البور بالقبيلة، وهو موطنه الأصلي ومدفن جدّه سيدي عيسى؛ وقد أطلق عليه قديما اسم "بجاية"، وما زال كبار السنّ من السكّان يذكرون ذلك إلى الآن. وأمّا **التفرنوثي:** فهي نسبة إلى دُوَّار تافرنوث⁵ بقبيلة بني ورياكل الجبليّة، وهو الدوّار الذي سكنه جدّه محمد الخضار، وأبوه أحمد، وعمُّهما مولاي عبد الرحمن⁶ من قبلهما إلى أن حلَّ به وباء الطاعون فقبض على معظم سكّانه، ونزح عنه الباقي لمدة من الزمان⁷.

¹ الزاوي، الطاهر أحمد، ولد سنة 1308هـ، وتوفي سنة 1406هـ، من آثاره: جهاد الأبطال، أعلام ليبيا. انظر ترجمته في كتاب: أعلام ليبيا للطاهر أحمد الزاوي، بقلم: محمد مسعود جبران، مرجع سابق، ص 7-44.

² مراري، عبد القادر: الفكر العقدي للشيخ زروق الفاسي، مرجع سابق، ص 20.

³ انظر: زروق: الكناش، مرجع سابق، ص 11. وفيه ذكر يوم ولادته فقط رحمه الله.

⁴ طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 29.

⁵ تافرنوث هي كلمة بربرية معناها الفرن. وهو فرن تقليدي مصنوع من الطين يطهى عليه الخبز، خاصة في منطقة السوس الأقصى في المغرب.

⁶ مولاي عبد الرحمان بن الحسن أخ سيدي عيسى بن الحسن، له ضريح عليه بناية متواضعة بأعلى جبل الهوتة بتافرنوث. عبث به غير ما مرة من طرف الباحثين عن الكنوز! (انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، هامش ص 29).

⁷ طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 29.

زروق: اكتسب هذا اللقب من جدّه لأُمّه؛ فقد ورد في كُتّاشته: وكان جدّي أزرق العينين، فقالوا له: زروقاً. فسرت في عقبه¹. وأضاف صاحب البستان، على لسان الشيخ زروق: "ولفظ زروق إنما جاءني من جهة الجد كان أزرق العينين واكتسبه من أمّه"². وهذه الصفة الوراثية ما زالت تظهر في بعض أفراد أسرة الشيخ أحمد زروق إلى الآن³.

ومازال سكّان اجباله بالمغرب، يُطلقون هذا اللقب إلى الآن على كلّ شخص أزرق العينين، فيُقال عنه زروق. وقد لُقّب أبوه وجدّه بالخصّار؛ لأرض فلاحية سقوية كانا يملكانها، وكانا يزرعانها بأنواع الخضر، ويكثران من الصدقة منها، فأسرة زروق رغم اهتمامها بطلب العلم وبذل الوقت في سبيل نشره⁴، ورغم اشتهاها بالولالة⁵، فإنّ ذلك لم يمنعها من الارتباط بأرضها والاهتمام بها؛ (فالعلم للدين والعمل للدنيا) كما كانت جدّة الشيخ أحمد زروق تقول لحفيدها أحمد في تربيته أثناء صغره⁶.

2- نشأته:

لقد نشأ الشيخ أحمد زروق يتيماً، حيث ذاق مرارة اليتم في اليوم الثالث من حياته، إذ تُوفيت أمّه وهو في اليوم الثالث من ولادته، ثم تضاعفت مرارة اليتم بعد ثلاثة أيام عليه أكثر بعد موت أبيه في اليوم السادس من ولادته، وكان جدّه من أبيه قد توفّي قبل ولادته بستّة أيام، وبقي بعين الله بين يدي جدّته أم البنين، كما أوردها الشيخ زروق في فهرسته، فقال: "كان مولدي عند طلوع الشمس

¹ زروق: الكناش، مرجع سابق، ص 13.

² ابن مريم: البستان، مرجع سابق، ص 45.

³ طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 20-21.

⁴ الشيخ العربي الدرقاوي الذي ينتمي إلى قبيلة بني زروال المجاورة لقبيلة بني ورياكل يصف أب زروق بالفقيه الأجل، وفي ذلك إشارة إلى مكانته العلمية، وجاء في مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط: "قال الشيخ الإمام... شهر بزروق: "حيث وصف أبوه وجدّه بالصّلاح، وهو ما أكدته وثيقة تركة الشيخ أحمد زروق التي أورد العياشي نصّها في رحلته. (انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 8).

⁵ أظنّ أن الكلمة هي "الولاية"؛ يعني رغم كون العائلة معروفة أنّها دار ولاية وورع، وعائلة أولياء صالحين وعلماء مُكرّمون من قِبَل الناس، وأهلّ لأن تتفرغ للعلم ويكون معاشهم على الدولة وما يتكرم به المريدون المحسنون، إلا أنّ ذلك كله لم يمنعهم من العمل وخدمة الأرض وفلاحتها لكسب قوتهم.

⁶ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 7.

من يوم الخميس، الثاني والعشرين من محرم سنة ست وأربعين وثمانمائة... ثم توفيت والدتي يوم السبت التالي لتاريخه عن ثلاث وعشرين سنة، ثم توفي والدي يوم الثلاثاء سادس ولادتي عن ثنتين وثلاثين سنة. وكان والده قد توفي قبل ولادتي بستة أيام عن ثلاث وخمسين سنة¹.

يذكر الشيخ طيب إدريس حادثة عجيبة وقعت في صِغر الشيخ أحمد زروق، وهي قصة فرار جدّي أحمد به ليلاً، وتحت جُنج الظلام، وخروجهما من حيّ البرانس الذي أصابه وباء الطّاعون، فماتت أمّه وأبوه وجدّه، فحملت جدّتا أحمد الرضيع وغادرتا القرية - كما فعل من قبلهم بعض السّكان - وقصدتا دوّار البور بلجاية، لأنّ جدّته لأبيه كانت لها بنت متزوجة هناك، ولأنّه دوّارهم الأصلي، ولهم فيه ممتلكات وارتباط. وكان هذا الاختباء نظراً للمنع الذي فرضته السّلطات آنذاك) على شكل ما يُعرف اليوم بالحجر الصحي؛ لكيلا ينتشر الوباء، ووصلت القافلة التي كان معها الرضيع إلى مدينة فاس مع طلوع الفجر، فتسلّلوا لدخلها، وقضى الصّبي أحمد سنته الأولى في حجر زوج خالته، ثمّ كفّلتها أمّ البنين جدّته لأمّه. وهكذا كان هذا الفرار قدراً من الله وميلاداً جديداً للشيخ أحمد زروق رحمه الله².

ولقد كانت جدّته أمّ البنين شديدة العناية به، ربّته على الأخلاق والتربية الإسلامية الخالصة، فنشأ التّنشئة السليمة. قال زروق في كناشته: "وعلمّني الصّلاة، وأمرّني بها، وأنا ابنُ خمس سنين، فكنتُ أصليّ إذاك"³.

وكان الشيخ أحمد يقول: "وكانت تأمرني بالصّلاة. فأصلي بلا وضوء؛ فتقول لها خالتي في ذلك، فتقول لها: دعيه يصلي بلا وضوء حتى يصلي بالوضوء. ولما ناهزت الاحتلام كانت تهني لي كل يوم درهما. إذا قمت في الصبح أمد عيني وإذا بدرهم مطروح على الوسادة. فتقول: صل الصبح، وتعال خذه، وتقول: هذا الدرهم يعينه على الصّلاة، ويمنعه من الفساد، ويقيه التشوف للناس في الشهوات"⁴.

¹ زروق: الكناش، مرجع سابق، ص 11.

² انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء والجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 30-31.

³ زروق: الكناش، مرجع سابق، ص 13.

⁴ المرجع نفسه، ص 14.

وكانت أم البنين تترك حفيدها كثيرا لا يحلق رأسه ولا تغسل ثوبه إلا بعد مدة طويلة، مخافة إصابته بالعين؛ يقول الشيخ زروق في ذلك: "وكانت تتركني كثيرا، لا تحلق رأسي ولا تغسل ثيابي، إلا بعد مدة طويلة، وتقول: الصغير إذا تنظف تبعته العيون فانفسد. وسمعتُ خالها يقول لها: لا تورديه خياطاً؛ لأن الخياطة تستدعي النظافة، وهي داعية الفساد¹.

ولعله يقصد بالفساد هنا، ما قد يصيب الأطفال في هذا السن من تخنث، فكانت تريده أن ينشأ قويا صلبا، وفي ذلك يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "اخشوشنوا فإن الحضارة لا تدوم"²، ولولا هذه التربية القائمة على الخشونة ما استطاع أن يواجه الحياة بعد موت جدته ومعظم أقاربه بالبواء الذي ضرب فاس مرة ثانية، ولما استطاع أن يحجّ مرتين راجلا من المغرب³.

وقد نشأ الشيخ أحمد زروق رحمه الله مثل باقي الأولاد من أبناء قرينته، يدرُس في كُتّاب قرينتهم، حيث كانوا يحفظون القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية الشريفة - على عادة أهل المغرب، قديما وإلى اليوم - على نعومة أظافرهم، حيث أدخلته جدته أم البنين إلى الكُتّاب لينهل من كتاب الله وهو ابن الخمس سنين، وكانت تجتهد حسب طريقتها الخاصة في إيصال الإيمان والتوحيد إلى قلبه

¹ زروق: الكناش، مرجع سابق، ص14. وانظر: زروق: شرح النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، شرح: محمد عبد الرحمن بن زكري، تحق: عاصم إبراهيم الكيالي، كتاب - ناشرون، بيروت، - لبنان، 2015م، ج1، ص119.

² صيغة الحديث: «اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم» ذكره العجلوني، وقال: أنه مشهور على الألسنة، وذكر حديث: «اخشوشنوا وتمعددوا، واجعلوا الرأس رأسين»، وقال: رواه أبو عبيد في الغريب عن عمر موقوفا، (انظر: العجلوني: كشف الخفاء، مرجع سابق، ج1، ص82). وذكر الألباني في السلسلة الضعيفة: (3417) الحديث بصيغة: «تمعددوا، واخشوشنوا، وانتضلوا، وامشوا حفاة»، وقال: ضعيف جداً. (انظر: الألباني، محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1421هـ/2000م، ج7، ص426). وقد أطل العجلوني الكلام في بيان الاختلاف في إسناده، ثم قال: ومداره على عبد الله بن سعيد، وهو ضعيف. وقد رواه ابن حبان في صحيحه من طريق أبي عثمان قال: أتانا كتاب عمر فذكر قصة فيها هذا، وقد بينته في الرمي بالسهم، وفيه: وإياكم وزى الأعاجم. (انظر: العجلوني: كشف الخفاء، مرجع سابق، ج1، ص362-363).

³ انظر: زروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، هامش ص36.

الصغير، وتحدث الشيخ زروق عن ذلك في كناشه، فقال: "وأدخلتني الكتاب¹ في هذا السن؛ فكانت تُعلِّمني التوحيد والتوكل والإيمان² والديانة بطريق عجيب"³.

ومن صور تعليم أم البنين لحفيدها أحمد أصول الإيمان، وكما يحكي ذلك الشيخ أحمد زروق في كناشه: "أما كانت في بعض الأيام تهيئ لي طعاماً؛ فإذا جئت من الكتاب للفظور تقول: ما عندي شيء، ولكن الرزق في خزائن المولى - عز وجل، فاجلس نطلب الله، فتمدُّ يديها، وأمدُّ يدي إلى السماء داعيَّين ساعة، ثم تقول: انظر! لعلَّ الله جعل في أركان البيت شيئاً، فإنَّ الرزق خفيٌّ، فنقوم نفتش - أنا وهي -، فإذا عثرت على ذلك الطعام يعظم فرحي به، وبالله الذي فتح به، فتقول: تعال نشكر قبل أن نأكله، لأجل أن يزيدنا مولانا، فتمدُّ أيدينا، ونأخذ في الحمد والشكر لله ساعة، ثم نتناوله، وتفعل ذلك المرة بعد المرة، ولم تزل كذلك حتى عقلت"⁴.

ولما اشتدَّ ساعده وعقل، أصبحت جدُّه تُحدِّثه بحكايات الصالحين وبسيرة المصطفى ﷺ، حتى ينشأ على إثرهم آخذاً إيَّاهم قدوته الحسنة، وهذه طريقة مثلى في تربية الصبيان، قال الشيخ زروق في الكناشة: "وكانت تُحدِّثني بحكايات الصالحين وأهل التوكل، وغير ذلك من مقومات الإيمان، وما كانت تُحدِّثني في موضع الخرافات إلاَّ بمعجزاته ﷺ وغزواته، وغرائب الكرامات، والمنقطعين إلى الله تعالى"⁵. ولقد ظهر عليه أثر هذه التربية؛ فمال إلى الزهد والتصوف منذ نعومة أظفاره، بل إنَّ الزهد والتصوف هو السمة البارزة على مُعظم أفراد أسرته، فجدُّ أبيه سيدي عيسى انقطع للعبادة في آخر حياته حتى وُصف بالقطب. وعمُّ أبيه - أخ سيدي عيسى - مولاي عبد الرحمن كان هو بدوره متفرغاً

¹ حيث أدخلته كتاب خالها الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد الفشتالي. (انظر: زروق: فوائده من كناش، مرجع سابق، هامش ص34).

² إنَّ الاعتقاد الصحيح أول ما ينبغي أن يُبذر ويُسمَّى في نفوس الأطفال، لأنَّه الأصل الذي تنبني عليه بقية الفروع من عبادات ومعاملات، ولهذا اهتمت جدَّة الشيخ أحمد زروق بهذا الجانب في تكوين حفيدها؛ لأنَّها كانت فقيهة عابدة ورعة من أهل الله. (انظر: زروق: فوائده من كناش، هامش ص34).

³ زروق: الكناش، مرجع سابق، ص13.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص13-14.

⁵ المرجع نفسه، ص14.

للعبادة بأعلى قمّة جبل الهوته حيث دفن بعد وفاته، وجدّته أمّ البنين كانت فقيهة زاهدة عابدة صالحة...¹.

وإلى جانب تعلّمه في الكُتّاب العلوم الدّينية، كان يُمارس يتردّد إلى إسكافي يعلمه صناعة الخز، إذ قال عن نفسه: "وكانت تقول لي: لا بُدّ من تعلّم القراءة للدين والصّناعة للمعاش، وكانوا يُسلمونني لتعلّم الصّناعة في الخميس والجمعة² والإثنين إن خرجت من المكتب"³.

والظاهر أنّ مرارة اليتيم وعمق الحزن الذي خلّفه موت والده وهو صغير، جعله ينصرف إلى القراءة بشغف كبير، مع دفع جدّته له وتشجيعه إيّاه، فكان من أنجب التلاميذ، ومن غرائب ذلك ما نقله في كناشه، فقال: "لما دخلت المكتب-الكُتّاب- كتب لي الفقيه "ألم نشرح" في كُفّي الأيمن بالعسل ولعقته؛ فكنت من أحفظ الصّبيان، واهتديت إلى المكتب فما هربت منه قط، ولا علمت أنّي لم أحفظ لوحى قط يوماً واحداً"⁴.

وكانت جدّة أحمد تدرب حفيدها على تفقّد⁵ الكتب، وتُحذّره من الشّع، وتقول له: "من يترك العلم، ويشغل بالشّع، كمن يُبدّل القمح بالشعر"⁶.

وكان الشيخ متميّزاً بأخلاقه العالية مُذ كان صغيراً، فيحكي عن نفسه، فيقول: "كنت كثير الحياء والاستماع؛ فإذا نهاني كبير انتهيت، فوقع أيّ كنت يوماً عند المحدث الذي يتكلّم في الأسواق، فإذا بخال جدّي جاءني وقال: إنّما يجلس هنا من لا خير فيه. فما جلست عنده إلى الآن... وكان الشيخ الفقيه القاضي سيدي أحمد بن العجل تزوّج جدّي، فنهاني يوماً عن سبق الأضياف للقصة، فوقع ذلك في نفسي، فصرت أكرهه كالموت. وحتى الآن ما تناسيت ذلك ولا سمحتُ به"⁷.

¹ انظر: زروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، هامش ص35.

² لأن العطلة الأسبوعية في التعليم آنذاك كانت يومي الخميس والجمعة، وأثناء دراسي-يقول حفيد الشيخ، طيب إدريس- بالقرويين بفاس كانت العطلة الأسبوعية ما زالت في اليومين نفسهما. (زروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، هامش ص37).

³ زروق: الكناش، مرجع سابق، ص15.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص15.

⁵ الكلمة الواردة في مرجع "الكناش" هي: نقد، ولعل المقصود بها تحنير الكتب وانتقاؤها وتصفحها وقراءتها؛ إذ لا يزال أحمد صغيراً عن مرتبة نقد الكتب وأصحابها. (انظر: زروق: الكناش، مرجع سابق، ص14).

⁶ انظر: زروق: الكناش، مرجع سابق، ص14-15.

⁷ انظر: المرجع نفسه، ص16.

وقد توفي والد الشيخ أحمد زروق رحمه الله، ولم يُوص له بشيء من ماله؛ وقد قال عن ذلك: "ولما حضرته الوفاة عهد بي لأُمِّه، وكانت مُبْدِرَةً جَدًّا، وأوصى بثُلث ماله لمؤدِّي جامع الأندلس"¹. قالت جدتي²: فقلتُ له: "ما هذا الذي صنعت؟ أوصيت بالثلث، ونَقَصْتَ الثُلث لهذا الولد، وهو عُلَقَّة، وما قَنَعْتَ حتَّى أوصيت به أُمُّك، وتعلم أنَّها تُعْطِيهِ للطَّارِح"³. قالت: فقال لي: "ما أوصيتُ به قَدَمْتُهُ لموضع أنا أحوجُّ فيه منه؛ بنيتُ به قَصْرًا في الجنَّة، والباقي أوصيتُ به أُمِّي، وولدي هذا تَوَكَّلْتُ به على الله". ثمَّ نظر إليَّ، وقال: "أبشر يا ولدي، استودعتك الله!"، ثمَّ مات - رحمه الله-، لا أدري في وقته أو بعده⁴.

ثمَّ يُصَرِّح الشيخ أحمد زروق - رحمه الله- أنَّه ما انتفع بماله في شيءٍ مُعْتَبَر، ولا ذلَّ ولا سأل، ولا انتفع بسببه، ولا أصابته فاقَّةٌ أبدًا، وقد ناهز الخمسين، ولا أنَّه احتاج ولو دينارًا إلَّا تَوَقَّرَ له، ولا مئة إلَّا كانت بين يديه، من وجه عزيز سهل حلال⁵، وهذا من كرامة الله عليه رحمه الله⁶.

¹ وفي وصية أب الشيخ أحمد زروق دلالة على فقهه وورعه، واقتصاره على الثلث في الوصية بيانٌ لشدة تمسكه بالسنة النبوية الشريفة، لقوله ﷺ: "والثلث كثير". ثم إن وصيته تؤكد غناه، وليس فقره، كما زعم البعض -منهم الشيخ عبد الله كنون- لأن الوصية لا تكون عن فقر بل عن غنى، وفي وصف جدته لأبيه بالتبذير ما يؤكد ذلك؛ لأن التبذير لا يكون إلَّا من إنسان يملك أموالًا يبذرها. (انظر: زروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، هامش ص 27).

² يقصد جدته لأُمِّه، أم البنين الفقيهة الصالحة التي ربَّته.

³ الطارح: لها معاني عدة في اللهجة المغربية. وهي في لهجة أهل ليبيا تعني: الذي لا نفع فيه ولا خير. إلَّا أن سياق الكلام يقتضي: أنَّها ستهمل تربيته ورعايته، وأنَّها ستنفق المال فيما لا طائل ولا نفع فيه. ولقد كان الأمر كما توقعت أم البنين، فما انتفع مما تركه له والده من المال نقداً أي شيء، أما الأراضي والجنات فلم ينتفع منها بعض الانتفاع إلَّا بعد بلوغه سن الرشد. وعودة الحياة لقريته المنكوبة؛ لأنه بعد الوباء هجرها سكانها لمدة طويلة. (انظر: زروق: الكناش، مرجع سابق، هامش ص 11. وزروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، هامش ص 27-28).

⁴ زروق: الكناش، مرجع نفسه، ص 11.

⁵ لقد اتَّخذ الشيخ بالأسباب وكان يحترف الخرازة، وكفاه الله مؤونة عيشه، فقد كان لله فكان الله له، كما حرص عند بلوغه سن الرشد، وعودة الحياة لقريته المنكوبة على رعاية الممتلكات التي ورثها عن أبيه، والمتمثلة في الأراضي والجنات بكل من دوار البور، ودوار الهوته تافرنوث، ودوار حدّ البغال، وكلها بقبيلة بني ورياكل الجبلية ببادية فاس. كما أنه اشتغل بالتدريس بفاس ما بين 868-874هـ، وبعد ذلك كان يستنسخ كتبه، ويقدمها هدية لمن يريد لها ويطلبها، هذا إضافة إلى الفتوح التي كانت تأتيه من الرزاق الكريم، ومن المحسنين من كان له اعتقاد حسن في الشيخ. (انظر: زروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، هامش ص 28).

⁶ زروق: الكناش، مرجع سابق، ص 11-12.

ومن أمثلة ذلك ما حكاه الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- عن رضاعه، وأنه ما انتفع من مال أبيه شيئا، فيقول في ذلك: "ولقد حَدَّثَنِي جدِّي أَنَّهُم أخذوا لي مُرْضِعَةً بإجارة من مال أبي، فحلف لها زوج خالتي أن لا تخرج من داره، ينفق عليها مدّة رضاعي، فكانت تأخذ ذلك، ولا يعود عليّ منه شيء"¹.

وقد حدث عارضٌ منع الولد أحمد من إكمال رضاعه، فيقول الشيخ أحمد زروق في كناشه، ما نصّه: "قالت جدّتي: وكانت مدّة رضاعي تسعة أشهر؛ لأمرٍ عرض منع من إكمالها؛ وهو أنّ المُرْضِعَةَ قالت لبعض النّاس: هذا شريفٌ يتيّم، كفّلته لله، فبلغ ذلك الفقيهة، فأَنفَت منه، ونزعتني منها، وكانت تُغذّيّني بالجوز والتّين-على عادة أهل الجبل بالمغرب إلى الآن، عند قلّة حليب الرّضاع-تمضغه وتُطعمُنيهِ"².

والظاهر أن أمّ البنين أنفَت من كلام المُرْضِعَةَ، الذي فيه تعريضٌ بفقر وعجز العائلة عن دفع أجار المُرْضِعَةَ، وما في هذا الأمر من إهانة واحتقار لم تقبله جدّة الشيخ أحمد؛ لأنفَتها وعزّت نفسها. إنّه رغم رفعة مكانة الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- عند العامّة والخاصّة، وجلال قدره عند النّاس جميعاً، إلا أنّه نشأ وتربّى على خُلُق التّواضع والزُّهد وعدم حُبّ الشُّهرة؛ فقد كان يحرّص على خدمة المريدن والشُّيوخ والعلماء الذين أخذ عنهم، وأوضح مثال على ذلك، خدمته لشيخه الزّيتوني مدّة طويلة، ثمّ شيخه الحضرمي من بعده. ولقد عاش حياته فارّاً من المناصب العليا، مُعْرِضاً عن السُّلطان وحاشيته، وذوي الجاه الدُّنيوي، لا يَحْفَل بهم، ولا يتعرّض لعطائهم أو نوالهم، قال عنه الشيخ المناوي في الكواكب الدريّة: "... خطبته الدُّنيا فخاطب سواها، وعُرِضت عليه المناصب فردّها وأباها..."³. ومما يدلّ على تواضعه وعدم حُبّه للمدح والشُّهرة، ما نجده في مُقدّمات وخواتيم مُعظم

¹ انظر: زروق: الكناش، مرجع سابق، ص12. وزروق: فوائد من كناش، مرجع سابق، ص29.

² انظر: المرجع نفسه، ص13.

³ المناوي، محمد عبد الرؤوف: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تحق: محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، لا.ط، د.ت، ج3، ص166.

كتبه من اعترافه بالتقصير والعجز والجهل¹. حيث لا يدعي علما ولا إماما بالموضوع، ولو كتب فيه غير ما مرّة، وكذا عدم ادّعائه المشيخة لمن طلب منه الإذن في الدُّخول في طريقته، وكذا سُكناه في بلدته لجاية- بعد عودته من رحلته الأولى للمشرق- بدل فاس العاصمة السياسية والعلمية للمغرب آنذاك، وكذا استقراره بمصراته آخر حياته وتفضيله إياها عوض طرابلس، مُفضّلاً كعادته، الابتعاد عن الشهرة الزائفة، ومُنفردا للمجاهدة الروحية والتأليف والتدريس².

وقد غلب على الشيخ أحمد زروق في آخر أيام حياته حال القبض، والانزواء عن الخلق، وقد كان يعاني كثيرا من مرض السّوداء الذي لازمه مُدّة حياته؛ وقد أشار إلى ذلك في كُناشته، حيث قال: "مرضت في مصر مرضات أربع، كل مرّة أربعة أشهر، وفي كل مرّة لا أبرأ حتى أداوم على أكل الزَّيتون الأسود مدّة، لا أتَقَوْتُ بغيره، فذكرتُ ذلك لشيخنا أبي عبد الله القوري-رحمه الله-، فقال: ذلك هو الذي جبرك؛ لأنّ السّوداء هي صمغ البدن..."³.

وقد أكّد الشيخ على ما كان يعتريه من المرض في غير ما موضع من مؤلّفاته، فيقول في مقدمة شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني: "مع ما اعتراني من الأعراض والأمراض"⁴. وقال -رحمه الله- في خاتمة شرحه للرسالة: "قال مُؤلّف هذه العُجالة العبد الفقير إلى الله سبحانه أقل عبيده وأنقرهم إلى رحمته أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي ثم الفاسي عرف بزروق أصلح الله حاله وبُلّغ فيما لديه آماله، وعافاه من بليّته وشفاه من علّته، ورزقه في كلّ حال شكر نعمته..."⁵.

¹ كان كثيرا ما يصدّر مؤلفاته بقوله: "يقول المعترف بذنوبه وعيوبه وتقصيره. الراجي فضل مولاه وإحسانه في جميع أمره. أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي، ثم الفاسي، شهر بزروق، غفر الله ذنبه، وستر عيبه، وأصلح قلبه..." (انظر: زروق، أحمد: الشرح التاسع للحكم العطائية، تحق: محمد طيب إدريس، كتاب- ناشرون، بيروت، لا.ط، 2019م، ص15).

² انظر: زروق: النصائح الزُّوقية، مرجع سابق، ص11-12.

³ زروق: الكُناش، مرجع سابق، ص16.

⁴ انظر: زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، اعتناء: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2006م، ج1، ص10.

⁵ انظر: المرجع نفسه، ج2، ص113.

المطلب الثاني: مساره العلمي ورحلاته

1- مساره العلمي:

منذ نومة أظافر الشيخ أحمد زروق رحمه الله، عهدت به جدته أم البنين إلى خالها الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن محمد الفشتالي، فحفظ الطفل الصغير القرآن الكريم على الشيخ الفشتالي بطالعة فاس. قال زروق في كُتَّاشه، وهو يذكر عددا ممن أخذ عنهم: "ثم خالي-أعني خال جدي- الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن محمد الفشتالي، ثم السلوي، المعروف بنور الله، كان يُعَلِّم الأولاد "بطالعة فاس"، وكان مشهورا بالديانة، وكان ينجر أعواد السُّرُج في أوقات الفراغ... وهو الذي حنكني عند ولادتي، وكان يقول لجدي: يا أمي، توفي -رحمه الله- في سنة 856هـ عن نحو ستين سنة... قالت جدي: وعليه قرأت القرآن مع أبي"¹.

كان طلب العلم شُغله الشاغل، وكان مهموما باستقائه من مصادره والتَّهَلُّ من منابعه. ومن كانت هذه صفته، فلا غَرُّ أن تبدو علامات النَّجَابَةِ عليه منذ صغره، وأن يظهر نبوغه منذ بواكير صباه، ويبرز نتاجه في مراحل شبابه الأولى².

ولما بلغ زروق السادسة عشرة من عمره، وأصبح شاباً يملك مصير نفسه، قرَّر أن يُغَيِّر مجرى حياته تماما، من صبيٍّ خَرَّاز إلى طالب علم وفقه مُجَدِّ يُعَوِّض ما فات. فانتظم في سلك طلبة "جامع القرويين" و"المدرسة العنانية" معا، وصار يتردَّد عليهما لدراسة أمَّهات كُتُب المذهب المالكي والحديث والأصول وقواعد العربية. ومن المَرَّح أَنَّهُ درس بعضاً من كُتُب التَّصَوُّف كذلك في الفترة المبكرة من عمره، وهو أمرٌ متوقَّع قياساً بالجوِّ العام الدِّيني في فاس، وقد تتلمذ على أشهر علمائها، والتقى برجالها الذين أعانوه في دراسته لكُتُب اللُّغَةِ والدِّين، وكان زروق فخوراً بهؤلاء الأساتذة المشهورين، فسجَّلهم في كُتَّاشه³.

¹ انظر: زروق: الكناش، مرجع سابق، ص 17-18.

² زروق، أحمد: كتاب الإعانة، تحق: علي فهمي خشيم، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1979م، ص 6.

³ خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 33.

وقد شرع الشيخ أحمد زروق وهو في سن السادسة عشر من عمره، في قراءة "الرسالة" على الشيخ علي السطلي [البسطي]، قراءة تحقيق وبحث¹. وينقل عنه عددٌ من المترجمين له، قوله عن نفسه: "ثم نقلني الله بعد بلوغي سنّ سادس عشر إلى القراءة، فقرأتُ الرسالة على الشيخين علي السطلي وعبد الله الفخار قراءة بحث وتحقيق، والقرآن على جماعة، منهم: القوري والزرهوني: وكان رجلاً صالحاً، والمجاصي والأستاذ الصغير بحرف نافع، واشتغلتُ بالتصوّف والتوحيد، فأخذتُ "الرسالة" القدسية"، و"عقائد الطوسي" على الشيخ عبد الرحمن المجدولي² وهو من تلامذة الأبي³، وبعض "التنوير" على القوري، وسمعتُ عليه البخاري كثيراً وتفقهت عليه في كلّ أحكام عبد الحق الصغرى، وجامع الترمذي، وصحبتُ جماعة من المباركين لا تُحصى كثرة بين فقيه وفقير"⁴.

قال الحافظ السخاوي: "أخذ عن القوري، وكتب على حكم ابن عطاء الله، وعلى القرطبية ونظم فصول السلمي"⁵.

وقد كان معظمُ أساتذة أحمد زروق -رحمه الله- الذين درس عليهم في مرحلته الأولى، ينتمون إلى قبيلة بني ورياكل أو قبيلة مجاورة لها، ومن هؤلاء نذكر منهم:

✓ الفقيه الإمام أبو محمد عبد الله محمد بن موسى العبدوسي: توفي سنة 856هـ، وينتمي إلى العبادسة من بني معطي، دوار أولاد عطية معروف ببني زروال، أخذ عنه ابن أملال والقوري والفقيه الورياكلي الذي قام مقامه للخطابة بجامع القرويين لما مات؛ ولقد حملت أسرة

¹ الزاوي: أعلام ليبيا، مرجع سابق، ص 107.

² الشيخ الأصولي الكلامي المنطقي: أبو زيد عبد الرحمن المجدولي المشهور بالتونسي، كان قد برز في علم المعقول، وعنه كان يؤخذ بفاس، وكان لسانه لا يعينه على حسن الإلقاء، وكان أخذه عن الإمام أبي عبد الله الأبي عن شيخ الشيوخ أبي عبد الله بن عرفة. (انظر: ابن غازي: الفهرس، تحق: محمد الزاهي، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، ط1، 1984م، ص 77-78. وابن القاضي: جذوة الاقتباس، مرجع سابق، ج2، ص 405).

³ محمد بن خليفة الوشناني أبو عبد الله، الشهير بالأبي، نسبة إلى أبيه قرية بتونس. الإمام المحصل النظار، أصولي وعالم المغرب بالمعقول. أخذ عن ابن عرفة ولازمه وانتفع به. وعنه أخذ أئمة كابن ناجي وأبي حفص القلشاني. توفي سنة 823هـ. من آثاره: إكمال الإكمال على مسلم. (انظر: ابن القاضي: درة الحجال في غرة أسماء الرجال، مرجع سابق، ج2، ص 285)

⁴ ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، مرجع سابق، ج1، هامش ص 90-91. والتبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص 130-131.

⁵ السخاوي: الضوء اللامع، مرجع سابق، ج1، ص 221.

البدوسي راية العلم بفاس والمغرب زمنا طويلا. ويُعتبر البدوسي من أساتذة زروق الذين أخذ عنهم في صغره¹. وقد حكى عنه في كُناشه، فقال: "...جُملتُ إليه وأنا رضيع، ولم أزل أتردد إليه في ذلك السن؛ لكون جدِّي تقرأ مع أختيه فاطمة وأم هاني، وكانتا فقيهتين صالحتين". وهو قطبٌ في السَّخاء، إمامٌ في نصيح الأمة. أَمَات كثيرا من البدع الكائنة بالمغرب، وأقام الحدود والحقوق، وتقلد في آخر عمره خطابة "جامع القرويين" نحو من سنتين. ثم توفي سنة 859هـ، وكان أكثر عمله فقه الحديث².

✓ الشيخ الفقيه القاضي أبو العباس أحمد بن العجل الوزروالي: قاضي "المدينة البيضاء" ومستناب "مدينة فاس" القديمة. تزوّجته جدّة أحمد زروق في سنة خمس أو ست وخمسين، فأقامت عنده ثلاثة أشهر. ثم توفي في رمضان بالوباء سنة 856هـ. كان يختم القرآن - كما حدثت جدّة زروق - في كلّ أسبوع، وكان الغالبُ عليه النَّحو، وأنه كان متصوفا³.

✓ الفقيه الوريكلي: أبو محمد عبد العزيز موسى الورياغلي⁴، ينتمي إلى قبيلة الشيخ أحمد زروق، خطيبُ "جامع القرويين" وإمام الخمس به، ومُفتي فاس. كان يُقرئ المذاهب الأربعة وينتصر لمذهب الإمام مالك رحمه الله. بلغ درجة الاجتهاد، وتولّى رئاسة العلم في فاس سنين طويلة، وتوفي سنة 880هـ - حسب ما نصّ عليه الونشريسي في معياره⁵.

✓ أبو عبد الله أحمد بن عبد الله الزيتوني الشفشاوني: شيخ الطريقة الشاذلية/القادرية، ينتمي إلى قبيلة شفشاون التي لها حدود مشتركة وعلاقة وطيدة بقبيلة بني ورياكل، بل إنّ الشيخ

¹ انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء والجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 50.

² زروق: الكناش، مرجع سابق، ص 18-19.

³ زروق: المرجع نفسه، ص 19-20.

⁴ الورياغلي نسبة إلى قبيلة بني ورياكل، لكن الكثير من المؤرخين يكتبون "الورياغلي"، كصاحب سلوة الأنفاس والضوء اللامع... الخ.

⁵ الونشريسي، أحمد بن يحيى: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 2، 1400هـ/1980م، ج 2، ص 487. وانظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء والجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 48.

الزيتوني كانت له علاقة بعائلة زروق، فقد قال عنه الشيخ أحمد زروق: "كان ينزل بدارنا، ويُقيم فيها الأيام العديدة، وكان كفيفا ومُقعدًا، وكانت والدتي - يقصُّد جدَّته - تخدمه وتردُّد إليه في ضروريَّاته"¹.

✓ الفقيه الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الرحمن الأنفاسي: خطيب "جامع الأندلس"² وإمامه، والذي كان يُستسقى به عند الجذب، وقد انتفع به جماعة كثيرة في قراءة "المدونة"، وقالوا: كان لا يقرؤها إلا بابن يونس، وقد قرأ عليه الشيخ زروق "المدونة"، وأخبر أنه كان يصلي خلفه كثيرًا، وقد كان ينتمي إلى قبيلة بني ورياكل. وقد توفي سنة 860هـ، وقد طعن في السن³.

✓ الفقيه الصِّدْر الأجلِّ العالم، مفتي المسلمين، أبو عبد الله محمد المعروف بابن أملال: والذي تولى إفتاء فاس بعد الشيخ أبي عبد الله القوري، عند تأخيره أيامًا، ثم مات، فعادت إليه. ينتمي في الأصل إلى بني أملال أو أملول ببني زروال المجاورة لقبيلة بني ورياكل. توفي سنة 856هـ. وكان الشيخ زروق يأخذ عنه ويُصلي خلفه "بمدرسة الحلفاويين" بفاس، تُوفي في نفس اليوم الذي توفِّي فيه الفقيه الوزروالي، زوج جدَّة الشيخ زروق⁴.

✓ الفقيه محمد بن قاسم القوري الزروالي: المتوفى في سنة 872هـ، ينتمي أصلاً إلى فخذة بني قاسم الزرواليين، حيث درس عليه زروق صغيرًا وشابًّا، وكان يزوره في منزله كما يُشير إلى ذلك في الكُنْاشة⁵.

✓ الفقيه القاضي أبو علي الحسن بن منديل المغيلي أو المكيلى: توفي سنة 864هـ، والذي كان إمامًا بـ "المدرسة العنانية" ومُدْرَسًا بالقرويين، ينتمي إلى بني مكيل - مزكلدة - وهم جيران بني ورياكل، اشتهر طلابها برحلتهم إلى بني ورياكل لحفظ القرآن الكريم وطلب العلم⁶. قال عنه زروق: "قالوا: وكان يحفظ

¹ انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء والجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص48.

² أكبر مسجد جامع بفاس بعد القرويين. اختلفت روايات المؤرخين في تاريخ بنائه وكذلك اختلفوا في تاريخ نقل الخطبة من جامع الأشياخ إليه فيما بين 321-345هـ. ويرى الجزنائي أن بنائه كان سنة 245هـ. وسمي بمسجد الأندلس؛ لأن جماعة من أهل الأندلس كانوا يعيشون حوله وساهموا في بنائه. (انظر: الجزنائي، علي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1411هـ/1991م، ص92).

³ زروق: الكُنْاش، مرجع سابق، ص21.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص21.

⁵ انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء والجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص49.

⁶ انظر: المرجع نفسه، ص48-49.

الجزولي المسبوع على " الرسالة " عن ظهر قلب. وكان يغلب نقله حتى يظهر أنه كان يزيد عليه. وكان بينه وبين القوري والمزهدى منافرة¹.

وقد أخذ زروق عن غير هؤلاء الذين ذكرنا، من علماء ومتصوفة من فاس وغيرها من حواضر الغرب الإسلامي، وأخذ أيضا من مدن المشرق والمغرب، فقد كان كثير التّجوال في البلاد الإسلامية الشاسعة، وحجّ وجاور المدينة المنورة وأقام بحاضرة مصر زمنا للإفادة والاستفادة، فأخذ عن أعلامها الكبار وأخذ عنه كثير ممن يُشار إليه من أهلها. وممن سُمّي من شيوخه بين مغاربة وأفارقة ومصريين غير ما ذكر؛ العلامة السراج الصغير وأحمد بن سعيد الحبّاك وأبو مهدي عيسى الماواسي والخروي الكبير، والشيخ الجزولي، والشيخ الإمام العالم المشارك عبد الرحمن الثعالبي والولي إبراهيم التازي²، والولي أحمد بن الحسن الغماري، وأحمد بن يونس القسنطيني عالم المعقولات والفقه والحديث، وأحمد اليزليطي، وأحمد بن العروس الصوفي، والمشدّالي والشيخ حلولو الصغير والرّصاع التونسي وشيخ العلوم العقلية والنقلية محمد بن يوسف السنوسي، والفقيه أحمد بن زكري التلمساني والشيخ الحافظ نور الدين التّنسي³ والفقيه نور الدين السنهوري⁴ والجوهري⁵، والحافظان السّخاوي والدّيمي، والقطب أبو العباس ابن عقبة الحضرمي، ووليّ الله شهاب الدّين الأبيشي، وهما من مشايخ الصّوفية والأول هو عُمدته في طريق السّلوكة⁶.

ذكر صاحب "طبقات الشاذلية الكبرى، المسمّى بجامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية"، أنّه لما قدّم الشيخ زروق مصر- في غير القدمة الأولى التي قدّمها، وكان فيها لا يزال بصدد

¹ زروق: الكنّاش، مرجع سابق، ص22.

² الإمام العالم العلامة الناظم البليغ الورع الشيخ أبو سالم وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن علي التازي نزيل وهران، كان من الأولياء الزاهدين وعباده الصالحين، إماما في علوم القرآن مقدما في علم اللسان، حافظا للحديث بصيرا بالفقه وأصوله، من أهل المعرفة التامة بأصول الدين. (انظر: ترجمته في: التنبكي: نيل الابتهاج، ص59-64).

³ قال زروق: "ومن لقيت بمصر الشيخ نور الدين التّنسي، حضرت مجلسه وقرأت عليه بعض شيء، وكان حسن التقرير، قوي الفهم، عظيم الإنصاف، حميد الأوصاف. توفي في سنة 875هـ، وأنا إذ ذاك بالحجاز". (زروق: الكنّاش، مرجع سابق، ص38).

⁴ قال زروق: "والشيخ نور الدين السنهوري، ضرير، حافظ للفقه، عارف بالنحو والأصول. له شرحان على "الأجرومية" وشرح على "المختصر"، قرأت عليه أول "المختصر" إلى سجود التلاوة، في سنة 875هـ. (زروق: الكنّاش، مرجع سابق، ص38).

⁵ يقول زروق: "والشيخ شمس الدين الجوهري، الشافعي المذهب، فقيه، نحوي، أصولي، له شرح على "الشذور" لابن هشام وشرح "التنبية". أخذ على المحلي، وقرأت عليه بعض كتب المحلي. توفي سنة 891هـ. (زروق: الكنّاش، مرجع سابق، ص38).

⁶ كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، مرجع سابق، ج1، ص544.

الأخذ عن أعلامها- وسمعتُ بقُدومه العلماء والفضلاء من أهلها، وفَدُّوا عليه، وتمثلوا بين يديه، وكان يَحْضُرُ دَرَسَه في الجامع الأزهر الشريف زُهاء سِتَّة آلاف نَفْسٍ من مصر والقاهرة وأحوازها، وتولَّى إمامة المالكيَّة وصار أستاذ رواقهم ونَصَبُوا له كُرْسِيًّا عالي الأركان، بديع الإتقان، صار يجلس عليه للإفادة. قال: وهذا الكُرْسِيُّ موجودٌ إلى وقتنا هذا برواق السَّادة المغاربة بالأزهر الشريف. وكانت له صولة ودولة عند أمراء المصريين، والقبول التام عند الخاص منهم والعام. وهذا كله إنما تأتَّى له من سعة علمه ونباهته وتميُّزه في فنِّه¹.

وعن تلاميذه، ما ذكره المهدي الفاسي عن الشيخ أحمد زروق: "وأما ما تخرَّج من الرجال على يديه؛ فكثرتهم ممَّا لا يخفى؛ فقد انتشرت طريقته مشرقًا ومغربًا. وقال أيضا: وأما الشيخ أحمد زروق فالطبقة الأولى من أتباعه أصحابه؛ وقد صَحَّبه الناس وتعلَّقوا به بالمشرق والمغرب، وفي المدن والبوادي والحضر، وتخرَّج به من الأئمَّة الجهابذة ما لا يطلع عليه..."².

وقد كان الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- حاشما حلَّ وارتحل تتلمذ على شيوخ أعلام، وتأسَّد لشيوخ أعلام؛ وهذا لشغفه بالعلم والعلماء. ومن تلاميذه: الإمام القسطلاني، والخطَّاب الكبير³، وشمس الدين اللقاني⁴، وناصر الدين اللقاني، والشيخ عبد الوهاب الشعراي⁵، والعارف أبا الحسن البكري،

¹ انظر: الكوهن الفاسي: طبقات الشاذلية الكبرى، مرجع سابق، ص118.

² طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء، مرجع سابق، ص297. نقلا عن: الفاسي، محمد المهدي: تحفة أهل التصديق بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية. مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط رقم: 2242د/ فلم: 2634.

³ هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن حسين، الرعيبي، الأندلسي الأصل، الطرابلسي ثم المكي، عُرف بالخطاب. ولد سنة 861هـ، وتحوَّل مع أبويه وأخويه إلى مكة سنة 877هـ. وتفقَّه على محمد الفاسي وعلى أخيه في المختصر والسنهوري، والإمام زروق وغيرهم وتوفي سنة 945هـ. (انظر: التنبكي: نيل الابتهاج، مرجع سابق، ص588. ومخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص389).

⁴ لم يخلق بعده مثله، وعم نفعه في الفتوى، عكف عليه الناس وتزاحموا عليه، انفرد بإقراء مختصر الشيخ خليل، أخذ عن زروق وانتفع بعلمه وعمله وداوم خدمته وحصل له بذلك خير كثير. (انظر: التنبكي: نيل الابتهاج، مرجع سابق، ص586-587).

⁵ أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري المشهور بالشعراي (898هـ-973هـ)، العالم الزاهد، الفقيه المحدث، المصري الشافعي الشاذلي الصوفي. قرأ على زين الدين الخلي، ونور الدين الجارحي، والقسطلاني وغيرهم. له تأليف: طبقات الأولياء. (انظر: الغزي، نجم الدين: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، ج3، ص158. والكوهن الفاسي: طبقات الشاذلية الكبرى، مرجع سابق، ص130).

والخزوي الصغير¹. وقد قال صاحب شجرة النور الزكية: "وكفاه شرفاً بأخذ هذين الشيخين: الشعراي والبكري، عنه"².

وفي طريق عودة الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- للمغرب سنة 878هـ، أخذ عنه الطريقة الزروقية الشاذلية القادرية عددٌ من علماء عصره منهم: ابن مرزوق الكفيف (ت 901هـ)³، الذي كانت تربطه بالشيخ زروق علاقةٌ طيبةٌ منذ رحلته الأولى لتلمسان سنة 869هـ، حيث كان ابن مرزوق خطيباً في مسجد العباد بتلمسان، وقد أمر ابن مرزوق ابنه أحمد بصحبة الشيخ أحمد زروق إلى المغرب للأخذ عنه، وبقي بعده بالمغرب؛ فأسرة المرازقة بقبيلة بني زروال تنتسب إليه. وعن ابن مرزوق أخذ الطريقة الزروقية تلميذه الفقيه العمدة الإمام العالم القدوة، أبو العباس أحمد بن محمد الشهير بابن أبي حيدة الوهراني⁴؛ وهو الذي كان يطالع له، ويسرد بين يديه في دروسه. توفي سنة 951هـ⁵.

وقد كان للشيخ أحمد زروق وهو في لجاية/بجاية، عددٌ من المريدين والتلاميذ النجباء، الذين أخذوا عنه العلم والفقه ونشروا طريقته من بعده، ومن أشهر تلامذته، وتلامذة تلامذته بالمغرب، نذكر منهم:

¹ زروق: شرح المقدمة القرطبية، مرجع سابق، ص 56.

² مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مرجع سابق، ج 1، ص 386.

³ هو محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب الرئيس أبي عبد الله بن مرزوق، العجيسي المغربي المالكي، وكان الكفيف إماماً عالماً، ومولده عام 824هـ، أخذ عن أبيه الصحيحين والموطأ وغيرهما، وعن عالمي تلمسان: أبوي الفضل ابن الإمام والعقباني، وعن ابن حجر العسقلاني وابن عقاب وغيرهم. ومن تلاميذه: السنوسي صاحب العقائد المشهورة، والونشريسي صاحب المعيار. توفي بتلمسان سنة 901هـ. (انظر: المقرئ: نفح الطيب، مرجع سابق، ج 5، ص 419. والسخاوي: الضوء اللامع، مرجع سابق، ج 9، ص 46. والتنبكي: نيل الابتهاج، مرجع سابق، ص 574).

⁴ أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن يحيى المعروف بابن جيدة (ابن حرة: في الابتهاج) المديوني ثم الجهيزي الوهراني، أخذ عن السنوسي وعن تلميذه: محمد بن موسى، وعن ابن مرزوق الكفيف وهو الذي كان يطالع له وأخذ التصوف عن ابن تازغدرت (تاغررت: في درة الحجال)، وهو أحد تلامذة إبراهيم التازي وعنه أخذ المنجور وغيره. توفي سنة 951هـ. (انظر: مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج 1، ص 402. وابن القاضي: درة الحجال، مرجع سابق، ج 1، ص 105. والتنبكي: نيل الابتهاج: مرجع سابق، ص 140).

⁵ طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء، مرجع سابق، ص 297.

• الشيخ أبو عبد الله محمد المغراوي¹: الذي استخلفه على زاويته بلجاية وأذن له في إعطاء الورد- قبل مغادرته لأرض الوطن في المرة الثانية- لمن أراد الدخول في الطريقة الزروقية ممن تبعه بقبيلة لجاية (دوار البور حاليا لأنه كان يعتبر آنذاك من لجاية؛ وهذا معروف وشائع بين كبار السن من أبناء الدوار). وقد لحق المغراوي بأستاذه إلى مصراته عندما استقرَّ بها. توفِّي المغراوي سنة 930هـ بمصراته، وأسْرته مازالت معروفة بها. وقد خلَّف المغراوي بالمغرب بعد رحيله لمصراته ولده محمد؛ وهو أحد تلامذة ابن غازي المقرين له، ولقد رثى محمد هذا أستاذه بعد موته بقصيدة رائعة².

• أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني (ت 927هـ)³: من أشهر مشايخ الصوفية بالجزائر وبلاد المغرب في بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر ميلادي، المحقِّق الحجة والمقرئ العالم المحصِّل، السَّالك النَّاسك الرَّاهد العارف، وقال عنه صاحب كتاب: "سلوة الأنفاس": "كان من أعيان مشايخ المغرب وعظماء العارفين، أحد أوتاد المغرب، وأركان هذا الشأن، جمع الله له بين علم الحقيقة والشرعية، وانتهت إليه رئاسة السالكون وتربية المريدين بالبلاد الراشدية والمغرب بأسره... وهو من تلاميذ الشيخ زروق"⁴.

ساهم الملياني في بداياته بنشر الطريقة الشاذلية والزروقية، ثم بدأ بنشر طريقته الخاصة به المعروفة بالراشدية. انتسبت إليه عدّة طرق صوفيّة من بعده أبرزها الطريقة اليوسفية، المعروفة أيضا

¹ أبو عبد الله شقرون بن محمد بن أحمد بن أبي جمعة المغراوي، الأستاذ المتكلم القدوة المقرئ العالم العمدة، أخذ عن ابن غازي وأبي العباس الدقون، وأجاز له، له تأليف منها: الجيش الكمين في الكر على من يكفر عموم المسلمين. وله شعر حسن ومرثية في شيخه ابن غازي. توفي سنة 929هـ. وفي درة الحجال أنه توفي عام 930هـ. (انظر: مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص400. وابن القاضي: درة الحجال، مرجع سابق، ج2، ص151. والتنبكتي: نيل الابتهاج، مرجع سابق، ص199).

² انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء، مرجع سابق، ص298.

³ الشيخ العالم الولي، المقرئ بالقراءة السبعية، أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي نسبا ودارا، الملياني. نزيل مليانة بين الجزائر وتلمسان، من أصحاب الشيخ أحمد زروق، من أكابر مشايخ الصوفية. وممن صحب الشيخ: أبو محمد الخياط والشيخ الشطبي. توفي بمليانة في 927هـ. (انظر: ابن عسكر: دوحة الناشر، مرجع سابق، ص124. والكتاني: سلوة الأنفاس، مرجع سابق، ج2، ص14-15).

⁴ الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس، مرجع سابق، ج2، ص14-15.

بالشَّرَاقَة والعكاكزة المثيرة للجدل بالمغرب الأقصى، وحاشاه أن يقول بمقولتهم¹. وكانت له أدوار سياسية هامة؛ إذ اشتهر بمعارضته لحُكَّام الدولة الزيانية (633-941هـ/1235-1534م) بالمغرب الأوسط، وتحالفه مع الإخوة بربروس والبحَّارة الأتراك بعد ظهورهم بمدينة الجزائر، كما كانت له مراسلات مع حُكَّام الدولة الوطاسية للدفاع عن أتباعه بالمغرب الأقصى، وكانت لبعض أتباع طريقته هناك مواجهات مع حُكَّام البلاد المختلفين لزمان طويل بعد وفاته².

● **سيدي بوراوي الفحل:** وليُّ سوسة، أبو عبد الله محمد بن عمران بوراوي الفحل القلعي، ذُكر أنَّه من مواليد سوس بالمغرب الأقصى حوالي سنة 871 هـ، من أصحاب الشيخ أحمد زروق، وهو من مقيمي القلعة الصغرى (أحواز مدينة سوسة) ومنها انتقل إلى مدينة سوسة، حيث أقام بها حتى وفاته ودُفن في مقامه المعروف الآن بسيدي بوراوي، وقيل أنَّه سُمِّي بوراوي لأنَّه ولد ببليلة مُطرَة بعد سنوات عجاف. وكان أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب إلا عطاءً وهبةً من الله تعالى، وكان أهلُ إفريقية إذا استشكل عليهم أمرٌ من الأمور فيأتون إليه فيحلُّ لهم كلُّ مُشكل عويص. كان والده من أتباع الغوث الكبير سيدي أحمد بن عروس³ (ت 868هـ)، ولزم مثل والده ابن عروس وأخذ عنه طريقته، وكان

¹ ذكر ابن عسكراً أنَّ هذه الطائفة الخبيثة كانت من جرَّاء تَوَعُّل (غلو) رجل مَن صَحِب أصحاب الملياني يقال له أحمد بن عبد الله المنزولي، فإنه تزندق وذهب مذهب الإباضية وأتبعه على هذا المذهب الحسيس كثير من العامة والغوغاء وأهل الشهوات من الحواضر، وعُرفت هذه الطائفة باليوسفية والعكاكزة، ويُقال أنَّها ظهرت في حياة الشيخ، فلما بلغه ذلك قال: من قال عنا ما لم نقل يبتليه الله بالعلة والقلة والموت على غير ملة، وقد سجن السلطان الغالب جماعة منهم وقتل آخرين، فهؤلاء المبتدعة ليسوا من أحوال الشيخ في شيء، بل فعلوا كفعل الروافض والشيعة في أيمتهم. (انظر: ابن عسكراً: دوحه الناشر، مرجع سابق، ص125).

² نويهض، عادل: معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت - لبنان. ط2، 1980م، ص315. ابن عسكراً: دوحه الناشر، مرجع سابق، ص124. ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، مرجع سابق، ج1 ص164-165. الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م، ج2 ص97.

³ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد أبي بكر بن عروس الهواري. ولد عام 778هـ بقرية المزاتين بوادي الرمل بتونس، يرجع نسبه إلى قبيلة هواة الليبية. كانوا ينادونه في صباه: يا مرابط؛ لما يتوسمون فيه من الصلاح، أخذ عن الفقيه عبد الله الباجي والشيخ عبد الرحمن بن البناء، انتقل إلى ميلة لتأديب الصبيان، ثم دخل فاس ثم مراكش، وتعلم بها الصوفية والتعاليم المرابطية. ثم عاد إلى مدينة تونس، حيث استقر بورشة قديمة للتعبد والتسكك. كان يحمل دائماً صِراراً ضخمةً، حتى عرف بأبي الصرائر. توفي بها عام 868هـ. (انظر: الراشدي، عمر بن علي الجزائري: ابتسام الغروس ووشي الطروس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، 1303هـ، ص191 وما بعدها).

سيدي بن عروس يقول عنه لمريديه: عليكم بأبي راوي فوالله لم يوجد مثله في هذا الزمان وهو أجل من أخذ عنا الطريقة. ثروى عنه كرامات كثيرة ويداوى أهل الأسقام وكان رحمه الله يُعَظَّم العلماء، وقد عُرف بالصدق والسخاء والتزام درب الصوفية الصادقين. توفي في سنّ يقارب الستين سنة خلال شهر رجب عام 931 هـ الموافق 1525م، بمدينة سوسة - تونس¹.

● **عبد المالك بن ساعدة:** الوارد ذكره في الرسالة التي وجهها الشيخ زروق للمغراوي وإليه، ولا ندري عنه شيئا غير أنه كان يساعد المغراوي في رعاية مدرسة شيخهم بلحاية (دوار البور حاليا²).
● **الإمام طاهر بن زيان الزواوي القسنطيني:** الشيخ الفقيه الصوفي الولي الصالح العارف بالله، نزيل المدينة المشرفة، أخذ عن الإمام القطب سيدي أحمد زروق وعن ولده الشيخ أحمد زروق الصغير وانتفع بهما، وله تأليف في التصوّف كـ "نزهة المريد في معاني كلمة التوحيد" في ثلاثة كراريس، و"رسالة القصد إلى الله" في كراسين. توفي بعد الأربعين وتسعمائة³.

● **عبد العزيز القسنطيني:** وهو أبو فارس عبد العزيز بن خليفة القسنطيني، ثم التونسي، الفقيه الصوفي، الشيخ المتكلم، صاحب الآيات، شيخ المشايخ كان من أكابر الأولياء وأعلام الصوفية، ويقال أنه بلغ مقام الأفراد ومنازل الأقطاب، الذي كتب رسائل صوفية، وكان يعتقد فيه أنه صعد إلى مرتبة الغوث والقطب. أخذ عن الشيخ: عبد الله بن أبي القاسم الجزائري الشاذلي، وهو عمده، وأخذ عن الشيخ سيدي أحمد زروق، والشيخ سيدي محمد الزيتوني. من تلامذته: أبو محمد عبد الله بن عمر المطغري وأبو عبد الله محمد بن علي الدرعي، توفي في صدر العشرة الرابعة⁴.

● **أبو محمد عبد الرحمن بن علي القنطري (القصري) السفيناني الفاسي:** عرف بسقّين، الفقيه الرحال الأستاذ إمام المحدثين بالمغرب. أخذ عن جماعة منهم ابن غازي والشيخ زروق وأبو

¹ انظر: طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء، مرجع سابق، ص300. والأسم، عبد السلام: الوصية الكبرى، مطبعة عابدين، الإسكندرية-مصر، ط1، 1976م، ص77 وما بعدها.

² طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء، مرجع سابق، ص298.

³ التبنكي: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص204. وانظر: نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص262. وابن مريم: البستان، مرجع سابق، ص116. والحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مرجع سابق، ص191.

⁴ انظر: ابن عسكر: دوحة الناشر، مرجع سابق، ص132. وابن عيشون الشراط، محمد: الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقق: زهراء النظام، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1997م، ص109.

الفرج الطنجي وأبو مهدي الماواسي وأبو زيد الحميدي والزواوي. رحل ودخل مصر سنة 909هـ، وأخذ علم الحديث عن أصحاب ابن حجر كالقلقشنري وغيره، وحصل على رواية واسعة وانتفع بالشيخ أبي عبد الله الغزواني. قصد بلاد السودان ودخل كانو وغيرها وبقي هناك مدة ثم رجع إلى فاس سنة 924هـ وعكف على رواية الحديث وتولى الخطابة بجامع الأندلس والفتيا بعد وفاة الفقيه محمد بن الإمام القوري، أخذ عنه المنجور واليسيتي وعبد الوهاب الزقاق وخروف. توفي سنة 956هـ [1549م]، وقد كان مولده سنة 873هـ¹.

● أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري: عالم الجزائر الكبير وإمامها الشهير، كان من أهل الحديث والفقه والتصوف، جمع من التصوف والأدكار والأوراد كُتِبَ منها شرح "الحكم" ورسالة ردّ فيها على أبي عمر القسطلي المراكشي وله تفسير. أخذ عن الشيخ زروق وأبي عبد الله محمد الزيتوني وعمر بن زيان المديوني. وعنه أخذ جماعة من أهل الجزائر وفاس، وفي سنة 959هـ قَدِمَ مُرَاشِشَ سفيراً بين سلطان آل عثمان وبين الأمير أبي عبد الله الشريف بقصد المهادنة بينهما وتحرير البلاد. تُوفي بالجزائر سنة 963هـ [1555م]².

● الشيخ محمد بن أبي جمعة الهبطي: أبو عبد الله الصماتي الأستاذ الإمام العالم المتصوف الزاهد القدوة التقى العابد، ولد أبو عبد الله الهبطي في حدود منتصف القرن التاسع الهجري، بقرية اهباطة من قبيلة سماته، إحدى قبائل شمال المغرب، على بعد نحو 50 كيلومترا من مدينة العرائش، كان يغلب عليه محبة الله كابن الفارض، أخذ الطريقة عن الشيخ عبد الله الغزواني³، والعلوم عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن غازي المكناسي، والشيخ أحمد زروق والشيخ الخروبي الكبير الطرابلسي الجزائري. وعنه جماعة منهم عبد الواحد الونشريسي. تُوفي في ذي القعدة سنة 930هـ، وهو مؤلف تقييد وقف القرآن، وبهذا يصفه أغلب من ترجم له؛ تميزا له عن الهبطي الصوفي أبو محمد عبد الله بن

¹ مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مرجع سابق، ج 1، ص 403. والتنبكي: نيل الابتهاج، مرجع سابق، ص 264. وابن عسكر: دوحة الناشر، مرجع سابق، ص 58.

² مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مرجع سابق، ج 1، ص 411. سبقت ترجمته في ص 50.

³ لعله وقع غلط من صاحب كتاب " شجرة النور الزكية"؛ فإن الذي أخذ التصوف عن الغزواني الذي توفي سنة 935هـ هو هبطي آخر وهو: أبو محمد عبد الله الهبطي المتوفى سنة 963هـ، وهو الذي قال عن شيخه الغزواني: كل ما منح الله تعالى من العلم، ورزقي من الفتح فهو من بركة سيدي أبي محمد عبد الله الغزواني. (انظر: ابن عسكر: دوحة الناشر، مرجع سابق، ص 7).

محمد الهبطي (ت 963هـ) المعروف بالهبطي الكبير دفين المواهب قرب شفشاون، وعن نبجله محمد المعروف بالهبطي الصغير (ت 1001هـ) دفين الزرطانة¹.

2- رحلته:

كعادة العلماء والصلحاء والفقهاء، فإنَّ الرحلة- رغم ما يكتنفها من مشاقٍّ ومخاطر- في طلب العلم تُعدُّ محطةً من المحطات الضرورية والهامة في مسيرة حياة كلِّ واحد منهم، وتُعتبر هذه الرحلات كنوع من التنقُّل بين المدارس المتعددة المشارب، من أجل تلقي مختلف العلوم على أيدي الشيوخ مباشرة ومن أفواههم، فيأخذون سمتهم وأدبهم قبل علمهم وفقههم. ولم يُغفل شيخنا أحمد زروق -رحمه الله- هذا السبيل، بل ضرب فيه بسهم ونصيب وافر؛ فكان رحالة في طلب العلم، واقتفاء آثار العلماء والصلحاء أينما وجدوا، وخاصة في رحلاته للحج والعمرة. ممَّا صقل خبراته، ونفَّح أفكاره ومعارفه، وكوَّن له ملكة علمية رصينة ومحترمة، اعترف له فيها جُلُّ من ترجم له، فكان بحقٍّ محتسب العلماء والأولياء، وكان العَلَم البارز في سماء المغرب في زمانه. وقد تعددت رحلات الشيخ زروق -رحمه الله-، وساح في البلدان وتعرَّف على أحوالها وأحوال أهلها، وكان ناشراً للعلم، قائماً بالدعوة والإصلاح أينما حلَّ، ومن رحلاته نذكر ما يلي:

1- الرحلة الأولى: كانت من مدينة فاس إلى عاصمة الزياتيين تلمسان، وتُسمَّى هذه

الرحلة: سياحة، وقد كانت في عام 870هـ، واختلف كلام زروق مع مترجميه عن سبب هذه الرحلة ولعلَّ السبب هو- كما أسلفنا الحديث- مُعارضته السياسية للثورة التي قادها أستاذه أبو فارس الوريكلي، والتي ساندتها شيخه محمد الزيتوني وكان رجلاً أعمى، ولم يكن الشيخ زروق مقتنعاً بخيار العنف والثورة وخلع السلطان المريني عبد الحق بالقوة، ولذلك غَضِب عليه الزيتوني، وطلب منه مغادرة المغرب- كما يروي ابن عسكر- وقال له: "أُخرج من المغرب ولا تبق فيه ساعة واحدة"²، ومن ذلك الوقت لم يُعد الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- يطمئن للصلاة خلف الوريكلي وقال: "لا آمن الغندور

¹ ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، مرجع سابق، ج2، ص152. ومخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مرجع سابق، ج1، ص400. والكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، مرجع سابق، ج1، ص302.

² انظر: ابن عسكر: دوحه الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، مرجع سابق، ص49.

على صلاتي¹. وقد تكلمنا عن هذه الرحلة ووصفناها وكأناها رحلة تطهير وتخليّة وتربية، بعد أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وبعد التقاطع والهجر الذي حدث بينه وبين شيخه الزيتوني، ممّا خلق له أزمة نفسيّة، جعلته يفرّ إلى مقام الشيخ أبي مدين الغوث بتلمسان، طالباً العزاء والسّلوى والأمان والسّكينة والرضى. وقد بقي أربعين يوماً كما رآها في منامه أثناء سياحته، أنّ الشيخ الزيتوني قال له: "إنّك مسجونٌ أربعين يوماً"²، وبعدها عاد إلى فاس وتصالح مع شيخه وباشّر التدريس، حيث بقي ثلاث سنين.

2- الرحلة الثانية: بعد رجوعه إلى فاس، ومُضيّ ثلاث سنين من عودته من رحلة السيّاحة الأولى، أي في عام 873هـ، عزم الشيخ زروق -رحمه الله- على أداء فريضة الحجّ، وكمظهر من مظاهر التّبحّل والإحترام ومعرفة مقام الرّجال من مشايخه وأساتذته، قام بمشورة شيخه أحمد بن الحسن الغماري التلمساني (ت 874هـ)³، فأشار عليه بأن يفعل وأذن له. فلمّا وصل القاهرة مكث فيها سنّته تلك، ورغم قصر المدّة فقد التقى خلالها بالأزهر عدداً من العلماء واستفاد منهم، ثمّ في سنة 874هـ غادرها إلى مكّة والمدينة، وبعد أدائه مناسك الحجّ، لبث في المدينة مجاوراً نبينا محمد ﷺ لمدة عام على الأقلّ، والتقى خلالها بجمع من مشايخ الصّوفية، كالشيخ نور الدين السّنهوري عام 875هـ⁴، وكذا جمع من العلماء وطلبة العلم. ثمّ عاد إلى القاهرة في عام 876هـ، فمكث فيها عام، درس على شيوخها مختلف العلوم: كالعربية والأصول والحديث والتّصوف وغيرها، قال الإمام محمد السخاوي (ت 902هـ): "ارتحل إلى الديار المصرية، فحج وجاور بالمدينة، وأقام بالقاهرة نحو سنة، مُديماً للإشتغال عند شمس الدين الجوجري (ت 896هـ) وغيره، في العربية والأصول، وغيرهما. وقرأ

¹ انظر: الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج4، ص100.

² خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص38.

³ أبو العباس أحمد بن الحسن بن عبد الرحمن، الغماري؛ لأنه سكن بطبوة وبلاد غمارة، نزيل تلمسان، كان بصيراً بالفقه، ذاكرة لكثير من التفاسير، رأساً للزهد والورع في زمانه، من أشياخه أبو القاسم العبدوسي، وسيدي الحاج موسى البطيوي، والشيخ أحمد الماواسي، وعليه كان اعتماده في علوم القرآن وحقائق أهل العرفان. دأب على حضور دروس ابن مرزوق الحفيد. مرض بالإسهال وتوفي عام 874هـ. (انظر: بن سعد التلمساني، محمد: روضة النسر في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تحقق: يحي بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009م، ص185).

⁴ خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص42.

عليّ بلوغ المرام، وبحث عليّ في الاصطلاح بقراءته، ولأزميني في أشياء، وأفادني جماعة من أهل بلاده، والغالب عليه التصوّف... ولقيني بمكة في سنة 894هـ، وصار له أتباع ومحبون¹.

3- الرحلة الثالثة: كانت هذه الرحلة إلى تونس، ذكرها الزاوي في كتابه: "أعلام ليبيا"، فقال: "وله-أي الشيخ زروق- رحلة إلى تونس؛ لطلب العلم، وأخذ عن كبار علمائها كالشيخ الرصاع وعبد الرحمن الثعالبي..."².

وغالب الظن أن مروره بتونس في هذه الرحلة كان في طريقه للحج سنة 874هـ؛ إذ تعتبر محطة من محطات طريقه للحج ذهاباً وإياباً، وقد ذكر مُحَقِّقُ كتاب "فوائد من كُنْاش": أن الشيخ كان يستنسخ كُتُباً ثم يبيعهها، أو يقدمها هدية، ولقد أشار زروق في مقدمة شرحه لحكم ابن عطاء الله إلى أنه حمل معه في حجّته الأولى نسخة من شرحه الذي كان بدأه بفاس، ثم أكمله بتونس، ثم أعاد تأليفه بتونس، وحمل نسخة منه لطرابلس، ثم أعاد تأليفه بالقاهرة، ثم المدينة المنورة³.

4- الرحلة الرابعة:

في هذه الرحلة كان دُخوله إلى بجاية عام 878هـ⁴، وبجاية هذه بلدة عظيمة الأهمية في توضيح ما يُحيط بحياة شيخنا من غُموض. وعلى الرغم من أن إقامته فيها لم يأت بذكرها أي مؤرّخ له، فإنّ من الممكن استخلاص إقامته الطويلة بها من تواريخ كُتبه ومحلّ تأليفها التي يذيلها بها في بعض الأحيان. وقد تكرر دخوله إلى بجاية على ثلاث فترات منفصلة، غير محدّدة المدّة، وإن كانت بجاية تُعتبر مَحَطّات عبوره، وعلى هذا يكون قد دخلها في المرّة الأولى وهو في طريقه إلى الحجّ، ثم عند عودته من الحجّ، راجعاً إلى فاس⁵، ثم خروجه من فاس للمرّة الثانية عام 884هـ، حيث نُسّتشف

¹ السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مرجع سابق، ج 1، ص 222.

² الزاوي: أعلام ليبيا، مرجع سابق، ص 107.

³ انظر: زروق: فوائد من كُنْاش، هامش ص 29.

⁴ انظر: خاتمة كتابه: الجامع لجمال من الفوائد والمنافع، حيث يذكر زروق أنه ألفه في بجاية عام 878هـ/1474م. ذكرها خشيم في كتابه: أحمد زروق والزُّروقية، مرجع سابق، ص 51.

⁵ في ما بين عامي 879-880هـ، عاد زروق إلى مسقط رأسه فاس، بعد غيبة سبع سنوات متوالية قضاها بين الترحال والدرس. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزُّروقية، مرجع سابق، ص 53).

هذا من خلال بعض رسائل الشيخ الحضرمي اليمني، التي سجلها الشيخ زروق¹ والموجهة إلى أتباع وفقهاء في بجاية، وكذلك من خلال تأليف الكتب والتعليق على أخرى، إذ يتطلب ذلك مدة استقرار قد تصل إلى شهور أو أعوام، وهذا يدل أن بجاية كانت مركز نشاط زروق ورفاقه².

5- الرحلة الخامسة:

خرج الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- للمرة الثانية من فاس سنة 884هـ، قاصداً القاهرة، يقول الإمام السخاوي: "وقد تجرد وساح-أي الشيخ أحمد زروق- ووَرَد القاهرة أيضا بُعيد الثمانين، وتكرّر دُخوله إليها"³، وقد كانت هذه الرحلة فرصة سانحة لتجديد الصلة بالإمام السخاوي، ولذلك فقد حصل منه على إجازة، وإجازة أخرى من الشيخ الدّيمي، وكانت بطلب من ابن غازي أن يستجيزه من الحفاظين⁴، وقد كانت الإجازتان سنة 885هـ، كما ذكر ابن غازي في فهرسته⁵، وحسّن علاقته مع شيخه الحضرمي⁶، ولعلّه حجّ حجة أخرى قبل التسعين؛ كما رجّح ذلك علي فهمي خشيم، وكذلك ذكر ابن القاضي، صاحب جذوة الاقتباس أنّه حجّ مراراً⁷.

¹ كانت هناك عديد من الرسائل بين الحضرمي وتلميذه زروق؛ وكان من عادة التلميذ أن يُنبئ أستاذه الذي في القاهرة بما يحدث له ويتعرّض إليه في مسيرته الصّوفية وتطوّره الروحي. وكان الشيخ الحضرمي حريصا على إظهار تعاطفه وفهمه له، كما كان حريصا على توجيهه وإرشاده في مجل مختصرة مركّزة ليصل إلى ما يريد. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزّرقية، مرجع سابق، ص52).

² انظر: خشيم: أحمد زروق والزّرقية، مرجع سابق، ص52.

³ السخاوي: الضوء اللامع، مرجع سابق، ص222.

⁴ وقد شملت الإجازة التي طلبها الشيخ زروق لابن غازي من حافظي مصر: السخاوي والدّيمي، غير ابن غازي من مشايخه وأقرانه كأبي مهدي الماواسي وأبي العباس الونشريسي وقاضي الجماعة محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودي، وأعظم بهذا من نشاط علمي متميز. (انظر: كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، مرجع سابق، ج1، ص545).

⁵ كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، مرجع سابق، ج1، ص544.

⁶ لأنّ الحضرمي في أحد رسائله خاطبه بلهجة بالغة الحدة والقسوة، وقد بلغه ما حدث لتلميذه في فاس، ولعله لم يكن سعيدا به ولا راضيا عن مسلكه، فكتب إليه مؤنبا ومواسيا في الوقت نفسه. فكانت رحلته إلى القاهرة ولقائه بالحضرمي حتى يطمئن من غضب شيخه ويعيد المياه إلى مجاريها ويوثق صلته القديمة به. (انظر: وخشيم: أحمد زروق والزّرقية، مرجع سابق، ص56).

⁷ ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، مرجع سابق، ج1، ص130.

6- الرحلة السادسة:

أمّا رحلته السادسة فقد كانت إلى كلّ من: طرابلس ومصراته، هذه الأخيرة التي استقرّ بها، ولا يُعرف سببٌ لذلك، وقد قال سيدي أحمد بن ناصر ما نصّه: "لما كنّا بروضة الشيخ حجة تسع وتسعين وألف 1099هـ، خطر لنا ما سببُ سُكنى هذا الإمام الأعظم، والشيخ المكرّم - الشيخ أحمد زروق - في هذه البلدة البعيدة عن المدن والحوضر، فنطق أخونا في الله سيدي عبد الله بن غلبون، كأنّه مُطلّع على ما في ضمائرنا، والله عليم بذات الصدور، فقال: سئل الشيخ عن سُكناه بهذه البلدة، فقال رحمه الله: "أمّا ما ذكرت من استيطاننا في هذه البلدة، فأمرٌ خارجٌ عن قياس النّظر، غير مصحّوب بالجزم، ولا معقود لشيء نعلمه، بل اتفاقي ظهر وجوده، فلزم موجوده إلى ما يقتضيه الحق¹. قال الشاعر: وما أنا بالباغي بسلمى² بديلة*** بليلى ولكن للضرورة أحكام. ولعلّ فائدة استيطانه هذه البلدة - والله أعلم - استيناس الأركاب بزيارته، واستمدادهم من معونته، وتقويّتهم على ما هم بصددّه بمطالعة حَضْرَتِهِ"³.

ورغم هذا الإنكار لأيّ سبب مُحدّد لاستقراره في مصراته، فإنّه كان للبلدة ما يجذبه إليها على كلّ حال؛ فلعلّها فتنته بتلك البساطة التي تميّز بها الحياة شبه البدوية، وبذلك المجتمع غير المعقّد الذي كان لا يزال مُحْتَفِظًا - في ذلك العهد - ببراءته وصفائه، ولم تُشوّهه مفاصد المدينة وأخلاقها، أو

¹ وقد صار اختيار زروق لمصراته موطنًا، محلّ فخر كبير لها وللمنطقة كلّها. يقول أحمد بن عبد الدائم الأنصاري في قصيدته التي رد بها على العبدري والتي على أساسها ألف ابن غلبون كتابه: "التذكّار":

بها فضلاء ما الفضيل يفوقهم*** فوارس أنجاد وهم من حماها
وقد اختارها الزروق دارا وموطنا*** كذا ابن سعيد مقتد بحداتها.

ويقول ابن طاهر الزياني في تائيّة له:

مسرّاة نالت على الأرض رفعة*** بزروقنا شمس البدور المنيرة.
هنيئًا لمن زار الضريح بارضها*** وطوبى لقوم قد حباهم بحيرة.

انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 64. نقلًا عن مخطوط: تحفة أهل الصديقية، محمد المهدي الفاسي، ص 46.

² في الرّحلة الناصرية سليمي بدل سلمى.

³ الورتلاني، الحسن بن محمد: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار - المشهورة بالرحلة الورتلانية، اعتناء: محمد خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 2016م، ص 219.

كما يصفها مؤرّخ صوفي بعد مرور قرن من ذلك الزمان: " وحسب مصراته أنّ زُرُوقاً اختارها مسكنا وأنّ الله اختارها له مدفنا. ذلك لما طُبِعَ عليه غالب أهلها من الحياء والتقشُّف ومحبة الصالحين والاعتناء بالمنتسب إلى طريقتهم، ولما طُبِعوا عليه في الكلام من عدم الفحش، ولما فيهم من السخاء ولين الجانب للغريب، وغير ذلك"¹.

ولما كانت هذه البلدة -أي مصراته- ممراً للحجّاج في طريقهم للديار المقدّسة، " فقد شاع عند الحجّاج أنّ من مرّ بقبره وأودع الله عنده نفسه وماله لا يُصيّبه مكروه حتى يرجع، ويفعلون ذلك إذا مروا به البرّ وحاذوه في البحر، فيجدون بركته، ولا بدع في ذلك ولا غرابة، فإنّ الله تعالى حفيظ لا يُضيع ودائعه، والأولياء أبواب الله، فمن أودع الله شيئاً عند باب من أبوابه كيف لا يحفظه، والله خير حفظاً وهو أرحم الرّاحمين"².

وقد يكون سبب مجيء الشيخ أحمد زُرُوق -رحمه الله- إلى مصراته، هو كثرة الحجّاج المصارتة، الذين كان الكثير منهم قادرين على الحجّ، ولعلّ بعضهم كان له الشرف بملاقاة الشيخ أحمد زُرُوق، والظفر بحُضوة رفقته إلى القاهرة والحجاز، فلعلّهم دَعَوْه للقدوم إلى بلدهم، في خلال تلك الفترة العصبية التي مرّ بها في حياته؛ وقد قال عبد الكريم البرموني إنّ أباه كان أحد أتباع زُرُوق، وإنّه: " هو الذي أتى به من مصر إلى مصراته"³.

¹ الفيتوري، عبد السلام: الإشارات لبعض ما بطرابلس الغرب من المزارات، مرجع سابق، ص 6-7.

² انظر: العياشي، عبد الله بن محمد: الرحلة العياشية، تحق: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2006م، ص 193. والورتلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مرجع سابق، ص 219.

³ انظر: خشيم: أحمد زُرُوق والزرقية، مرجع سابق، ص 63. نقلا عن: المصراقي، الطيب: فتح العلي الأكبر في تاريخ حياة سيدي عبد السلام الأسمر، ص 240.

وقد قضى الشيخ أحمد زروق - رحمه الله - ما بقي من حياته في بلدة مصراته، حيث تزوج منها¹، ووقع اختياره على أمة الجليل² بنت أحمد المكرم أبو العباس أحمد بن الفقيه العدل أبو زكريا يحيى الغلياني المصري، وهي التي حملت له ولدين وبنتا، بالإضافة إلى زوجته الفاسية فاطمة الزلاعية³ التي لحقت به من المغرب. ولم يخرج من مصراته إلا مرتين: كانت الأولى إلى الجزائر سنة 891 أو 892هـ، ربما ليرعى بعض شؤونه هناك ويحضر أسرته. وهو يبدو في غاية الضيق والهَم آنذاك. وكانت الثانية رحلته إلى الحج⁴.

7- الرحلة السابعة:

في عام 894هـ، كانت رحلته إلى الحج، وكانت حجته الثالثة والأخيرة⁵، وربما توقّف بالقاهرة وألقى دروساً في الجامع الأزهر. وهذا يُدَلّل على مكانته العلمية التي استحقّها حتى وهو خارج بلاده، فأصبح له مريدون وتلاميذ وأتباع، يقصدونه من أجل العلم وأخذ طريق السُّلوك والتصوّف في مكة والقاهرة⁶. ولعلّه في هذه الرحلة حصل له التَّكريم والتَّجليل من أهل مصر؛ إذ أنّه لما سمعت العلماء

¹ يقول الشيخ زروق في كناشه، ص58: إنّه تزوج خمس مرات، وليس في المتوفر من المصادر ما يلقي الضوء على زواجه الثلاث الأخريات. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص65).

² زوجته أمة الجليل ولدت له: أحمد أبي الفتح وأحمد أبي الفضل بالإضافة إلى ابنته منها عائشة، وقد توفي الثلاثة الآخرون واحدا تلو الآخر، وتزوجت أمّهم من أحد أتباع زروق، المسمّى منصور بن أحمد بن محمد البجائي أبو علي، وولدت له أحمد. (انظر: العياشي: الرحلة العياشية، مرجع سابق، ج1، ص190. وخشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص65).

³ فاطمة الفاسية أنجبت للشيخ زروق ولدين هما: أحمد الأكبر وأحمد الأصغر، وقد غادرا مصراته إلى المغرب بعد وفاة أبيهم، واستقر بهم الأمر في قسنطينة من مدن الجزائر. ثم انقطعت آخر صلة لهم بمصراته حين جاء أحمد الأصغر، ويُدعى عادة أحمد الطالب، مُرسلاً من طرف أخيه، ليأخذ نصيبه ونصيب أمّه وأخيه من إرث والده. ويبدو أنّ أحمد الأكبر، ويُدعى أحمد الفقيه، ورث عن أبيه شيئاً من النفوذ على أتباعه بالجزائر. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص65-66).

⁴ مراري: الفكر العقدي للشيخ أحمد زروق البرنسي، مرجع سابق، ص28.

⁵ وقد قال الإمام السخاوي، وهو يتحدث عن الشيخ أحمد زروق رحمه الله: "ولقيني بمكة في سنة أربع وتسعين وصار له أتباع ومُحبُّون...". (انظر: السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مرجع سابق، ج1، ص222).

⁶ مراري: الفكر العقدي للشيخ أحمد زروق البرنسي، مرجع سابق، ص28.

والفضلاء بمقدمه وفدوا عليه، ومثلوا بين يديه يريدون حضور دروسه بالجامع الأزهر الشريف، وتولّى إمامة المالكية هناك¹.

قطوف من رحلات الشيخ:

لقد وقفنا على طرف من حياة الشيخ أحمد زروق -رحمه الله-، وكيف أنّها حفلت بكثير من التنقلات والرحلات إلى البلاد الإسلامية، سواء كانت بالغرب الإسلامي كتلمسان وتونس وبجاية وطرابلس، أو إلى المشرق كالحجاز ومصر. وكانت تحذوه في كلّ تنقلاته -رغم المخاطر والأهوال والمشاقّ- غايةً نبيلة وعظيمة وهي حُبُّه لاكتساب الخبرات والمعارف والعلوم، وكذا الاحتكاك بالعلماء والفضلاء والصالحين، وأخذ الفقه والأصول والأدب والتزكية والإفادة منهم، وبثّ العلم للناس وتعليمه عبر ربوع العالم الإسلامي.

لقد كان عملُ الشيخ زروق -رحمه الله- في رحلته إلى مصر مثلاً، أنّ اتّصل فيها بشيوخ التصوّف وأقطابه، وحضر الدُّروس في الأزهر الشريف، وكان من أهمّ من اتّصل بهم من العلماء: محمد السخاوي، وأبو إسحاق التنوخي، ونور الدين السنهوري، وآخرين، وقرأ خلال تلك السنة من أمّهات الكتب في الفقه والحديث والتصوف، وبذلك اجتمع له في المغرب والمشرق شيوخ من الفقهاء والمتصوفة، وهو أمر أثّر في مستقبل حياته وأفكاره، حيث رأى أنّ الفقه والتصوّف موضوعان مترابطان، حتى أطلق عليه لقب «الجامع بين الشريعة والحقيقة»².

وقد كانت الثمار العلمية لهذه الرحلات واضحة من خلال صقل شخصيّة زروق الصُّوفية، وهذا ما تلقّاه عن شيخه اليمني الحضرمي، وكذا تربّعه على عرش الاحتساب من بين العلماء والأولياء، وهو منصب لا يناله إلا الكبار من العلماء العاملين. وإنّ أقوى الدلائل على هذه الثمار الياضعة، أنّه تُوجّ في رحلته الأخيرة إلى مصر عام 894هـ، فألقى الله له القبول عند الخاصة والعامة، وكان عددٌ من يحضر دروسه يربوا عن الستّة آلاف نفس من مصر والقاهرة وأطرافها، وحاز رئاسة كرسيّ السادة المالكية بالأزهر الشريف³.

¹ انظر: الكوهن: طبقات الشاذلية الكبرى، مرجع سابق، ص 118.

² انظر: فوزار، محمد: أحمد زروق الفاسي ت 899هـ، مرجع سابق.

³ انظر: الكوهن الفاسي: طبقات الشاذلية الكبرى، مرجع سابق، ص 118.

ومن الثمار الواضحة أيضاً، والتي تدلُّ على المكانة العلمية الصوفية التي تبوأها وبلغها الشيخ زروق، ما ذكره الكوهن في كتابه "طبقات الشاذلية الكبرى"، أنه لما دخل بلدة طرابلس الغرب: "أحيى بها معالم الطريق، وأوضح بيان التحقيق، وأشهر بها الطريقة الشاذلية، ونشر أعلامها السنية، فانقادت إليه المريدون، وهابته ملوك العالمين، واجتمع بسيد المرسلين، ونسبت إليه الطريقة لما ظهرت عليه أنوار أهل الحقيقة..."¹.

لقد كانت نتيجة احتكاكه بالعلماء وكثرة رحلاته العلمية، أن أصبح صدرّاً من صدور العلم والتصوف في زمانه، حيث تجمّع الطلبة والمريدون من حوله، وصارت له الصدارة في مجالسهم، وغدا ينشر علمه بين الناس في المسجد الذي كان يؤدي فيه صلاته، وأخذ عنه جماعة عظيمة، منهم: الشمس اللقاني والشيخ محمد بن عبد الله الخطاب والشيخ زين الدين طاهر القسنطيني وآخرون². كما أنّ من الثمار الياضعة التي جناها الشيخ زروق من رحلاته المختلفة، هو ذلك التكوين العلمي الرّصين الذي نتج عنه غزارة وتنوّع في التأليف والشروح المفيدة، التي أغنى بها -رحمه الله- التراث الإسلامي، وهي عنوان المطلب التالي الذي سنبيّن فيه آثاره العلمية النافعة.

المطلب الثالث : آثاره

لقد كان الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- غيثاً نافعاً، وغوثاً مانعاً، وطوداً شامخاً، وجبالاً من العرفان راسخاً. أستاذ الطريقة والجامع بين الشريعة والحقيقة، يُزيل من كلّ مُشكل قناعه، ويوصل الأفهام لبليد الطّبع فيرفع له في أقرب ساعة، ويُنصف إشكاله ونزاعه؛ فما تكلم في مسألة إلا قرّرها وبلّغها على أكمل مطلوب، وقرّرها حتى لم يبق بها مقال لقائل، ويحصل مُريدها على طائل بأفصح عبارة وألطف إشارة. تأليفه في غاية الإتقان مع الإجازة وعدم الإطناب...، وبرّع في معرفة الفقه والتصوّف والأصول...³.

وإنّما لقيت مُصنّفاته في الفقه والتصوّف -خاصّةً- تسليماً وقبولاً؛ لأنّه ألزم الفقهاء بالتصوّف وضبط التصوّف بالفقه، فالفقهاء كثيراً ما يؤثّون من سلوكهم وضعف صدق توجّهم إلى الله، كما

¹ انظر: الكوهن الفاسي: طبقات الشاذلية الكبرى، مرجع سابق، ص 118-119.

² انظر: فوزار، محمد: أحمد زروق الفاسي ت 899هـ، مرجع سابق.

³ زروق: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقوية، مرجع سابق، ص 11.

أنَّ الصُّوفِيَّةَ أَغْلِبَ مَا يَقَعُ الْإِنْكَارُ عَلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ مُخَالَفَةِ الشَّرْعِ، وَالْعَمَلُ لَا يَكُونُ مَقْبُولًا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا إِذَا كَانَ خَالِصًا لَوَجْهِ اللَّهِ وَكَانَ مُوَافِقًا لَشَرْعِهِ. وَلَمَّا كَانَ لِلشَّيْخِ زُرُوقٍ قَدْرًا عَظِيمًا وَقُبُولًا كَبِيرًا لَدَى عُلَمَاءِ الْفَقْهِ الْمَالِكِيِّ، فَقَلَّمَا تُقَلَّبَ صَفَحَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنْ كِتَابٍ فِي الْفَقْهِ الْمَالِكِيِّ إِلَّا وَتَجَدُّ النَّقْلُ عَنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّسْلِيمِ وَالْقَبُولِ، كَمَا أَنَّ لَهُ أَقْوَالَ فِيمَا دَقَّ مِنْ مَسَائِلِ التَّصَوُّفِ أَقْدَمَ عَلَى الْقَوْلِ فِيهَا، وَحَرَّرَ مَحَلَّ النِّزَاعِ فِيهَا، فَعَالَجَ جُمْلَةً مِنَ الْقَضَايَا وَحَقَّقَ وَأَبْدَعَ وَأَتَى بِفَوَائِدَ غَزِيرَةٍ، حَتَّى قَالَ فِيهِ الشَّيْخُ مَخْلُوفٌ: "وَهُوَ آخِرُ أُمَّةِ الصُّوفِيَّةِ الْمُحَقِّقِينَ"¹، هَذَا كُلُّهُ أَهْلُهُ لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِالْمُجَدِّدِ، رَغْمَ خُرُوجِهِ فِي عَصْرِ جَمَدٍ فِيهِ الْفَقْهُ وَالتَّصَوُّفُ، وَأَصْبَحَا فِيهِ رُسُومًا وَأَطْلَالًا"².

لَقَدْ بَدَأَ وَاضِحًا مِنْ تِلْكَ الْمُؤَلَّفَاتِ الَّتِي خَلَّفَهَا لَنَا سَيِّدِي زُرُوقٌ، وَمِنْ ذَلِكَ التَّنُوعِ الظَّاهِرِ فِيهَا، أَنَّهُ كَانَ مُؤَلِّفًا نَشِطًا فِي حَيَاتِهِ الْقَصِيرَةِ نَسِيبًا. كَمَا كَانَ كَاتِبًا مُتَعَدِّدَ الْجَوَانِبِ وَالْاهْتِمَامَاتِ. وَلَمْ يُغْفَلْ أَحَدٌ مِمَّنْ كَتَبَ عَنْهُ، هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْبَيِّنَةُ الْجَلِيلَةُ، حَتَّى إِنَّ الْحَمَاسَةَ بَلَّغَتْ بِأَحَدِهِمْ حَدَّ الْوَعْدِ بِتَخْصِصِ مُؤَلَّفٍ يَتَحَدَّثُ فِيهِ عَنِ تَرَاثِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ زُرُوقٍ وَأَثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ³. وَلَكِنَّهُ لِلْأَسَفِ لَمْ يَفْعَلْ، وَإِلَّا لَكُنَّا حَصَلْنَا عَلَى مَصْدَرٍ ثَمِينٍ عَنْ آثَارِ شَيْخِنَا أَكْثَرَ تَفْصِيلًا وَدَقَّةً. وَأَعْمَالُ الشَّيْخِ زُرُوقٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الصُّعُوبَةِ بِمَكَانٍ تَتْبُعُهَا، إِذْ يَنْبَغِي تَصْيُدُهَا فِي الْمَكْتَبَاتِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَالْمُنْتَشِرَةِ فِي مَخْتَلَفِ بَقَاعِ الْأَرْضِ، فِي أَوْرُوبَا وَشَمَالِ أَفْرِيقِيَا وَالشَّرْقِ الْأَوْسَطِ وَجَنُوبِ شَرْقِ آسِيَا، وَهِيَ عِبَارَةٌ، فِي أَغْلِبِهَا عَنْ مَخْطُوطَاتٍ⁴، وَجِبَ الْقِيَامُ بِعَمَلٍ مُضْنٍ قَصْدَ تَحْقِيقِهَا وَإِخْرَاجِهَا فِي ثَوْبٍ قَشِيبٍ، لْجُمْهُورِ الْقُرَّاءِ وَالْمُتَخَصِّصِينَ الْمُهْتَمِينَ بِآثَارِهِ وَطَرِيقَتِهِ⁵.

¹ مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج 1، ص 387.

² انظر: زروق: النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، ضبط: قيس بن محمد آل الشيخ مبارك، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض - مكتبة الظلال، الأحساء، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1993م، ص 7.

³ بعد أن سرد التنبكي في كتابه "نيل الإبتهاج بتطريز الديباج" جملة من كتب الشيخ زروق ومؤلفاته، قال: "وبالجملة فقد رده فوق ما يذكر ومن تفرغ فذكر حاله وفوائده وحكمه ورسائله جمع منها مجلدا، ولعلنا نفردها بتأليف إن يسره الله تعالى". (انظر: التنبكي: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص 132).

⁴ هناك مخطوطات مضت إلى جنوب شرق آسيا، كما هو الحال لمؤلفه: "العرف في تعريف الحرف"، الذي توجد المخطوطة الوحيدة له في جاكارتا بأندونيسيا. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزرقية، مرجع سابق، هامش ص 79).

⁵ انظر: خشيم: أحمد زروق والزرقية، مرجع سابق، ص 79.

وكما قدّمنا في بداية هذا الفصل، فإنّه لم يكن غريبا ولا بدعا من الأمر عند المغاربة بشكل خاص، أن يكون العالم منهم مُحيطاً بأبواب متنوّعة من العلوم، وفُروع مُتعدّدة من المعرفة والدّراسة، أي أنّه يرتكز في تعلّمه وتعليمه على ما بات يُعرف حديثاً بالتّكامل المعرفي في العلوم الإسلامية، وأنّ هذه المعارف والعلوم يحدّم بعضها بعضاً، ويبيني بعضها على ما وصل إليه البعض، ولا ينفك علم عن آخر بل يُكمّله ويشكل معه نسقا متكاملا وشاملا لكل أطراف المعرفة الإسلامية.

ولذلك فإنّ الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- لم يشدّ عن هذا المنهج المغربي، بل سار على منواله، وأكّده وثمنه؛ من خلال ما كان يكتبه في مجالات عدة، مثل: التّصوّف والفقه وعلم الكلام والعقيدة، وكذا الطّبّ والحساب والحديث النبوي الشريف. وكان ينظّم الشّعْر أيضاً، ونظراً لعلوّ كعبه في شتى العلوم الشرعية، بحيث أنّه يكتب في فنون شتى فتحسبه أنّه رأسٌ فيه، وأنّه لم يكتب في مجال غيره، وخاصّة علوم الشّريعة والحقيقة، فاستحقّ بذلك أن يُطلق عليه جملة من العلماء لقب "مُحتسب العلماء والأولياء"¹، ومن أجل ما قيل في ذلك كلام الشيخ عبد الله كنون، إذ قال: "...ومن ثمّ أطلق عليه علماءنا رحمهم الله مُحتسب العلماء والأولياء؛ وهي صفةٌ جليلة ضخمة لم يظفر بها غيره من علماء الإسلام. لا قبله، ولا فيما بعده... وذلك لما رأوه مُتّبعا لأقوالهم وأعمالهم، وازناً لها بميزان الشّرع، فيُصحّح منها ما صحّ ويُبطل ما بطل، ولما تحقّقوا من رُسوخ قدمه في الفقه وعُلوّ مقامه في التّصوف..."².

¹ هذه التّحلية لم تُرق لبعض أئمة الصّوفية، فهذا الشيخ ابن عجيبة (ت1224هـ) يقول في أول شرحه لنونية العارف الششتري: "وقد سبق إلى شرحها الشيخ العلامة الصّوفي أبو العباس سيدي أحمد زروق رضي الله عنه، اقتصر فيه على حلّ ألفاظها وبيان ما تعلّق ببعض معانيها، غير أنّه لم يَعْص في تيار بحر أسرارها على غوامض أنوارها ولا فضّ خاتم أسرارها ولا دخل بعرائس أبكارها، ولعلّه شرحها قبل أن يُفْتَح عليه في أسرار الحقيقة، فقد كان شيخاً شيوخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه، يقول: ما فُتِح على الشيخ زروق إلّا في آخر عمره... فهو في علوم الطريقة إمام، وأمّا في علوم الحقيقة وأسرار الأذواق فلم ينل منها شيئا إلّا في آخر عمره كاد أن يخرج منها صفر اليدين...". (انظر: كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، مرجع سابق، ج1، ص550). وفي الحقيقة لو طُفِقنا نتبّع مثل هذا الكلام، وغيره - مثل الأستاذ خشيم علي فهمي - ممّن قال أنّ زروق لم تكن له قدم راسخة في الفقه، فهو لا يعدّو أن يكون شارحا ومُبسّطا ومُعلّقاً ممتازا لبعض أمّهات الكتب في المذهب المالكي، وهو عملٌ سبقه إليه الكثير، فليس هناك ما يُميّز زروقاً الفقيه، وأنّ إبداعه الفعلي هو في آثاره الصّوفية الكبيرة. يتّضح من هذا الكلام أنّ هؤلاء وقفوا على ساحل بحر علمه، ولم يُعْصوا في آثاره، ويستخرجوا كنوزها. رغم أن ابن عجيبة كثيراً ما ينقل عن زروق في شرح النونية وغيره، وقد ردّ الشيخ زروق نفسه على هؤلاء في آخر شرحه لحزب البحر في التنبيه الرابع، فليرجع له.

² كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب، مرجع سابق، ج1، ص549.

إننا حينما نقرأ لزروق، نلمس منذ الوهلة الأولى أسلوبه السلس والواضح، فهو نادراً ما يأتي بالكلام المعقّد، أو ما يُسمّى بوحشيّ الكلام، ولا يُحبّ التقعّر وتصيّد الغريب من الألفاظ، كيف لا وهو كثيراً ما يذكر الحديث الذي يقول: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم"¹، ولم يكن من عادته السجع في كلامه إلا ما كان في مُبتدأ الكتاب وخطبته. ويتّضح كذلك من خلال كُتبه، الميل إلى التركيز والإيجاز، ومراجعة المكتوب مرّات عدّة، ولذلك نشأ عن ذلك ضربٌ من التّماتل بين أعماله، مثل التشابه بين "عدّة المريد الصادق" و"النصح الأنفع" أو بين "تأسيس القواعد والأصول" و"قواعد التّصوّف". فرغم اختلاف العناوين إلا أنّ المضامين تكاد تكون واحدة، ولعلّ هذا يرجع إلى عادة الشيخ في المراجعة والتدقيق وإعادة الكتابة في الباب الواحد عدّة مرّات، وقد يشغلُ الشيخُ وقته ونفسه بكتابٍ واحدٍ لمُدّة تصل إلى ثلاثين عاماً، وما هذا إلا لميزة حبّ الكمال وتقديم الأفضل، والاستغراق الصّوفي الذي يُميّزه عن غيره من الكُتّاب².

لم يكن الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- في مؤلفاته، ذلك الشارح أو المعلّق العادي، بل كانت تعليقاته وشروحه من العمق بمكان وكأَنَّها الأصول في قيمتها وأهمّيتها، خاصّة وأنّه لا يُعلّق على النصوص الصّوفية أو الفقهية من أجل مُجرّد الشّرح والتبسيط؛ وإنّما غالبا ما يصبغ ذلك بآرائه وأفكاره وتصوره الذاتي للمسائل، مُبدئاً موقفه من القضايا المطروحة، فينقّد ويناقش ويضيف الفائدة والمعنى الجديد³. ولذلك قال عنه صاحب "شجرة النور الزكية"، ما نصّه: "وكان يميل إلى الاختصار، مع تحريرات وتحقيقات قلّ أن توجد لغيره"⁴.

¹ لم يرد حديث بهذا اللفظ -على حدّ بحثي- بل الوارد في هذا الشأن: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ". رواه مسلم: الجامع الصحيح، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، مرجع سابق، ص 11. وفي البخاري موقوفاً عن علي: عن أبي الطفيل عامر بن واثلة رضي الله عنه قال سمعت علياً رضي الله عنه يقول: "حَدَّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ". رواه البخاري: الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهة أن لا يفهموا، مرجع سابق، ص 45.

² انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 83-84.

³ انظر: المرجع نفسه، ص 84.

⁴ مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مرجع سابق، ج 1، ص 387.

وقال عنه الدكتور عبد الحليم محمود -رحمه الله-، في تقديمه لشرح صحيح البخاري للشيخ زروق¹، ما نصّه: "...على ما امتاز به الشيخ زروق من زهد الألفاظ وتركيز على المعاني واعتناء بالمعلومات يفوق العناية بترتيب الأفكار وتناسقها، وتنظيم المعلومات وترباطها... يذكّر من المعاني فريدها، ومن الأفكار شواردها، ويبرز من المفهوم ما يكاد يستعصي على غيره"².

إنّ تراث الشيخ الأدبي من كتب الفقه والتصوّف وغيرها، هي كتبٌ ومصنّفاتٌ مؤسّسة القواعد، مُحرّرة المقاصد، يميل فيها إلى الاختصار؛ لكونه ممّن ألغى فضول القول، ويأتي فيها باللباب من العلم الذي يتناوله؛ لأنّه كان أنصح من أن يشغل قارئه بالقشور، وليس قارئه إلّا طالبًا مُتفقّها في الدين، أو مُريدًا مُترقيًا في مقامات اليقين، ولا أحقّ بالنصح منهما³.

أولاً - آثاره في التصوّف:

يُجمع أكثر من ترجم للشيخ زروق -رحمه الله- أنّ له القدح المعلّى في معرفة علوم القوم، وهو علم التصوف، وأنّه حاز قصب السبق في كشف أسرارهِ والغوص في بحاره، وفك شفرته وسبر أغواره، والاعتراف من دُرره وأنواره، جاء في كتاب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، ما نصّه: "وأما تأليفه فكثيرةٌ يميلُ فيها إلى الاختصار مع التّحرير، ولا يخلو شيءٌ منها عن فوائد غزيرة، وتحقيقات مفيدة، لا سيّما في التصوّف؛ فقد انفرد بمعرفته وجودة التّأليف فيه"⁴. وكما قال الأستاذ علي فهمي خشيم

¹ لقد امتدح الشيخ محمود عبد الحليم شرح زروق لصحيح البخاري فقال: "ومن الشروح الجليّة على صحيح البخاري ذلك التعليق الذي علقه الإمام الكبير الشيخ زروق عليه. لقد كان الشيخ زروق تلميذاً لأكثر تلاميذ ابن حجر جدّاً في الحديث، وخبرة به، ومعرفة بفنونه وهو الإمام السخاوي. ومن هنا كان في شرحه قارئاً للفتح، مطلعاً عليه، واجداً من مجالات الحديث حول صحيح البخاري ما لم يتيسر لابن حجر. لذلك كان شرحه تميماً لشرح ابن حجر، أو فهماً في الصحيح لا يغني عنه فتح الباري. ولقد اكتفى كثيرون بما في الفتح، ولم يجدوا بعده من يزيد عليه، ولكنّ الشيخ زروق أبطل هذا الاكتفاء، وبَيَّن أنّ معين العلم لم ينضب بعد ابن حجر، وأنّ مجال الابتكار لم يحف... (انظر: زروق: شرح صحيح البخاري، تحقيق: عزت علي عطية، موسى محمد علي، تعليق: عبد الحليم محمود، مطبعة حسان، القاهرة، 1973م، ج 1، ص 22-23).

² زروق: شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ج 1، ص 23.

³ انظر: كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، مرجع سابق، ج 1، ص 559.

⁴ التنبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص 131-132.

أيضا: "... غير أن آثاره الكبرى وأعماله الرئيسية تتبدى في مجالي التصوف والفقه أكثر من سواهما من الموضوعات... أن إبداعه وخلقه هو ميدان التصوف أكثر منه بكثير في باب الفقه والشريعة"¹.

ولا أدل على رسوخ قدم الشيخ أحمد زروق في مجال التصوف من اعتماد ابن عجيبة الحسني في كتابه "إيقاظ الهمم" على شروحه للحكم²، رغم ما قدّمنا من اعتراض ابن عجيبة على وصف زروق بمحتسب العلماء والأولياء، وزعمه أن زروق ما فُتح له في باب التصوف وأسرار الحقيقة إلا في آخر عمره، وكاد يخرج منها صفر اليدين!³.

فمن مصنّفات الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- في التصوف، نذكر:

1- شرح حكم ابن عطاء الله: لقد كانت سنُّ أحمد زروق أربعة وعشرين عاما حين ألّف كتابه الأول، فقد كتب في سنة 870هـ، تعليقه على "حكم"⁴ ابن عطاء الله السكندري(ت 709هـ). ولقد كانت هذه الحكم مُلهمة لكثير من الصوفية، كابن عباد وابن عجيبة والشيخ الشرقاوي والشيخ الشرنوبلي، فطفقوا يشرحونها ويدرسونها، أما الشيخ زروق فقد شُغف بها وافقتن بها افتتانا عظيما، فكانت لا تفارقه في سفر ولا حضر، وكان يشرحها فإذا ما انتهى من شرحها بدأ يشرحها من جديد، ولذلك فإنه لم يتيسر إحصاء عددها، والمؤكد أنها وصلت إلى أكثر من ثلاثين شرحا⁵. وإن كان الأستاذ فهمي خشيم، يُرجّح أن عددها سبعة عشر شرحا مختلفة، يقع بعضها في خمسمائة صفحة، منها ما يختص باللغة، ومنها ما يهتم بالرمز الصوفي، ومنها ما يُعنى بحكايات

¹ انظر: خشيم: أحمد زروق والزرقية، مرجع سابق، ص 81.

² انظر: المرجع نفسه، هامش ص 82.

³ انظر: كنون: موسوعة مشاهير رجال المغرب، مرجع سابق، ج 3، ص 14-15.

⁴ الحكم العطائية كتاب من أنفس الكتب في باب، لغة وتعبيرا وصياغة وأفكارا. وقد كتبه الصوفي الشاذلي الشهير تاج الدين بن عطاء الله السكندري، ويقول الكثيرون ممن ترجموا لزروق أنه كتب ما يزيد عن ثلاثين شرحا للحكم، لكن الثابت أنه كتب سبعة عشر شرحا، وهي مختلفة المحتوى ويقع بعضها في خمسمائة صفحة، منها ما يختص باللغة، ومنها ما يهتم بالرمز الصوفي، ومنها ما يُعنى بحكايات الصوفية. إلى غير ذلك من نواحي البحث والشرح والتعليق. (انظر: زروق: كتاب الإعانة، مرجع سابق، ص 7).

⁵ زروق، أحمد: شرح حكم ابن عطاء الله، تحقيق: عبد الحليم محمود، مطابع دار الشعب، القاهرة، 1405هـ/1985م، ص 11.

الصوفية... إلى غير ذلك من نواحي البحث والشرح والتعليق. فأى جهد هذا وأى عمل! وأى عطاء وأى تفرغ للدرس والبحث والكتابة!¹

2- الفتوحات الرحمانية في حل ألفاظ الحكم العطائية الشرح الخامس عشر: رغم ما ذكرنا من تعدد التأليف في شرح زروق للحكم، إلا أنه لا يوجد فيها التكرار؛ فكلُّ شرح يهتم بجانب معين كما بيّنا سابقا، فإذا كان قد اهتم في شروحه الأولى بالجانب اللغوي والتنبيه إلى بعض المعاني، فإنّه في شروح أخرى قد اهتم بالحقائق والرقائق والمعاني الصوفية المستوحاة منها. وقد قضى زروق زهاء ثلاثين سنة من عمره شارحا لهذه الحكم، مُدققا في معانيها التي تقتضي في نظر الشيخ زروق إصابة الحق في القول والعمل، والشرح الخامس عشر سمّاه: الفتوحات الرحمانية في حل ألفاظ الحكم العطائية².

ومن البواعث على اهتمام الشيخ زروق بشرح الحكم، إعجابه الشديد بحكم ابن عطاء الله: "...ومن أصح كتاب وقع لهم- أي السادة الشاذلية- في ذلك، وأنفع لكل عارف وسالك، كتاب الحكم العطائية التوحيدية الموهبية العرفانية، عباراته رائعة جامعة، وإشاراته فائقة نافعة"³.

3- تحفة المريد: مجموعة من الأقوال الصوفية عنوانها "تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المديد"، وكان هذا المؤلف مجموعة من: "المسائل" رتبها في أبواب: مثل باب "العلم" و"العقل" و"التوحيد" و"الطهارة" و"الصلاة" و"الصوم" و"الحج" و"الزكاة"، ويختتم بباب جامع يُلخص فيه أقوال العلماء والفقهاء والمتصوفة في هذه المسائل. ثم خاتمة واعتذار رائعين جميلين، يدل ذلك على تواضع جم⁴.

4- قواعد التصوف: كُتب بقدر كبير من العناية والحرص، ويُعتبر أفضل نتاج الشيخ زروق في التصوف وأصوله⁵. والكتاب عبارة عن جملة من النصائح العملية العلمية، جرّدها الشيخ زروق من

¹ انظر: زروق: كتاب الإعانة، مرجع سابق، ص3.

² انظر: زروق: الفتوحات الرحمانية في حل ألفاظ الحكم العطائية، تحقق: محمد طيب إدريس، كتاب ناشرون، بيروت- لبنان، 2013م، ص10.

³ المرجع نفسه، ص19.

⁴ انظر: زروق: كتاب الإعانة، مرجع سابق، ص6.

⁵ انظر: خشيم: أحمد زروق والزرقية، مرجع سابق، ص82.

كتابه "عدة المريد الصادق"، تكلم فيه عن ماهية التصوف وعلاقته بالفنون الأخرى من فقه، وأصول، وكلام، ولذلك كانت تسمية الكتاب: قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة، ويصل الأصول والفقه بالطريقة. وبين أيضا فائدته والقصد منه، وهو إصلاح القلوب وجعل الأعمال خالصة لوجه الله تعالى¹. والشيخ زروق أراد بوضع هذا الكتاب أن يجمع بين العلم بالفقه والمعرفة بالتصوف، تحذوه في ذلك روح الغيرة على أهل الله أن يضلوا أو ينحرف بعض الجاهلين من أتباعهم، ولذلك ألف هذا الكتاب على منهج من النقد المهادف البناء².

ويذهب مُحقق كتاب "قواعد التصوف" نزار حمادي، إلى أن قصد الشيخ زروق -رحمه الله- من خلال هذا الكتاب الذي سَمَّاه "تأسيس القواعد والأصول وتحصيل الفوائد لذوي الوصول في أمور أهمها (أعمها) التصوف وما فيه من وجوه التعرف"، هو وضع ضوابط وقوانين وأصول يحتاجها كل من المتكلم والفقيه والصوفي، للجمع بين أركان الدين الثلاثة من الإيمان والإسلام والإحسان على أكمل الوجوه وأحسنها، دفعا لما يُتَوَهَّم من تنافرها أو تزاحمها، إذ لا يكمل دين أحد إلا بحسن مراعاتها وترتيب الأولوية بينها³.

5- إعانة المتوجه المسكين: يعتبر هذا الكتاب خلاصة تعاليم الشيخ زروق الصوفية⁴. وهو من أنفَس وأنفع كتابات الشيخ زروق، وهو يقسمه إلى مواقف ثلاثة: يختص الأول منها بتحقيق التوبة، وهو أول مراحل الطريق، ثم يخصص الثاني لموضوع الاستقامة، أما الموقف الأخير فهو موقف التحقيق والعرفان والترقي في مقامات الإحسان⁵.

6- عدة المريد الصادق: وهو كتابٌ يبرز نظائره في مجال النقد الصوفي وتثبيت ركائز التصوف السيِّي، وتحليله من الشوائب والكدورات⁶. وقد جرَّد الشيخ كتابه هذا من أجل بيان عيوب

¹ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص 14.

² انظر: زروق: كتاب الإعانة، مرجع سابق، ص 16.

³ انظر: زروق الفاسي، أحمد أبو العباس: تأسيس القواعد والأصول وتحصيل الفوائد لذوي الوصول في أمور أعمها التصوف وما فيه من وجوه التعرف، تحق: نزار حمادي، المركز العربي للكتاب، الشارقة، لا.ط، د.ت، ص 6.

⁴ انظر: خشيم: أحمد زروق والزُّوقية، مرجع سابق، ص 83.

⁵ انظر: زروق: كتاب الإعانة، مرجع سابق، ص 28.

⁶ انظر: خشيم: أحمد زروق والزُّوقية، مرجع سابق، ص 82.

الطُّرُق ومحدثاتها، فشخَّص العلل والأدواء تشخيص المجرَّب الحاذق - فهو علَمٌ من أعلام التصوُّف -، ووصف الدواء وانتقد انتقاد العالم الفقيه، الذي جمع بين الشريعة والحقيقة¹.

وقد قال فيه التنبكتي في نيل الابتهاج: "وكتاب عُدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت، كتابٌ جليل، فيه مائة فصلٍ، بيَّن فيه البدع التي يفعلها فقراء الصُّوفية"².

7- النصيحة الكافية لمن خصَّه الله بالعافية: ويُعتبر هذا الكتاب من أطيب ما كُتِب في مجال تهذيب النفوس وعلاج أمراض القلوب، فبيَّن حقيقة هذا الدين الذي ألزم الله به عباده، القائم على تركية النفس الإنسانية وتطهيرها من رعوناها، ليكون الإنسان مؤهلاً لعمارة الأرض والاستخلاف فيها، وتُصبح تصرُّفات الإنسان وسلوكه ثمرة من ثمرات هذه العبودية³.

لقد كان الشيخ زروق -رحمه الله- مُهتَمًّا بالنصح لأمتِه، فأكثر التأليف في هذه الباب؛ فأول ما ألَّف في النصح للمسلمين كان سنة 871هـ، وهو بمدينة فاس، وبقي مواظباً على النصح للأمة طوال حياته، فقد أعاد التأليف في النصح غير ما مرة؛ فألَّف "النصيحة الكافية" سنة 877هـ، بالقاهرة بمصر، ثم أعاد التأليف في نفس الموضوع (الجامع/النصيحة الصغرى) بالجزائر، وهو في طريق عودته إلى المغرب. حيث حلَّ ضيفاً على صديقه العبديلي بزاويته بإقليم بجاية، وقد انتهى من تأليفه سنة 878هـ⁴.

8- شرح أسماء الله الحسنى: وقد جاء هذا الكتاب تفسيراً لأسماء الله الحسنى⁵ كما قال صاحبه: "فهذه كلمات تفاسير على الأسماء الحسنى، حسب الطاقة، ونزهة أسرار زائدة الرقاقة، فكل

¹ انظر: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص5.

² التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الدياج، مرجع سابق، ص132.

³ زروق، أحمد: النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، تحق: فيس محمد آل الشيخ مبارك، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض-مكتبة الظلال، الأحساء، المملكة العربية السعودية، ط1، 1414هـ/1993م، ص3-4.

⁴ زروق: النصائح الزروقية، مرجع سابق، ص4.

⁵ يستبعد الأستاذ فهمي خشيم أن يكون هذا الكتاب للشيخ زروق؛ وحجته في ذلك أنه -أي الكتاب- أقرب إلى السحر، ويقوم على الاعتقاد بأن أبيات قصيدة الدمياطي في الأسماء الحسنى ذات قوة سحرية يمكن أن توجه ضد الأعداء، وأن تدفع الضرر وتجلب النفع، ومعلوم أن اعتقاد الشيخ لا يتفق مع هذا أبداً. ولكن أرى أن الشيخ خشيم ربما أخلط بين شرح الدمياطية وبين رسالة زروق في شرح أسماء الله الحسنى، فهو حينما تكلم عن شرح الدمياطية قال: ويعرف أيضاً باسم شرح أسماء الله الحسنى، وباسم المواهب السنية، فقد ينطبق إنكاره على الدمياطية؛ فهي تحمل أشياء مما قال، ولكن رسالته على شرح أسماء الله الحسنى كتاب آخر، تستشف من خلالها أنها تعبر عن أفكار الشيخ ومنهجه، والله أعلم. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص86).

ما ورد في اسم من الأسماء آتي به على حسب الوسع والتيسير، وطبق ما انتهى إليه عمل القاصر والقصير¹. والشيخ يتكلم في هذا الموضوع الشائك الذي اختلف الناس حوله، لكنه يُنبّه إلى منهج السلف في ذلك - وهي عادته في كثير من كتبه - ويقول أنّهم لم يخوضوا في هذه المسائل، بل كان منهجهم التسليم، وإمرازها كما جاءت، فيقول: "ولكنّ السلف لم يتكلّموا في الاسم ولا في المسمّى، ولا في الصفة والموصوف، ولا في التلاوة والمتلّو؛ طلبا للسلامة، وحذرا على الغيرة، وهو الورع، والله أعلم"².

9- شرح حزب البحر: وهو الكتاب المسمى بمفاتيح العزّ والنصر في التنبيه على ما يتعلق بحزب البحر لقطب الأقطاب سيدي أبي الحسن الشاذلي، وقد بيّن الشيخ زُرُوق فائدته والقصد منه، فقال: "واعلم أنّ أحزاب الشيخ ﷺ، جامعة بين إفادة العلم، وآداب التوجّه، وتعريف الطريقة وتلويح الحقيقة، وذكر جلال الله ﷻ وعظمته وكبريائه، وذكر حقارة النفس وخساستها، والتنبيه على خُدعها وغوائلها والإشارة لوصف الدنيا، والخلق، وطريق الفرار من ذلك، ووجه حصوله والتذكير بالذنوب والعيوب، ووجه التنصّل منها مع دلالة على خاصّ التوحيد، وخالصة اتباع الشرع، ومطالبه فهي تعليم في قالب التوجه، وتوجّه في قالب التعليم"³. وقد ردّ الشيخ زُرُوق على من شنّع وأنكر هذه الأحزاب، وخاصة تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-، فقال زُرُوق: "وابن تيمية رجلٌ مُسلّم له في باب الحفظ والإتقان، مطعونٌ عليه في عقائد الإيمان، ملمودٌ بنقص العقل فضلا عن العرفان، وقد سأل عنه الشيخ الإمام تقي الدين السُبكي، فقال: هو رجلٌ علمه أكبر من عقله، والله أعلم"⁴.

10- أرجوزة عيوب النفس ودواؤها: وهي من أهم أعمال الشيخ أحمد زُرُوق، وهي نظم وشرح لرسالة الإمام أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي (ت 412هـ)، والتي سميت في بعض المصادر بالأنس في عيوب النفس أو نظم فصول السلمي أو نظم عيوب النفس ومداواتها، وهي أكبر

¹ زُرُوق، أحمد: شرح أسماء الله الحسنى ويليهِ شرح منظومة الهمياني لخواص أسماء الله، تحق: السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1428هـ/2007م، ص16.

² المرجع نفسه، ص17.

³ زُرُوق، أحمد: شرح حزب البحر، تحق: أحمد فريد المزيدي الشيخ، دار جوامع الكلم، القاهرة، لا.ط، د.ت، ص34.

⁴ المرجع نفسه، ص34.

دليل على مكانته، كشيخٍ مُربٍّ عارفٍ بمكامن النفس وأدوائها وطرق مداواتها، فضلا عن قدرته في مجال النظم والرجز... هذا ومما زاد هذه الأرجوزة جمالا وقيمة أنَّ الشيخ زروق كان قد نظمها كلها بالروضة المشرفة، قُرب الحُجرة النبوية المطهرة، أثناء حجِّه وزيارته للمسجد النبوي سنة 888هـ، وهي حجة لم يشر إليها من ترجم له... وقد ذكر في هذه الأرجوزة تسعا وستين عيبا أو مرضا من عيوب وأمراض النَّفس الأمارة بالسُّوء، وطريقة علاج كلِّ مرض من تلك الأمراض، ويتَّضح من خلال ذلك أنَّ الشيخ زروق مختصٌّ في علم النَّفس حسب مدرسة أهل التصوُّف، عارف بأحوال النَّفس المذمومة، ومكرها وخفايا شرها، وطرق علاجها وتطبيها¹.

11-الجامع لجمل من الفوائد والمنافع: من أفضل ما ألَّف الشيخ زروق -رحمه الله- في مجال خُلُق الرسول ﷺ، حتى يكون الناس على مزيد بَيِّنة. وقد أحسن الشيخ زروق وأفاد، وجمع فيه خلاصة علم السلوك والأخلاق المروِّي عن رسول الله ﷺ، وأراد فيه أن ينصح الناس²، فجمع في "جامعه" آداب الإسلام التي يحتاجها المرء في حياته، دينا ودنيا، وتصحبه في يقظته ونومه... فأداب الطعام، والدعاء، والسلام، والسفر، والجلوس، والنوم، والصحبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسياسة الناس وحكمهم³.

12-اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية: إنَّ منظومة "المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية" للشيخ، الفقيه الصوفي أبي العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي، المشهور بابن البنا السَّرْقُسْطِي، من أشهر المتون العلمية في علم السلوك، ويعتبر شرح العلامة الشيخ أحمد زروق المسمَّى بـ"اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية" من أقدم شروحها، وقد أفاد منه الشيخ ابن عجيبة الحسني في شرحه المسمَّى بـ"الفتوحات الإلهية بشرح المباحث الأصلية" إفادة عظيمة. ومنظومة ابن البنا هي قصيدة من بحر الرجز، تقع في حوالي إحدى وخمسين وأربعمئة بيت، تشتمل

¹ زروق، أحمد: عيوب النفس ودواؤها، تحق: محمد طيب إدريس، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2010م، ص6-7.

² أسلفنا الحديث عن اهتمام الشيخ بالتأليف في مجال النصح للأمة، وهنا يذكر الهاروشي أنه قرأ على شيخه ابن جابر الطرابلسي في الزاوية الزروقية بمصراته ثلاث كتب في النصيحة، وهي: النصيحة الكبرى، والنصيحة الكافية وهي اختصار للنصيحة الكبرى، ثم بذل المناصحة أو النصيحة الصغرى التي اختصرها من النصيحة الكافية. (انظر: زروق: النصائح الزروقية، مرجع سابق، ص4).

³ زروق، أحمد: الجامع لجمل من الفوائد والمنافع، تحق: عبد الحي اليملاحي، كتاب ناشرون، بيروت، 2016م، ص3-4.

على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة. تكلم فيها مُصنّفها على أصل علم التصوّف وفضله، وأحكامه، والردّ على منكريه وأحوالهم، وفي الأخير تحدّث على فقراء العصر وذمّ المخلّطين من المتصوّفة¹.

13- شرح النونية والمقطعات الششتريّة: وهو من أهمّ الشروح على النصوص الصوفية الشعرية بعد شروحه على القرطبية، وشرحه على الحقائق والرقائق للمقري، وكذا شرحه على أبيات التطهّر بماء الغيب للجنيد. ولعلّ اهتمام الشيخ زروق بأعمال الششتري، راجع لكون الششتري لما استوطن مصر في أواخر حياته انتسب للشاذلي؛ فاعتبره الشاذلية من شيوخ مدرستهم. ويمكن اعتبار هذا الشرح مُوجّه لذوي البدايات في طريق السلوك؛ وذلك بتقديمه المفاتيح الأولية لفهم القصيدة، كما أنّه مُوجّه لذوي النهايات؛ من خلال إشاراته الخفية إلى معاني لا يُدرّكها إلا من تحقّق في علوم القوم. وأغلب الظنّ أنّ تأليف زروق لشرح نونية الششتري ومقطعاته كان أثناء مقامه بمصر سنة 886هـ².

14- سلوك الطريق إذا فقد الرفيق: ذكره صاحبُ إيضاح المكنون (مفقود)، وجاء في فهرس مكتبة الأزهر: 5446 مجاميع 216: أنّ علاء الدين المنقي الهندي (ت 975هـ) له تعليق على الرسالة تحت عنوان: "هداية ربي إذا فُقد المرئي"³.

15- الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقية: وهذا الكتاب يشمل ثلاثة أعمال للشيخ زروق في التصوّف، وهي: التائية الزروقية، والتي تعتبر من أهمّ قصائده في التصوّف؛ إذ تلخّص لنا تجربته الصوفية وتعبّر عنها بنظم رقيق غاية في الرقة والسموّ الروحي. والعمل الثاني هو رسالته في مراتب أهل الخصوصية، وقد أثنى عليها كلّ من اطّلع عليها أو قرأها، حتى عُدّت من أعماله الفريدة الدالة على سموّ قدره في سلوك الطريق وعلوم القوم. أما العمل الثالث فيتناول بالشرح أبيات الجنيد في التصوّف، والتي عنونت بـ "التطهر بماء الغيب"⁴.

¹ انظر: زروق، أحمد: اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية، تحق: محمد عبد القادر نصار-عبد الله جمال حمدنا الله، دار الإحسان، القاهرة، ط1، 2015م، ص5-6.

² انظر: زروق، أحمد: شرح النونية والمقطعات الششتريّة، تحق: محمد إدريس طيب، كتاب ناشرون، بيروت- لبنان، لا.ط، 2019م، ص5-6-7.

³ طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء، مرجع سابق، ص419-420.

⁴ انظر: زروق: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزروقية، مرجع سابق، ص5.

16- سفينة النجا لمن إلى الله التجأ أو الوظيفة الزروقية: وهذه الوظيفة من أجل الأذكار؛ لما اشتملت عليه من الآيات القرآنية والأدعية النبوية، والتسبيح والتهليل والاستغفار، والصلاة والسلام على النبي المختار ﷺ. ولنفاضة هذه الوظيفة وشرفها، اهتم جماعة من العلماء بشرحها والتعليق عليها، كالشيخ علي بن سعد البيسوسي الشافعي، في شرحه المسمى: فتح ذي الصفات السنية بشرح الوظيفة الزروقية، وكذا الشيخ عبد الرحمن العياشي، في شرح سمّاه: الأنوار السنية في شرح الوظيفة الزروقية، والشيخ ابن عجيبة الحسني، في شرحه المسمى ب: اللوائح القدسية على الوظيفة الزروقية... وقتها: من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس بكرة، ومن بعد صلاة العصر إلى بعد صلاة العشاء الأخيرة عشية¹.

لعلنا نكتفي بهذا القدر من ذكر المؤلفات والشرح في مجال التصوف، ولمزيد من الاطلاع على مؤلفات الشيخ زروق الصوفية يمكن الرجوع إلى كتاب الأستاذ علي فهمي خشيم "أحمد زروق والزروقية"، فقد سرد معظم كتب الشيخ زروق، والتي أوصلها إلى تسعة وثلاثين كتاباً².

ثانياً - آثاره الفقهية:

مما ذكر فيما يخص آثار الشيخ أحمد زروق في مجال الفقه، أنه لم يُقدّم فيه أيّ مؤلف أساسي كما فعل في التصوف³، بل كانت إسهاماته عبارة عن تعليقات وشرح غاية في التحقيق والإتقان كما هو معهود من منهجه وأسلوبه، ولعلنا نذكر جملة من تصانيفه في ميدان الفقه، مع علمنا أنها لن تكون كمثيلتها التي ذكرناها في ميدان التصوف الذي برز فيه باتفاق.

1- شرح العلامة أحمد زروق على متن الرسالة: نظراً لأهمية رسالة ابن أبي زيد القيرواني؛ إذ أنها شهيرة المناقب والفضائل، غزيرة النفع في الفقه والمسائل، لذلك اعتنى بها الأوائل والأواخر، وانتفع بها أهل الباطن والظاهر، فمن التزمها - كما ذكر زروق - كان له علم حاصل أو مال واصل أو صلاح كامل أو جاه فاضل. ولذلك كان شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني من أهم مؤلفات الشيخ

¹ انظر: زروق، أحمد: سفينة النجا لمن إلى الله التجأ، تحقق: نزار حمادي، لا.ن، لا.م، لا.ط، د.ت، ص 5-6-7.

² انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 93-94-95. وانظر: ص 99 وما بعدها.

³ انظر: المرجع نفسه، ص 81.

زروق¹، وقد كان منهج الشيخ زروق فيها أخذ عيون المسائل، والنقل من كتب المتأخرين؛ لما لهم من الجمع والتحرير، أمثال عبد الرحمن الثعالبي وأبي العباس القلشاني، وغيرهم². وللشيخ أحمد زروق-رحمه الله- على الرسالة شرحان³، شرحٌ طُبِعَ مع شرح ناجي بمصر سابقاً، ثم أعيد طبعه بدار الفكر ببيروت⁴.

2- مختصر على المقدمة الوغليسية: وقد قصد من خلاله أن يذكر فيه ما تيسر له من المعاني والمناحي التقديسية التي وردت في مقدمة أبي زيد الوغليسي الجزائري، ملتزماً فيه ما يحتاج إليه الفقير الناصح، وعاملاً على ما لا بد منه من الأمر الواضح، طالبا العذر من الفقيه ومن فضله القبول؛ نظراً لأنها ربما لا تلي رغبتَه ولا تشبع نهمته؛ فهي مُوجَّهة للمبتدي⁵. والمطلَّع على شرح زروق يجده يُكثر من النقل عن الكتب الثلاثة: مختصر خليل، ومختصر ابن حاجب، والرسالة للقيرواني. وقد طُبِعَ الشرح في كتاب، تحت اسم: "شرح العلامة زروق على المقدمة الوغليسية في العقيدة والفقه والتصوف"، والذي تمَّ تحقيقه من طرف: محفوظ بوكراع وعمار بسطة، وجاء هذا الكتاب في مائتين وأربع وخمسين (254) صفحة، صادرة عن دار ابن حزم في بيروت خلال عام 1431هـ الموافق لسنة 2010م.

3- المقدمة القرطبية ليحي القرطبي على مذهب السادة المالكية بشرح العلامة أحمد زروق البرنسي: هذه المقدمة من الكتب المهمة في الفقه المالكي، وقد سمَّاه صاحبه-يحي القرطبي ت567هـ- "أرجوزة الولدان في الفرض والمسنون"، اقتصر فيه على فقه التوحيد، والطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، من دون المواضيع الأخرى من الفقه؛ لأنَّه كان يهدف إلى تعريف الناس أصول دينهم بسهولة ويُسر، ولذلك صيغت مواضيع الكتاب شعراً على بحر الرجز؛ ليسهل حفظه والتغني به. ولكن مع مرور الزمن أصبحت هذه الأرجوزة بحاجة إلى شرح وبيان حتى تعمَّ

¹ انظر: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص10.

² انظر: زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص10-11.

³ انظر: ابن القاضي: جذوة الاقتباس، مرجع سابق، ص131. والتبكي: نيل الابتهاج، مرجع سابق، ص132.

⁴ ضيف، بشير: مصادر الفقه المالكي، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط1، 1429هـ/2008م، ص24.

⁵ انظر: زروق: مختصر على المقدمة الوغليسية، مخطوط، ص1.

فأدتها، وهذا ما اضطلع به الشيخ زروق من خلال شرحه على المقدمة القرطبية، فقال: "فقد رأيتُ كثيرا ممن يحفظون المقدمة القرطبية من غير أن يعرفوا لها معان ولا وجوه خفية ولا جلية، فظهر لي أن أضع عليها تقييدا مفيدا إن شاء الله"¹.

ومن تأليفه وشروحه في مجال الفقه، يمكن أن نذكر أيضا:

- 1- شرح الإرشاد.
- 2- شرح مواضع من مختصر خليل.
- 3- شرح قواعد عياض.
- 4- شرح الحكيم الترمذي².

ثالثا- آثاره الكلامية:

إنَّ المتنبِّع لمصنّفات الشيخ أحمد زروق -رحمه الله-، لا يكاد يجد مؤلفا خاصا به في مجال العقيدة وعلم الكلام، لكنّ هذا لا يعني أنّ الشيخ لم يهتمّ بالكتابة في هذا الجانب المهمّ من جوانب المعرفة الإسلامية، فهو كثيرا ما ينبه في كتبه ورسائله إلى ضرورة اهتمام المريد والصوفي ببناء عقيدته أو تصحيحها، أو تثبيتها على ما كان عليه الرعيل الأول من الصحابة والتابعين، وكبار أئمة المسلمين من أهل السنة؛ بل نجده ينوّه بعقيدة الغزالي، والقيرواني ويدعوا إلى قراءتهما ودراستهما³؛ وذلك لأن "أوجب الواجبات الإيمان الجازم"⁴.

إنَّ الذي يطّلع على تراث الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- يجد آراءه العقدية مبثوثة في كتبه وشروحه المختلفة في ميادين الفقه والتصوّف، فهو كغيره من العلماء والمصنّفين في عصره في بلاد الغرب الإسلامي ينتهجون طريق الجمع بين العقيدة والفقه والسلوك؛ فيبتدئون مؤلفاتهم بمقدمات عقدية، ثم يتحدّثون في طيات الكتاب عن الفقه وأحكامه، وغالبا ما يختمون تأليفهم بالحديث عن الأخلاق والسلوك والتصوّف. ومن الكتب والشروح التي تناولت جانب العقيدة، نذكر منها:

¹ انظر: زروق: شرح المقدمة القرطبية، مرجع سابق، ص 8-9.
² انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 97.
³ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 40.
⁴ انظر: زروق: شرح المقدمة القرطبية، مرجع سابق، ص 103.

1- شرح المرشدة لابن تومرت: هذه العقيدة التي ألفها مهدي الموحّدين ابن تومرت، وضمّنها معتقد الأشاعرة وشيئا من معتقد الشيعة في مسألة الإمامة، مع تحرير بليغ وإيجاز كبير، فهي لا تتعدى الصفحة. وقد شرح الشيخ أحمد زروق هذه المرشدة في بداية حياته العلمية، أي في الفترة الممتدة ما بين 870 و873هـ، وهذا عندما كان مدرسا بالمدرسة البوعنانية، وملازما لشيخه الزيتوني¹.

2- شرح عقيدة الإمام الغزالي: وهو شرح في غاية الأهمية، كما أنه يعتبر مصدرا أساسيا في عقيدة أهل السنة؛ فهذا شيخ أحمد زروق، الإمام السنوسي-وهو من هو في علم التوحيد والعقائد- كثيرا ما يستدل في عقيدته الكبرى بكلام الشيخ زروق، ويرجع إلى أقواله وآرائه في جزئيات دقيقة لا يستطيع أن يتفطن لها إلا من أعطاه الله علما ودراية، وفتح الله عليه ونور قلبه وبصيرته². وللشيخ زروق شرحان للفصل الأول من كتاب قواعد العقائد للغزالي، والذي تناول ترجمة أهل السنة في كلمتي الشهادة، جاء أحدها مرة بعنوان "تعليقة على عقيدة الغزالي"، وأخرى بعنوان "اغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد"³.

3- شرح المقدمة الوغليسية: لقد شرح الشيخ زروق مقدمة عبد الرحمن الوغليسي، التي تتناول في بدايتها الجانب العقدي المرتبط بالإسلام والإيمان، والتصديق بما يجب التصديق به من قواعد العقائد، وأصول الإيمان انطلاقا من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه -حديث الإسلام والإيمان والإحسان- ولعل ما دفع الشيخ زروق لشرح هذه المقدمة هو اهتمام الوغليسي بالتربية الروحية، وجمعه بين الأحكام الظاهرة وأسرارها الخفية⁴.

4- شرح على القرطبية: للشيخ أحمد زروق شرحان على المقدمة القرطبية، شرح مختصر وشرح طويل، وهما مطبوعان معا. هذا ولقد قسم زروق شرحه إلى مقدمة، وفصل في قواعد الإسلام، هذا

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 323-326.

² انظر: المرجع نفسه، ص 79-80.

³ انظر: المرجع نفسه، ص 89-90.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص 362.

وقد شرح في الباب الأول من التوحيد ثمانية عشرة بيتاً من كلام الناظم، تطرّق فيه إلى معرفة الربّ وتنزيهه عن الشبيه والإحاطة بالمكان والزمان، وتكلّم عن إرسال الرُّسل وعن بعثة النبي محمد ﷺ¹. إضافة لمجال الفقه والتصوف والعقيدة فقد ألف الشيخ زروق في ميادين عديدة من فنون المعرفة الإسلامية، يحسن بالقارئ أن يطلع عليها في عديد الكتب التي ذكرت ذلك²، ومنها كتاب "أحمد زروق والزروقية" للأستاذ علي فهمي خشيم، والتي ذكرها مُصنّفه على حسب مجالها في فصل تراث الشيخ زروق³.

ولعلنا نذكر أيضاً الشيخ أحمد بابا التنبكي، الذي كان أحصى لمؤلفات الشيخ زروق من غيره، فقال: "فمنها شرحان على الرسالة وشرح إرشاد ابن عسكر البغدادي (732هـ) وشرح مختصر خليل [رأيتُ منه بخطّه من الأنكحة والبيوع وغيرها] وشرح الوغليسية وشرح القرطبية وشرح الغافية وشرح العقيدة القدسية للغزالي، وتيف وعشرون شرحاً على الحِكم [لابن عطاء الله] وشرحان على حزب البحر وشرح الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي وشرح مُشكلاته، وشرح الحقائق والدقائق للمقري وشرح قطع الششتري وشرح الأسماء الحسنى وشرح المراسد في التصوّف لشيخه ابن عقبة [الحضرمي]، والنّصيحة الكافية لمن خصّه الله بالعافية ومختصره، وإعانة المتوجّه المسكين على طريق الفتح والتمكين، وكتاب قواعد التصوّف، وهذه الثلاثة [الأخيرة] في غاية النّبيل والحُسن، لا سيّما الأخير منها لا نظير له⁴.

فهذا إحصاءٌ دقيق لما يربو عن أربعين مُصنّفًا وشرحاً وتعليقاً، يذكره التنبكي من دون تصنيف ولا ترتيب - كما فعل الأستاذ خشيم -، وإنّما يسوقه جملة واحدة؛ وهذا ربما كان ديدن القدامى من عدم التفريق والفصل بين مجالات وميادين المعرفة الإسلامية.

ويضيف الشيخ أحمد بابا التنبكي مصنّفات أخرى غاية في التحرير والاختصار والضبط، فيقول: "وكتابُ النّصح الأنفع والجنّة للمعتصم من البدع بالسنة، وكتاب عُدّة المرید الصادق من

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 337.

² من الكتب الذي ذكرت تأليف الشيخ زروق، كتاب تلميذه الخروبي: الأنس في شرح عيوب النفس، مرجع سابق، ص 16-17.

³ انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 93 وما بعدها.

⁴ التنبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص 131-132.

أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت، كتابٌ جليل، فيه مائة فصل، بيّن فيه البدع التي يفعلها فقراء الصّوفية. وله تعليقٌ على البخاري قدر عشرين كراسة، اقتصر فيه على ضبط الألفاظ وتفسيرها، وجزءٌ صغير في علم الحديث. وله رسائل كثيرة لأصحابه، مشتملة على حكم ومواعظ وآداب ولطائف تصوّف مع الاختصار، قلّ أن توجد لغيره. وبالجملّة فقدّره فوق ما يُذكر ومن تفرّغ لذكر حاله وفوائده وحكمه ورسائله جمّع منها مجلدا... وهو آخر أئمّة الصّوفية المحقّقين الجامعين لعلمي الحقيقة والشرعية¹.

وإضافة إلى ما ذكره التنبكي من مؤلفات للشيخ أحمد زروق، فهناك كتاب "الكنّاش"، وهو عبارة عن كتاب فيه ترجمة لحياته، وقد كان الشيخ ناهز الخمسين من عمره حين بدأ يكتب كُنّاشه، يعني سنة 894هـ، وهو في مدينة مصرّاتة حيث استقرّ به المقام في آخر حياته. وإنّ أول ما يتبادر إلى الذّهن حين ننظر في "الكنّاش"، هو الشكّ في ما إذا كان هذا الأثر بوضعه الذي هو عليه وترتيبه المتداول هو من وضع زروق، أم أنّ في الأمر لبساً. ويدفعنا إلى هذا الشكّ ما نراه من هذا الخلط الغريب فيه، ثمّ ما نعرفه عن ذهن شيخنا المُنظّم المرتّب الدّقيق، بل الشّدّيد الدّقة في مؤلّفاته الموثّقة المعروفة... هذه الدّقة والضبط مفقودان تماماً في "الكنّاش"، اللهم سوى ما جاء في بدايته... ومن ثمّ فالمرجح أنّ "كنّاش زروق" هو نتيجة عمل أحد تلامذته، أو أحدٍ ممّن اطّلع على تركّته العلميّة، وحصل على بعض مُخلّفات الشيخ بُعيد وفاته².

¹ التنبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص132.

² زروق: الكنّاش، مرجع سابق، ص6.

المبحث الثالث: صفات الشيخ أحمد زروق وكراماته وأقوال العلماء فيه

المطلب الأول: صفاته

ذكرت كتب التراجم والسير، وكذا كُتِبَ المحققة¹، عديد الصفات والحلال التي كان يتحلّى بها الشيخ أحمد زروق -رحمه الله-، كيف لا وقد نشأ في بيت علم وفقه، وكانت جدّته أمّ البنين تتعاهدّه بالرعاية والتربية على الأخلاق والآداب الإسلامية منذُ نُعومة أظافره. فمن صفاته رضي الله عنه أنّه كان:

- جميل الصورة أبيض البشرة. مربع القدّ - ليس بالطويل ولا بالقصير -.
- ورعاً، مخلصاً لله في أعماله؛ متجرداً لله، متواضعاً، يظهر ذلك من خلال كتابه "عدة المريد" والذي هو نظير كتاب "تلبيس ابليس"، وهو يُبيّن مقصده من تأليفه بلغة المتواضع الورع: "ليعلم الناظر في هذا الكتاب، المتأمل لما فيه من حق وصواب، أنّا لم نقصد به الطعن على الناس ولا القدح فيهم، ولا الاشتغال بمساوئهم ولا إظهار عيوبهم، ولا أردنا الاستظهار بالمزية عليهم، وإنّما قصدنا به التحذير من الوقوع فيما حذرنا منه، والتحرير لما نبهنا عليه، ليكون عدة للصادق في دينه، وإعانة للمحقق في يقينه، ورحمة للمسكين في حاله..."².
- سريع الحفظ، كثير الحياء خاصة ممّن هو أكبر منه سنّاً. وفي ذلك يقول المناوي: "كان سريع الحفظ، دائم الإطراق، كثير التأدّب مع من تقدّمه في السنّ، مُحافظاً على الامتثال. خجولاً متواضعاً تقيّاً"³.
- شديد الحرص على شعائر الدين؛ ومن ذلك ما ذكره في شأن صلاة العشاء والصبح في جماعة، يقول: "وقد سألت كثيراً ممّن تقع عليه الدواهي فأجده مُفَرّطاً فيهما، وما وجدت أحداً قد أصابته مصيبة كبيرة ممّن صلاهما، وما فاتتني منهما ركعة قطّ إلا رأيت أثرها في يومي. وقد ذكر تلميذه،

¹ انظر: طيب، محمد إدريس: الأذكار السننية بالمدرسة الزروقية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2012م، ص 16-17-18. وزروق: مفتاح الفضائل والنعم في الكلام على بعض ما يتعلق بالحكم، مرجع سابق، ص 14-18. وطيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 8-12.

² زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 31.

³ المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، مرجع سابق، ج 3، ص 168.

ووارث سِرّه الشيخ محمد بن علي الخروبي أنّ الشيخ أحمد زروق لم تُفْتَه صلاة الجماعة لمدة أربعين سنة¹.

● شديد التمسك بالكتاب والسنة، وبأحكامهما؛ وفي ذلك يقول: "أصل كل أصل من علوم الدنيا والآخرة، مأخوذ من الكتاب والسنة. مدحاً للممدوح، وذمّاً للمذموم، ووصفاً للمأمور به..."². ومن ثمّ فإنّه "لا يجوز لأحد أن يُقدِّم على أمر حتّى يعلم حكم الله فيه"³.

● شديد التمسك بالعقيدة الصحيحة، عقيدة السلف الصالح؛ حيث حارب في كتبه ورسائله البدع والعقائد الفاسدة؛ إذ "لا يُقبل في باب الاعتقاد مُوهم، ولا مُبهم"⁴.

● عزيز النفس، مُفرط الحساسية لا يقبل ذلّة ولا مسكنة، ولا هواناً في دينه، أو معيشته؛ ولو من أقرب المقربين إليه⁵.

● شديداً في الحقّ، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يرُدّه رادع. وهذا ما دفعه إلى معارضة شيخه الزيتوني، وابن قبيلته عبد العزيز الورياكلي خطيب القرويين آنذاك، في الخروج على الملك الشرعي؛ لأنّ في ذلك فتنة⁶.

● آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، فقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الشيخ زروق، قاعدة أساسية من قواعد الدين، وركنٌ ركين في مدرسته الصوفية السنية الإصلاحية. حيث لم يمنعه مرض أو عجز، ولم تُثغله عُربة أو انعدام النّصير والعشيرة، وكان ثمن ذلك نقمة الكثيرين وعداوتهم ومحاربتهم لأفكاره الإصلاحية، فرُمي بالإلحاد والتهوّد، وضُرب وسُلب، وكان خروجه من موطنه وغربته عن أهله وأصحابه في بلاد الله الواسعة لسنوات⁷.

¹ زروق: النصائح الزروقية، مرجع سابق، ص48.

² زروق: قواعد التصوّف، مرجع سابق، ص61.

³ المرجع نفسه، ص62.

⁴ المرجع نفسه، ص63.

⁵ زروق: شرح النونية والمقطعات الششتريّة، مرجع سابق، ص14.

⁶ زروق: الأذكار السنية بالمدرسة الزروقية، مرجع سابق، ص12.

⁷ انظر: زروق: النصائح الزروقية، مرجع سابق، ص10.

• زاهداً في الدنيا، فأراً من المناصب، مُعْرِضاً عن الحُكَّام وأصحاب الثُّغُوز، وذوي الجاه الديني. لا يَحْفَلُ بهم، ولا يتعرَّض لعطائهم أو نَوَاهِم، أو مدحهم، بل كان يرى كلَّ الداء في التقَرُّب إليهم، ومُصاحبتهم؛ فضلاً عن التزُّلف إليهم. قال عنه المناوي: "... خَطْبَتُهُ الدُّنْيَا فحاطب سِوَاهَا، وعُزِّضَتْ عليه المناصب فردَّها وأبَاهَا..."¹.

• كثير التَّواضع على عادة كبار العلماء والصلحاء؛ لا يَنْسِبُ لنفسه علماً، أو تفوقاً، أو مشيخة على الغير. يدلُّ على تواضعه ما بَجَّده في مُقَدِّمات وخواتيم مُعظم كتبه من اعترافه بالتَّقصير والعجز والجهل. حيث لا يدَّعي علماً ولا إماماً بالموضوع، ولو كَتَبَ فيه غير ما مرَّة، وبَجَّده يُصَدَّر مُعظم مؤلَّفاته بقوله: " يقولُ المُعترف بذنوبه وعيوبه وتقصيره. الرَّاجي فضل مولاه وإحسانه في جميع أمره. أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البُرْنِسي. ثم الفاسي. شهر بزُّوق، غفر الله ذنبه، وستر عيبه، وأصلح قلبه..."².

وكان رضي الله تعالى عنه شديد الحرص على أن لا يعتقد الناس بصلاحه أينما حلَّ، ويحتمي في ذلك بالأسباب التي كان يتَّخذها لكسب رزقه، وأهمَّ هذه الأسباب لما كان بالمغرب³:

- تعلُّمه الخرازة وهو صغير، واشتغاله بها مُدَّة ست سنوات بعد موت جدِّته.
- الأموال التي كانت تُدرُّها عليه الممتلكات التي تركها له أبوه وجدَّته بالبادية.
- اشتغاله بالتدريس في مراحل مختلفة من حياته، وكذا استنساخ كتبه، وإهدائها لمن يستحقُّ ذلك، مع إثابته عليها.

- ما كانت تأتيه من فتوح بطرق مشروعة ومشرفة.

ورغم مكانته الرفيعة، وقدره العظيم عند الجميع، سواءً كانوا عُلماء وصلحاء أم عامَّة، فإنَّه كان يحرص بنفسه على أن يخدم مريديه وشيوخه والعلماء الذين أخذ عنهم، وأوضح مثال على ذلك خدمته لشيخه الزَّيتوني - الذي كان مقعداً وضريراً - مدة طويلة، والحضرمي اليميني بعد ذلك⁴.

¹ انظر: المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، مرجع سابق، ج3، ص166.

² ومن تأليفه-مثلاً- التي ابتدأت بهذه العبارة كتاب الإعانة، انظر: زروق: كتاب الإعانة، مرجع سابق، ص35.

³ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص11-12.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص11-12.

• مُنْصِفاً، يَعْتَرِفُ بِفَضْلِ أَسَاتِذَتِهِ وَشُيُوخِهِ عَلَيْهِ، حَيْثُ نَجَدُهُ كَثِيرَ الْإِشَادَةِ بِهِمْ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ؛ وَذَلِكَ وَاضِحٌ فِي مَقَدِّمَاتِ كُتُبِهِ وَرِسَائِلِهِ؛ وَكَدَلِيلٍ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي مَقَدِّمَاتِ شُرُوحِهِ عَلَى الْحِكْمِ: "شَرَحْتُ الْحِكْمَ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا ابْنَ عِبَادٍ فِي الظُّهُورِ وَالِاسْتِعْمَالِ"، وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ عَالَمٍ مُنْصِفٍ وَمُتَوَاضِعٍ¹.

• حَادِّ الطَّبْعِ، كَثِيرُ الْإِنْفِعَالِ وَالْغَضَبِ فِي شَبَابِهِ إِذَا انْتَهَكَتِ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَدْ جَاءَ فِي كُنْأَشِهِ: "وَكَانَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الدَّقُونُ يَقُولُ لِي كُلَّمَا رَأَى مِنِّي حَدَّةً: أَمْهَلْ حَتَّى تَجَاوِزَ الْأَرْبَعِينَ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ"². فَلَمَّا تَمَكَّنَ فِي السُّلُوكِ، وَخَاضَ بَحَارَ الْحَقِيقَةِ، طَالَ مَقَامُهُ بِحَالِ الرِّضَا، فَأَصْبَحَ مَرِحاً. لَطِيفَ الْمُعْشَرِ، سَهْلَ الْمُخَالَطَةِ، يُلَاطِفُ تَلَامِذَتَهُ وَأَصْحَابَهُ؛ كَقَوْلِهِ لِتَلْمِيزِهِ أَبِي زَعَامَةَ؛ وَقَدْ كَانَ نَحِيفاً طَوِيلَ الْعُنُقِ: "يَا بَزَعَامَةَ يَا عُنُقَ الْحَمَامَةِ..." كَمَا كَانَ يَتَبَسَّطُ مَعَ تَلْمِيزِهِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْبَرْمُونِيِّ³. وَكَأَنَّهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- يَتِمَثَّلُ شَمَائِلَ وَأَخْلَاقَ النَّبِيِّ ﷺ، الَّذِي كَانَ سَمَحاً، هَيَّئاً، لَيِّناً، يُمَازِحُ أَصْحَابَهُ وَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقّاً، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ⁴.

أَمَّا فِي آخِرِ حَيَاتِهِ -قُبِيلَ وَفَاتِهِ- فَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ حَالُ الْقَبْضِ، وَالْانْزَوَاءُ عَنِ الْخَلْقِ. شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ الْأَفْرَادِ الْكُمَّلِ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْأَقْطَابِ الْأَغْوَاثِ. وَقَدْ كَانَ يَعْانِي مِنْ مَرَضِ السُّودَاءِ الَّذِي لَازَمَهُ مَدَّةَ حَيَاتِهِ، وَكَانَ لَا يَبْرَأُ حَتَّى يَدَاوِمَ عَلَى أَكْلِ الزَّيْتُونِ الْأَسْوَدِ مَدَّةً، لَا يَتَقَوَّى بِغَيْرِهِ، وَقَدْ قَالَ لَهُ شَيْخُهُ الْقُورِيُّ: "ذَلِكَ هُوَ الَّذِي جَبَرَكَ، لِأَنَّ السُّودَاءَ هِيَ صَمْعُ الْبَدَنِ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ الشَّيْخَ زُرُوقَ كَثِيراً مَا يَجَارُ إِلَى اللَّهِ وَيَتَوَسَّلُ بِأَسْمَائِهِ، فِي مَنْظُومَتِهِ بِأَن يَعْافِيهِ مِنْ مَرَضِهِ وَعَلَّتْهُ"⁵.

¹ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص12. وزروق: الشرح التاسع للحكم العطائية، مرجع سابق، ص16.

² انظر: زروق: الكنش، مرجع سابق، ص28.

³ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص12.

⁴ وقد جاء عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً». رواه الطبراني، سليمان بن أحمد: المعجم الصغير، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1403هـ/1983م، ج2، ص7، وقال الهيثمي: إسناده حسن. (انظر: الهيثمي، نور الدين: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقق: حسين سليم أسد الداراني، دار المنهاج، المملكة العربية السعودية، ط1، 1436هـ/2015م، ج16، ص279).

⁵ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص12-13.

المطلب الثاني : شهادات في حق الشيخ

لقد كان سيدي أحمد زروق -رحمه الله-، محلَّ إجماع كثير من الفقهاء والعلماء والصلحاء، وموضع تقدير واحترام نظرًا لمكانته العلمية الكبيرة، وتصانيفه النافعة المشهورة، ولذلك فقد حظي بتَحْلِيَّاتٍ كثيرة، وتركيات كبيرة، من مختلف أرجاء المعمورة شرقًا وغربًا، نذكر منها:

- ما قاله في حقِّه شيخُه العارف بالله الشيخ الزَّيتوني: "إنَّه رأس السبعة الأبدال، نفعنا الله به"¹.
- وقال عنه الإمام محمد بن علي الخُرُوي-أحد أشهر تلاميذه- في كتابه "الأنس في شرح عيوب النفس": "شيخنا الإمام القدوة العلامة شيخ وقته وإمام عصره المرِّي الواصل الموصلُ إلى الله تعالى الرِّبَّاني القدوة... والشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى، قد علِّم واشتُهر بين النَّاسِ علِّمًا وديانةً وصلاحًا؛ فقد جمع بين علم الظاهر، وعلم الباطن، وله تأليف في العِلْمين عديمة المثال. سَلَكَ فيها مسلك التَّحقيق، وبلغ فيها غاية التَّدقيق والتَّرقيق، وتألَّفه بين النَّاس مشهورة معلومة؛ فما تكلَّم في علمٍ إلَّا وبلغ فيه الغاية، ووصل فيه إلى النَّهاية..."².
- وقال عنه أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: "...الشَّيخ المحقِّق، العالم العلامة المدقِّق، العارف بالله، الدالُّ على الله، صاحبُ العِلْمين، ومحقِّق النَّظَرين، ومحل المذهبين، ومرتضى الفريقين، مقتدى أهل العلم الباطن، ومتبوع أهل الظاهر، وينبوع الأسرار في سائر المظاهر، قُطِب مغربنا وإمام أئمتنا..."³.
- وقال عنه صاحب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج": "الإمام العالم الفقيه المحدث الصُّوفي الوليُّ الصَّالح الزَّاهد القُطب الغوث العارف بالله الحاجِّ الرَّحْلة. المشهور شرقًا وغربًا ذو التَّصانيف العديدة والمناقب الحميدة والفوائد العتيدة..."⁴.

¹ انظر: الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مرجع سابق، ج1، ص183-184.

² الخروي: الأنس في شرح عيوب النفس، مرجع سابق، ص16، 14.

³ الدرعي: الرحلة الناصرية، مرجع سابق، ص217.

⁴ التنبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مرجع سابق، ص130.

- وقال عنه المناوي في كتابه "الكواكب الدرية": "عابدٌ من بحر الغيب يغترف، وعالم بالولاية مُتَّصِف. تحلَّى بعقود القناعة والعفاف، وبرَّع في معرفة الفقه والتصوُّف والأصول والخلاف. خطبته الدنيا فخطب سواها، وعُرضت عليه المناصب فردَّها وأباها..."¹.
- وقال في حقِّه صاحب شرح المقدمة الوغليسية: "عارفٌ وقته وسيِّد عصره وإمامٌ من أتى من بعده"².
- وقال ابن عسكر في "دوحة الناشر": "الشيخ العالم المحقِّق المتصوِّف الوليُّ العارف بالله وبأحكامه، صاحبُ المواهب الربَّانية والعلوم الدِّينية، والتَّصانيف الكثيرة، والرِّسائل المفيدة المنيرة، وارثُ المقام النَّبوي ومُحمِّي شريعته وناصرُ سنَّته، إمامٌ الطريقة، وناشرُ ألوية الولاية على سبيل الحقيقة..."³.
- وقال عنه الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتَّاني: "هو الإمام العارف المحدث الرَّحَّال الصُّوفي الفقيه... وأعلى أسانيده روايته للصَّحيح عن الشَّهاب أحمد بن عبد القادر بن طريف الشاوي عن ابن أبي المجد عن الحجار بسنده؛ وهو الذي استجاز⁴ من الأولين لابن غازي... كلامه في تصانيفه كلّها كلام من حرَّر وضبط العلم وعرف مقاصده ومدار التشريع، بحيث يُعتبر قلمه وعلمه ومَلَكته قليلي النَّظير في المغاربة"⁵.
- وقال عنه عبد المجيد بن علي الحسني المنالي الزبادي: "الشيخ العلامة المحقِّق الفقيه المحدث الصُّوفي الوليُّ الكبير العَلَم الشَّهير العارف بالله تعالى الدَّال عليه، وأعظم به خبيراً. رئيس الدائرة النَّبوية

¹ المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، مرجع سابق، ج3، ص166.

² طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص19. نقلا عن مخطوط الخزانة العامة رقم: 1256 ق. ص59.

³ ابن عسكر: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، مرجع سابق، ص48.

⁴ قال ابن غازي: "كان أخونا الأوْدّ والخلاصة الصفي الفقيه المحدث الفقير الصوفي أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الشهير بزروق استجاز من الإمام الدِّيمي لي ولأحمد ولدي ولأبي مهدي المواسي ولأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي ولأبي عمران موسى العقدي ولقاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودي، وذلك عام 885هـ، فأجاز لنا جميعاً". (انظر: الكتاني: فهرس الفهارس، مرجع سابق، ج1، ص409).

⁵ الكتاني: فهرست الفهارس، مرجع سابق، ج1، ص455.

الأمين على أسرارها المطفوية، ونعم الأمير. متبوع أهل الشريعة والطريقة، مرجع أهل الحقيقة، فكلُّ إليه يشير، وعليه المعول عند الجميع، وإليه فيما تشعب إليه المصير. قطب مغربنا، وإمام أئمتنا¹.

● وقال عنه المهدي الفاسي: "الشيخ الإمام العلامة المحقق الفهامة العارف الرباني، شيخ وقته، وعروس عصره أبي العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المؤذن - عُرف بزروق... فشواهدة هي شواهد من الله، وأما علمه وفضله واستقامته، فأجلُّ من أن تُذكر، وأشهر من أن تُنكر، وأما شدة صُحبته للنبي ﷺ، فيكفي شهادة عليها خدمته لشريعته، وكثرة ما أُلِّف فيها، وما ذب عنها، وتردَّاده لزيارته، وخدمته لأهل محبته، وأما ما تخرَّج من الرجال على يديه، فكثرتهم ممَّا لا تحصى، فقد انتشروا مشرقاً ومغرباً، وأما الخوارق، فقد ظهر منها على يديه ما يكفي ويشفي، وأما شهادة الأخذ عنه، فقد كثرت فيها إشاراتهم، وقصُرت عنها عباراتهم، فبعضهم يقول فيه: "عزَّ عن المفاخر"، وبعضهم يقول: "هو أحدُ المحققين". يعني الأقوياء في الحقيقة، أو المحققين للطريقة، وبعضهم يقول: "هو معجزة من معجزات النبي ﷺ...".²

● وقال عنه ابن مريم التلمساني: "الشيخ الإمام العالم الفقيه المحدث العلامة الصوفي الوليُّ الصالح الزاهد القطب الغوث العارف بالله الرحالة الحاجِّ المجاور المشهور شرقاً وغرباً، ذو التصانيف العديدة، والمناقب الحميدة، والفوائد العتيدة"³.

● وقد أقرَّ الشيخ أبو حفص الوازاني القسنطيني الجزائري، بأنَّه ثمرٌ من ثمرات الشيخ زروق رحمه الله، وأنَّه حسنةٌ من حسناته، فقال: "أنا دعوة زروق"⁴.

● حاله نور الدين الحسن اليوسي بأنَّه: "الوليُّ الصالح المتبرِّك به حيّاً وميتاً، القطب"⁵.

● قال عنه أبو راوي الفحل: "من ليس في قلبه محبة زروق، فليس بمؤمن"⁶.

¹ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 21. نقلاً عن: الرحلة المنالية.
² المرجع نفسه، ص 21. (نقلاً عن: المهدي الفاسي: تحفة أهل التصديق بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية، مخطوط، الرباط، رقم: 2242د).

³ ابن مريم التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مرجع سابق، ص 45.

⁴ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 23.

⁵ زروق: التصانيف الزروقية، مرجع سابق، ص 24.

⁶ انظر: الفيتوري، عبد السلام: كتاب الإشارات لبعض ما بطرابلس الغرب من المزارات، مرجع سابق، ص 104.

- وقال عنه محمد بن خليل بن غلبون، صاحب "التذكار": "كان زاهداً، فاضلاً، منقطعاً إلى الله سبحانه وتعالى، عارفاً به دالاً عليه، له همّة عالية، تخرّج عليه جماعة، وانتفع به الناس شرقاً وغرباً، وله بركاتٌ ظاهرة، وكراماتٌ باهرة، في الحياة وبعد الممات"¹.
- قال فيه الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثياني الجزائري، بأنّه: "حُجّة الله في أرضه، ارتفع صيته عند الخاصّة والكافّة، فهو كعبة الزوّار، وحرم الأنوار، ومعدن الأسرار، الحيّ في قبره، يستشعر ذلك كلّ من له ذوقٌ سليم، وطبّعٌ مستقيم"².
- وقال فيه الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الشريف، في مقدمة تحقيق الشرح السابع عشر على الحكم العطائية: "هو قِمةٌ من قِمة التصوّف"³.
- وقد أجمَلَ القول فيه الشيخ عبد الله كنون، فقال رحمه الله: "... إلّا يد زروق التي بسطها علماؤنا على صفوة الصّفوة من أهل الإسلام بإطلاقهم عليه "مُحتسب العلماء والأولياء"؛ وذلك لما رأوه متبّعاً لأقوالهم وأعمالهم وازناً لها بميزان الشرع، فيصحّح منها ما صحّ ويُبطّل ما بطل، ولما تحقّقوا من رسوخ قدمه في الفقه وعُلُوّ مقامه في التصوّف من غير أن يحيف فقهه على تصوّفه؛ فيُنكر المقامات والأحوال أو يطغى تصوّفه على فقهه فيُهمَل الشّعائر والرُسوم... وقد كان ذا حساسيّة مرهفة، وتذوّق لكلام القوم. يشهد به تنزيله للنصوص، وتعقّبه لما فيها من مآخذ، وطرحه للحشّو، واهتمامه بالجواهر دون الأعراض. فضلاً عن وزنه للخواطر بميزان الشرع، وأخذه بالحيلة في مجال القول والعمل، وإنّما أعانه على ذلك تمكّنه من العلوم العقلية والنقلية، وسلوكه للطريق سلوك الحذر اليقظ الذي أخذ الأهبة لكلّ طارئ، واستعدّ لكلّ ما يفاجئ؛ فلم يكن وصّوله للحقيقة عن ظنّ وتخمين، بل عن طريق المعرفة واليقين، ولعمري إنّ هذا هو الفتح المبين"⁴.

¹ ابن غلبون: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، مرجع سابق، ص 255.

² طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 23.

³ زروق، أحمد: حكم ابن عطاء الله، تحق: عبد الحليم محمود، دار الشعب، القاهرة، 1985م، مقدمة تحقيق الشرح السابع عشر على الحكم، ص 11.

⁴ كنون: مشاهير رجالات المغرب، مرجع سابق، مج 3، ج 23، ص 13، 18-19.

- وقال الشيخ محمد بن يوسف السنوسي في كتابه " نُصرة الفقير في الردّ على أبي الحسن الصغير"، مُثنيًا على الشيخ أحمد زروق -رحمه الله-: "... أخذ عَنَّا علما جمًّا ؛ وأخذنا عنه أدبًا وسرًّا... " ، وأعظم بها من شهادة في حقّه من شيخه وأستاذه محمد السنوسي¹.
- قال فيه الشيخ محمد بن محمد بن مخلوف: " الشيخ الكامل الوليُّ العارف بالله الواصل الصالح الزاهد الفاضل العالم العامل شيخ الطريقة وإمام الحقيقة"².
- وقال فيه الطاهر بن أحمد الزاوي: " الأستاذ، العلامة، الفقيه، الصوفي"³. وقال أيضًا: " وقد عاش 54 سنة، قضاهما كلّها في خدمة العلم وعبادة الله، وتعليم أبناء المسلمين"⁴.
- وورد في المخطوط رقم: 2100د. ص 279: " هو الشَّيخ الإمام غوثُ الأنام وحسنَةُ اللَّيالي والأيام العارفُ الأكبر والوليُّ الأشهر، وخاتمةُ المحقِّقين والبلوغ في غاية السَّابقين. أعرِفُ بفُصول العلوم وأصولها؛ ومن له القَدَمُ الرَّاسخ في حمولها والأيدي البيضاء في فهمها وتحريرها واللِّسان الطَّلَق في نشرها وتقريرها، والتَّأليف المفيدة والتَّصانيف المجيدة والأسرار الربانية والمنازلات الرَّحمانية... كان رضي الله عنه غيثًا نافعًا وغوثًا مانعًا وطودًا شامخًا وجبالًا من العرفان راسخًا. أستاذُ الطَّريقة والجامع بين الشريعة والحقيقة. يُرِيل من كلّ مُشكل قناعه، ويُوَصِّل الأفهام لبليد الطَّبع فيرفَع له في أقرب ساعة ويُنصِف إشكاله ونزاعه؛ فما تكَلَّم في مسألة إلا قرَّرها وبلَّغها على أكمل مطلوب وقرَّرها حتى لم يبق بها مقال لقائل ويحصل مُريدُها على طائل بأفصح عبارةٍ وألطف إشارة..."⁵.
- وقال عنه الأستاذ عبد المجيد خيالي، في مقدمة تحقيقه لكتاب " قواعد التصوُّف ": " عالمنا الجليل أحمد زروق الجامع بين العلوم النَّقلية والعقلية، برز في مجال الفقه والتصوُّف بشكل خاص، وذاع صيته في الآفاق، اشتهر رحمه الله بالصَّلاح والولاية فأثنى عليه الخاص والعام، لُقِّب بمُحتسب

¹ السنوسي، محمد بن يوسف: نصرة الفقير في الردّ على أبي الحسن الصغير، مخطوط، مكتبة جامعة الملك سعود - قسم المخطوطات، الرياض، خط القالي المريني سنة 1274هـ، ص 4.

² ابن مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج 1، ص 386.

³ الزاوي: أعلام ليبيا، مرجع سابق، ص 107.

⁴ المرجع نفسه، ص 109.

⁵ زروق: الشرح التاسع للحكم العطائية، مرجع سابق، ص 22-23.

الصُّوفية. له أثرٌ كبيرٌ في مُحاربة البدع وأصحاب الأهواء، مُستندًا بالكتاب والسنة وأقوال السلف، أمثال: الجنيد، وبشر الحافي، وأبي يزيد البسطامي، والشبلي، وسهل التستري، والسَّهروردي¹.

● وذكره عمر فروخ، وهو يسرد جملة من الفاعلين في الحياة الثقافية في حقبة بني الأحمر، فقال: "ومن علماء الحديث في هذه الحقبة أحمد بن زروق، له كتبٌ في الحديث والفقه والتصوف"². ووصفه أنَّه من بين الذين حازوا السَّبق في التأليف، فقال: "ومن المكثرين في التأليف أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق، من أهل فاس، ولكنَّه توفي في تكرين بجوار طرابلس ليبيا"³.

وتؤكد الشهادات السَّابقة وغيرها كثير، على طول باع الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- في مجالي علوم الشريعة والحقيقة دراية، وسلوكا، وذوقا؛ فلقد فتح الله مقامات ممزوجة بالعلم، والعمل، والحال. ولقد كان الشيخ رضي الله تعالى عنه إماما في الفقه المالكي؛ كما كان في التصوف السني؛ وكان يرى بأنَّ التصوف لا يُدرَك إلَّا بالفقه؛ ولذلك بنى مدرسته الصُّوفية على التوفيق والتكامل بين الفقه والتصوف⁴، يقول الشيخ رضي الله عنه في القاعدة الرابعة من قواعده الصُّوفية، في كتابه "قواعد التصوف"، ما نصُّه: "إذ لا تصوف إلَّا بفقه، حيث لا تُعرف أحكام الله الظاهرة إلَّا منه، ولا فقه إلَّا بتصوف؛ إذ لا عمل إلَّا بصدق وتوجه، ولا هما إلَّا بإيمان..."⁵.

وهذا لعمرى من حُسن فهمه، وعمق دراسته لعلوم الإسلام، دراسة تحقيق وتمحيص ووقوف عند المعاني والفوائد.

المطلب الثالث : كراماته

حين يُتوفَّى وليٌّ من أولياء الله سرعان ما تُنسج حوله القصص، وتُعزى إليه الخوارق، تبياناً لحظوته عند الله وتدليلاً على مكانته لديه. وهذه تُسمَّى بالكرامات التي يُمُنُّ بها الله على أوليائه،

¹ زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، مقدمة المحقق ص5.

² انظر: فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط1، 1983م، ج6، ص59.

³ المرجع نفسه، ج6، ص73، 75-76.

⁴ طيب، محمد إدريس: الأذكار السننية بالمدرسة الزروقية، مرجع سابق، ص20-21.

⁵ زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص22.

يُمَكِّنُهُم بها من إظهار قُدرته في عالم الطبيعة، أو خرق قوانينها. وعادة ما تختلط القصص الصَّحيحة بسلسلة من الحوادث الأسطورية والحوادث الغريبة وينسبونها للصَّالحين من المجتمع. وتدخل هذه الأساطير والعجائب غالبا في سيرهم وتراجمهم، في حياتهم أو بعد مماتهم على حدٍّ سواء. ويجعل مهمة الباحثين عسيرة في تمييز الغث منها والسمين. وإن كان بعضها، ومن خلال أحداثها ومقارنتها بأدبيات الولي ومعتقداته وأفكاره، يتبيَّن بسهولة عوارها وتلفيقها. ويعتقد كثيرٌ من الناس في الغرب الإسلامي عموما، وفي المغرب خصوصا اعتقادا راسخا في قوة الأولياء وتأثيرهم العميق والنَّافذ، وهو ما يجعلهم يدعون هؤلاء المرابطين أو "البركة" ويستغيثون بهم ويحجُّون إليهم، إذا كانوا في شدة أو ضيق، أو إذا أرادوا سفرا أو قضاء حاجات¹.

إنَّ الشيخ أحمد زروق -رحمه الله-، لم يكن استثناءً من هذه القاعدة، وحين تُوفِّي -أو حتَّى في حياته- انتشرت حوله الرِّوايات والقصص التي تُعدّد كراماته وخوارقه، ففي صغره، كان تأثير أمِّ البنين على حفيدها أحمد زروق عظيماً، حتَّى إنَّه لم يُفته أن يسجِّل هذا التأثير في ترجمته لنفسه... وممَّا سجَّل في هذا الباب، نذكر ما قاله سيدي أحمد زروق رحمه الله: "تحقَّقت ليلة أتيَّ نظرتُ في نجم، وسألتُ جدِّي عن أمر الله فيه، فبيَّنت لي واجب الاعتقاد. وكانت بعد ذلك تتعجَّب وتقول: "يستدلُّ على التوحيد وهو ابنُ سنتين"².

وقال المناوي في طبقاته: "ورئي زمنَ رضاعته نورٌ بموضعه، ورأت أمُّه حين الحُمْل به أنَّها أُعْطيت لوحاً من ذهب، ورأت جدَّته أنَّ البحر أخذه، فكان دليلاً على تأهله لِمَا قام به من عِلْمِي الظاهر والباطن"³.

كما صار الشيخ زروق -رحمه الله- حامياً لبعض البلدان والأماكن؛ ففي "أوجلة"، تلك الواحة الليبية القديمة، والتي كانت محطة هامة آنذاك لإحدى طرق القوافل، للحجاج أو التجار، بين المغرب والمشرق. ولعل زروق أقام فترة من الزمن في خلال رحلاته المتعددة هناك، وهو ما دفع بسكَّانها بأن يجعلوه "حامي أوجلة". وهم يدَّعون أنَّه حين أحسَّ بقرْب أجله غادر مصراته، وجاء

¹ انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 69.

² زروق: الكناش، مرجع سابق، ص 13.

³ المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، مرجع سابق، ص 168.

واحتهم حيث مات. وأنشئوا مسجداً سُمِّي باسمه هناك. وفي طرابلس دُعي باسم "باب طرابلس الشرقي"، وكان أهل طرابلس يعتقدون أنَّ زروق سوف يحمي مدينتهم من أي غار يأتيهم من ناحية الشرق¹.

هذا وقد اتخذ الحجاج السالكين طريق مكة من ساحل البحر من مدفنه مكاناً يُودعون فيه أموالهم وأرواحهم عند زروق حين وصولهم إليه، ولم يكن أحد يُصيّبه أدّى في ما يملك أو في شخصه حتى يعود من الحج سالماً!².

وقد قال ابن ناصر، في رحلته: "ولعلّ فائدة استيطانه هذه البلدة، والله أعلم-أي استيطان زروق بمصراته- استئناس الأركاب بزيارته، واستمدادهم من معونته، وتقويهم على ما هم بصدد من مطالعة حضرته، وقد شاع عند الحجاج أنَّ من مرّ بقبره وأودع الله عنده نفسه وماله، لا يُصيّبه مكروه حتى يرجع. ويفعلون ذلك إذا مرّوا به في البرّ أو حاذوه في البحر فيجدون بركته، ولا بدع في ذلك ولا غرابة؛ فإن الله حفيظ لا تضيع ودائعه، والأولياء أبواب الله، فمن أودع شيئاً عند باب من أبوابه كيف لا يحفظه فيه! والله خير حفظاً، وهو أرحم الراحمين"³.

وقد ذكر ابن غلبون في تذكاره طرُقاً من هذه الكرامات المدهشة، فقال: "حدثني العارف بالله المحقق العلامة شيخنا سيدي محمد العياشي قال: حدّثنا العارف بالله سيدي محمد اليميني، قال: لما توجّهنا من أرض المشرق إلى أرض المغرب، ونزلنا ببرقة، سألنا الله تعالى ببركته أن يجعلنا في جواره لِمَا تقرّر عندنا أنَّ زروق له اليد العليا في أرض المغرب بعد موته. قال: فلم نزل في أمن وسعة إلى أن حللنا مدينة فاس، وتوجّهنا إلى أرض السودان، فلمّا توغلنا فيه أصابنا حرٌّ شديداً، ولم يكن معنا من الماء شيء، فسألنا الله تعالى ببركته. فبينما نحن في كربٍ وإذا بدابة عليها قرب ماء ومعها سائق حتى دنا منّا، وقال: خذوا، لستم بجواري من برقة"⁴.

¹ انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 69.

² انظر: المرجع نفسه، ص 70. وانظر: العياشي: الرحلة العياشية، مرجع سابق، ج 2، ص 477.

³ بن ناصر الدرعي، أحمد بن محمد: الرحلة الناصرية، تحق: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2011م، ج 1، ص 220.

⁴ ابن غلبون الطرابلسي، محمد بن خليل: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحق: الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت-لبنان، ط 1، 2004م، ص 255.

وهذه الحادثة من أخبار كرامات الأولياء وعجائب أحوالهم، وغرائب مذاهبهم، وليس القصد ها هنا ما يؤدّي إلى اليأس وترك العمل، وإنما القصد تقرير صحّة كراماتهم، ووجود مكاشفاتهم إرغاما للجاحدين، وقد جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: 75]"¹.

وينقل ابن غلبون أيضا في كتابه "التذكار"، خبرا آخرًا من أخبار كرامات سيدي أحمد زروق رحمه الله، ممّا تدهش له العقول، فقال: "حدّثني عبد الله بن أبي بكر المصراقي البلاي، قال: خرجنا من أرض "فزان"² ومعنا رفقة وأدخلت نفسي في جوار الشيخ، فبينما نحن ذات ليلة إذ حدثني نفسي باعتزال الرفقة والمبيت عنها في جهة، ففعلت، فما فجأني آخر الليل إلا قطاع الطريق يوقعون برفقتي شرًا، قال: ففررت بلا زاد ولا ماء ولا خيرة لي بالطريق. وكانت تلك الأرض قفرة لا يهتدي لطرقها إلا خبير ماهر، وقال: وبقيت ليلي وأنا أسمع قائلا يقول عن يمينك، فإذا أوغلت في اليمين، قال عن شمالك حتى أصبحت، فرأيت رجلا قصيرا يمضي أمامي، فإذا هممت أن أدنو منه بعد عني، فإذا أخذت لغير القصد صاح بي إلى جهة القصد، إلى أن أدخلني "ودان" يوم ثالث الوقعة، ولم أحس بألم تعب ولا عطش. وكان زمان قيظ³.

ومن القصص التي تُدلل على فراسة الشيخ أحمد زروق -رحمه الله-، وأنّه كان يرى بنور الله، وأنّ الله ﻻ يَحْكُمُ عليه فتوح العارفين، ما ذكره ابن غلبون في سبب تسمية أسرة الجبالي، فقال: "أنّ عبد الله العيادي -أحد أفراد هذه الأسرة- كانت له محبة وصداقة مع الشيخ أحمد زروق، وكانت لعبد الله العيادي زوجة لا تلد. وقد جاء الشيخ زروق لزيارة عبد الله العيادي، فشكا له حال زوجه وأنها لا تلد، فقال له الشيخ زروق: إنّها ستلد جبلا. فولدت ولداً وسمّاه والده محمداً، ولقّبه الناس

¹ أخرجه الترمذي: الجامع الكبير، مرجع سابق، باب: ومن سورة الحجر، ج 5، حديث رقم: (3127)، ص 200. وقال: حديث غريب، إنّما نعرفه من هذا الوجه. وأبو نعيم في الحلية (4/94، 6/118)، والطبراني في المعجم الكبير (8/121)، والسيوطي في الدر المنثور (4/103).

² فزان: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وآخره نون: ولاية واسعة بين الفيوم بمصر وطرابلس الغرب بليبيا، قيل سميت بفزان بن حام بن نوح، عليه السلام. بها نخل كثير وتمر كثير، ومدينتها زويلة السودان، والغالب على ألوان أهلها السواد. (انظر: الحموي: معجم البلدان، مرجع سابق، ج 4، ص 260).

³ ابن غلبون: التذكار، مرجع سابق، ص 255-256.

بالجبل، تبرُّكا بإشارة الشيخ زروق. ويُقال لذريته: أولادُ الجبل، وأولاد الجبالي... وقد نشأ في هذه الأسرة علماء أفاضل، منهم العلامة الشيخ علي بن عبد الصادق، وهو من نسل عبد الله الجبالي¹. ومن كراماته رضي الله عنه، ما نقله المناوي في طبقاته: "أنّه تقيّد إنساناً بالدُّعاء عليه لما خرج للسَّيَّاحة، فلمّا عاد مات الرجل حالا. وخرج عليه رجلٌ ليسلِّبه متاعه، فأصيب برجله"².

ومن المعلوم - وقد أسلفنا الحديث عنه - أنّ والد الشيخ أحمد زروق، ما ترك له شيئا، وإنّما أوصى بثلاث ماله لمؤدّي جامع الأندلس؛ يدّخر ذلك ليوم القيامة، ويبيغي به بيتا في الجنّة، والباقي أوصى به لأُمّه، أمّا ولده فقد توكلّ به على الله واستودعه عنده، ويقولُ سيدي أحمد رحمه الله عن ذلك، وكيف يسّر الله له أمره دون حاجة إلى مال أبيه: "فوالله ما انتفعتُ بماله في شيء مُعتَبَر، ولا ذلّتُ، ولا سألتُ، ولا انتفعت بسببه، ولا أصابتنِي فاقة إلى الآن - وقد ناهزتُ الخمسين - ولا أعلم أنّي احتجتُ دينارا إلا تيسّر، ولا مائة إلا تيسّرت، من وجه عزيز سهل حلال. فالحمد لله على ذلك... ولقد حجّجتُ أوّل حجّة بمائة وسبعين دينارا، ما أعلم منها - يوم عزمْتُ عليها - درهماً واحداً أملكه. ولا يوم خرجتُ من البلد، إلّا حماراً وكنيّات لم يعد ذلك على نفقتي بشيء. ولقد تزوّجتُ خمساً من النِّساء، كلُّهن على الفتح، من أوّل الأمر إلى آخره. ويجري على يديّ من الأرزاق لكثير من النَّاس ما لا يُحصى. فلله الحمد والمِنَّة"³.

ومن الأمور العجيبة الغريبة التي حدثت للشيخ أحمد زروق، والتي لا تدلّ - إن صحّت - إلّا على رسوخ قدمه في العرفان وفتح الله عليه بكرامته، ومنها: أنّ الشيخ ابن غازي طلب منه أن يُجيبه إلى منزله في جملة أصحابه، واستأذنه أن يصنع لهم طعاما كثيرا، فأذن له في ذلك، وقال له انتظرنا بعد صلاة العشاء الأخيرة، فلمّا جاء الوقت وقف الشيخ ابن غازي بباب داره ينتظر القوم، إذ جاءه الشيخ أبو العباس وحده، فقال ابن غازي: يا سيدي وأين أصحابك؟ فقد جعلنا طعاما كثيرا وخفنا من فساده، فقال سيدي زروق: يصلح إن شاء الله ولا يفسد، ثمّ قال له هات ما عندك من الطّعام، فأمر ابن غازي بإتيانه فقرب إليه، فقال أبو العباس وسّع عنّا هؤلاء الخدّام حتى لا يبقى إلا أنا وأنت،

¹ انظر: ابن غلبون: التذكار، مرجع سابق، هامش ص 272

² المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، مرجع سابق، ج 3، ص 168.

³ زروق: الكناش، مرجع سابق، ص 11-12.

فخرج الخُذَّام وشتمَّ عن ذراعيه وصار يرفد الطعام بيديه جميعا ويجعل خلفه، ومع كلِّ حفنة من الطعام قطعة لحم، فسمع الشيخ ابن غازي ضجَّة وراء أبي العباس، فنظر فإذا بخلق كثير ما بين ضعفاء وصبيان ونساء وكلُّ واحد منهم يمدُّ يديه ويقول: يا سيدي أعطني، وهم في براح واسع حتى قسَّم عليهم ذلك الطعام كلّ، فقال لابن غازي: هل بقي من طعامك شيء؟ فقال لا يا سيدي، فغسل يديه وحمد الله تعالى، فتعجَّب ابن غازي وقال له: يا سيدي هذه كرامة من كرامات الأولياء، فقال له: إحمد الله الذي أراك إيَّاهَا، فقال ابن غازي: سألتك بالله يا سيدي من أولئك الخلق؟ وما ذلك البراح؟ فقال: هم ضعفاء مدينة تونس قد مسَّتْهُم الحاجة، وذلك البراح هو صحن مسجد جامع الزيتونة، حدَّث بذلك عنه الشيخ ابن غازي¹.

وقد حلَّاهُ صاحبُ طبقات الشاذلية، بأنَّه صاحبُ حالٍ، وبهاء وجمال ودلال، أطلعه الله على المعجَّبات، فنطق بسائر اللغات، فهو صاحب التصريف الأكبر، وغوث الأنام الأزهر. وقد ذكر كرامة من كراماته الخارقة، وحالا من أحواله الصادقة، فقال: "أنَّ قبيلة من قبائل عرب طرابلس كانوا قُطَّاع طريق، لا تَمُرُّ بهم قافلة إلا نهبوها، فمرَّ عليهم مولانا عليه السلام، فنهبوه هو وتلامذته، حتى تركوهم مستوري العورة، فنظر بعضُ المريدين إلى مولانا، فوجده لم يتغيَّر، فقال لبعض العُربان الذين نهبوا مولانا: انظروا إلى ذلك الأستاذ عنده ذهب في سرواله، فجاء البدوي إلى مولانا وقال له: إنزع السَّروال. فقال: سبحان الله، العورة يَحْرُم علينا كشفها. فقال له مرَّة ثانية: إنزعه، وإلا قتلتك، ومولانا يعظُّه بقوله: العورة حرامٌ علينا كشفها. فتقدَّم البدوي إلى مولانا، فقال مولانا للأرض: ابلعيهم يا أرض. فأخذتهم الأرضُ جميعا، فصاروا يتضرَّعون إلى مولانا، ويقولون: تبنا إلى الله. فقال مولانا للأرض: أطلقهم يا أرض. فأطلقتهم، فخرجوا منها، وتابوا جميعا، وصاروا مع مولانا، لم يتخلَّف منهم أحد، وصاروا من خُذَّام الزاوية الزُّروقية².

ومن كرامة الأولياء وحُظوتهم عند مليكهم أن صيَّر حوائج الناس إليهم، كما قال سيدي زروق في القاعدة 169؛ فيقضي الحقُّ سبحانه لأوليائه حوائج خلقه غيرَةً على قلوب الأولياء من الانشغال بغيره، فإنَّ الحقيقة مانعةٌ من اشتغال قلوبهم، بغير مولاهاهم إلَّا من حيث أمرهم، فينتفع بهم

¹ ابن عسكر: دوحة الناشر، مرجع سابق، ص 50-51.

² الكوهن الفاسي: طبقات الشاذلية الكبرى، مرجع سابق، ص 119.

المريدون في طلب الحق لا غيرهم، كما يُحكى عن الشيخ أبي مدين رحمه الله أنّه كان يفتح للناس على يده ويصعب عليه أقلّ حاجاته، وقد قيل: إنّما هما اثنان، وليّ وصفيّ. فالوليّ: من يتحقّق له كل ما يريد. والصفيّ: من يتسلّط على قلبه الرضا بما يجري، فافهم¹.

هذا وقد ذكر الشيخ أحمد زروق أنواعاً من الأولياء وكراماتهم، وفضّل أن يكون حاله كحال النبي ﷺ، الذي يجوع مرّة فيشدّ على بطنه، ويكرّمه الله أخرى فيطعم الألف من الناس من صاع، فقال رحمه الله: "من الناس من يغلب عليه الغنى بالله، فتظهر عليه الكرامات، وينطق لسانه بالدعوى من غير احتشام ولا توقّف، فيدعى بحق عن حق، لحق في حق، كالشيخ محمد عبد القادر الجيلاني، وأبي يعزى، وعامة متأخري الشاذلية. ومنهم من يغلب عليه الفقر إلى الله، فيكلّ لسانه، ويتوقّف مع جانب الورع، كابن أبي جمرة وغيره. ومن الناس من تختلف أحواله فتارة وتارة، وهو أكمل الكمال، لأنّه حاله ﷺ، إذ أطعم ألفاً من صاع، وشدّ الحجر على بطنه، فافهم².

¹ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص 109.

² انظر: المرجع نفسه، ص 110-111.

الفصل الثالث: التكامل المعرفي في فكر الشيخ زروق الفاسي

المبحث الأول: ملامح التكامل المعرفي في الدرس العقدي الكلامي

المطلب الأول: الآراء الاعتقادية للشيخ زروق من خلال بعض كتبه.

المطلب الثاني: المنهج العقدي للشيخ زروق من خلال شرحه لعقيدة الغزالي

المطلب الثالث: المنهج العقدي للشيخ زروق من خلال شرحه المُرشدة

المطلب الرابع: المنهج العقدي للشيخ زروق من خلال شرحه للمقدمة الوغليسية

المبحث الثاني: ملامح التكامل المعرفي في الدرس الفقهي

المطلب الأول: الدرس الفقهي للشيخ زروق من خلال شرح المقدمة القرطبية

المطلب الثاني: الدرس الفقهي للشيخ زروق من خلال شرح الرسالة

المطلب الثالث: الدرس الفقهي للشيخ زروق من خلال شرح الوغليسية

المبحث الثالث: ملامح التكامل المعرفي في الدرس الصوفي

المطلب الأول: الفكر الصوفي عند زروق من خلال كتابه عدة المرید الصادق

المطلب الثاني: الفكر الصوفي عند زروق من خلال كتابه قواعد التصوف

المطلب الثالث: الفكر الصوفي عند زروق من خلال كتابه تحفة المرید وروضة الفريد

الفصل الثالث: التكامل المعرفي في فكر الشيخ زروق الفاسي

إنَّ الحديث عن مسألة تكامل العلوم الإسلامية فيما بينها، يمكن إثباتها من استقراءنا لتراث الأسلاف الذين اتَّصفوا بالموسوعية في أخذ المعارف، والمتَّبِع لأحوال علوم الشريعة - بمختلف فروعها - يلفيها مشدودة الوثاق، موحَّدة الآفاق، تُظهر وتُفسِّر على ما فيها من انسجام ووافق. وإذا كان ذلك كذلك؛ فإنَّ الصِّلة بين العلوم الثلاثة الأساسية: "الأصول" و"الفقه" و"السلوك" محكومةٌ بمقتضى هذا القانون - قانون التكامل - لا تخرج عنه قيد أنملة. ومن ثمَّ؛ فليس الغرض من الحديث في هذه المسألة إثبات وجود هذه الصِّلة - لأنَّها مُسلَّمة الثبوت -، وإنَّما الكشف عن طبيعتها، وبيان بعض وجوهها، والتنبيه على أهمِّ مداخلها، والتطلُّع إلى مسالك إحكامها. والوقوف على آثارها الاجتماعية والسياسية والدينية، وأخذ الدواء الناجع لأدوائنا المعاصرة التي لم ينقطع حبل الخلاف فيها منذ زمن، والاستفادة من خبراتهم وعقولهم في تأمين الوحدة العقدية ومن ثمَّ تحقيق وحدة المسلمين خلف إمام واحد.

وقد تتَّفَق العلوم في أصولها ومقاصدها ولكنها قد تختلف في مناهج إعمالها؛ وهذا حال علوم الشريعة فيما بينها، وعلى وَفْق هذا القانون تجري علاقة [الفقه] ب [الأصول] ب [التصوُّف]، وفي هذا المعنى، يقول الشيخ أحمد زروق - رحمه الله -: "مادَّة الشيء مستفادة من أصوله، ثم قد يشارك الغير في مادَّته، ويخالفه في وجه استمداده، كالفقه والتصوف والأصول، أصولها: الكتاب والسنة وقضايا العقل المسلمة بالكتاب والسنة، لكن الفقيه ينظر من حيث ثبوت الحكم الظاهر للعمل الظاهر بقاعدته المقتضية له. والصوفي ينظر من حيث الحقيقة في عين التحقيق، ولا نظر فيه للفقيه حتى يصل ظاهره بباطنه. والأصولي يعتبر حكم النَّقي والإثبات من غير زائد"¹.

ومن أهمِّ الخصائص التي طبَّعت الدَّرس العقدي أو "علم الكلام" عند المغاربة بطابع التميُّز، تداخله مع التصوُّف، وإرجاعه إلى أصلاته بجعله متقاطعا، بل ومتداخلا مع الفقه عموما، والفقه المالكي خصوصا. وعليه فلا يُمكن فهمُ المحيط الثقافي المغربيِّ دون رَصْد العلاقة الوطيدة والتميِّزة بين العلوم الإسلامية الثلاثة: "علم الكلام الأشعري"، و"الفقه المالكي"، و"التصوُّف السيِّي"². وفي هذا

¹ زروق: قواعد التصوُّف، مرجع سابق، ص 35.

² زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 5.

يقول الشيخ أحمد زروق رحمه الله: "فالصوفي، لا يفارق السلف في معتقده، ولا يفارق الفقهاء في معتمده، لأنّ العقائد رأسُ ماله، والأحكام أساسُ أعماله. فالمخاطرة بمها ضرر، والعمل بغير المذهبين المذكورين فيهما غرر"¹. أما تداخل الفقه والتصوّف فظاهر؛ حيث إنّ الثاني يمثل الممارسة الباطنية للأول. وأما حضور علم الكلام الأشعري فيهما، فأهمُّ خصائصه هي إنزاله من برجه العاجي، وخروجه عن أطوار التنظير والجدل، ليأخذ دوره الطبيعي الذي كان عليه في القرون الأولى، عندما كان التوحيد مرادفاً للفقه الأكبر².

هذا التداخل الذي أعطى للمغرب الإسلامي خصوصيّة فكرية والحضارية، وأخرج علماء أفذاذا متميزين، أبدعوا في شتى العلوم وخاصة هذه التخصصات التي ذكرنا، ولم يكونوا مجرد ناقلين لتراث المشرق دون وضع بصماتهم، برّوح شاهدة على التقاء وارتباط هذه الثوابت في الفكر الديني المغربي³.

ومن أهمّ خصائص التراث الكلامي بالغرب الإسلامي، أنّه تطوّر وازدهر بموجب تلك العلاقة الوطيدة بين العلوم الثلاثة، في المرحلة التي تخلف فيها هذا العلم في المشرق بسبب إقصاء الدرس الكلامي عن الفقه، وتأثّر التصوّف المشرقي بالإشراق الفلسفي التجريدي، على النقيض من التصوّف المغربي السني العملي، الذي فعّل "علم الكلام" ووظّفه في الوعي والممارسة الصوفيّين⁴.

لقد كان فقهاء المغرب، صوفيّة، "حتى لقد كدنا نَعجزُ عن العُثور على مُتكلّم متجرّد عن السُّلوك الصّوفي، بعد عصر السُّلاجي"⁵. كما كانوا متكلّمين، بل كبار فقهاءهم كانوا من أعمدة

¹ زروق، أحمد: إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، تحقيق: نزار حمادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ط1، 1433هـ/2012م، ص60.

² انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص710-711.

³ انظر: زهري، خالد: مستويات الإبداع في علم الكلام الأشعري لدى المغاربة، ضمن ندوة: جهود المغاربة في خدمة الفكر الأشعري، مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية، جامعة القرويين، كلية أصول الدين، تطوان، 2011/05/25م.

⁴ زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص6.

⁵ البختي، جمال علال: عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية: دراسة لجانب من الفكر الكلامي بالمغرب من خلال البرهانية وشروحها، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقرق، الرباط، المملكة المغربية، ط1، 2005م، ص143.

الكلام، الذين لا يُشَقُّ لهم غبار، ولا تُجْهَل لهم آثار، كأبي عبد الله محمد بن يوسف الشنوسي، والعكس يقال، حيث كان أساطين التصوّف المغربي هم أساطين الفقه المالكي في المغرب "حتى إنّ ابن خلدون في نقده لأعلام التصوّف الإشرافي التلفيقي في الإسلام، لم يُشِرْ إلى أحد، قدر ما أشار إلى تلك الأعلام الأندلسيّة، كابن عربي، وابن بُرجان، وابن سبعين، والششتري، دون أن يَرِدَ بينهم عَلَمٌ من أعلام التصوّف المغربي"¹، ممّا يُمكنُ أن يكون فيه دلالة على ما تميّز به تصوّف المغاربة من اصطباغه "بنزعة عمليّة، بعيدة عن الإغراق في التأمل النظري"، وممّا يُعتَبَرُ نسفاً للتأويل الاستشرافي الذي يُقارن التصوّف بالديانة الطاوية²، أو يتمّ وصفه بالثورة الرُوحية³.

لقد أصّل الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- لهذا التكامل من خلال مُصنّفاتهِ وكتبهِ، وممّا يُؤكِّدُ تمام الانصهار بين الأصول والفقه والتصوف، أنّه لما أراد تحرير كتابه (قواعد التصوّف)، كان أوّل ما افتتحه به قوله: "وبعد، فالقصدُ بهذا المختصر وفصوله، تمهيدُ قواعد التصوّف وأصوله، على وجهٍ يَجْمَعُ بين الشريعة والحقيقة، ويصلُ الأصول والفقه بالطريقة"⁴، فتأمّل ذلك.

ويقول سيدي زروق أيضاً، في تقرير متانة هذه الصّلة بين العلوم الإسلامية الأساسية الثلاثة، وأنّ أحكام [الفقه]، ما كانت يوماً لتعزى عن قواعدِها التي هي [الأصول]، ولا لتنفكّ عن أغراضها التي هي [المقاصد]، ولا لتستكف عن أنوار التزكية وصدق التوجّه الذي هو [التصوّف]، يقول ما نصّه: "صدقُ التوجّه مشروطٌ بكونه من حيث يرضاه الحقُّ تعالى وبما يرضاه. ولا يصحُّ مشروطٌ بدون شرطه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: 8]. فلزم تحقيق الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَلِإِنْ

¹ الصغير، عبد المجيد: تحليلات الفكر المغربي: دراسات ومراجعات نقدية في تاريخ الفلسفة والتصوف بالمغرب، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص164-165.

² الطاوية، إحدى أكبر الديانات الصينية القديمة التي ما تزال حية إلى اليوم، إذ ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، تقوم في جوهر فكرتها على العودة إلى الحياة الطبيعية والوقوف موقفاً سلبياً من الحضارة والمدنية. كان لها دور هام في تطوير علم الكيمياء منذ آلاف السنين، وذلك من خلال مسيرتها في البحث في إكسير الحياة ومعرفة سر الخلود. (انظر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف ومراجعة: مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 1420هـ، ج2، ص735).

³ زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص113-114.

⁴ زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص21.

تَشْكُرُوا يَرْضَهُ ﴿[الزمر:8]﴾. فلزم العمل بالإسلام. فلا تصوّف إلا بفقه، إذ لا تُعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوّف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجّه، ولا هما إلا بإيمان؛ إذ لا يصحّ واحدٌ منهما دونه، فلزم الجميع؛ لتلازمهما في الحُكم، كتلازم الأرواح للأجساد؛ إذ لا وجود لها إلاّ فيها كما لا حياة لها إلاّ بها¹.

وفي هذا الذي قرّره زروق تأكيدٌ للتكامل المعرفي بين العلوم الثلاثة، وخطورة الفصل المنهجي بينها؛ لارتباطها بحياة المكلفين وسعادتهم، وتحقيق صلاحهم في المعاش والمعاد.

¹ زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص22.

المبحث الأول: ملامح التكامل المعرفي في الدرس العقدي الكلامي عند زروق

إننا ونحن نبحت عن معالم التكامل في الدرس العقدي عند علماء الغرب الإسلامي، فإننا نصبوا أن نجد ذلك ونتلمّسه من خلال كتاباتهم ومُصنّفاتهم؛ ولقد تعدّدت كتب العقيدة وشروحها في القرن التاسع الهجري، إلا أن كتب وشروح الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- تتصدّر هذه الشروح كمّا وكيفاً؛ وذلك لمؤهلاته العلمية، ولقدراته المتميزة على تقديم العقيدة، وشرح نُصوصها بأسلوب واضح وسلس، بعيداً عن أي غموض أو تكلف. وإذا كان أئمة أهل السنة والجماعة قد تنبّهوا - قديماً - لمخاطر آراء الفرق الضالة على عقيدة المسلم؛ فتصدّوا لهم، وأبطلوا معتقداًهم بالحجج والبراهين؛ فإننا اليوم في أشد الحاجة إلى تصحيح عقيدة أبنائنا وشبابنا، وتنقيتها ممّا لحق بها من تحريف أهل البدع والضلالات، أو غلو المتطرفين ودعاة التكفير والتفجير، والعودة بعقيدتهم إلى التبع الصافي المعتدل الذي نهل منه الصحابة رضوان الله عليهم عقيدتهم¹.

إن الشيخ أحمد زروق رحمه الله، يُمثّل ذلك النموذج المتكامل لشخصية المسلم القائمة على أساسيّ الاعتقاد بالقلب، والتّطق باللسان، والعمل بالجوارح. مع تنزيه الاعتقاد من كلّ البدع والشوائب، وربط الأعمال بالنية الحسنة، والإخلاص. فالشيخ زروق، سلفي العقيدة من حيث أخذه بالدليل التّقلي، وتأثره واضح بالمذهب الأشعري في مجال تعزيز النّقل بالعقل، وقد كان صوّفيّاً سنيّاً².

لقد كان الشيخ زروق يعتقد عقيدة أهل السنة، ويقتفي أثرهم، وينصح بتجنّب عقيدة المتكلمين، ومنهجهم في الجدل. وفي ذلك نجده يقول: "ومذهب السّلف وجُهور أصحاب المذاهب على تجنّبه -أي علم الكلام-؛ فقد اتّفق مالك، والشافعي، وأحمد، وأبو حنيفة وسفيان الثوري في جماعة من العلماء على تحريم الكلام في علم الكلام، ولم يتكلّم السّلف رضي الله عنهم في الاسم والمسمّى، ولا في التلاوة والملتوّ، ولا في الصفة والموصوف، ولا في مشكلات الآيات والأحاديث، إلا من حيث إخراجها عن ظاهرها المحال فقط؛ بل ضرب عمر صبيغاً³؛ لما كان يتتبع مُشكل الحديث والقرآن، ويسأل عنه"⁴. ولا يُفهم من هذا أن الشيخ أحمد

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص5-6.

² لقد أكسبته تجربته الصوفية ذوقاً سليماً يميز به بين العقيدة الصحيحة والعقيدة الفاسدة. انظر: طيب: المرجع السابق، ص42.

³ روى الدارمي من طريق سليمان بن يسار، قال: قدم المدينة رجل يقال له: صبيغ بن عسل، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر، فأعد له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، قال: وأنا عبد الله عمر، فضربه حتى أدمى رأسه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، قد ذهب الذي كنت أجده في رأسي. (انظر: الدارمي، عبد الله: مسند الدارمي، تحق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1421هـ/2000م، باب: من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع، ج1، ص252-253. وقال: رجاله ثقات، غير أنه منقطع، سليمان بن يسار لم يدرك عمر بن الخطاب).

⁴ انظر: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص291.

زروق يُعارض علم الكلام جُملة وتفصيلاً؛ فإنّه عندما ينهى عن الخوض فيه - مثل سلفه الإمام أبي حامد الغزالي -؛ فإنّه يرى بأنّ الأئمة الذين تعرّضوا له، إنّما فعلوا ذلك مضطّرين للردّ على ما أحدثه أهل الأهواء من الشُّبهات حول العقيدة الإسلامية؛ فلا يجب ترك الشبهات تحتال العامة وتُفسد عقائدهم، وبالتالي فإنّ من تكلم في علم الكلام من الأئمة؛ فإنّما كان قصده دفع ما أحدثه أهل الأهواء من الشُّبه والتخيُّلات التي لا يمكن ردّها إلا بالكلام فيه؛ لابتنائها عليه، قال: "واختلف العلماء هل لا يُردُّ الباطل إلا بالحق، أو يردّ بكل ما أمكن رده به، فمن منع من علم الكلام، قال بالأول، ومن أجاز قال بالثاني، والله أعلم"¹. وفي هذا الصّدّد، وتوضيحا لرأي السلف في تحريم النظر في علم الكلام، يقول الشيخ زروق: "وقيل: إنّما ذلك في حق من يأخذه مجرّداً عن أدلة الكتاب، وقيل: إنّما هو في أهل الأهواء والمشوّشين على الناس بأنظارتهم وغيرها، أما تحرير المعتقد بالبيان، ودفعه الشُّبه إذا عرضت، فلا خلاف في وجوب دفعها بما أمكن"².

ولذلك فإنّ الشيخ أحمد زروق يُسلّم بأنّ هذا العلم الكلامي لا بُدّ له من أهليّة وتمكّن؛ ففي تعليقه على قول الإمام الغزالي في عقيدته: "وليس الطريق في تقويته أن يعلم صناعة الجدل والكلام"³، يقول الشيخ أحمد زروق: "لأنّه انتقال من حقيقة لصناعة، ومن تقليد ومن سكون إلى تشويش، ومن سلامة إلى شُبهة، فهو ضررٌ كلّهُ على أهل البدايات، وإن كان علماً يُحتاج إليه في الردّ على أهل الغواية. نعم، لا بُدّ من معرفة الأصول والقواعد، التي يدور عليها الكلام فيه في حق من له قوة على النظر والاستدلال، وإلاّ ضلّ وأضلّ"⁴.

ولم يترك الشيخ أحمد زروق رحمه الله فرصة الحديث عن الكلام [الإلهي] تمرّ دون أن يتعرض في كتاب شرح عقيدة الغزالي لتسمية علم الكلام بهذا الاسم، "وهو أصل تسمية هذا الفن بعلم الكلام. وقد قال شيخنا أبو زيد عبد الرحمن المجدولي المعروف بالتونسي، أحد المتصدّرين بجامع

¹ انظر: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 292.

² انظر: زروق، أحمد: اغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد، اعتناء: نزار حمادي، دار الأمام ابن عرفة، تونس - دار الضياء، الكويت، لا. ط، د. ت، ص 30.

³ الغزالي، أبو حامد: قواعد العقائد، تحق: موسى محمد علي، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط 2، 1405 هـ / 1985 م، ص 76.

⁴ زروق، أحمد: شرح عقيدة الغزالي للإمام محمد الغزالي الطوسي، تعليق: السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 2006 م، ص 211.

القرويين من مدينة فاس في علم الأصول في عصره، وعنه أخذ أكثر أهلها في وقته: سمعت شيخنا أبا عبد الله الآبي رحمه الله يقول: أكثر ضلالات المعتزلة أو عمدها ثلاث: الكلام والكسب والرؤية. قلت: بحسب هذا فيتعيّن على المبتدئ أن يفرّ من التوسّع في الكلام في هذه الثلاث خوف الزلل، فذلك بعد إثبات ما يجب فيه بوجه واضح¹. وهو ما يكشف لنا بوضوح عن الاختيارات التي ارتضاها الشيخ أحمد زروق في علم الكلام وموقفه منه².

ولقد بوأ الشيخ أحمد زروق العقيدة وعلم التوحيد مكانة الصدارة في شروحه وكتبه ورسائله؛ لأنّه كان يرى بأنّ أوّل ما ينبغي للطفل، والمريد السالك أن يتعلّمه هو العقيدة الصحيحة؛ لأنّها أساس في العبادات والمعاملات، ولأنّ المريد كالصبيّ في أنّه قابل للتشكيل وباطنه كالشمع، لذا ينبغي أن ينشأ على أن يكون فقيها صوفيا سنّيا، يعتقد عقيدة أهل السنة ويقتفي أثرهم. وكان رحمه الله يُنوّه بعقيدة كبار أئمة الإسلام، مثل عقيدة الإمام الغزالي، والقيرواني ويدعو إلى قراءتهما ودراستهما، وذلك لأنّ: "أوجب الواجبات الإيمان الجازم"³.

وفي هذا السياق، يقرّر الشيخ زروق في شأن العقيدة وتصحيحها، أنّ: "تصحيح العقيدة بالإيضاح والبيان؛ ثمّ تأييدها بالدليل والبرهان، من أعظم مقاصد الإيمان، وأكبر مفاتيح اليقين والعرفان، ومقاليده الفوز بالجنة والنجاة من النيران"⁴.

إنّ ما قرّره سلفاً من أهمية اختيار عقيدة الغزالي من قبل الشيخ أحمد زروق لشرحها، هو السبب نفسه الذي دفع بالدكتور السيد محمد عقيل بن علي الحسيني (ت1350هـ)⁵، إلى شرح

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص159.

² محمد، آيت حمو: الوجه الأشعري للمتصوف المغربي أحمد زروق، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، قسم العلوم الإنسانية والفلسفة، 2015م، ص5.

³ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص39-40.

⁴ زروق: إغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد، مرجع سابق، ص25.

⁵ ولد بالمسيلة سنة 1279هـ، عكف من صغره على مكتبة آبائه وأجداده، وتخل منها علما كثيرا، ثم سافر إلى سنغافورة تاجرا وأثرى بها، رحل إلى بلدان كثيرة، وقد كان ابن عقيل على اعتدال في التشيع في بدء أمره، حتى دخل العراق عام 1330هـ، ثم غلا بالآخرة في تشيعه حتى اقترب من سادات الأمة ووقع في عرض معاوية عليه السلام، ونال منه وتحامل عليه، كما في كتابه "النصائح الكافية". توفي بالحديدة سنة 1350هـ. (انظر: السقاف، عبد الرحمن: إدام القوت في ذكر بلدان حضر موت، دار المنهاج، بيروت - لبنان، ط1، 1425هـ/2005م، ص834، والزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج6، ص269).

كتاب قواعد العقائد في التوحيد لأبي حامد الغزالي رحمه الله، في دراسة نصية، ويقول أن أسباب اختياره لهذا الكتاب هي:

1- أهمية هذا الكتاب في الدراسات الكلامية على عقيدة أهل السنة؛ لأنه أساس الدراسات في العقيدة الإسلامية، وهو صالح للصغار والمبتدئين في العقيدة، بعد ذلك ينتقل الدارس إلى كتاب "الرسالة القدسية في قواعد العقائد"، ثم إلى دراسة كتاب "الاقتصاد في الاعتقاد"، وليس بعد هذه الكتب دراسة إلا كتب المتخصصين في الدراسات الكلامية.

2- معرفة الاصطلاحات الأساسية في علم الكلام، لأن الغزالي ذكر في هذا الكتاب اصطلاحات كلامية لا يستغني عنها الدارس، لفهم علم الكلام.

3- معرفة منهج الغزالي في الكتابة والتعليم، لأن الغزالي وضع كتبه الكثيرة بمنهج مختلفة، فظن بعض الناس أنه متناقض في كتاباته، والأمر ليس كذلك؛ لأن الغزالي كتب بناءً على مستوى الطلاب والدارسين في أيامه. بهذه المعرفة نستطيع أن نُقدّر أعمال الغزالي تقديراً صحيحاً، بعيداً عن سوء الظن بأفكاره وعلومه النافعة.¹

إن الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- لم يكن من أولئك الناقلين أو العارضين لنصوص العقيدة التي راجت في عصره، لكنه كان شارحاً مُبدعاً للنصوص العقديّة التي يُعبّر فيها عن وجهة نظره وعن فكره العقدي، فهو لا يجتزأ أقوال غيره ممّن سبقوه، بل يختار ما يراه مناسباً لمعتقدده، ويتبعه بالمناقشة والتّقد والإثراء، وتعزيزه بالأدلة النّقلية، وكذا العقلية.²

ومن خلال ما سنعرّض له في بعض كتبه وشروحه، سيبيّن لنا أن اعتقاد الشيخ أحمد زروق -رحمه الله-، هو اعتقاد ما ورد في الكتاب والسنة، مع نفي التشبيه، وإثبات التنزيه، من غير تعرّض لكيف، أو تأويل³. وكذلك يتبيّن لنا مستواه العلمي الرفيع، ونبوغه الفائق، وعلوّ كعبه في علم التوحيد

¹ المهدي، محمد عقيل بن علي: قواعد العقائد في التوحيد للإمام حجة الإسلام الغزالي: دراسة نصية، دار الحديث، القاهرة، ط2، 1996م ص9-10.

² انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص43.

³ انظر: المرجع نفسه، ص43.

والعقيدة؛ لأنّ التعرّض لعلم التوحيد أو العقيدة والخوض فيه يتطلّب من صاحبه مكنةً قويّة، أي أن يكون مُتمكّنًا من أدوات البحث في هذا الميدان، وفي مقدمة ذلك:

- الإطّلاع على آراء مختلف الفرق الكلامية.
 - التمكن من فروع العلوم الإسلامية: التوحيد، الفقه، الأصول، التفسير، الحديث... الخ.
 - معرفته وتمسّكه بعقيدة أهل السنّة والسلف الصالح؛ فهو وإن توغلّ في تصوّف؛ فإنّ ذلك لم يُبعده عن العقيدة الصحيحة، بل ازداد يقينا وتمسّكا بها¹.
- ولذلك يقول أحمد زروق -رحمه الله-، في القاعدة الخمسين من كتابه "قواعد التصوف"، ما نصّه: "... فلا بدّ من تحقيق أصول الدين وإجرائها على قواعدها عند الأئمة المهتدين، ومذهب الصوّيّ من ذلك تابع لمذاهب السلف في الإثبات والنفي، وفصول الاعتقاد ثلاثة:
- 1- ما يُعتقَد في جانب الربوبية، وليس عندهم فيه إلا اعتقاد التنزيه، ونفي التشبيه. مع تفويض ما أشكل. بعد نفي الوجه المبحال؛ إذ ليس ثمّ الحنّ من صاحب الحجّة بحجّته.
 - 2- ما يُعتقَد في جانب النبوّة، وليس إلا إثباتها، وتنزيهها عن كلّ علم وعمل وحال، لا يليق بكمالها. مع تفويض ما أشكل بعد نفي الوجه المنقّص. إذ للسيد أن يقول لعبده ما شاء، وللعبد أن ينسب لنفسه ما يريد. تواضعا مع ربه؛ وعلينا أن نتأدّب مع العبد، ونعرف مقدار نسبته.
 - 3- ما يُعتقَد في جانب الدار الآخرة، وما يجري مجراها من الخيرات؛ وليس إلا اعتقاد صدق ما جاء من ذلك على الوجه الذي جاء عليه. من غير خوض في تفاصيله؛ إلا بما صحّ واتّضح. والقول الفصل في كل مشكل من ذلك ما قاله الشافعي رحمه الله، إذ قال: "آمنّا بما جاء عن الله، على مُراد الله، وبما جاء عن رسول الله، على مُراد رسول الله ﷺ"².
- هذا وإنّ أهمّ ما يجمع الشّخصيات التي اهتمّ الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- بشرح أعمالها في العقيدة، هو ما يلي:

¹ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 86، 42.

² انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص 45.

● التقيّد بالمذهب المالكي، وبالمشهور من فقه وفتاوى كبار أئمة المذهب بعد الإمام مالك رحمه الله. باستثناء الإمام أبي حامد الغزالي الذي كان شافعيّ المذهب الفقهي؛ وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على انفتاح الشيخ أحمد زروق، وعدم تزمّته وتوقعه في دائرة المذهب الواحد. فهو لا يجد حرجاً في التنويه بعقيدة الغزالي، الشافعيّ المذهب، كما لا يجد حرجاً في الأخذ بأقوال كبار أئمة وفقهاء أهل السنة على اختلاف مذاهبهم، مادام يرى في قولهم الصّواب؛ فنراه غالباً ما يستدلّ بأقوال الإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، وبأقوال فقهاء كثيرين، وهو دَيِّدُهُ في جميع مؤلفاته، ينشد الحقّ ويتغيّا الحقيقة، ويأخذ بما أنّي وجدها؛ وهو بذلك ينفي عن نفسه التعصّب المقيت الذي أوغل فيه فقهاء ومُتصوِّفَة عصره، كما أنّه يتعد عن التقليد، ويجتهد في الأخذ بما يراه مناسباً؛ حيث يختار لنفسه، ولمريديه القول الأرضي، والأصوب، والأقرب لمقاصد الشارع في الكتاب والسنة¹.

● اعتماد مذهب أهل السنة في العقيدة، وتجنّب ما عداه من معتقدات أهل النحل الضالّة والمبتدعة؛ لذلك نجده يرّد كثيراً على المعتزلة في كتبه ويشتّع عليهم².

● لا يمنعه إعجابه بمن يشرح لهم من أن يخالفهم في بعض الآراء، وفي بعض الممارسات الصوفية؛ فالشيخ أحمد زروق ليس مجرد ناقل أو شارح فقط - كما قلنا -، بل هو ناقد؛ يعتمد على الاستقراء، وتقديم الآراء ثم مناقشتها، وتقويمها بعرضها على الأدلة النقلية المقطوع بها، ومن ثمّ الحكم عليها، ثم أقوال العلماء، أو الأدلة العقلية غير المعارضة للنقل، ليصل إلى ترجيح الرأي الذي يراه صائباً، وهو يُعرض عن الوقوف طويلاً على الخلافات الكلامية الكبرى: (الصفات الإلهية - كلام الله - الرؤية - خلق الأفعال... إلخ)، مثبتاً لله ما أثبتته لنفسه، ومنزّها له عمّا لا يليق به. مع التفويض عند تعدّد التأويل، ومتقيداً بمذهب أهل السنة والسلف القائلين بالتنزيه ونفي التشبيه، حيث نجده غير ما مرّة يقول: "وحاصل ما يدور عليه المصنّف أنّا نثبت لله تعالى ما أثبت لنفسه، ونزّهه عمّا لا يليق به، ثم نفوّض فيما يتعدّر فيه التأويل إجمالاً، ونأوّل في غيره"³.

ولذلك فإنّنا سنتعرّض فيما يُستقبل من مطالب، إلى عقيدة سيدي أحمد زروق - رحمه الله -، أو بالأحرى الآراء الاعتقادية له من خلال جملة من شروحه، والتي اخترنا منها شرحه على عقيدة الغزالي

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 83.

² انظر: آيت حمو: الوجه الأشعري للمتصوف المغربي أحمد زروق، مرجع سابق، ص 5.

³ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 87، 93.

وشرحه على المرشدة لابن تومرت¹ ثمّ شرحه على الوغليسية. وسيتناول حديثنا أيضا منهجه العقدي من خلال بعض مؤلفاته.

المطلب الأول: الآراء الاعتقادية للشيخ زروق من خلال بعض كتبه.

إنّ الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- لا يُعرف له مؤلّف أو مُصنّف مستقل في مسائل الاعتقاد²، ولكنّ أقواله مبثوثة في شروحاته لكتب أهل العلم العقدية، وإذا أردنا معرفة فكره العقدي فلا بد من استقراء تلك الكتب والشروح وترتيبها وفق أبواب الاعتقاد المعروفة؛ من إلهيات ونبوات وسمعيات. ولذلك فإنّ عملنا في هذا المطلب هو التنقيب والبحث عن تلك الآراء من خلال بعض كتبه المطبوعة على الأقل، والتي تمثل بلا شك المدرسة الاعتقادية التي ينتمي إليها.

أولاً: الإلهيات: قال الشيخ أبو بكر بن فورك³ -رحمه الله-: والوحدانية في وصفه تعالى له ثلاث معان: لفظ الواحد حقيقة في جميعها، أحدها: أن لا قسيم لذاته، وأنه غير متبعض ولا متحيز. والثاني: لا شبيه له، تقول العرب فلان واحد عصره أي لا شبيه له فيه. والثالث: أنه لا شريك له في أفعاله ومنه قالوا فلان متوحد بهذا الأمر أي لا شريك له فيه ولا معاند⁴. وقد بيّن الشيخ زروق

¹ يرى الشيخ الصادق الغرياني في تحقيقه لكتاب: "غُدّة المريد الصادق" أنّ هناك مُرشدة أخرى لمحمد بن عمر السنوسي المتوفى سنة 892هـ، وأنّ هذه هي التي يعينها الشيخ زروق في قوله في كتابه "عدة المريد الصادق"، ما نصّه: "ومنه التزام بعضهم قراءة المرشدة، أو عقيدة ممّا من العقائد... وما في معنى ذلك على جهة الورد، وجعله من الأمور المعتمدة، وهو أمر لا بأس به إن لم يُعتَقَد سُنِّيَّته...". واستبعد الغرياني أن يكون زروق قد شرح مُرشدة مهدي الموحدين، ما تُسبب لابن تومرت من الظلم والغلو وادّعاءه العصمة وغيرها ممّا يناقض فكر الشيخ زروق. لكن في تعليق الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي على كتاب "عدة المريد الصادق"، يذكر أن المرشدة المقصودة هي لابن تومرت مهدي الموحدين. (انظر: زروق، أحمد: عدة المريد الصادق، تحق: الصادق الغرياني، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط1، 2006م، ص271-272).

² ذكر صاحب فهرست مخطوطات الزاوية العثمانية أن زروق له مخطوط في العقيدة بعنوان: صحيح العقيدة بالإيضاح والبيان والبرهان، وقد ذكر الشيخ الصادق الغرياني أن هذا العنوان هو شرح آخر للرسالة القدسية للإمام الغزالي. (انظر: مقدمة رسالة الماجستير: مراري، عبد القادر: الفكر العقدي للشيخ زروق الفاسي، مرجع سابق، ص ه).

³ هو أبو بكر محمد بن الحسين بن فورك الأنصاري الأصبهاني. فقيه شافعي، وعالم أصولي، أشعري العقيدة، درس ذلك على أبي الحسن الباهلي بالعراق، حمل راية الدفاع عن الأشعري وعقيدته، والرد على خصومه، وكان شديد الرد على الكرامية وشيعتهم من المجسّمة، توفي سنة 406هـ. (انظر: السبكي، تاج الدين: طبقات الشافعية الكبرى، تحق: عبد الفتاح محمد الحلو-محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1383هـ/1964م، ج4، ص127 وما بعدها).

⁴ زروق: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص33.

المقصود من ذلك، فقال: "والمقصود أنه تعالى واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في أفعاله ووصفه، بأن لا إله غيره جامع لكلها"¹. وقال: "الوحدانية والأحادية فهو الواحد الأحد في ذاته وصفاته وأفعاله، في ذاته لا ينقسم ولا يتجزأ ولا يحل في محل"². ويفهم من هذا أن الشيخ زروق يوافق جمهور المتكلمين في تقسيم التوحيد إلى : توحيد الذات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد الصفات.

1- توحيد الربوبية: وهو توحيد الله تعالى بأفعاله، وأن تؤمن أن الله هو الخلاق، الرزاق، مدبر الأمور، مصرف الأشياء، وأن مشيئته نافذة، وقدرته كاملة، وقد تكلم الشيخ زروق عن ذلك مُفصَّلاً لقسم من أقسام التوحيد وهو الربوبية، فقال: "مرجع هذه العقيدة بل وكل عقيدة إلى ثلاث... والثالث: العلم بأفعاله تعالى الواقعة والمتوقعة والجائز نفياً وإثباتاً"³. ولا بأس أن نذكر بعض المسائل المتعلقة بأفعال الله تعالى:

أ- أفعال الله تعالى تقع منه باختياره: يقول الشيخ أحمد زروق -رحمه الله-: "والله سبحانه فاعل مختار مدبر لكل الأمور. وبرهان ذلك أن العالم متغير حادث، والحادث لا يستغني في وجوده عن سبب يحدثه، وموجد المركب موجد أجزائه وأحكامه، وإلا فليس له. فهو الفاعل له والفاعل فيه لأنه الموجد له ولأحكامه وذلك شاهد بغنى الموجد وافتقار المحدث إليه. ثم ذلك يقتضي فعله تعالى باختيار ضرورة، إذ لو لم يكن مختاراً لجاز عجزه، وذلك باطل"⁴.

ب- أن الله تعالى خلق الخلق دون معين له في ذلك: كما ذكر ذلك الإمام الغزالي "وأنه المنفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالإيجاد والإبداع"، وقد علق الشيخ زروق، فقال: يعني لا خالق لشيء إلا هو"⁵. ومن بين أعظم مخلوقاته: العرش، فقد بين زروق أنه هو الذي خلقه ودبره وجعله على ما أراد، فقال -رحمه الله-: "وقد جعل الرب تعالى له من العظم والجلالة ما لا يدانيه فيه

¹ زروق: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج 1، ص 33.

² زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 42.

³ زروق: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ص 38.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 34.

⁵ المرجع نفسه، ص 89.

غيره¹، وقوله: "جعل" يدل على أن العرش خلقه الله بهذه الصورة لحكمة يعلمها. ولذلك يقرر الشيخ زروق حقيقة العرش، فيقول: "ولا يحمله العرش: يعني لأنه حادث مقهور بالفقر والعجز والرب سبحانه موصوف بالقدم والاستغناء وكمال القدرة، فالحمل في حقه لا يصح بحال"².

ومن مخلوقاته تعالى، الزمان والمكان: قال الشيخ زروق موضحاً الأمر: "بل كان قبل خلق الزمان والمكان؛ لأنهما حادثان، وهو المحدث لهما، كان الله ولا شيء معه: هو الآن على ما عليه كان. لا شيء معه في الأبد، كما لا شيء معه في الأزل، فكيف يصح زمان أو مكان في حقه؟! لو تقيّد بالزمان لكان مسبوقاً، ولو تقيّد بالمكان لكان محصوراً"³.

ت- أن الله له حق التصرف في مخلوقاته وحده سبحانه: قال الشيخ زروق وهو يشرح قول الإمام الغزالي: "له السلطان والقهر والخلق والأمر"، يعني بالسلطان الحجة البالغة وهو ملكه لعباده المقتضي لعموم التصرف والتصرف، فالتصريف بالأمر والتصرف بالقهر، فالتصريف يقتضي الامتثال والتصرف يقتضي الاستسلام. وشاهد ذلك أن الخلق خلقه، فلا شيء لأحد منهم معه، والأمر أمره فلا أمر لأحد سواه⁴.

ث- أفعاله سبحانه كاملة لا يتصور فيها النقص: يقول في هذا الشيخ زروق وهو يشرح قول الغزالي: "المتجلي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد": فلم يعرف من ذاته الكريمة إلا كمال الأوصاف ولا من أفعاله إلا ذلك، فذاته الكريمة موصوفة بكل كمال، منزهة عن كل نقص ومثال، وأفعاله دالة على أوصافه وذاته موصوفة بما يليق بجلاله، والكل ظاهر لذوي القلوب السليمة⁵.

ج- أفعال الله لا تصدر إلا عن حكمة: وإذا كانت الحكمة هي وضع الشيء في مكانه ومحله، فأفعال الله لا تصدر إلا عن حكمة، علّمها من علّمها وجهلّها من جهلّها، يقول الشيخ

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 35.

² المرجع نفسه، ص 63.

³ المرجع نفسه، ص 73.

⁴ المرجع نفسه، ص 87.

⁵ المرجع نفسه، ص 41.

زروق، وهو يشرح قول الإمام الغزالي "وأنت حكيم في أفعاله" يعني: كل ما صدر من أفعاله سبحانه فإنما يصدر بحكمة، لا عبثاً ولا علة يلزم من وجودها وجوده"¹.

ح- أفعال العباد مخلوقة: وفي هذه المسألة نزاع قديم بين المذاهب العقديّة، ولكن لا بد من تقرير أمر قبل الخوض في هذا الموضوع، وهو أن الإنسان له قدرة لا تؤثر في الفعل بل تقتزن به، يقول الشيخ زروق: "اعلم أن الناس في خلق الأفعال على ثلاث طوائف... الثالثة: طائفة أهل السنة وعصابة الحق قالت إن العبد مجبور في عين اختياره، بل إن له قدرة تقتزن بالمقدور ولا تؤثر فيه، فكيف تؤثر فيه وهي معه في الزمان الواحد لأنها صفة لا تبقى فمتى أثرت فيه؟ وكذلك هي معه في الحل الواحد فإن محلها العضو المتحرك، فهي تتعلق بالمقدور ولا تؤثر فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، فجعل الثواب والعقاب من وجه الكسب لا من وجه الجبر"².

وفي المحصلة فإن الشيخ زروق يميل إلى رأي الإمام الإسفراييني، الذي يقول: "الكسب فعل فاعل بمعين، والاختراع فعل فاعل لا بمعين، ومثله يقوى يحمل شيئاً، وآخر يعجز عن حمله إلا بمعين..."³، فرأي الإمام الإسفراييني أن المؤثر في الفعل مجموع القدرتين؛ كما قال السعد التفتازاني: فإن أراد أن قدرة العبد غير مستقلة بالتأثير، وإذا انضمت إليها قدرة الله تعالى صارت مستقلة بالتأثير بتوسط هذه الإعانة على ما قدره البعض، ف قريب من الحق، وإن أراد أن كلا من القدرتين مستقلة بالتأثير فباطل⁴.

خ- مسألة التحسين والتقبيح لا تكون إلا بالشرع: وقد تكلم الشيخ زروق في هذه المسألة وردّ على رأي المعتزلة التي حكمت العقل وجعلته حكماً في التحسين والتقبيح، فقال رحمه الله: "ثم لا حكم إلا لله، ولا حكم إلا بالشرع، لا بمجرد العقل، وإن كان متصرفاً في الاستنباط فعلى

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 120.

² المرجع نفسه، ص 128.

³ المرجع نفسه، ص 91.

⁴ التفتازاني، سعد الدين: شرح العقائد النسفية، تحق: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط 1، 1987م،

أصل الشرع، وحكمت المعتزلة العقل بناءً على التحسين والتقبيح وهو باطل، لأن قضايا الأحكام لا تهدي إليها العقول من حيث ذاتها لجوازها¹.

د- مسألة الإرادة والمشيئة: أي أنه سبحانه فعال لما يريد، ومشئته نافذة لا يعجزه شيء، ولا يتوقف أمره على أسباب، ولا إعانة، ولا عجز ولا قصور. والله سبحانه موصوف بالإرادة، وتعلق بالجائزات، من حيث تخصيصها قبل وجودها، تعلقاً صلاحياً، وعند تخصيصها تعلقاً تنجيزياً، تخصصت بوجود، أو عدم؛ لأن المعدوم، وإن لم يكن شيئاً ينتقل عن الجواز بوجود مقابله؛ فهو تخصيص له².

وتعلق الإرادة لا يكون بواجب لذاته ولا بمستحيل، وفي ذلك يقول الشيخ أحمد زروق رحمه الله: "وإشعاراً بعدم تعلّقها³ بواجب لذاته أو مستحيل والله أعلم"⁴.

ذ- جواز العقوبة للطائع: وفي هذه المسألة يشرح الشيخ أحمد زروق مقولة الإمام الغزالي: "وأنه يثيب عباده على الطاعة بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم". فيقول: يعني: ولو شاء لعاقبهم عليها كما يعاقبهم على المعصية، ولو شاء لأثابهم عليها لأنه لا حجر عليه؛ إذ لا يجب عليه فعل، لا من مراعاة الأصلح- كما قالت المعتزلة- ولا من غيره، لأن الكل لعله وهو المتصرف بالملك المطلق⁵.

2- توحيد الأسماء والصفات: وهي توحيد الله سبحانه بأسمائه وصفاته، وتنزيهه عن المثل والشبيه، وإثبات ما وصف الله به نفسه من غير تعطيل ولا تمثيل. قال الشيخ أحمد زروق: "مرجع هذه العقيدة بل وكل عقيدة إلى ثلاث: أولاً إثبات الذات الكريمة كما يليق بها من كمال التنزيه ونفي التشبيه والرجوع لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، والثاني: العلم بأسمائه تعالى وصفاته وما يرجع إليها من إجلال وتعظيم وتنزيه"⁶. وقال أيضاً: "وقد قال أبو علي

¹ انظر: زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 129.

² المرجع نفسه، ص 98.

³ أي الإرادة.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 99.

⁵ المرجع نفسه، ص 126-127.

⁶ زروق: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ص 38.

البوشنجي: التوحيد إثبات ذات غير مشبهة بالذوات ولا معطلة عن الصفات، وقال الجنيد: التوحيد بنفي الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير"¹.

ومن متطلبات هذا القسم من التوحيد عدة مسائل، نذكر منها:

أ- وجوب إثبات صفات الله سبحانه كما أثبتتها لنفسه: وقد قسّم عددٌ من الدارسين في العقيدة صفات الله إلى: صفات النفس² ستة: وهي، الوجود³، والوحدانية، والقدم، والبقاء، وأنه قائم بنفسه، وأنه مخالف للحوادث. وصفات المعاني سبعة: وهي الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام. والصفة المعنوية ما أتى بصيغة إضافة هذه⁴ للذات الكريمة ككونه حيا وعالما وقادرا⁵. وصفات الفعل: وهي ما ظهر فيه كالخلق، والرزق، ونحوهما⁶.

ويُفصّلُ الشيخ زروق في هذه المسألة وهو يتحدث عن تنزيه الله تعالى، فيقول: "ثم التنزيه دائرٌ على إثبات الذات والصفات ونفي الكيف والتشبيه، ومن الدليل على ذلك عجز الإنسان عن إدراك وجوده ومتعلقاته بطريق الإحاطة..."⁷. وأضاف الشيخ زروق، مُعلّقاً على قول الإمام الغزالي: "بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود": يعني: لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أسمائه... وقد قال الواسطي⁸: ليس كذاته ذات ولا كاسمه اسم ولا كصفته صفة ولا كفعله فعل إلا من حيث موافقة

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص51.

² أي صفات ذات الله تعالى.

³ هنالك اختلاف بين الأشعري ومتأخري الأشاعرة في إثبات صفة الوجود، لأن الوجود عين الموجود عنده وغير الموجود عندهم. وقد قال التفتازاني: لا خلاف أن الوجود زائد ذهنا بمعنى أن للعقل أن يلاحظ الماهية بدون الوجود وبالعكس. (انظر: زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص46).

⁴ إشارة إلى صفات المعاني.

⁵ وكونه مريدا وسميعا وبصيرا ومتكلما.

⁶ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص108.

⁷ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص49.

⁸ هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي، من أهل واسط، دخل خراسان، وأقام بمرو فمات فيها، متصوف من كبار أتباع الجنيد، توفي سنة 331هـ. قالوا: لم يتكلم أحد في التصوف مثله. (انظر: الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج7، ص117).

اللفظ، وجلّت الذات القديمة عن أن تكون لها صفة حديثة، كما استحال أن يكون للذات المحدثّة صفة قديمة¹.

ب- وجوب الكمال المطلق لله والبقاء المطلق: تكلم الشيخ زروق عن مدار العقيدة، وأنها قائمة على ثلاثة أصول: معرفة المرسل، ومعرفة المرسل، ومعرفة المرسل به، كل بما يجب له وما يستحيل عليه وما يجوز في حقه، وأنّ الذي يجب للمرسل وهو الله سبحانه وتعالى ثلاثة أشياء: الوجود المطلق والكمال المطلق والبقاء المطلق².

ت- الذات الإلهية لا تشبه ولا تماثل المخلوق من أي وجه: يُعلّق الشيخ زروق على قول الإمام الغزالي: "وأَنَّهُ لا يماثل الأجسام لا في التقدير ولا في قبول الانقسام"، يعني: أنّ الأجسام تقبل الانقسام وتتحدد بالتقدير، والرب سبحانه لا يجوز عليه شيء من ذلك؛ لأنّ التآليف والتركيب والتحليل والتحديد حوادث، وما لا يَعْرِى عن الحوادث لا يسبقها، وما لا يسبقها كان حادثاً مثلها، ولو صحّ حدوث الباري لما صحّ أن يكون إلها لا فتقاره، وذلك باطل لوجود غناه وثبوت اتّصافه به³. ويضيف الشيخ زروق المسألة إيضاحاً؛ وذلك بنفي المماثلة فهي أبلغ من نفي التشبيه؛ لأن التشبيه واقع من جهة الاسم والصفة والوجود، وإن كان الاختلاف في الحقيقة، أما المماثلة فمستحيلة⁴، فيقول: "لا يماثل موجوداً ولا يماثل موجود لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أسمائه"⁵.

ث- وجوب تنزيه الله تعالى عما لا يليق به: وقد قال الشيخ زروق -رحمه الله- في باب ما يتعلق بتنزيهه تعالى: التنزيه، يعني التقديس والتطهير والترفع والتعظيم والإجلال، عما لا يليق بجناب الربوبية من التمثيل والتشبيه والتصوير والتحديد والتقدير، ونحو ذلك من وجوه التنزيه الواجبة له تعالى⁶.

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 54-55.

² انظر: المرجع نفسه، ص 131.

³ المرجع نفسه، ص 52.

⁴ انظر: مراري: الفكر العقدي للشيخ زروق الفاسي، مرجع سابق، ص 47.

⁵ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 54-55.

⁶ المرجع نفسه، ص 48.

والله تعالى أيضا مُنَزَّهٌ عن الظلم، وقد شرح الشيخ زروق قول الإمام الغزالي: "ولا يقاس عدله بعدل العباد": فقال: لا في حكمه ولا في وجهه، "إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره": يعني: فهو وإن عدل قابلٌ للظلم، والرب تعالى مستحيل عليه الظلم، لأن الظلم التصرف في ملك الغير بغير حق¹.

ج- في صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال: يقول الشيخ زروق شارحا لهذا المعنى، أي: لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، ولا يزيد في عزّه إقبال من أقبل عليه، ولا ينقص من عزّه إدبار من أدبر عنه. هو الغني بذاته عن أن يصل إليه النفع منه؛ فكيف لا يكون غنيا عن خلقه. جل ربنا وتعالى².

❖ أما ما يتعلق بأسماء الله تعالى³، فيمكن أن نذكر عددا من الأحكام المتعلقة بها:

أ- أسماء الله تعالى توقيفية: ذهب الشيخ زروق إلى القول بأن مذهب الجمهور على التوقيف، فقال: "وقد اختلف العلماء في هذا الأصل، فمذهب الجمهور أن الأسماء توقيفية خلافا للمعتزلة وللقاضي من أهل السنة مثلهم، وتوقف إمام الحرمين وفصل حجة الإسلام الغزالي؛ لأن الخطر عظيم، يعني من خوف الخطأ المؤدي إلى الإلحاد في أسمائه تعالى"⁴.

ب- عدد أسماء الله: سبق تقرير رأي الشيخ زروق في أنّ أسماء الله توقيفية، وأنها لا تُشتق من الصفات والأفعال، ومن ثمّ فهو يرى بأنّ أسماء الله محصورة في تسعة وتسعين اسما كما ورد الخبر بها، فلا يُزاد عليها، قال زروق-رحمه الله-: "والذي ورد به الشرع تسعة وتسعون اسما. قال الحافظ شهاب الدين بن حجر والتحقيق أنّ سردها مُدرج من قول الصحابي أو غيره مع احتمال الرفع، فمن رآها للتعبّد قبل ذلك، ومن رأى المسألة علمية لم يقبل غير ما ثبت بقاطع"⁵.

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص121.

² المرجع نفسه، ص76-77.

³ للشيخ كتاب شرح فيه أسماء الله الحسنى، وقد قامت بطباعته دار الكتب العلمية سنة 2007م، بتحقيق السيد يوسف أحمد.

⁴ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج1، ص33.

⁵ المرجع نفسه، ج1، ص33.

ت- أسماء الله قديمة غير حادثة: يستدل الشيخ في هذه المسألة برأي كبار المتصوفة كمحمد الواسطي والقشيري، فيقول: "وأما الأسماء فما كان بنص من القرآن فلا إشكال في قدمه؛ لأنها من كلام الكريم فلا يصح أن تكون محدثة، وقد سئل محمد بن موسى الواسطي من المتصوفة عن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]، فقال ليس كذاته ذات ولا كصفاته صفات ولا كاسمه اسم ولا كفعله فعل، إلا من حيث موافقة اللفظ، وجلّت الذات القديمة أن تكون لها صفة حادثة كما استحال أن يكون للذات الحادثة صفة قديمة، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: هذه الحكاية جمعت مسائل التوحيد أو كلاما هذا معناه، وظاهر كلام الشيخ أن الأسماء لا تؤخذ بالاشتقاق وإنما تؤخذ من كلام الله تعالى فبذلك يصح قدمها"¹.

وفي تأكيد الرأي القائل بعد اشتقاق الأسماء، يقول زروق: "وقد قال الشيخ أبو العباس بن البنا لا يصح أن تكون أسماء الله مشتقة من شيء؛ لأنّ المشتق مسبوق بالمشتق منه، وأسماءه تعالى قديمة فلا يصح أن تكون مشتقة من شيء، قال وإنما الأشياء مشتقة منها لقوله في الحديث هي الرحم وأنا الرحمن شققت لها اسما من اسمي"².

❖ أما ما يتعلق بصفات الله تعالى، فيمكن أن نذكر عددا من الأحكام المتعلقة بها:

أ- الصفات زائدة عن الذات: ومذهب أهل الحق أن هذه صفات زائدة على الذات لا عينها ولا متعلقة بغيره"³. وهذا خلافا للمعتزلة، القائلين بأنّ الصفات هي عين الذات؛ وهذا لحجة داحضة وهي أنه لو قلنا أن الصفات هي غير الذات فذاك يلزم منه تعدد الآلهة، أو القدماء الموصوفين، وقد قال الشهرستاني -رحمه الله- في بيان معتقد المعتزلة في الصفات: "والذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد: القول بأنّ الله تعالى قديم، والقَدَمُ أحصُ وصف ذاته. ونفوا الصفات القديمة أصلا، فقالوا: هو عالم بذاته، قادر بذاته، حيّ بذاته؛ لا بعلم وقدرة وحياة. هي صفات قديمة، ومعان قائمة به؛ لأنّه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أحص الوصف، لشاركته في الإلهية"⁴.

¹ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 33.

² المرجع نفسه، ج 1، ص 27.

³ المرجع نفسه، ج 1، ص 27.

⁴ الشهرستاني: الملل والنحل، مرجع سابق، ج 1، ص 43-44.

ثم بيّن الشهرستاني - رحمه الله - الفرق بين القولين السابقين، فقال: " والفرق بين قول القائل: عالم بذاته لا بعلم، وبين قول القائل: عالم بعلم هو ذاته: أنّ الأول نفي الصفة، والثاني إثبات ذات هو بعينه صفة، أو إثبات صفة هي بعينها ذات. وإذا أثبت أبو الهذيل¹ هذه الصفات وجوها للذات؛ فهي بعينها أقانيم النصارى، أو أحوال أبي هاشم².

ب- صفات الله قديمة غير حادثة: قال الشيخ زروق مُعلّقاً على قول الإمام الغزالي: لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، يعني: أنّ صفاته قديمة باقية بقدومه وبقائه تعالى، وأنّ لها من التنزيه ما يليق بجلاله من نفي النقص والحدوث، فلا نقص في أوصافه ولا حدوث³. وقال أيضاً رحمه الله: "وأما الصفات فلا يصح حدوثها ولا قيامها ولا بعضها بحادث للزوم حدوث من قامت به الحوادث واستحالة اتصاف الحادث بالقدم، لأن ما لا يعرى عن الحوادث لا يسبقها وما لا يسبقها فهو حادث مثلها⁴.

ت- صفات الله حقيقية كذاته: يقول الشيخ زروق: "وأما على الثاني الذي هو أن الكنه بمعنى الحقيقة لأن الصفة لها حقيقة لكن لا يبلغ الواصفون إلى تلك الحقيقة وهذا ظاهر كلام الشيخ (القيرواني) وعليه فلا يقال لا كنه له بل له كنه لا تُبلغ حقيقته، فالمعنى العلم بتلك الحقيقة من حيث هي لا من حيث وجودها لأن وجودها ثابت، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:110]، فأثبت العلم به ونفى الإحاطة فافهم⁵. وقال رحمه الله: "وإن بلغوا إلى العلم به فمن جهة الإثبات والتنزيه لا من جهة الإحاطة والتكليف⁶.

¹ أبو الهذيل العلاف (135-226هـ)، شيخ المعتزلة، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل، عن واصل ابن عطاء. ويقال أخذه عن الحسن بن أبي الحسن البصري. (انظر: الشهرستاني: الملل والنحل، مرجع سابق، ج1، ص49).

² المرجع نفسه، ج1، ص50.

³ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص47.

⁴ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج1، ص33.

⁵ المرجع نفسه، ج1، ص23-24.

⁶ المرجع نفسه، ج1، ص24.

ث- بعض الصفات التي تكلم عنها الشيخ زروق:

أولاً: صفة الكلام: وهي من أكثر المسائل التي سالت فيها الأعلام، وتعثرت فيها الأقدام وكثر النزاع حولها، وما سُمِّي علمُ الكلام بهذا الاسم إلا لأنَّ الكلام أهمّ مباحثه، وقد قال الشيخ زروق وهو يؤكِّد هذا المعنى: "يعني إثباته -أي الكلام- وتنزيهه وما يتعلق بذلك والكلام فيه، وهو أصل تسمية هذا الفن بعلم الكلام"¹.

وقد نقل الشيخ زروق إجماع أهل العلم على إثبات صفة الكلام لله تعالى، فقال: "وقد أجمع أهل الملل والمذاهب على أنه تعالى متكلم، لأن الأنبياء أجمعوا عليه وقد ثبت صدقهم بالمعجزات من غير توقف على اخبار الله من صدقهم بطريق التكلم فلا يلزم الدور"².

وصفة الكلام لله تعالى صفة قديمة، يوضح الشيخ زروق ذلك، فيقول: "فذهب أهل الحق أنَّ كلامه صفة قديمة قائمة بذاته، زائدة على ذاته، كسائر صفاته المعنوية من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر خلافا للمعتزلة"³. ويُدلُّ الشيخ زروق على أنَّ الكلام نفسي، فيقول: "وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: 8]، فأثبت الكلام للنفس"⁴. وقد ذهب الإمام الأشعري أن الكلام حقيقة في النفس مجاز في اللسان، وفي هذا يقول زروق: "ثم الكلام عند أهل الحق صفة قائمة بنفس المتكلم تدل عليها العبارات وما يصطلح عليه من الإشارات. قال الأشعري فهو حقيقة في النفس مجاز في اللسان، احتجَّ لذلك بقول الأخطل:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفَوَادِ وَإِنَّمَا *** جُعِلَ الْلسَانُ عَلَى الْفَوَادِ دَلِيلًا

وجمهور المتأخرين على أنه حقيقة فيهما قال إمام الحرمين هو مجاز في النفس حقيقة في اللسان"⁵.

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 109.

² زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 33.

³ المرجع نفسه، ج 1، ص 33.

⁴ المرجع نفسه، ج 1، ص 34.

⁵ المرجع نفسه، ج 1، ص 34.

وواضح أنَّ منهج الشيخ أحمد زروق حيال هذه المسائل الشائكة هو التنزيه، وإثبات صفات الله تعالى دون تشبيهه أو تمثيل، فيقول رحمه الله: "فثبوت الكلام ممَّا ثبت به القرآن، وللناس خبط عظيم الحق منه الإثبات والتنزيه¹ ونتمسك به وبالله التوفيق"²، ويقول: "وأجمع العقلاء على أن الأمر لعبده بشيء لا بد أن يجده من نفسه اقتضاءه أو طلبا يدل عليه، فذلك هو كلامه النفسي ولا صوت ولا حرف فهو دال على ثبوت كلام لا صوت له ولا حرف كما نقوله في كلام ربنا غير أنا نمنع المماثلة والمشابهة جملة وتفصيلا"³.

ثانيا: صفة العلم: وهي من صفات الله تعالى القديمة القائمة بذاته سبحانه، يقول الشيخ زروق في هذا المقام: "لم يزل ربنا سبحانه وتعالى موصوفا به أي العلم القائم بذاته في الأزل الأول، أي في قدم القدم، وقد تعلق علمه في الأزل بذاته وصفاته وأسمائه في الأزل تعلقا تنجيزيا لقدمها، وبغيرها من الموجودات على حسب حكمها في وجودها وعدمها وكونها وتقديرها"⁴.

ويزيد زروق المسألة إيضاحا، وهو يتكلم عن علم الله الأزلي، فيقول: "فيعلم ربنا المعلومات بعلمه القديم الأزلي، (لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال)، لأنَّ التجدد عارض وهو مسبوق بالعدم، والوجود والحلول والانتقال أعراض"⁵.

ثالثا: صفة الإرادة: وهي الصفة المقتضية لتخصيص الجائزات⁶ وأحكامها وأوصافها وغير ذلك، فدليلها التخصيص⁷. وعلى عكس المعتزلة، فأهل السنة يثبتون هذه الصفة، وكما قال الإمام

¹ أي: لإثبات الكلام صفة للحق تعالى وتنزيه كلامه عن الحوادث من صوت وحرف، والحدوث دفعة دفعة في الزمن وخلاف ذلك. (انظر: زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص110).

² زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص109-110.

³ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج1، ص34.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص97.

⁵ المرجع نفسه، ص97.

⁶ أي اختصاصها من بين غيرها من الجائزات بأن يريد المولى وجودها أو يريد عدمها، فما أراد وجوده فهو مخصص بالوجود، وما أراد عدمه فهو مخصص بالعدم. (انظر: زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص98).

⁷ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص98.

الغزالي: (وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته)، يقول زروق يعني: لا يصح نفيها ولا قيامها بغيره، لأن وصف الذات على حكمها في القدم وبغيره، وما وُصفت به لا يصح أن يكون قائما بغيره¹. ويفصل الشيخ زروق في بيان الحق بأن الله تعالى موصوف بالإرادة، ويشرح قول الغزالي: (لم يزل كذلك موصوفا بها في أزله مريدا لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها) أي: بكيفياتها فتتعلق إرادته بالجائزات قبل التخصيص تعلقا صلاحيا وعنده تعلقا تنجيزيا، (فوجدت) الأشياء التي خصصها بالوجود، (في أوقاتها كما أراده في أزله من غير تقدم) عن زمانها (ولا تأخر) عن وقتها الذي خصت به، وكذا من غير زيادة ولا نقص في الكم ولا في الكيف، وتحقق بها انتفاء مقابله² وليس بشيء قبل وجودها ولا بعده³.

وعن تلازم وقوع إرادته وفق علمه، يقول الشيخ زروق شارحا لقول الغزالي: (بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير)، أي: أن ما علم سبحانه أنه يكون، أراده، وما أراده علم أنه يكون، فلا يتخلف حكم العلم عن حكم الإرادة فيه⁴.

رابعا: صفتا السمع والبصر: يقول الشيخ زروق: "يعني ذكر أحكامهما وإثباتهما وتنزيههما ومتعلقتهما، وهما صفتان واجبتان لكمالهما سبحانه جاء بهما الكتاب والسنة، وصح معناهما عقلا"⁵. وقد تكلم عن هذين الصفتين الإمام الغزالي، فقال: "وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى"، يقول زروق: يعني كما يليق بذاته الكريمة... قال القشيري: فهما صفتان زائدتان على علمه خلافا لقوم. قال أبو حامد: لو كان الباري تعالى غير سميع ولا بصير لعكس السؤال على إبراهيم: ﴿يَتَأَبَّتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: 42]، ولبطل معنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص104.

² الضمير قد يعود الزيادة ومشتملاتها فيكون المعنى: من غير زيادة يتحقق بها انتفاء مقابلها الذي هو القدر الذي أراده الله تعالى، وقد يعود الضمير على الإرادة فيكون المعنى: من غير زيادة ولا نقص فتمت الأشياء وفق مراد الله وتحقق بهذا انتفاء مقابل الإرادة وهو انعدام الإرادة. (انظر: زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص104).

³ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص104.

⁴ المرجع نفسه، ص104.

⁵ المرجع نفسه، ص106.

قَوْمِهِ ﴿[الأنعام:83]﴾. ودليل الإثبات عقلا أنّ الحي لا يخلو عن السمع وضده، وعن البصر وضده، وضدّ السمع والبصر آفتان، والآفات تستحيل على ربنا سبحانه¹.

ويوضح الشيخ زروق عقيدة التنزيه لله تعالى، فيقول معلقا على قول الغزالي: "يرى من غير حدة وأجفان"، لأتّهما من صفات الحادثات وكيفيات الأجسام وهو متعال عن ذلك، "ويسمع من غير صمخة وآذان"، لأنّ الآلة للاستعانة، والجارحة من صفات الأجسام والقلب كذلك، وحاصل كلام المصنف-الإمام أبو حامد الغزالي- أنا ثبت له ما أثبت لنفسه، ونزّهه عما لا يليق به في غير ما أثبتناه، ثم نفوض في موضع يتعذر فيه التأويل إجماعا، ونتأول أو نفوض في غيره².

خامسا: صفة الحياة والقدرة: وذكر الحياة في هذا الموضع أولى؛ لأن الحياة هي الأصل في القدرة، إذ كانت شرطا في وجود القدرة؛ كغيرها من الصفات، إذ لا تصح نسبتها لميت، ولا جماد³. وقد قال زروق في هذا السياق: "قدرته مشروطة بالحياة، فلا يصح أن يكون قادرا من ليس بحي والحي غير القادر ناقص فقدرته دليل حياته وحياته شرط قدرته وكل منهما واجب لكماله"⁴.

وقدرة الله تعالى لا متناهية، وكل متعلقات الصفات لا تناهي لها؛ قال الغزالي: ولا تتناهي مقدوراته: لأنها، أي القدرة، غير متناهية ودليل عدم تناهي القدرة جواز وقوع أمثال ما وقع، فإن قيل يجوز أن يقطع الباري فعله ويبقى لا يفعل شيئا، قلت هذا محال لأن الجنة والنار باقيتان على الدوام إجماعا، ونعيم هذه وعذاب هذه متجدد أبدا، وهما من متعلقات القدرة⁵.

وقدرته تعالى لا يعترها قصور، يقول زروق مُعلقا على قول الغزالي: "لا يعتره قصور ولا عجز"، أي: لا ينزل به ولا يصيبه (قصور) أي وقوف عن إتمام مراده، (ولا عجز) يعني: عما يريد به بحيث لا يقدر عليه ولا يطيقه، بل إذا أراد شيئا كونه من غير تردد ولا توقف ولا احتياج لأسباب ولا معين،

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 106-107.

² المرجع نفسه، ص 107.

³ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 261.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 85.

⁵ المرجع نفسه، ص 93.

لكمال قدرته، وذلك خلاف وصف المحدثات، فإن القصور والعجز لازم لهم في جميع الأحوال¹. يعني: أنه سبحانه كامل في قدرته، إذ لا يلحقه شيء من النقص، ولا يجوز عليه؛ ولو جاز عجز قدرته عن شيء لجاز أن يكون عاجزا عن كل شيء، والعجز ينافي الإلهية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا﴾ [الكهف: 45]².

ولا يسعنا في ختام كلامنا المختصر في باب الصفات إلا أن نؤكد على منهج الشيخ زروق حيال كل ما يتعلق بالذات العلية، وهو منهج السلف، وفي ذلك يقول النووي: اعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين: أحدهما: وهو مذهب معظم السلف أو كلهم: أنه لا يتكلم في معناها، بل يقولون: يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وأنه منزّه عن التجسيم والانتقال والتحيز في جهة وعن سائر صفات المخلوق. وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين، وهو أسلم. والقول الثاني: وهو مذهب معظم المتكلمين: أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها، وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهلها بأن يكون عارفا بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع، ذا رياضة في العلم³.

3- توحيد الألوهية: وهذا القسم من التوحيد كما عرّفه العلماء، هو إفراد الله بالعبادة وهو معنى لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله، وفي ذلك يقول الشيخ زروق: "مما يجب نطقا واعتقادا على التلازم الإقرار له تعالى بالوحدانية من جميع جهات الوحدانية، وهو معنى قولنا لا إله إلا الله، فالله اسم لذات المعبود الحق، الغي عن العلة، والفاعل الموصوف بصفات الألوهية"⁴.

وفي معنى كلمة التوحيد يقول الشيخ زروق: "لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله، لأنه لا مستحق للإتصاف بالكمالات سواه، وإنما أتى بصيغة النفي والإثبات نفيا للإبهام ورفعاً للأوهام، وقد

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 86.

² طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 261.

³ زروق، أحمد: شرح أسماء الله الحسنى، تحق: السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 2007م، ص 7.

⁴ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 22.

أشار تعالى لذلك بقوله الكريم: ﴿وَالْهَكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ﴾ [البقرة: 163]، فأثبت الوجدانية ثم رفع الوهم بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾¹.

ومن المسائل المتعلقة بهذا الباب، نذكر ما يلي:

أولاً: الإيمان: قال الشيخ زروق: "الإيمان التصديق بالله ورسوله وبما جاء عن الله ورسوله"². وقد اختلف العلماء في مسألة: **هل القول شرط في الإيمان**، قال الشيخ زروق: "وقد اختلف في القول هل هو شرط فلا إيمان لمن لم يأتي به مطلقاً أو شطر فيعتبر ما لم يحصل مانع كاخترام المنية بعد العزم عليه أو عذر كالإكراه على تركه مع تحقق الإيمان بقلبه، وهذا هو الصحيح"³.

ومن المسائل التي اختلف فيها أيضاً، وكان للشيخ زروق رأي حسن فيها، **قضية العمل وهل هو شرط كمال أو شرط صحة**، يقول الشيخ زروق: "والعمل شرط كمال فقط... ولو سقط العمل مع ثبوت التصديق والإقرار فمذهب أهل الحق أنه مؤمن ويسمى فاسقاً"⁴، فالشيخ زروق يُرجّح أنّ العمل شرط كمال واجب؛ لأنه يرى تاركه فاسقاً.

ومن المسائل الشائكة أيضاً، ما يثار حول **مسألة الإيمان وزيادته ونقصانه**، وفي هذا يقول الشيخ زروق: "ثم زيادة الإيمان ونقصانه مختلف فيه على ثلاثة أقوال، ثالثها يزيد ولا ينقص، وكلها منقولة عن مالك، وفي شامل إمام الحرمين كل من أطلق الإيمان على فعل الطاعة زاد ونقص، وكان مالك يقول يزيد ولا يقول ينقص، ثم لما سأل ابن نافع عند موته قال قد أبرمتونا، وإذا تدبرت هذا الأمر فما شيء يزيد إلا وهو ينقص، قال ابن رشد وهو الصحيح"⁵. فالواضح من كلام الشيخ زروق -رحمه الله- ترجيحه أنّ الإيمان يزيد وينقص.

وينقل الشيخ زروق كلام جماعة من الأئمة أنّ التقليد كاف في العقائد، واحتجوا بقبوله عليه الصلاة والسلام إسلام أجلاف العرب ونحوهم، ولأنه كما يكفر المقلد في كفره، يصح إيمان المؤمن بتقليده. وقال

¹ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 22.

² زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 99.

³ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 60.

⁴ المرجع نفسه، ج 1، ص 60.

⁵ المرجع نفسه، ج 1، ص 60.

قوم بوجوب النظر، وأنه أول الواجبات، وهذا أكمل¹. ثم يذكر الشيخ التحقيق في المسألة، فيقول: والتحقيق إن كان آخذاً بقول الغير بغير حجة مع احتمال شك أو وهم فلا يكفي، وإن كان جزماً فيكفي². وقد ميّز زروق بين التقليد، والاقتداء، حيث يقول: "التقليد: أخذ القول من غير استناد لعلامة في القائل، ولا حجة في المقول، فهو مذموم مطلقاً، لاستهزاء صاحبه بدينه. والاقتداء: الاستناد في أخذ القول لديانة صاحبه وعلمه، وهذه رتبة أصحاب المذاهب مع أئمتها؛ فإطلاق التقليد عليها مجاز³.

ثانياً: الكفر: يقول الشيخ زروق وهو يستعرض قول الإمام الغزالي ويشرحه: فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو ضرر، إيمان أو كفر... إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيتته"، يعني:... والكفر التكذيب بالله ورسوله أو بما جاء عنهما أو ببعضه⁴.

ومن المسائل في هذا الباب أنه (لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة)، أي يعني ممن صلى إليها وهل بالفعل فيخرج تارك الصلاة أو باللزوم فلا يخرج وهما على القولين في تكفيره بتركها، والتكفير لأكثر مذهب المحدثين مع أقل الفقهاء وعدمه لأكثر الفقهاء مع أقل المحدثين، ولم يقع لأهل السنة تكفير بعمل سوى ما ذكر... واختلف في أهل الأهواء الذين يؤل قولهم إلى كفر كالتقديرية والجزيرية والمرجئة فقال سحنون بتكفيرهم... وقال مالك حين سئل أكفار هم، من الكفر هربوا... وقال الشيخ أبو بكر بن فورك الغلط في إدخال ألف كافر بشبهة إسلام خير من الغلط بإخراج مسلم واحد بشبهة كفر⁵.

وكذلك من أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو اتهم السيدة عائشة بالفاحشة فهو يكفر، يقول زروق عمّن ينكر بعثة النبي ﷺ: "فمن قال أنه لم يبعث فكافر، ومن قال ليس بأبي فكافر لأنه ثابت قرآناً... ومن قال ليس بقرشي فكافر أيضاً فمن قال أسود أو ليس الذي كان بمكة أو قال لم يكن في المدينة ولا توفي بها لأن هذا كله جحد له، وقد نص القاضي في الشفا على التكفير به⁶.

¹ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 204.

² المرجع نفسه، ص 204.

³ زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص 40.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 99.

⁵ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ص 62.

⁶ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 132.

وقال في حق من رمى أمنا عائشة: " لا خلاف في تكفير من رمى عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه لتكذيب القرآن"¹.

أما من كان له أصل الإيمان ووقع في بعض المعاصي فقد حكم عليه الشيخ زروق بالإيمان، فيقول -رحمه الله- بعد أن ذكر آراء أربعة طوائف من الخوارج والمرجئة والوعيدية والمعتزلة: "ومذهب أهل السنة أنه مؤمن حقيقة واسما وحكما، ما لم يكن مستحلا أو مستخفا بربه"².

وذكر الشيخ زروق أنّ من العصاة من المؤمنين من يدخل النار فيُعاقب على ذنوبه، ومنهم من يغفر له، فيقول -رحمه الله- وهو يشرح قول القبرواني: "ومن عاقبه بناره أخرجها منها بإيمانه فأدخله به جنته": يعني أنّ الأحاديث والآيات دالة على أنه لا بد لطائفة من الموحدين يعاقبون على ذنوبهم بدخول النار، خلافا للمرجئة وأنهم يخرجون منها بما شاء الله من شفاعة أو كرم بلا واسطة لإيمانهم حتى لا يبقى في جهنم إلا الكافرون خلافا للمعتزلة في التخليد بالذنب، وأنّ كل مؤمن من أهل الجنة طائعا كان أو عاصيا"³.

ثانيا: النبوات:

1- الملائكة: وهي أجسام نورانية، خلقهم الله معصومين لا يعصونه في شيء، قال الشيخ أحمد زروق: "و"ملك"، أي روحاني نوراني مخفوف بالعصمة"⁴، وقال كذلك: "والملك الملائكة وهم عباد الله المكرمون بطاعته لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وجمهور أهل الملل على أنهم أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، شأنهم الخير والعلم والقدرة على الأعمال الشاقة لا يوصفون بالأنوثة إجماعا ولا بالذكرورة على التحقيق"⁵.

والملائكة مكلفون بأعمال مختلفة طاعة لله، فيجب لهم التعظيم والاحترام، والتبجيل والإكرام، ما يليق بمنصبهم الكريم، على اختلاف رتبهم في الفضل، ومراتبهم في الوجود، إذ منهم رسل الله إلى

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص163.

² زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج1، ص49.

³ المرجع نفسه، ج1، ص49.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص121.

⁵ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج1، ص55.

أنبيائه، وموكلون بقبض الأرواح، وحفظه على العباد يكتبون أعمالهم، وخزنة النار والجنة، وحملة العرش، وفتانا القبر، وقائمون بمرافق الخلق، من تنزيل الأمطار، وتربية المعاش، وإيصال الأرزاق، وتصوير الأجنة في الأرحام، وقائمون بالتسبيح والتهليل، وغير ذلك من عبادة الله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: 19-20]¹.

وأما مسألة التفاضل بين الملائكة وبين بني آدم، فيقول الشيخ زروق: "والكلام في تفضيلهم، على التفضيل فيما بينهم، وأما تفضيلهم على بني آدم، فحزم أكثر الناس: أن الرسل أفضل منهم، واختلفوا فيما وراء ذلك، ورجح غير واحد، أن من غلب عقله شهوته فكالملائكة أو أفضل، ومن غلبت شهوته، فكالبهيمة أو أضل"².

2- الكتب: يقول الشيخ زروق، وهو يشرح قول الوغليسي: (والإيمان بكتب الله هو التصديق بكتب الله المنزلة على رسله)، يعني: أنها من الله، وأنها قديمة. إذ هي كلامه، ولا تقبل الانفصال والافتراق، بالانتقال إلى القلوب والأوراق، وفيها النسخ والمنسوخ، وغير ذلك من عوارض الكلام، التي لا تقتضي نقصا ولا حدوثا، ولم يتكلم السلف في التلاوة والمتلو، ولا في الاسم والمسمى، ولا في الوصف والموصوف، ونحو ذلك، فتعين على المبتدئين اتقاء ذلك³.

وتكلم الشيخ زروق عن صفات المرسل به، وهي الكتب، فقال رحمه الله: "والذي يجب للمرسل به ثلاث: صدقه وكماله وتحقق حكمه في أصله من قدم أو حدوث، والذي يستحيل عليه نقصه وكذبه وحدوث قديمه أو قدم حادثه، فالقرآن قديم وغيره حادث. والذي يجوز في حقه احتواؤه على أقسام الكلام الثلاثة الأمر والنهي والخبر، وعوارض الكلام من النسخ والتخصيص وغير ذلك مما هو مسطر في كتب الأصول وغيرها"⁴.

¹ طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 382-383.

² المرجع نفسه، ص 383.

³ المرجع نفسه، ص 383.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 133.

3- الرسل: يقول الشيخ زروق: "والرسول في اللغة السفير، قال الجوهري السفير المصلح وهو في الشرع إنسان أوحى إليه بشرع أمر بتبليغه، فإن لم يؤمر بتبليغه فبني قط"¹. وعن عدد الرسل فقد جاء أنهم "ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا على ما قال المحققون من أنه خبر آحاد لا يفيد العلم وقد أعل بالوقف، فنقر بجملتهم ولا نتعرض لعددهم ونعتقد أن أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ"².

وعن الفرق بين النبي والرسول، فإنَّ الرسول هو من أُمر بالتبليغ، فإن لم يُؤمر بالتبليغ فبني، وقيل النبيُّ والرسول بمعنى واحد ولا يصح، وقيل الرسول من جاء بشرع جديد أو كتاب جديد، والنبي من جاء مجدد الشريعة غيره كيوشع بن نون بلا خلاف استدل له بقول الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ [الحج: 52]، فقرنهما في الإرسال وفرَّق بينهما في المعنى... وفي الفرق بين النبي والرسول على وجه التحرير والدلالة كلام يطول"³.

والذي يجب للمُرسل ثلاث أمور: الصدق والأمانة وتبليغ الرسالة⁴، والذي يستحيل الكذب والخيانة وعدم تبليغ الرسالة⁵. وأما فيما يتعلق بما يجوز للرسول، فيقول زروق: "والذي يجوز في حقه ثلاث: الأغراض إلا الفاسدة⁶، والأعراض إلا القاذحة⁷، والأمراض إلا المنقصة"⁸.

وقد اختلف أهل العلم هل تكون الرسالة أو النبوة في النساء، فقد نُقل عن الأشعري قوله بجواز ذلك، ولكن الشيخ زروق يذهب إلى خلاف هذا، فيقول: "قال المحققون وليس فيهم أنثى لأنَّ النبوة تقتضي الاستشهار والأنوثة تقتضي الاستتار، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا

¹ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 40.

² المرجع نفسه، ج 1، ص 40.

³ انظر: المرجع نفسه، ج 1، ص 40-41.

⁴ وزاد بعضهم الفطانة، كما في الجوهرة وشروحها، وهي التفطن والتيقظ لإلزام الخصوم وإبطال دعاويهم، وقيل هي للرسول دون غيرهم، والصواب ما رجحه الباجوري من ثبوت الفطانة للأنبياء وكما لها للرسول. (انظر: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 133).

⁵ انظر: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 133.

⁶ كالأكل والجماع بما يحل من طعام ونساء، والفساد ما يحرم منها.

⁷ والأعراض غير القاذحة مثل السهو في غير ما أمروا بتبليغه إلا التشريع، وكذا النسيان فيما أمروا بتبليغه لا قبل تبليغه بل بعد تبليغه كما ذكره الباجوري في التحفة ص 139.

⁸ وما يمتنع منه هو ما كان فيه منقصة كالجنون وغير ذلك من الأمور المنفرة.

﴿[النحل:43]، ونُقل عن الأشعري خلافه؛ لحديث أربع نبيات أم موسى وأم عيسى وسارة امرأة إبراهيم وآسيا امرأة فرعون، وما نقل عن ابن حزم من أنهن سبع وتأوله الغزالي بأن قال إن ثبت فتأويله رفيفات القدر"¹.

ومَّا خصَّ الله به نبينا محمد ﷺ، أن جعل شريعته ناسخة لباقي الشرائع إلا ما قرَّره منها: يعني من أحكامها، فكل شرع قبله فممنسوخ بشريعته، وما قرر منها ثابت بها لا بالشرع المتقدم. وفيما لم يرد فيه تقرير ولا نفي من شرع من قبلنا: هل هو شرع لنا؟ اختلاف بين الأصوليين، ومذهب مالك إثباته. ولا نسخ في مقاصد الشريعة الذي هو طلب العبودية وإفرادها له تعالى واعتقاد ما يجب اعتقاده في حقه وحق رسله"².

وخصيصة أخرى لنبينا ﷺ بأن فضله على سائر الأنبياء، ويشرح سيدي زروق هذا المعنى فيقول: "يعني بحكم منه تعالى لا بعلّة تقتضي نقص غيره منهم، إذ ما من نبي إلا وأتى بما أمر به على التمام لم ينقص منه مثقال ذرة، والتفضيل بحكم من الله تعالى. ولذلك أشار ﷺ بقوله: "لا تخيروا بين الأنبياء"³ أي بالخصائص، لأن المزايا لا تقتضي التفضيل فهو لا يصح القدوم عليه إلا بسمع، وقد قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ﴾ [البقرة:253] وهو موسى عليه السلام، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ وهو محمد ﷺ على ما قيل ولو قال المصنف: وفضله على سائر المرسلين لكان أولى ليدخل الأنبياء بالأحرورية، والله أعلم"⁴.

والنبي ﷺ هو سيد البشر، يقول الشيخ زروق: "يعني من آدم فمن دونه إلى آخر موجود منهم، والسيد: من السؤدد أي الشرف الكامل، وقد قال ﷺ: أنا سيد ولد آدم ولا فخر"⁵ يعني: قلت ذلك

¹ انظر: زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج1، ص40.

² زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص135.

³ رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري: الألباني: صحيح سنن أبي داود، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1419هـ/1998م، كتاب السنة، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ج3، ص137. وقال حديث صحيح.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص135-136.

⁵ الحديث، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر". رواه ابن ماجه في صحيحه رقم 3496. (انظر: الألباني: صحيح سنن ابن ماجه، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1417هـ/1997م، باب ذكر الشفاعة، ج3، ص402، وقال الألباني حديث صحيح.

ائتمارا لا افتخارا، أي أنه أمر بتبليغ ذلك فبلغه على حسب ما أمر به لا لغرض من أغراض نفسه، وقد كان ص معلوما بالسيادة نسبا وطبعا وخلقا وأدبا إلى غير ذلك من المكارم قبل ظهوره بالنبوة، يعرف ذلك من اعتنى بالسير وتعرف أحواله من الصغر إلى الكبر صلوات الله عليه وسلامه¹.

ومن خصائص الرسول ﷺ وكرامته عند ربه أن قرن الشهادة به بالشهادة بالرسول ﷺ، يقول الشيخ زروق مُعلِّقا على قول الغزالي: (ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد): يعني مجردة، وهي قولك لا إله إلا الله، ما لم تقترن بها الشهادة بالرسول ﷺ، وهو قولك محمد رسول الله، فلا يكفي أحدهما عن الأخرى في الدخول في الإيمان².

ويجب الإيمان بمحمد ﷺ أنه بعث للناس كافة؛ وفي هذا يقول الشيخ زروق: "وأما كونه مبعوثا للكافة من العرب والعجم والإنس والجن فلقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:28]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الجن:1]، الآية. ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ آلِجَنِّ﴾ [الأحقاف:29]، وفي الصحيح: "أعطيتُ خمسا... وبُعِثْتُ للناس كافة.."³، فمن أنكر عموم دعوته ﷺ فهو كافر وإن أقر بنبوته، لأنه تكذيب له وهو مذهب جماعة من اليهود وغيرهم⁴.

وأعظم دليل جعله الله تصديقا لرسله هي المعجزة، قال الشيخ زروق: "وإنما تقوم الحجة بعد ثبوت صدقهم، وصدقهم إنما ظهر بجريان المعجزة على أيديهم"⁵. وأعظم معجزة للنبي ﷺ، هي القرآن الكريم؛ قال الشيخ زروق: "فجعله معجزا جملة وتفصيلا ﴿لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء:88]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 136.

² المرجع نفسه، ص 136.

³ حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "أعطيتُ خمسا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرة شهر، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدا وطهورا، وأُيِّمَ لي رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُجِلَّتْ لي الغنائم، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس كافة، وأعطيتُ الشفاعة". (البخاري: الصحيح الجامع، مرجع سابق، كتاب الصلاة، باب قول النبي جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، ص 118).

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 134.

⁵ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 41.

﴿البقرة: 23﴾¹، وقال زروق أيضا: "فالقرآن لنبينا ﷺ وهو معجزته العظمى، وآيته الكبرى لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه وقد تولى الله تعالى حفظه من التبديل والتغيير... فلا يقدر أحد أن يبدل من كلام الله حرفا كذا ذكره البخاري"².

ثالثا: السمعيات: السمعيات كلمة منسوبة إلى السمع من سمع يسمع سمعا، قال الخليل بن أحمد: «السمع: الأذن»³، وقال ابن منظور: «السمع: حس الأذن»⁴.

والسمعيات تُعرف أيضا باسم آخر وهو الغيبيات، والمقصود بها "كل ما لا سبيل إلى الإيمان به إلا عن طريق الخبر اليقيني"⁵ كما ذكر الدكتور محمد سعيد البوطي -رحمه الله- في كتابه كبرى اليقينيات الكونية⁶.

وقد قسّم إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (ت 478هـ) موضوع السّمعيّات إلى: إعادة الخلق، عذاب القبر وسؤال منكر ونكير، الجنة والنار والصرّاط والميزان، الشفاعة، الآجال والأرزاق، الإيمان ومعناه، وأحكام التوبة وشروطها⁷.

في حين ربط السلاجي (ت 564هـ) في "برهانيته" بين السمعيات والنبوات، مُبيّنا أنّ الإيمان بالرسول ومعجزاتهم، وإنباؤهم بالغيوب التي لا يتوصّل إليها إلا بالوحي، يُوجب الإيمان بكل ما جاء به ﷺ من: الحشر والنشر وعذاب القبر وسؤال الملكين والصرّاط والميزان والحوض وأنباء الآخرة جملة وتفصيلا⁸.

¹ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 43.

² زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 110.

³ الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقق: عبد الحميد هندأوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط 1، 1424هـ/2003م، ج 2، ص 275.

⁴ ابن منظور: لسان العرب، مرجع سابق، ج 8، ص 162.

⁵ أما المقصود بالغيب في القرآن، فكل ما كان غائبا عن الحواس، وعلى ذلك يدخل في الغيب هناك الإيمان بوجود الله تعالى والإيمان بالملائكة والجن. (انظر: البوطي: كبرى اليقينيّات الكونية، مرجع سابق، ص 301).

⁶ البوطي: كبرى اليقينيّات الكونية، مرجع سابق، ص 301.

⁷ انظر: الجويني، أبو المعالي: العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، تحقق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 1412هـ/1992م، ص 76-93.

⁸ السلاجي: العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية، مرجع سابق، ص 30.

وقد وضع ابن خمير السبتي (ت 614هـ) في "كتابه مقدمات المرشد إلى علم العقائد" مقدمة ذكر فيها السمعيات التي يجب الإيمان بها، ثم فصل الكلام في كيفية الموت، وسؤال القبر وعذابه ونعيمه، والحساب والإعادة والصحف والميزان، والحوض والشفاعة، والصراط والجنة والنار¹.

وستنجم الحديث في باب السمعيات اختصاراً في النقاط الأساسية التالية:

1- حياة البرزخ: وهي الحياة التي تكون بعد الموت في القبر وقبل الحشر، والقبر هو بداية هذه الحياة البرزخية، ويجب الإيمان أن الناس يفتنون في قبورهم، قال الشيخ زروق: "فتنة القبر بالسؤال عن الإيمان والتوحيد ونعيمه وعذابه للمستحق ثابت في الأحاديث الصحيحة، فلا وجه لإنكاره، خلافاً لمتأخري المعتزلة"². وقد ذهب الشيخ إلى أن الصبيان كذلك يسألون من طرف ملكان سماهما فتانا القبر منكر ونكير، قال الشيخ زروق: "ويُسأل الصبيان كغيرهم، وفي الترمذي فتانا القبر منكر ونكير، زاد في الحلية لأبي نعيم وناكور، وحكى الغزالي أن لأهل الطاعة مبشراً وبشيراً ومنكراً ونكيراً للعصاة"³.

وقد بيّن الشيخ زروق في مسألة العذاب والنعيم الذي يكون في القبر، هل يلحق الأرواح أم الأرواح والأجساد معان فقال: "وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون، وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين"⁴، وظاهر كلامه أن العذاب والنعيم هو للأرواح فقط، ولكنه في موضع آخر يصرح أن مذهب أهل الحق كون العذاب على الروح والجسد معاً، فيقول: "وكونه على الروح والجسم معاً هو مذهب أهل الحق"⁵. وما يُعَضَّد هذا القول، قول الغزالي: (يقعدان العبد في قبره سوياً ذا روح وجسد): يقول زروق: كما يكون في الدنيا، وهذا الذي قاله المصنف يدل عليه ظاهر الأحاديث،

¹ انظر: السبتي، ابن خمير: مقدمات المرشيد إلى علم العقائد، تحقق: جمال علال البخيتي، مطبعة الخليج العربي، المغرب، ط1، 1425هـ/2004م، ص322 وما بعدها.

² زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج1، ص65.

³ المرجع نفسه، ج1، ص65.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص141.

⁵ المرجع نفسه، ص141.

وقاله الحليمي وغيره، وقال إمام الحرمين في الإرشاد: المرضي عندنا أن السؤال يقع على أجزاء من القلب أو غيره يحويه الله تعالى، ونظر في ذلك بعض المتأخرين، فالأول أولى¹.

2- أشرط الساعة: تكلم الشيخ زروق عن الساعة، وأثما عبارة عن فراغ أيام الدنيا وانقراضها، وتُميت بذلك لقرب أمرها وسرعته، وقال بأن النبي ﷺ أخبر بقرها وذكر علاماتها الصغرى، وكذلك الكبرى كطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وفتح ردم يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج الدجال، فهذه خمسة مُتَّفَق عليها².

أما عن علامات الساعة الصغرى، فأخبر الشيخ زروق أنه عدَّ بعضهم علاماتها سبعين، وقد ظهر جُلُّها أو كُلُّها، فانظر ذلك ولا تعتمد فيه إلا ما صحَّ سنة أو قرآناً، وأنَّ المؤمن لا يعرف حد الدنيا متى ولكن يجزم بالقرب خاصة كما نقل عن القوري³.

3- مشاهد يوم القيامة: أهوال يوم القيامة عظيمة، ومشاهدها جسيمة، تذهل النفوس لهولها، وقد فصل القرآن الكريم مشاهدها وأهوالها في كثير من الآيات، للتحذير من مخالفة أحكام الله والدعوة إلى الالتزام بأمره وشريعته.

ومن مشاهدها النَّشْر، وهو خروج الناس من المقابر بعد إعادة الأجسام التي فُتيت، وهو أول منازل القيامة، يقول الشيخ زروق: "النشر يعني الخروج من المقابر بعد الحياة إلى المحشر، ﴿كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: 7]⁴.

ومن مشاهدها الحشر: ويعني جمع الكل في صعيد واحد، عراة حفاة غرلا، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر⁵. وقال الشيخ زروق: "حشر الأجساد حق ثابت لإخبار الصادق به مع ثبوت جوازه عقلا، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: 7]⁶.

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 138.

² زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 44.

³ انظر: المرجع نفسه، ج 1، ص 44.

⁴ شرح الوغليسية للشيخ زروق. انظر: طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 386.

⁵ المرجع نفسه، ص 386.

⁶ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 44.

ومن مشاهدتها **الحساب**: ويعني: على اختلاف مراتبه، من المناقشة، والتيسير، والعرض وغير ذلك، فمن الناس من يحاسب حسابا يسيرا، ومنهم من يناقش ويباحث، ومنهم من يجعل حسيب نفسه، ومنهم من يدنو من ربه فيقرره بذنوبه، ثم يقول: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. والحساب حق لله تعالى على عباده، وهو من مظاهر عدله سبحانه، فيجب الإيمان به، قال الشيخ زروق: "وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الخلق فيه"¹.

ومن مشاهد يوم القيامة **إعطاء الصحف للعباد**: وهي صحائف الأعمال التي أحصت كل شيء فعله العبد، وتعطى هذه الصحف قبل الميزان كما قال زروق: "يؤتون صحائفهم: يعطون كتبهم المكتوبة فيها أعمالهم قبل الوزن، ثم توزن صحائف الحسنات والسيئات ويحتمل أن تكون بعد الوزن"².

ومن مشاهدتها **الميزان**: ويعني ذا الكفتين واللسان على الصحيح، ولا يتعرض لتعددده وانفراده، ولا كلفيته، ولا كيفية الوزن فيه، إذ لم يصح في ذلك شيء من الشارع ﷺ³. ويجب الإيمان به، يقول زروق: "ويؤمن بالميزان: يعني يوزن الأعمال على الوجه المعتاد في العرف"⁴. وقد ذهب الشيخ زروق إلى أن وزن الأعمال مختص بالمؤمنين دون الكفار، قال رحمه الله: "وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: 105]، المراد به لا يوزن لهم شيء"⁵.

ومن مشاهدتها أيضا: **الصراط**: ويعني الجسر الممدود على متن جهنم، أرق من الشعر، واحد من السيف، كما في صحيح مسلم، يجوزه العباد بقدر أعمالهم، فمن سابق ولاحق، ومخردل ومكرس، نسأل الله العافية⁶. وقد اختلف أهل العلم في مرور الكفار عليه، قال الشيخ زروق: "أن العباد يجوزون الصراط، ظاهره العموم، الكافر والمؤمن ولا خلاف في المؤمن وإنما الخلاف في الكافر"⁷.

¹ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 151.

² زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 56.

³ طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 387.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 143.

⁵ المرجع نفسه، ص 146.

⁶ طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 387.

⁷ زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 58.

ومن مشاهدتها **الحوض**: ويعني حوض النبي محمد ﷺ ترده أمته، لا يظماً من شرب منه، ويزداد عنه من بدل وغير، وعرضه مسيرة شهر، عليه كيزان، كنجوم السماء، فيه ميزابان، يصبان من الجنة، ولا يتعرض لتقدمه على الصراط، أو تأخره عنه، إذ لا فائدة فيه ولا نص¹. ويظهر أن الشيخ زروق يتوقف في مسألة هل يكون الحوض قبل الصراط أو بعده، فقال أيضاً: "والحاصل أن ليس في المسألة قاطع يرجع إليه، فالواجب اعتقاد ثبوت الحوض والصراط والله أعلم بالمتقدم"².

والجنة النار: يعني: أنها لا بد لكل واحدة ملؤها على ربها، وأن كل من دخل الجنة لا يخرج، ومن دخل النار من المؤمنين بعصيانه لا يخلد فيها، بل يخرج بشفاعه، أو كرم بلا واسطة، ومذهب أهل الحق أنهما موجودتان، وفي فنائهما قولان، فينبغي أن لا يخاض في ذلك، وأن الجنة المذكورة هي التي كان فيها آدم، واهبط منها لتحقيق الخلافة في الأرض³.

ويتضح من خلال حديث الشيخ زروق التسليم في مسألة فناء النار من عدمه، ويوصي بعدم الخوض في ذلك لأنه مما لا يدخل تحته عمل، ولا ينفع صاحبه.

ومن أمور الآخرة، **الشفاعة**: يجب الإيمان بها وأنها ثابتة للأنبياء والعلماء والشهداء وغيرهم، قال زروق: "ويؤمن بشفاعة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين كل على حسب جاهه ومنزلته عند الله"⁴. وتعني: شفاعه محمد ﷺ، في إراحة الناس من الموقف، ثم شفاعته في أهل الكبائر من أمته، ثم شفاعته في نقل أبي طالب إلى ضحضاح من نار⁵.

ومشاهد يوم القيامة كثيرة، أخبر بها النبي ﷺ، وثبتت في سنته، كالرؤية في الجنة، وغير ذلك، **ورؤية الله تعالى** في الدنيا جائزة عقلاً، ممتنعة شرعاً، لقول النبي ﷺ في حديث الدجال: "إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت"، ولا يلزم من هذا عدم رؤيته عليه الصلاة

¹ انظر: طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 387.

² زروق، بن ناجي: شرح زروق الفاسي مع شرح بن ناجي التنوخي على متن الرسالة، مرجع سابق، ج 1، ص 59.

³ طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 387.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 155.

⁵ طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 387.

والسلام له تعالى؛ والحق لا قاطع فيها بنفي ولا ثبوت، فوجب التوقف، وفي كل ما لم يصح فيه شيء وإن ورد¹.

المطلب الثاني: المنهج العقدي للشيخ زروق من خلال شرحه لعقيدة الغزالي

لقد تأثر الشيخ أحمد زروق تأثراً كبيراً بالإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله، ولقد كان تطبيقاً واعياً وأميناً لمذهب الغزالي، "الذي حصر مدارك العقول في الحدّ والبرهان، واعتبر العلم بهما، مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها، فلا ثقة له بعلومه أصلاً"²، "ولعلّ من المؤلفات الزُّوقية، التي تُنبئ بالهمّ الشاغل، لدى الشيخ أحمد زروق، واهتمامه البالغ بالمشاريع الغزالية، شرحه لعقيدة الإمام الغزالي. لكنّه شرحٌ مطبوع بشروط الإبداع، التي ذكرها الفارابي، ومنضبط بقواعد التصنيف، التي وضعها علي بن ميمون"³. ويكفي للتدليل بتعلّق الشيخ زروق بمنهج الغزالي، أن نذكر بأنّه أكثر من الاستشهاد بأقواله في أول تأليف له: "تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنّظر المزيّد"، مُحيلاً على أكثر من تأليف له، وكان كثيراً ما يُنبّه إلى ضرورة الاهتمام بعقيدة الغزالي ودراستها، ويدلّ على ذلك قوله في مقدّمة الشّرح: "وإني رأيتُ النَّاس قد أطالوا في ذلك وقصّروا، وبسطوا واختصروا، فلم أر مثل عقيدة حُجّة الإسلام لِمَا احتوت عليه من التحريّ والاهتمام، وما تضمّنته من البيان والإمام، ودارت عليه من تمسّك واعتصام، فقصدتها بالكلام والتنبيه لذلك، والإرشاد والإفادة لما هنالك..."⁴. وكذلك "تبجيله وحبّه للغزالي جعله يُعيد شرح عقيدته، هذه العقيدة التي اختارها الغزالي بعد رحلة بحثٍ مُضنية، استقرّت به إلى اعتناق عقيدة أهل السنة والجماعة، والذي يُعتبر الأشعري أهمّ من مثّلها، ودافع عنها، ونظّم أفكارها"⁵.

¹ طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص388.

² انظر: الغزالي، أبو حامد: المستصفى من علم الأصول، تحق: حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة المنورة للطباعة، المملكة العربية السعودية، د.ت، ج1، ص30.

³ زهري، خالد: الفقه المالكي والكلام الأشعري، مرجع سابق، ص44.

⁴ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص78.

⁵ انظر: المرجع نفسه، ص85.

ولعلَّ اهتمام الشيخ أحمد زروق بهذه العقيدة وشرحها، نابغ من ذلك الاحترام والتبجيل الذي أبداه إمام طريقيته سيدي أبو الحسن الشاذلي -رحمه الله- ومن بعده خليفته الأجل سيدي أبو العباس المرسي للإمام الغزالي، فقد اشتهر عن الإمام الشاذلي كما نقله عنه غير واحد قوله رضي الله عنه: "من كانت به إلى الله حاجة فليتوسَّل إليه بالإمام الغزالي، واشتهر عن سيدي أبي العباس المرسي قوله: إِنَّا لنشهدُ له بالصدِّيقية العظمى، إِنَّه القطب الغوث الفرد الجامع"¹، فلا جرم أن كان اهتمام سيدي زروق بهذا الشرح، امتدادًا لهذا التقدير من الأئمة الأعلام لحجة الإسلام الغزالي، إذا علمنا أنَّ الشيخ أحمد زروق هو أيضا علمٌ من أعلام الشاذلية، وإليه ينتهي الكثير من أسانيدها².

لا شك أنَّ التطبيق الواعي لعقيدة الشيخ الغزالي، جعل الشيخ أحمد زروق يُرجع للتوحيد أصالته وبداهته - بعد الذي حلَّ به من أكدار وفساد - وهو ما يُعبِّر عنه بـ "طريق الجادة"، ويُعرِّفها بقوله: "وهي ما له أصل صحيح ومادة". والأصل الصحيح هو ما جاء به الكتاب والسنة من أصول التوحيد، و"المادة" هي الممارسة الأخلاقية التي تُعتبر لبَّ الإسلام عقيدة وشريعة. وفي هذا المقام، يجعل للتوحيد طريقًا عمليًا وأخلاقيًا، لاستيعاب مضامينه، وإدراك مقاصده، والوقوف على مراصده أجدى من الطريق البرهاني والاستدلالي، وهو طريق المداومة على الذكر بالعقائد. وفي هذا يقول أبو الحسن الشاذلي: "إِنَّا لننظرُ إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن إقامة الدليل والبرهان. ونستدلُّ به على الخلق، هل في الوجود شيء سوى الملك الحق، فلا نراهم، وإن كان ولا بُدَّ، فنراهم كالهباء، في الهواء، إن فتشتهم، لم تجدْهم شيئاً"³.

إنَّ للتصدي للعمل والاشتغال بكتب التراث الكلامي التي دبَّجتها أقلام العارفين وكبار المتكلمين مزية خاصة، إذ تحمل تقرير عقائد أهل السنة مؤيَّدة بحال هؤلاء الأكابر في ولايتهم وعرفانهم وسلوكهم. وقد اشتهرت عن الإمام أبي حامد الغزالي عقائد سنِّية ضمَّنها غير كتاب كمثل كتاب: "الاقتصاد في الاعتقاد" وكتاب: "إلجام العوام عن علم الكلام"، وهذه العقيدة التي تضمَّنها

¹ انظر: اليافعي المكي، عبد الله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1417هـ/1997م، ج3، ص249.

² زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص17-18.

³ انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص707-708.

كتابه الفدّ " إحياء علوم الدين"¹، وقد قام بشرحها بنفسه في "الرّسالة القدسية". واسم الكتاب "قواعد العقائد"²، يُطلق ويُقصد به المتن الذي وُضِعَ عليه الشيخ أحمد زروق شرحه، كما يُطلق ويُراد به قسم العقائد الوارد في ربع العبادات بعد كتاب العلم في كتاب "إحياء علوم الدين"، حيث قال: كتاب "قواعد العقائد" وفيه أربعة فصول، وهي:

الفصل الأول: في ترجمة عقيدة أهل السنة.

الفصل الثاني: في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد.

الفصل الثالث: في لوامع الأدلة للعقيدة التي ترجمناه بالقدس وتُسمّى الرسالة القدسية في قواعد العقائد.

الفصل الرابع: في الإيمان والإسلام³.

ويشتمل كتاب "قواعد العقائد" على مباحث العقيدة الثلاث من إلهيات ونبوات وسمعيات، وهي من المسائل التي يشتغل عليها الباحثون عن سلامة الاعتقاد، وخلوّه من الشُّبه والآراء الفاسدة، وحتى ينشأ النشء على تربية إسلامية بهذه العقيدة الشريفة. ويرى الشيخ أحمد زروق البرنسي الفاسي، أنّ الفصل الذي ورد في هذه الرّسالة، والذي تحدّث عن وجه التدريج إلى الإرشاد في ترتيب درجات الاعتقاد، من أهمّ ما ينبغي أن يُعرف بعد تحقيق الاعتقاد لأنّه مُنبّه على وجه كماله وطريق تكميله⁴.

وقد شرح الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- عقيدة الإمام الغزالي، من خلال الفصل الأول من كتاب "قواعد العقائد" للغزالي في كتاب الإحياء في: "ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام"؛ وله عليها-عقيدة الغزالي- شرحان، وهما:

¹ زروق الفاسي: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص8.

² اسم الكتاب كما هو وارد في كتاب مجموعة رسائل الإمام الغزالي: "قواعد العقائد في التوحيد". (انظر: الغزالي: مجموعة رسائل الإمام الغزالي، مرجع سابق، ج4، ص174).

³ الغزالي: إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج1، ص89-115.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص165.

الأول: تعليقة على عقيدة الغزالي: ألّفه الشيخ أحمد زروق بعد استقراره بليبيا سنة 887هـ، وهذا يعني أنّ الشيخ زروق أعاد تأليف/استنساخ مؤلّفه السّابق، أو حمل معه نسخة سنة 891هـ إلى المغرب؛ لما قدّم إليه من مصراتة على عَجَل؛ عندما علم بموت زوجته لالا الطاهرة أمّ ولده أحمد الأكبر¹. " وهذا الشرح (التعليقة)، مُوجّه لأهل البدايات من المريدين وطلبة العلم؛ لذا نجده يهتمّ بالشروح اللغوية والاصطلاحية، ويقف على معاني الألفاظ والتعابير"².

الثاني: اغتنام الفوائد بشرح قواعد العقائد: ولقد انتهى الشيخ أحمد زروق رحمه الله من تأليفه أوائل شهر رجب الفرد الحرام سنة 897هـ³. وأول ما يلفت الانتباه في شرحه "اغتنام الفوائد"، هي: * التوطئة: والتي حدّد فيها الشيخ أحمد زروق الهدف من الشّرح؛ وهو: "تصحيح العقيدة بالإيضاح والبيان؛ ثمّ تأييدها بالدليل والبرهان".

* **المصطلح:** لأنّ معرفته مُهمّة في كلّ علم. إذ به يقع الفهم والتفهم، وبه يتصوّر التعلّم والتعليم؛ وعليه فإنّ هذا العلم "يُلَقَّب بعلم أصول الدين تحقيقا، وبعلم التوحيد مجازا وتغليبا، وبعلم الكلام اصطلاحا".

* **المنهج:** حدّد فيه منهجه في تفسيره للعقيدة.

* **المصدر:** حيث نصّح كلّ من أراد الخوض في علم التوحيد أن ينتقي مصادره من تراث أئمة أهل السنة المتوفّرين على شروط منها: العلم، والعدالة، والمروءة.

* **الأهمية:** حيث نبّه في الفصل الثالث إلى أهمية علم التوحيد. معتبرا إياه علما كليا، وما عداه علوما جزئية؛ فهو: علم الكلام اصطلاحا، قيل؛ لأنّه كالمنطق عند الفلاسفة، وقيل لأنّه أول ما يتكلم به فيه في مسألة الكلام⁴.

وهذا الشرح-اغتنام الفوائد- مُوجّه لأهل النّهائيات المتمكّنين في علم التوحيد والعقيدة؛ لذا نجده:

¹ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 91.

² المرجع نفسه، ص 85.

³ المرجع نفسه، ص 41.

⁴ المرجع نفسه، ص 217.

- يفتتح الشرح بمقدمة ضافية وافية، قسّمها إلى عشرة فصول، تنزل منزلة القواعد والأصول، وتناول فيها الكلام عن المصطلح، والمنهج، والمصدر. وضمّنها آراءه في قواعد وأصول العقيدة.
- يصبُّ اهتمامه على القضايا الكبرى أو الأصول التي يطرحها المتن المشروح؛ من قبيل: التنزيه، الحياة، القدرة، العلم، الإرادة، الكلام، النبوة، الغيبيات. حيث يقوم بتحليل ومناقشة آراء المذاهب الكلامية، وآراء الشيوخ في هذه القضايا، مع الترجيح والإدلاء بآرائه في القضايا الخلافية، والتي لا تخرج عموماً عن آراء أعلام المدرسة الأشعرية.
- إنهاؤه الشرح بخاتمة تطرّق فيها إلى الكلام عن خمسة وعشرين مسألة، كان قد أثارها ضمن الشرح، تركّزت بالخصوص على مسائل الإيمان، والنبوة؛ وحيث أنّ هذه المسائل قد تضمّنت آراءه في المسائل العقدية المطروحة؛ فإنّه خصّص الخاتمة ليؤكد فيها على آرائه، ويبرزها بشكل أوضح، فتحدّث عن¹:
- **الإيمان**: والذي خصّص له اثني عشرة مسألة؛ وتطرّق فيها إلى الإيمان بين التقليد والنّظر، وتكفير مُنكر الرّسول، وزيادة الإيمان ونقصانه، وخلق الإيمان، وأنّه-أي الإيمان- اعتقاد وعمل، وأنّ الإيمان هو التّصديق بالكتاب، وحُكم مرتكب الكبائر والصغائر، وحُكم من مات من صبيان المؤمنين والكفار.
- **النبوة**: وأوردها في سبع مسائل، أكّد فيها على شروط النبوة، وما يجوز في حقّ النّبي، وما لا يجوز، وكوّن النبوة اصطفاً من الله وليست مكتسبة، وكذا مسألة عصمة الأنبياء.
- **في حين خاض في موضوعات شتى**: وجاءت في ستّ مسائل، تضمّنت الكلام عن الميعاد بالجسم والروح، والجنة، والنار، والنّصح بعدم الخوض في المسائل الكلامية. وأخيراً تطرّق إلى افتراق الأمة إلى فرق.
- وإن كان مُحقّق كتاب شرح عقيدة الغزالي للشيخ أحمد زروق، وهو الدكتور محمد عبد القادر نصّار، يقول: "أنّه وقع وهَمٌّ عند بعض الباحثين منهم: الأستاذ علي فهمي خشيم من اعتبار أنّ "اغتنام الفوائد" هو اسم آخر لشرح عقيدة الغزالي، والحقيقة أنّنا وجدنا الكتاب محفوظاً بالأزهرية تحت

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 85-86.

هذا العنوان وموقوفا على طلبة العلم بالأزهر من قِبَل العلامة شيخ الإسلام أحمد الدمنهوري رحمه الله (ت1192هـ)، وهو بالمكتبة الأزهرية محفوظ بهذا العنوان، ولما رأيناه أخذتنا الدهشة لوجود اختلاف بين الكتابين، وبعد التّحقيق تبَيَّن لنا أنَّه تعليق آخر لسيدي أحمد زروق على عقيدة الإمام الغزالي، وهو شرح قولات، على طريقة قال... قلت. والشارح لا يتتبع لفظ الماتن بل يستخلص منه ما يُريد، وهو شرح حسن التفريع والاختصار، بحيث يكاد يكون متنا آخر، ولكن بصورة تزيد على ما في قواعد العقائد طبعاً. كما أنَّه يخلو غالباً من الدليل ومن التوسّع في إيراد الأقوال والملمح الكلامية والصّوفية عن السلف... ولذلك فإنَّ "اغتنام الفوائد" ليس عنواناً لشرحه الكبير الذي استقرنا على تسميته "شرح عقيدة الإمام الغزالي"¹.

والخلاصة أنَّ المقصود بـ "قواعد العقائد" حين تُطلق هنا، هو المتن المسمّى في كتاب الإحياء ترجمة عقيدة أهل السنة، وأنَّ ما استحسّن سيدي أحمد زروق رحمه الله إلحاقه، إنّما هو تعليق² على الفصل الثاني في وجه التدرج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد من قواعد العقائد المذكور³. إذن فَـ "التعليق" و "اغتنام الفوائد"، هما شرحان لمتن واحد، أمّا:

– **الفصل الثاني: في وجه التدرج إلى الإرشاد، وترتيب درجات الاعتقاد؛** فقد اكتفى الشيخ أحمد زروق بشرح فقرات من هذا الفصل ضمن "التعليق"؛ لارتباطه الشّديد بالفصل الأول؛ ولأنَّه: "من أهمّ ما ينبغي أن يُعرف بعد تحقيق الاعتقاد"، اقتصر فيه على شرح ما رآه مُفيداً للأطفال في بداية تعلّمهم، وللمُريدين في بداية سلوكهم. مع تجنّب الأمور الكلامية التي لا تُفيد المتعلّمين المبتدئين؛ بل لا تزيدهم إلا تشبّتها لأفكارهم، وتشكيكا لمعتقداتهم.

¹ انظر: مقدمة المحقق عبد القادر نصار في كتاب: شرح عقيدة الإمام الغزالي للشيخ زروق، مرجع سابق، ص11-12.

² التعليق: يعني توضيح الفكرة، أو إضافة أفكار جديدة، أو رد على أفكار سابقة. هذا وإنَّ إطلاق الشيخ أحمد زروق على شرحه: تعليقة، فيه تواضع كبير منه- كما هو الشأن في جميع مؤلفاته-؛ وإلا فإنَّ شرحه جامع لكل عناصر الشروح الأكاديمية. (انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص89).

³ لمزيد من التفصيل انظر: كتاب: المهدي، محمد عقيل بن علي: قواعد العقائد في التوحيد للإمام حجة الإسلام الغزالي: دراسة نصية، مرجع سابق، ص11 وما بعدها.

- الفصل الثالث: من كتاب قواعد العقائد في لوازم الأدلة للعقيدة المترجمة بالقدس: وهي العقيدة التي يُكثّر الشيخ أحمد زروق الاستشهاد منها في شرحه " اغتنام الفوائد"، وفي شروحه على الحِكم العطائية بقوله: قال الغزالي في العقيدة القدسية.

- الفصل الرابع: في الإيمان والإسلام، وما بينهما من الاتصال والانفصال؛ ولقد استدلل الشيخ أحمد زروق في كتبه ببعض ما جاء في هذا الفصل¹.

هذا ويكتسب الشرح أهميته ومكانته من مكانة الشارح-الشيخ أحمد زروق الفاسي- التي كان يحتلها بين فقهاء وعلماء عصره؛ واعتُبر مصدراً أساسياً في عقيدة أهل السنة، ولذلك كان الإمام أبو عبد الله السنوسي-أستاذ أحمد زروق- في شرحه العقيدة الكبرى، كثيراً ما يستشهد ويستدل بكلام تلميذه في جزئيات دقيقة، ومن هذه الاستشهادات: ما جاء في شرح العقيدة الكبرى للسنوسي، عند قوله: إنّ علمه تعالى قدّم مُتعلّق بجميع المعلومات الموجودات والمعدومات الكليات والجزئيات... إلخ". وبعد كُتبي هذا رأيتُ كلام الشيخ زروق في شرح عقيدة الغزالي بعد أن ذكر كلام الحجاجية، حيث يقول:

علم الواحد القيوم***ليس كمثله سائر العلوم

لأنه ليس له بداية***ولا لمعلوماته نهاية

وعلمه لها على التفصيل***لا عن ضرورة ولا دليل²

وقال -أي الشيخ أحمد زروق- إنّهُ نَبّه بالبيت الأخير على من يقول: " يعلم الأشياء جملة وتفصيلاً؛ لأنّ ذلك لا يَصِحُّ؛ وإنّما يُقال: يعلمُها تفصيلاً؛ لمنافاة الجملة التفصيل؛ كما قال بعده:

والعلم بالشيء على التحميل***يلازم السهو على التفصيل

كالعلم بالأرض وبالسما***والسهو عن كيفية الأجزاء³

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 90.

² زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 94.

³ المرجع نفسه، ص 94.

ثم قال-أي الشيخ أحمد زروق-؛ وهذا نبّه عليه القاضي في الهداية، ونقله ابن خليل، وشنّع على القائلين بالجمع في التعبير؛ وهي مسألة معقولة؛ ولعلّ أشار إليها المؤلّف - يعني الإمام الغزالي - بقوله: "يعلّم ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء"¹.

وقد تقدّم أنّ للإمام أبي حامد الغزالي -رحمه الله- شرح لهذه العقيدة وهي المسماة بالرسالة القدسية² المتضمنة بالإحياء، فما الذي يدفع الشيخ أحمد زروق لإعادة شرحها؟ وإذا تمعنا في كلا الشرحين، ألفينا شرح الغزالي مختصراً، ويرمي إلى تقرير أدلة عقيدته إجمالاً، وبالقدر الذي يُفيد المسلم في سلوك طريق الآخرة، دون تعريض على قضايا هي من صميم الدرس الكلامي، بل هي من صميم العقيدة أحياناً، مثل: مسألة رؤية الله تعالى في الآخرة، التي لم يتعرّض لها الإمام الغزالي في الشرح. كما أنّ الإمام الغزالي في الرسالة القدسية لم يتتبع لفظها وإتّما جاء شرحه تعليقاً عاماً. أمّا شرح سيدي أحمد زروق فجاء مفصّلاً؛ تتبّع فيه الشارح لفظ المتن وأبان عنه وعمّا يتعلق به لفظاً لفظاً، وأفاد من تطوّر علم الكلام بعد الغزالي على يد الإمام الرازي والسعد التفتازاني وغيرهما من كبار المتكلمين، وزاده من فوائده ما زاده نفعاً، فمن ذلك مثلاً: نزعتُه لتعريف ألفاظ المتن والتفرقة بين الألفاظ المترادفة وأجناسها: فقال مثلاً مُعلّقاً على كلّ لفظ من قول الماتن: "فله الفضل والإحسان والنّعمة والامتنان": "فله الفضل في إيجادنا واختراعنا من العدم وإمدادنا بالنّعم وتخصيصنا بالكرم، إذ لا نستحقُّ شيئاً من ذلك عليه. والإحسان: أي الإنعام الذي لا سبب له ولا علّة، والنّعمة: بجميع أنواعها إيجاداً وإمداداً ودفعاً ونفعاً. والامتنان: وهو البداية بالتّوال قبل السؤال... كما حرص الشيخ أحمد زروق على أن يكون شرحه سياحة روحية كما هو مباحثة عقلية، حيث اعتمد كثيراً على كلام الأئمّة العارفين وما جاء فيها من مُلح للمتصوّفين، ومنها كلام الإمام القشيري فيما نقله في الرسالة عند كلامه على اعتقاد أئمّة الصوفية³.

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 79-80.

² يذهب الدكتور عبد الرحمن بدوي، وهو المهتم كثيراً بكتب ومؤلفات الغزالي، إلى أنّ الرسالة القدسية وقواعد العقائد، هما كتاب واحد! والحقيقة أنّ الرسالة القدسية هي فصل من فصول كتاب قواعد العقائد كما ذكر الغزالي في الإحياء.

³ انظر: زروق الفاسي: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 16-17.

وهذا من تجليات الإبداع لدى الشيخ أحمد زروق في هذا الشرح، وهو توجهٌ لدى فقهاء المغرب، من العمل على الجمع بين الكلام والتصوف، وإنزال علم الكلام من بُرجه النظري، ليتحوّل إلى سلوك عمليٍّ، ومجاهدة صوفيّة¹.

وأمر المداخله بين التوحيد والتصوف أمرٌ مُلاحظ عند الشيخ أحمد زروق، حتى صار أحدهما من صميم الآخر، فقد قسّم موارد التجلي إلى ثلاثة أقسام، وخاصّة القسم الثاني، ألا وهو: "وجود الإطلاق في عين التقييد، وإلزام الحقيقة بلوازم التوحيد". ومذهب الشيخ أحمد زروق في العقائد؛ خاصة ما يتعلق بـ"الصفات الخبرية"؛ مطبوعٌ بالإطلاق، فلا تكييف، ولا تعطيل، ولا تمثيل، ولا تأويل (الإطلاق). وأهم وسيلة لديه لتمثّل التوحيد، هي مداومة الذكر بها، حتى تُشرب في القلب، وتتقيّد بها الجوارح (التقييد)، ممّا يجعل صدق التجربة الصوفية (الحقيقة) رهين بتمثّل عقيدة التوحيد، علما وعملا².

لقد نجح أحمد زروق رحمه الله في الدّود عن العقيدة الأشعرية من خلال الإمام الغزالي ومنهجه، كما تدلّ على ذلك أمور، منها:

- أنّه وظّف المنطق كأهم وسيلة من وسائل تحقيق هذا الغرض³.
- أنّه تبنّى كآبي حامد الغزالي؛ طريقة النظر والتأويل⁴، بل الإغراق في التأويل- وإن كانت ليست على إطلاقها-، إلى حدّ الكشف عن الخواص، بطريقة علم الأوفاق⁵، حيث صنّف فيه مُصنّفات، منها شرحه على "القصيدة الدميائية"، الموسوم بـ"المواهب السنية في خواص نظم أسماء الله الحسنى"⁶.

¹ زهري: الفقه المالكي والكلام الأشعري، مرجع سابق، ص 44.

² انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 706-707.

³ لقد تكلم الأستاذ زهري في كتابه "من علم الكلام إلى فقه الكلام" في الفصل الثالث: الدليل والتأويل، قراءة في الاستدلال الحجاجي والبرهاني للتصوف عند زروق، تكلم فيه بإسهاب عن التوسل بالمنطق في التأليف عند الشيخ زروق. (انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 667).

⁴ وهي طريقة جمهور الأشاعرة.

⁵ يقال أنّ أبا حامد الغزالي، هو أول من ألف في علم الأوفاق. وعلم الأوفاق هو علم الحروف والأسماء، قال الشيخ داود الأنطاكي هو: علم باحث عن خواص الحروف أفرادا وتركيبا وموضوعه الحروف المحاجية ومادته الأوفاق والتراكيب. وصورته تقسيمها كما وكيفا وتأليف الأقسام والعزائم وما ينتج منها وفاعله المتصرف وغايته التصرف على وجه يحصل به المطلوب إيقاعا وانتزاعا ومرتبته بعد الروحانيات والفلك والنجامة. (انظر: القنوجي، صديق بن حسن خان: أبعاد العلوم، تحق: عبد الجبار زكار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق- دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1978م، ج2، ص236).

⁶ انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 705.

والأمر الذي دفع الشيخ أحمد زروق أن يختار الفصل الأول من كتاب "قواعد العقائد" في التوحيد للغزالي بالشرح، هو ما يمكن إجماله في النقاط التالية¹:

- لأن الغزالي اقتفى أثر أهل السنة في تأليف كتابه، وتنكّب عن منهج المتكلمين، خصوصاً وأنّه ينصح بالابتعاد عن نهج المتكلمين في تلقين العقيدة بالنسبة للأطفال والمبتدئين.

- لأنّ التوجّه التعليمي الذي انتهجه الإمام الغزالي في علاجه لقضايا العقيدة - من سهولة الفاظ، وتبعد عن الخوض في الأمور الكلامية - ينسجم مع التوجّه التعليمي للشيخ أحمد زروق، الذي كان يرى بأنّ أول ما ينبغي للمريد أن يتعلّمه هو العقيدة لأنّها: "أول شيء يثبت فيه الصبي والمريد وترجى عمارته به، فيقدّم له مثل هذه العقيدة تجديداً لإيمانه إن كان سالم الاعتقاد وعارفا بما يلزم من العقائد جملة؛ وإلا فهي واجبة عليه لتصحيح معتقده"، ولأنّ "المريد في أول إقباله كالصبي في أول نشأته في أنّه قابلٌ للتشكيل، وقلبه خليّ عن الأشغال والأدغال، وباطنه كالشمع؛ يقبل كل ما يُنقش عليه"².

والشيخ أحمد زروق عليه رحمة الله، دائماً ما يتّبع في شروحه منهج التبسيط للمفاهيم والتدرّج في تقديم الأفكار والفوائد، مراعاة لمستوى مخاطبيه، عكس بعض المعلّمين في عصره الذين كانوا يجهلون طرق التعليم؛ فيحضرون للمُتعلّم في أوّل تعليمه المسائل المقفلة في العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلّها، ويحسّبون ذلك مراناً على التعلّم؛ لذلك فإنّ منهج الشيخ أحمد زروق التعليمي، يتجلّى فيما نصّ عليه في كثير من شروحه: من ذلك، قوله في مقدّمة شرحه على المقدّمة القرطبية: "...؛ وقد رأيتُ كثيراً منهم يحفظون المقدمة القرطبية من غير أن يعرفوا لها معنى، ولا وجوها خفية، ولا جليّة؛ فظهر لي أن أضع عليها تقييداً³ مفيداً إن شاء الله تعالى، وأذكر فيه ما يكفي المرء في شأنه بفضل الله ورحمته..."⁴.

وفي شرحه على المقدمة الوغليسية نجده يقول: "...؛ فهذا إن شاء الله مختصرٌ على المقدمة الوغليسية، نذكر فيه ما تيسّر من معانيها، ومناحيها التقديسية. حسب الوُسع والتيسير، وقدر ما انتهى

¹ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 91.

² انظر: زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص 165-166.

³ التقييد: قراءة للنصّ المشروح من وجهة نظر الشارح، وذلك بتوجيه مشكلاته، وغوامض كلماته. (انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 88).

⁴ زروق البرنسي: شرح المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي، تحقق: أحسن زقور، دار التراث ناشرون، الجزائر، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط 1، 2005م، ص 94.

إليه فهمي القاصر، وعلمي القصير. ملتزما ما يحتاج إليه الفقير الناصح، وعاملا على ما لا بد منه من الأمر الواضح¹.

وفي مقدمة شرحه على عقيدة الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله، يقول: "...؛ فهذه — إن شاء الله — تعلية على عقيدة الشيخ الإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي... أذكر فيها ما حضرني من برهان قاطع، أو دليل ساطع، وأنبّه على ما تيسّر [لي] من المعاني، وأشير لبعض القواعد والمباني، ملتزما البيان والتحقيق، ومجانبا التوسّع والتدقيق..."².

وفي مقدمة كتاب "اغتنام الفوائد"، يقول رحمه الله: "أما بعد؛ فتصحيح العقيدة³ بالإيضاح والبيان، ثم تأييدها بالدليل والبرهان، من أعظم مقاصد الإيمان، وأكبر مفاتيح اليقين والعرفان، ومقاليد الفوز بالجنة والنجاة من النيران"⁴.

ويمكن إجمال منهج الشيخ أحمد زروق رحمه الله في شروحه، من خلال ما يلي:

- شرح الغامض من الكلمات، والألفاظ، والتراكيب (عن طريق الرجوع للأصل اللغوي، أو الإتيان بالمترادف، أو الاشتقاق، أو الوزن الصرفي...).
- توضيح المعاني والأفكار، وتبسيطها، وتوجيه المتعلم/المريد للمعنى المقصود في النص المشروع.
- تحديد معاني المفاهيم والمصطلحات الصوفية عن طريق ربطها بالسياق.
- تقريب العقيدة إلى مريديه وأتباعه بأسلوب ميسر، وطرق مختلفة (الحوار، النقاش، التحليل، الاستقراء، الاستنتاج)؛ وهي أساليب وطرق المدرسة التقليدية في التربية الإسلامية.

¹ مخطوط: زروق الفاسي البرنسي: شرح العقيدة الوغليسية، ج1، ص1. وانظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص81.

² زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص31.

³ قال الشيخ أحمد زروق: مرجع كل عقيدة إلى ثلاث:

— أولها: إثبات الذات الكريمة كما يليق بها من كمال التنزيه ونفي التشبيه والرجوع لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

— والثاني: العلم بأسمائه تعالى وصفاته وما يرجع إليها من إجلال وتعظيم وتنزيه.

— والثالث: العلم بأفعاله الواقعة والمتوقعة والجائزة نفيًا وإثباتًا. (انظر: زروق: شرح الرسالة، مرجع سابق، ج1، ص38).

⁴ زروق: اغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد للإمام أبي حامد الغزالي، عناية: نزار حمادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، دار الضياء للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 2015م، ص25.

- إزالة ما علق بالعقيدة من شوائب وآراء المذاهب الكلامية.
- ترسيخ وتثبيت المعتقد الصحيح في أذهان، ووجدان الطلبة/المريدين بأدلة من الكتاب والسنة، وأقوال الأئمة¹.

المطلب الثالث: المنهج العقدي للشيخ زروق من خلال شرحه المُرشدة

المُرشدة هي من تأليف محمد بن عبد الله بن تومرت (ت524هـ/1129م)، مؤسس الدولة الموحّدية، وهو الذي قام بترسيم المذهب الأشعري بالمغرب، وكان قبل ذلك قد " ارتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة"²، و" لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية، والذبّ عنها بالحجج العقلية... وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث"³، وبعد رجوعه إلى المغرب أخذ في نشر العقيدة الأشعرية على طريقة أهل التأويل، حيث حَمَلَ المغاربة "على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد"⁴، " فأهل المغرب لم يَكُونُوا قبل رجوع مهدي الموحدين من المشرق يعتنقون مذهب الأشعري في العقيدة، وإن يكن بعض علمائهم حصل لهم علم بهذا المذهب"⁵، حيث أنّ السُلطة الحاكمة في ذلك العهد كانت ترفض الخوض في علم الكلام، وكانوا يبالغون في إمرار النصوص على ظاهرها ممّا أوقع الناس في التّجسيم، وكانوا رافضين-على الأقل على المستوى الرسمي- لكلّ تأويل أو استدلال عقلي على حقائق العقيدة"⁶.

مما سبق يتبين قصد ابن تومرت في تغيير تصوّر المغاربة في العقيدة، لكي " تتحوّل من تصوّرات يشوّبها التّجسيم إلى تصوّرات تقوم على التّوحيد المطلق، الموجب لتنزيه الخالق عن كلّ شبه

¹ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص80-81.

² ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، 1421هـ/2000م، ج6، ص301-302.

³ المصدر نفسه، ج6، ص302.

⁴ المصدر نفسه، ج6، ص302.

⁵ النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه، مرجع سابق، ص430.

⁶ النجار، عبد المجيد: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - فيرجينيا، ط2، 1415هـ/1995م، ص52.

بالمخلوقات"¹، فقد "كان شُغْلُهُ الشَّاعِلُ أَنْ يُقَرِّبَ العقيدة القائمة على أساس من التنزيه والتأويل إلى أفهام العامة وأن يجعلها قوام تصوُّرهم العقدي، وهو ما كان يُنفِق فيه شطراً كبيراً من جُهدِه التربوي، وألَّف فيه عدّة رسائل أهمُّها المرشدة، ليُقيم التوحيد في الأذهان مقام التشبيه والتجسيم"².

وكان ابن تومرت قد "بنى رابطة للعبادة اجتمعت إليه الطلبة والقبائل يُعلِّمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري"³، وقد ذكر فيها عقيدة أهل السنة والجماعة مختصرة جامعة، مُوضِّحة لعقيدة الأشاعرة والماتريدية. وقد اهتم بتدريسها الإمام فخر الدين بن عساكر (ت620هـ)⁴، وأثنى عليها الحافظ صلاح الدين العلائي (ت761هـ)⁵. وقد سمّاها (العقيدة المرشدة) وقال: "وهذه العقيدة المرشدة جرى قائلها على المنهاج القويم، والعقد المستقيم، وأصاب فيما نَزَّه به العلي العظيم"، نقل ذلك الإمام تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ووافقه في تسميتها بالعقيدة المرشدة وساقها بكاملها، وقال في آخرها ما نصُّه: "هذا آخر العقيدة، وليس فيها ما يُنكِرُهُ سُنِّي"، وجعلها في سياق واحد مع عقيدة له من إنشائه، وعقيدة لأحمد بن محمد الطحاوي (ت321هـ). وعقيدة لعبد الكريم بن هوازن القشيري (ت465هـ)⁶، وقال إنها: "

¹ النجار، المهدي بن تومرت حياته وآراؤه، مرجع سابق، ص351.

² المرجع نفسه، ص359.

³ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مرجع سابق، ج6، ص303. وانظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، مرجع سابق، ص177.

⁴ أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي الملقب فخر الدين المعروف بابن عساكر الفقيه الشافعي؛ كان إمام وقته في علمه ودينه، تفقه على الشيخ قطب الدين أبي المعالي مسعود النيسابوري، وصحبه زماناً وانتفع بصحبته وتزوج ابنته ثم استقل بنفسه ودرّس بالقدس زماناً وبدمشق، وتخرج عليه خلق كثير وصاروا أئمة وفضلاء. وكان مسدداً في الفتاوى، وهو ابن أخي الحافظ أبي القاسم علي بن عساكر صاحب "تاريخ دمشق". وكانت ولادته سنة خمسين وخمسائة، ظناً، وكتب بخطه أن مولده سنة خمسين وخمسائة. وتوفي في العاشر من رجب يوم الأربعاء سنة عشرين وستمائة بدمشق، رحمه الله تعالى. (انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، مرجع سابق، ج3، ص135).

⁵ أبو سعيد العلائي، صلاح الدين، خليل بن كيكليدي بن عبد الله العلائي الدمشقي الشافعي الأشعري. مفسر ومحدث وفقه ونحوي وأديب ومؤرخ. ولد سنة 694هـ في دمشق وتعلم فيها، ورحل رحلة طويلة. ثم أقام في القدس زماناً وعمل مدرساً في الصلاحية سنة 731هـ، وتوفي في القدس سنة 761هـ. ودفن بمقبرة باب الرحمة. (انظر: الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج2، ص321).

⁶ عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة أبو القاسم القشيري، الخراساني، النيسابوري، الشافعي، كان رأساً في علم التصوف، وكان مع ذلك من العلماء في الأصول والفقه والحديث وغيره. أخذ عن أبي علي الدقاق التصوف وتزوج ابنته، وعن أبي بكر بن فورك الأصول، واختلف إلى أبي اسحاق الاسفراييني، وكان له اطلاع في كتب القاضي الباقلاني. كان متحققاً في علم الكلام ومفسراً. حج مع الجويني والحافظ أبي بكر البيهقي. من مؤلفاته: الرسالة القشيرية، لطائف الإشارات. توفي سنة 465هـ. (انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج18، ص227).

مشتركات في أصول أهل السنة والجماعة"¹. وقال: وعلى هذه العقيدة سار الشيخ عبد الله الهري المعروف بالحبشي في جميع مؤلفاته في العقيدة².

والمرشدة³ هي إحدى الكتب العقديّة الأساسيّة - إن لم نُقل الوحيدة - في العهد الموحّدي، وضعها مؤسس دولة الموحّدين محمد بن تومرت بعد نزوله بين قومه إثر رحلته إلى المشرق، لتكون مصدرًا ومرجعًا لهذه الدولة التي تأسست على أنقاض دولة المرابطين. وقد ضمّنها ابن تومرت مُعتقدات الأشاعرة، وأوردَ فيها مسائل متعلّقة بالإيمان بالله تعالى ذاتا وصفاتا، دون أن يتعرّض فيها لشيء من السّمعيّات⁴، أو شيء مما يتعلّق بمُعتقدات الشيعة، وخاصّة في مسألة الإمامة. وهي - أي المرشدة - لا تتعدّى في مضمونها الصّفحتين، ولكن جاءت مُحرّرة تحريرًا بليغا، ومُرتّبة بالترتيب التالي: وحدانية الله - خالقيتُه المطلقة - خضوعُ الخلائق له - أزليّة وجوده - تنزيهه عن المكان والزمان - تنزيهه عن الشّبيه والمثيل - قيوميّته - علمه المحيط بكلّ شيء - قدرته - إرادته - استغناؤه وعزّته - بقاءه - مشيئته المطلقة وعدله وفضله - سمعه وبصره. مع ملاحظة أن بعض المسائل وقع تكرارها أكثر من مرة⁵.

¹ السبكي تاج الدين، عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النقم، تحق: محمد علي النجار، أبو زيد شلبي، محمد أبو العيون، مطبعة دار الكتاب العربي، مصر، ط1، 1948م، ص75.

² القاضي، سمير: مرشد الحائر في حل ألفاظ رسالة ابن عساكر، دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 1999م، مقدمة الشارح: ص4-6. (ولكنّ الظاهر أنّ المؤلف وهم في نسبة هذه العقيدة إلى ابن عساكر، والحق أنّها لابن تومرت، فقد أوردتها كاملة الإمام البرزلي المالكي في نوازل المطبوعة وقال (366/6): أنه تواترت عن ابن تومرت).

³ سُمّيت بالمرشدة لأنّ صاحبها افتتحها بقوله: "اعلم أرشدنا الله وإياك؛" فصارت علما عليها. ويبدو أنّها عُرفت بهذا الاسم في عهد متأخّر عن عهد المهدي وعبد المؤمن. (النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، مرجع سابق، ص448).

⁴ إنّ كتب العقيدة تتكون من أربعة مباحث، وهي: الطبيعيات، والإلهيات، والنبوات، والسمعيّات، ومن العقائد التي راعت هذا التقسيم، مثل: العقيدة البرهانية للسلاجي، ومن المتكلمين من استغنى عن المبحث الأول لقلة جدواه لدى المبتدئين، مثل العقيدة الصغرى للسنوسي والموسومة بأسماء البراهين، وبعضهم اقتصر على مبحث الإلهيات، كما هو حال المرشدة لابن تومرت. (انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص564).

⁵ انظر: النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، مرجع سابق، ص448.

وقد عَمِلَتِ السُّلْطَةُ الموحَّدية بعد ابن تومرت، من خلال عبد المؤمن بن علي الموحَّدي، على توحيد النَّاس على هذه العقيدة؛ وذلك من أجل الحِفاظ على الهويَّة العقديَّة للدولة، فألزمت العامة والخاصَّة بها، وجعلت تعلُّمها أمراً لازماً على جميع النَّاس، ولتحقيق ذلك قام عبد المؤمن بجمع تعاليم ابن تومرت ووضعها في كتاب سمَّاه: "أعزَّ ما يطلب"، وأصدر مرسوماً يلزم النَّاس بها، وهذا في قوله: "... ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغريِّ ويتكلَّمون به أن يقرؤوا التَّوحيد بذلك اللسان من أوَّلِه إلى آخر القول في المعجزات، ويحفظوه، ويفصِّوه، ويلزموا قراءته، ويتعهَّدوه، ويؤمِّر طلبه الحضر ومن في معانهم بقراءة العقائد وحفظها، وتعاهدوا على سبيل التفهيم والتبيين والتنبه والتبصُّر. ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أوَّلها: "اعلم أرشدنا الله وإياك" وحفظها وتفهمها. وأشمل في هذا الإلزام الرِّجال والنِّساء والأحرار والعبيد، وكلَّ من توجَّه عليه التكليف؛ إذ لا يصحُّ لهم عمل، ولا يقبل منهم قولٌ دون معرفة التوحيد؛ فمن لا يعرف المرسل لم يصدِّق بالمرسل ولا بالرسالة، ومن حصَّل على مثل هذه الحالة؛ فقد تعرَّش في أذيال الضلالة"¹.

بل إنَّ الأمر وصل في التشديد عليها والإلزام بها حدَّ إراقة دم من لم يُحصِّل هذه العقيدة، واستنكف عنها ولم يُبادر إلى تعلُّمها، ويُلقَى عنه أثواب الجهالة بها؛ وهذا في القول التالي: "فإن لم يبادر إلى التخلُّص منها-أي من حالة الجهل بهذه العقيدة- والانفصال بالعلم عنها، فقد وجب عليه حُكْم الكتاب ولا عَنَت في إراقة دمه لا محالة"².

وهذا لعمري هو عين التعصُّب ومنافاة العدل، والجور في الحُكم على الناس في أمر وضعي من ترتيب بشر قد يخطئ فيه ويصيب، فكيف يصل الحدَّ بهم إلى إراقة واستباحة دم مسلم حرام!! ولقد كانت "المرشدة" تُمثِّل في العهد الموحَّدي محوراً دراسياً أساسياً في مختلف المراكز العلميَّة بالمغرب، حيثُ كانت تُدرَّس بفاس، ويتناقَّلها العلماء والطُّلبة بالرواية، وكانت دراستُها شائعة على

¹ فروقانصال، إ.لائي: مجموع رسائل موحدية، رباط الفتح المطبعة الاقتصادية لصاحبها مصطفى بن عبد الله، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الجزء العاشر، الرباط، 1941م، ص132.

² انظر: فروقانصال: مجموع رسائل موحدية، مرجع سابق، ص132.

الخصوص بين الصُوفية، ويتناولونها بالشرح، ولا بن عباد التلمساني (ت792هـ)¹ شرح عليها وبجدة صوفية، سمّاه: "الدرة المشيدة في شرح المرشدة"، يقول في مُفْتَتِحِهِ: "... وبعدُ فالمراد من هذا الكلام شرح العقيدة المسماة بالمرشدة، وهي وإن كانت سهلة العبارة واضحة الإشارة، تحتاج إلى إيضاح وبيان وزيادة فوائد حسان"، وقال عنها: "وقد رويتُ هذه العقيدة عن الشيخ العالم المفتي سيدي أبي علي المسيلي² بمدينة فاس، ورويها أيضا عن الشيخ الزاهد الورع الأعرف سيدي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الصنهاجي رحمة الله عليه"³، كما شرحها الإمام السنوسي⁴، وهذا بطلب من بعض أهل تلمسان كما يفيد قوله: "... وبعدُ، كسانا الله وإياك لباس التقوى، وزحزحنا بمنه عن نار الشهوات والهوى، فإنك سألتني أن أقيد لك على كلام أبي عبد الله محمد المهدي رحمه الله ونفع به في المرشدة، ما يحلو سماعه ويروق دليله ونصوعه، فأجبت إلى ذلك مستعينا بالله..."⁵.

والملاحظ أنَّ انتشار "المرشدة" والعناية بها شرحا وتدريسا، وخاصة بالمغرب، كان أكثر بُروزا في الأوساط الصُوفية، فقد كانت بينهم جارية بالحفظ على ألسنتهم، وهو ما ذكره على وجه التّصريح كلُّ من: ابن النقاش والشيباني، حيث يقول الأول: "... بادَرَ إلى حفظها [المرشدة] وقراءتها جماعة من

¹ محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفري الحميري الرندي، أبو عبد الله، المعروف بابن عباد، متصوف باحث، من أهل "رندة" بالأندلس. تنقل بين فارس وتلمسان ومراكش وسلا وطنجة، واستقر خطيبا للقرويين بفاس مدة طويلة، ولقب بالتلمساني لقضائه مدة بتلمسان قبل مجيئه فاس، له كتب منها "غيث المواهب العلية بشرح الحكم والعطاءية" ويُعرف بشرح النفري على متن السكندري. (انظر: الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج5، ص299).

² المحقق المتقن المجتهد، الفقيه القاضي أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي، كان يسمى أبا حامد الصغير، جمع بين العلم والعمل والورع، وبين علمي الظاهر والباطن، ولي قضاء بجاية، من كتبه: التفكير فيما يشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات، دفن بباب امسيون سنة 580هـ. (انظر: الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، مرجع سابق، ص33 وما بعدها).

³ انظر: النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، مرجع سابق، ص451. نقلا عن مخطوط الدرة المشيدة لابن عباد: 4ظ، 3و.

⁴ هذا ولم يُكْمَل السُّنُوسي هذا الشرح، كما ورد عند النجار في كتابه المهدي حياته وآراؤه، وإنّما أتمه بعض أصحابه، ولعلّه المسمّى أبو زكريا يحيى بن الشيخ أبي حفص عمر ابن أبي بكر المشهور بالتنسي ثم الهنيئي. (انظر: النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، مرجع سابق، ص452-453).

⁵ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص324.

الفقراء والعلماء الأخيار..."، ويقول الثاني: "رأيتُ العقيدة المعروفة بالمرشدة المنسوبة إلى الإمام المهدي رحمه الله، كثيرا ما يستعملها أهل الفضل من الصُّوفية ويقرؤونها من جهة التبرك في أذكارهم". كما أنَّ الكثير من شُرَّاحها كانوا من كبار المتصوِّفة مثل: ابن عباد والسنوسي وزروق وابن النقاش والخرائط، وإن كانت شروحهم تختلف فيها النزعة الصُّوفية ظهورا وخفاء¹.

يقول عبد الله كنون، بعد عرض مؤلفات المهدي بن تومرت وتخصيص الحديث عن "المرشدة"، قائلاً: "عقيدة المرشدة التي لقيت رواجاً كبيراً في حياته وبعد مماته، وتلقاها أئمة العلم بالقبول، وحكموا عليه من خلالها بسلامة العقيدة وصحة المذهب. ولا نشكُّ أنَّها كانت من أول ما أُملي من تأليفه، ولقَّن أصحابه من العقيدة على مذهب الإمام الأشعري، لأنَّها بمثابة المقدمة في هذا الصدد من حيث الاختصار وعدم الاحتواء على الأدلة العقلية التي لا يُدرَكُها العموم كما في عقيدة التوحيد، ولأنَّها جاءت خالية من كلِّ شبهة على ما كانت عليه دعوتُه..."².

ومن خلال كتاب "المرشدة"، وقع التحوُّل الكبير بالمغرب من العقيدة السلفية إلى اعتناق النَّاس جميعاً المذهب الأشعريَّ في العقيدة، وذلك بفضل جهود العالم أبي عمر عثمان السَّلاحي، الذي كان مُتكلِّماً بارعاً، وهو صاحبُ "العقيدة البرهانية"³، وهو الذي قال عنه صاحب "جذوة الاقتباس" أنَّه مُنقذ أهل فاس من التَّجسيم⁴. ويقول عنه الشيخ عبد الله كنون: "هو الذي على يديه وقع تحوُّل أهل

¹ انظر: النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، مرجع سابق، ص 463.

² كنون، عبد الله: جولات في الفكر الإسلامي، مطبعة الشويخ، تطوان- المغرب، لا.ط، 1980م، ص 96.

³ إنَّ العقيدة البرهانية من أفضل المختصرات لكتاب الإرشاد للجويني، وقد ظلت لها الصدارة على الساحة المغربية مرحلة تاريخية طويلة، حفظاً ونظماً وتدریسا، وقد اتصف اختصار السلاحي بالإبداع؛ حيث استطاع أن يؤسس مدرسة نظرية، يحق لنا أن نسميها مدرسة الإرشاد السلاجية، فقد جاء في وصفه بأنه كانت له خبرة وبصيرة بكتاب الإرشاد، وأنه إمام أهل المغرب في الاعتقاد، والأوحد في علم الكلام، فأنتجت مدرسة السلاحي جملة من علماء المذهب بفاس وبالمغرب الإسلامي عموماً، وقد شُرحَت البرهانية بشروح كثيرة، تدل على القبول الذي حظيت به عند المغاربة. (انظر: عمار جبدل، شافعي محمد عبد اللطيف: وسطية المدرسة الأشعرية المغربية ودورها في البناء الحضاري، الملتقى الدولي: الوسطية في الغرب الإسلامي وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا وأوروبا، معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي-الجزائر، ديسمبر 2017م، ص 389).

⁴ ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، مرجع سابق، ج 2، ص 458.

فاس من المذهب السِّلَفي في العقيدة إلى المذهب الأشعري، تبعًا للتَّيار العام الذي اكتسح المغرب بأكمله في هذا الأمر نتيجة لدعوة ابن تومرت¹.

إنَّ اتِّسام علم الكلام عند المغاربة بالطابع العملي البعيد عن الإشراق وعن الامتزاج بالفلسفة، جعل العلماء يعمدُون إلى إنزاله من بُرجه العاجيِّ إلى العامَّة، فجاء مُوافقًا للطَّابع التَّقريبي الذي ميَّز مُعظَم المؤلَّفات الكلاميَّة المغاربيَّة؛ فكان الكثيرُ منها عبارة عن ورقات قليلة يسيرة الفهم، وتمَّ تبسيط مضامينه واختصار المصنَّفات الكلامية فيه، حتَّى يسهَّل على الناس تناولها والاقتراب منها، وهو السَّبب في رواج فتوى عدم جواز التقليد في أصول الدين، والتي اشتهرت عند أشاعرة الغرب الإسلامي، وقد قال السنوسي: "ولا يرضى لعقائده حرفة التقليد فإنَّها في الآخرة غير مُخلَّصة عند كثيرٍ من المحقِّقين"².

ولذلك جاءت "المرشدة" مختصرة، وكثُرَت حولها الشروح³، لتمكين العامَّة من فهمها والعُكوف عليها، قال أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد بن إسماعيل بن علي الأموي، المعروف بابن النقاش في شرحه: "الدرة المفردة في شرح العقيدة المرشدة"⁴: "فإنَّ معرفة الله سبحانه وتوحيده مُقدِّم على كلِّ قول وعمل، وأكد شيء بادر إليه المرء، وجعله أول ما به اشتغل، وأنَّ الإمام المهدي كان من حزمه وحرصه على هداية الخلق، واستمرار كلمة الحق، أن سهَّل على النَّاس طرق الاستدلال، ووضع تصانيف للعقائد، رفعًا للالتباس عليهم، وبيانًا للإشكال، وكان يأتي كل قوم بلغتهم، وكل طائفة من

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 324.

² انظر: الحامدي، إسماعيل بن موسى: حواش على شرح الكبرى للسنوسي على عمدة أهل التوفيق والتسديد شرح عقيدة أهل التوحيد الكبرى للسنوسي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط 1، 1936م، ص 37.

³ وقد كان المهدي بن تومرت يقوم بنفسه بتدريس وشرح ما كتبه من مؤلفات، ويلقن للناس ما ضمنه كتبه من الأفكار الكلامية، ويذكر ابن القطان الفاسي (ت 628هـ) بشيء من التفصيل المسائل التي كان يدرِّسها لطلبته، والأساليب التي كان يتبعها لإنفاذ أفكاره. (انظر: ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقق: محمد علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1990م، ص 26-27).

⁴ ينتمي هذا الشارح - ابن النقاش - إلى التصوُّف، وهو على رأس طريقة، إلا أنَّه أجرى شرحه على الطريقة الظاهرة؛ وجاء شرحه كلاميًا تظهر فيه الدقة وسعة الاطلاع على المذاهب والأقوال الكلامية. (انظر: النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، مرجع سابق، ص 455)

بإبها، حتى لقد رأيتُ له عقيدةً باللسان البربري¹، وبالمصمودي، ولم يزل رضي الله تعالى عنه على ذلك إلى أن اشتهرت طريقته الدنيّة، واتّضحت الملة الحنيفيّة².

ومّا جاء في هذا الشرح-شرح ابن النقاش- دالاً على تداول "المرشدة" بين الناس وشيوعها فيهم، قوله: "ولما كان من جملة ما وضع المهدي تقريباً لأفهام العامة، وتيسيراً على الكافة، العقيدة المختصرة المنتظمة الكلام، الحسنة النظام، المرتبطة المعاني، المرسومة بالمرشدة، بادر إلى حفظها وقراءتها جماعة الفقهاء والعلماء الأخيار، الذين اجتمعوا بتلمسان المحروسة على شيخهم وقدوهم الشاب الأتقي الأعرف الصوفي السالك الناسك أبي عبد الله محمد بن الشيخ المبارك أبي زيد عبد الرحمن اليزنامي معلم كتاب الله..."³.

إنّ الأمر الذي ساعد على نموّ الدرس الأشعري بين ساكنة الغرب الإسلامي وسرعة انتشارها بين الناس من خلال مُصنّفات مهدي الموحّدين، ما كان في مؤلّفاته من استقلالية بين آرائه المهدوية وآرائه الأشعرية، فالأولى والتي أورد فيها بعض معتقدات الشيعة، ضمّنها كتاب الإمامة، ولم يُوردها في سائر مؤلّفاته إلّا أن تكون إشارات قليلة، بينما جاءت بعضُ الرّسائل خالصةً للآراء الأشعرية مثل: المرشدة، وهو ما جعل المغاربة - وحتىّ قسماً من المشاركة⁴ - يتقبّلونها في منأى من الاحتراز الذي تُسبّبه لكثير منهم الآراء التي تميل إلى الشيعة الإمامية⁵.

¹ قد خالف ابن تومرت شيخه الغزالي في صرم اللجام عن العوام، للخوض في علم الكلام، حيث قرّب مفاهيمه، ويسّر مباحثه، ليتسّى لهم إدراكه، بل ألّف فيه مصنّفات باللّهجات البربرية التي لم تكن وعاء للعلوم الشرعية الميسّرة، فكيف لها أن تتحوّل إلى وعاء لعلم دقّ مطالبه، واعتاصت عباراته. (انظر: خالد زهري: الفقه المالكي والكلام الأشعري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 2008م، ص132-133).

² جيدل: وسطية المدرسة الأشعرية المغاربة ودورها في البناء الحضاري، مرجع سابق، ص396. نقلا: عن ابن النقاش: الدرّة المفردة في شرح العقيدة المرشدة، مخطوط بالخزانة الحسينية، الرباط، مسجل تحت رقم: 12467، الورقة: 176-ب.

³ النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، مرجع سابق، ص454.

⁴ أثر على الشيخ فخر الدين ابن عساكر رحمه الله (المتوفى سنة 620 هـ)، أنّه كان يُقرئ بالقدس بمدرسة قريبة من الحرم العقيدة المرشدة. وإنّما أقبل ابن عساكر على هذه العقيدة لصِبغتها الأشعرية، إذ كان من المتّبعين للمذهب الأشعري. (انظر: السبكي، تاج الدين: طبقات الشافعية الكبرى، المطبعة الحسينية المصرية، مصر، ط1، د.ت، ج5، ص69-70).

⁵ انظر: النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، مرجع سابق، ص446.

ومن الذين ذهبوا إلى تلُّس المرشدة بلُّوس الأشعرية، الدكتور عبد المجيد النجار الذي يذهب إلى القول: "من البَيِّن من نصِّ هذه العقيدة أنَّها في جُمْلتها وفي ظاهرها جاريةٌ على منهج الأشاعرة ومقولاتهم"¹. ويُورد ثناء الإمام السُّنوسي عليها في قوله: "اجتمعت الأئمة على صحة هذه العقيدة ولا غير، وأنَّها مرشدة رشيدة، ولم يترك المهدي أحسن منها وسيلة، نفعنا الله وإياك بعقد عقيدتها الجميلة"².

هذا وإنَّ من آثار الشيخ أحمد زروق رحمه الله في العقيدة، شرحه على هذه العقيدة "المرشدة" لابن تومرت (524هـ)، ذكر ذلك الكثير ممَّن ترجموا له؛ والغالب على الظنِّ أنَّه شرحها وهو يشتغل بالتدريس بالمغرب ما بين سنة 868هـ و 873هـ؛ لأنَّها كانت من النُّصوص التي تُدرِّس في علم التَّوحيد آنذاك بالمغرب، وتوجدُ نسخةٌ منها آخر كتاب "عَدَّة المريد الصادق"، وهو مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط. عدد: 864 ج. في 7 صفحات³.

إنَّه على الرَّغم من أنَّ ابن تومرت لم يكن أشعريًّا خالصا، إلَّا أنَّ الشُّراح الذين تولَّوا شرح مُرشدته - ومنهم سيدي أحمد زروق - أضفوا عليه طابعا أشعريًّا محضًا، وجعلوا منه قُطبًا أشعريا كبيرا... وكلُّهم هدفوا إلى توضيح معاني هذه العقيدة والكشف عن مضامينها، وليؤكِّدوا من جانب آخر الدَّور الذي قامت به مُرشدة ابن تومرت من تدعيم وتثبيت دعائم المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي، بحيث إنَّها شكَّلت وعلى امتداد قرون إطارًا مرجعيا لأشاعرة الأندلس والمغرب والجزائر وتونس وليبيا، حتَّى ظهور أبي عبد الله السنوسي (895هـ)، صاحبُ العقائد الشَّهير⁴.

وقد سار ابن تومرت على نهج "كتاب الإرشاد" للإمام الجويني في الاستدلال على العقائد، وهذا بَيِّنٌ من خلال كُتبه ككتاب "المرشدة" وكتاب "أعزَّ ما يطلب".

¹ لا يُخفي الدكتور النُّجار شكُّه في وجود وجوه خفيَّة من مَسْحَة اعتزالية وحزمية، خاصَّة فيما يتعلَّق بإثبات الصِّفات، وهو ما جعله -أي ابن تومرت- عُرضة لنقد لاذع من قِبَل ابن تيمية. (انظر: النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، مرجع سابق، هامش ص 449).

² النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، مرجع سابق، ص 449.

³ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 41.

⁴ انظر: السكوني، محمد بن خليل: شرح مرشدة محمد بن تومرت، تحق: يوسف احنانا، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 1، 1993م، ص 5-6.

ومن بين المسائل الحسّاسة، والتي جاء ذكرها في هذه العقيدة، والتي كانت محلّ خلاف بين الفرق الكلامية، وخاصّة الأشاعرة والماتريدية من جهة، والمجسّمة والحشوية والحنابلة من جهة أخرى، وهي قضية الحدّ والجهة والحيز والاستواء والعلوّ والحجيء وغيرها، والأمر عند الأشاعرة - كما قرّره الشّارح، الشيخ أحمد زروق - وكما جاء على لسان الفقيه المتكلّم النّحوي الفرضي الخطيب تاج الدين محمد بن هبة الله بن مكي الحموي الشافعي الأشعري (ت599هـ) في: "حدايق الفصول وجواهر الأصول"، أو ما تسمّى بالعقيدة الصالحية¹:

وصانعُ العالم لا يحويه فُطرٌ*** تعالى الله عن تشبيهه
قد كان موجوداً ولا مكاناً*** وحُكمه الآن على ما كان
سُبْحانه جلّ عن المكان*** وعزّ عن تغيُّر الزمان
فقد غلا وزاد في العلوّ*** من خصّة بجهة العلوّ²

ومعنى ذلك أن خالقَ العالم لا تحويه جهة لأنّه مُنَزَّه عن التشبيه، والله تعالى كان موجوداً قبل المكان ولم يكن في الأزل فراغٌ ولا سماءٌ ولا نورٌ ولا ظلام، والله لا يتغيّر، فكما كان موجوداً قبل المكان بلا مكان لا يزال بعد خلق المكان موجوداً بلا مكانٍ ولا جهة. ويقول إن الله تعالى مُنَزَّه عن أن يكونَ في مكان ومنزّه من أن يجري عليه الزّمان، ويقول إنّ من العلوّ أي مجاوزة الحدّ أن يصف المرءُ الله تعالى بأنّه في جهة من الجهات الستّة، ومنها الفوق(العلوّ) لأنّ الجهات بالنسبة إلى ذات الله كلّ على حدّ سواء، الله غنيٌّ عنها وعن سائر المخلوقات، فالسماء قبله الدُّعاء كما أنّ الكعبة قبله

¹ وهي رسالة في علم الكلام على أصول أبي الحسن الأشعري، كان صلاح الدين الأيوبي الأشعري قد أمر المؤذنين بقراءة العقيدة الأشعرية على المآذن قبل الفجر من شدة اهتمامه بهذه العقيدة، وكان أمر بتعليم هذه الرسالة أو الكتاب الذي ألفه المكي وقدمه للسلطان صلاح الدين، فأعجب به السلطان فقرّر تدريسهُ للصغار والكبار، شهّر بين علماء أهل السنة بالعقيدة الصلاحية لأنّه قرّر تدريس هذه العقيدة في المدارس للصغار والكبار. انظر:

<http://www.sunnaonline.org/text.php?action=show&id=451>، تصفح يوم: 2022/05/11م.

² الحموي تاج الدين، محمد بن مكي: حدايق الفصول وجواهر الأصول، واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم، فلسطين، لا.ط، د.ت، ص4.

الصلاة، هذه هي عقيدة كل المسلمين وهي عقيدة الرسول ﷺ والصَّحابة ومن خالفها فهو من الضالين¹.

وقد شرح الشيخ أحمد زروق ما جاء من قول ابن تومرت في مرشدته: "موجودٌ قبل الخلق": وهو القديم، ومُحالُ العدم عليه. "هو الأول والآخر": الأول هو القديم، والآخر هو الباقي، ثم فصل في شرح: "ليس له قبل ولا بعد"، فقال: هذه الحدود العشرة منها الجهات الست، والقَبْلُ والبعد والكلُّ والبعض. كل ذلك حدود يلزم لمن تقيّد بها الحدوث؛ لأنّه من له أول له آخر، ومن له آخر، فلا بدّ له من أول؛ لأنه مخصوص مفتقر، ومن له بعض له كل وعكسه؛ والقَبْلُ والبعد داخل في الأول والآخر². وعلى الرّغم من عدم اشتغال المرشدة على مبحث "الطبيعيّات"، فمطالبه حاضرة بعمق في المذهبية الأشعرية لابن تومرت، بل لا يُمكن للمرء أن يتجاهلها، ولذلك:

- توجد إشاراتٌ في "المرشدة" إلى ما له علاقة وطيدة بهذا المبحث، من قبيل تقريره أنّ دعائم الإيمان هي "النّظر في الأشياء" أو العالم، المعرّف لدى علماء الكلام بأنّه: "عبارةٌ عن كلّ موجود سوى الله تبارك وتعالى وصفات ذاته"، مع تقسيمه إلى جواهر وأعراض. وذلك ملاحظٌ في قوله: "خلق العالم بأسره..."³.

- معلومٌ أنّ مبحث الطبيعيات هي الأساس النظري للاستدلال على قضايا الحكم العقلي في مبحثيّ الإلهيات والنبوّات، لذلك، فالشيخ أحمد زروق وهو يُقرّر أنّ الله موجودٌ قبل الزّمان والمكان، وهو خالق المكان والزمان، ولا يحتاج إلى الزمان ولا إلى المكان، فهو موجودٌ بلا كيف ولا مكان ولا يجري عليه زمان، لا يُقال متى كان وكيف ولا أين كان؟ فيقول الشيخ أحمد زروق رحمه الله: متى: سؤالٌ عن حصره بالزمان، وما حقيقة الزمان إلا مقارنةً بين حادثين؛ وكان الله ولا حادث، فكان ولا زمان؛ وإمّا المكان الذي هو أين؟ سؤالٌ عن حصره بمكان؛ والمكان ما تمكّن عليه، ولا يتمكّن عليه إلا بالأجسام محدود ومُتناه، ولا يكون مُتمكّنًا فيه ولا مُتحرّكًا أو ساكنًا، وذلك كلّهُ حُدودٌ وتخصيص،

¹ انظر شرح زروق على المرشدة لهذه المسألة، ذكرها: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص332.

² انظر: طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص332.

³ انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص565

وذلك مُحالٌ على القديم، وأيضا فإنَّ المكان إمَّا قديمٌ وإمَّا حادثٌ، أمَّا القديمُ فلا قديمٌ إلاَّ الله، وأمَّا الحادثُ فالبارئ القديم كان موجودًا قبل خَلْق المكان؛ فهو الآن كما كان قبل المكان. فلا يُخصَّصُ بالمكان إلاَّ مُفتقِر لمُخصَّص؛ وذلك حُدوثٌ¹.

- يُبرهن الشيخ أحمد زروق رحمه الله بأنَّ الله مُنزَّهٌ عن الكيفية، والعرضية، والجسميّة، والأمكنة، والأزمنة، تعالى الله أن يتَّصف بهذه الصِّفات علوًّا كبيرًا، فيقول: وأمَّا الكيفية، وهي الهيئة ومن هو عليها فتفتقران، ما كيف هيأه وكيف عليه، وهذا تخصيص وتقدير، ولذلك قال الصديق عليه السلام: "العجزُ عن إدراكِ الإدراكِ إدراكٌ" أي: عجزك عن كيفية تكييفه وتنزيهه له عنها إدراكٌ، أي علم بتنزيهه عن سماتِ الحُدوث، والعقل لا يُكَيِّف إلاَّ جسمًا له نوع، ثم يُميِّز ذلك النوع من جنسه، ويبرز من نظائره، والباري لا جسم له ولا نظير؛ فاستحال التكييف في حَقِّه والتقدير، وكثيرٌ من الحوادث لا تُكَيِّفها العقول؛ فكيف القديم الذي لا نهاية له، ولا مقدار، ولا حدٌ².

وقد استدللَّ ابن تومرت بنظرية الجوهر الفرد على الحُدوث، كقوله: "وجميعُ المحدثات وإن كثرت أعدادُها، واختلفت أجناسُها على ضربين: تغير، ومتغير، فالتغيرات هي الأعراض، والمتغيرات هي الأجرام. والأجرام على ضربين: منفرد ومتألف، فالمنفرد هو الجزء الفرد الذي لا يجوز عليه التجزِّي والانقسام، المتغير بالأعراض المتعاقبة، والأحوال المتلازمة"³، وهذه هي نظرية الجوهر الفرد عند الأشاعرة، وهذا المبحث الطبيعي قد تناوله أبو الحسن الأشعري، حيث قال: "اعلموا أرشدكم الله أنَّ ممَّا أجمعوا -رحمة الله عليهم- على اعتقاده ممَّا دعاهم النبي ﷺ إليه، ونَبَّههم بما ذكرناه على صحَّته، أنَّ العالم بما فيه من أجسامه وأعراضه مُحدث لم يكن ثمَّ كان، وأنَّ لجميعه مُحدثًا واحدًا، اخترع أجناسه، وأحدث جواهره وأعراضه، وخالف بين أجناسه"⁴.

¹ انظر شرح زروق على المرشدة لهذه المسألة، ذكرها: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص332-333.

² انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص333.

³ ابن تومرت، محمد: أعز ما يطلب، تحقيق: عمار طالبي، وزارة الثقافة الجزائرية-الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007م، ص195-196.

⁴ الأشعري، أبو الحسن: رسالة إلى أهل الثغر، تحقيق: عبد الله شاکر الجنيدي، ط: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط2، 2002م، ص209.

- يُلخّص الشيخ أحمد زروق في شرحه، أهمّ ركنٍ في العقيدة ومن عليه مدارُّ التوحيد وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]، لو كان الشّيء مثله لكان الشّيء قديماً، وليس هو أيضاً مثل الشّيء؛ لأنّه لو ماثله لكان حادثاً، وقد ثبت قِدَمُهُ بحادث قديم أو قديم حادث، فالمماثلة مُحال، إذ لا يَسُدُّ الحادثُ مَسَدَ القديم، وعلى ذلك دارت الآية آنفة الذكر. ثمَّ يُعرجُ على قول الله سبحانه: ﴿وَهُوَ أَلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، وفيها ثلاث نكت:

1- أنّ حقيقة الإلهية إنّما هي أن تسمع الدّاعين وترى المقرّبين، فالإله الحقّ المعبود، هو الذي يسمع دُعاء الدّاعين ورغبة الرّاغبين في كشف الضرّ والبلوى، فيسمّعهم ويرى تقرب المقرّبين. قال الله العظيم: ﴿الرَّيِّعَمَ إِنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: 14].

2- إثبات السّمع والبصر إلى من له السّمع والبصر.

3- السّمع لمن قال بالمثلية والشّبهية، والبصير لمن يعبد غيره ويأكل رزقه، ويرفّل في نعمته، ويدعُ إلهاً غيره، فلمّا عبدوا وتقربوا إلى الجمادات، ضاعت عبادتهم ولم يُسمع دعاؤهم¹.

المطلب الرابع: المنهج العقدي للشيخ زروق من خلال شرحه للمقدمة الوغليسية

من الكتب المختصرات المهمّة في الفقه المالكي، والتي كان لها اعتناء من قبل الشيخ أحمد زروق رحمه الله، من خلال شرحها واستخراج دُررِها ونفائسها، والوقوف على لطائفها التربوية والرّوحية، "المقدّمة الوغليسيّة"، والتي تتحدّث في بدايتها عن الجانب العقدي، المرتبط بالإسلام والإيمان، والتّصديق بما يجب التّصديق به من قواعد العقائد، وأصول الإيمان انطلاقاً من الحديث المرويّ عن سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حديث الإسلام، والإيمان، والإحسان، وهي من تأليف الإمام الفقيه عبد الرحمن الوغليسي البجائي الزواوي (ت786هـ)²، فقد تناولها الشيخ أحمد زروق بالشرح والبيان؛

¹ انظر شرح زروق على المرشدة لهذه المسألة، ذكرها: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص335.

² أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي، الفقيه الأصولي محدّث المفسر عمدة أهل زمانه وفريد عصره وأوانه شيخ الجماعة ببجاية. أخذ عن أبي العباس أحمد بن إدريس البجائي وغيره. وعنه أبو القاسم المشدالي وغيره. له تأليف كثيرة منها الأحكام الفقهية تسمى الوغليسية ومقدمة في الفقه وفتاوى مشهورة. توفي سنة 786هـ [1384م]. (انظر: مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، ص342).

ولعلَّ اهتمام الشيخ الوغليسي بالتربية الروحية، وجمعه بين الأحكام الفقهية الظاهرة، وأسرارها ومقاصدها الخفية، هو ما دفع الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- للعناية بها وإفرادها بشرح مُفيد¹.

هذا وإنَّ سرَّ اختيار الشيخ أحمد زروق لهذه المقدمة للشرح، هو المنهج الذي اتَّبعه الوغليسي في كتابه؛ من إضفاء النزعة الفقهية الصوفية على الأحكام العقدية والعبادات، حيث كثيرا ما يجمع بين الأحكام الظاهرة الفقهية ودقائق أسرارها؛ فهو ينطلق من الإسلام وأحكامه ليصل إلى الإيمان ثمَّ الإحسان؛ فكتاب الوغليسي بذلك هو كتاب فقه، إضافة إلى أنَّه كتاب تربية وتزكية. وأمر آخر جعل الشيخ أحمد زروق يُولي كتاب الوغليسي العناية اللائقة به، وهو أنَّ الوغليسي ظلَّ مرجعا أساسيا في العقيدة الأشعرية السنية، وفقه المذهب المالكي؛ لذا بقيت موضع اهتمام ودراسة لمدة طويلة، حيث كانت ضمن كُتب التدريس للطلبة المبتدئين، والمريدين بالمساجد والزوايا².

وتُوجد عدَّة تسمياتٍ لكتاب الوغليسي، منها: "الأحكام الفقهية"، و"مقدمة في الفقه"، و"مقدمة في العقيدة"، و"الجامعة في الأحكام الفقهية"، وغيرها³.

وكتاب "المقدمة الوغليسية"، هو مؤلَّف في العقيدة الأشعرية والفقه المالكي والتصوُّف الجنيدي، وتُشكِّل هذه الركائز الثلاثة في هذا المؤلَّف مكوّنات المرجعية الدينية الأساسية في الجزائر- بلد المؤلَّف - وفي المغرب وتونس وليبيا، وهذا منذ زمن بعيد.

ومن خلال الوغليسية، حدَّد الشيخ الوغليسي موقعه ضمن تيار الفقهاء الصوفية في مواجهة تيار المرابطين، حيث تزامن تأليفها مع تأليف في هذا الصدد: كتأليف أبي الحسن الصغير الزرويلي (ت719هـ) لكتاب: "البدع"، وتأليف الشاطبي لكتاب: "الموافقات والاعتصام"، وتأليف ابن الخطيب (ت776هـ) لكتاب: "روضة التعريف بالحبِّ الشريف"، وعبد الرحمن ابن خلدون في كتابه: "شفاء السائل في تهذيب المسائل"، وكلُّها تُفيد إلى ضبط التصوُّف والوصول به إلى حالة من التوافق

¹ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص362.

² انظر: المرجع نفسه، ص362.

³ انظر: مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص342.

مع الشريعة، وتعرية سلوكات المرابطين وإظهار بدعهم وانحرافاتهم عن الشريعة¹. هذا "وقد تأثر الوغليسي بشيخه العارف بالله سيدي أحمد بن أدريس الأيلولي (ت760هـ)، حيث لا يُستبعد أنه أخذ عنه في جانب التصوف كُتبه، مثل كتاب: "المسلسل بالأولوية"، وكذا كتاب: "مصافحة المعمرين"².

وقد نصّ الوغليسي على الباعث من تأليف الكتاب، بقوله: "والغرض من هذا الكتاب، التنبيه على ما يلزم العبد فيتنبه ويسأل، حتى يتحقق ويتعلم ما لا بُدَّ له منه، ويقف الطالب على ما يكفيه من ذلك من مختصرات العقائد فيتفهّمها ويحصل معناها، كعقيدة "إحياء علوم الدين" للغزالي لقُرْبها وبَسْطها... ونحو ذلك، والله تعالى الموفق بمنّه"³.

وقد افتتح المؤلف مُقدّمته بمباحث عقديّة، عرّف من خلالها بالإسلام والإيمان وأركانهما، وأورد حديث جبريل عليه السلام في الباب... وقد طغى على الكتاب منهج الاختصار مع السّلاسة في الإفهام بالنّظر إلى طبيعة التّأليف ومقصده، إذ يكفي المؤلف بذكر رؤوس المباحث والقضايا مقتصرًا على المشهور، وإذا جرى به القلم في المسألة لا يتعدّى سطرين أو ثلاثة إلا ما ندر، ويحرص على الاستدلال بالآيات والأحاديث فيما يستوجب الأمر؛ كمباحث الإسلام والإيمان والإحسان، ويورد نقولاً عن بعض الصّالحين. ولا يذكّر المؤلف رحمه الله مصادره بالكتاب، حاشا "إحياء علوم الدين" الذي صرّح به في دياحة الكتاب، ومعلوم عناية العامّة والخاصّة بهذا السّفر، لكن ممّا لا شكّ فيه أنّ الإمام الوغليسي جمع مادّته وانتقاها ممّا توفّر له من أمّهات دواوين الفقه المالكي⁴.

¹ وإن كان الأمر لا يخلو من المكائد والاثّامات بالباطل والمبالغة في نعت الخصم بأقذع النعوت، من مثل اتّهام المرابطين بالمجسّمين والكافرين من قبل الموحدين، وهذا دوما شأنُ المخالفين كما كان الحال -ولا يزال- بين الحنابلة والأشاعرة، من تقاذف التّهم وأدعاء الحق لكلّ طرف والتّشنيع على الخصم، ومُحاولة إخراجهم من دائرة أهل السنة والجماعة، والأمر يحتاج في كلّ مسألة إلى التّأنيّ وضرورة البحث العلمي الموضوعي والرّصين، البعيد عن كلّ عاطفة أو ميل أو تحيّز.

² بونابي: أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي الفقيه الصوفي، مرجع سابق، ص 95، 101.

³ الوغليسي، عبد الرحمان: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، تحق: أمل محمد نجيب، مركز نجيويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط1، 2007م، ص30.

⁴ طاطمي، طارق: المقدمة الوغليسية لأبي زيد الوغليسي، مرجع سابق.

وقد ذكر الشيخ محمد إدريس طيب - حفيد الشيخ أحمد زروق - أن الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى قد شرح المقدمة الوغليسية مرتين:

- شرحٌ مطوّل، تتوفّر المكتبة الوطنية بالرباط على مخطوط له تحت رقم: 1016د، والغالب أنّه ألفه قبل سفره للمشرق أوّل مرّة، أو أثناء إقامته بمصر سنة 876/877هـ.

- شرحٌ مختصر، تتوفّر المكتبة الوطنية بالرباط على مخطوطين له، تحت رقم: 1424د، ضمن مجموع من الصفحة: 131 إلى 205، ورقم: 2079د، فلم 4331، ضمن مجموع من الصفحة: 1 إلى 102. وقد ألفه سنة 878هـ، وهو في طريق عودته إلى بلده المغرب، أي قبل تأليفه لكتابه: "الجامع لحمل من الفوائد والمنافع"، أو "النصيحة الصغرى"؛ لأنّه يُحيل عليه في الجامع. وتوجد للشرح نسخة بخزانة الجامع الأعظم بوّزان، كما توجد نسخة منه في خزانة المسجد الكبير بمدينة مكناس، مكتبة الأوقاف تحت رقم: 438 مخ، في 306 صفحة من الحجم المتوسط وبخط غليظ¹.

والمُتصَفِّحُ لشرح الشيخ أحمد زروق على المقدمة الوغليسيّة، يكاذُ يَجْزِمُ بالنزعة الصّوفيّة الطّاغية على هذا الشّرح؛ وذلك من خلال كثرة الاعتماد والاستدلال بأقوال كبار المتصوّفة والعارفين بالله تعالى، أمثال: حُجّة الإسلام أبي حامد الغزالي وما جاء في كتابه: "الإحياء"، وكذا العارف بالله الشيخ الزاهد أبو طالب المكي وما ورد في كتابه: "قوت القلوب في معاملة المحبوب"، وكذا أقوال سيدي الغوث أبي مدين شعيب، وسيدي عبد القادر الجيلاني، وسيدي أبو الحسن الشاذلي وتلميذه سيدي أبو العباس المرسي. وهذا يُعطي دلالة قويّة على عمق التمازج والتداخل بين التصوّف والكلام عند الشيخ أحمد زروق، وحسن توظيفه للمسحة الصّوفية في مسائل التوحيد والعقيدة توظيفاً جميلاً رائعاً، وكذا إعطاء الدّرس العقدي رُوحاً حيّة تسري في القلب، فتوقّظه من غفلته، وتدفعه إلى الفهم عن الله ورسوله في شرعه وأحكامه، وتأخذ بيد المرید إلى الاعتقاد السّليم والعمل الصحيح، وفق سنّة الرسول ﷺ.

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 363.

لما ابتدأ الشيخ أحمد زروق شرحه على المقدمة الوغليسية، قال: "فهذا إن شاء الله مُختَصَرٌ على المقدِّمة الوغليسية¹، نذكر فيه ما تيسَّر من معانيها، ومناحيها التَّقديسيَّة. حسب الوُسع والتَّيسير، وقَدَّر ما انتهى إليه فهمي القاصر، وعلمي القصير. مُلتزِمًا ما يحتاج إليه الفقير النَّاصح، وعاملاً على ما لا بُدَّ منه من الأمر الواضح، وللَفقيه العُذر، ومن فضله القبول، وعلى الفقير تحقيق ما تحويه من معقول ومنقول [دون الخوض فيما يشتَّت الذَّهن من الجزئيات والخلافات]؛ وهذا حين أبتدي، وعلى الله أَعتمد، وإلى الله أَسْتند، ومن فضله أَسْتمدِّ، وهو حسبنا ونعم الوكيل..."².

فيوضِّح -رحمه الله- أنَّه مَعْنِيٌّ بتتبُّع معانيها وتبسيطها، وكذا الوقوف على ما اشتملت عليه من لطائف روحية وتربوية، ملتزماً في كل ذلك البُعد عن التَّعقيد أو الدخول في التفرِّعات التي لا طائل من ورائها ولا يحتاجها الفقير أو المريد؛ لأنَّ الشَّرح مدرسيٌّ، يقتصر فيه على ما يُلائم مستوى طلبته ومريديه، مُلتَمِّساً العُذر من الفقهاء؛ لأنَّه لم يتطرَّق في شرحه إلى التفاصيل والجزئيات التي يطلبها الفقيه المختصُّ، لإشباع نَهْمَةُ الفقهِي³.

هذا ويُقرِّرُ الشيخُ أحمد زروق رحمه الله عقيدة التَّنزيه، ويُظهرها من بداية شرحه للمقدمة الوغليسية، وذلك في شرحه كلمة "بسم الله"؛ فيقول: أمَّا قوله: الله، اسم الذات المعبود الحق، الغنيُّ عن العَلَّة، والفاعل الموصوف بصفات الإلهية، وإن شئت قلت: الظاهر الربوبية بالدلائل، المحتجب عن الكيفية والأوهام. وإن شئت قلت: الموصوف بصفات الكمال، المنزَّه عن النَّقص والمثال⁴.

ثمَّ يأتي الشيخُ أحمد زروق على ذِكر فَصْلِ هامٍّ من فُصول المباحث الكلامية، التي كانت محلَّ خِلافٍ بين الأشاعرة وغيرهم، وهي مسألة الإسلام والإيمان؛ فالإسلام في الشَّرع، كما ذكره المؤلِّف -الوغليسي- هو: "الاستسلام والانقياد لأوامر الله تعالى المتعلِّقة بظواهر الأفعال الشرعية"⁵، فاحترز

¹ يستفاد من قوله: "فهذا إن شاء الله مختصر على المقدمة الوغليسية"، أنَّ الشيخ أحمد زروق ألَّف شرحه المطوَّل على المقدمة الوغليسية قبل هذا التاريخ. (انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص365).

² زروق، أحمد: شرح المقدمة الوغليسية، مخطوط، ص1.

³ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، هامش ص365.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص365.

⁵ الوغليسي: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، مرجع سابق، ص25.

بذلك من الأعمال الباطنة، فإنه لا يُطلق عليها إسلاما، كما لا يُطلق على الظاهرة إيمانا، وهو كما قال الشيخ عبد الله البلالي¹ رحمه الله: "والذي يظهر من جهة الشرع واستعمال اللغة، أنّ الإسلام حقيقة في الأعمال، مجاز في الاعتقادات، والإيمان حقيقة في الاعتقادات، مجاز في الأعمال". وأمّا الإيمان — وكما هو مُقرّر عند الأشاعرة — "هو التصديق بما يجب التصديق به من قواعد العقائد"²، سواء كان ذلك عن تقليد أو اجتهاد؛ لأنّ القول بأنّ أوجب الواجبات النظر والاستدلال، مسألة من الاعتزال بقيت في المذهب على من اعتقدها، كما ذكر ذلك ابن أبي جمرة الأندلسي (ت599هـ)³، ولأنّ العوام لا يلزمهم التفنن في العقائد، بل لا يجوز لهم الخوض فيما وراء القواعد المذكورة؛ لأنّها مُشوّشة لاعتقادهم⁴.

وقد زاد الشيخ أحمد زروق في تفصيل معنى الإسلام والإيمان وهو يشرح حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فذهب إلى أنّ لفظ الشهادتين الأصل فيها هو الإقرار والاعتراف، ولا يصحّ الدخول في الإسلام إلا بهما في فورٍ واحدٍ، وهما واجبتان مرّة في العمر، مع اعتقاد الاستمرار، وحينما سأل جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله عن الإيمان: قال الشيخ أحمد زروق، يعني: ما تفسيره شرعا؟ ليقع العلم به؛ فيمتاز عن الإسلام بوصفه وقواعده، فذهب إلى أنّ الإيمان هو: التصديق⁵ والتّصميم بالقلب بما يجب لله، وما يجوز في حقّه، وما يستحيل عليه. وكذلك الأمر مع الملائكة والكتب والرّسل. وفي إجمال الصّلة بين الإسلام والإيمان والإحسان، ينقل الشيخ أحمد زروق قول بعض المحقّقين: "من بلغ إلى

¹ من شيوخ الثعالبي، أخذ عنه وسمع منه صحيح البخاري واختصار إحياء علوم الدين. (انظر: قالة، نور الدين: عبد الرحمان الثعالبي .. العالم الفقيه و رمز مدينة الجزائر: عبد-الرحمان-الثعالبي-العالم-الفقيه-و (https://islamonline.net).

² الوغليسي: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، مرجع سابق، ص25.

³ وابن أبي جمرة هو الشيخ الإمام المعمر، مسند المغرب، أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن وليد بن أبي جمرة الأموي الأندلسي، محدّث وفقيه بصير بمذهب مالك، عاكف على نشره، قال الأبار: عُني بالرأي وحفظه، له كتاب: "بَحْجة النفوس وتحليلها بما لها وما عليها". صنّف كتاب "نتائج الأفكار في معاني الآثار"، ألّفه عندما أوقع السلطان بالمالكية، وأمر بإحراق المدوّنة، وله "إقليد الإقليد المؤدي إلى النظر السديد". (الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج21، ص399).

⁴ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص369.

⁵ الإيمان هو التصديق؛ وهو حديث النفس التابع للمعرفة بذلك على الأصح خلافا لمن قال هو المعرفة فقط، كالجهم. (انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص55).

حقيقة الإسلام، لم يُقدّر أن يفتر عن العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان، لم يُقدّر أن يلتفت إلى العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان، لم يُقدّر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى". وكلها شروط في صَحّة كلّها¹.

وفي تقرير حقيقة الإيمان بالله تعالى وهي عقيدة السلف، يذكر المؤلف الوغليسي بأنّه "التّصديق بوجوده، وأنّه قديم أزليّ باق دائم، لا بداية لأزليّته، ولا انقضاء لدوامه، موصوفٌ بصفات الجلال والكمال، حيّ عالم، قدير مُريدٌ سميع بصير مُتكلّم، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، منزّه عن التركيبات والتحديدات والتقديرات وعن صفات المتحيّزات ولواحق المحدثات، وهو خالق الموجودات وما يجري عليها من التبديلات والتغيرات، واحد لا شريك له ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]"².

ويأتي الشيخ أحمد زروق رحمه الله على شرح مفردات هذا الكلام، بما يُثبت طبيعة الفكر العقديّ عنده، وأنّه يستقي عقيدته من عقيدة السلف وأهل السنّة؛ ويستخدم الشيخ أحمد زروق في شرحه الدلائل العقلية والمنطقية³ للحجاج عن الإيمان بالله والتّصديق بوجوده وصفاته، فهو يشرح صفة "القدم" لله عز وجل بأنّه: سابقٌ وجوده وُجود كلّ شيء؛ لأنّه الواجب الوجود لذاته، لا مُفتّح لوجوده، وما وُجد سواه فواجبٌ بإيجابه، إذ لو لم يُوجد ما وُجد. وأنّ صفة "الأزلي": تعني أنّه لم يتقدّم وجوده وُجود، ولو كان ذلك، لكان الحكم لسابقه، ولزم حدوثه، وذلك باطل، "وكذلك القول في محدثه، ويتسلسل الأمر، وما تسلسل لم يتحصل، أو ينتهي إلى القديم الأول، وليس إلا هو

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 375-378.

² الوغليسي: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، مرجع سابق، ص 27-28.

³ يُعتبر الشيخ زروق، من العلماء الذين لم يألوا جهداً في توظيف المنطق والتوسل به في تأليفه المختلفة، فقد كان الشيخ منطقياً بامتياز، وهذا واضح في مشروعه الإصلاحية القائم على مبدأ العبادة بالبصيرة والتبصّر في الدين وجعله من أصوله، والمنطق آلة قيمة بتحقيق هذا الغرض، فهو ينظم طرق التفكير، المفضي إلى سلامة السلوك وإحسان العبادة. (انظر: زهري: الفقه المالكي والكلام الأشعري، مرجع سابق، ص 35).

سبحانه وتعالى، الذي لا يحدث للعالم سواه، وما ثبت قدمه استحالة عدمه لأنه لا يصح منه إعدام نفسه كما لا يصح منه إيجادها ويلزم في غيره ما لزم من التسلسل في وجوده"¹.

تعتبر الصوفية - وزروق منهم - من القائلين بانتفاء الممكن، وأنه لا وجود، إلا لواجب الوجود، وهذا يبدوا موافقا لمذهب الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي، كما هو مؤدّى قوله في "أوراده": "وعنه، وبه، كان كون كل شيء، فلا شيء. إذ الشيء بالحقيقة معدوم مفقود"². "فأنا موجود بك، حادث معدوم. وأنت موجود باق حيّ قيوم، قدسٌ أزليّ، عالم معلوم"³. "يا من هو هو، ولا أنا"⁴. فالشيخ أحمد زروق، لا يرى الثنائية التي عند الفلاسفة والمتكلمين من تقسيم الوجود إلى واجب وممكن؛ وهذا لأنه لا يرى في الوجود، إلا واجب الوجود - سبحانه وتعالى - فقد قال رحمه الله: "أما قبل كلّ شيء، ومعه، وبعده، فليس؛ على الحقيقة؛ إلا الله وحده"⁵.

وقد تكلم الشيخ أحمد زروق رحمه الله عن مذهب أهل التصوف في الاعتقاد، والذي هو مذهب السلف؛ ففي صفات الله تعالى يجب حياها واجب التنزيه⁶، ونفي التشبيه، وقبول ما ورد كما ورد، من غير تعرض لكيف، ولا تأويل، ولا غيره... ولئن كان التأويل أعلم، فالتفويض أسلم؛ هذا مع تكلمهم في وجوه التأويل بما يقبله اللفظ من حيث إنه علم. ويشرح الشيخ أحمد زروق قول الشيخ الوغليسي: "موصوف بصفات الجلال والكمال"، فيقول زروق رحمه الله: أنّ الصفات الكمالية ثابتة له؛ فيوصف بما وصف به نفسه من الكمالات، ويُنزّه عن ما لا يليق به، وما جاءنا عنه عزّ

¹ انظر: زروق: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، مج 1، ص 35. وطيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 379.

² ابن عربي: أوراد الأيام والليالي، ضبط: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 2006م، ص 22.

³ المرجع نفسه، ص 27.

⁴ المرجع نفسه، ص 48.

⁵ زروق: إغاثة المتوحه المسكين على طريق الفتح والتمكين، مرجع سابق، ص 36.

⁶ نلاحظ حضور بعض ملامح الفلسفة الرشدية في فكر الشيخ أحمد زروق؛ من ذلك تقريره أنّ تنزيه الله تعالى " ثابتٌ بالدليل التقلي والبرهان العقلي"، بل إنّه يذهب أبعد من ذلك، حيث نلمح في فكره ما يذكرنا بـ " دليل العناية" الذي اعتمده ابن رشد الفيلسوف في البرهنة على إثبات الصانع عز وجل، ومن الصيغ الموحية بذلك، قوله: " ويدلُّ على عظمته بخلق عظيم من الكائنات، وترتيب المملكة على مقتضى الحكمة، ليكون أهدي إلى قصد التعظيم". (انظر: زهري: الفقه المالكي والكلام الأشعري، مرجع سابق، ص 29).

وجل، وعن رسوله مما يُخَالِفُ ظاهره المعقول اعتقدنا فيه التنزيه، ونفي التشبيه، وفَوَضْنَا أمره إليه، إذ ليس ثَمَّ الحق - أعني أقوى الحق - من صاحب الحُجَّةِ مُحَجَّتِهِ، فنقول في كلِّ مُشْكِلٍ من الصِّفَات السَّمْعِيَّةِ ما قاله مالك في الاستواء¹.

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ أَحْمَدَ زُرُوقَ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يشرحُ المُقَدِّمَةَ الوُغْلِيَّيَّةَ، تَكَلَّمَ عن مسألة غاية في الأهمية، وعليها مدار اختلاف كثير من الفرق الكلامية، وهي صفة الكلام لله تعالى، فقوله - أي المؤلف - مُتَكَلِّمٌ: يعني - يقول الشارح أحمد زروق -: بكلام قديم، قائم بذاته، لا يُشَبِّهُ كلام الخلق؛ فليس بصوت، ولا حرف، ولا عن لسان، ولهاة، وشفاه، فسمعه موسى عليه الصلاة والسلام بسمعه²، كما يليق به، وهذه الصفات الثلاثة ثابتة لكلامه، إذ هي كمالٌ في حقِّ غيره، ولا يصحُّ أن يكون الخالق ناقصاً، والمخلوق كاملاً، لكنَّ كماله تعالى مُنَزَّه عن كمال غيره، فهو المنزَّه عن النقائص. بل وعن كلِّ كمال مُقَيَّدٍ ولاتق بسواه، قال بعضُ الصُّوفِيَّةِ: الحقُّ تعالى مُنَزَّه عن التَّنْزِيهِ، أي عن تنزيهنا له، فكيف يشار إليه بالتشبيه. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. "ومذهب أهل الحق أنَّ كلامه سبحانه وتعالى صفة قديمة قائمة بذاته، زائدة على ذاته كسائر صفاته المعنوية"³، "ولا يصحُّ قيامه [كلامه] بغيره كما هو في جميع صفاته، ولا حدوثه ولا حلوله في الغير ولا غير ذلك"⁴، وقال بعضهم في معنى اسمه القُدُّوس: إِنَّهُ المنزَّه عن كلِّ كمالٍ لغيره. قال: لأنَّ قولك مُنَزَّه عن النقائص، مثل قولك: الملِكُ ليس بجَزَّار⁵. وما ذَكَرَ المؤلِّف من الصِّفَات مجموع في قول إمام القراء أبي القاسم الشاطبي الأندلسي (ت590هـ):

¹ انظر: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص52.

² معلوم أنَّ الله كلَّم موسى عليه السلام، ولكن اختلفوا في كَيْفِيَّةِ سَمَاعِ هذا الكلام من موسى، قال زروق رحمه الله: "وقال أهل السُّنَّة: خلق الله لموسى عليه السلام فهما في قلبه، وسمعا في أذنيه، سَمِعَ كلاماً ليس بصوت ولا حرف... سمعه بأذنه، وفهمه بقلبه، وعلم بضرورة أنَّ المكلَّم له رُبُّهُ". وقد نفى الشَّيْخُ الجَّهَّةَ عن الله عند تكليم موسى، فقال: "قلْتُ في بعض التقاييد أنَّه سمع ذلك بكلِّ الجهات؛ فإِذَا من الحصر إلى الجهة، وهو مراده بإثبات جهات، ومذهب أهل الحق أنَّ كون السامع في جهة، لا يلزم منه كون المسموع من جهة". (انظر: زروق: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، مج1، ص34).

³ زروق: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، مج1، ص34.

⁴ زروق: شرح عقيدة الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص110.

⁵ انظر: طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص381.

حيّ عليّمْ، قديرٌ، والكلامُ له *** فردٌ، سميعٌ، بصيرٌ، ما أرادَ جَرَى¹.

ويُعبدُ الشيخُ أحمد زروق رحمه الله في شرحه، تقرير أنّ الله تعالى ليس بجسم، ولا جوهر، ولا عرض، وأنّه مُنَزَّه عن التركيبات، والتحديدات، والتقديرات، وعن صفات المتحيزات، ولواحق المحدثات، فالله " ليس بجسم ": لأنّ الجسم قابلٌ للانقسام والتأليف، مُفتقرٌ إلى المكان؛ وكُلُّها حوادث، وما لا يعرى عن الحوادث لا يسبقها، وما لا يسبقها كان حادثاً مثلها، ويتعالى ربُّنا عن ذلك. وربُّنا سبحانه " ليس بجوهر ": لأنّ الجوهر، وإن لم يقبل الانقسام، فهو قابلٌ للتركيب، مُفتقرٌ للمحلّ، وذلك من صفات الحادث، والموصوف بالقدّم لا يتّصف بما يدلّ على حدوثه. وقوله: " ولا عرض ": يعني أنّ الأعراض، وإن لم يصحّ انقسامها، ولا تركيبها، فهي مفتقرة إلى محلّ تقوم به، مع أنّها لا تبقى زمانين، وما كان كذلك، فهو حادث ضرورة، والحادث لا يكون إلهاً. وقوله " مُنَزَّه عن صفات المتحيزات ": يعني: من قبول الأعراض والعوارض؛ فليس في ذاته سواه، وليس في سواه ذاته، وليس كمثله شيء، ولا هو مثل شيء، إذ لو جاز عليه شيء من ذلك، للزم جواز كلّ، وذلك يؤدي إلى لزوم حدوثه، وهو باطل².

ومن المسائل التي طالها شرحُ الشيخ أحمد زروق رحمه الله، مسألة الإيمان بكتب الله وهو التصديق بكتب الله المنزلّة على رُسله، قال الشيخ أحمد زروق رحمه الله: يعني: أنّها من الله، وأنّها قديمة. إذ هي كلامه، ولا تقبل الانفصال والافتراق، بالانتقال إلى القلوب والأوراق، وفيها النسخ والمنسوخ، وغير ذلك من عوارض الكلام، التي لا تقتضي نقصاً ولا حدوثاً، ولم يتكلّم السلف رضي الله عنهم في التلاوة والتملؤ، ولا في الاسم والمسمّى، ولا في الوصف والموصوف، ونحو ذلك، فتعيّن على المبتدئين اتّقاء ذلك³.

¹ الشاطبي، أبي محمد القاسم بن فيّره: منظومة عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد، تحق: أيمن رشدي سويد، دار نور المكتبات، المملكة العربية السعودية، ط1، 2001م، ص1.

² طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص381-382.

³ انظر: المرجع نفسه، ص383.

وقد قرّر الشيخ أحمد زروق رحمه الله، مذهب أهل السنّة خلافاً للمعتزلة، بأنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، فقال: "وكونه غير مخلوق، وهو مذهب أهل السنّة"¹، وقال: "ولم يزل السلف يُطلقون القرآن ليس بمخلوق، ولم يتعرّضوا للفرق بين التلاوة والملتو"²، وقال أيضا: "ولم يُحفظ عن مالك وطبقته إلا أنّ القرآن غير مخلوق، دون زائدة على ذلك، وهو مذهب السلف والله أعلم"³.

ويُبدع الشيخ أحمد زروق رحمه الله في توضيح مسألة أخرى من المسائل الشائكة والمشكّلة في التراث الكلامي، وهي القدر ووجوب الإيمان به، فيقول الشيخ أحمد زروق رحمه الله أنّ الإيمان بالقدر: يعني أنّه لا تأثير لمخلوق، ولا نسبة له في إيجاد شيء ولا إعدامه، بل هو مجبور في عين اختياره. إذ لو لم يكن مجبورا، ما أصابه البول مثلا، ولو لم يكن مختارا، ما أمكنه طلب المحلّ لإلقائه، فالتكليف والجزاء عليه من وجه الكسب⁴. لا من وجه الإجبار. والشيخ بذلك يُخرج من مُشكِلة الجبر والاختيار بتعليل وتدليل مائع. ثمّ إنّهُ يُحاجج المعتزلة بالآية التي تقصم ظهورهم، وهي قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفّات: 96]. والمعنى: خلقكم وخلق ما تعملون، فقاعدة التحقيق ليس إلا سابقة التوفيق، فكلّ شريعة حقيقة، ولا ينعكس، الشريعة مُبيّنة، والقدر، من مقتضى اسمه القدير، والإرادة مُخصّصة لكلّ في محله، وليس إثبات الحكم لوصف بأولى من غيره، فالمثاب على فعل بقدر، والمعاقب على فعل بقدر، وموافقة الحكمة أو مخالفتها علامة. اهـ، وهذا لعمرى أحسن ما قيل في هذه المسألة التي زلّت فيها أقلام وتعثّرت فيها أقدام، فلله درّ الشيخ أحمد زروق رحمه الله ما أعلمه⁵!

¹ زروق: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، مج1، ص35.

² المرجع نفسه، مج1، ص35.

³ المرجع نفسه، مج1، ص39.

⁴ والكسب هي الحلقة المفقودة بين من يقول بجبر الإنسان من الجبرية، وأنّ أفعال الإنسان خلق الله تعالى، والإنسان ريشة في مهب الريح، وبين اختياره المطلق، وأنّ الإنسان خالق مختار، وهو قول المعتزلة، ثمّ المنزلة الوسط وهي الكسب التي قال بها الأشاعرة، وهي عندهم ما يقع به المقدور في محل قدرته. يقول أبو الحسن الأشعري (ت324هـ): "...معنى الكسب: أن يكون الفعل بقدره محدثه، فكل من وقع منه الفعل بقدره قديمة، فهو فاعل خالق، ومن وقع منه بقدره محدثه، فهو مكتسب، وهذا قول أهل الحق". (انظر: الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث القاهرة، ص304-305).

⁵ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص388.

المبحث الثاني: ملامح التكامل المعرفي في الدرس الفقهي

إنَّ علم الفقه من أشرف العلوم وأفضلها وأعلاها مكانة ومرتبة؛ لأنَّه السَّبب في صحَّة العبادات، واستقامة المعاملات، به يُعرَف الحلال من الحرام، والواجب من المستحبِّ، وبه تندفع وساوس الشيطان. ولذلك فعلمائنا المجتهدون الأوائل، بذلوا أقصى ما يستطيعون من أجل استخراج الأحكام الشرعية من أدلَّتْها التفصيلية، وكان لكلِّ واحدٍ منهم اجتهادٌ خاصٌّ به، شكَّل من بعد ذلك مذاهبَ فقهيةً لهؤلاء الأئمة المجتهدين، وتركوا لنا تراثاً فقهياً ثميناً من خلال أمَّهات الكتب الفقهية في شتَّى المذاهب، وخاصةً مذاهب الأئمة الأربعة التي يَدِينُ بها النَّاس اليوم¹. ومن هذه الكتب التي ألفت في الفقه المالكي: كتاب: "المقدمة القرطبية" لـ يحيى القرطبي، والذي سمَّاه صاحبه: "أرجوزة الولدان في الفرض والمسنون". وكذا "الرسالة" لابن أبي زيد القيرواني، والوغيلسية.

المطلب الأول: الدرس الفقهي للشيخ زروق من خلال شرح المقدمة القرطبية

تنوَّعت طُرُق العلماء والفقهاء وأساليبهم في التَّأليف، تَبَعاً لما تُملِّيه ظُروف الزَّمان والمكان، وما يشهده واقع النَّاس المعاش من تغيُّرات وتحولات، في المدارك والقدرات والعقول. ومن أهمِّ الأساليب التي تَحَجَّها العلماء في هذا الباب، النِّظَم التَّعليمي: إذ لاحظوا قدرة الطلبة والمتدربين في أزمانهم على حفظ النِّظَم واستيعاب مضامينه وفهمه، فأقبلوا على وضع المنظومات في شتَّى العلوم والفنون، ومن أشهر المنظومات الفقهية المصنَّفة في المذهب المالكي «المقدمة القرطبية»، للشيخ ضياء الدِّين أبي بكر يحيى بن عمر بن سعدون الأزدي القرطبي الدَّاري، الذي عاش في الفترة (567/486هـ)². وقد جاءت هذه المقدمة في (117) بيتاً، وهي منظومةٌ بديعةٌ ضمَّنها ناظمها أحكامَ قواعد الإسلام، وما تَمَسُّ الحاجةُ إلى معرفته من المسائل الفقهية. ولما لاحظ الشيخ أحمد زروق حاجة الطلبة

¹ انظر: زروق: شرح المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي، مرجع سابق، ص 7-8.

² ولد بقرطبة سنة 486هـ، رحل إلى المشرق وأخذ عن علمائها ثم انتقل إلى دمشق ثم إلى بغداد ليستقر به المقام في الموصل، أخذ عن الطروشني والزمخشري، كان ديناً ورعاً، عليه وقار وسكينة، وكان ثقة صدوقاً ثبتاً نبيلاً، قليل الكلام، كثير الخير مفيداً. برع في العربية والقراءات وتصدَّر فيهما، وكان ثقة ثبتاً صاحب عبادة وورع وتبحُّر في العلوم. (انظر: ابن الجزري، محمد: غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق: برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط 1، 2006م، ج 2، ص 324. وابن العماد، عبد الحي بن أحمد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط 1، 1986م، ج 6، ص 372. والمقري: نفع الطيب، مرجع سابق، ج 2، ص 116).

إلى شرح يوضح معانيها، ويُفكُّ مُعضلاتها، وضع شرحًا مُختصرًا عليها. هذه المقدمة التي تلقفها طلاب العلم ومشايخهم بالدرس والشرح والتوضيح والتعليق والتبسيط والتقييد، إلى فترة طويلة من الزمن، وقد كثر شُرَاحُها والمعلقون عليها، وكثر وضع الحواشي عليها كعادة العلماء والفقهاء في ذلك العصر، ومن أبرز هؤلاء الشُّراح: الشيخ الفقيه¹ أحمد زروق الفاسي، الذي ترك موروثة علميا هائلة لم يظهر منه إلى النور مطبوعًا إلا النزر القليل، مثل شرحه على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وأكثر موروثة العلمي مازال في خزائن المخطوطات بعيدًا عن أيدي المتعلمين بلا طباعة وبلا تحقيق، وبعضه قد يسر الله له من يُحقِّقه، مثل هذه المقدمة التي قام بتحقيقها الدكتور أحسن زقور. وقد أتم الشيخ أحمد زروق شرحه لهذه المقدمة القرطبية في الخامس عشر من شهر رمضان سنة 895هـ².

والعمل الذي قام به الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- هو شرح نظم القرطبي، والمسمى: "أرجوزة³ الولدان في الفرض والمسنون للفقيه يحيى القرطبي"، والذي قال في مقدمته لها:

وبعد حمد الله يا إخواني *** فهذه أَرْجُوزَةُ الْوِلْدَانِ

نَظَّمْتُهَا فِي الْفَرْضِ وَالْمُسْنُونِ *** لِيَعْلَمُوا مِنْهَا أَصُولَ الدِّينِ⁴

وعن سبب شرح الشيخ أحمد زروق للمقدمة القرطبية، يقول رحمه الله: "أما بعد: فإن الله سبحانه قد فرض على عباده فرائض الدين، وأوجب على العلماء أن يُبينوا لهم ما يحتاجونه من ذلك أتم تبين، وأن همة كثير من المتعبدين والمشتغلين بالأسباب قد تقاصرت عن الطلب، واستقرت فيما

¹ لقد أزرى خشيم بالشيخ زروق الفقيه، وزعم بأن زروق لم يُقدِّم في الفقه أي مؤلف أساسي كما فعل في التصوف-وهذا صحيح-، وذهب إلى اعتبار عمله في الشرح لأمّهات كتب الفقه المالكي، وإن كان تعليقه ممتازًا، لكن لا يعدُّ عملاً قام به مثات قبله وبعده من الشارحين للحواشي دون أي جهد خلاق وإضافة جديدة، وهذا لعمري سيّبين لنا من خلال الوقوف على بعض شروحه خطاه وسفهة. وأنه كان رحمه الله مبدعًا خلاقًا، مضيفًا ومستدركًا للكثير من المسائل المعقّلة، والتي نسيها ناظموا ومؤلفوا الكتب التي شرحها وعلق عليها. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص 81-82).

² انظر: زقور: الشيخ أحمد زروق البرنسي وشرحه على المقدمة القرطبية في الفقه المالكي، مرجع سابق، ص 76-77، 89.

³ أرجوزة: أي قصيدة منظومة على بحر الرجز؛ ووزنه: مستفععلن مستفععلن مستفععلن*** مستفععلن مستفععلن.

وقد ركب الفقهاء بحر الرجز لنظم أعمالهم لسهولة؛ ولذلك سُمِّي: "حمار الشعراء"؛ لأنه بحر لا يركبه-لا ينظم عليه- فحول الشعراء إلا نادرًا. (انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، هامش ص 342).

⁴ زروق: شرح المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي، مرجع سابق، ص 96.

هي به من تحرير أو توجيه أو مُعاملة أو سبب، فقد رأيتُ كثيراً منهم يحفظون المقدمة القرطبية من غير أن يعرفوا لها معانٍ، ولا وجوه خفية ولا جلية، فظهر لي أن أضع عليها تقييداً مفيداً إن شاء الله، وأذكر فيه ما يكفي المرء في شأنه بفضل الله، رجاء دعوة صالحة ممن يحصل له بها انتفاع أو دخول في سلك من يهد الله به من يشاء من أهل الوصلة والانقطاع، ثم أرغب إلى الله سبحانه في تيسيره وتحصيله، وأضرعُ إليه في تحقيقه وتكميله، وأن يجعله رحمة لعباده وبركة في بلاده، وأن ينفع به من كتبه أو كسبه أو قرأه أو شيئاً منه أو تسبب فيه أو فيما يُعين عليه أو ينشأ عنه، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل¹.

وقد جاء هذا التَّظُّم على بحر الرجز، السَّهل للحفظ؛ لأنَّه قُصِد به أولادُ المؤمنين، فذلك أيسرُ لهم في الحفظ وأجمعُ للكلام، وأدعى للنفوس من حيث أنَّ استلذاذه والترنم به يُعين على حفظه، وقد اقتصر فيه التَّناظُّم على الفرض والمسنون؛ لأنَّهما الواجبُ التَّعلُّم دون غيرهما، وهذا كُلُّه بهدف تحصيل أصول الدِّين، من أصول المعاملات وأحكامها من الفرائض والسُّنن المتعلِّقة بلوازم الأعيان. وقد ذكر الشيخُ أحمد زروق -رحمه الله- اختلافَ العلماء فيمن قام بالعبادة على وجهها دون التفريق بين الفرض والمسنون، فقل: هي باطلةٌ وهو آثم، وقل: هي صحيحةٌ وهو مأجورٌ لأنَّه وافقَ الحقَّ، وقل: يبرأ من الإثم وهي صحيحةٌ ولا يُؤجر. فأما إن لم يُوافق الحقَّ، بل أخلَّ ببعض الشُّروط أو الأركان فهي باطلةٌ وهو آثم بلا خلافٍ. بل قال العلماء رضي الله عنهم: لا يجوزُ لأحدٍ أن يُقدِّم على أمرٍ حتَّى يَعْلَمَ حُكْمَ الله فيه².

وقد تَضَمَّنَتُ المُقدِّمةُ القرطبيةُ مسائلَ في: فقه التوحيد، الطَّهارة، الصَّلَاة، الصَّيام، الزَّكاة، والحجِّ. ولقد اقتصر صاحبُها على هذه المواضيع فقط من علم الفقه دون المواضيع الأخرى؛ لأنَّه كان يَهْدِفُ به إلى تعريف النَّاسِ أصولَ دينهم، وهي العبادات وما لها من أهمِّية في حياة النَّاسِ؛ إذ لا تستقيم حياتهم إلَّا بالعبادة³.

¹ زروق: شرح المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي، مرجع سابق، ص 93-94.

² انظر: المرجع نفسه، ص 96-97.

³ انظر: المرجع نفسه، ص 93.

وهذا الأمر يُؤكّد على المنحى العمليّ للدّرس الفقهيّ عند المغاربة، الذي يُجيبُ على مسائلِ النَّاسِ اليوميّة وما يعترضهم من نوازل، فيتكّل العلماء بالإجابة عنها والتّركيز عليها في مصنّفاتهم، لتنوير النَّاس وتعليمهم أمر دينهم.

والشيخ أحمد زروق رحمه الله له شرحان على القرطبيّة، شرحٌ مُختصرٌ، وشرحٌ طويلٌ، وهما مطبوعان معاً. قال ابنُ عسّكر: "وشرح أرجوزة القرطبي مرتين"¹، وقد ذهبَ حفيدُ الشيخ أحمد زروق، وهو الشيخ محمد إدريس طيّب، إلى أنّ الشيخ ألف في الموضوع غيرَ ما مرّة، كعادته في إرادته الضّبط والتّصحيح، وهذا ما استنتجته من المخطوطات المختلفة، والتي اختلّفت بداياتها ونهاياتها؛ فبعضها جاءت بدايته بعبارة: "قال الشيخ العالم العلامة سيدي أحمد زروق رحمه الله تعالى، ورضي عنه...، وبعدُ فهذه نبذة مُختصرة على الأرجوزة المعروفة بالقرطبيّة. رغبَ فيها بعضُ من له رغبة في الدّيانة من الفقهاء...". وجاء آخرها على النّحو التالي: "...من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره"². انتهى". وفي مخطوط آخر، تُوجد نسخة منه بخزانة المسجد الأعظم بتازة، تحت رقم: 2/665، يقول -رحمه الله- في أوله: "الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، وهو حسبنا ونعم الوكيل...". وفي آخره: "...ونعوذ بك من البلاء كلّ، وأنت حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم"³.

هذا وقد قسّم الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- شرحه إلى:

- مقدّمة، شرح فيها مقدّمة الناظم المشتملة على خمسة أبيات.
- فصل في قواعد الإسلام، شرح فيه أربعة أبيات للناظم.

¹ ابن عسّكر: دوحة الناشر، مرجع سابق، ص 50.

² هذا اقتباس من حديث رقم: 6475، رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ". (البخاري: الصحيح الجامع، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، مرجع سابق، ص 1611).

³ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 339.

• الباب الأول: باب التوحيد، شرح فيه ثمانية عشرة بيتا من كلام الناظم، والتي تطرّق فيها إلى : معرفة الربّ تبارك وتعالى - تنزيهه سبحانه وتعالى عن التشبيه بالخلق - وعن الإحاطة بالمكان والزمان - إرسال الرُّسل - بعثة الرّسول محمد ﷺ.

• أفردَ بعد ذلك بقيّة أبواب الكتاب (14 بابا) لشرح أحكام العبادات، وعزّزها بعناوين على شكل تنبيهات، وفوائد، وفصول، أشار فيها إلى بعض ما غفل عنه القرطبي في نظمه؛ وبذلك يكون الشيخ أحمد زروق قد شرح المنظومة، وعزّزها بما رآه مُفيدًا للسّالك، والقارئ¹.

وكما أراد القرطبي أرجوزته سهلة للحفظ من أجل ولدان المسلمين، فكذلك جاء شرح الشيخ أحمد زروق، مُبسّطا مدرسيًا مُراعيا في ذلك مقصد ناظمها، والمستوى الفكريّ للمُخاطبين بها. حيث أنّها مُوجّهة أصلا للمتعلّمين، والمريدين المبتدئين؛ لتعليمهم عقيدة السّلف، والعبادات على مذهب الإمام مالك رحمه الله. والغالب على الظنّ أنّ الشيخ أحمد زروق ألّف شرح القرطبية قبل سفره إلى المشرق، ثمّ عاد لشرحها - كعادته - مرّة أخرى، الشّرح المطوّل².

وقد جاء تقسيم الشّرح للشيخ أحمد زروق وترتيبه بنفس التّقسيم والترتيب الذين اتّبعهما الشيخ يحيى بن سعدون القرطبي صاحب الأرجوزة، وهو بدوره قد أخذ بنفس التّقسيم والترتيب الموجودين في أيّ كتاب فقهيّ؛ فهو قد درّج على مدرّج الفقهاء نفسه الذين سبقوه خاصّة المالكيّة منهم، حيث قسّم - إضافة إلى ما قلناه سابقًا - الكتاب إلى مُقدّمة وأبوابٍ وربّتها كما يلي:

1- مقدمة في قواعد الإسلام، 2- باب التّوحيد، 3- باب الصّلاة، 4- باب فرائض الوضوء، 5- باب سنن الوضوء، 6- باب الغسل، 7- باب سنن الغسل، 8- باب التيمّم، 9- باب سنن التيمّم، 10- باب فرائض الصّلاة، 11- باب سنن الصّلاة، 12- باب فرائض الصّوم، 13- باب سنن الصّوم، 14- باب فرائض الزّكاة، 15- باب آداب الزّكاة، 16- باب فرائض الحجّ. وقد أضاف الشيخ أحمد زروق في شرحه إلى هذه الأبواب، عناوين كثيرة وضعها على شكل تنبيهات وفوائد وفصول وفروع، كما يُشير بها إلى ما غفل عنه الناظم حسب نظره، وهو بفعله هذا

¹ انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 337.

² المرجع نفسه، ص 338.

يكون قد فعل ما يفعله المرمم في بناء البيت، حيث استطاع أن يُخرج الكتاب بصورة رائعة، شاملاً لكل ما يحتاجه المرء في دينه¹.

وقد اعتنى الشيخ أحمد زروق في شرحه بالتعريفات اللغوية والاصطلاحية، والتفريعات، والفوائد، والتنبيهات الفقهية، وغيرها، واستدرك على الناظم في بعض المسائل، مثل استدراكه عليه في باب التيمم، الأحكام المتعلقة بالمسح على الخفين، والجباير والعصائب، والأحكام المتعلقة بالحيز والنفاس². وجاء هذا الاستدراك من الشيخ أحمد زروق على القرطبي في فصل سماه زروق: "فصل في أمور من الطهارة لم يذكرها الناظم"³.

وأما منهجه في الشرح فيتميز بالوضوح والانسجام؛ فعند إيراد الآيات التي يريد شرحها، فإنه يستهلها بقوله: "قال الناظم رحمه الله" أو ما شابه ذلك، ثم يشرع في شرحها تمييزاً لكلامه بقوله: "قلت"، كما أنه يعتني أحياناً بشرح تراجم الناظم، وبيان معانيها اللغوية والشرعية. ومن منهجه أيضاً، إيراد الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد يستشهد بالشعر أيضاً، ويعتمد بعض القواعد الأصولية والفقهية. وبخصوص الحديث النبوي فإنه اعتنى غالباً ببيان درجة الحديث، وذكر من خرجه من أصحاب المصنفات الحديثية، ومن أمانته أنه إذا لم يقف على الحديث، أو لم يأت به بنصه، بين ذلك وطلب من القارئ البحث عنه. وأما أقوال العلماء فالشرح غاية في ذكرها، ونهاية في نسبتها وطريقة سردها، باختصارها تارة، وبالنص على الإجماع والاتفاق على قول منها تارة أخرى، أو بأن أكثر المحدثين على هذا القول، وأقل الفقهاء على ذاك أو العكس⁴؛ مثل مسألة الصلاة وحكمها، إذ يقول: "فأكثر المحدثين مع أقل الفقهاء يقولون تاركها كافر، لقوله ﷺ: "بين الكفر والإسلام

¹ انظر: زقور: الشيخ أحمد زروق البرنسي وشرحه على المقدمة القرطبية في الفقه المالكي، مرجع سابق، ص 92-93.

² عكلي، مصطفى: المقدمة القرطبية على مذهب السادة المالكية، الرابطة الحمديدية للعلماء، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، المملكة المغربية، 2008/11/14م.

³ انظر: زروق: شرح المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي، مرجع سابق، ص 178 وما بعدها.

⁴ انظر: عكلي: المقدمة القرطبية على مذهب السادة المالكية، مرجع سابق.

والصَّلَاةُ، مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ"¹، وأكثرُ الفقهاء مع أقلِّ المحدثين يقولون أنَّه مسلمٌ عاصٍ بتركها، ويتأوَّلون الحديث بالجاحد، فإنَّ الجاحد لوجوبها أو وجوب شيء من القواعد كافرٌ بإجماع². والشيخ بذلك ينتهج منهجاً وسطياً معتدلاً، في هذه القضية التي تشدَّد فيها البعض، فنحى منحى التكفير بلا تفصيل، ولأنَّ تخطيء في إدخال المرء للإسلام خيرٌ من أن تُخطيء في إخراجِه منه، وهذا مذهبُ السَّادة الصُّوفية السَّمح، في اختيار أيسر الأقوال وأنسبها لروح النصِّ، وحكمة التشريع فيه.

وأما المصادر التي اعتمدها الشيخ أحمد زروق في شرحه، فيمكن القول إنَّه رجَّع إلى جُلِّ أمَّهات كُتب الفقه المعروفة والمشهورة، المالكيَّة منها وغيرها من الحنفيَّة والشافعيَّة، فقد تکرَّر فيه -أي الشرح- من أسماء الكتب ذِكر المدوَّنة، والواضحة، والعنبيَّة، والنَّوادر، والرَّسالة، والعارضة، وقواعد عياض، والبيان والتحصيل، والمقدِّمات، والطارز، والذخيرة، والجواهر، والتوضيح، وشرح ابن الفاكهاني للرَّسالة، وشرح القلشاني لها، ومن أسماء أعلام الفقهاء والعلماء غير أصحاب الكُتب المذكورة: ابن عبد الحكم، وابن شعبان، واللَّحْمي، وابن عطاء الله، والباجي، وأبو الفرج المالكي، وابن القابسي، وابن القصار، وابن لبابة، وابن هارون، وابن عبد السلام، وغير هؤلاء كثير، ونشَر الشارح أيضاً فوائد مستحسنة استقاها من شيوخه. وبهذه المزايا يُمكن اعتبار هذا الشرح بياناً مُختصراً جامعاً شاملاً لأحكام قواعد الإسلام الخمس. ومَّا يُظهر قيمته اعتمادُ بعض العلماء عليه، واقتباسهم منه، منهم: أبو عبد الله الخطَّاب (ت 953هـ) في كتابه: "مواهب الجليل"³.

أوردنا سالفاً قولَ الشيخ أحمد زروق، وهو يُقرِّر أهميَّة هذه المقدِّمة الفقهية على مذهب السَّادة المالكية، فقال: "رَغِبَ فيها بعضُ من له رغبةٌ في الدِّيانة من الفقراء..."، وهذا القولُ يَنمُّ على اهتمام المتصوِّفة بالفقه وتحصيله، وعلى ضرورة ترغيب المريدين والفقراء في دراسة عِلْم الفقه وأحكام الشريعة

¹ رواه مسلم. والحديث الذي عثرْتُ عليه هو الحديث الذي رواه مسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه وعن أبيه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله قال: "بينَ الرَّجُل، وبينَ الكُفر والشُّرك تركُ الصَّلَاة" خرَّجه مسلم في الصحيح، وفي مسند أحمد والسنن الأربع بإسناد صحيح عن بُريدة بن حصيب رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله قال: "العهدُ الذي بيننا وبينهم الصَّلَاة، فمن تركها؛ فقد كَفَرَ".

² زروق: شرح المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي، مرجع سابق، ص 98.

³ انظر: عكلي: المقدمة القرطبية على مذهب السادة المالكية، مرجع سابق.

الظاهرة، والتي لا يحصل كمال الرقي السلوكي إلا بعد العمل بها وتحصيلها، كما قال الشيخ أحمد زروق في القاعدة الرابعة من قواعد التصوف، إذ قال: "... فلا تصوّف إلا بفقه، إذ لا تُعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوّف، إذ لا عمَل إلا بِصدق وتوجّه..."¹.

إنّ الشيخ أحمد زروق رحمه الله، وهو يشرح قول النّظام، يحيى بن سعدون القرطبي:

قواعد الإسلام خمسٌ فاعلم*** ما جاء في نصّ الحديث المحكم

يقول زروق: "قواعد الإسلام: أصوله التي يُبنى عليها، وقاعدة كلّ شيءٍ ما يُبنى عليه. ويقول: الإسلام: عبارة عن أحكام الدّين الظاهرة؛ كما أنّ الإيمان عبارة عن عقائده؛ فكما لا يصحّ أعمال الإسلام إلا بالعقائد، لا تصحّ حقائق الإيمان إلا ببعض أعمال الإسلام؛ وهي الشّهادتان، ونحوها. على خلافٍ في بعض الصّور؛ وقال ابن حبيب، والحكم بن عيينة: "كلّ قواعد الإسلام شرطٌ في صحّة الإيمان، فمن ترك منها واحدة فهو كافر، وإن أقرّ بالوجوب"، والصّحيح التّفصيل. فأما الشّهادتان على القادر باتّفاق، ثمّ إن ترك؛ فإن كان عناداً، فكفر إجماعاً؛ وإن كان لغير ذلك؛ فثالث الأقوال. إن كان التّرك لمانع؛ كاخترام المنيّة، أو الإكراه، فإيمانه صحيح؛ وإلا فلا. وأما الصّلاة فقد تكلمنا عنها².

ثمّ يدلّف الشيخ أحمد زروق إلى باب التوحيد وما يتعلّق بكلمتي الشّهادة، وهكذا دأب التأليف عند المغاربة، وطبيعة التّداخل بين الكلام والفقه، وابتداء الأخير على الدّرس العقدي يكاد يكون السّمة البارزة عند علماء المغاربة جميعاً. فيقول: "وحقيقة الباب-أي باب التوحيد- فرجةٌ في سائر يتوصّل بها من ظاهر إلى باطن. ظاهرها الجهل، وباطنها العلم، وطريقها التعلّم. حقيقة الأجسام، كباب الدّار وباب الدّكان ونحوه. مجازاً في المعاني، كباب التوحيد والصّلاة ونحوه، وقد قال البوسنجي أبو علي: "التّوحيد: إثبات ذاتٍ غير مُشبّهة بالذوات ولا مُعطّلة عن الصّفات. وقال ذو النون المصري: "التّوحيد: أن تعلم أنّ قدرة الله في الأشياء بلا مزاج، وصنعه لها بلا علاج، وعلة كلّ شيءٍ صنعه، ولا علة لصنعه، وليس في السّموات العلى ولا في الأرضين السّفلى مُدبّر غير الله، وكلّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك"³. ثمّ يتحدّث الشيخ عن اختلاف العلماء في وجوب معرفة الرّبّ سبحانه وتعالى، هل سبيلها النّظر والاستدلال، أم التّقليد فيها جائز، فهو يُرجّح القول بعدم اشتراط حصول المعرفة على طريقة المتكلّمين؛ بل يكتفي بدلالة

¹ زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص22.

² انظر: زروق: شرح المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي، مرجع سابق، ص97-98.

³ انظر: المرجع نفسه، ص100-101.

وُجُود المخلوقات وحدوثها بعد أن لم تكن على وجود خالقها، وهذا ما كان عليه الأمر في الصدر الأول¹.

ويقفُ الشيخ أحمد زروق وقفاتٍ أخرى مع تنزيه الباري عن التمثيل والتشبيه وعن المكان، وينقل قول أحد المتصوّفة الكبار، وهو أبو القاسم القشيري رحمه الله في تفسيره مع آية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فيقول رضي الله عنه: "هذه الآية تشتمل على جوامع مسائل التوحيد؛ وكيف تُشبه ذاته ذات المحدثات وهي بوجودها مستغنية؟ وكيف يُشبه فعله فعل الخلق وهو لغير جلب أنسٍ أو دفع نقصٍ حصّل، ولا بخواطر وأغراض وجد، ولا بمباشرة ولا معالجة ظهر، وفعل الخلق لا يخرج عن هذه الوجوه. ونقل قول أبي المعالي الجويني: "من اطمأنَّ إلى مَوْجُود انتهى إليه فكره فهو مُشَبَّه، ومن اطمأنَّ فكره إلى النَّفي المحض فهو مُعْطَل، وإن قَطَعَ بمَوْجُود اعترف بالعجز عن درك حقيقته فهو مُوَحَّد"².

وبعد أن فرغ الناظم من فصل التنزيه، شرع في فصل إثبات الصفات؛ فإنَّ الله تفرَّد بعلم الغيب، فعلم ما كان، وما يكون، وما لا يكون، أن لو كان كيف يكون، سبحانه، كما ورد عن الإمام الجنيّد رحمه الله. وعلمه عزَّ وجلَّ على التفصيل؛ إذ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ولا يعزُّب عن علمه مثقال ذرة في الفضاء، ويدرك حركة الذرّ في جوِّ الهواء، ويطلُّع على هواجس الضمائر وخفايا السرائر بعلم قدسٍ قائم بذاته، لا يعلم يتجدّد أو يتعدّد. ولا يُوصف علمه تعالى أنّه ضروريٌّ أو نظريٌّ أو مكتسب؛ فهذا علم الخلق، وعلمه تعالى يتعلّق بالواجب والجائز والمستحيل. ومن إثبات الصفات أنَّا نُثَبِّتُ له السَّمْعُ؛ ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62]. فهو يسمع بغير أصمخة وآذان، ويرى بغير حدقة وأجفان، ويتكلّم لا بشفّة ولهاة ولسان، كما يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة، والسمع والبصر والكلام صفات واجبة لكماله، كما أنّه حيٌّ عليمٌ مريدٌ قديرٌ، بالحياة والعلم والإرادة والقدرة³.

ثمّ يتكلّم الشيخ أحمد زروق عن رحمة الله بعباده، أن أرسل لهم الرُّسل مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، فمن اتَّبَعَهُمْ كانوا له مَحَجَّةً، ومن عصاهم كانوا عليه حُجَّةً، قال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، ويستدلُّ زروق رحمه الله بكلام سيّد الصّوفية

¹ انظر: زروق: شرح المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي، مرجع سابق، ص 101-102.

² انظر: المرجع نفسه، ص 105-106.

³ انظر: المرجع نفسه، ص 107-110.

أبي العباس المرسي رحمه الله: "الأنبياء عليهم السلام لأئمتهم عطية، ونبيُّنا لنا هدية، وفرق بين الهدية والعطية؛ العطية للمحتاجين، والهدية للمحبوبين". ثمَّ أنَّ الشيخ ذكر أنَّ مدار العقيدة على ثلاثة معارف: معرفة المرسل، والمرسل به، وما يجب له، وما يستحيل عليه، وما يجوز في حقِّه¹.

بعد شرح هذه المقدمة العقدية في مبتدأ هذه الأرجوزة، يأتي الشيخ أحمد زروق على شرح المسائل الفقهية، وهي أركان الإسلام الخمس، من صلاة وصيام وزكاة وحجٍّ، مُدعِّماً شرحه بالاستدلال من الكتاب والسنة، وأقوال الأئمة الصوفية مثل: أبي عبد الله القوري وأبي القاسم القشيري وابن عرفة، وقطب المغرب أبو بكر بن العربي والقاضي عياض والإمام المازري وابن أبي زيد وأبو عبد الله الأبي، وغيرهم من أصحاب المذهب المالكي. ولا يخلو شرحه من ملح وفوائد وتعقيبات وترجيحات لأقوال السادة المالكية في عديد المسائل الفقهية.

وهو الشيخ زروق إذ يتحدَّث عن الصَّلَاة مثلاً، وقبل أن يُلجَّ مَهَيِّع أحكامها² فإنَّه يُجَلِّي الكلام في مبتدئه بحلية أهل السُّلوك والتَّصوُّف، فيقول: "قال ابنُ عطاء الله السَّكندري في حِكْمه: "لِيَكُنْ هُمُكَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ لَا وَجُوبَ الصَّلَاةِ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٍ". الصَّلَاةُ طَهَارَةٌ لِلْقُلُوبِ، وَاسْتِفْتَاحٌ لِبَابِ الْغُيُوبِ، الصَّلَاةُ مَحَلٌّ لِلْمُنَاجَاةِ، وَمَعْدَنُ الْمَصَافَاةِ، تَتَّسِعُ فِيهَا مِيَادِينُ الْأَسْرَارِ، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الْأَنْوَارِ، عِلْمٌ وَجُودٌ الضَّعْفُ مِنْكَ فَقَلَّلْ أَعْدَادَهَا، يَعْنِي إِذْ جَعَلَهَا خَمْسًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ خَمْسِينَ، وَعِلْمٌ احتِيَاجُكَ إِلَى فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا إِذْ جَعَلَ الْخَمْسَةَ بِخَمْسِينَ، الْحَسَنَةُ بَعِشْرَ أَمْثَالِهَا، فَافْهَمْ"³.

المطلب الثاني: الدرس الفقهي للشيخ زروق من خلال شرح الرسالة

إذا دُكر الفقه المالكي بالغرب الإسلامي، فلا بُدَّ أن تُذَكَّر رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أو المعروف بمالك الصَّغِير وقُطْبُ المغرب، فهي رسالةٌ - كما ذكر الشيخ أحمد زروق في مُقدِّمة شرحه لها - شهيرةُ المناقب والفضائل، غزيرةُ النَّفَع في الفقه والمسائل، من حيث أنَّها مدخلٌ جامعٌ للأبواب، قريبةُ المرام في الكتب والحفظ والاكتساب، وقد اعتنى بها الأوائل والأواخر، وانتفع بها أهل الظاهر

¹ انظر: زروق: شرح المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي، مرجع سابق، ص 110-116، 111.

² ذهب التَّأَظُّم إلى أنَّ مسائلها اثني عشر ألف مسألة، ونسب القول إلى الحافظ المالكي بن العربي الإشبيلي، وقال زروق أنَّه لم يقف على هذا العدد عند أحد، وما دام القرطبي قد أسنده إلى القاضي بن العربي، فما يكون ممَّا إلا التسليم والقبول به. (انظر: المرجع نفسه، ص 122).

³ انظر: زروق: شرح المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي، مرجع سابق، ص 122.

والباطن، حتى صارت بحيث يهتدي بها الطالب المبتدي ولا يستغني عنها الراغب المقتدي، ولم تنزل الناس يشرحونها على مرّ السنين والدهور، والعلماء يتداولون ما فيها من مُشكِلات الأمور، نحوًا من خمسمائة عام، ولم تنقص لها حرمة، ولا طعن فيها عالمٌ مُعْتَبَر في الأمة، مع ما فيها من عظيم الإشكال، ودواعي الإنكار من الحُسّاد، وهذه كرامة من الله لا تُنال بالأسباب¹.

وقول الشيخ أحمد زروق: "مع ما فيها من عظيم الإشكال"، هي إشارة لما لوحظ على رسالة ابن أبي زيد أنّها ضمت أقوالا غير مشهورة في المذهب، ربّما لأنّ ذلك ناتج عن تقدّم تأليفها، فالرسالة أول مُختصر ظهر في الفقه المالكي، ولم تكن الأقوال قد نالها من البحث والتّحقيق ما بلغته فيما بعد؛ وقد أشار إلى هذا الأمر الشيخ مصطفى الرّماصي (ت1136هـ²)، وهو معروف بتقويم المؤلفات في المذهب، وبيان منزلتها فيه؛ فيرى مثلاً أنّ ابن أبي زيد القيرواني لم يلتزم في رسالته ذكر المشهور، قال في الصّلاة على القبر: وأما قول الرّسالة: "ومن دُفن ولم يُصلّ عليه ووُوري فإنه يُصلّى على قبره"، فلا دليل فيه، لأنّها لا تتقيّد بالمشهور". وقد أدّى هذا الأمر ببعض العلماء أن يختصّ ما في الرّسالة من المُشكِلات بالبحث، فقد نظّم مُشكِلاتها أحمد بن محمد بن غازي العثماني المتوفي سنة 919هـ³.

و"الرّسالة"، الملقّبة بباكورة السّعد وبزبدة المذهب⁴، ألّفها القيرواني رحمه الله في مُقْتَبَل عمره⁵، لما طلب منه أحد أقرانه وأهل بلده في تونس، في القيروان، وهو رجلٌ كان يُعلّم الأولاد والصّبيان، يُعلّمهم: القرآن ومبادئ أحكام الشّريعة، ويُقال له: أبو محفوظ، محرز بن خلف البكري التونسي المالكي

¹ انظر: زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص9.

² العلامة المتفنن المحقّق والجهيد النقاد المدقق، من أذعن له في وقته الأقران، ولم يختلف في فضله وسعة علمه اثنان، وتراحم على بنات فكره وعرائس سره الداني من أهل العلم والقاصي، الشيخ الإمام القدوة سيدي مصطفى بن عبد الله بن مومن الرماصي نسبة إلى رماصة قرية صغيرة من قرى مستغانم، رحل إلى مصر لطلب العلم عن أكابر أهلها، ورحل قبل إلى بلد مازونة. من تأليفه شرحه على متن السنوسية، وأيضاً حاشيته على شرح التتائي على متن سيدي خليل في فقه مذهب مالك. (انظر: الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مرجع سابق، ص566).

³ انظر: العابدين، بن حنفية: العجالة في شرح الرسالة، دار الإمام مالك، الجزائر، ط2، 2014م، ج1، ص25-26.

⁴ باكورة السّعد نتيجة ما ظهر لدى الطلبة من أثرها وبركتها. وأما زبدة المذهب فهو ناتج عن كونها أول مختصر ظهر في المذهب بعد التفرع لابن الجلاب؛ لأنه لم يوجد في ذلك الوقت للمالكية إلا الأهميات الكبار، فسمي التفرع مختصراً بالنسبة لها. (انظر: النفراوي، أحمد بن غنيم بن سالم: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ضبط وتصحيح: عبد الوارث محمد علي، منشورات محمد علي بوضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1997م، ج1، ص2).

⁵ قال الشيخ أبو عبد الله القوري رحمه الله: ألّف هذا الكتاب وهو ابنُ سبع وعشرين سنة. وهناك من قال أنّه ألّفها وعمره سبع عشرة سنة، كما ذكره المترجمون له. (انظر: زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج2، ص1112).

القيرواني (ت413هـ)، فطلب من الإمام محمد بن عبد الله بن أبي زيد القيرواني أن يكتب كتابًا يهتدي به في تعليم هؤلاء الصبيان من أولاد المسلمين، وفي ذلك ما ذكره ابن أبي زيد في خطابه له من قوله: "... لِمَا رَغِبْتَ فِيهِ مِنْ تَعْلِيمِ ذَلِكَ لِلْوِلْدَانِ كَمَا تُعَلِّمُهُمْ حُرُوفَ الْقُرْآنِ، لِيَسْبِقَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ فَهْمِ دِينِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ مَا تُرْجَى لَهُمْ بَرَكَتُهُ وَتُحَمَّدُ لَهُمْ عَاقِبَتُهُ، فَأَجَبْتُكَ إِلَى ذَلِكَ، لِمَا رَجَوْتُهُ لِنَفْسِي وَلَكَ مِنْ ثَوَابٍ مِنْ عِلْمٍ دِينِ اللَّهِ أَوْ دَعَا إِلَيْهِ"¹.

فكانت استجابة الشيخ القيرواني أن كتب له كتاب "الرسالة"، وفي ذلك يقول ابن أبي زيد مخاطبًا الشيخ محرز: "... فَإِنَّكَ سَأَلْتَنِي أَنْ أَكْتُبَ لَكَ جُمْلَةً مُخْتَصَرَةً مِنْ وَاجِبِ أُمُورِ الدِّينِ مِمَّا تَنْطَلِقُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَتَعْتَقِدُهُ الْقُلُوبُ، وَتَعْمَلُهُ الْجَوَارِحُ، وَمَا يَتَّصِلُ بِالْوَاجِبِ مِنْ ذَلِكَ مِنَ السُّنَنِ مِنْ مُؤَكِّدِهَا وَنَوَافِلِهَا وَرَغَائِهَا، وَشَيْءٍ مِنَ الْأَدَابِ مِنْهَا، وَجُمْلٍ مِنْ أَصُولِ الْفَقْهِ وَفَنُونِهِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَطَرِيقَتِهِ، مَعَ مَا سَهَّلَ سَبِيلَ مَا أَشْكَلَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ تَفْسِيرِ الرَّاسِخِينَ وَبَيَانِ الْمُتَفَقِّهِينَ..."²، " وَقِيلَ إِنَّ الَّذِي طَلَبَ مِنْهُ تَأْلِيفُهَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّبَائِي، قَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ زُرُوقُ: " وَعَلَى الْأَوَّلِ اقْتَصَرَ أَصْحَابُ التَّقَايِيدِ، وَعَلَى الثَّانِيِ اقْتَصَرَ الْمُؤَرِّخُونَ، وَيُحْتَمَلُ اتِّفَاقِيَةُ الْجَمْعِ، وَإِلَّا فَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ"³. وَكِتَابُ الرَّسَالَةِ جَلِيلُ النَّفْعِ، عَدِيمُ الْمِثْلِ وَالتَّنْظِيرِ، بَدَأَهُ بِالْعَقِيدَةِ، ثُمَّ شَرَعَ فِي مَسَائِلِ الْفَقْهِ وَالْأَحْكَامِ وَأَصُولِ الْفَقْهِ وَأَصُولِ الاسْتِدْلَالِ⁴.

والذي جعل الشيخ أحمد زروق يحفل برسالة القيرواني، ويوليها رعاية بالغة فيبادر لشرحها وتبسيط مسائلها، هو كثرة قرائنها وأهميتها وانتشارها في الأمصار (المغاربة والسودان)، وتفقه الناس عليها؛ فكانوا بحاجة لمن يشرحها ويعلق على بعض مسائلها، فكان شرحه توضيح لبعض ما نطق به الشيخ القيرواني، وتتميم لما نطق به الشيخ من ظاهر كلامه والإتيان بالفوائد اللازمة⁵.

¹ القيرواني، ابن أبي زيد: الرسالة الفقهية، مع غرر المقالة في شرح غريب الرسالة للمغراوي، تحق: الهادي حمّو، محمد أبو الأجنان، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 1986م، ص73.

² المرجع نفسه، ص73.

³ العابدين: العجالة في شرح الرسالة، مرجع سابق، ج1، ص18.

⁴ الشبل، علي بن عبد العزيز: شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني في العقيدة (2)، شبكة الألوكة الشرعية، تاريخ الإضافة: 2016/05/28م.

⁵ زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص10.

وهذا الشرح أيضا احتفاءً بمكانة ابن أبي زيد العلمية عند المغاربة، وكذا رسالته في الفقه على مذهب الإمام مالك رحمه الله، المعتمدة عند أهل الغرب الإسلامي قاطبةً من أجل المصنّفات في فروع الفقه المالكي، ولذلك فإنّ الشيخ أحمد زروق يعتبر الرسالة سبيلا ووسيلة لأن يفتح الله الأبواب لمن التزمها علما وعملا، فقال: "...أنّ من التزمها علما وعملا فتحت له أبواب، فكان ذا أربعة أو أحدها أو اثنين أو ثلاثة: أحدها: علم حاصل، أو مال واصل، أو صلاح كامل، أو جادة فاضل حسبما استقرئ ذلك في الغالب، وأخذ من كلامه بعض المطالب¹.

لقد كان الاعتقاد سائدا ببركة "الرسالة" حتى قيل: إنّ من حفظها وعني بها وهبه الله تعالى ثلاثا أو واحدة من ثلاث: العلم والصلاح والمال الطيب، ولعلّ هذا من عوامل سعة انتشارها في الأقطار، بالإضافة إلى العوامل الأخرى والتي منها:

- * خفة مؤنتها، والعامّة يميلون إلى ما خفت مؤنته حملا ونسخا ونظرا.
- * اشتغالها على كل أبواب الشريعة، مع الاقتصاد في كل باب على ما يلزم المكلف فعله.
- * كون مسائلها - رغم أنّها في الظاهر من قبيل الرأي - مستمدة من الآثار التوقيفية، جارية على منهج أهل الأثر والحديث والفقه.
- * جريان العادة لدى الناس بالمبادرة إلى ما يُقبل عليه الجمع الغفير منهم، وبذلك يزداد الإقبال على ما كان مألوفاً.

- * تركيز مسائلها على العبارة الدقيقة الحكيمة التي صاغها مؤلفها، وذلك مُيسّر للمراجعة².
- ولقد كان من إخلاص الإمام ابن أبي زيد القيروانيّ في تصنيفه لرسالته، ولجؤه إلى الله ودعائه له؛ أن كان يجعلها في محرابه الذي يُصلّي فيه ليلا، يرجوا بذلك أن تكون مكان عقبه، لأنّه لم يكن له عقب³، ولذلك لم تنزل تُتلى منذ وُجدت إلى الآن يخرج لها في كلّ سنة شرح وتبيان⁴.

¹ زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص9.

² ابن عاشور، محمد الفاضل: أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، مكتبة النجاح، تونس، ص48-49.

³ ذكر هذا الشيخ علي الأجهوري في شرحه، وأنه كان يدعو الله إثر كل صلاة أن يحجب الرسالة للخلق، وأن يقيمها له مقام وارث، لكن قد ورد ذكر ابنين لابن أبي زيد في سند إجازة الرسالة كما هو في فهرس ابن عطية. (انظر: العابدين: العجالة في شرح الرسالة، مرجع سابق، ص31).

⁴ انظر زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص9.

ولإخلاص الشيخ في تأليفها فقد كانت هذه الرسالة من أجلّ وأشهر المؤلفات المشهورة في الفقه المالكي، حتى قال عنها العلامة أبو العباس القلشاني المالكي، قاضي قضاة تونس، الحافظ لمذهب مالك، شارح الرسالة: "اشتهرت اشتهاً التَّهَار، وشاعت في جميع الأقطار، وتلقاها النَّاس بالقبول في سائر الأعصار، وظهرت بركتها ويمُنُّها على من اشتغل بها من الكبار والصَّغار"¹. ويقول العلامة الفقيه المؤرِّخ عبد الرحمان الصَّبَّاح: "اشتهرت الرسالة في سائر بلاد المسلمين حتى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النُّوبة، وجميع بلاد إفريقية والأندلس والمغرب وبلاد السُّودان، ولقد تنافس النَّاس في اقتنائها حتى كُتبت بالذهب، وأول نسخة منها بيعت في حلقة أبي بكر الأبهري في بغداد بعشرين ديناراً ذهباً..."².

وإذا نظرنا في هذا الشرح المانع، نجد الشيخ أحمد زروق يفتتحه بمقدمة ضمَّنها بعض فضائل ومناقب رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وذكر من سبقه من العلماء إلى شرحها، كما صرَّح في مقدمته بالمنهج الذي سار عليه أثناء الشرح، وبيَّن بعض الرموز التي استعملها، وذكر بعض الشُّروح والمصادر التي كانت مُعتمَدة ومنهله خلال تأليفه لهذا الشرح المستوفى، وقد تناول الشيخ مباحثَ متن الرسالة بالشرح، سائراً في ذلك على ترتيب الأصل؛ حيث بدأ بشرح مسائل العقيدة، ثمَّ أردف ذلك بشرح الأبواب الفقهية فبدأ بأبواب الطَّهارة، وختَمَ بباب في الرُّؤيا والتَّشَاؤُب والعُطاس واللَّعب بالتردِّد³.

وأما منهج الشيخ أحمد زروق في شرحه لهذه الرسالة، فهو لا يختلف عن منهجه في جُلِّ كُتبه وشُروحه؛ فهو يأنفُ الإطناب الممل؛ لذلك نجده يُحيلُ القارئ غير ما مرَّ إلى المطوَّلات دون الحَوَظ في الكلام عن المطلوب، كقوله: "والكلام في هذا طويلٌ عريضٌ؛ فليُنظر في محله"⁴.

كما أنَّه لا يعتمد أسلوب الاختصار الكثير المخل، فمثلاً عند شرحه لقول أبي زيد (وصفة الاستنجاء إلخ) قال: "يعني الكاملة هي الجمعُ بين الماء والحجارة وما يقوم مقامها لَقْد أو غيره، هي أن يبدأ بعد غسل يديه معاً لمن قام من النَّوم أو شكَّ فيهما أو اليسرى فقط، وعليهما روايات التَّشنية والإفراد هو أولى

¹ القيرواني، ابن أبي زيد: رسالة ابن أبي زيد القيرواني، تحقيق: أحمد مصطفى قاسم الطهطاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، ص3.

² الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل الإيمان، مرجع سابق، ج3، ص137.

³ الحداد، منى عبد الله محمد: شرح زروق على متن الرسالة وآثاره على الفقه في السودان، مجلة جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، المجلد15، العدد01، 2019م، ص206-207.

⁴ انظر: طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص396.

والمراد بلها، لئلا يعلق بها شيء من الرّائحة عند مُلاقة الأذى وكذلك قال (خ) في مُختصره وبلها قبل لقي الأذى¹.

وهو شرحٌ يعتمد النّقل وإن كان بلا تعليل، ويأخذُ عيون المسائل إلا ما ندر، ويؤثر نقولات المتأخرين لما لهم من التّحرير في المسائل، وخاصّة من جماعة أثّر عنها البحث والتّحقيق، وقد كان قصْدُ الشّيخ أحمد زروق تصحيح المتن وبيان مُشكّله وإتمام النّقص فيه، لكن لم يتيسّر له ذلك نظرًا لكلفة السّفر، وعدم العُدّة وما اعتراه من الأمراض والأعراض².

ومن أمانته العلميّة أنّه يعتمد النّقل من كُتب ومُصنّفات رُموز ومشايخ مشهورين، ذكرهم في شرحه: شيخه ابن عرفة التّونسي (ت803هـ)، وكتابه: "المختصر الفقهي" المشهور، والشيخ الفقيه محمد الهواري (ت749هـ) قاضي الجماعة بتونس، وكتابه: "شرح جامع الأمّهات لابن الحاجب" المشهور، ثمّ الشيخ أبو المودّة خليل (ت769هـ)، وكتابه: "مُختصر شرح ابن الحاجب"، والشيخ تاج الدين بهرام الدميّري (ت805هـ) قاضي المالكية في وقته، وما جاء في كتابه: "الشامل في فقه الإمام مالك"، واعتمد أيضًا على تأليف شيخه الثعالبي الجزائري (ت875هـ)، ومنها كتابه في الفقه: "شرح على مُختصر ابن الحاجب الفرعي"، وشرح أبي العباس القلشاني (ت863هـ)، في كتابه: "تحرير المقالة في شرح الرسالة"، وما اختصره الشيخ الصالح أبي محمد الشيبّي (ت782هـ) لشرح تاج الدين بن الفاكهاني (ت734هـ) الموسوم بـ: "التحرير والتجوير في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني"³.

وما يميّز منهج الشّيخ أحمد زروق في الشّرح أنّه يُورد عبارة المتن أولاً: ثمّ يبدأ ببيان أوجه اللّغة فيها حتّى لا يبقى أيّ غموض في قراءتها وفهم معناها، مُقتدياً في ذلك بمن سبقه من شُراح الرّسالة: فمثلاً عند شرح قول القيرواني: (بسم الله) قال: "وقد افتتحا- يعني الجزولي ويوسف بن عمر الفاسي- الكتاب بالكلام على البسملة فلنقتد بهما على وجه الاختصار: فقلوله: بسم الله: خيرٌ محذوف تقديره ابتدائي أو افتتاحي بذكر اسم الله تَبَرُّكاً به"⁴.

¹ زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص134.

² انظر: المرجع نفسه، ج1، ص3. وطيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص395-399.

³ انظر: زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص3-4. وطيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص399-400.

⁴ زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص4.

ومن تميّزاته أيضاً، الاستفاضة في الشرح والاجتهاد في إيراد الأقوال في المسألة من داخل المذهب وخارجه، مع الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بالإضافة إلى الترجيح بين الأقوال عندما يتعلق الأمر بالمسائل الأصلية في الكتاب، ناسجاً ذلك كله بأسلوب يتميز بوضوح العبارة، وأسلوب لغوي وفقهي، يتسم بالوضوح والدقة في التعبير¹.

ومن الأساسيات التي تُذكر ونَحْنُ نتحدّث عن منهج الشيخ أحمد زروق في التأليف عموماً: أخذه بظاهر النص وتجنّب التأويل في الغالب الأعمّ، وكذا ربط الأحكام بأدلتها ما استطاع لذلك سبيلاً، وأيضاً ربط الفقه بالواقع المعيش؛ وهذا ما نُسمّيه الفقه العمليّ الذي يُجيب على مشاكل النَّاس وتساؤلاتهم، ولا يَسْبَح في البَحْث عن المسائل لا تُلامِس واقع النَّاس. ومن مظاهر منهجه أنّه إذا نقل آراء الفقهاء فإنّه يعرضها للتّحقيق والتّقد والأخذ والردّ، فهو ليس ناقلاً مُقلِّداً وإنّما شارحاً نافداً بصيراً عالماً مُدقّقاً. وهو في منهجه أيضاً يميل إلى الأخذ بالأحوط لدينه ويتجنّب مواطن الشُّبهات، ويسير وفق قاعدة سدّ الدّرائع².

هذا ولقد شرح الشيخ أحمد زروق رسالة ابن أبي زيد القيرواني مرتين، والتي تتضمن العقيدة في باها الأول؛ ويذكر تلميذه محمد الخروبي في شرحه لعيوب النَّفس أنّ للشيخ زروق شرحين وشرحاً ثالثاً على الرسالة، وقد وصفه بأنّه: "غاية في فنّه. أبداً فيه وأعاد، وسلك فيه مسلك العلماء الجياد الأنجاد"³؛ ولعلّه يعني بشرحه الثالث الذي أنهى تأليفه سنة 896هـ. حيث يُعتبَر من أواخر مؤلّفاته. وهو الشرح الذي اطلع عليه ابن غلبون، وقال عنه في كتابه: "التذكّار" وهو يتحدّث عن تواليف الشيخ زروق: "ألّف تواليف عديدة مفيدة في الفقه وطريق القوم... وشرح رسالة ابن أبي زيد في الفقه شرحاً حافلاً. مفيداً. تحرّر النقل، قرأت أكثره بخطّ يده"⁴.

وقال ابن عسكّر: "وشرح رسالة ابن أبي زيد شرحاً عجيباً"⁵. ومن دلائل ذلك ما قاله عبد الله الهاروشي (ت1175هـ) أنّه قرأ على شيخه ابن جابر الطرابلسي - شيخ الزاوية الزروقية بمصراته في عصره - من جملة ما قرأ من كُتب الشيخ أحمد زروق: "نبذة في شرحه لرسالة ابن أبي زيد"؛ ولعلّه يقصد بقوله: "نبذة" الشرح الصّغير. وذكر الشيخ عبد المجيد المنالي أنّه طالع الشرحين معاً: "ومما طالعت من كُتب

¹ الحداد: شرح زروق على متن الرسالة وآثاره على الفقه في السودان، مرجع سابق، ص209.

² انظر: طيب، عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص396.

³ الخروبي: الأنس في شرح عيوب النفس، مرجع سابق، ص16.

⁴ ابن غلبون الطرابلسي: التذكّار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، مرجع سابق، ص254.

⁵ ابن عسكّر: دوحة الناشر، مرجع سابق، ص50.

زروق... شرحه على الرسالة، وهما مُتقاربان وأحدهما أكبر من الآخر وبه اعتناء أكثر¹. وقد أنهى الشيخ أحمد زروق شرحه الكبير أوائل سنة 896هـ بمصر، وهو في طريق عودته إلى مصراته بعد حجته الأخيرة، حيث كان آخر العهد له بالديار المقدسة؛ كما ذكر تلميذه الطاهر الزواوي في حديثه عن الكرامة التي حصلت للشيخ زروق في المدينة المنورة².

ولقد كان هدف الشيخ أحمد زروق في شرحه الثاني، أن يُنجز ما كان يصبوا إليه من تحقيق المتن وتصحيحه، وبيان المشكل، وتتميم النقص، ولكن حال دون ذلك ظروف السفر ومشغله في ذلك الوقت، وكذا عدم توفر المراجع والمصادر بين يديه، إضافة إلى مرض الشويدة الذي كان يُعاوده بين الفينة والأخرى، ولعله حينما استقر بمصراته بعد حجته الأخيرة عكف على ذلك وتفرغ لتحقيق هدفه، وإن كان عمله هذا يُعتبر إلى الآن مفقوداً³.

ومن خلال هذا الشرح المستوفى من الشيخ أحمد زروق لرسالة القيرواني، يتضح رسوخ قدم الشيخ في ميدان الفقه، ويتبين أنه مثلما هو متمكن من علم التصوف، وحائز قصب السبق في هذا الميدان بين أقرانه، فهو ضليع في علم الفقه أيضاً، وهذا ما يؤكد المقولة التي اشتهرت في حقه، بأنه: "مُحتسب العلماء والأولياء والجامع بين الشريعة والحقيقة"، ولذلك استحق شرحه أن يكون عمدة ومرجعاً لمن جاء بعده، ومن الذين صرّحوا بالنقل عنه: الخطّاب (ت945هـ) في مواهب الجليل⁴، والخرشي (ت1101هـ) في شرحه على مختصر خليل⁵، وأبو العباس أحمد بن غنيم (ت1125هـ) في الفواكه الدواني⁶، وعلي بن أحمد العدوي (ت1189هـ) في حاشيته على شرح كفاية الطالب الرباني⁷، وغير هؤلاء⁸.

¹ المنالي، عبد المجيد: بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام، تحقيق: محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2006م، ص43.

² انظر: طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص393-395.

³ انظر: المرجع نفسه، ص395.

⁴ الخطّاب الرعيني، أبو عبد الله محمد المغربي: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر، ط3، 1992م، ج1، ص5.

⁵ النفراوي: الفواكه الدواني، مرجع سابق، ج1، ص4.

⁶ الخرشي، محمد بن عبد الله المالكي: شرح مختصر خليل، دار الفكر، بيروت - لبنان، ج1، ص10.

⁷ العدوي، أبو الحسن علي بن أحمد بن مكرم: حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، تحقيق: يوسف الشيخ البقاعي، دار الفكر، بيروت - لبنان، ج1، ص7.

⁸ الحداد: شرح زروق على متن الرسالة وآثاره على الفقه في السودان، مرجع سابق، ص209-210.

ولقد صدق قولُ ابن عباد، صاحبُ الشَّرح المبارك المشهور على الحِكم لابن عطاء الله رضي الله عنه، وهو يُؤكِّد على أهمِّية الرِّسالة في تعلُّم الفقه، ويُقرِّر حقيقة التَّلازم بين الفقه والتصوُّف، حينما قال: "طلبوا الفقه في غير الرِّسالة فأضلُّوا وطلبوا التصوُّف في غير الحِكم فأضلُّوه، وقد جرَّب بالمشاهدة أنَّ من قرأ الفقه دونها لم ينتفع بنفسه غالبا، ما ذاك إلَّا لِصِدْق صاحبها وطلبها ونيتُهما، فالأعمال بالنيات والخواتم، وبالله التوفيق"¹.

وفي تأكيد التلازم بين الفقه والسُّلوك في رسالة ابن أبي زيد، يقولُ صاحبُ كتاب "العُجالة في شرح الرِّسالة"، في كلامه عن اعتناء الشَّيخ القيرواني وحديثه عن أعمال القلوب، ما نصَّه: "وهذا الأمر من الأهمِّية بمكان، وابن أبي زيد من الفقهاء الذين لم يُجرِّدوا الفقه كلَّ التجريد من مَسْحَةِ التَّزْكِيَةِ والتَّحْلِيَةِ، ومعالجة أدواء النفوس، والاهتمام بالباطن وأعمال القلوب، بسبب التخصُّص وهو هنا ضارٌّ بلا ريب، فهو لم يقتصر على الجوانب الظاهرة فحسب، بل إنَّ حديثه عن الفقه العملي لم يخلُ من إشارات بين الفينة والأخرى إلى التَّزْكِيَةِ، ولعلَّ الشَّيخ أحمد زروق قصد هذا المعنى حين قال: "وقد اعتنى بها الأوائل والأواخر، وانتفع بها أهل الباطن والظاهر...". ... ويكفيك أن تقرأ مقدمة كتابه لتتأكد من هذه المسحة التي كُسيَتْ بها رسالته، فقد شَحَّها بالحديث عن القلب وأعماله مرَّات، كقوله: "فآمنوا بألسنتهم ناطقين وبقلوبهم مُخْلِصِينَ"، وقوله: "واعلم أنَّ خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشرُّ إليه"، وغيرها من حديثه المتكرَّر عن أعمال القلوب الذي يُنبئ عن الاهتمام بموضوع التَّزْكِيَةِ مُضْمَنَةً بحديثه في الفقه"².

لقد أتى حينٌ من الدَّهر أصبح الحديثُ في الفقه مُجرِّدا، وكثُر التَّفريع فيه وغلب عليه الجفاف حتَّى أصبح مُقتَصِرًا على الأشكال وهيئات العبادات، فخرُوج الرِّسالة بهذه المسحة الصُّوفِيَّة أعطى للفقه معناه ومقصدَه، لذلك كان ابنُ أبي زيد "كثيرًا ما يُشير إلى روح العبادة والمقصود منها، وهي الإخلاص والمراقبة لله عز وجل، وممَّا يُدلِّل على ذلك قولُ ابن أبي زيد في مقدِّمة باب طهارة الماء والتَّوْب والبقعة: "والمُصَلِّي يناجي ربَّه أن يتأهَّب لذلك بالوضوء"³. وقال في خاتمة باب صفة الوضوء ومسئونه ومفروضه: "ويجب عليه أن يعمل عمل الوضوء احتسابا لله تعالى لما أمره، يرجوا تقبُّله وثوابه وتطهيره من الذنوب به، ويُشعر نفسه

¹ انظر: زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج2، ص1113.

² انظر: العابدين: العجالة في شرح الرسالة، مرجع سابق، ص31.

³ زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص88.

أنَّ ذلك تأهَّبٌ وتنظُّفٌ لمناجاة ربه، والوقوف بين يديه لأداء فرائضه، والخضوع له بالركوع والسُّجود...¹، وقال في باب صفة العمل في الصلوات وهو يتحدث عن الركوع: "وتعتدُّ الخضوع بذلك بركوعك وسجودك"².

فأنت تجدُ التزاوج والتكامل في الحديث عن الفقه مع الزهد والسلوك، وهذا ما جعل القاضي عبد الوهاب يمدح به هذه الرسالة ومؤلفها، فقال:

رسالة علمٍ صاغها العلم النهد*** قد اجتمعت فيها الفرائض والزهد³

المطلب الثاني: الدرس الفقهي للشيخ زروق من خلال شرح الوغليسيّة

إنَّ قيامنا بنظرةٍ مُتفحّصةٍ في كتاب "الوغليسيّة"، تجعلنا نستطيع الكشف عن الهوية الدينية أو العلمية لمؤلفها، وهو عالمُ الجزائر وعلاّمُها في عصره شيخُ شيوخ الثعالبي، عبد الرحمن الوغليسيّ البجائي الجزائري، هذه الهوية التي تضاربت الآراء حولها، فهي - أي الوغليسيّة - مُقدّمة فقهية في فقه العبادات (الطهارة- الصلاة- الصوم)، اقتصر فيها الوغليسيّ - كما قدّمنا سابقاً - على القول المشهور وفق مذهب الإمام مالك رحمه الله، لكنّه وهو يُؤلّف في الفقه نَزَعَ إلى الجمع بين فقه العبادات وأسرار أحكامها، مُركِّزاً على الجانب الروحي مخاطباً القلب والعقل معاً؛ لتحقيق كمال الإنسان الأخلاقي على نموذج الصُوفية. مما يدلُّ على جمعه بين الفقه والتصوّف، ويُقوِّي بذلك نظرية سيادة ظاهرة الفقهاء الصُوفية في بداية خلال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، والذي يُعدُّ الوغليسيّ واحداً منهم، فهو الفقيه الصُوفي الذي استطاع صهر الفقه والتصوّف في بوتقةٍ واحدةٍ مَلُفُوقةٍ في غطاء فقه العبادات، خاصة وأنَّ ظاهرة الجمع بين هذين العلمين ببجاية تعود إلى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، حينما كان التصوّف يُدرس ضمن علوم الدّراية إلى جانب علم تفسير القرآن الكريم وعلم الحديث الشريف وعلم الفقه وعلم العربية، كما أكّد على ذلك فقيه ببجاية وقاضيهَا، أحمد الغبريني (ت704هـ)، وبالتالي فإنَّ رواج التصوّف ببجاية خلال القرن (8هـ-14م) بين الفئة المثقفة من الفقهاء ليس كمنهج روحيّ فحسب بل كتثافة من ثقافة العصر⁴.

¹ زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج1، ص120-121.

² العابدين: العجالة في شرح الرسالة، مرجع سابق، ص31-32.

³ الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مرجع سابق، ج3، ص112.

⁴ انظر: بونابي: أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي الفقيه الصوفي، مرجع سابق، ص86.

وإذا تحدّثنا عن الصبغة الصوفية للفقه عند الشيخ الوغليسي، فلا يعني أنّ الشيخ يُوافق ما كان من انحرافٍ في وجهة بعض المتصوّفة؛ فكُتِبَ النّوازل تكشفُ لنا جوانبَ أخرى من الفكر الصّوفي عند عبد الرحمن الوغليسي من خلال مواقفه المناهضة والرّافضة للمرابطين وممارساتهم المقعدة، والتي أخذت في الانتشار ببجاية والمغرب الأوسط، حيث أنكر عليهم طُرُقهم في الاجتماع للذكر والسّماع والرّقص والشّطح والتّصفيق وتناول الأطعمة، لأنهم كانوا يَعتَبِرُونَ ذلك من أرباب القُرب وصالح الأعمال... فاعتبر ذلك كلّ بدعة وضلالة وخصّهم بالجهالة، فهم لا يؤدّون الفرض ولا يجتنبون المحرّم، ويأكلون حتّى تمتلئ بطُوقهم¹. كما أنّه انتقد مسلك المرابطين في اعتمادهم على الصدقة والزكاة في التعوّل، بل وأخذ الأموال من قُطَاع الطُّرق وغضّ الطرف عنهم، فسادَ الخوفُ ونزعت عنهم صفة المرباطة، واعتبرهم الوغليسيّ مثل مشايخ القبائل الذين يُشيعون الظلم والفساد، وهو في ذلك يعكس النمط الايجابي للتصوّف القائم على الكدّ والكسب والتوكّل على الله².

ويُعتَبَرُ أبو العباس أحمد زروق البرُنسي، الشّارح لهذه "الوغليسيّة" أوّل من فسّر ألفاظ التوكّل والورع والإخلاص واليقين، الواردة في نُصوص "الوغليسيّة" تفسيراً صوفياً سليماً، واستعان في ضبط معانيها بأقوال وآراء كبار الصّوفية، أمثال: عبد القادر الكيلاني (ت561هـ) وأبو مدين شعيب (ت594هـ) وأبو العباس المرسّي (ت601هـ) وأبو الحسن الشاذلي (ت656هـ)، وهي أسماء تُحِيلُ في حدّ ذاتها إلى كُتُب أبي حامد الغزالي، وكتابه أحياء علوم الدين³.

أما عن عناية أهل العلم بهذه المقدّمة الفقهية، فتتجلّى في ما سجّلته كتب التراجم والفهارس من شروح عليها، فتنسب بعضها شرحاً للمؤلف، وشرحاً للشيخ أحمد زروق البرُنسي وهو مطبوعٌ متداول، وشرحاً للشيخ أبي عبد الله السنوسي (ت895هـ) لم يُتمّه، وشرحاً للّخمي وهو مخطوط، وآخر لأبي محمد عبد الكريم بن علي الزواوي، هذا الشرح الأخير اختصره أبو زيد الصباغ في كتاب سمّاه "عمدة البيان" ولا زال مخطوطاً⁴.

¹ انظر: الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، مرجع سابق، ج11، ص34.

² انظر: بونابي: أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي الفقيه الصوفي، مرجع سابق، ص90.

³ انظر: المرجع نفسه، ص86-87.

⁴ طاطمي: المقدمة الوغليسية لأبي زيد الوغليسي ت786هـ، الرابطة المحمدية للعلماء، مرجع سابق.

لقد شرح الشيخ أحمد زروق رحمه الله مُقدِّمة سيدي بوزيد الوغليسي، وكانت تسمية هذا الشرح: "شرح العلامة زروق على المُقدِّمة الوغليسية في العقيدة والفقه والتصوف". وهو كتابٌ مطبوعٌ، وتمَّ تحقيقه من طرف "محفوظ بوكراع" و"عمار بسطة"، صادر عن دار ابن حزم في بيروت خلال عام 1431هـ. الموافق لسنة 2010م.

وتُعتبر الوغليسية في فقه السادة المالكية المعروفة، من المختصرات الدَّاخلية في باب المُقدِّمات. وهذه المُقدِّمات الفقهية بما فيها من اختصار قد يكون ملغزاً، نموذجاً لُبَّعد المصنِّفين المتأخِّرين عن الاستدلال لما يُوردونه في مختصراتهم، والاقتصار على رؤوس المسائل الفقهية مُجرَّدة من الدلائل، وذلك من قبيل تسهيل حفظ المتن¹.

وبعدَ الحديث عن جانب العقيدة، وشرح حديث الإيمان والإسلام والإحسان، غني الجزء الأول من المُقدِّمة الوغليسية بالفقه المالكي، والعبادات كالحلال والحرام والصلاة والطهارة والصوم وغيرها، وصدَّر الحديث عنها بالتعريض عن أقسام الحكم التَّكليفي: من واجبٍ، ومندوبٍ، ومُحرَّم، ومكروه، ومُباح. وقد شرح كلَّ ذلك الشيخ أحمد زروق، شرحاً ممتعاً رائعاً يَنبُث عن معرفة وإطلاع واضطلاع بعلم الشريعة. ثمَّ تطرَّق في الجزء الثاني للتصوُّف أخلاقاً وسلوكاً، والشيخ زروق أحسن من يتكلَّم ويشرح في هذا الميدان الذي لا يسابقه ولا يجاريه فيه أحد².

وقد جاء أسلوب الوغليسيَّة بسيطاً سهلاً؛ فهو مُوجَّهٌ لعامة الناس الذين أغرَّتهم زهرة الحياة الدنيا وشهواتها، وللقبائل والأعراب الذين لا يعرفون من الدِّين إلَّا كلمة لا إله إلا الله، وكذا للمُبتدئين من الطَّلَبَة، ولذلك فإنَّ الشَّيخ أحمد زروق بعد شرح حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال رحمه الله: "ولما فرغ المصنِّف من سياق الحديث، أراد الكلام على المهمِّ منه؛ فذكر قواعد الإيمان، والصلاة والصوم، وما يتعلَّق بالجوارح، ولم يذكُر الزَّكاة والحج، لأنَّهُما ليس بعامِّي الوجوب، بل على من له شيءٌ يزكِّي عليه، أو يَحجُّ به"³.

وهذا من فقه الشَّيخ رضي الله عنه، فهو يُقدِّم ما ينفع النَّاس وما يتعلَّق بالأحكام العامة التي تُلامس واقع النَّاس وعباداتهم، أمَّا غيرها من الأحكام مثل الحجَّ والزَّكاة، فلا تعني إلا من ملك القدرة والاستطاعة فيها، فالأمر متروكٌ للفتوى والبحث عن أحكامها المفصَّلة في حينها ومن أصحابها.

¹ انظر مقدمة التحقيق: الوغليسي: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، مرجع سابق، ص 13-14.

² المرجع نفسه، ص 69-71.

³ طيب: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق، مرجع سابق، ص 378.

كما أنّ نظرة في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في عصر الشيخ الوغليسي، تُفسّر لنا دواعي تأليفه لهذه المقدمة الفقهية في العبادات، والتي وُلدت من رَجَم وَضَعِ انتشر فيه الفساد والتفسُّخ والانحلال الأخلاقي، وانتشار الحُمور وتعاطي الحشيش وارتكاب المعاصي كالزنا مع الإماء والجواري، كَوْنُ المدينة مُلتقى العابرين من المسلمين وأهل الذمة والروم. وهذا كله بسبب البدخ الاقتصادي الذي شَهِدته بجاية، وكذا بسبب غياب السُّلطة الرّادعة المنشغلة بالصراع على كُرسيّ الحكم الحفصيّ وتَفَنُّنها بإلحاق الظلم والحسّف بالرعيّة. وما تركيز الوغليسي في مقدّمته الفقهية على المعاصي وتفصيلها على الجوارح الظاهرة والباطنة، ودعوته إلى اجتنبها بالعودة إلى الشريعة والمحافظة على الفرائض من صلاة وصيام وطهارة، إلا ردّ فعلٍ على هذه الأزمة الأخلاقية¹.

هذا ويندرج كتاب "المقدمة أو العقيدة الوغليسية" في إطار المختصرات الفقهية الموضوعة في المذهب المالكي، اختصرها عن ثلاثة كُتُب وهي: مُختَصَر سيدي خليل، ومختصر ابن الحاجب، والرّسالة لابن أبي زيد القيرواني، وهي مُقتَصِرةٌ على رؤوس المسائل ومُجرّدة من الدلائل، وهي سِفَرٌ صغيرٌ الحِجْم عَظِيمُ النّفع، وضعها عالمُ الجزائر الإمام الوغليسي، وهو شيخُ شيوخ الإمام الثّعالبي (ت875هـ) صاحبُ كتاب: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، والإمام المجاري (ت862هـ) صاحب كتاب: البرنامج المعلوم².

فهي -أي الوغليسية- كتابٌ فقه، اقتصر فيها الوغليسي على القول المشهور وفق مذهب الإمام مالك، واجتنب الخوض في خلاف المسائل، ونَزَعَ إلى الجمع بين فقه العبادات وأسرار أحكامها، مُركّزاً على الجانب الرّوحي، مُخاطباً القلب والعقل معاً؛ لتحقيق كمال الإنسان الأخلاقيّ على طريقة الصّوفية، فقدّم بذلك نموذجاً مزج فيه بين الفقه والتصوّف، مُصرّحاً بطريقته الصّوفية القائمة على المجاهدات دون إنكار العقل، الذي يَعتَبره وسيلة للتأمل، لكنّه يعتبر إدراك الحقائق الإلهية من اختصاص القلب وليس العقل، وبذلك تمكّن من إدماج التصوّف في المنظومة السّنية المالكيّة وإبقائه داخل الشريعة؛ من خلال ممارسته ضمن فقه العبادات³.

وجاءت المسائل الفقهية في الكتاب في نحو اثنين وعشرين مبحثاً، مهّد لها ببيان أقسام الأحكام التكليفية، وشملت هذه المسائل أحكام الطّهارة والصّلاة والصّيام. وكان ختام الكلام في السلوك

¹ انظر: بونابي: أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي الفقيه الصوفي، مرجع سابق، ص91-92.

² طاطمي، طارق: المقدمة الوغليسية لأبي زيد الوغليسي، مرجع سابق.

³ بونابي، الطاهر: أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي الفقيه الصوفي، مرجع سابق، ص93، 96.

والتصوّف، وكأنّه يريد بذلك تذكير الناس والعامّة بالله عز وجل ومراقبته، والاستجابة لأوامره والانتهاز عن نواهيه ومحرّماته، وذلك نظرا لتدنيّ مستوى الأخلاق في عصره كما أسلفنا¹.

ولا يختلف أسلوب الشيخ أحمد زروق في هذا الشرح عن غيره، في الدقة والتحرير وإيراد المسائل مُعلّلة ومُستندة بالدليل والعزو إلى أصحابها، والنقل عن كبار فقهاء المالكية كابن الحاجب وخليل وابن حبيب وابن رشد وابن أبي زيد في الرسالة والقاضي عياض وشيخه القوري والمازري والقابسي وغيرهم، وكذا ذكره المشهور من المذهب. وما يزيد شرحه رونقا ويجعله مُتميّزا، ما يُضيفه بين الحين والآخر من مُلحٍ وتنبيهاتٍ، تُظهر براعة الرَّجل وحِذقه في علوم الشريعة، من قبيل التنبيه الذي ساقه في الوضوء، فقال: "الدّلك واجبٌ في جميع المغسول إلا أنّ عادة الفقهاء جرّت بذكره في الغسل دون الوضوء، ومن قبيح ما تفعله العامّة في الوضوء نفّض اليدين قبل إيصال الماء إلى العضو ولطم الوجه بالماء لطما، وصبّه من دون الجبهة، والتكبير عند غسل الوجه، والخروج عن الحدّ في الدّلك وغيره بمجرد الوسواس، فقد ورد أنّ للموسوس شيطان يضحك بهم يقال له الولهان، وأصل الوسوسة جهلٌ بالسنة أو خبالٌ في العقل، والخير كلّهُ في اتّباع السنّة وما كان عليه سلف الأُمّة، وقد قال سفيان رضي الله عنه: العلم رُحصةٌ من يد ثقة، فأما التشديد فكلُّ أحد يُحسّنه"².

ومن مُلح الشيخ أحمد زروق في الشرح وإبداعه في إيراد اللّطائف، ما أورده في معرّض الحديث عن مُستحبّات الوضوء، وذكره بعض جماليات المتصوّفة في سياق هذه العبادة، فقال عليه رحمة الله: "الثالث: عدّ أيضا في المُستحبّات تركُ الكلام، قال بعض الصّوفية: الحضور في الوضوء وإدماؤ الوضوء [الحضور في الصلاة بقدر الحضور في الوضوء]، يُوسّع الرّزق ويُحسّن الخلق ويُقوّي القلب ويُنوّره"³. وهذا لعمري يوضح بجلاء مدى الجمع بين الفقه والتصوف، وبين الشريعة والحقيقة، وبين خيري الدنيا والآخرة، وذلك من خلال توظيفه لمصطلحات من قبيل: الحضور-الصلاة-الوضوء-الرّزق-حسن الخلق-القلب-النور، وكيف أنه استطاع الدمج بينها، والتعبير عنها بسلاسة وحُسن بيان.

¹ انظر: طاطمي: المقدمة الوغليسية لأبي زيد الوغليسي، مرجع سابق.

² زروق: مخطوط شرح زروق على الوغليسية، مرجع سابق، ورقة 12.

³ المرجع نفسه، ورقة 14.

المبحث الثالث: ملامح التكامل المعرفي في الدرس الصوفي

إننا حينما نتطرق إلى الحديث عن الكلام والتصوف، يتوجب علينا النظر لهذين العِلْمَيْن كفرسي رهان يقصّدان الهدف نفسه ويُحقّقان فيما بينهما تكاملا وتناغما وانسجاما، فالإنسان باعتباره المقصود من هذه التشريعات، كائن عاقل ولكنّه لا يتجرّد من وجدانه، وبالتالي فكُلًّا من العِلْمَيْن يُشكّلان - إذا شئنا - شيئا واحدا يُخاطب العقليّ والقلبيّ فيه . فإذا كان علمُ الكلام قادرا عن طريق سلطان المنطق والعقل على تقرير جُملة من الحقائق، فهناك مواقف لا يصمد أمامها جبروت العقل، ومسائل لا يُحيط بها العقل، ممّا يجعل للتصوّف اليد العليا في الوصول إلى أدلة قاطعة عقلية وقلبية؛ بأساليب الإلهام والكشف والتجليّ، بعد أن يلجّ العبدُ مقام التحلّي، وكلّ ذلك يجب أن يكون منضبطا بحدود القرآن والسنة. وفي الحقيقة أنّ من أنكر طورًا فوق طور العقل، فقد أنكر النبوة وتبنّى بالعقل. بتعبير آخر فعلمُ التصوّف يُكمّل علم الكلام، هذا الأخير الذي يبقى قاصرا عن بلوغ هدفه دون الأول، ومع ذلك فلا حديث عن التصوّف رأسًا إذا ما غيّبنا الكلام، بحيث لا يمكننا مناقشة مقامات الصّوفية دون أن نُثبت أولا وجود الصّانع على طريقة المتكلّمين والحكماء¹.

وهذا ما قرّره العلماء من أهميّة الانطلاق من علم الكلام للوصول إلى غيره، أو أنّ الكلام هو المبتدأ الأول والخطوة الأولى الضروريّة للعبور إلى غيره من أطراف المعارف الإسلامية، ولكنّه لا يكفي وحده للوصول بالإنسان إلى الحقيقة، ولذلك يقول حُجّة الإسلام أبي حامد الغزالي في أحد دروسه: " فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه في علم المكاشفة، فلا يَحْصُل من علم الكلام، بل يكاد يكون علم الكلام حجابًا عليه، ومانعا عنه، وإمّا الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه تعالى مقدّمة للهداية، حيث قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]².

وإذا كان الأمر كذلك بين الكلام والتصوّف، فحال الفقه مع التصوّف مثل ذلك؛ لأنّ الفقه في علوم الشريعة وتعلّم القرآن في العصور المتأخرة، وفي وقتنا الحاضر خصوصا، صار عند كثير من

¹ المطهري، علي: التكامل المعرفي بين الدرسين الصوفي والعقدي، www.diae.events/postid=93257، تصفح يوم: 2022/05/15م.

² الغزالي: إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج 1، ص 23.

الناس -إلا من رحم الله- حرفة من الحرف وصناعة من الصنائع، كحرفة النجارة والتجارة، وسيلة للعيش ومنفذا للرزق، لا يُحرّك قلبا، ولا يَعْرِف للعبادة طعما، لا يُسْقِط لقارئ القرآن دمة، ولا يَتَزَك في قلبه حُزنا ولوعة¹.

وهذا ما أخذهُ الشيخ أحمد زروق على فُقهاء زمانه؛ الذين يقتاتون بالدين. وبالمقابل وكرّد فعل على هذا الأمر- كما يبدوا- غلا بعض الناس في التصوّف والشطحات وادّعاء الكرامات وأنواع المكاشفات، فتصدّى الشيخ أحمد زروق لكلّ ذلك، ورفض كلّ ما يُنافي الكتاب والسنة، وكان أحسن من دافع عن حياض الدين، لأنّه كان هو نفسه صوفيّا. ومن نقّده لهم، أنّه قال: "وصوفية صوف بأغراض الدنيا موسومون، عظمت الدنيا في قلوبهم، فلا يرون فوقها مطلبا، وصغر الحق في أعينهم؛ فأعجلوا عنه هربا، حافظوا على السجّادات والمرقعات والمشهرات والعكاكيز والسبّحات المزيّبات..."²، ويقول أيضا: "ولقد تتبّعُ الطُرق الموجودة بأيدي الناس في هذه الأزمنة؛ فلم أجد لأهلها فتحا ولا نورا ولا حقيقة ولا علما ولا ذوقا ولا فهما؛ بل ولا لذة نفسانية غير لذة الرياسة والامتياز"³.

ولقد وضع الشيخ أحمد زروق ميزانا دقيقا، لا يحيف فيه الفقه على التصوّف، ولا يعتدي المتصوّف على الفقيه، وذكر ذلك ضمن حديثه عن أصول ظهور مدّعي التصوّف بالبدع في زمانه، فقال: "الجهل بأصول الطريقة، واعتقاد أنّ الشريعة خلاف الحقيقة، وهذا هو الأصل الكبير في ذلك، وهو من مبادئ الزندقة، ومنه خرجت الطوائف كلّها، وصار القروعي الجامد لا يتوقّف في سبّ الصّوفية، والمتصوّف الجاهل لا يتوقّف في الثّفور من العلم وأهله، ويُخالف ظاهر الشريعة في أمره، ويرى ذلك كمالا في محلّه..."⁴.

¹ انظر: الغرياني، الصادق: أساسيات الثقافة الإسلامية، دار ومكتبة ابن حمودة للنشر والتوزيع، زليتن- ليبيا، ط8، 2009م، ص444.

² زروق: عدة المرید الصادق، مرجع سابق، ص277.

³ طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء، مرجع سابق، ص106.

⁴ زروق: عدة المرید الصادق، مرجع سابق، ص46.

ولم يكن الشيخ أحمد زروق بدعاً في هذا الأمر، وإنما تعلّم ذلك من شيوخه وأسلافه من الصوفية الأوائل، وهذا إمام الطائفة ومرجعها الأجل، الشيخ أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه، يقول: "من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأنّ علّمنا هذا مُقيّد بالكتاب والسنة"¹، ويقول أبو سليمان الداراني رحمه الله: "ربّما يقع في قلبي النكته من نكت القوم² أياماً، فلا أقبلُ منه إلّا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسنة"³، وسئل الشبلي رحمه الله عن التصوف، فقال: "هو الاقتداء برسول الله ﷺ. انتهى، والنقل عنهم في هذا الباب كثير"⁴.

ولذلك أردنا في هذا المبحث تجلية الفكر الصوفي الذي يدعوا إليه الشيخ أحمد زروق، وتتبع طبيعة هذا الفكر الإصلاحي الذي اصطبغ به وعُرف به، وغير مَسار حياته، وأصبح فيه مُحْتَسِباً كما ينقل المترجمون له، وكذا نريد أن نتبيّن ملامح التكامل في فكره الصوفي والتداخل مع غيره من الكلام والفقه، من خلال بعض كُتبه ومُصنّفاته.

المطلب الأول: الفكر الصوفي عند زروق من خلال كتابه عُدة المريد الصادق

لقد ألّف الشيخ أحمد زروق كتابه (عُدة المريد الصادق) وهو يتعيّن الردّ على البدع التي تعاظمت وتكاثرت، والتي أحدثها أصحاب بعض الطُرق الصوفية، ونسبوها إلى الدين، فأفسدوا بها تصوّر الصّحيح السليم للتصوّف الإسلامي، القائم على الكتاب والسنة، الذي هو مقام الإحسان، الوارد في حديث جبريل عليه السلام. وأصبح النَّاس يكرهون كلمة "تصوّف" من جرّاء إساءة هؤلاء الغلاة من المتصوّفة، وإغراقهم في البدع والخرافات والاعتقادات الباطلة، التي تأبها الفطر السليمة، فضلاً عن الراسخين من أهل العلم والعارفين بالله حقاً.

ولذلك فإنّ الشيخ أحمد زروق قد أفصح عن غايته من الحديث في هذا الموضوع؛ بعد أن قدّم بضرورة التزام السنة وإعلاء شأنها، وخفض البدعة وكسف أنوارها، وحذّر ممّن اتَّخذوا الجهل مهاداً والبدعة وساداً والهوى عماداً، فكانوا دُعاةً على أبواب جهنّم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، وبعد أن

¹ القشيري، عبد الكريم: الرسالة القشيرية، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2001م، ص 51.

² يعني بالقوم: السادة الصوفية، وهو مصطلح متداول في أدبيات الصوفية.

³ القشيري: الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص 41.

⁴ انظر: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 49.

ساق جُملةً من أقوال شيوخ القوم من الإعتداد بالكتاب والسنة وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق، فإنّ تلك الأصول فمن حُرّمها حُرّم الوصول. ثمّ إنّّه ولكثرة الآفات الدنيويّة، وتحرك الآثار النفسانيّة، لا سيّما ما يشتهه فيها الحقُّ بالباطل، ويظهر المتحلّي به كالعاطل... فوجب أن نأتي- يقول زروق- من ذلك بما هو الأهمّ، لشيوعه في الوقت، حمايةً لمن وقف عليه من أسباب البُعد والمقت، فنذكر أمورًا يدّعي أهلها أنّهم على طريقة السادة الصوفيّة، ويرون أنّهم في ذلك على حالة سنيّة، من غير دليل واضح قاطع، ولا نور ظاهر ساطع، ويدعون إلى ذلك بحسب إمكانيّهم، ويمنعون ممّا سواه كافة إخوانهم، ويقولون: إنّ قبولهم ذلك من قوة إيمانهم، وتحقيق إحسانهم، وإنّ ذلك هو عين الحقيقة، ومنهاج سلوك السبيل والطريقة، وإنّما هي طريقة مُعجّبة، وأمور ملبّسة مروجّة، يغتر بها الجاهل، فيتبع، ويحتجّ بها المتعصّب، فيضلّ ويتبدّع¹.

وهذا الكتاب الذي يُمثّل منهج الشيخ أحمد زروق في التصوّف، يدور محوره حول موضوع البدعة وتطبيقاتها²، ولذا تُوجد عدّة عناوين مُختلفة له ولكنّ المحتوى واحد، وهي عادة الشيخ في الكتابة في نفس الموضوع عدّة مرّات؛ من أجل التحقيق والتّمحيص وزيادة التحريّ والفائدة، ومن هذه العناوين الكثيرة التي تُصنّف في نفس مصبّ كتاب "عدّة المريد الصادق"، نذكر: كتاب "النصح الأنفع والجنّة للمعتصم من البدع بالسنة"، وكتاب "البدع"، وكتاب "البدع والحوادث"، وكتاب "الجامع لجمل من الفوائد والمنافع"، فهذه خمسة عناوين هي في الواقع أسماء مُتعدّدة لكتاب واحد، ولا يكاد يُوجد بينها اختلاف... وربّما اختصر المؤلّف الكتاب في بعض رسائله الصّغيرة، فكوّن هذا الاختصار عددًا آخر من كُتبه، كما في رسالته في الردّ على أهل البدع، تشتمل على عشر ورقات هي خلاصة لما قاله في كتابه "عدّة المريد الصادق"³.

لقد اشتمل الكتاب على مُقدّمة ومائة فصلٍ في بعض نُسخه، وعلى أزيد من ذلك في نُسخ أخرى، وهو من أهمّ كُتب الشيخ أحمد زروق؛ إذ يعكس شخصيّة زروق الفقيه والصّوفي في آن

¹ انظر: زروق: عدّة المريد الصادق، مرجع سابق، ص38.

² من اهتمام الشيخ بضرورة التزام السنة واجتناب البدعة، خصص أربعة مؤلفات رئيسية للرد على المبتدعة ودحض مقولاتهم: عدّة المريد، الجامع، النصيحة الكافية، الرد على أهل البدع. (انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص281-282).

³ انظر: زروق: عدّة المريد الصادق، مرجع سابق، ص12-13.

واحد، ويتضمن معظم آرائه. وموضوعه البدع والمحدثات التي أدخلها أصحاب بعض الطرق على التصوف، وعرضها على ميزان الشرع، وبيان الباطل منها، كما يتضمن الكتاب القواعد والضوابط والآداب التي يجب أن يتحلّى بها المريّ والسالك، مع كثير من الفوائد الفقهية والتربوية في تضاعيف الكتاب، بأسلوب واضح وعبارة مُحَرَّرَة¹.

لقد قرّر الشيخ أحمد زروق في هذا الكتاب تمازج الشريعة والحقيقة، أو بتعبير آخر تكامل الفقه والتصوف والأصول [العقيدة]؛ ونسوق كلامه في ذلك، وهو من أحسن ما قيل في هذا الباب، فقال رحمه الله: "إعلم أنّ الفقه والتصوف أخوان في الدلالة على أحكام الله سبحانه، إذ حقيقة التصوف ترجع لصدق التوجّه إلى الله تعالى... ثمّ الفقه والأصول شرط فيه، والمشروط لا يصحّ بدون شرطه... فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تُعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا حقيقة للعلم إلا بالعمل، ولا عمل إلا بصدق توجّه، ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصحّان دونه، فهو بمنزلة الروح، وهما بمنزلة الجسد، لا ظهور له إلا فيهما، ولا كمال لهما إلا به²، وهو مقام الإحسان المعبر عنه في حديث جبريل: [بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك]³. إذ لا فائدة لذلك إلا صدق التوجّه إلى الله تعالى"⁴.

ولقد شنّع الشيخ أحمد زروق على شطط وجهل بعض غلاة المتصوّفة، الذين أخذ بهم التّمادي في ادّعاء الاصطفاء والخصوصية أن ذهبوا إلى حدّ القول أنّ الشرع حجاب، وأنّ ظاهر الشريعة حرمان، وأنّ من تمسّك بظاهر الأحكام من الكتاب والسنة فقد بُعدت به الشقّة عن الله

¹ انظر مقدمة الغرياني، مُحَقَّق كتاب: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 15-16.

² الضمير يرجع إلى التصوف الذي هو بمعنى الإحسان. (انظر: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 52).

³ حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رواه البخاري، حديث رقم: 50. كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يومًا للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام: أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربتها، وإذا تناول أولي البهائم في البنيان، في خمس لا يعلمهنّ إلا الله ثمّ تلا النبي صلى الله عليه وسلم: {إنّ الله عنده علم الساعة} [لقمان: 34] الآية، ثمّ أذبر فقال: رُدُّوه فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء يُعلم الناس دينهم.

⁴ زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 51.

تعالى، وهو محبوبٌ ومحزوم! فقال رحمه الله في حقهم: "... حتى لقد سمعتُ عن بعض من تفقَّر، من طلبة الوقت يحكي أنَّه سمع حكاية من حكايات الخارجين أوجبت أثرًا في الوجود، فنطق ناطقٌ زندقته وجهله، بأن قال: ظاهر الشريعة حرمانٌ، وهذا والعياذ بالله كُفْرٌ وضلال، انجرَّ له من جهله بالطريقة، واعتقاده الفَرْق بين الحقيقة والشريعة، وهذا هو الأصل الذي بنى عليه المارقون أصولهم، واستظهرت الطوائف بأعمال خارجة عن الدين، وأحوال موافقة للعارفين، فحُمِل الصادق على الكاذب، والمصيب على الخائب، ووقع الكلُّ في جهالة لا يُمكن تفصيلها، ولا ينضبط تأصيلها، ودفع ذلك لا يكون إلا بتقرير أصول القوم..."¹.

وقال في موضع آخر، وهو يُرَدُّ على هؤلاء الذين أسقطوا عن أنفسهم التكليف²، وأصبح فعلُ المحرّمات والمعاصي عندهم مُباحًا ومُشاعًا، فيقول: "... وربما جرى على ألسنتهم ما يُشبه الحقائق، فيظنُّه الجاهل ناتجًا عن أحوال ربّانية، وهو في الحقيقة عقارب تلسع، وحيّات تلدغ، وربما أراد أحد المعتقدين فيهم التخلّي عنهم، فيمسسه الشيطان بأمر سوء، فيظنُّه المسكين كرامةً للشيخ، فيزداد تعلُّق الناس به، رجاء النفع بصُحبته، ولو صبر على الله لحصل على ما يُريد من الله، وانتفى عنه الوهم في أقرب وقت، ولكنَّ النفوس مَبْنِيَّة على التوهُم"³.

والشيخُ أحمد زروق وهو ينتقد مظاهر الانحراف في التصوُّف والسلوك، له منهجُه السَّمَح، وأسلوبه اللين الذي لا يَحِيدُ عنه، وقد بيّن ذلك في خاتمة كتابه عُدة المريد، فقال: "إِعْلَم وفقنا الله وإيّاك أنّ مَقْصِدنا بهذا الكتاب وُجُود الإفادة وإظهار ما عندنا، لا وُجُود التَّعْنِيف..."⁴. وفي وصيّته لمن نسَخ كتابه، يقول: "ليعلم النَّاظِر في هذا الكتاب، والمتأمِّل لما فيه من حقٍّ وصواب، أنّا لم نقصُد به الطَّعن على النَّاس والقدح فيهم، ولا الإشتغال بمساوئهم ولا إظهار عيوبهم، ولا أردنا الاستظهار بالمرّيّة عليهم، وإِنَّمَا قَصَدنا فيه التَّحذِير من الوقوع فيما حَذَرنا منه، والتَّحْزِير لما نَبَّهنا عليه، ليَكُون

¹ انظر: زروق: عُدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص46-47.

² من بين تقسيمات الشيخ أحمد زروق للطوائف المدّعية، هذه الطائفة التي تدّعي الفناء، وأنّها سُلِيت الاختيار، فتفعلُ المحرّمات والمعاصي. (انظر: زروق: عُدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص24-25).

³ زروق: عُدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص24-25.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص314.

عُدَّة للصَّادِق في دينه، وإعانة للمُحَقِّق في يقينه، ورحمةٌ للمسكين في حاله، فمن قصده لشيءٍ ممَّا قصدها به فالله المسؤول في إعانته ونفعه، ومن قصده لغير ذلك فالله المستعان على إتلافه ومنعه، وأن يعمي عنه من يريد به هتك أستار الناس ويريد به إظهار اللبس والالتباس، ومن قصده لذلك فالله حسيبه وسائله ومتولي الانتقام منه... ويعلمُ الله لولا الشَّفقة على بعض الإخوان الصَّادقين ما كتبتُ منه حرفاً...¹.

وقد بينَّ الشيخ الغرياني حفظه الله، مُحَقِّق كتاب "عُدَّة المرید الصادق"، أنَّ الشيخ أحمد زروق، صاحب رسالة، وصاحب الرسالة والغاية النبيلة تراه لا يتحامل ولا يُعَنِّف، ولا ينتقد النقد الهدام، بل ينتقد ليبيني ويُقَوِّم المعوجَّ، ويُرشِد الضالَّ، لا ينتقد ليُشَنِّع على الآخرين ويبدؤ كالمنتصر في ساحة النزال، بل نقده إصلاحِيٌّ هادف، يجعل من مقصد هداية الناس هدفه وغايته، وسعادته في تحقيقه، ويضجر من صُدود الناس وغفلتهم ويُشفق عليهم. ولذا تراه لا يُعجبه الأسلوب الفضَّ الذي جاء به كتابُ تلبیس إبلیس، ويرى أنَّ أسلوبه خشن، فقال: "وقد حدَّر بعضُ النَّاصِحين من تلبیس ابن الجوزي"، مع أنَّه في موضع آخر يَعذُّره، بأنَّ خُشونة لفظه لحَسَم الذريعة والمبالغة في الإنكار، وهذا من حُسن ظنِّ الشيخ زروق ودماثة أخلاقه².

ومن إنصافِ الشيخ أحمد زروق ونُصحه للمُریدين الصَّادقين، أنَّه يرى أنَّ نفع الكتب التي أُلِّفَتْ في الردِّ على القوم والتَّحذير من أغلاطهم، لا بُدَّ لمن يُريد الاستفادة منها أن يتحلَّى بصفاتٍ، وأن يُحَقِّق شروطاً، وهي:

- 1- حُسْن نِيَّةٍ في القائل، وذلك باعتقاد اجتهاده وأنَّه قاصدٌ حَسَم الذريعة وإن خَشِن لفظه.
- وهذا ما أشرنا إليه في تعامله مع خُشونة أسلوب كتاب "تلبیس إبلیس" لابن الجوزي رحمه الله.
- 2- إقامة عُذر القول فيه بتأويل أو غلبة، أو غلط، أو غير ذلك، إذ ليس الوليُّ بمعصوم، فقد تُكون منه زلَّات وهفوات.

¹ زروق: عُدَّة المرید الصادق، مرجع سابق، ص31.

² انظر: المرجع نفسه، ص16.

3- أن يُريد بذلك إصلاح حال نفسه والنظر لعيوبها، ولا يحكم به على غيره، ولا يُدّيه لمن لا قصد له في السلوك، فيحصل التشويش عليه في اعتقاده. وإن احتاج للتبيين فليعرض على القول لا القائل، وليسرّر زلل الأئمة فإنّ ذلك واجب¹.

ومن مظاهر التزواج - إن صحّ التعبير - بين زروق الصوفي وزروق الفقيه، ما ذكره الشيخ الغرياني أيضاً، من كَوْن أنّ هذا العالم - أي الشيخ زروق - مُتَرَنَّ في آرائه، وأنّ انتقاده يبنّي على تأصيل فقهيّ مع مُلح صوفيّة بارزة؛ ثمّ يُقدّم المسألة في قالبٍ مُحَرَّرٍ ومُحَقَّقٍ، ينمُّ عن براعة وإلمامٍ وسعة إدراك، يجعل القارئ ينتفع ويستفيد استفادة بالغة، في أخذه علم المسألة فقهيّاً، وكذا حياة قلبه وتذوّقه طعم العبادة، ومن أمثلة ذلك²:

- ذكّر الشيخ أحمد زروق مسألة إهداء ثواب الأعمال إلى رسول الله ﷺ وحكمها، وكذا الزيادات في صيغ الصلاة عليه ﷺ، فقال: "ومنهم من يجعل ذلك (ثواب الأعمال) لرسول الله ﷺ، وهو من باب حسن النية والتقرب لجنابه الكريم، وليس الحق في ذلك ألا باتّباع سنته، وإكرام قرابته، وكثرة الصلاة عليه ﷺ، لأنّه غني عن أعمالنا، وإني لأرى ذلك إساءة أدبٍ معه، لمقابلته بما لا يصلح أن يكون صاحبه مقبولا، فكيف بالاعتداد بثوابه، لا سيما ما جرت به عادة المصريين في ذلك، فإنّه يعظم عليّ كثيراً جداً". ومن ذلك أيضاً الزيادات في الصلاة على النبي ﷺ، قال: "تصنيف بعض الناس في الصلاة عليه ﷺ، بكيفيات يعتمدونها، ويأتي فيها ألفاظ مُستَغربة، وأنواع مستحبة، تألفها نفوس العامة، (وهو أمرٌ حسنٌ من حيث صورته، واضحٌ من حيث حقيقته، تألفه نفوس العوام) وتحرك به نفوس الغافلين للصلاة عليه ﷺ في الجملة، والأولى بأهل التوجّه للاقتصار على الألفاظ الواردة عنه ﷺ، فإنّ الخير كلّهُ في الاتّباع، والفتح الكامل في التقيّد بألفاظه ﷺ، فلا تعدل بها شيئاً ولو قلت، فقليلها كثيرٌ، ومعناها كبيرٌ"³.

فأنت ترى كيف يميل زروق الصوفي ويتحرّى السنّة ويتمسك بها، ويرى الخير كلّ الخير فيها، وينصح المتوجّه إلى عدم المحيد عنها إلى غيرها وإن قلت، رغم أنّ حكم الإهداء لثواب العمل لرسول

¹ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص132.

² انظر: المرجع نفسه، ص16.

³ زروق: عدّة المريد الصادق، مرجع سابق، ص271.

ونلحظ ميل الشيخ أحمد زروق إلى التحفظ في بعض المسائل وإثاؤه الواضح البيّن من السُّبل والطُّرق التي جاء فيها أثر صحيح، ومن ذلك تعقُّبه على رأي شيخه الحضرمي في مسألة التبرُّك بزيارة الحيِّ والميت، والانتفاع بها، بعد أن ساق جُملةً من الشّواهد وأقوال القوم في جواز ذلك، مثل الغزالي والقوري والحضرمي، ثمّ قال: " لكن ينبغي ألاّ يجعل ذلك عُدةً وعُمدة، لئلا يضيع به نظام الحقّ والحقيقة، ثمّ ينقل عن ابن ليون³ قوله: من شأن الفقراء شدُّ الرِّحال للزيارات، وقلّ من اشتغل به فنقد⁴.

وله نفسُ التعامل مع مسألة التشبُّه بالصَّالحين في لباس واستعمال المرقع منه، واتِّخاذ السَّبَّحة والعكَّاز، فينقلُ عن بعض المشايخ قولهم أنَّ كلَّ تشبُّه لا يصحُّبه عملٌ فليس بتشبُّه، إمَّا هو تلبس، وأمَّا إباحة التزَيُّي فهو لدفع الشرور، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيدِهِنَّ ذَٰلِكَ آدَتُ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾ [الأحزاب: 59]، فأخذ منه العلماء جواز المرقعة والعكَّاز والسَّبَّحة والمحفظة بالكتاب واللوح ونحو ذلك، لدفع الضرر في الأسفار، وفي الجملة،

1 يقصد حديث النبي ﷺ، عن أبي بن كعب قال: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ما شئت. قال: قلت الربع. قال: ما شئت وإن زدت فهو خير. قلت النصف. قال: ما شئت وإن زدت فهو خير. قلت الثلثين. قال: ما شئت وإن زدت فهو خير. قال: أجعل لك صلاتي كلها. قال: إذا تكفي همك ويغفر لك ذنبك. حديث حسن أخرجه الترمذي في سننه.

² التسماني، محمد بن محمد المهدي: رياض الرقائق وحياض الحقائق على صلاة القطب الفائق عبد السلام بن مشيش، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، لا.ط، 2016م، ص306.

³ هو سعد بن أحمد التجيبي، من علماء الأندلس، له أكثر من مائة مصنف، (ت 750)، الأعلام 3/ 133.

⁴ انظر: زرُّوق: عُدَّة المريد الصَّادق، مرجع سابق، ص 259.

فالتشبه بالصالحين محبوب، لكن التدليس لا عبرة به، وهو ما قصد للجلب أو لإظهار الصفة حتى يُميز¹.

- وأحياناً قد يغلب على الشيخ أحمد زروق جانبُه الصوفي، ويظهر بجلاء في التسليم إزاء الحكم على جملة من أعلام التصوف الإشراقي، كابن عربي وابن الفارض وابن سبعين، والبنوني، وابن قسي، وابن ذي سكين، والعفيف التلمساني، والعجمي الأيكي وغيرهم، وهو منهج شيخه القوري القائم على التوقف، وعدم المغامرة في مسألة التكفير، لأنهم- هؤلاء المتصوفة الإشراقيون- تكلموا بخاص في خاص يعلم مرادهم، لكن مع ذلك فإن الشيخ زروق يُحذّر من مطالعة كتبهم، وخاصة للمريد الضعيف المبتدئ، كحزب السلام لابن سبعين، ويقول: كل من أولع بها فالفلاح منه بعيد. ومن هذه الكتب أيضاً: تلبس إبليس لابن الجوزي، وفتوحات الحاتمي، وتائية ابن الفارض، وأزجال أبي الحسن الششتري، وتآليف شيخه ابن سبعين، وكتاب "خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين" لابن قسي، ومن هنا نحوهم، والحقُّ بُجَاههم أخذ البين في نفسه، وترك ما عداه لأربابه، مع حسن الظن بالجميع².

- والشيخ أحمد زروق يتسم في مؤلفاته بسعة صدر كبيرة، فلا تراه يتبرم بالخلاف ولا المخالف أبداً، ولا يتعصب لرأي إذا بدا له رأي أصوب، وهذا ديدن العلماء المخلصين، ولا يمنعه من أن يكون له رأي أن يُورد أقوال العلماء في المسألة وإن خالفوه، ثم يُوجِّهها وقد يُرجِّح ما يراه، وقد يترك المسألة دون أن يكون له فيها موقف، ويتضح ذلك في مسألة دعاء الإمام دُبر الصلوات وتأمين المأمومين، فإنه ذكره بقوله: قال بعضهم بدعة مستحسنة، وقال بعضهم: بدعة مستهجنة، ولم يُعقب على المسألة برأي³.

وفي مسائل أخرى، مثل استحداث أذكار مكان المشروع منها، فإنه لا يتوقف في الحكم عليها، بل يبيّن حكم الشرع فيها وينحاز إلى الدليل من الكتاب والسنة، فيقول في ذلك: ... فبدّلوا

¹ انظر: زروق: عُدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 254-255.

² انظر: المرجع نفسه، ص 245 وما بعدها.

³ انظر: المرجع نفسه، ص 19.

كلّ ذلك بأذكار عندهم استنبطوها، لم يردّ منها شيءٌ في نصوص الشريعة إلا آية الكرسي ونحوها في ما أظنّ، فكان ذلك منهم ابتداعا صريحا بالاستبدال المذكور لا بغيره¹.

ونحن نتحدث عن تلازم الشريعة والحقيقة، أو تلازم الفقه والتصوّف عند الشيخ أحمد زروق، الذي كان كثيراً ما يُردّد قول شيخ الطائفة، الشيخ الجنيد البغدادي رحمه الله: "علّمنا هذا مُقيّد بالكتاب والسنة، فمن لم يسمع الحديث ويُجالس الفقهاء، ويأخذ أدبَه عن المتأدّبين أفسدَ من اتّبعه"²، ولذلك ترى الشيخ أحمد زروق لا يقبلُ ما كان مُخالفاً للسنة وهدي النبي ﷺ، ولا يخفل كثيراً بالهرطقات والهمهمات والكلام الغامض عند بعض الصّوفية، من قبيل قولهم: أنا هو، وهو أنا، ممّا يؤهم الاتحاد والحلول، وهذا لا يجوز لأحد أن يتبعهم فيه، ولا يجوز لأحد أن يُسلمه لقائله حال سماعه... فليتّق المؤمنُ ذلك كلّهُ، مُشفقاً على دينه، فأراً من موارد الغلط، راجعاً لأصول الاعتقاد، وقائماً مع الحقّ..."³.

ومن تمام التداخل بين العقيدة والتصوّف عند شيخنا زروق، أنّ التصوّف السليم عنده هو الاعتقاد بالتّزيه ونفي التشبيه، وقبول ما ورد كما ورد، من غير تعرّض لكيف ولا تأويل. وهذا من تمام فهمه - رحمه الله - وتمام تكامل معارفه بين أصول الاعتقاد والسلوك؛ فهو يرى أنّ العقيدة يجب أن تنأى عن مواضع الشُّبه والخلاف، ولذلك تراه لا يتقبّل كلّ ما يחדش مقام العبودية من قبيل نداء الله تعالى بتعبير "يا هو" عند بعض المتصوّفة، لما فيه من الإيهام والتسوّي وعِلَلٍ أخرى، ولا يليق بمقام الربوبية، وهذا لعمرى من تمام تجرّده رحمه الله للحقّ، رغم أنّه من الصّوفية، بل هو شيخ طريقة⁴.

إنّ أعظم إنجازٍ يُحسب للشيخ أحمد زروق، هو رفعه للعداء المصطنع بين الفقه والتصوّف، أو بين الشريعة والحقيقة؛ بأن مكنّ للطريقة أن تُؤدّي إلى الحقيقة دون إهمال الشريعة. ومحاولته التوفيق والتكامل بين الفقه والتصوّف لا يعني بالضرورة الوحدة والانصهار التام، بل إنّك لتعجب كل العجب ممّا سيقوله، في مقارنة مآتعة بين الفقه والتصوّف، وكيف أنّه يضع الأولويات والقواعد النّاطمة لكلّي

¹ انظر: زروق: عدّة المريد الصادق، مرجع سابق، ص104.

² القشيري: الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص51.

³ انظر: زروق: عدّة المريد الصادق، مرجع سابق، ص20.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص21.

العالمين فلا يطغى جانب على آخر، بل تراه يُقدّم الفقيه على الصوفي، رغم أنه معدود من شيوخ الصوفية، وهذا لعمري من فقهه وورعه وتقواه، ولذلك يقول أن: "حكم الفقه عام في العموم، لأن مقصده إقامة رسم الدين ورفع مناره وإظهار كلمته، وحكم التصوف خاص في الخصوص، لأنه معاملة بين العبد وربّه من غير زائد على ذلك. فمن ثمّ صحّ إنكار الفقيه على الصوفي ولا يصحّ إنكار الصوفي على الفقيه، ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونه. ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصحّ دونه ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به وإن كان أعلى منه مرتبة، فهو أسلم وأعمّ منه مصلحة. ولذلك قيل: كُن فقيها صوفيا ولا تَكُن صوفيا فقيها. وصوفيّ الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم، لأنّ صوفيّ الفقهاء قد تحقّق بالتصوف حالا وعملا وذوقا. بخلاف فقيه الصوفية، فإنّه المتمكّن من علمه وحاله ولا يتّم له ذلك إلا بفقه صحيح وذوق صريح"¹.

ورغم ذلك فإنّه يرى أنّ غاية الفقهاء عامّة وغاية الصوفية أخصّ، بل هي أخصّ أيضا من نظر الأصولي والمفسّر وصاحب فقه الحديث، وهذا خلاصة كلام من خبّر كلّ علم ممّا ذكر، فقال: "نظر الصوفي للمعاملات، أخصّ من نظر الفقيه؛ إذ الفقيه يعتبر ما يسقط به الحرج، والصوفي ينظر فيما يحصل به الكمال. وأخصّ أيضا من نظر الأصولي؛ لأنّ الأصولي يعتبر ما يصحّ به المعتقد، والصوفي ينظر فيما يتقوى به اليقين. وأخصّ أيضا من نظر المفسّر وصاحب فقه الحديث؛ لأنّ كلاّ منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلّا، وهو - أي الصوفي - يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتناه، وإلا فهو باطني² خارج الشريعة، فضلا عن المتصوفة، والله سبحانه أعلم"³.

ومن الأمثلة الواضحة التي تُبيّن أنّ منهج الشيخ أحمد زروق هو اعتماد صوفيّة سنيّة، لا صوفيّة الشطحات والبدع وما يخرج عن سنة رسول الله ﷺ، ما قاله: أنّ مذهب الصوفية في الأحكام مذهب الفقهاء، وفي الفضائل مذهب المحدثين، فلا يأخذون بحديث موضوع، كصلاة الرغائب

¹ انظر: خشيم: أحمد زروق والطريقة الزروقية، مرجع سابق، ص 207-208.

² الباطنية هو وصف يُطلق للفئة التي تقول: "إنّ النصوص الدينية لها معنيان: أحدهما ظاهر يفهمه الناس بواسطة اللغة، وبمعرفة أساليب الكلام، والثاني باطن لا يدركه إلا الذين اختصّهم الله بهذه المعرفة، وهم يصلّون إلى إدراك هذه المعاني المحجوبة عن عامة الناس بتعليم الله لهم مباشرة!". (انظر: عكام، محمود (1415هـ/1995م): الموسوعة الإسلامية الميسرة، دار صحارى، دمشق، ج3، ص483).

³ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص49.

والأسبوع ونحوها، إلا أن لهم في الآداب أشياء ترخصوا فيها اضطرارا إليها كالسمع؛ كمثل حال من غلب عليه من غير اختيار، ومع ذلك فقد عدّه زروق مقام تدبّي في حقّ العارف، فهو لا يشرف بالسمع، بل السمع يشرف به، ويقول: لا ينبغي الاقتداء بالشيخ في هذا الأمر لو حصل له اضطرارا. وحذر زروق تلاميذه في حياته من أن يقتدوا به في عدّة أمور منها مسألة السمع¹.

إنّك وأنت تقرأ فكر الشيخ أحمد زروق من خلال كتابه "عدّة المريد"، تأخذ موقفا مبدئيا أنّه من أعداء الصّوفية؛ لما له من نقدٍ لاذع على كثيرٍ من المظاهر والقضايا التي يطرح فيها رأيه بكلّ جرأة، رغم أنّه معدودٌ من شيوخ الصّوفية؛ ومن أمثلة ذلك -وهي كثيرة- رأيه في مسألة المشيخة في الطرق الصّوفية، وقوله بأنّها ليست شرطا في سلوك الطّريق، إذ لم يكن الأوائل لهم هذا الترتيب في المشيخة، وإنّما كان لهم الصّحبة واللقاء في أخذ العلم والأدب، ولكنّه يُبرّر هذا الأمر لغلبة الخطب على النفوس، والتخليط على القلوب، فاحتاج الناس إلى ترتيبٍ يحفظ هذه المشيخة وأخذ العهد. لكن مع إقراره بأصل المسألة، فهو ينتقد الحال الذي أصبحت عليه الطّرق من التعصّب وإكراه الناس على أخذ العهد لهم وإن لم يكن المعاهد أهلاً لذلك! ومن المسائل التي انتقدها على الطّرق أن يعمد مشايخ الطّرق إلى صدّ أتباعهم عن كلّ علمٍ سوى ما يُلقّنونه لهم، وأن يقوموا بتسخيرهم لخدمتهم مع إيهامهم أنّ الحكمة في الخدمة، وأنّ ذلك تطهيرٌ لسرهم! وشنّع زروق على هؤلاء الذين يأكلون بالدين، والذين يؤثرون الأثرياء والأغنياء ويُترّبونهم. وكذا يُحذّر من كلّ شيخ طريقةٍ يُميّ أتباعه بمقاماتٍ لا يملكها هو لنفسه، فضلا أن يحقّقها لغيره، كحُسن الخاتمة والثبات عند السُّؤال والصّراط، وغيرها من المواقف التي لا ينفع فيها أحدٌ أحداً².

وفي المحصّلة فإن الشيخ أحمد زروق - مع صوفيّته - فهو سُنيّ النّزعة؛ فهو يتبنّى موقفا ثابتا يظهر جليّا في كتابه "عدّة المريد"، أنّ كلّ ما لم يكن له أصلٌ في الشريعة فلا عمل عليه، لأنّ السنّة حُجّة على جميع الأمّة، وليس عملٌ أحدٍ من الأمّة حجة على السنّة، لأنّ السنّة معصومة، وصاحبها معصومٌ، وسائر الأمّة لم تثبت لهم العصمة، إلّا مع إجماعهم، والصّوفية كغيرهم ممّن لم تثبت لهم

¹ انظر: زروق: عدّة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 22-23.

² انظر: المرجع نفسه، ص 23-24.

العصمة، يجوز عليهم الخطأ والنسيان، والمعصية صغيرها وكبيرها. فالتصوّف عند الشيخ زروق مداره على الإخلاص وصدق التوجّه مع التفقّه في الدين والإتيان بالعمل على وفق السنّة¹.

وهو في كلّ تضاعيف كتابه "عدة المريد"، يُوظّف الشيخ أحمد زروق أساليب الحجاج الأصوليّة المعهودة عند الفقهاء والأصوليين، وهذا يُعتبر - كما ذكر الأستاذ خالد زهري²، من صميم الاستدلال الحجاجي التداولي، حيث يُكثر استدلاله بالأحكام الشرعية، مثل كثرة استعماله لأقسام التشريع السنّة: "الوجوب، التحريم، الندب، الكراهة، ترك الأولى، والإباحة"، وهو ما يُسمّيه: "ميزان التمييز بشواهد الأحكام"³.

وإذا أردنا مثالا واضحا على استخدام حُسن استخدام الشيخ للاستدلال الحجاجي، استدلاله على البدعة، وأنها ليست باطلة بإطلاق، حيث يُورد حديثين لرسول الله ﷺ، وهما: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو ردّ"⁴، وحديث "...وكلّ محدّثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة..."⁵، ثمّ يُعلّق عليهما بقوله: "وقد بيّن العلماء رضي الله عنهم، أنّ المعنى في الحديثين المذكورين، راجعٌ لتغيير الحكم باعتقاد ما ليس بثمرة قرينة، لا مُطلق الإحداث. إذ قد تتناوله الشريعة بأصولها، فيكون راجعا إليها، أو بفروعها فيكون مقيسا عليها"⁶.

وعلى هذا، فإنّ الكثير من المهتمين بتراث الشيخ أحمد زروق والمحقّقين لمصنّفاته، ومنهم الأستاذ زهري، صاحب كتاب من "علم الكلام إلى فقه الكلام"، يُقرّر أنّه من الصّعوبة بمكان تمييز ما هو فقهي، وما هو أصولي، وما هو صوفي، في كتب الشيخ زروق، ممّا يجعل تصنيفها في فنّ من الفنون أمرا صعبا مُستصعبا أحيانا، ففي أغلب كتبه، قد تجدّه كتابا فقهيا - مثل كتاب النصيحة الكافية -، إذا قرأته بخلفية فقهية وأصولية، وتُصنّفه كتابا صوفيا، إذا قرأته بحسّ صوفيّ، وهكذا. وهذا عمري سرّ الفتح والمكنة والبلغة في هذه العلوم⁷.

¹ زروق: زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 21.

² انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 680.

³ زروق: عدّة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 44.

⁴ أخرجه البخاري بلفظ "ما ليس فيه" بدل: منه، انظر: البخاري مع فتح الباري 230/6.

⁵ النسائي 153/3، بلفظ: "إنّ أصدق الحديث...، وكلّ ضلالة في النار"، وأصل الحديث في مسلم 592/2.

⁶ زروق: عدّة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 39.

⁷ انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 681.

المطلب الثاني: الفكر الصوفي عند زروق من خلال كتابه قواعد التصوف

يأتي كتاب قواعد التصوف في (225) قاعدة، يجمع فيها المؤلف براءة وجزالة بين أصول الفقه والقواعد العقلية والقواعد العامة للشرعية الإسلامية، مُحاولاً وضع قواعد لبناء تصوّف إسلامي مبني على أسس الشرعية الإسلامية والعقل السليم والذوق الصحيح، مع إقامة التوازنات السليمة في العلاقات بين ثنائيات مثل: الشرعية والحقيقة - الفقه والتصوّف - المكلف والمكلف، مع تأصيل عميق ونقد صادق للتصوّف الإسلامي. والكتاب يخلو من العناوين الدالة على محتوياته، كما يخلو من تقسيم القواعد إلى أبواب جامعة، لكن لا يملك القارئ له أن يدعه¹.

وإذا ما رجعنا إلى مفهوم التصوّف عند الشيخ أحمد زروق رحمه الله، فإننا نجده يُعرّفه بأن أصله: "مُلَازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبِدَع، وتعظيم الشرع، ورؤية العُذر للخلائق، والمداومة على الأوراد، وترك الرُّخص والتأويلات، فهذه هي الأصول ومن ضيّعها حُرِم الوُصول"².

ولقد أكّد الشيخ أحمد زروق في كتابه "قواعد التصوّف" حقيقة مذهب أهل التصوّف القائم على الجمع بين الحقيقة والشرعية، وعلى أصول وقواعد شرعية منضبطة بالكتاب والسنة، ولئن شدّ بعض من نُسب إليهم فلا يعني ذلك إنكار المذهب جُملةً، وقد يقع هذا الشذوذ والانحراف عند المتصوّفة كما يقع عند الأصوليين والمتفكّهة وغيرهم، إذ يقول في القاعدة الخامسة والثلاثين: "فُعْلاة المتصوّفة كأهل الأهواء من الأصوليين، وكالمطعون عليهم من المتفكّهين، ويُردُّ قولهم، ويُجْتَنَّب فعلهم، ولا يُتْرَك المذهب الحقُّ الثَّابِت بنسبتهم له، وظهورهم فيه"، ويقول في القاعدة السادسة والعشرين: "ولم يكفِ التصوّف عن الفقه بل لا يصحُّ دونه، ولا يجوز الرجوع منه إليه، وإن كان أعلى منه مرتبة، فهو أسلم وأعمُّ منه مصلحة"³.

¹ الزفناوي، عصام أنس: بيلوجرافيا التصوف/4، تاريخ التصفح: 2022/07/12م، على الساعة 21:30. على الموقع التالي <https://kasnazan.com>

² انظر: زروق: عُدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص20.

³ انظر: مقدمة البيروتي في كتاب: زروق، أحمد: قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشرعية والحقيقة ويصل الأصول والفقه بالطريقة، ضبط وتعليق: محمود البيروتي، دار البيروتي، دمشق - سوريا، ط1، 2004م، ص5-6.

لقد لُقِّبَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ زُرُوقٌ بِمُحْتَسِبِ الصُّوفِيَّةِ، لَأَنَّ دَيْدَنَهُ كَانَ تَقْوِيمَ الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ بِمَا يُوَافِقُ الشَّرِيعَةَ وَأَقْوَالَ السَّلَفِ مِمَّنْ نَقَلَ عَنْهُمْ: كَالْجُنَيْدِ، وَبِشَرِّ الْحَافِي، وَأَبُو يَزِيدَ الْبَسْطَامِيِّ، وَالشُّبْلِيِّ، وَسَهْلَ التَّسْتَرِيِّ، وَالسَّهْرُورِيِّ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ مِنْ خِلَالِ تَأْلِيفِهِ لِكِتَابِهِ "قَوَاعِدُ التَّصَوُّفِ"، بِأَسْلُوبٍ مُخْتَصَرٍ لَا يَخِلُ، آخِذًا بِالْإِشَارَةِ، نَاطِقًا بِالْعِبَارَةِ، بَيِّنٌ فِيهِ فَحْوَى كُلِّ قَاعِدَةٍ وَمُضْمُونَهَا، مُرَكِّزًا بِالْخُصُوصِ عَلَى الْمِيزَانِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي بِوَسْطَتِهِ يَقَعُ الْفَهْمُ وَالْإِدْرَاكُ، وَبِدُونِهِ تَحْتَطُّ الْمَفَاهِيمُ وَيَخْرُجُ الطَّالِبُ عَنْ جَادَةِ الصَّوَابِ، كَمَا وَقَعَ لِلْمُتَّصِفَةِ فِي عَصْرِهِ¹.

جاءَ كِتَابُ "قَوَاعِدُ التَّصَوُّفِ" لِيُؤَكِّدَ الْمَبَادِئَ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي كِتَابِهِ "عُدَّةُ الْمُرِيدِ الصَّادِقِ"، فَتَكَلَّمَ عَنْ التَّصَوُّفِ وَمَاهِيَّتِهِ، وَعِلَاقَتِهِ بِالْعُلُومِ الْآخَرَى مِنْ فِقْهِهِ وَعَقِيدَتِهِ وَكَلَامِهِ؛ لَأَنَّ السُّلُوكَ أَوْ التَّصَوُّفَ فَائِدَتُهُ مَا قُصِدَ لَهُ، وَفَائِدَتُهُ حَقِيقَتُهُ فِي ابْتِدَائِهِ وَانْتِهَائِهِ، فَهُوَ عِلْمٌ يُقْصَدُ بِهِ إِصْلَاحُ الْقُلُوبِ، شَأْنُهُ شَأْنُ الْفَقْهِ فِي إِصْلَاحِ الْعَمَلِ وَشَأْنُ الطَّبِّ فِي حِفْظِ الْأَبْدَانِ وَالنَّحْوِ فِي إِصْلَاحِ اللِّسَانِ. وَالتَّصَوُّفُ لَا يُعَدُّ صَحِيحًا وَذَا فَائِدَةٍ إِلَّا إِذَا لَمَسْنَا وَشَاهَدْنَا آثَارَهُ، وَهِيَ الْحَشِيَّةُ الْمَوْرُثَةُ وَالِدَّافِعَةُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالصَّادِقِ، فَهُوَ إِذَا لَيْسَ كِبَاقِي الْفَنُونِ فِي الْاِكْتِسَابِ، وَإِنَّمَا هُوَ حَالٌ يَعِيشُهُ الْمُرِيدُ انْطِلَاقًا مِنْ فَهْمٍ خَاصٍّ وَحَالَةٍ خَاصَّةٍ، قَدْ لَا يَصِلُهَا إِلَّا عَنْ طَرِيقِ يَدِ شَيْخٍ أَمِينٍ مُجَرَّبٍ مُتَّبِعٍ لِلْسَّنَةِ، وَمُتَمَكِّنٌ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا عَنْ طَرِيقِ شَطْحَاتٍ وَمُظَاهِرِ خَادِعَةٍ، مِنْ لِبَاسٍ مُرَقَّعٍ وَاتِّخَاذِ الْمَسْبُوحَةِ وَالتَّزَامِ أَوْرَادٍ غَيْرِ شَرْعِيَّةٍ، انْتَشَرَتْ فِي أَصْقَاعِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَتُودِي بِأَصْحَابِهَا إِلَى سُبُلِ الْغَوَايَةِ، وَتَنْحَرِفُ بِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَايَةِ، وَتُشَوِّشُ عَلَى الْعَامَّةِ دِينَهُمْ، وَتُلَبِّسُ عَلَيْهِمْ حَقِيقَةَ الصُّوفِيِّ مِنَ الْمَدَّعِيِّ. وَكُلَّ ذَلِكَ يَسُوِّفُهُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ زُرُوقٌ فِي قَالِبِ عِلْمِي رَاقٍ، يُقَرِّبُ فِيهِ الْمَدْلُولَ الصُّوفِيَّ مِنَ الْمَدْلُولِ الْفَقْهِيِّ وَالْعِلْمِيِّ².

إِنَّ مَعَالِمَ الْإِصْلَاحِ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ عِنْدَ الشَّيْخِ أَحْمَدِ زُرُوقٍ تَتَّضِحُ جَلِيَّةً فِي كِتَابِهِ "قَوَاعِدُ التَّصَوُّفِ"؛ هَذَا السَّفَرُ الَّذِي يُعَدُّ مِنْ أَشْهَرِ وَأَجْمَلَ وَأَدَقِّ مَا خَطَّتْ يَدَاهُ فِي التَّأْسِيسِ لِنَظَرِيَّةِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْفَقْهِ وَالْأَصُولِ وَالسُّلُوكِ، إِذْ يَقُولُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ: "فَالْقَصْدُ بِهَذَا الْمُخْتَصَرِ وَفُصُولِهِ، تَمْهِيدٌ

¹ انظر: مقدمة المحقق عبد المجيد خيالي لكتاب: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص5.

² انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص14.

قواعد التصوّف وأصوله، على وجهٍ يجمع بين الشريعة والحقيقة، ويصلُّ الأصول والفقه بالطريقة"¹. وتحدّد هذه العبارة- كما جاء في كتاب من علم الكلام إلى فقه الكلام- الميزانين الضابطين لمسار التجربة الصوفية، وهما:

***الميزان العقدي:** وهو يُعطي للتصوّف دلّالته السنيّة، فلا تصوّف سُنيّ إلا ما كان ضاربا بجذوره في أعماق أصول الدين، نعني علم الكلام الأشعري².

***الميزان الفقهي:** وهو يُعطي للتصوّف دلّالته العملية والأخلاقية، فلا تصوّف عملي إلا ما كان مُحفّزا على ممارسة الأحكام الفقهية، ومُحوّلا لها من قوانين فقهية جامدة إلى ممارسة فقهية، تربط هذه الأحكام بالقلب، وتصلّها بالباطن، وأيضا تراعي مرونة الشريعة الإسلامية، التي تتغيّر أحكامها باختلاف الزمان والمقام، وبعبارة: "اختلاف الأحوال، يقضي باختلاف الأحكام"³. والشيخ بذلك يرفع دعوة إلى ضرورة إحياء الفقه، وذلك بإرجاعه إلى أصوله وتفعيله بالنظر فيه للأخذ بمقتضى الورع الملازم للاحتياط، الذي بدونه لا يكون الصوّفي صوفيا، ولذلك فإنّ مذهب الصّوفية كما قال الشيخ زروق: "على مذهب أصحاب الحديث، لما هم عليه في ذلك من التحقيق والتثبيت. وبهذا الوجه يُفهم ما أجمعوا عليه من التزام مذهب المحدثين، وما يُذكر عنهم من أعمال الثابتين"⁴. وهذا يُطلّعنا على سرّ الإغراق في نقل النصوص الحديثيّة في كتب الشيخ زروق الصّوفية، ويجعلنا نقف على أهمية كتابه الموسوم بـ"كتاب التعليق والتنقيح على ما تضمنه الجامع الصحيح". فقد أظهر فيه براعة متميّزة في الصنّاعة الحديثية، ورَكَز فيه على البُعد العملي للنصوص الحديثية التي انتقاها من صحيح البخاري، معلقا عليها، وكاشفا عن بعض مضامينها الواصلة للعلم بالعمل⁵.

¹ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص21.

² انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص712.

³ زروق: كتاب الإعانة، مرجع سابق، ص52.

⁴ المرجع نفسه، ص69.

⁵ انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص712-713.

*الميزان الصوفي: فالتصوّف ميزان للفقّه؛ حيث لا فقه يرضاه الله من عبده، إلا إذا جعله موضوعاً بالإخلاص، وكذلك، لا إيمان إلا بالتوجه القلبي إلى الله سبحانه، وهذا الميزان هو الذي عبر عنه الغزالي بـ "ميزان العمل"¹.

ويُجَلِّي الشَّيْخُ أَحْمَدُ زُرُوقُ رَحْمَهُ اللهُ عَنْ حَقِيقَةِ التَّصَوُّفِ الَّذِي حُدَّ بِوُجُوهِهِ تَصَلُّهُ إِلَى الْأَلْفِينَ²، مَرْجِعُهَا كُلُّهَا لَصَدَقَ التَّوَجُّهُ إِلَى اللهِ ﷻ، بِأَنَّهُ وَجِبَ رَدُّ الْعُلُومِ إِلَى أَصُولِهَا، وَأَخَذُهَا عَنْ أَهْلِهَا، وَتَحْقِيقُ مَسَائِلِهَا، وَلِذَلِكَ مَعْرِفَةُ هَذَا الْأَمْرِ يَوْضَحُ حَقِيقَةَ كُلِّ مَنْ عِلْمُ الْعَقِيدَةِ وَالْفَقْهِ وَالسَّلُوكِ، فَيَقُولُ الشَّيْخُ زُرُوقُ فِي الْقَاعِدَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثِينَ: "مَادَّةُ الشَّيْءِ مُسْتَفَادَةٌ مِنْ أَصُولِهِ، ثُمَّ قَدْ يُشَارِكُ الْغَيْرُ فِي مَادَّتِهِ وَيُخَالِفُهُ فِي وَجْهِ اسْتِمْدَادِهِ؛ كَالْفَقْهِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْأَصُولِ، أَصُولُهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَقَضَايَا الْعَقْلِ الْمُسَلَّمةُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. لَكِنَّ الْفَقِيهَ يَنْظُرُ مِنْ حَيْثُ ثَبُوتُ الْحُكْمِ الظَّاهِرِ لِلْعَمَلِ الظَّاهِرِ مِنْ حَيْثُ قَاعِدَتِهِ الْمُقْتَضِيَّةُ لَهُ. وَالصُّوفِي يَنْظُرُ مِنْ حَيْثُ الْحَقِيقَةُ فِي عَيْنِ التَّحْقِيقِ، وَلَا نَظَرَ فِيهِ لِلْفَقِيهِ حَتَّى يَصِلَ ظَاهِرُهُ بِبَاطِنِهِ. وَالْأَصُولِيُّ يَعْتَبِرُ حُكْمَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ مِنْ غَيْرِ زَائِدٍ. فَمَنْ قَالِ ابْنُ الْجَلَاءِ³ رَحِمَهُ اللهُ: "مِنْ عَامِلِ الْحَقِّ بِالْحَقِيقَةِ، وَالْخَلْقِ بِالْحَقِيقَةِ، فَهُوَ زَنْدِيقٌ، وَمِنْ عَامِلِ الْحَقِّ بِالشَّرِيعَةِ، وَالْخَلْقِ بِالشَّرِيعَةِ فَهُوَ سَيِّئٌ، وَمِنْ عَامِلِ الْحَقِّ بِالْحَقِيقَةِ، وَالْخَلْقِ بِالشَّرِيعَةِ فَهُوَ صَوْفِي"⁴.

وَيَتَكَلَّمُ الشَّيْخُ زُرُوقُ فِي ذَاتِ النَّقْطَةِ بِأَسْلُوبٍ آخَرَ وَتَعْبِيرٍ مُغَايِرٍ، وَلَكِنَّهُ يَدُورُ فِي نَفْسِ السِّيَاقِ لِتَوْضِيحِ مَقْصُودِ كُلِّ مَنْ الْفَقْهِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْأَصُولِ، فَيَقُولُ فِي الْقَاعِدَةِ الْوَاحِدَةِ وَالثَّلَاثِينَ، مَا نَصَّهُ: "الْفَقْهُ مَقْصُودٌ لِإِثْبَاتِ الْحُكْمِ فِي الْعُمُومِ، فَمَدَّارُهُ عَلَى إِثْبَاتِ مَا يَسْقُطُ بِهِ الْحَرَجُ، وَالتَّصَوُّفُ

¹ انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص714.

² لما سُئِلَ أَبُو عَلِيٍّ الرُّوْذِبَارِيُّ الْمَتَوَفَى سَنَةَ 322هـ عَنِ الصُّوفِيِّ قَالَ: مِنْ لِبْسِ الصُّوفِيَّةِ عَلَى الصَّفَاءِ، وَأَطْعَمَ الْهَوَى ذَوْقَ الْجَفَاءِ، وَكَانَتِ الدُّنْيَا مِنْهُ عَلَى الْقَفَاءِ، وَسَلَكَ مِنْهَا جُفَاءً. (انظر: الكلاباذي، أبو بكر محمد (380هـ): التعرف لمذهب أهل التصوف، تصحيح: أرثرجون أربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994م، ص9).

³ هو أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء من أهل بغداد، انتقل فسكن الشام، توفي سنة 306هـ. كان يقال: "إن في الدنيا ثلاثة من أئمة الصوفية لا رابع لهم: الجنيد ببغداد، وأبو عثمان بنيسابور، وأبو عبد الله بن الجلاء بالشام. (انظر: السلمي، أبو عبد الرحمن: طبقات الصوفية، تحقيق: أحمد الشرباصي، طبعة كتاب الشعب، ط2، 1998م، ص55-56).

⁴ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص35.

مرصده طلب الكمال، ومرجعُه لتحقيق الأكمل حُكما وحكمة. والأصول شرطٌ في النفي والإثبات، فمداؤها على التحقيق المجرد¹.

وفي مفهوم التصوف كاصطلاح بما يدلُّ على معناه ويُشعر بحقيقته من غير لبسٍ، لا وجه لإنكاره كما يُقرّر ذلك الشيخ أحمد زروق؛ لأنّه - أي مصطلح التصوف - عربيٌّ مفهومٌ تامُّ التركيب، غير مُوهِم ولا مُلتبس ولا مُبهم. باشتقاقه مُشعر بمعناه كالفقه لأحكام الإسلام والأعمال الظاهرة والأصول لأحكام الإيمان وتحقيق المعتقد. فاللازم فيهما، لازم فيه لاستوائهما في الأصل والنقل، فافهم².

والتصوف ليس كغيره من العلوم؛ لأنَّ الأمر فيه يختلف بين المريدين وأحوالهم، واختصاص كلِّ منهم بصفة غالبية عليه، بين زهادةٍ وعبادةٍ ومعرفةٍ وبين ظهور في الخلق. ولزيادة إيضاح المعنى، عقد الشيخ مقارنة بين العلم والحال، ثمَّ استخرج قاعدةً هي من أجلِّ القواعد التي تُنهي الخلاف والإشكالات في هذه المسألة لو فقَّهها الناس، فقال رحمه الله: "بنى العلم على البحث والتحقيق، وبنى الحال على التسليم والتصديق؛ فإذا تكلم العارف من حيث العلم نُظر في قوله بأصله من الكتاب والسنة وآثار السلف، لأنَّ العلم مُعتبرٌ بأصله. وإذا تكلم من حيث الحال سلَّم له ذوقه، إذ لا يُوصَل إليه إلا بمثله، فهو مُعتبرٌ بوجدانه، فالعلم به مستندٌ لأمانة صاحبه، ثم لا يُقتدى به، لعدم حكمه إلا في حقِّ مثله³."

وعن قواعد الاقتداء والتأسيّ والسَّير في طريق السلوك، والأخذ من تراث وكتب القوم، يُفرَّق الشيخ أحمد زروق بين كلِّ فرقة من الفقهاء والصوفية والأصوليين وغيرهم، وطريقة كلِّ منهم في التصوف وضرورة أن يأخذ المريد السلوك من محله، كي لا يزلَّ ولا يضلَّ، فجاء في القاعدة الستون: "...فللعامِّي تصوف حوَّته كتب المحاسبي، ومن لنا نحوه. وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج⁴ في

¹ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص35.

² انظر: المرجع نفسه، ص23.

³ انظر: المرجع نفسه، ص39.

⁴ محمد بن أحمد بن خلف التجيبي القرطبي المالكي، ابن الحاج، قال ابن شكوال: "كان من جلة العلماء معدودا في المحدثين والأدباء، بصيرا في الفتوى"، وكان كثير الخشوع والذكر، قُتل ظلما وهو ساجد سنة 529هـ. (انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج19، ص614).

مدخله. وللمحدث تصوّف حام حوله ابن العربي في سراجِه. وللعابد تصوّف دار عليه الغزالي في منهاجِه. وللمُتريّض¹ تصوّف نبّه عليه القشيري في رسالته. وللناسك تصوّف حواه "القوت" و"الإحياء". وللحكيم تصوّف أدخله الحاتمي في كتبه. وللمنطق تصوّف نحا إليه ابن سبعين في تأليفه. وللطبايعي تصوّف جاء به البوني في أسرارِه. وللأصولي تصوّف قام الشاذلي بتحقيقه. فليعتبر كلُّ بأصله من محله².

وفي تعبير رائق، وعبارة جزلة، وأسلوب مائع، يرسم لنا الشيخ أحمد زروق صورة واضحة ناصعة لأوجه التداخل والتكامل، بل والاتحاد تحت مسمى التصوّف، لكلِّ من العبادة والزهادة والمعرفة وإن اختلفت مسالكها، أو ما نستطيع التعبير عنه بالفقه والسلوك والأصول، فيقول في القاعدة العاشرة هذا الكلام النفيس، الذي يعكس المكنة العلمية لهذا الرجل العالم: "لا يلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقصد، بل قد يكون متّحداً مع اختلاف مسالكه، كالعبادة والزهادة والمعرفة مسالك لقرب الحق على سبيل الكرامة وكلُّها متداخلة، فلا بُدَّ للعارف من عبادة، وإلا فلا عبرة بمعرفته إذ لم يعبد معروفه. ولا بُدَّ له من زهادة، وإلا فلا حقيقة عنده، إذ لم يُعرض عمّن سواه، ولا بُدَّ للعابد منهما، إذ لا عبادة إلا بمعرفة، ولا فراغ للعبادة إلا بزهد، والزاهد كذلك، إذ لا زهد إلا بمعرفة ولا زهد إلا بعبادة، وإلا عاد بطلاة. نعم، من غلب عليه العمل فعابد، أو الترك فزاهد، أو الناظر لتصريف الحقّ فعارف، والكلُّ صوفيّة³.

والشيخ أحمد زروق حين يتكلّم عن التصوّف، لا تراه إلا مُؤكّداً على العمل؛ فالتصوّف عنده - وعند كلِّ صوفيٍّ صادق - لا يُعرف إلا مع العمل به، والاستظهار به دون عمل تدليس على الناس، ووجب أيضاً اتّباع السنّة والتأسي بالسلف في هذا الأمر؛ ليُجدي الفهم وينتفي الخطأ ويتيسر الفتح. ووجب أيضاً اللُّجأ إلى الله وَجَّكَ لطلب الإعانة والفتح منه سبحانه، وَيُنْقَلُ عن الجنيد رحمه الله، قوله "

¹ صاحب الرياضات والمجاهدات. وترويض النفس.

² انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص 51.

³ انظر: المرجع نفسه، ص 25.

ما أخذنا التصوّف عن القيل والقال، والمرء والجدال، وإتّما أخذناه عن الجوع والسهر، وملازمة الأعمال¹.

وعن لزوم العمل والعبادة للمتصوّف، فحقيقة التصوّف الذي أصله مقام الإحسان عند زروق، مُتنوّع إلى نوعين: الأول: بدل من الآخر، هما أن تعبّد الله كأنك تراه، وإلا فإنّه يراك. فالأول رتبة العارف. والثاني رتبة من دونه. ثمّ يُصنّف الشيخ زروق الشاذلية ومن نحا نحوهم في الصّنف الأول، وأمّا الغزالي فيصنّفه في الثّاني. والأول أقرب؛ لأنّ مبناها على الأصول التي تحصل لكل مؤمن وجودها؛ للطباع المساعدة، والشرعية القائمة فيها، إذ مطلوبها تقوية اليقين وتحقيقه بأعمال المتقين².

ويؤكّد الشيخ زروق على حاكميّة الفقه على التصوّف، ولزوم خضوع هذا الأخير لأحكام الفقه والتقيّد بها، وقد سبق أن قدّمنا في المطلب السّابق، تقرير الشيخ أحمد زروق ذلك في القاعدة السّادسة والعشرين وهو يُفصّلُ العلاقة بين الفقيه والصّوفي، فذهب إلى أنّ حكم الفقه عامٌّ في العموم، وأنّ حكم التصوّف خاصٌّ في الخصوص، ولذلك صحّ إنكارُ الفقيه على الصّوفي، ولزم الرّجوع من التصوّف للفقه في الأحكام وصحّ الاكتفاء به دونه، ولا يصحّ الاكتفاء بالتصوّف عن الفقه، وقيل: كُن فقيها صوفيا ولا تكن صوفيا فقيها؛ لأنّ صوفيّ الفقهاء قد تحقّق بالتصوّف حالا وعملا وذوقا³.

وفي القاعدة 208 يشيرُ الشّيخ أحمد زروق أنّه قد دخل الغلط على كثير من المتصوّفة بسبب ضّعف اشتغالهم بالفقه، وقلة ارتباطهم بالفقهاء، وفي هذا يقول زروق: "كلُّ صوفيٍّ أهمل أحواله من النّظر إلى مُعاملة الخلق كما أمر فيها، وصرف وجهه نحو الحقّ، دون نظر لسُنّته في عبادته، فلا بدّ له من غلط في أعماله، أو شطّح في أحواله، أو وقوع طامة في أقواله، فإمّا هلك أو أهلك أو كانا معا جارين عليه. ولا يتّم له ذلك ما لم يصحب مُتمكّنا، أو فقيها صالحا، أو مُريدا عالما صديقا صادقا، يجعله مرآة له، إن غلط ردّه، وإن ادّعى دفعه، وإن تحقّق أرشده"⁴.

¹ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص30.

² انظر: المرجع نفسه، 49-50.

³ انظر: المرجع نفسه، ص32.

⁴ انظر: المرجع نفسه، ص127-128.

وحينما تحدّث الشيخ أحمد زروق عن أصل علوم الدنيا والآخرة، وأنّ كلاهما مأخوذ من الكتاب والسنة، فصّل مسالك الناس في طريقة أخذها: فمنهم من يتعلّق بالظاهر، فيقطع الصلة عن النظر والتدقيق في المعنى، وهؤلاء لا عبرة بهم ولا بجُحودهم. ومنهم الفقهاء الذين نظروا لعين المعنى، جمعاً بين الحقائق، فهم أهل تحقيق للمعاني. وأمّا الصوفية المحقّقون والأئمة المدقّقون، فهم القوم الذين أثبتوا المعاني وحقّقوا المباني، وأخذوا الإشارة من دلالة اللفظ ظاهره وباطنه، وهم غير الباطنية، الذين ينقون المعنى والعبارة ولا يعتبرون إلا بالإشارة¹.

والشيخ أحمد زروق وإن كان يُعَلِّي من شأن العلم والتفكّه وأمر الشريعة، فإنّه يُراعي التخصص في كلّ علم؛ فلا يُؤخَذ الفقه من صوفيّ كما لا يُؤخَذ سلوك من فقيه، فيقول في القاعدة الثانية والستون: "إنّما يُؤخَذ علم كلّ شيء من أربابه، فلا يُعتمد صوفيّ في الفقه، إلا أن يُعرف قيامه عليه، ولا فقيه في التصوّف، إلا أن يُعرف تحقيقه له، ولا مُحَدِّث فيهما، إلا أن يعلم قيامه بهما، فلزم طلب الفقه من قِبَل الفقهاء لمريد التصوّف. وإنّما يُرجع لأهل الطريقة فيما يَخْتَصُّ بصلاح باطنه من ذلك، ومن غيره. ولذلك كان الشيخ أبو محمد المرحاني (ت699هـ)²، يأمر أصحابه بالرجوع للفقهاء في مسائل الفقه، وإن كان عارفاً بها، فافهم"³.

ولذلك، فإنّ الشيخ أحمد زروق يُنبّه إلى مسألة دقيقة عن سبب غربة طريق التصوّف وكثرة المدّعين فيه، وهو أنّ "التصوف" من أدقّ العلوم وأصعبها، ولذلك كثر فيه الأدياء الذين شوّهوا حقيقته، وما ذلك إلا لقلّة معرفتهم به وبُعدّهم عن حقيقته، فقال رحمه الله: "كثر المدّعون في هذا الطريق لغُربته، وبُعُدت الأفهام عنه لدقّته، وكثر الإنكار على أهله لنظافته، وحذر النَّاصِحون من

¹ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص61.

² عبد الله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الله بن محمد البكري العرشي المعروف بالمرجاني: صوفيّ أصله من تونس. ولد بالإسكندرية ومات بتونس. كان من أصحاب أبي الحسن الشاذلي، وكان واعظاً من الأعلام في الفقه والتصوف. له علم بالتفسير، أَملى فيه دروساً جمعها ابن السكري من كلامه وسماها "الفتوحات الربانية في المواجهات المرجانية-خ" في التيمورية بدار الكتب المصرية، و"بجّة الشموس والأسرار في تاريخ هجرة المختار-خ". (انظر: محفوظ، محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج4، ص300-301).

³ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص52.

سلوكه لكثرة الغلط فيه. وألف الأئمة في الردّ على أهله، لما أحدث أهل الضلالة فيه، وما انتسبوا منه إليه¹.

إنّ كتاب "قواعد التصوّف" كتابٌ طافحٌ بالأدلة الظاهرة، والدلائل الباهرة على سنية الشيخ زروق، وأتباعه الدليل وتمسكه بالفقه والأحكام، ومن ذلك ما قاله في القاعدة السابعة والثلاثين من ضرورة الفقه ولو مع قليل من التصوّف، فإنّ ذلك لا يضرُّ المريد، بخلاف لو لم يكن معه من الفقه إلا القليل وكان ضليعا في التصوّف فإنّ ذلك لا ينفعه، فيقول رحمه الله: "لما كانت دلالة التصوّف بحمّله على التوجّه إلى الله من حيث يرضى، كفّت أوائله مع التزام وأتباع الفقه، فكان الاعتناء بعمله، أكثر من علمه، ومن ثمّ لم تُدَوّن قواعد، ولم تُمهّد أصوله، وإن أشار إليها أئمتّه كالسلمي في فصوله، والقشيري في رسالته"².

ويذكر الشيخ زروق هذه المسألة في القاعدة السادسة والأربعين، حينما يؤكّد على ضرورة ضبط الفرع بأصل يُرجع إليه فقها، وأصولا، وتصوّفا، ويردّ على مقولة أنّ الصوفي لا مذهب له، إلّا من جهة اختياره في المذهب الواحد، أحسنه دليلاً أو قصداً أو احتياطاً، وإلا فقد كان كبار أئمة الطريقة وعمدتها لكل واحدٍ منهم مذهبٌ فقهيّ يتبعه؛ فقد كان الجنيد البغدادي ثورياً، وكان الشبلي مالكيّاً، والجريري حنفيّاً، والمحاسبي شافعيّاً³. وهذا ما يجعل الخلاف الفقهي بين أقطاب وأساطين التصوّف غير ذي بال، وهو ما ذكره الأستاذ خالد زهري، وهو يسرد ثمرات التوجّه الحديثي للشيخ زروق من خلال كتبه الصوفية⁴.

وفي حديثه عن العقيدة والتوحيد، أكّد الشيخ أحمد زروق على ضرورة أن يكون الصوفي مُحَقِّقا لأصل الدين، وأن يكون على مذهب الأئمة والسلف في النفي والإثبات، يقول رحمه الله عليه: "تحقيق الأصل لازم لكل من لزمه فرعه إن كان لا ينفك عنه، فلا بُدّ من تحقيق أصول الدين وجريانه على قواعدها عند الأئمة المهتدين، ومذهب الصوفي من ذلك تابع لمذاهب السلف في الإثبات

¹ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص128.

² انظر: المرجع نفسه، ص38.

³ انظر: المرجع نفسه، ص42.

⁴ انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص713.

والنفي، ثُمَّ يُفَصِّلُ رحمه الله في فصول الاعتقاد الثلاثة: فأولها: ما يُعْتَقَدُ في جانب الرُّبُوبِيَّةِ، ولا يكون فيه إلا التنزيه ونفي التشبيه وتفويض ما أشكل. والثاني: ما يُعْتَقَدُ في جانب النبوة، وفيها لزوم إثباتها وتنزيهها عن كل علم وعمل وحال لا يليقُ بكمالها، والثالث: ما يُعْتَقَدُ في جانب الدار الآخرة وأنه يجب تصديق ما جاء فيها من أخبار، على الوجه الذي جاء عليه من غير خوض في تفاصيله إلا بما صَحَّ وأنَّضَح¹.

ولم يكتفِ الشَّيْخُ زُرُوقُ بالتَّنبِيهِ على أهمية الاعتناء بمقاصد الشريعة وغاياتها والتخلُّف عن كلِّ ما من شأنه أن يُثِيرَ الشُّبُهَات حول منهج يعتقد صحته وسلامته، بل نبّه أيضا إلى ضرورة نبذ التقليد في الإِتِّبَاع والاستناد إلى الحقيقة مِمَّنْ يُوثَقُ في دينه وعلمه، لأنَّ "أخذ القول من غير استنادٍ لعلامة في القائل، ولا وجه في المنقول، مذمومٌ مطلقاً، لاستهزاء صاحبه بدينه"²، ممَّا ينفي عنه أهليَّة التصوُّف، لأنَّ المؤهَّل للتصوُّف - في نظر الشَّيْخِ زُرُوق - تكون "لذي توجُّه صادق، أو عارف مُحَقِّق، أو مُحِبٌّ مصدق، أو طالب مُنصِّف، أو عالم تفيذه الحقائق أو فقيه تفيذه الإِتِّساعات، لا متحامل بالجهل، أو مستظهر بالدعوى، أو مخالف في النظر، أو عاميٌّ غيبي، أو طالب مُعرِّض، أو مُصمِّم على تقليد أكابر من عرف في الجملة"³، فالمُتصوِّف حقًّا هو من يسعى بنظره عن أن يقلّد دون استناد إلى حقيقة الزُّهد ومعرفة وتبيُّن بطريقة القوم، سلوكا ومنهجاً⁴.

وفي حُبْكة عَجِيبة بديعة بين الأصول والحقيقة، وكيف أنَّ التصوُّف الحقيقي لا يتمكّن في قلب صاحبه إلا إذا تحلّى بالإيمان الصادق الذي يُثْمِرُ إيقانا مُتجدِّداً، يقول الشيخ زروق في القاعدة الرابعة والسبعون: "مدارُ الأصوليِّ على تحلية الإيمان بالإيقان وتحقيق اليقين، حتّى يكون في معدِّ العيان، بأن ينشأ عن تحقُّقه تمكُّن الحقيقة من نفسه، حتّى يُقدِّم ويُجِّم لما قام به من الحقيقة من غير

¹ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص44-45.

² انظر: المرجع نفسه، ص40.

³ المرجع نفسه، ص25-26.

⁴ بناني، عبد الكريم: منهج الشيخ أحمد زروق البرنسي في تصحيح الفكر الصوفي، مجلة الفكر المتوسطي، جامعة بوبكر بلقايد، تلمسان، المجلد3، العدد2، 2014/06/15م، ص103.

توقّف ولا تكلف، ويكون سلوكه فيما يحقق لما تحقق، وبذلك ينشرح صدره أولاً وآخراً فيصّل في أقرب مُدّة...¹.

وفي قاعدة واضحة تُبيّن اعتقاد الشيخ زروق، وأنّه اعتقادٌ سليمٌ صحيحٌ موافقٌ لاعتقاد السلف، ما ذكره وقرّره في القاعدة الثالثة والثمانين، من أنّه لا يُقبل في باب الاعتقاد مُوهم ولا مُبهم ويستوي في ذلك الفقيه والصوفي، وأنّ من باب حُسن الظنّ فإنّه يجب تأويل القول بما يُوافق الحقّ إلا أن يُسمّع المعنى والحكم من صاحبه مباشرة، ويُفصّح عن قصده فيناقش ويُردّ عليه في بابه، فيقول الشيخ أحمد زروق: "لا يُقبل في باب الاعتقاد مُوهم ولا مُبهم، ولا يُسلم لأحد فيه ما وقع منه دون كلام فيه، بل يُردّ في نفسه بما يصحّ ردّ ظاهره به، ثم إن حضر قائله تكلم معه في معناه وحكمه في نفسه وذكره. وإن عدم تأوّل بما يرُدّه لأصل الحقّ، إن وافق أصلاً شرعياً في إطلاقه وثبتت إمامة قائله كما في رسالة ابن أبي زيد رحمه الله، في مسألة الاستواء وغيره. وليس صوفي بأولى من فقيه، ولا فقيه بأولى من صوفي في ذلك ونحوه، بل الصوفي ربما كان أعذر لضيق العبارة عن مقاصده، وقصر ما تكلم فيه على نوعه ورومه التحقيق بإشارته، فإن سوغ التأويل في أحدهما لزم في الآخر. وإن قيل لا يتأوّل إلا كلام المعصوم، فتأويل الأئمة كلام مثلهم، ناقض له أو هي مردودة عليهم، أو لكل اجتهاده إذ الخلاف في المسألة بوجود كل ذلك يعدد ما لا يحتمل الحق بوجه، والله سبحانه وتعالى أعلم².

وهو هنا يأخذ الشيخ زروق موقفاً وسطاً بين الصوفية وبين الفقهاء، فهو من ناحية يُنكر على الصوفية استخدام الألفاظ والتعابير المبهمة في مجال الاعتقاد، ويرى أنّ ذلك غير مقبول شرعاً، ولكنّه من ناحية أخرى يرى ضرورة التأويل للذين وقعوا في هذا الغلط، بشرط أن تكون ألفاظهم قابلة للتأويل ويمكن رُدّها إلى أصلٍ شرعي، وأن يكونوا ممّن ثبتت إمامته واستقامته في الدّين³.

¹ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص58.

² انظر: المرجع نفسه، ص63.

³ خليفنا، محمد الأمين: الوساطة بين الفقه والتصوف من خلال كتاب قواعد التصوف لأحمد زروق، مقال تم تصفحه يوم:

2022/07/12م، على الساعة: 22:15، على الموقع الإلكتروني :

<http://www.almawqi.com/2021/08/11/>

ومن النَّفائس والدُّرر التي قرَّرها الشيخ أحمد زروق في القاعدة الواحدة والسُّتون، أنَّ العاميَّ تصوُّفه إنما هو في الأخذ بظواهر الشَّريعة، ولا ينبغي له الخوض في ما وراء ذلك من معاني التصوُّف الدقيقة، التي يصعب على أغلب الناس فهمها واستيعابها وتنزيلها في إطارها الصَّحيح دون الميل بها نحو الشطح والانحراف، فقال رحمه الله: " لا حظَّ للعامي من التصوُّف فيما سوى الحذر والإشفاق، والأخذ بأيسر المسالك وأبينها لديه، وذلك بالتزام التقوى في البداية قبل وقوع الذنب، والاستدراك بالتوبة لما وقع منه، مع تدقيق النَّظر في ذلك دون ما سواه"¹.

ولعلَّ هذا هو سرُّ تجنُّب الشيخ زروق تأسيس طريقة صُوفية خاصَّة به، كما فعل نظرائه من أقطاب التصوُّف. ذلك أنَّ البدع والانحرافات إنما تدخل على التصوُّف في أكثر الأحوال من طرف العوامِّ ومن لا فقه ولا فهم له، حين تُذاع أمامه دقائق التصوُّف ومداركه الخفية؛ التي لا يستوعبها إلا أصحاب العقول الكبيرة².

والمعلوم أنَّ كتابات الشيخ زروق طافحة بالاستدلالات وغنية بالحجج واستنطاق الأدلة، ممَّا يجعلنا نصنِّفها في عداد النصوص النموذجية في التبليغ والإقناع، وممَّا يلفت الانتباه للقارئ في كتب الشيخ زروق، أنَّ الاستدلال البرهاني لم يكن غائبا تماما عند الشيخ، وإن كان لم يحض بالمكانة الكبيرة عنده، ولكنه قد استعمله فيما لا يُتصوَّر استعماله فيه. فعلى الرغم من أنَّ علم التصوُّف معدودٌ ضمن العلوم الدُّوقية كما نعلم، والتي من خصائصها أنَّها لا تنضبط بضابط واحد، بل مأخذها من التَّجربة والمجاهدة والممارسة، ومع ذلك فقد نجح الشيخ الصوفي زروق - بخلاف غيره- في تقييده وإدخاله ضمن جملة التَّأليف التي تعتدُّ بالمنطق، ويصرِّح بأنَّ التصوُّف مأخذه، " إمَّا بنقل صحيح، أو دليل، أو إشارة"، ممَّا يدلُّ أنَّ " كون الخطاب الصُّوفي، لا يخلو هو أيضا من مُحاولات نظرية حجاجية، تتخذ من الحوار والجدال مطيَّة للاستدلال، وللبهنة على الأطروحات الفكرية"³.

¹ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص51.

² حليهنّا، محمد الأمين: الوساطة بين الفقه والتصوف من خلال كتاب قواعد التصوف لأحمد زروق، مرجع سابق.

³ الصغير، عبد المجيد: التمثيل وخطاب التبرير، ضمن أعمال ندوة: تكون المعارف، دور القياس التمثيلي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم: 117، ص157.

ولا شك أنّ المنطق مُندرج في عموم "الدليل"، كما هو واضح في كتابه القيم "قواعد التصوف"، والذي ضمّن قاعدته الأولى بمقدّمة في التصوّر والتصديق، قال فيها، ما نصّه: "الكلام في الشيء فرع تصور ماهيته، وفائدته ومادته بشعور ذهني، مكتسب أو بديهي، ليرجع إليه في أفراد ما وقع عليه رداً وقبولاً وتأصيلاً وتفصيلاً. فلزم تقديم ذلك على الخوض فيه، إعلاماً به، وتحضيضاً عليه، وإيماء لمعادنه"¹. فله درّ الشيخ أحمد زروق، كيف يزاوج بين أسلوب الإقناع وأسلوب الإمتاع، وهذا في كلّ مُصنّفاته².

وكخلاصة للفكر الصوفي عند الشيخ أحمد زروق رحمه الله من خلال كتابه "قواعد التصوّف"، فإنّه تصوّفٌ يروم إنهاء القطيعة التي وقعت بين "الشرعية" و"الحقيقة"، وأدّت إلى عري التصوّف عن الفقه، وذلك من خلال نفي البدع عن التصوّف، وبيان مجال اشتغال الفقه، ومجال اشتغال التصوّف، ورسم حدود كلّ منهما بدقّة. وكذا هو تصوّفٌ يتغيّ الإعراض عن كلّ ما يُوجب غضب الله تعالى، ويرتّب إلى إصلاح العلاقة بين العبد وربّه بما يسمّوا بالنفوس، وينتقل بها من حال التعلّق بالدنيا وعالم الشُّهود إلى التعلّق بالله والتطلّع لآخرة وعالم الشهادة. فهو إذا تصوّفٌ لا يسوق المرید نحو التبطل والكسل وتعطيل حركة الحياة أو الانزواء والإعراض عن الناس وآلامهم وآمالهم، ولا يقف صامتا أمام الانحرافات العقديّة والسلوكية في المجتمع، كما كان الحال عند بعض المنحرفين من أدياء الطريقة في كلّ عصر ومصر. بل كان التصوّف كما قرّره الشيخ زروق، تصوّفًا سُنّيًا يحثّهم للكتاب والسنة وآثار السلف وسلوكهم، يقول أبو بكر الطمستاني الفارسي (ت340هـ)³ وهو من كبار شيوخ الطريقة: "الطريق واضح، والكتاب والسنة قائمان بين أظهرنا، وفضل أصحاب النبي ﷺ بشيئين اثنين: بصحبتهن مع النبي ﷺ في الظواهر، وهجرتهن إلى الله تعالى في السرائر، وغربتهن مع

¹ زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص21.

² انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص686-687.

³ أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري، قال عنه أبو عبد الرحمن السلمي: "من أجل المَشايخ وأَعْلَاهُمْ حالا متفرد بحاله ووقته لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْمَشَايِخ وَلَا يَدَانِيهِ، وَكَانَ مَشَايِخُ وَقْتِهِ يَحْتَرِمُونَهُ"، وَكَانَ أَبُو بكر الشبلي يُجِلُّهُ وَيَعْرِفُ لَهُ مَحَلَّهُ، صَحَبَ إِبْرَاهِيمَ الدَّبَاغَ وَغَيْرَهُ مِنْ مَشَايِخِ الْفَرَسِ، قَدِمَ عَلَى مَدِينَةِ نَيْسَابُورِ وَمَاتَ بِهَا بَعْدَ سَنَةِ 340هـ. (انظر: السلمي: طبقات الصوفية، مرجع سابق، ص161-162. والقشيري: الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص83. والشعراني: الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج1، ص118-119).

أنفسهم، ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: 100]، فمن صَحِبَ مِنَّا الكتاب والسنة، وتَغَرَّبَ عن نفسه والخلق والدنيا، وهاجر إلى الله بقلبه، فهو الصادق المصيب المتبع لآثار الصحابة، إلا أن الصحابة سبقوه بصحبته مع النبي ﷺ¹.

المطلب الثالث: الفكر الصوفي عند زروق من خلال كتابه تحفة المريد وروضة الفريد

المعروف عن الشيخ أحمد زروق رحمه الله، قلمه السيال وكثرة الكتابة على حسب الأحوال والخبرة والتمرس في طريق التحلي بفضائل الأعمال؛ فكلما ازداد سياحة في الأرض ومخالطة للعلماء والصالحاء، إلا ورجع من ذلك بخيرات حسنة، وفتوحات ولطائف من اللطيف الرحمان، وكتب ثمرات ما واجهه من تجارب روحية وعلمية بأحسن أسلوب وأدق بيان، ووثق ذلك في مُصَنَّفَاتٍ غاية في التحرير والإيجاز والإتقان. ومن كُتُبِهِ التي تُعْتَبَرُ بأكورة إنتاجه العلمي كتاب "تحفة المريد"، الذي انتهى من تأليفه في الواحد والعشرين من جمادى الأولى سنة 870هـ، وهو في سنّ ريعان شبابه وبداية تحصيله ومُقتَبَل تجربته الصوفية، أي في الثالثة أو الرابعة والعشرين من عمره. وهذا الكتاب ألفه بعد رجوعه إلى مدينة فاس من رحلته الاضطرارية لشرق المغرب وغرب الجزائر "تلمسان"، والتي كانت رحلة سياحية علمية صوفية، مكث فيها بزاوية أبي مدين الغوث واحدًا وعشرين يومًا يصوم نهاره ويقوم ليله، ففتح الله عليه بما فتح، وزار بعض الشيوخ فيها، وأخذ منهم².

وهذا الكتاب ليس عنواننا لأول شرح للشيخ زروق على الحِكم العطائية كما وَهَم الأستاذ محمد إدريس طيب- في أوّل الأمر-، بل هو كتابٌ مستقلٌ بنفسه، ولا علاقة بينه وبين أول شرح للشيخ أحمد زروق على الحِكم. ولذلك فإنّ الشرح الأول على الحِكم وُحْفَةُ المريد هما كتابان مُنفَصِلان³.

¹ السلمي: الطبقات الصوفية، مرجع سابق، ص162.

² انظر: زروق، أحمد: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيد، تحقق: محمد طيب إدريس، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2010م، ص5.

³ بعد البحث والتحري والنظر في مخطوطات الشيخ والتأكد من تواريخ كتابتها، تبين للشيخ إدريس طيب خطأه، وأكد أنّ تحفة المريد والشرح الأول على الحِكم كتابان منفصلان تماما. (انظر: زروق: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيد، مرجع سابق، ص15).

وككل كتاب أو شرح يقوم به الشيخ أحمد زروق، فإنه يُضمّنه الأسباب التي دفعته لاختيار ذلك العمل، وفي الغالب لا تخرج هذه الأسباب عن منهجه العام في كل مصنف أو شرح يقوم به، والذي يزوم من خلاله تصحيح الفكر الصوفي وتحقيق المعنى الصحيح للالتزام بطريق القوم، القائم على المجاهدات والعمل الصالح، والتكامل بين الشريعة والسلوك، وتحقيق الإيقان بالله والبعد عن كل مُفسدات الطريق. ونستطيع أن نُحمل هذه الدوافع فيما يلي:

- كان الدافع الأول هو استجابة لطلب أحد مُريدي الشيخ بأن يجمع له بعض المسائل الفقهية والصوفية، ليأخذها مرجعا له، ولتبرك بها لاعتقاده الحسن في الشيخ أحمد زروق عليه رحمة الله.
- كان هذا الكتاب تعبيراً عن مكنونات الشيخ مما اكتسبه من تجارب من خلال رحلته سالفة الذكر، وكأنه يُذكر بالمحفوظ، ويستخرج ما في الضمير من المعنى الملحوظ، وحيث أن رحلته وسياحته كانت صوفية بامتياز؛ فإنه من الطبيعي أن يكون عرضه للمسائل عرضاً تغلب فيه المسحة الصوفية.
- والقصد من تصنيف هذا الكتاب هو إرشاد المريدين لأداب الطريقة الصوفية اعتماداً على تراث شيوخها الذين سلكوا ونهجوا طريق التصوف السني¹.

إنَّ القارئ المتعمّن والمتفحّص في كتاب "تحفة المريد"، يدرك بما لا مجال فيه للريب أن الشيخ أحمد زروق ليس مُجرّد ناقل أو جامع لأقوال وأفكار من سبقه، فإنه لا يُراعى في العلم سبق الزمن، بل قد تكون المزيّة للمتأخر، من حيث القدرة على إصابة عين الصواب؛ لأنَّ "منّة الله لا تتقيّد بالزمان ولا يمنعها وجود الدفع في المكان"².

ولذلك قال الشيخ زروق في هذا السياق: "إذا حُقّق أصل العلم، وعُرفت مواده وجرّت فروعه، ولاحت أصوله، كان الفهم فيه مبدولاً بين أهله. فليس المتقدم فيه بأولى من المتأخر، وإن كانت له فضيلة السبق. فالعلم حاكم، ونظر المتأخر أتم؛ لأنّه زائد على المتقدم والفتح من الله مأمول لكل أحد. والله درُّ ابن مالك - رحمه الله - حيث يقول: "إذا كانت العلوم منحة إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مُستبعد أن يدّخر لبعض المتأخرين ما عُسّر على كثير من المتقدمين"³.

¹ انظر: زروق، أحمد: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيد، مرجع سابق، ص 5-6.

² زروق، أحمد: كتاب الإعانة، مرجع سابق، ص 36.

³ زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص 38.

فالقارئ لتُحفة المريد، لا بدَّ أنَّه سيقف على دُررٍ ومُلحٍ لم يكن ليذكرها لو لم يطَّلِع على ما سطره الشيخ زروق في هذا الكتاب، وعنوانُ الكتاب دالٌّ على ذلك؛ فتسميته "تُحفة" دليلٌ على أنَّ الإتحاف لا يكون إلا بالشيء الجديد المبتكر، والرَّوضة التي يُقدِّمها الشَّيخ زروق فريدةٌ تشتمل على دُرر ونفائس لا يتفطن إليها إلا أصحاب الفهم السَّديد والرأي المزيّد، أي الذين فتح الله عليهم، وأنار بصيرتهم لتلقّي العلوم وأسرارها ولطائفها وثمارها. ومن المسائل التي نقف عندها فيما تعرَّض له الشَّيخ في كتابه، نذكر¹:

- سَوْفُهُ جُمْلَةٌ من أقوال الفلاسفة والمتكلِّمين وتماهيه مع آرائهم، وهو يَعلم إنكار الفقهاء المُتشدِّدين عليهم، وما هذا إلا دليلٌ قوَّة شخصيَّة الشَّيخ أحمد زروق، واستقلاليَّته في آرائه، وأخذُه ما وافق الصَّواب مهما كان مصدره. وهو في الأصل كان رافضاً للواقع الفقهي في عصره؛ إذ الأصل في الفقه أن يكون مرادفاً للاجتهاد، وهو ما انخرم في عصور الانحطاط الفقهي²، وبعبارة: "فلا فقيه إلا المجتهد، وإطلاقه على من دونه مجاز، أي: على الحافظ له والخائض فيه، كما هو الاصطلاح اليوم"³.
- إنكاره الشَّديد للتقليد والإتِّباع من غير بيِّنة أو دليل، ويُجَبِّد الإِتِّباع المبنيَّ على العلم بالآراء الصَّحيحة في المسألة. ولا غرابة في هذا، فالشَّيخ زروق منطقي بامتياز؛ وتجلَّى حاسَّة النَّقد بوضوح في جُلِّ تآليفه، فلا يأخذ الكلام على علاته، وإنَّما يزنه بموازين وأصول، ويقرأ قراءة المنفتح، لا قراءة المبتلع، ومن أمثلة نقده وتتبُّعه للآراء، أنَّه يذكر قول سيدي أبي الحسن الشاذلي رحمه الله: "كتاب الإحياء" يُورثك العلم، وكتاب "قوت القلوب" يُورثك الثَّور، ثمَّ يُعلِّق عليه بقوله: "ولا يَنْتَفِع بهما، إلا من له أصل من غيرهما، يرجع إليه بهما، لا تَسَاع موردُهما وموقعُهما"⁴.

ولذلك ذمَّ التقليد، واعتبر المقلِّد مُستهزئاً بدينه، - كما قال في القاعدة الثانية والأربعين من قواعد التصوف: "أخذُ القول من غير استناد لعلامة في القائل، ولا وجه في المقول، فهو مذموم

¹ انظر: زروق: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيّد، مرجع سابق، ص 6-7.

² انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 670.

³ زروق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج 1، ص 22.

⁴ زروق: عدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص 183.

مطلقاً، لاستهزاء صاحبه بدينه"¹. ولذلك أوجب الشيخ أحمد زروق على العامي الاقتداء، فقال في القاعدة الواحدة والأربعين من كتابه قواعد التصوف²، ما نصّه: "وأما العامي، ومن كان في مبادئ الطلب، فلا بُدَّ له من معرفة الوجه الذي يأخذ منه، معقوله كمنقوله، ليكون على اقتداء، لا على تقليد"³.

• يذكر الشيخ موقفه المُنَافِح عن أقوال المحققين من الفقهاء الصوفية، أخذاً بالفكر الصوفي السلفي المعتدل في مجال العقيدة على حساب آراء كلٍّ من غلاة أهل الكلام والمعتزلة، أو الفقهاء المتزمتين؛ وسيراً على قاعدة الحكمة ضالة المؤمن أئى وجدها فهو أحقُّ الناس بها، نراه لا يتحرَّج من الأخذ بالأقوال المعتدلة الجُملة من المتصوّفة الإِشراقِيِّين، من قبيل: ابن العريف والبوني، وابن عربي، وغيرهم، رغم معارضة جمهور الفقهاء والصوفية في وقته لآرائهم، لكنَّ الشيخ زروق لا يابُهِ لذلك كلّهُ، وهي جُرأة تُحسب له، خاصة وأنّه في بداية تجربته العلمية والصوفية، وهذه الصّفة ظلّت ملازمةً له طوال حياته، وفي جميع مُصنّفاتهِ، فهو يتّصّر لأفكاره وآرائه مادامت موافقة للشّرع، فلا يهْمُهُ بعد ذلك معارضة المعارضين أو موافقة الموافقين. ولذلك عارض شيخه الزّيتوني وعبد العزيز الوريّاكلي في قضية الخروج على السلطان عبد الحق المريني⁴.

وليس رأيه مبنيًا على اتّباع هوى في نفسه، بل هو يتّبع مقصد الشّرع في المسألة؛ لأنّه رأى في ذلك مفسدة عظيمة في ضياع رأس الدولة وانتشار الفساد والقتل والفوضى، وإضعاف لقوة الأمة، وتمزيقاً لتماسكها الداخلي، خصوصاً وأنّ العدوّ الإيبيري كان متربّصاً بالأمة المغربية؛ بل ومُحتلاًّ لبعض مُدُنهِ السّاحلية، فرجّح عدم الخروج لأنّه أسلم وأحكم، وانحاز لرأي أستاذه القوري، الذي رفض أن يُمكن الثوار من فتوى تُبيح الخروج على الشرعية، ولم يُمكنهم من ذلك إلا تحت وطأة التهديد بالقتل

¹ زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص 40.

² المرجع نفسه، ص 40.

³ انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 667، 673.

⁴ انظر: زروق: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيد، مرجع سابق، ص 7.

وحرقت داره، ولا يخفى أنّ الفتوى تحت الإكراه تكون لاغية، ولعلّ عزله عن القضاء والفتيا بعد ذلك راجع لموقفه من الثورة والثوار¹.

● لقد كان الشيخ أحمد زروق حكيما في طريقة كتابته، فهو يعلم أنّه في بداية مرحلة الطلب، وأنّه في وسط مضطرب يُعجّ بأصحاب الأفكار الأخرى، من المتكلمين المعتزلة والفقهاء المتزمتين، فلذلك فهو لا يُقدّم رأيه مباشرة مُجرّداً ومعزولاً، بل تراه يُصدّر كلامه بأقوال تلائم فكره وتعكس منهجه، ليتخذها منطلقاً لطرح ما يؤمن به من آراء، مُعزّزة بأقوال الفقهاء والصوفية. وكلّ هذا من أجل مواجهة أصحاب المنطق الصوري من المعتزلة، من جهة، الذين كانت تُعصّ بهم المساجد ويستنهضون العامة بما يُشيعونه من جدل حول بعض المسائل العقدية، ومن جهة أخرى يناقش ويجادل الفقهاء في بعض أفكارهم وآرائهم الفقهية المتصلة بالعبادات، كما يُناقش الصوفية كذلك في بعض إشاراتهم الصوفية، منتقدا الآراء المجانبية للصواب في رأيه بطريقة غاية في الذكاء وحسن العرض والطرح، مع ما عُرف به من الإيجاز والاختصار وتعزيز الآراء الموافقة بالأدلة من الكتاب والسنة وأقوال كبار الأئمة المتصوفة والفقهاء، وهكذا نلّفِي الشيخ زروق في كتابه "تحفة المريد" يُفصّح عن منهجه الفكري، القائم على التكامل بين العقيدة والفقه والتصوف².

وقد أكّد الشيخ محمد إدريس طيب حفيد الشيخ زروق، أنّ كتاب "تحفة المريد" يُعتبر أوّل جسر أقامه الشيخ أحمد زروق للتواصل والتكامل بين الفقه والتصوف (الشريعة والحقيقة)³.

وإذا أردنا أن ندلّف إلى كُنْه هذا السّفر المفيد في بابه، فإنّنا سنلاحظ أنّ الشيخ اعتمد تقسيم كتابه إلى أبواب، ثمّ إلى مسائل لها ارتباطٌ بموضوع الباب؛ ثمّ يختتم كلّ باب بخاتمة جامعة، باستثناء الباب الجامع والآخر، الذي خصّصه لذكر بعض أقوال أقطاب التصوف السيّي. ويمكن أن نقف على هذه المنهجية باختصار:

أولاً: باب العلم: ذكر فيه العلم النافع المفيد، مُتوسّلاً بالتعريف المنطقي الصوري؛ إذ أنّ الشيخ زروق ومن خلال السيّاق العام لمصنّفاته فإنّ أهمّ وظائف التوسّل بالمنطق عنده تحقيق ما يُسمّيه بـ

¹ انظر: طيّب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء- الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص353

² انظر: زروق: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيد، مرجع سابق، ص8-9.

³ انظر: طيّب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء- الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص354.

الفهم" وهو الناتج بين العلم والعقل، " إذ لا كمال مع فساد الطبيعة، ولا راحة مع مُزعِجات النفوس. ولا بُدَّ من علم وعقل، وعيش في جميع الأحوال"¹، فيكون هذا العلم من قبيل ما يُسمّيه "جانب العلم والإفادة". فإن لم يتحقّق الجمع المذكور، كان من "الجهل، والانقياد للوهم، وعدم التّثبت للفهم"². ومن هنا أخذ كثيرٌ ممّن انتقدوا التصوّف بإطلاق، حيث قَصُرَ علمُهم، أو عقلُهم، أو هما معا. ومنهم ابن تيمية، الذي وصفه زروق بأنّه "رجلٌ مُسلّم له باب الحفظ والإتقان، مطعون عليه في عقائد الإيمان، ملموذ بنقص العقل، فضلا عن العرفان"، ثمّ نقل ما قاله تقي الدين السبكي فيه: "هو رجلٌ علمه أكبر من عقله"³.

وقد حدّد زروق آلات طلب العلم، ومراتبه، مع تفضيل علم الدراية على الرواية، والتأكيد على نية طالب العلم التي يجب أن تكون دوماً لله وَحْدَهُ. ثمّ ينبّه رحمه الله إلى من يُجرّم عليه طلب علم التصوّف؛ وبالتالي وبمفهوم المخالفة إلى صفات من يشتغل بالتصوّف، مع ذكّر الفرق بين المقلّد والمقتدي مع إنكار الأول وتحييد الثاني. وهو في ذلك كلّه يسير وفق المنحى الصوفي في طرحه للمفاهيم والمسائل، متأثراً بالغزالي والشاذلي وابن العريف والبوني وابن عباد، مستندا لأرائهم في كثير من كلامه⁴.

ثانياً: باب العقل: وقد تحدّث فيه الشيخ زروق عن جملة من المسائل، نذكر منها:

- العقل وتعريفه وعلة تسميته، وكونه مقتصرًا على إدراك الموجودات، ومُحْجُوبًا عن إدراك الحقائق الإلهية حسب مذهب الصّوفية. هذا "وإن كان القلبُ قاسيا فإنّه مُحْجُوب أيضا عن الوحي المخبر بالحقائق الإلهية؛ ولذلك وفي معرض حديثه عن الذّوق، يقول زروق: "غير أنّ حقيقته بعيدة عن مدارك العقول القاسية"، ومفهومه أنّ حقيقة الذوق والفهم عن الله قريبة من مدارك العقول الواصلة.

¹ زروق، أحمد: شرح حزب البحر، تحق: أحمد فريد المزيدي الشيخ، دار جوامع الكلم، القاهرة، لا.ط، د.ت، ص75.

² زروق: عدة المرید الصادق، مرجع سابق ص47.

³ انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص673-675. وهذا الكلام جاء في الردّ على ابن تيمية الذي شنّع على الشاذلي وحزبه في كتابه: الرد على الشاذلي في حزيه، وما صنّفه في آداب الطريق، تحق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، ط1، 1429هـ.

⁴ انظر: زروق: تحفة المرید وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيدي، مرجع سابق، ص19-20.

والعقل الواصل عند زروق هو العقل الذي جمع صاحبه بين عمق التجربة الصوفية، والأخذ بناصية العلوم العقلية والنقلية¹.

- العمل بالأدلة العقلية، وتأويل النصوص النقلية عند التعارض بينهما؛ إن كان للتأويل محلّ يُسوِّغه العقل، وإلا فوّض الأمر فيه إلى الله؛ وبذلك يتبنّى الشيخ زروق موقفاً وسطاً بين مدرسة أهل الرأي، ومدرسة أهل الحديث. ويوضح الشيخ هذه المسألة بأسلوبه الماتع في كتابه "قواعد التصوّف"، فيقول: "الكلام في المحتمل بما يقتضيه من الوجوه السائغة فيه لا يقرّ على أصل التفويض بالنقض، إذا لم يعتقد أنّه عين المراد به، فأمّا مع إيهام احتماله فلا يضّرّ، لأنّه الأصل الذي يُبنى عليه، بعد نفي المحال فليس يناقض له، وإن كان مناقضاً فمن ثمّ تكلم القوم في التأويل بعد عقد التفويض، وإلا فلا يصحّ بعد اجتماعهم عليه. نعم التحقيق أن لا تفويض في الأصل، وإمّا هو في تعيين المحمل للزوم طرح المحال والله أعلم"².

- بيان أقسام أحكام العقل، وأنواع الدليل العقلي، وأهمية العقل في تكوين الإنسان. هذا وقد تحدث الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه "المستصفى" عن صعوبة تحديد حدّ وماهية العقل، ثمّ حكى الأقوال فيه، قائلاً: "... وكذلك إذا قيل ما حدّ العقل فلا تطمع في أن تحدّه بحدّ واحد، فإنّه هوس، لأنّ اسم العقل مشترك يُطلق على عدّة معان، إذ يُطلق على بعض العلوم الضرورية، ويُطلق على الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لدرك العلوم النظرية، ويُطلق على العلوم المستفادة من التجربة، حتى إنّ من لم تُحنّكه التجارب بهذا الاعتبار لا يُسمّى عاقلاً، ويُطلق على من له وقار وهيبة وسكينة في جلوسه وكلامه، وهو عبارة عن الهدوء، فيقال فلان عاقل أي في هدوء، وقد يُطلق على من جمع العمل إلى العلم، حتى إن المفسد وإن كان في غاية من الكياسة يُمنع عن تسميته عاقلاً، فلا يقال للحجاج عاقل بل داه، ولا يُقال للكافر عاقل وإن كان محيطاً بجملة العلوم الطبية والهندسية، بل إما فاضل وإما داه وإما كيّس، فإذا اختلفت الاصطلاحات فيجب بالضرورة أن تختلف الحدود، فيقال في حدّ العقل باعتبار أحد مسمياته إنه بعض العلوم الضرورية كجواز الجائزات واستحالة المتسحيلات،

¹ انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص 693.

² زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص 46.

كما قاله القاضي أبو بكر الباقلاني رحمه الله، وباعتبار الثاني أنه غريزة يتهيأ بها النظر في المعقولات، وهكذا بقيّة الاعتبارات¹.

ولا يُغفل الشيخ أحمد زروق - كعادته دائماً - وهو يتكلّم عمّا ذكرناه، الاستشهاد بالسنة من أقوال النبي ﷺ، وأقوال السلف من الأئمة الصوفية كالغزالي والسهروردي، وابن دهبان، والصفدي، والحاتمي، لتأييد ما يُرجّحُه من آراء في الموضوع، مُحيلاً على المصادر التي اعتمد عليها².

ثالثاً: باب التوحيد: كما أسلفنا القول بأنّ الشيخ أحمد زروق رحمه الله، يتوسّل بالمنطق في عديد المسائل التي يسوقها في مُصنّفاتِه؛ من أجل الاستدلال والبرهان والحجّاج عليها، وليس بدعا من الأمر أن نجد في هذا الكتاب يستعمل المنطق، بل ويستدل بأقوال كبار الفلاسفة أمثال أرسطو طاليس في معرفة الله، والأكد أن هذا الفعل سيجلب له التّكثير من كثير من الفقهاء في عصره. فالشيخ يدخل غمار الحديث عن مسائل العقيدة: التنزيه والتشبيه، أسماء الله تعالى وصفاته، تقسيم الإيمان، ترك التأويل، مع اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه، تفضيل الرّسل على الملائكة، الصّفة والموصوف، الإيمان بالقدر، الرّؤية، الاشتقاق من أسماء الله الحسنى، نبوة محمد ﷺ، الخوارق والمعجزات، ضلال أهل الأهواء، النّظر والاستدلال. متسلّحاً في ذلك كلّه بأقوال كبار الصّوفية للتّقديم لرأيه، وتوضيحه، وتعزيزه. فمنهج الشيخ أحمد زروق أن يأخذ الحكمة من أيّ وعاء خرّجت، ولا يهّمه بعد ذلك نكير الناس وتشنيعهم عليه. وإنّك تجده يستشهد بقول الزّمخشري - المعروف بالإعتزال - في مسألة العلم، رغم أنّ التّهمة تلحق كلّ من يميل لرأي المعتزلة في وقته، ويُطعن عليه في عقيدته، إلا أنّ الشيخ زروق لا يلتفت في هذا المجال إلّا إلى طلب الحقيقة والمعرفة، ولا يأبؤه بعد ذلك إلى ما سيّقال عنه. ولعلّ هذا المنهج هو ما جعله يتلقّى صُنُوفاً من الإيذاء والإبعاد، وجعلته دائم التّرحال والسّفر في البلاد، وما استقرّ إلا في بلاد مصراته، وهي غير بلاد منشئه ومزبأه. وهذا ديدن العلماء العاملين في طريق

¹ الغزالي، أبو حامد: المستصفى في علم الأصول، تحقّق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ، ص20.

² انظر: زروق: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيد، مرجع سابق، ص20.

الحق، إذ لا بُدَّ من الابتلاء من أجل الاجتناء والاصطفاء، فهي سُنَّة الله في تمحيص الفئة المؤمنة الصابرة الموقنة من غيرها¹.

رابعاً: باب الطهارة: حينما تحدَّث الشيخ أحمد زروق عن الوضوء، ووصفه بأنَّه استعدادٌ من المصلي المناجي ربَّه، فيجب أن يستعدَّ لهذا اللقاء بالوضوء والطُّهر، حيث يُطلَب كلٌّ واحد منهما وجوباً أو ندباً، سُنَّة أو استحباباً، فتتظَّف الأعضاء بالماء ظاهراً، وبالتوبة والمغفرة باطناً، فقد قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ فَعَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتْ الْخَطَايَا حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ أَشْفَارِ عَيْنَيْهِ»².

وانطلاقاً من تعريف النية التي هي شرط في الطهارة يُبيِّن الشيخ أحمد زروق إشارات ومقاصد الوضوء، والغسل، والتميم عند الصوفية، وكيف أنَّ الوضوء عند أهل الورع هو نفْي الغفلة عن الأعضاء التي قامت بها حال التصرُّف. إثر ذلك يُبيِّن الحكمة من تقديم سُنن الوضوء، وهي اختبار الماء؛ وكذا الحكمة من غسل الأعضاء ثلاث مرَّات، والاكتفاء بالمرَّة الواحدة عند المسح، مع تبيان أهمِّية وفضل تجديد الوضوء³.

خامساً: باب الصلاة: يُصوِّر الشيخ أحمد زروق في هذا الباب، الصَّلَاة في شكلٍ آخر مُبتَكِر وبديع، حيث يتطرَّق إلى المعاني الخفيَّة والحكمة الباطنة من الصلاة، ويتوسَّع في معانيها، بعيداً عمَّا اعتاده النَّاس في أسلوب الفقهاء، ممَّا يُؤكِّد عُُمق فكر الشيخ وحرصه على إتحاف وإفادة من يطَّلِع على مُصنَّفاته، ومن هذه الإضاءات، ما قاله سيدي ابن عطاء الله في الحكيم: "الصَّلَاة طُهْرَةٌ للقلب واستفتاح

¹ انظر: زروق: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيد، مرجع سابق، ص 20-21.

² لعله يقصد الحديث الذي رواه عبد الله الصُّنَّاجِي، أنَّ رسول الله ﷺ قال: " مِنْ تَوَضَّأَ فَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ فِيهِ وَأَنْفِهِ فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ وَجْهِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَشْفَارِ عَيْنَيْهِ فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ يَدَيْهِ فَإِذَا مَسَحَ بِرَأْسِهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ رَأْسِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ أُذُنَيْهِ فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ رِجْلَيْهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِ رِجْلَيْهِ وَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً". أخرجه ابن ماجه في صحيحه، وقال الألباني: حديث صحيح. لكنَّ الحديث الذي في صحيح مسلم، والذي رواه أبو هريرة ؓ: " إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ، أَوِ الْمُؤْمِنُ، فَعَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بَعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ".

³ انظر: زروق: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيد، مرجع سابق، ص 21.

لباب الغيوب، الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة، تتسع فيها ميادين الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار، علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها، وعلم احتياجك إلى فضله فكثّر إمدادها"¹.

ويُفصّل الشيخ أحمد زروق في حكم الصلاة، ويدوِّها بالتكبير في أول الصلاة، والتسليم في آخرها، فالإحرام في الصلاة: الدُّخول في حرّمتها وحُرْمَتِها، والحُرْمَة ما لا يحلُّ انتهاكه لأنّه إذا أُحْرِمَ حُرْمَ عليه كل مُناف للصلاة². وكذا الحكمة من الدُّخول في الصَّلَاة بلفظ الجلالة دون غيره من الألفاظ، " وأنَّ معنى الله أكبر عند بعضهم أي: أكبر من كلّ شيء، وأبى هذا آخرون وقال الله أكبر وقيل بل جاء على نمط كلام العرب في المبالغة في الوصف ولم يُرد المفاضلة. وحكمة افتتاحها بالتكبير الإشعار بعظمة الله تعالى، حتّى يتوجّه له بقلب سليم ممّا سواه على وجه الإجلال والتعظيم"³. وعن التسليم في الصلاة يقول: " شرع التسليم في آخر الصلاة لأنَّ المصلّي خارج عن الأكوان شغل بالمناجاة؛ فإذا انتهت صلاته فكأنّه قدِم من غيبته..."⁴. وتطرّق الشيخ أحمد زروق بعد ذلك إلى ما يعترض الإنسان من وسوسة في الوضوء، والصلاة، مع تقديم العلاج المناسب. ثم يُبيّن الحكمة في السُّجود والركوع، وكذا خلوّ صلاة الجنازة منهما، ويختتم الباب بالكلام عن صلاة قيام الليل⁵.

وهذا المنهج الذي اختطّه الشيخ أحمد زروق رحمه الله، هو الذي نحتاجه في طريقة التّصنيف في الفقه وتدريسه، فالطّرح المقاصدي والبُعد الصُّوفي وغلبة النزعة الرُّوحية التي تربّى ونشأ عليها الشيخ زروق؛ جعلته يُبدع في تناول مسائل الفقه، ويُخرّجها من التجريد والجفاف إلى التداوة وروح التّجديد والحياة. وهذا ما يؤكّد مبدأ عدم تجرّد الشّيخ من ردائه الصُّوفي وهو يتناول قضايا الفقه أو مسائل العقيدة⁶.

سادسا: باب الصيام: هذا من أعظم الأبواب التي للصُّوفية فيها كلام كبير وعميق؛ ويذهب الشيخ أحمد زروق إلى القول أنّ دلالة الصّوم لدى أرباب التّصوّف، لم تقف يوماً عند المفهوم الظاهري لهذه العبادة وهو الإمساك عن الأكل والشّرب من طلوع الشمس إلى مغيبها، ولكن تناول معنى أعمق

¹ زروق: شرح حكم ابن عطاء الله، مرجع سابق، ص 158-159.

² زروق: شرح زروق على الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، ج 1، ص 213.

³ المرجع نفسه، ج 1، ص 214.

⁴ طيّب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء - الجامع بين الشريعة والحقيقة، مرجع سابق، ص 355.

⁵ زروق: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيد، مرجع سابق، ص 22.

⁶ انظر: المرجع نفسه، ص 22.

بكثير، وهو الإمساك والامتناع عن كل ما نهي الله عنه، بل تجاوز ذلك عند العارفين إلى الإمساك عن كل ما سوى الله وَعَلَيْكُمْ، كما أنّ الصيام يُعدُّ باباً من أبواب الولاية لله تعالى، التي تُنال وتتحقق بالتقوى التي هي ثمرة الصيام.

وتختلف درجات الناس في هذه العبادة العظيمة؛ بين صيام العامة وصيام الخاصة من الأولياء والعارفين بالله، وفي هذه السّياق يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

أهل الخُصوص من الصُّوَام صَوْمُهُمْ *** صَوْنُ اللِّسَانِ عَنِ الْبُهْتَانِ وَالْكَذِبِ
والعارِفُون وأهل الأُنس صَوْمُهُمْ *** صَوْنُ الْقُلُوبِ عَنِ الْأَغْيَارِ وَالْحُجُبِ¹

لقد تعدّى الصَّوم عند الصُّوفية من المعنى المباشر إلى دلالة واسعة، ليُصبح عندهم معراجاً إلى حضرة الذات الإلهية، وتُشعّ روح العبد بنورانية الحق تعالى الذي بدوره يُضفي نورانيته على العابدين، ويمنحهم صفةً من صفاته وهي الصّمدية، ويعتقدون أيضاً بأنّ الصَّوم هو الغيبة عن رؤية الخلق برؤية الحق وَعَلَيْكُمْ، وأنّ الإنسان يبلُغ بصيامه وروحانية تعبده مَبْلَغاً كمالياً عظيماً، ويرتقي في عبادته إلى الخضوع لله وحده، ويقطع بها أسباب التَّعَبُّد لغير المولى وَعَلَيْكُمْ، وهنا يحصل التشبُّه بالملائكة في الابتعاد عن عبادة الشَّهوات البهيمية، ويصلُّ إلى درجة رفيعة من التنزيه والتقديس، ويحصل علم الغيب بما تحمله الرُّوح من تقوى، مستندين في نظرهم هذه إلى قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282]. فصوم القلب والعقل والجوارح عن المعاصي والآثام أبرز طابع عند الصُّوفية في صيامهم؛ من أجل تركية النفس الإنسانية وتطهيرها وتهذيب الجوارح².

كما أنّ الشيخ أحمد زروق يُقرّر قاعدةً عامّةً مُجمَع عليها من طرف الصُّوفية، وهي أنّ الفتح الربّاني لا يتم ولا يصلُّ إليه صاحبه إلا بأكل الحلال وتجنُّب الحرام؛ وكذا يَحُلُّو القلب ممّا يشغل عن

¹ ابن رجب الحنبلي، أحمد: لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، تحق: عامر بن علي ياسين، دار ابن خزيمة، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، 1428هـ/2007م، ص374.

² انظر: الحسام، وليد: دلالة الصيام في الخطاب الصوفي، مقال منشور يوم: 30 يونيو 2014م، تصفح يوم: <http://althawrah.ye/archives/327197>، 2022/07/22م.

الله ﷻ. ثم بيّن بعد ذلك الحكم من صيام الدّهر، وأنّ صيام الاثنين والخميس مع شهر رمضان يعدل صيام ثلث الدّهر¹.

سابعاً: باب الزكاة: وإِنَّمَا سُمِّيَتْ صدقةُ المال الواجبة زكاة، لأنّها - كما قال الشيخ أحمد زروق رحمه الله - إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بالأموال النّامية والعين والحِرث والماشية، وقيل لأنّ مُعْطِيهَا يزكُّو بها عند الله ﷻ، وقيل لأنّها تزيد عند الله، كما قال ﷺ: «فَكَأَنَّمَا يَضَعُهَا فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ فَيُرِيَّيْهَا لَهُ كَمَا يُرِيِّي أَحَدَكُمْ فُلُوهُ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى تَصِيرَ كَالْجِبَلِ»². والشيخ زروق وهو يدعو لهذه العبادة العظيمة، لا يَغْفَلُ أن يأخذ بيد المسلم لِمَا يحفظ به قلبه من أمراضه، فينصّحه بالسّتر والإخفاء مخافة مرض الرياء، فيقول رحمه الله: "فَأَمَّا سِتْرُهَا فَمُسْتَحَبٌّ لِمَا يَعْزِضُ مِنَ الرِّيَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْغَالِبُ عَلَى النَّاسِ تَرْكُهَا فَيُسْتَحَبُّ الْإِظْهَارُ لِلْإِقْتِدَاءِ" ... فمن أيقن بسلامته من الرّياء وحسّن قصده في الإظهار استحبّ له ذلك، ومن غلب عليه خوف الرّياء استحبّ له الإسرار، ومن تحقّق وقوع الرياء وجبّ عليه الإخفاء والاستنابة³.

ولا بأس في هذا الباب أن نذكر طرفاً من مُلح أهل التصوّف الإشراقي، الذين طالما نُقِلَ عنهم الشيخ أحمد زروق بعض أقوالهم ولطائفهم، فيما لم تخرُج عن الشريعة طبعاً، ومن هذه ما نُقِلَ عن الشّبلي حينما يكشف عن حقائق (الزكاة) ولطائفها الروحية.. وفي ذلك، يُحكى في كتب الصوفية أنّ رجلاً كان ينهى عن مجالسة الصّوفي المسلم أبي بكر الشّبلي⁴ (صديق الحلاج، المتوفى 334 هجرية) أو

¹ انظر: زروق: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيد، مرجع سابق، ص22.

² الحديث: عن أبي الحباب سعيد بن يسار، أنّ رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا طَيِّبًا - كَانَ إِنَّمَا يَضَعُهَا فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ، يُرِيَّيْهَا كَمَا يُرِيِّي أَحَدَكُمْ فُلُوهُ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجِبَلِ». ابن عبد البر، الاستذكار 607/7. مرسل، وله متابعة، وروي مسنداً. أخرجه مالك في «الموطأ» (995/2).

³ الخطاب الرعيني، محمد بن محمد (ت954هـ): مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، ضبط: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2007م، ج3، ص237.

⁴ هو دلف بن جُحدر الشبلي، ناسك كان في بداية أمره والياً في دنباوند، وولي الحجابة للموفق العباسي، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة فاشتهر بالصلاح. له شعر جيد، سلك به مسلك المتصوفة. أصله من خراسان، ونسبته إلى قرية شبلة، ومولده بسر من رأى، ووفاته عام 334هـ ببغداد. (انظر: الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، 341/2. ابن خلكان: وفيات الأعيان، مرجع سابق، 180/1).

الاستماع إلى كلامه. فقد كان هذا الرجل يظنُّ في «الشُّبلي» الجهل وقلة التبصُّر، رغم مقامه بين الصوفية.. جاء الرَّجل يوماً، وسأل الشُّبلي بقصد إحراجه قائلاً: كم يجب في زكاة خمسٍ من الإبل؟ فقال الشُّبلي من فوره: شاةٌ في واجب الأمر، ويلزمنا نحن، كلّها!. ويبدو أنّ هذا الردّ [الدّوقي] الذي قاله الشُّبلي، لم يُعجب السَّائل، فاستنكر عليه قائلاً: ألك إمامٌ أخذت منه هذا؟ قال الشُّبلي: نعم، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حيث خرج عن ماله كلّهُ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: ما خلّفت لعيالك؟ فقال: الله ورسوله¹.

وإذا عرّجنا نحو عبد الكريم الجيلي وأذواقه في الزكاة، وجدنا الجيلي يبدأ بيان الأمر بقوله إنّ الزكاة: "هي التزكي بإيثار الحقّ على الخلق"²، فالقيام بفرض الزكاة، هو في حقيقته (تزكي) يؤثّر فيه الإنسان أمر الحقّ تعالى، على حبّ المال وغيره من الموجودات.. وهذا يوضح المعنى الذي طالما أشار إليه الصوفية، وهو حرص المتصوّف على لفظ الدنيا من قلبه، حتى وإن كان بيده منها بعض حطامها فهو يخرجها من قلبه، ليحلّ مكانها حبّ صادقٍ لله عزّ وجلّ، وفوق هذا المقام مقامٌ أعلى، تكون فيه الزكاة إشارة إلى التزكي بشهود الحقّ تعالى على الخلق، بمعنى أن يؤثّر العبدُ شهودَ ربّه على شهود من سواه، وهذا واضح جليّ في صورة التصدّق عند أمنا عائشة رضي الله عنها، التي أثّر عنها أنّها كانت تُعطر النقود قبل التصدّق بها، وتقول أنّها تقع في يد الله قبل الفقراء، وفي هذا أثرُ أوردناه في حديث الحباب سعيد بن يسار رضي الله عنه³.

ثامنا: باب الحج: يقول الله عزّ وجلّ على لسان الخليل: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37]. وفي تفسير ابن عاشور: "والمراد: فاجعل أناساً يهوون إليهم، فأفحّم لفظ الأفئدة لإرادة أن يكون مَسِيرُ النَّاسِ إليهم عن شوقٍ ومحبةٍ حتّى كأنّ المسرع هو الفؤاد لا الجسد... والمعنى:

¹ انظر: الشعراي: الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج1، ص191. ويوسف: دوامات التدين، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2013م، ص250.

² انظر: ظهير، إحسان الهي: التصوف المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة، باكستان، ط1، 1406هـ/1986م، ص254.

³ انظر: زيدان: دوامات التدين، مرجع سابق، ص251.

فاجعل أناساً يُقصدونهم بحبّات قلوبهم¹. على ضوء هذه الآية ندرك النظرة الصوفية الذوقية العميقة لمناسك الحجّ الذي افترضه الله على المسلم الذي استطاع إليه سبيلاً... وفي الحجّ يبدأ المسلم بالإحرام، فيرى الصوفي المسلم فيه إحراماً عن شهود المخلوقات، في إشارة واضحة لتعلّق قلبه بالخالق، ثم ترك المخيط إشارة إلى تجرّده عن صفاته المذمومة بالصّفات الحمودة، وفق ما يُعرف بالتّحلية والتّحلية... وترك النّكاح هو التعقّف عن شهوات البدن، والتخفّف من التصرّف في أمور الدنيا...². ذكر صاحب اللّمع بعض آداب الصوفية في الحج، منها " أنّهم إذا قالوا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك: أن لا يحييوا بعد ذلك دواعي النفس والشيطان والهوى بعدما أجابوا الحق بالتلبية وأقروا أن لا شريك له في ملكه، فإذا نظروا إلى البيت بأعين رؤوسهم نظروا بأعين قلوبهم إلى من دعاهم إلى البيت، فإذا طافوا حول البيت بأبدانهم فمن آدابهم أن يذكروا قول الله عز وجل: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: 75]، فكأنّهم ينظرون إلى طوافهم، فإذا صلّوا خلف المقام يعلمون أنّه مقام عبدٍ قد وثّق بالله تعالى بعهدده، فندب الله الأولين والآخرين إلى متابعة قدمه، واتخاذ صلواتهم خلف مقامه، فإذا استلموا الحجر وقبلوه علموا أنّهم هو ذا يبايعون الله تعالى بأيمانهم...³.

إنّ الشيخ أحمد زروق وهو يقف على المعاني الخفية والجليلة للحجّ، ويحاول استخراج اللّطائف والأسرار من ثنايا هذه العبادة العظيمة، يتحدّث عن حجّ القلوب لا حجّ الأبدان؛ فحجّ الأبدان الإتيان بالفرائض والأركان وفق ما هو مُقرّر شرعاً، وما نصّت عليه كتب الفقه. وهذا واجب، أمّا حجّ القلوب؛ وهو المطلوب من العابد بعد تحقيقه لظاهر الشريعة، وهو الذي يترك الأثر الحسن في النفس، ولذلك قرّر في قواعده أنّ " نظر الصوفي للمعاملات، أخصّ من نظر الفقيه؛ إذ الفقيه يعتبر ما يسقط به الحرج، والصوفي ينظر فيما يحصل به الكمال...⁴، ويمكن اعتبار حجّ القلوب في:

¹ ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج 13، ص 241-242.

² انظر: زيدان: دوامات التدن، مرجع سابق، ص 251-252.

³ الطوسي، السراج: اللّمع، تحق: عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، 1380هـ/1960م، ص 228.

⁴ انظر: زروق: قواعد التصوف، مرجع سابق، ص 49.

- إحرام القلوب عن خواطر الفحش، وتجرّدها من كلّ قبيح.
- طوافها حول الشكر والرضا؛ مع الخوف والرجاء.
- السّعي بين الآلاء والنّعماء؛ مع الشوق والحياة، وحفظ العهد والوفاء، والخوف من السّلب بعد العطاء.

- ملازمة الوقوف بباب الرّحمة الإلهية؛ مع عدم الإغترار؛ وتغليب الرجاء.

ولذلك فإنّ لأهل الله تعالى مِنْ حَجِّ القلوب والأرواح النّصيب الأوفر والقدر الأكبر، وربّما خرقت العوائد فرآهم الناس، وربّما وكّل الله تعالى من ملائكته من يحجّ عنهم، وقد ذُكر ذلك في كُتب القوم عن كثير من الصّالحين، ومن ذلك ما أورده الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه " تنوير الحلك في جواز رؤية النبي والملك"، أنّ بعض تلاميذ الشيخ تاج الدين ابن عطاء رأى الشيخ في الطواف وفي عرفة وسائر المشاهد، فلما رجع إلى القاهرة وسأله وجده لم يَبْرَحْ مَوْطِنَهُ¹.

وإذا ما أردنا حوصلة فكر الشيخ أحمد زروق الصّوفي من خلال شذراتٍ من كُتبه التي ذكرناها، فنستطيع القول أنّه من بين أحسن الصّوفية في القرن التاسع الهجري، من دافع بحجّة وبيان ونقدٍ من الدّاخل عن تصوّف السّني، وبيّن أصوله وقعده له. وما تَبَوّأ الشيخ أحمد زروق رحمه الله مكانةً مُحْتَسِبٍ العلماء والأولياء إلّا لأنّه امتلك خاصيّة التكامل والجمع بين أطراف العلوم الثلاثة (الإسلام-الإيمان-الإحسان)، المكوّنة لهذا الدّين العظيم، والتي جاء ذكرها في حديث جبريل عليه السلام. ولذلك ما أحرانا ونحن نتحدّث عن تجديد الفكر الصّوفيّ بما يخدم الأُمّة الإسلامية ويُعيد نهضتها، ويُرجع للتصوّف تلك الصّورة المشرّقة، المعبّرة عن رُوح الإسلام في العمل والبذل والجهاد والتضحية، مع الرّهد والتقلّل من الدنيا والطّمع في الآخرة، ونبذ ما ألصق فيه من تصوّر عن الصّوفية، أنّهم دراويش وأنّ أكثرهمهم بُطونهم، وأنّ أكثرهم يصبّوا حياة كسولة سهلة يعيشها في الزاوية، وتُعَدّق عليه الأموال من جيوب المريدين البسطاء. ما أحوجنّا أن نستشهد بقول الحسن الوزان رحمه الله، الذي قال: "...ولقد كان كثيرٌ من أهل الصّوفية مُتفقّين وعلماء بكلّ العلوم التّحريرية،

¹ السيوطي، جلال الدين: تنوير الحلك في رؤية النبي والملك، تحق: محمد زينهم محمد عزب، دار الأمين، القاهرة، ط1، 1414هـ/1993م، ص84.

وكانوا أفضل من يُدافع عن آرائهم ويدحض حجج خصومهم. أمّا في هذه الأيام فإنهم يأذنون لكلّ الجهلة والسُّوقة بالانتساب إليهم، قائلين بأنّه لا حاجة لكلّ أنواع العلم!...¹.

لقد رأينا من خلال جولاتنا في ثنايا بعض كتبه، أنّه من المستحيل على الشيخ أحمد زروق، وهو الصوفي الفقيه، أن يقبل ما من شأنه مُعارضة السنّة النبوية الشريفة، وكان إيمانه العميق بالوحدة بين الشريعة والطريقة في السعي إلى الحقيقة لا يسمح له بالترخّص أو المساومة في أيّ منهما. وهو بالتّالي لم يسلم من موقف الفقهاء المتشدّد من الصّوفية، كما رفض تصوّر الشائع للطريق الصّوفية وسوء تمثله في أيّامه. فكان من الطبيعي إذن أن نراه منشغلا بالتّصنيف دفاعا عن تصوّف الحقيقي من ناحية، ومنهمكا في الوقت نفسه في تنقيته من الشوائب والكدورات التي علقت به من ناحية أخرى.²

وقد وقفنا على النّكير والتّشنيع على التقليد، إلى حدّ المساواة بينه وبين البدعة، وهي من أشنع الأمور، فيقول الشيخ زروق: "علوم تصوّف حرام على من فيه أربع خصال أو أحدها: كفر، وبدعة، أو إثارة الظواهر، أو التعلّق بالتقليد. فالكفر طابع، والبدعة بليّة، والظواهر حجاب، والتقليد عقاب"³. بل إنّه يبدوا في موقف المحرّج والمتردّد في ردّ كلام أبي حامد الغزالي في القول بالتّقليد وسيلة من وسائل الإيمان، مُحاولا إلتماس العذر لحجّة الإسلام في أنّ مقصده كان تنفير العامّة من الاشتغال بعلم الكلام، بما فيه من استدلالات وحجّاج وجدل لا تقوى عقولهم على فهمه⁴.

لقد كان الشيخ أحمد زروق الصّوفي، مشروعا إصلاحيا- كما ذكر الأستاذ زهري⁵ - يقوم على خصيصة التمثّل الحقيقي للعبادة الصّحيحة عن بصيرة، وبعبارة: "فبيّن أنّ التّبصّر في الدين أصل من أصوله، وأنّ أخذ الأمور رماية في عماية، فليس بمُتّبِع للشّارع"⁶، "فالتّبصّر في الدّين واجب، وطلب

¹ خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص274. نقلا عن: ليو أفريكانوس: Leo Africanus, History and Description of Africa. Vol II, p.464.

² انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص279.

³ طيب: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء، مرجع سابق، ص592.

⁴ انظر: خشيم: أحمد زروق والزروقية، مرجع سابق، ص287.

⁵ انظر: زهري: من علم الكلام إلى فقه الكلام، مرجع سابق، ص671-672.

⁶ انظر: زروق: عُدة المريد الصادق، مرجع سابق، ص48.

الحق لازم، والعمل بغير علم حرام: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]. وابتعاد التصوف عن العلم هذا ما عابه الشيخ على متصوفة زمانه؛ حيث ساد الجهل والدجل بينهم، وعزبت عنهم معرفة أحكام الشريعة، فلم يفرقوا بين فرض ونفل، معتبراً ذلك " هو الداء العضال"، إذ " لا يقبل الله نافلة ممن عليه فريضة، فأهم الأمور القيام بالحقوق الواجبة، ثم النوافل. وقد قيل: من كانت النوافل أهم عليه من الفرائض فهو مخدوع... وفي الحكم: من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالحقوق الواجبات. وهو الداء العضال فلا يكن منك له إغفال"¹.

¹ زروق: كتاب الإعانة، مرجع سابق، ص 53.

الختامة

بعد هذه الوقفة مع الشيخ زروق الفاسي البُرْنسي أحد أقطاب المدرسة المغربية في القرن التاسع الهجري، وأحد الذين جَسَّدُوا التكامل المعرفي من خلال آثاره ومؤلفاته، نُخَلِّصُ إلى مجموعة من النتائج التالية:

1- بالنسبة لصوفية الغرب الإسلامي عموماً، ومن خلال الشيخ زروق خصوصاً، فقد خُلِصَتْ إلى أنهم قَدَّمُوا خدمات جليلة للعقيدة الإسلامية؛ سواء من خلال منهجهم الكلامي الأشعري، أو مسلكهم السلوكي الجنيدي، أو تمكُّنهم من الفقه المالكي، وأنَّ جُلَّهم استطاع التوفيق بين هذه المسالك الثلاثة، باعتماد الأول في البدايات، والثالث في النهايات، والثاني المسلك العملي اللازم للأول والذي به يظهر الثالث، مع تأكيدهم على أنَّ التوحيد ليس مرتبة واحدة، وإنما هو ثلاث مراتب كبرى: أولها: توحيد العامة. وثانيها: توحيد الخاصة. وثالثها: توحيد خاصة الخاصة، وأنَّ أحد هذه المراتب يغني عن الآخر، إلا أنَّ بعضها أرفع قدراً من بعض. وأنَّ الكلَّ محقَّقٌ للإيمان المطلوب شرعاً، المثمر للسعادة في الدنيا والآخرة، وأنَّ التفاضل الحاصل في مراتب الإيمان، منشؤه كثرة الطاعات والترقِّي في مقام الإحسان.

2- عَمِلَ الشيخ زروق على ترسيخ الدرس الأشعري بالغرب الإسلامي، وهو بذلك يسير وفق منهج أسلافه وأقرانه من العلماء، الذين كانت لهم مساهمات مُهمَّة في الحفاظ على الوحدة العقدية، من خلال البرهانية للسُّلَّالجي ومجموع العقائد الخمس للسَّنوسِي، وما هذا التأكيد على العقيدة الأشعرية، والعمل على نشرها بالغرب الإسلامي إلا لتحقيق مقاصد عقدية، أهمها الحفاظ على التواجد السِّي في الغرب الإسلامي وعِصْمَتِهِ من التيارات العقدية الجارفة التي كانت تجتاحه، خاصة الشيعة والاعتزالية والخوارجية، وكذا تحقيق مقاصد سياسية، أهمها الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية في بلاد الغرب الإسلامي من الانشقاقات والصراعات التي مرَّقت المشرق، وأيضاً تحقيق مقاصد اجتماعية، أهمها الحفاظ على الوحدة الفكرية والعاطفية لدى ساكنة الغرب الإسلامي، ولا يخفى أنَّ هذا المقصد مقدمة ضرورية لتحقيق المقصد السياسي المذكور.

3- تبيَّن لي من خلال التأمل في المنهج العام أنَّ الشيخ أحمد زروق -رحمه الله-، أنَّه ذو قدرة فائقة على التقيُّد بلغة العلم الذي يحرِّر مادته؛ مضموناً ومصطلحاً وأسلوباً؛ فحينما تقرأ له عقدياً، تجدُه واضحاً في عباراته، خبيراً بعلم الكلام الأشعري ومدلولاته، وإذا قرأت له صوفياً، تراه ساجحاً في عالم

الفتوحات الربانية، والمواهب الإلهية اللدنية، إلى درجة تُنسب أنَّهُ من كبار رجال العقيدة الأشعرية، وكذلك الأمر حينما تقرأ له فقيها، فإنَّك تَلْفِيهِ عالما مُتمكِّنا وضليعا في الفقه المالكي ودقائق مسائله.

4- خلا منهج الشيخ زروق في تقرير الدرس الكلامي من طريق العلوم الوهبيَّة، من المبهمات العقدية الغامضة، التي طفحت بها مُصنِّفات المدرسة الصُّوفية الفلسفية، بل جاء منهجه قائما على وحدة الشهود (وهي غير وحدة الوجود) المجمع عليها بين مشايخ تصوُّف المغرب الإسلامي. والتوحيد الشهودي الذي يؤمن به الشيخ أحمد زروق ويدعو إليه، هو الذي يصير فيه العبد أقرب إلى مولاه، فيراه متجليا وظاهرا في كل شيء من مخلوقاته، أي موجدا لها، ومدبرا لشؤونها، ومتفضلا عليها بالنعم التي لا تعد ولا تحصى، وليس بالمعنى الآخر الذي يفهمه منتقدو القوم من تجلِّي الله تعالى وظهوره في الأشياء ظهورا ذاتيا عينيا، فذلك محض اتحاد وحلول، لا يقول بهما إلا مرضى القلوب والعقول. ثم إنَّ هذا التوحيد الشهودي، لا يتعدى عند الشيخ أحمد زروق، كونه حالة وجدانية مخصصة، يُمنع فيها التقليد والاتباع، لعدم عموم حكمها من جهة، ولأنَّ القوم أهل إشارة لا أصحاب عبارة من جهة ثانية، مع ضرورة التسليم لأصحابها، لأنهم أهل صدق وصلاح، وأبعد عن الكذب والادعاء.

5- أظهر الشيخ أحمد زروق فيما يخص منهجه العقدي من طريق العلوم الكسبية، أي علم الكلام الأشعري، ميله الصريح لمذهب التفويض دون التأويل في كل المتشابهات، وإن أقرَّ بمسلك التأويل حينما لا يكون عنه بديل، وهو مذهب عموم الصُّوفية مشرقا ومغربا، بل هو اختيار السلف وجلَّ علماء الأمة قديما وحديثا.

6- لقد جَمَّل الشيخ أحمد زروق رحمه الله ورضي عنه، الدرس العقدي الأشعري بنفحات صوفية صريحة، وأذواق وجدانية مليحة، مبتعدا عن الشطح الصوفي الفلسفي، مُقرِّا بحقيقة الكشف الإلهي، فصارت العقيدة في عرض الرجل، جامعة بين المناهج السلفية، والأنظار العقلية، والفتوحات الربانية اللدنية.

7- تعكس كثرة المؤلفات المتنوعة وفي شتى صنوف الفنون والمعرفة: الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والتصوف، وغيرها، التَّجَرُّبَ العلمية الثَّريَّة للشيخ أحمد زروق، وتُجَلِّي موسوعية مداركه التي جمعت بين كل هذه العلوم في نسقٍ مُتوازن ومُتكامل، جعلته من القلائل الذين تميزوا بالتمكُّن من كُلِّ فن، حتى تحسب أنَّهُ من أهله ومن المتخصِّصين فيه.

- 8- الميّل الأكبر عند الشيخ زروق الفاسي البرنسي كان لعلم السلوك والتصوف، الذي برع فيه من خلال آثاره ومؤلفاته الكثيرة فيه، وأهمّها كتابه الفذ: قواعد التصوف.
- 9- حيازة الشيخ أحمد زروق السَّبْق في الدَّلالة والتَّعْيِيد والتنظير لعلم التصوّف؛ وخاصة في كتابه "قواعد التصوّف"، الذي قال عنه الدكتور يسار إبراهيم الحباشنة في تقديمه له: "فلا شك أنّ في كتاب "قواعد التصوّف" حكمة بالغة، وحلٌّ شافي لكثيرٍ من مُشكلاتِ التصوّف، وبيانًا مُجليًا لكثير من إشكالاته. ومن إشكالاته ثنائية الشريعة والحقيقة أو الجمع بين الفقه والتصوف، وتراتبية ذلك في نظر السالك، وهي رؤية منهجية تحفظ المريد من الزلل وتربط الفروع بالأصول.
- 10- التَّفَسُّ الصُّوفي العميق للشيخ زروق الفاسي وَسِعُهُ اِطِّلاعِهِ على كُتُب القوم، وهذا يظهر جليا في مختلف كتبه، مثل: كتاب "قواعد التصوف" و"شرح الشيخ زروق على الحِكم العطائية" و"نصيحته الكافية" و"رسائله في أصول الطريق"، وكثيرا من كُتبه الأخرى، وإننا لو أوليناها الرِّعاية والتدقيق والتنقيح والشرح، فلا شك بأننا سوف نمتلك كنزا لا يعلمُ قَدْرُهُ إلا الفَتَّاح العليم الذي فتح على الشيخ بهذه العلوم وتلك المعارف. ومن أبرز كتب القوم ورودا في تراث الشيخ زروق نذكر: الرسالة القشيرية ومؤلفات المحاسبي وأبي طالب المكي وإحياء أبي حامد وحكم ابن عطاء الله.
- 11- المناحي التكاملية في فكر الشيخ زروق الفاسي في كُتبه وشروحه، الذي جمع فيها بين الدّرس الفقهي والأصولي والمنطقي الكلامي، من خلال المنهج والقواعد التي أرساها.
- 12- حاكميّة الفقه على التصوّف، والشَّريعة على الحقيقة، وتقديمُ عَمَامَةِ الفقه على خِرْقَةِ التصوّف، فالفقه حاكمٌ على التصوّف والتصوّف ليس بحاكمٍ على الفقه، وأحكام الشريعة الإسلامية طافحةٌ بإصلاح القلوب وإصلاح الظواهر. وفي هذه القاعدة تصحيح للممارسة الصوفية ونقد ضمني للرؤى التي ترى أحادية السلوك الباطني على غرار الظاهر.
- 13- تكاملُ الفقه والتصوّف، واستحالةُ الفصل بين إصلاح الظاهر وإصلاح الباطن، والفصل بين الشريعة والحقيقة فصلٌ منهجيٌّ فقط وليس موضوعيًّا، فَرَضَتُهُ السياقات المعرفية، فالفقهاء شرحوا أحكام الشرع والمتصوّفة أفاضوا في إصلاح القلوب ومداواة النفوس، وهذا كُلُّه داخل في مُسمّى الشريعة. ومؤلفات الشيخ زروق الفاسي ترمي ابتداء وانتهاء إلى الوصل بين أحكام الظاهر(الشريعة) وأحكام الباطن(السلوك أو التصوف)، وترفض وترد أي وهم للفصل بين الشريعة والحقيقة.

14- البعد المقاصدي في التأليف لدى الشيخ زروق الفاسي البرنسي، من خلال إصلاح التصوف ونقده، تحقيقا لمقصد حفظ الدين بحفظ شرائعه وأحكامه، وإعادة تجديد التعامل مع التراث الصوفي ارتكازا على القواعد والأصول حتى لا تنزل الأقدام والأفهام. وحفظ الدين من جهة الوجود بالتأكيد على عموم الحكم الشرعي لأفعال الجوارح والقلوب معا.

15- المنحى التألفي لدى الشيخ زروق الفاسي صورة لعصره - القرن التاسع الهجري - وهو عصر راج فيه التصوف، وظهرت فيه كبرى الطرق الصوفية من قادرية وشاذلية وكبروية وبدوية ودسوقية وغيرها، حتى الطرق الأخرى التي ظهرت مع بداية القرن 18م كالرحمانية والتيجانية والسنوسية، لم تكن إلا امتدادا لهذه الطرق، إذ جميعها يرجع إلى السَّهْرَوْرْدِيَّة، وهذا العصر يمثل مرحلة الحكم العثماني بالجزائر الممتد من 1500 إلى 1830م.

16- امتداد الفكر الزروقي في كل بلدان المغرب العربي وتأثيره في العلماء من بعده، من أمثال العلامة الجزائري عبد الرحمن الأخضرى البنطوسى البسكري (ت 953هـ)، الذي أشاد بالشيخ زروق الفاسي في منظومته الصوفية "القدسية":

ومن يُرد معرفة بالبدع** وما ابتنى عليه أصل المدعي

ففي كتاب شيخنا الزروقي** عجائب فاتقة الرتوقي.

17- خدمة الشيخ زروق الفاسي لمشربه الصوفي الشاذلي، فهو يعتبر أحد أقطاب المدرسة الشاذلية بالمغرب الإسلامي وامتداد لأبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي وابن عطاء الله السكندري.

18- صياغة وبناء الشخصية المسلمة وفق رؤية زروق، مشروع يقوم على دعائم ثلاث: التشريع- العقائد- الأخلاق، وهو ما تحتاجه الأمة في راهنها في ظل التحديات المعاصرة من غزو فكري واستشراق وتنصير وعولمة ومادية رعناء، وهذا كله يتطلب المراقبة على مختلف الثغور والقلاع العقدية والشرعية والسلوكية، وفي هذا التكامل صمام أمان لأي انزلاق أو استلاب.

التوصيات:

- لا يفوتنا في ختام هذا البحث أن نسجل بعض الاقتراحات والتوصيات خدمةً للفكرة والإشكالية التي أردنا طرحها، ونحن ننشُد تحقيق الأمن المجتمعي:
- 1- ضرورة تدريس علم التصوّف أو الأخلاق والسلوك، بوصفه علمًا يهدف إلى إصلاح الباطن وتطهيره من كل ما يعوق الإنسان وتألقه في سماء الفضيلة والأخلاق الزكية، وذلك في المراحل الدراسية المختلفة جنبًا إلى جنب مع الفقه الظاهر الذي يُعنى بضبط الجوارح.
 - 2- التأكيد على التوازن والتكامل بين العقيدة والفقه والتصوّف، يكونُ مخرَجًا لهذه الأمة ممّا ابتليت به من تطرّفٍ وتزوّمتٍ وأمراض اجتماعية ونفسية، ومن فكر التكفير الذي يقود للتفجير، وكلُّها أمراضٌ حالت دون تقدّمها وعودتها إلى أمنها واستقرارها وريادتها.
 - 3- إعادة بعثِ تراثِ الشيخ زُرُوق الفاسي شرحًا ودراسةً، واستثماره في تقديم الدّرس العقدي والتربوي.
 - 4- تقصيّد العلوم الإسلامية عامل مهمّ في تدبير الخلاف، من خلال التركيز على المشترك والقضايا الكبرى (الأصول).
 - 5- بعث الهمم للاشتغال على تراث ومدونات علماء المغرب الإسلامي ممن جسّدوا التكامل المعرفي بين منظومات الإسلام الثلاث: المنظومة التشريعية (الإسلام) والمنظومة العقدية (الكلام) والمنظومة السلوكية التربوية (الإحسان).
 - 6- عقد دراسات مقارنة بين تصوف العجم وتصوف المغرب الإسلامي؛ لإبراز خصوصية تصوف المغرب الإسلامي وبيان مدى تناغمه وتوافقه مع بنية المجتمع المغربي وأعرافه وثقافته وتاريخه. وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الفهارس

1- فهرس الآيات القرآنية

2- فهرس الأحاديث النبوية

3- فهرس الاعلام

4- فهرس المصادر والمراجع

5- فهرس المحتويات

1- فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة البقرة		
﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾	23	288
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾	30	119-118
﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهُ ۖ وَاحِدٌ ﴾	163	281
﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُمْ ﴾	253	286
﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾	282	387
﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾	286	269
سورة النساء		
﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾	100	377
﴿ لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾	162	78
﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾	165	335
سورة الأنعام		
﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾	83	279
﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّبَلِّغُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	165	234
سورة الأعراف		
﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ	158	117

		مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿
100	164	﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿
100	165	﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿
هود		
65	120	﴿ وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿
100	116	﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُوتَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿
100	117	﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿
120	61	﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿
سورة الرعد		
221	11	﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَّالٍ ﴿
سورة إبراهيم		

389	37	﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾
سورة الحجر		
251	75	﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾
سورة النحل		
286	43	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾
سورة الكهف		
280	45	﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا﴾
78	65	﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾
291	105	﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾
سورة مريم		
278	42	﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾
سورة الأنبياء		
284	20-19	﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾
سورة طه		
275	110	﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾
سورة النور		
93	27	﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
120	55	﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ

الفهارس

كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٠﴾		
سورة النمل		
335	62	﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾
122	93	﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَاعْرِفُونَهَا﴾
سورة العنكبوت		
350	69	﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾
سورة الأحزاب		
117	72	﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾
358	59	﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهَا ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾
سورة سبأ		
287	28	﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾
سورة الصافات		
326	96	﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾
سورة الزمر		
258	8	﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾
390	75	﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾
سورة فصلت		
15	42	﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾
سورة الشورى		
-274-270 322-316	11	﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
سورة الأحقاف		
287	29	﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾
سورة الحجرات		

93	11	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
سورة النجم		
53	28	﴿إِنَّ الظَّلَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾
سورة القمر		
290	07	﴿كَانَ جَرَادٌ مُّتَشَرِّ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾
سورة الحديد		
33	04	﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
سورة المجادلة		
276	08	﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ﴾
سورة الجمعة		
117	02	﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾
سورة القلم		
116	01	﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾
سورة الجن		
402	01	﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾
سورة العلق		
316	14	﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾

2- فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	طرف الحديث
250	قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله».
384	قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد المؤمن فغسل وجهه خرجت الخطايا حتى تخرج من أشفار عينيه».
71	قال النبي ﷺ: «في الأخير وهو يُقرّر هذا التكامل المعرفي: هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».
91	قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا».

3- فهرس الأعلام

الصفحة	العلم	الحرف
31	ابن أبي كُدَيْة، أبو عبد الله محمد بن عتيق بن محمد بن هبة الله بن مالك التميمي القيرواني	أ
171	ابن البنا السرقُسطى	
31	ابن السماك، أبو ذر عبد الله بن أحمد بن محمد	
23	ابن عبد المؤمن، أبو بكر.	
100	ابن عجبية أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجبية الأنجري	
304	ابن عساكر، أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي الملقب فخر الدين	
53	ابن قيس، الإمام شيخ الأندلس، المقرئ أبو محمد الأندلسي	
36	أبو الأصيغ عيسى بن محمد بن عبد الله بن عيسى بن مؤمل بن أبي البحر الزهري	
24	أبو الحجاج الضرير	
132	أبو الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسي	
171	أبو الحسن الصغير الزرويلي	
61	أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن حرزهم	
27	أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري، المعروف بابن القابسي	
165	أبو الحسن علي بن ميمون الشريف الحسني	
108	أبو الحكم بن برجان هو عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي	
213	أبو العباس أحمد بن الحسن بن عبد الرحمن، الغماري	
209	أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد أبي بكر بن عروس الهواري	
-108 157	أبو العباس أحمد بن موسى ابن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن عريف	
208	أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي نسبا ودارا، الملياني	
76	أبو العباس، أحمد بن علي بن إبراهيم، عُرف بالبدوي	
52	أبو الفضل الشهير بابن الإمام.	
64	أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز	

51	أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي، المعروف بابن البراذعي
55	أبو المغيرة، أسد بن الفرات بن سنان
207	أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري المشهور بالشعراني
275	أبو الهذيل العلاف
378	أبو بكر الطمستاني
322	أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن وليد بن أبي جمرة الأموي الأندلسي
271	أبو بكر محمد بن موسى الواسطي،
34	أبو بكر، محمد بن الحسن بن قُورْكَ الأصبهاني
36	أبو جعفر، محمد بن أحمد الحنفي، السَّعْنَانِي
173	أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي الجزائري
203	أبو زيد عبد الرحمن المجدولي المشهور بالتونسي
316	أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي
206	أبو سالم وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن علي التازي
305	أبو سعيد العلائي، صلاح الدين
108	أبو شعيب السارية أيوب بن سعيد الصنهاجي أو مولاي بوشعيب الرداد
209	أبو عبد الله شقرون بن محمد بن أحمد بن أبي جمعة المغراوي
263	أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي الشهير بالبرتغالي
148	أبو عبد الله محمد الطيب بن عبد المجيد بن عبد السلام بن كيران.
41	أبو عبد الله محمد بن الشيخ إبراهيم الرندي النفري الحميري الصُّوفِيُّ، المعروف بابن عَبَّادٍ
207	أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن حسين، الرعيني، الأندلسي الأصل، الطرابلسي ثم المكي، عُرف بالحطاب.
173	أبو عبد الله محمد بن قاسم القوري اللخمي المكناسي
308	أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي
151	أبو فارس سيدي عبد العزيز بن موسى الوُزَيَاغلي.
54	أبو محمد الغازي بن قيس الأموي القرطبي

132	أبو محمد صالح الدكالي الماجري	
111	أبو محمد عبد الله بن عزوز القرشي المراكشي التلمساني	
208	أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن يحيى المعروف بابن جيدة	
113	أبو محمد عبد الله بن محمد الصنهاجي الهبطي	
47	أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير، الليثي القرطبي	
61	أبو مدين شعيب بن حسن الأندلسي البجائي	
129	أبي العباس أحمد بن محمد بن يعقوب الولاقي صاحب "مباحث الأنوار".	
59	أبي أمية مفضل بن محمد بن محمد بن إبراهيم العذري المرّي المالكي المعروف بابن الدلاي	
77	أحمد بن الولي الصالح محمد بن أحمد بن إبراهيم الصقلي الحسيني العريضي.	
126	أحمد بن عاشر	
46	الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام	
30	أبو الحسن علي بن داود المقرئ الداراني الدمشقي	
366	أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء	
41	البرزلي، هو أحمد بن محمد بن المعتل البلوي القيرواني.	ب
56	البهلول بن راشد أبو عمرو	
169	تاج الدين أبو العباس أحمد بن عقبة الحضرمي اليمني الشاذلي الوفائي	ت
375	الحاكم، المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي، البيهقي.	ح
29	الحسين بن حاتم، أبو عبد الله الأذري	
51	خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب، المعروف بالجندي	خ
387	دلف بن جُحدر الشبلي	د
47	السلالجي، عثمان بن عبد الله بن عيسى -أو عسلوج- القيسي القرشي	
53	شبطون، أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن، اللخمي الأندلسي	
151	الشريف العمراني	
108	الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون	
194	الشيخ العربي الدرقاوي	

30	عبد الجليل بن أبي بكر الربيعي القروي، يعرف بالدياجي وبابن الصابوني	ع
50	عبد الرحيم بن أحمد الكتامي أبو عبد الرحمن المعروف بابن العجوز سبتي	
56	عبد الرحيم، وقيل العباس، وقيل عبد الرحمن بن أشرس	
111	عبد السلام بن سليم الأسمر	
61	عبد السلام بن مشيش العلمي	
373	عبد الله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الله بن محمد البكري العرشي المعروف بالمرجاني	
58	عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي المصمودي	
36	عثمان بن أبي بكر الصدي، المعروف بابن الضابط	
55	علي بن زياد أبو الحسن التونسي العبسي	
61	علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوسف أبو الحسن الشاذلي	
71	علي بن عبد الله بن محمد بن هيدور التادلي الفاسي الفرضي الحاسب.	ف
334	فاطمة الفاسية	
50	الفقيه أبو عمرو بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدوني، ثم المصري، الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب	
57	القاضي أبو محرز محمد بن عبد الله بن قيس بن مسلم الكناني	ق
57	القاضي أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن غانم بن شرحبيل ابن ثوبان الرُعيني	
56	القاضي أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي	
207	محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب الرئيس أبي عبد الله بن مرزوق، العجيسي المغربي المالكي	م
142	مارتن لوثر	
307	محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفري الحميري الرندي	
367	محمد بن أحمد بن خلف التحبي القرطي المالكي، ابن الحاج	
202	محمد بن خليفة الوشناني أبو عبد الله، الشهير بالأبي	

62	محمد بن سليمان الجزولي الشريف الحسني	
183	محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الأصل أو (السفاقسي) الجزائري المالكي	
187	محمد بن علي بن عبد الواحد الدكالي ثم المصري، أبو أمانة، ويقال له ابن النقاش	
366	مصطفى بن عبد الله بن مومن الرماصي	
44	المعز بن باديس بن المنصور بن بُلُكين	
50	منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي، ناصر الدين	
192	مولاي عبد الرحمان بن الحسن	
134	الوغيلسي، عبد الرحمن بن أحمد	
57	يزيد بن عبد الرحمن	ي
142	Martin Lings عالم انجليزي أسلم وجعل اسمه عبد الكريم نور الدين	m

4- فهرس المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

أولاً: الكتب :

1. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت668هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقق: عامر النجار، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1996م.
2. ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، 1286هـ.
3. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972م.
4. ابن إسحاق الكندي، يعقوب: رسائل الكندي الفلسفية، تحقق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، ط1، 1950م.
5. ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدي، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ط1، 2000م.
6. ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر: التكملة لكتاب الصلة، تحقق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995م.
7. ابن الجوزي: صيد الخاطر، تحقق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1992م.
8. ابن الحاجب، جمال الدين: جامع الأمهات، تحقق: أبو عبد الرحمن الأنخضري، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-بيروت، ط1، 1998م.
9. ابن الزيات، يوسف بن يحيى التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، تحقق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط2، 1997م.
10. ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقق: محمد ناصر-ابراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

11. ابن العربي، أبو بكر (ت 543هـ): العواصم من القواصم، تحقق: عمار طالبي، مكتبة دار التراث، القاهرة.
12. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد العكري الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقق: عبد القادر الارناؤوط - محمود الارناؤوط، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط1، 1989م.
13. ابن الفرضي (ت 403هـ): تاريخ علماء الأندلس، تحقق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1989م.
14. ابن القاضي: جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1974م.
15. ابن القاضي، أحمد بن محمد المكناسي (ت 1025هـ): درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تحقق: محمد الأحدي أبو النور، مطبعة السنة المحمدية، جمهورية مصر العربية، ط1، 1971م.
16. ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقق: محمد علي مكّي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990م.
17. ابن القوطية (ت 367هـ): تاريخ افتتاح الأندلس، تحقق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1989م.
18. ابن القيم: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، تحقق: الحسين بن عبد الرحمن العلوي، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط1، 1425هـ/2004م، ج2.
19. ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت 438هـ): الفهرست، تحقق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط2، 1997م.
20. ابن تومرت، محمد: أعز ما يطلب، تحقق: عمار طالبي، وزارة الثقافة الجزائرية-الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007م.
21. ابن تيمية: الإيمان، دار ابن خلدون، الإسكندرية، لا.ط، د.س.
22. ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، تحقق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1991م.
23. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 2004م.

24. ابن تيمية، تقي الدين: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تحقق: رشيد حسن محمد علي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط1، 1426هـ.
25. ابن حزم الظاهري، علي بن أحمد (ت 456هـ): الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقق: محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، دار الجليل، بيروت، ط2، 1996م.
26. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، 1421هـ/2000م.
27. ابن خلدون، عبد الرحمان: شفاء السائل لتهذيب المسائل، تحقق: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، ط1، 1996م.
28. ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون، المقدمة، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001م.
29. ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت 681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1972م.
30. ابن خير، الإشبيلي: الفهرسة، تحقق: بشار عواد معروف، محمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2009م.
31. ابن دريد، محمد بن الحسن (ت 321هـ): جهرة اللغة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط1، 1345هـ.
32. ابن رجب الحنبلي، أحمد: لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، تحقق: عامر بن علي ياسين، دار ابن خزيمة، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، 1428هـ/2007م.
33. ابن رشد: مناهج الأدلة في عقائد الملة، تحقق: محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، الإسكندرية، ط2، 1964م.
34. ابن شقرون، محمد: مظاهر الثقافة المغربية من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر، دراسة في الأدب المغربي، مطبعة الرسالة، الرباط، لا.ط، 1982م.
35. ابن سعد التلمساني، محمد: روضة السنين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تحقق: يحي بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009م.

36. ابن عاشر، عبد الواحد: المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، دار القاهرة للطباعة، القاهرة-مصر، لا.ط، د.ت.
37. ابن عاشور، محمد الطاهر: أليس الصبح بقريب التعليم العربي الإسلامي، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 2006م.
38. ابن عاشور، محمد الفاضل: أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، مكتبة النجاح، تونس.
39. ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، تحقق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1414هـ/1994م.
40. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط2، 1412هـ.
41. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: جامع بيان العلم وفضله، تحقق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1994م.
42. ابن عبد الملك، الأنصاري الأوسي المراكشي: الذيل والتكملة، تحقق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973م.
43. ابن عجيبة: الفهرسة، تحقق: عبد الحميد حمدان، دار الغد العربي، القاهرة، ط1، 1990م.
44. ابن عذارى المراكشي، محمد بن محمد: البيان المغرب في أخبار لأندلس والمغرب، تحقق: ج.س. كولان، إ. ليفي. بروفنسال، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط3، 1983م.
45. ابن عذارى، أحمد بن محمد (بعد 712هـ): البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقق: بشار عواد معروف، محمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2013م.
46. ابن عربي: أورد الأيام والليالي، ضبط: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2006م.
47. ابن عساكر الدمشقي، علي بن الحسن (ت571هـ): تاريخ مدينة دمشق، تحقق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2012م.
48. ابن عساكر: تبين كذب المفترى، اعتناء: الدمشقي، مطبعة التوفيق، دمشق، 1347هـ.

49. ابن عساكر، علي بن الحسن الشافعي (571هـ): تاريخ مدينة دمشق، تحقق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995م.
50. ابن عسكر، محمد الحسني الشفشاوني: دوحة الناشر لمحسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب، ط2، 1977م.
51. ابن علويّ المستغانمي، أحمد بن مصطفى: المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية، تحقق: سعود القواص، دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986م.
52. ابن غازي العثماني المكناسي، محمد بن أحمد بن محمد: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1988م.
53. ابن غلبون الطرابلسي، محمد بن خليل: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقق: الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 2004م.
54. ابن فارس بن زكريا، أحمد أبي الحسين: معجم مقاييس اللغة،
55. ابن قنفذ القسنطيني: الوفيات، تحقق: عادل نويهض، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1971م.
56. ابن كثير، إسماعيل ابن عمر: البداية والنهاية، تحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1419هـ/1998م.
57. ابن كثير، إسماعيل بن عمر أبو الفداء (ت 774هـ): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط8، 1410هـ/1990م.
58. ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، اعتناء: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م.
59. ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1968م.
60. ابو داود، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، تحقق: شعيب الأرنؤوط - محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، دمشق، 1430هـ/2009م.
61. ابو ريان، محمد علي: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط2، 1990م.

62. ابو زهرة، محمد: أبو حنيفة حياته وعصره آراؤه الفقهية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1955م.
63. ابو زهرة، محمد: مالك حياته وعصره - آراؤه الفقهية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1952م.
64. ابو طالب المكي، محمد بن علي بن عطية: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد، تحقق: محمود إبراهيم محمد الرضواني، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط1، 1422هـ/2001م.
65. ابي العباس الولاقي: مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار، تحقق: عبد العزيز بوعصاب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط1، 1999م.
66. ابي العرب، محمد بن أحمد بن تميم (332هـ): طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.
67. ابي نعيم، أحمد بن عبد الله (430هـ): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت.
68. الآجري: الشريعة، تحقق: الوليد بن محمد بن نبيه سيف النصر، مؤسسة قرطبة، ط1، 1417هـ - 1996م.
69. الأحمد نكري، عبد النبي بن عبد الرسول: دستور العلماء، تعريب: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م.
70. احميد، محمد: الفكر الأشعري المغربي بين كتابي الإبانة واللمع، دار إي-كتب، لندن، ط1، 2018م.
71. الأزهري، محمد بن أحمد (370هـ): تهذيب اللغة، تحقق: إبراهيم الإياري، دار الكتاب العربي، 1967م.
72. إسماعيل، محمود: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي في طور الازدهار3، مؤسسة الانتشار العربي، القاهرة، 2000م.
73. الأشعري، أبو الحسن: رسالة إلى أهل الثغر، تحقق: عبد الله شاکر الجنيدي، ط: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط2، 2002م.

74. الألباني: صحيح سنن ابن ماجه، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1417هـ/1997م.
75. ألفرد: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط، 1981م.
76. أمين، عثمان: الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1945م.
77. الأنصاري، أحمد بك النائب: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب- ليبيا، د.ت.
78. أنيس، إبراهيم. ومنتصر، عبد الحليم. وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية- مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ/2004م.
79. البخاري: خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل، تحقق: فهد بن سليمان الفهيد، دار أطلس الخضراء، الرياض، ط1، 1425هـ/2005م.
80. البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 1423هـ/2002م.
81. البختي، جمال علال: عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية: دراسة لجانب من الفكر الكلامي بالمغرب من خلال البرهانية وشروحها، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقرق، الرباط، المملكة المغربية، ط1، 2005م.
82. بدوي، عبد الرحمان: موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984م.
83. البراذعي، أبو سعيد: التهذيب في اختصار المدونة، تحقق: محمد الأمين ولد محمد سالم الشنقيطي بن الشيخ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ط1، 2002م.
84. بصير، عبد المغيث مصطفى: الفقيه عبد الواحد بن عاشر حياته وآثاره الفقهية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2007م.
85. البغدادي الحموي الرومي، ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1993م.
86. البكوري، معاذ: قبائل غمارة: قراءة في المجال والتراث، دار الكتب، 2017م،
87. بن الدرعي، أحمد بن محمد: الرحلة الناصرية، تحقق: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2011م.

88. بن بريكة، محمد: التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، ط1، 1427هـ/2006م.
89. بن شقرون، محمد: مظاهر الثقافة المغربية، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1970م.
90. بن عرضون، أحمد أبو العباس: مقنع المحتاج في آداب الأزواج، مخطوط بالمديرية الملكية للوثائق، الرباط، تحت رقم: ك 1026.
91. بن عليوه المستغامي، أحمد بن مصطفى (1353هـ): المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين بطريق الصوفية، تحق: عاصم إبراهيم الكيّلي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2009م.
92. بن غازي، أبي عبد الله بن أحمد: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحق: عطا أبو ربه-سلطان بن مليح الأسمرى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، لا.ط، 2018م.
93. بوداود، عبيد: ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط بين القرنين السابع والتاسع الهجريين، دار الغرب، وهران، 2003م.
94. البوطي: باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، مكتبة الفارابي، دمشق - سوريا، ط1، 1980م.
95. بووانو، إدريس: ملامح الفكر المقاصدي في الخطاب الصوفي عند الشيخ أحمد زروق، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2012م.
96. البياضي، كمال الدين: إشارات المرام من عبارات الإمام، تحق: يوسف عبد الرزاق، طبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط1، 1949م.
97. التازي، عبد الهادي: جامع القرويين، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1، 1973م.
98. التازي، عبد الهادي: جامع القرويين، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب، ط2، 2000م.
99. الترمذي، محمد بن عيسى: الجامع الكبير، تحق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996م.
100. الترمذي، محمد بن عيسى: جامع الترمذي، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية، ط2، 1421هـ/2000م.

101. تشارلس سنو: الثقافتان، ترجمة: لطيفة الدليمي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2018م.
102. التفتازاني، سعد الدين: شرح العقائد النسفية، تحقق: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1، 1987م.
103. التليدي، عبد الله: المطرب بمشاهير أولياء المغرب، دار الأمان للنشر والتوزيع، ودار البشائر الإسلامية، الرباط، ط4، 2003م.
104. التسماني، محمد بن محمد المهدي: رياض الرقائق وحياض الحقائق على صلاة القطب الفائق عبد السلام بن مشيش، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، لا.ط، 2016م.
105. التنبكي، أحمد بابا(ت1036هـ): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، ط2، 2000م.
106. التهامي، إبراهيم: الأشعرية في المغرب، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 2006م.
107. التهامي، إبراهيم: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
108. توفيق بن أحمد الغلبزوري الإدريسي: المدرسة الظاهرية بالمغرب والأندلس، دار ابن حزم، الرياض، ط1، 2006م.
109. الثعالبي، عبد الرحمن: تفسير الثعالبي(الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، تحقق: علي محمد معوض-عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي-مؤسسة التاريخ العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1418هـ/1997م.
110. الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف(ت816هـ): معجم التعريفات، تحقق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ط1، 2012م.
111. الجزنائي، علي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقق: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1411هـ/1991م.
112. جلاب، حسن: بحوث في التصوف المغربي، المطبعة الوطنية، مراكش، ط1، 1995م.
113. الجنيد البغدادي: تاج العارفين، دراسة وتحقيق: سعاد الحكيم، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2005م.

114. الجيزاني، محمد: فقه النوازل، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط2، 1427هـ/2006م.
115. الجيلالي، عبد الرحمان: تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1385هـ/1965م.
116. الحاكم محمد بن عبد الله: المستدرک علی الصحیحین، تحقق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 1422هـ/2002م.
117. الحامدي، إسماعيل بن موسى: حواش علی شرح الکبری للسنوسي علی عمدة أهل التوفيق والتسديد شرح عقيدة أهل التوحيد الکبری للسنوسي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1936م.
118. الحجوي، محمد بن الحسن: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مرجع سابق، تحقق: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1416هـ/1995م.
119. حجي، محمد وتوفيق، أحمد: موسوعة التراجم المغربية، جمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المملكة المغربية، 1435هـ.
120. حسن الحريري: التأويل الإبستمولوجي اللاوضعي بين براديغم توماس كون وبرنامج بحث إيمر لاکاتوس، مؤسسة دراسات وأبحاث مؤمنون بلا حدود، الرباط-أكادال، المملكة المغربية، 2016م.
121. الحُضَيْكِي، محمد بن أحمد (ت 1189هـ): طبقات الحُضَيْكِي، تحقق: أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م.
122. الخطاب الرعيني، أبو عبد الله محمد المغربي: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر، ط3، 1992م.
123. الخطاب الرعيني، محمد بن محمد (ت 954هـ): مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، ضبط: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2007م.
124. الحلیمي، الحسين بن الحسن: المنهاج في شعب الإيمان، تحقق: حلمي محمد فوده، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1979م.
125. حمدان، أحمد العلمي: الكلام كجنس: دراسة لذاتيات الكلام من زوايا مباحث متعددة، دار ما بعد الحداثة، فاس، ط1، 2007م.

126. الحموي تاج الدين، محمد بن مكي: حقائق الفصول وجواهر الأصول، واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم، فلسطين، لا.ط، د.ت.
127. حنفي، حسن: من العقيدة إلى الثورة، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 1988م.
128. خالد زهري: الفقه المالكي والكلام الأشعري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 2008م.
129. خان، وحيد الدين: تجديد علوم الدين، ترجمة: ظفر الإسلام خان، عالم الأفكار، المحمدية، الجزائر، 2016م.
130. الخرشبي، محمد بن عبد الله المالكي: شرح مختصر خليل، دار الفكر، بيروت- لبنان.
131. الخروبى، محمد بن علي: الأنس في شرح عيوب النفس، تحقق: محمد طيب إدريس، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2010م.
132. الخطيب، لسان الدين: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقق: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م.
133. الدارمي، عبد الله: مسند الدارمي، تحقق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1421هـ/2000م.
134. الدارمي، عثمان بن سعيد: الرد على الجهمية، تحقق: أبو عاصم الشوامي، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط1، 1431هـ/2010م.
135. الدباغ، عبد الرحمن بن محمد (ت 696هـ): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، مكتبة الغانجي، مصر، ط1، 1998م.
136. الدراجي، بوزياني: دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس، دار الكتاب العربي، الجزائر، لا.ط، 2001م.
137. الدراجي، بوزياني: عبد الرحمان الأخضرى: العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، مؤسسة بلاد للنشر، الجزائر، ط2، 2009م.
138. الدرجيني، أحمد بن سعيد: كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقق: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة- الجزائر، 1974م.
139. الدسوقي شتا، إبراهيم: التصوف عند الفرس، دار المعارف، القاهرة، لا.ط، 1978م.

140. دفترى، فرهاد: تاريخ الإسلام الشيعي، ترجمة: سيف الدين القصير، دار الساقى، بيروت- لبنان، ط1.
141. الدهلوي، شاه ولي الله: حجة الله البالغة، تحق: السيد سابق، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ط1، 2005م.
142. الذهبي: تاريخ الإسلام، تحق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م.
143. الذهبي، شمس الدين (ت748هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994م.
144. الذهبي، شمس الدين: العلو للعلي الغفار، اعتنى به: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط1، 1995م.
145. الذهبي، شمس الدين: سير أعلام النبلاء، تحق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1417هـ/1996م.
146. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، تحق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995م.
147. الراشدي، عمر بن علي الجزائري: ابتسام الغروس ووشي الطروس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، 1303هـ.
148. الزبيدي، محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، تحق: محمود محمد الطناحي، وزارة الإعلام، الكويت، 1993م.
149. الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط7، 1986م.
150. زروق البرنسي: شرح المقدمة القرطبية ليحيى القرطبي، تحق: أحسن زقور، دار التراث ناشرون، الجزائر، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2005م..
151. زروق الفاسي (ت899هـ): قواعد التصوف، تحق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005م.
152. زروق: اغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد للإمام أبي حامد الغزالي، عناية: نزار حمادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، دار الضياء للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1436هـ- 2015م.

153. زرُّوق: الفتوحات الرحمانية في حل ألفاظ الحكم العطائية، تحقق: محمد طيب إدريس، كتاب ناشرون، بيروت- لبنان، 2013م.
154. زرُّوق: النصيحة الكافية لمن خصَّه الله بالعافية، ضبط: قيس بن محمد آل الشيخ مبارك، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض-مكتبة الظلال، الأحساء، المملكة العربية السعودية، ط1، 1993م.
155. زرُّوق: شرح زروق على متن الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني، اعتناء: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2006م.
156. زرُّوق: شرح صحيح البخاري، تحقق: عزت علي عطية، موسى محمد علي، تعليق: عبد الحليم محمود، مطبعة حسان، القاهرة، 1973م.
157. زرُّوق، أحمد البرنسي الفاسي: عدة المريد الصادق، تحقق: الصادق الغرياني، دار ابن حزم، ط1، 2006م.
158. زرُّوق، أحمد: إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، تحقق: نزار حمادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ط1، 1433هـ/2012م.
159. زرُّوق، أحمد: الأنوار الإلهية بالمدرسة الزُّرقية، تحقق: محمد إدريس طيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971م.
160. زرُّوق، أحمد: الجامع لجمل من الفوائد والمنافع، تحقق: عبد الحي اليملاحي، كتاب ناشرون، بيروت، 2016م.
161. زرُّوق، أحمد: الكناش صور من الذكريات الأولى، تحقق: علي فهمي خشيم، منشورات الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، الجماهيرية الليبية، 1980م.
162. زرُّوق، أحمد: اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية، تحقق: محمد عبد القادر نصار-عبد الله جمال حمدنا الله، دار الإحسان، القاهرة، ط1، 2015م.
163. زرُّوق، أحمد: النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، تحقق: قيس محمد آل الشيخ مبارك، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض-مكتبة الظلال، الأحساء، المملكة العربية السعودية، ط1، 1414هـ/1993م.
164. زرُّوق، أحمد: تحفة المريد وروضة الفريد وفوائد لأهل الفهم السديد والنظر المزيدي، تحقق: محمد طيب إدريس، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2010م.

165. زرُّوق، أحمد: شرح أسماء الله الحسنى ويليهِ شرح منظومة الدميّاطي لخواص أسماء الله، تحق: السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1428هـ/2007م.
166. زرُّوق، أحمد: شرح المقدمة القرطبية، تحق: أحسن زقور، دار التراث - ناشرون، الجزائر، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط1، 2005م.
167. زرُّوق، أحمد: شرح النونية والمقطعات الششترية، تحق: محمد إدريس طيب، كتاب ناشرون، بيروت - لبنان، لا.ط، 2019م.
168. زرُّوق، أحمد: شرح حزب البحر، تحق: أحمد فريد المزيدي الشيخ، دار جوامع الكلم، القاهرة، لا.ط، د.ت.
169. زرُّوق، أحمد: شرح حكم ابن عطاء الله، تحق: عبد الحليم محمود، مطابع دار الشعب، القاهرة، 1405هـ/1985م.
170. زرُّوق، أحمد: شرح عقيدة الغزالي للإمام محمد الغزالي الطوسي، تعليق: السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2006م.
171. زرُّوق، أحمد: عدة المرید الصادق، تحق: الصادق الغرياني، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط1، 2006م.
172. زرُّوق، أحمد: عيوب النفس ودواؤها وعلى هامشه عيوب النفس للسلمي، تحق: محمد طيب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2010م.
173. زرُّوق، أحمد: فوائد من كنّاش، تحق: محمد إدريس طيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لا.ط، 2011م.
174. زرُّوق، أحمد: قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول والفقه بالطريقة، ضبط وتعليق: محمود البيروتي، دار البيروتي، دمشق - سوريا، ط1، 2004م.
175. زرُّوق، أحمد: كتاب الإعانة، تحق: علي فهمي خشيم، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1979م.
176. زرُّوق، أحمد: مفتاح الفضائل والنعم في الكلام على بعض ما يتعلق بالحكم، تحق: محمد إدريس طيب، كتاب - ناشرون، بيروت - لبنان، 2015م.

177. الزمخشري: محمود بن عمر: الفائق في غريب الحديث والأثر، تحقق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط2.
178. الزمخشري، جار الله (ت538هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط3، 1407هـ.
179. زهري، خالد: من علم الكلام إلى فقه الكلام، دار الرشاد الحديثية، الدار البيضاء، المغرب- دار الضياء للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 2017م.
180. السبكي، ابن خمير: مقدمات المراشيد إلى علم العقائد، تحقق: جمال علال البختي، مطبعة الخليج العربي، المغرب، ط1، 1425هـ/2004م.
181. السبكي تاج الدين، عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النقم، تحقق: محمد علي النجار، أبو زيد شلبي، محمد أبو العيون، مطبعة دار الكتاب العربي، مصر، ط1، 1948م.
182. السبكي، تاج الدين: طبقات الشافعية الكبرى، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، ط1، 1324هـ.
183. السبكي، تاج الدين: طبقات الشافعية الكبرى، تحقق: عبد الفتاح محمد الحلو-محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1383هـ/1964م.
184. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجليل، بيروت.
185. السخاوي، محمد عبد الرحمن: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م.
186. السرجاني، راغب: قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 2011م.
187. سعد الله، أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م.
188. السكوني، أبو علي عمر (ت717هـ): عيون المناظرات، تحقق: سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية، 1976م.
189. السكوني، محمد بن خليل: شرح مرشدة محمد بن تومرت، تحقق: يوسف احنانا، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1993م.

190. السلطان العلوي، محمد بن عبد الله: مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1996م.
191. السلمي، أبو عبد الرحمن: طبقات الصوفية، تحقق: أحمد الشرباصي، طبعة كتاب الشعب، ط2، 1998م.
192. السلمي، عبد الرحمن: طبقات الصوفية، تحقق: أحمد الشرباصي، مؤسسة دار الشعب، ط2، 1998م.
193. سمير: مرشد الحائر في حل ألفاظ رسالة ابن عساكر، دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999م.
194. السنوسي، محمد بن عثمان: مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقق: محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1994م.
195. السنوسي، محمد بن يوسف: نصرته الفقير في الردّ على أبي الحسن الصغير، مخطوط، مكتبة جامعة الملك سعود - قسم المخطوطات، الرياض، خط القاضي المريني سنة 1274هـ.
196. السيد، فؤاد صالح: معجم السياسيين المثقفين في التاريخ العربي والإسلامي، مكتبة حسن العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 1432هـ/2011م.
197. السيوطي، جلال الدين: تنوير الحلك في رؤية النبي والملك، تحقق: محمد زينهم محمد عزب، دار الأمين، القاهرة، ط1، 1414هـ/1993م.
198. السيوطي، جلال الدين: صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام، تعليق: سامي النشار، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1947م.
199. الشاطبي، أبي إسحاق إبراهيم بن موسى (ت 790هـ): الإعتصام، ضبط: مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة التوحيد، لا.ط، د.ت.
200. الشاطبي، أبي محمد القاسم بن فيّره: منظومة عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد، تحقق: أيمن رشدي سويد، دار نور المكتبات، المملكة العربية السعودية، ط1، 2001م..
201. الشافعي، حسن عبد الطيف: العقيدة والعقل في الفكر الإسلامي: الدليل العقلي ومكانه في البحوث الاعتقادية، المنهجية الإسلامية، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2010م.

202. شبلي النعماني الهندي: علم الكلام الجديد، ترجمة: جلال السعيد الحفناوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2012م.
203. الشعراي، عبد الوهاب بن أحمد بن علي (ت 973هـ): الطبقات الكبرى، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح، توفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2005م.
204. الشماخي، أحمد بن سعيد: كتاب السير، تحقيق: أحمد بن سعود السيادي، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ط2، 1412هـ/1992م.
205. الشهرستاني، عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاؤه، القاهرة، 1387هـ/1968م.
206. الشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
207. الصغير، عبد المجيد: التصوف كوعي وممارسة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط1، 1999م.
208. الصغير، عبد المجيد: الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، قراءة في نشأة علم الأصول ومقاصد الشريعة، دار المنتخب العربي، ط1، 1994م.
209. الصغير، عبد المجيد: تجليات الفكر المغربي: دراسات ومراجعات نقدية في تاريخ الفلسفة والتصوف بالمغرب، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2000م.
210. الصغير، عبد المجيد: من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب، ضمن دراسات تاريخية في كتاب: الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1997م.
211. الصلابي، علي محمد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط3، 1430هـ/2009م.
212. الصلابي، علي محمد: كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط1، 2015م.
213. صليبا، جورج: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، لا.ط، 1982م.

214. ضريف، محمد: مؤسسة الزوايا بالمغرب، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، المغرب، ط1، 1992م.
215. ضيف، بشير: مصادر الفقه المالكي، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط1، 1429هـ/2008م.
216. الطوسي، أبو نصر: اللمع، تحقق: عبد الحليم محمود- طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر- مكتبة المثنى، بغداد، لا.ط، 1380هـ/1960م.
217. طيب، محمد إدريس: الأذكار السننية بالمدرسة الزروقية، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2012م.
218. طيب، محمد إدريس: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2019م.
219. طيب، محمد إدريس: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، كتاب- ناشرون، بيروت- لبنان، ط2، 2008م.
220. طيب، محمد إدريس: عقيدة الإمام العارف بالله الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق من خلال: كتبه وشروحه، كتاب- ناشرون، بيروت، ط1، 2017م.
221. ظهير، إحسان الهي: التصوف المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة، باكستان، ط1، 1406هـ/1986م.
222. ظهير، إحسان إلهي: الشيعة والتشيع، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، ط10، 1995م.
223. العابدين، بن حنفية: العجالة في شرح الرسالة، دار الإمام مالك، الجزائر، ط2، 2014م.
224. العالم، جلال: قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيضوا أهله، لا.ن، طرابلس، لا.ط، 1974م.
225. عامر النجار: علم الكلام تعريفه وعوامل نشأته، دار المعارف، ط1، 1985م.
226. عبد الحميد مذكور: المنهج العرفاني الذوقي عند صوفية الإسلام، المنهجية الإسلامية، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2010م.
227. عبده، محمد: الإسلام بين العلم والمدنية، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2011م.

228. عبدو، محمد: الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2009م.
229. العدوي، أبو الحسن علي بن أحمد بن مكرم: حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، تحقق: يوسف الشيخ البقاعي، دار الفكر، بيروت - لبنان.
230. العسقلاني، ابن حجر (ت 856هـ): لسان الميزان، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 2002م.
231. العسقلاني، ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط1، 1349هـ.
232. العسقلاني، ابن حجر: الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، دار عالم المعرفة، بيروت - لبنان، ط1، 1439هـ.
233. العظيم آبادي، شرف الحق: عون المعبود على شرح سنن أبي داود، اعتناء: أبو عبد الله النعماني الأثري، دار ابن حزم، ط1، 1426هـ/2005م.
234. عكام، محمود (1415هـ/1995م): الموسوعة الإسلامية الميسرة، دار صحارى، دمشق.
235. العلواني، طه جابر: الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 1427هـ/2006م.
236. علي بن زيد البيهقي: تاريخ بيهق، ترجمة وتحق: يوسف الهادي، دار إقرأ للطباعة والنشر، دمشق - سوريا، ط1، 1425هـ/2004م.
237. العمراني الخالدي، عبد السلام: الأنوار الساطعة في معرفة الفتاوى الشرعية الناجعة والمسائل الصوفية النيرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2019م.
238. عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ط2، 1966م.
239. عون، فيصل بدير: علم الكلام ومدارسه، دار الثقافة، القاهرة، لا.ط، د.ت.
240. العياشي، عبد الله بن محمد (ت 1090هـ): الرحلة العياشية للبقاء الحجازية (ماء الموائد)، تحقق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م.

241. العياشي، عبد الله بن محمد: الرحلة العياشية، تحقق: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار
السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006م.
242. الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة
ببجاية، تحقق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979م.
243. الغرياني، الصادق: أساسيات الثقافة الإسلامية، دار ومكتبة ابن حمودة للنشر والتوزيع، زليتن-
ليبيا، ط8، 2009م.
244. غريب، مأمون: حجة الإسلام الإمام الغزالي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، مصر، ط1،
1997م.
245. الغزالي، أبو حامد: إحياء علوم الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان،
2018م.
246. الغزالي، أبو حامد: المستصفى في علم الأصول، تحقق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار
الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ.
247. الغزالي، أبو حامد: المستصفى من علم الأصول، تحقق: حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة
المنورة للطباعة، المملكة العربية السعودية، د.ت.
248. الغزالي، أبو حامد: فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام الغزالي، ترجمة: نور الدين آل علي،
الدار التونسية للنشر، تونس، 1972م..
249. الغزالي، أبو حامد: قواعد العقائد، تحقق: موسى محمد علي، عالم الكتب، بيروت- لبنان،
ط2، 1405هـ/1985م.
250. الغزالي، محمد: الجانب العاطفي من الإسلام، نخبة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيز،
مصر، ط3، 2005م.
251. الغزالي، محمد: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، لا.ط،
1409هـ/1989م.
252. الغزالي، محمد: عقيدة المسلم، نخبة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003م.
253. الغزالي، محمد: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط4،
1420هـ/2000م.

254. الغزي، نجم الدين: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1418هـ/1997م.
255. الغنيمي، عبد الفتاح مقلد: موسوعة تاريخ المغرب العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1414هـ/1994م.
256. الفاروقي، إسماعيل راجي: التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة، ترجمة: السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، 1435هـ/2014م.
257. الفتحي المراكشي، محمد بن محمد بن عبد الله بن المبارك: الحبل المتين في نظم المرشد المعين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط3، 1948م.
258. فرانسوا، ديروش: المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي، ترجمة: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2005م.
259. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1424هـ/2003م.
260. فروخ، عمر: التصوف في الإسلام، مكتبة منيمنة، بيروت - لبنان، ط1، 1947م.
261. فُروخ، عمر: العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي، دار العلم للملايين، بيروت، 1966م.
262. فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط1، 1983م.
263. فروقانصال، إ.لافي: مجموع رسائل موحدية، رباط الفتحة المطبعة الاقتصادية لصاحبها مصطفى بن عبد الله، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، 1941م.
264. الفكون، عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ/1987م.
265. الفيتوري، عبد السلام: الإشارات لبعض ما بطرابلس الغرب من المزارات، اعتناء: روفائيل رافكس، طبعة طرابلس، 1921م.
266. القابسي، أبو الحسن علي: الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقق: أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط1، 1986م.

267. القاسمي، عبد المنعم: أعلام التصوف في الجزائر، دار الخليل القاسمي، المسيلة- الجزائر، ط1، 1427هـ.
268. القاضي عياض: الغنية، تحقق: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1982م.
269. القاضي، سمير: مرشد الحائر في حل ألفاظ رسالة ابن عساكر، دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 1999م.
270. القرضاوي، يوسف: الغزالي بين مادحيه وناقديه، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط4، 1994م.
271. القشيري، عبد الكريم: الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقق: أحمد عناية ومحمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 2004م.
272. القشيري، عبد الكريم: الرسالة القشيرية، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1422هـ/2001م.
273. القشيري، عبد الكريم: لطائف الإشارات، تحقق: إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، ط3، 2000م.
274. قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط32، 1423هـ/2003م.
275. القطعاني، أحمد: القطب الأنور عبد السلام الأسمر، دار الكتاب الليبي، بنغازي- ليبيا، مكتبة جمهورية مصر، القاهرة، ط2، 1993م.
276. القنوجي، صديق بن حسن خان: أبعاد العلوم، تحقق: عبد الجبار زكار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق- دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1978م..
277. القيرواني، ابن أبي زيد أبي محمد عبد الله (ت 386هـ): الرسالة في فقه الإمام مالك، ضبط: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، لا.ط، د.ت.
278. القيرواني، ابن أبي زيد: الرسالة الفقهية، مع غرر المقالة في شرح غريب الرسالة للمغراوي، تحقق: الهادي حمّو، محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1986م.
279. القيرواني، ابن أبي زيد: رسالة ابن أبي زيد القيرواني، تحقق: أحمد مصطفى قاسم الطهطاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر.

280. كامل عمر، عمرو: حصان طروادة الغارة الفكرية على الديار السنية، تقديم: محمد موسى الشريف، دار القمري، ط2، 1435هـ/2014م.
281. الكتاني، عبد الحفي: ماضي القرويين ومستقبلها، ضبط وتعليق: عبد المجيد بوكاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م.
282. الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحق: عبد الله الكامل الكتاني - حمزة بن محمد الطيب الكتاني - محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1425هـ/2004م.
283. كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، مكتبة المثنى - دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 1376هـ/1957م.
284. كريم، عبد الكريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، منشورات المؤرخين المغاربة، الرباط، المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط3، 1427هـ/2006م.
285. الكلاباذي، أبو بكر محمد (380هـ): التعرف لمذهب أهل التصوف، تصحيح: أرثجون أبري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994م.
286. كنون، عبد الله: جولات في الفكر الإسلامي، مطبعة الشويخ، تطوان - المغرب، لا.ط، 1980م.
287. الكوراني، إلياس (ت 1138هـ): حاشية الكوراني على شرح التفتازاني للعقائد النسفية، تحق: بشير برمان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2017م.
288. الكوهن الفاسي، الحسن بن محمد: طبقات الشاذلية الكبرى، وضع حواشيه: مرسي محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 1426هـ/2005م.
289. الكيلاني، شرف الدين: تاريخ تكايا بغداد والمشايخ الصوفية في العهد العثماني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014م.
290. الكيلاني، ماجد عرسان: كيف ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، دار القلم، الإمارات العربية المتحدة، ط3، 1423هـ/2002م.

291. لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001م.
292. اللالكائي، هبة الله بن الحسن بن منصور: إعتقاد أهل السنة، تحقق: أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، 1402هـ.
293. لفسون، هاري.أ: فلسفة المتكلمين، ترجمة وتعليق: مصطفى ليبب عبد الغني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2009م.
294. الماتريدي، أبي منصور: كتاب التوحيد، تحقق: بكر طوبال، محمد آروشي، دار صادر، بيروت، مكتبة الرشاد، استانبول، تقديم الطبعة الجديدة.
295. المازري، محمد بن علي(ت536هـ): المعلم بفوائد مسلم، تحقق: محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1988م.
296. المالكي، عبد الله بن محمد: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994م.
297. مالكي، محمد خلدون: كتاب تعدد الخلفاء ووحدة الأمة فقها وتاريخا ومستقبلا، رسالة دكتوراه، قسم الفقه الإسلامي وأصوله، جامعة دمشق، 1431هـ/2010م.
298. المجاري الأندلسي، محمد: برنامج المجاري، تحقق: محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1982م.
299. محفوظ، محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994م.
300. محمد السيد، محمد صالح: مدخل إلى علم الكلام، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2001م.
301. محمد الشخص، هاشم: أعلام هجر من الماضين والمعاصرين، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، قم- إيران.
302. محمد بن أبي بكر: نشر الطوالع شرح طوالع الأنوار، تحقق: محمد يوسف إدريس، دار النور المبين، عمان-الأردن، ط1، 2011م.
303. محمد رضا: عقائد الإمامية، تقديم: حفي حامد داود، مكتبة الأمين، النجف، 1968م.

304. مخلوف، محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.
305. مذكور عاطف: علم اللغة بين التراث والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987م.
306. المدني، أحمد توفيق: كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، لا.ط، 1931م.
307. المدني، أحمد توفيق: هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، لا.ط، 1956م.
308. مسلم: الجامع الصحيح، تحقق: نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، ط1، 1427هـ/2006م.
309. المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، بإشراف مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425هـ/2004م.
310. معمر، علي يحيى النفوسي الليبي(ت 1400هـ): الإباضية بين الفرق الإسلامية، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ط3، 2003م.
311. المقري التلمساني، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.
312. المكناسي، محمد بن أحمد بن محمد بن غازي العثماني: الروض المتهون في أخبار مكناسة الزيتون، مطبعة الأمنية، الرباط، 1952م.
313. ملكاوي، فتحي حسن: منهجية التكامل المعرفي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 2016م.
314. المنالي، عبد المجيد: بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام، تحقق: محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2006م.
315. المنوني، محمد: ملامح من تطور المغرب في بداية العصور الحديثة، مكتب الدراسات، جامعة تونس، لا.ط، د.ت.
316. المنوني، محمد: ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2000م.

317. المهدي، محمد عقيل بن علي: قواعد العقائد في التوحيد للإمام حجة الإسلام الغزالي: دراسة نصية، دار الحديث، القاهرة، ط2، 1996م.
318. موطأ الإمام مالك برواية علي بن زياد، تحق: محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1980م.
319. مؤنس، حسين: نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2000م.
320. ميارة المالكي، محمد بن أحمد: الدر الثمين والمورد المعين، تحق: عبد الله المنشاوي، دار الحديث، القاهرة، 2008م.
321. الناصري، محمد بن عبد السلام: المزايما فيما احدث من البدع بأمر الزوايا، تحق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2002م.
322. النجار، عبد المجيد: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه، وثورته الفكرية والاجتماعية وآثره بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ - 1983م.
323. النجار، عبد المجيد: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - فيرجينيا، ط2، 1415هـ/1995م.
324. النجار، عبد المجيد: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا-الولايات المتحدة الأمريكية، ط3، 1420هـ/2000م.
325. النجار، عبد المجيد: عوامل الشهود الحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1427هـ/2006م.
326. الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف ومراجعة: مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 1420هـ.
327. الندوي، محمد أكرم: شبيلي النعماني علامة الهند الأديب والمؤرخ الناقد الأريب، دار القلم، دمشق، ط1، 2001م.
328. النفراوي، أحمد بن غنيم بن سالم: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ضبط وتصحيح: عبد الوارث محمد علي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1997م.

329. نفيسة، محمود محمد: أثر الفلسفة اليونانية في علم الكلام الإسلامي حتى القرن 6هـ، دار النوادر، دمشق، ط1، 2010م.
330. نكري القاضي، عبد النبي الأحمد(ق12هـ): دستور العلماء، تعريب: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م.
331. نويهض، عادل: معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت - لبنان. ط2، 1980م.
332. الهادي، إدريس: الدولة الصنهاجية، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م.
333. الهبطي، عبد الله بن محمد: رسائل التوحيد والهيللة، تحقق: خالد زهري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، لا.ط، 2002م.
334. هونكه، زيجريد: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار الجليل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط8، 1993م.
335. الهويجري: كشف المحجوب، ترجمة: محمود أحمد ماضي أبو العزائم، تحقق: أحمد عبد الرحيم السايح - توفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م.
336. الورتلاني، الحسن بن محمد: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار - المشهورة بالرحلة الورتلانية، اعتناء: محمد خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2016م.
337. الورتيلاني، الحسين بن محمد: نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار، تصحيح: محمد بن أبي شنب، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1908م.
338. الوغليسي، عبد الرحمان: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، تحقق: أمل محمد نجيب، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط1، 2007م.
339. ولد السّالم، حماد الله: الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2010م.
340. الونشريسي، أحمد بن يحيى: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط2، 1400هـ/1980م.

341. الياجوري، إبراهيم بن محمد: حاشية الباجوري على السنوسية، مكتبة جامعة الملك سعود، مخطوط بيد الناسخ: محمد صالح بن حميدان، 1247هـ .
342. ياسن، عبد السلام: نظرات في الفقه والتاريخ، دار الخطابي للطباعة والنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 1989م.
343. اليافعي المكي، عبد الله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1417هـ/1997م.
344. يوسف: دوامات التدين، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2013م.

ثانياً-المقالات:

1. آيت الحيان، حميد: علم الكلام الأشعري بالغرب الإسلامي بين السلطة المعرفية والتوظيف السياسي، مجلة الشهاب، جامعة الوادي، المجلد6، العدد4، 2020/12/15م.
2. بخدة، طاهر: ظاهرة إحراق الكتب في الغرب الإسلامي صراع سياسي أم استغلال ديني، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، المجلد16، العدد01، مارس 2020م.
3. بخدة، طاهر: ظاهرة إحراق الكتب في الغرب الإسلامي صراع سياسي أم استغلال ديني، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، المجلد16، العدد01، مارس 2020م.
4. بلعقون، عبد الرحمن: مختصر خليل وأهميته في الفقه المالكي، مجلة الإحياء، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة1، المجلد19، العدد22، 2019/09/22م.
5. بن قומר، لخضر: ملامح التكامل المعرفي عند الشيخ عبد الواحد بن عاشر الفاسي، من خلال منظومته "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين"، مجلة روافد للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، المجلد05، العدد01، جوان 2020م.
6. بناني، عبد الكريم: منهج الشيخ أحمد زروق البرنسي في تصحيح الفكر الصوفي، مجلة الفكر المتوسطي، جامعة بوبكر بلقايد، تلمسان، المجلد3، العدد2، 2014/06/15م.
7. بوكروشة، حليلة: معالم تحديد المنهج الفقهي: أنموذج الشوكاني، وزارة الأوقاف، الدوحة، كتاب الأمة، العددان: 90-91، رجب ورمضان 1423هـ.
8. بونابي، الطاهر: أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي الفقيه الصوفي، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد7، 2007م.

9. التجاني، عاد: مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، مجلة المعارف والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، المجلد5، العدد3، 2019/09/15م.
10. توفيق مزاري، عبد الصمد: أثر المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي حتى القرن السادس الهجري، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، مجلد10، عدد3، 2018/11/02م.
11. جرار، أحمد عرسان: ثورات الصفرية في بلاد المغرب (122-143هـ)، مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بغداد، كلية التربية للعلوم الإنسانية.
12. الجراري، عباس: مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية، مجلة المناهل، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط - المغرب، العدد10، السنة الرابعة، 1397هـ/1977م.
13. حامد، العطار: التراث الإسلامي في عيون المعاصرين، ركن الإسلام والحياة، مجلة المجتمع، الكويت، مقال منشور بتاريخ 06 مارس 2019م.
14. الحداد، منى عبد الله محمد: شرح زروق على متن الرسالة وآثاره على الفقه في السودان، مجلة جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، المجلد15، العدد01، 2019م.
15. الخميلشي، عبد الهادي: التكامل بين المعرفة الفقهية والعلوم الإنسانية وأثره في ترشيد الاجتهاد، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القدر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، المجلد20، العدد40، 2015/11/27م.
16. رجاتي، نورة: الإنسان في علم الكلام القديم مقارنة تأصيلية تحليلية، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، مجلد24، عدد49، 2020م.
17. زهري، خالد: الرسالة التوحيدية والروحية لدى فقهاء المغرب أبو مدين الغوث أنموذجا، مقال ضمن فعاليات الملتقى الدولي الحادي عشر: التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة، - محور العلاقة بين أهل التصوف وغيرهم، الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية، أدرار، أيام: 9-10-11 نوفمبر 2008م.
18. زوهري، وليد: ابن المرأة الأندلسي وجهوده في التصوف وعلم الكلام، مجلة آفاق للعلوم، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، مجلد3، عدد1، 2018/01/02م.

19. سلطاني، الجيلالي: المذهب المالكي على عهد الدولة الموحدية بالمغرب الإسلامي، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، المجلد 5، العدد 6، 15/12/1999م.
20. السوسوة الشرفي، عبد المجيد: الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، مجلة كتاب الأمة، قطر، العدد 62، السنة السابعة عشرة، ذو القعدة 1418هـ.
21. شرويك، محمد الأمين: انتقال التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي، مجلة آفاق فكرية، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، المجلد 5، العدد 1، 08/01/2017م.
22. طاطمي، طارق: المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، المملكة المغربية، 30/09/2013م.
23. عبد المجيد النجار: واقعية المنهج الكلامي ودورها في مواجهة التحديات الفلسفية المعاصرة، مجلة المسلم المعاصر، العدد 60، مايو 1991م.
24. العضاوي، عبد الرحمان: آليات التداخل المعرفي القرآني وتحديد الباراديجم المنهجية والتنزيلي في العلوم الإسلامية، الرابطة المحمدية للعلماء، ركن دراسات وأبحاث/دراسات عامة، 25/02/2021م.
25. عكاش، حسين علي: علاقة التوازن والتكامل بين الفقه والتصوف، مجلة أصول الدين، الجامعة الأسمرية الإسلامية، ليبيا، العدد 1، ديسمبر 2016م.
26. عكيوي، عبد الكريم: معالم التكامل المعرفي عند المحدثين، مقال ضمن الندوة العلمية الدولية: معالم التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية، مؤسسة دار الحديث الحسنية، المغرب، 2010م.
27. علم الكلام ضرورات النهضة ودواعي التجديد، مجلة الحياة الطيبة، ط 1، 2004م.
28. عمار جيدل، شافعي محمد عبد اللطيف: وسطية المدرسة الأشعرية المغاربية ودورها في البناء الحضاري، الملتقى الدولي: الوسطية في الغرب الإسلامي وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا وأوروبا، معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي-الجزائر، ديسمبر 2017م.
29. عوني، موسى: دور الوقف في دعم الحركة العلمية بمدينة فاس خلال العصر المريني، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، العدد 404 صفر 1434هـ/ يناير 2013م.

30. فرحات، عبد الحكيم: من التصديق إلى الشهود: دور التصوف في إحياء العلوم الشرعية(العقيدة والفقه)، الجامعة الإسلامية العالمية، مجمع البحوث الإسلامية، مجلة الدراسات الإسلامية، مجلد 49، عدد2، أبريل 2014م.
31. قاري، لطف الله: بدايات الترجمة في العهد الأموي (40 - 132هـ)، ضمن أبحاث المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب - الجمعية السورية لتاريخ العلوم - معهد التراث العلمي العربي - جامعة حلب - سوريا.
32. كراز، فوزية: مصطلح الغرب الإسلامي بين الرفض والقبول، مجلة عصور، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، مجلد6، عدد1، 2007/06/30م.
33. المعمارى، أحمد مرعي: نحو... فقه قيمي، مركز نهوض للبحوث والدراسات والنشر، الكويت، 2020/04/21م.
34. ملكاوي، فتحي حسن: مفاهيم في التكامل المعرفي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة الخامسة عشرة، المجلد 15، العدد 60، ربيع 1431هـ/2010م.
35. المنوني، محمد: الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية وما إليها، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1398هـ/1978م، المجلد29.
36. ناصري، عبد العزيز: خصوصية المذهب المالكي في بلاد المغرب والأندلس، مجلة رفوف، جامعة أحمد دراية، أدرار، مجلد5، العدد1، مارس 2017.
37. النشار، مصطفى: العقلية العربية بين إنتاج العلم واستيراد الثقافة، مجلة المستقبل العربي، العدد 200، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، أكتوبر، 1995م.
38. نغش، إدريس: التكاملية في العقلانية العلمية الإسلامية، مجلة الواضحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا، العدد6، 2011م.
39. نوال علي، محمد عبد العزيز: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في عهد الدولة الوطاسية، مجلة المؤرخ العربي، الأمانة العامة للمؤرخين العرب، بغداد، المجلد6، العدد6، 1978م.
40. اليفري، علي بن عبد الرحمن(ت734هـ): المباحث العقلية في شرح معاني العقيدة البرهانية، تحقق: جمال علال البختي، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، 2015م، المجلد الأول.

ثالثا- الأطروحات والرسائل العلمية:

1- أطروحات الدكتوراه:

1. بلشير، عمر: جوانب من الحياة الاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأدنى من القرن 6 إلى 9هـ من خلال كتاب المعيار للونشريسي، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، أطروحة تدخل ضمن متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، 2010/2009م

2- رسائل الماجستير:

1. عبد الكبير، سميرة. خضراوي، عفاف: تطور المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي الإمام السنوسي أمودجا، مذكرة ماستر في التاريخ الوسيط، جامعة محمد بوضياف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2017/2016.

2. فلوسي، مسعود: تاريخ المذهب المالكي في الجزائر، مذكرة لطلبة ماستر 2 في الفقه المالكي وأصوله، جامعة باتنة 1 الحاج لخضر، كلية العلوم الإسلامية، قسم الشريعة، 2021/2020م، ج 1.

3. لوزير، سعيدة: المذهب المالكي في المغرب الأوسط - دخوله وانتشاره - (ق 3-5هـ)، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: بشاري لطيفة بن عميرة، جامعة بزريرة-الجزائر، 2010/2009م.

4. مراري، عبد القادر: الفكر العقدي للشيخ زروق الفاسي، مذكرة ماجستير عقيدة، قسم العقائد والأديان، كلية العلوم الإسلامية-الخروبة، جامعة الجزائر 1، 2015/2014م.

رابعا- ندوات وملتقيات

1. أولملي، علي: السلطة السياسية والسلطة العلمية: "الغزالي، ابن تومرت، ابن رشد"، ضمن ندوة: أبو حامد الغزالي: دراسات في فكره وعصره وتأثيره، كلية الآداب، الرباط، 1988م.

2. زهري، خالد: مستويات الإبداع في علم الكلام الأشعري لدى المغاربة، ضمن ندوة: جهود المغاربة في خدمة الفكر الأشعري، مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية، جامعة القرويين، كلية أصول الدين، تطوان، 2011/05/25م.

3. الصغير، عبد المجيد: التمثيل وخطاب التبشير، ضمن أعمال ندوة: تكون المعارف، دور القياس التمثيلي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم: 117.

4. مشروح، إبراهيم: مسوغات الإنفتاح في أفق رؤية تعارفية مفتوحة، مقال ضمن الندوة العلمية الدولية: مجلة الواضحة، مؤسسة دار الحديث الحسنية، المغرب، العدد6، 2010م.
5. معالم التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية، ندوة علمية دولية، مؤسسة دار الحديث الحسنية، 11-12 فبراير 2010م.

خامسا- المواقع الالكترونية

1. <http://www.sunnaonline.org/text.php?action=show&id=451>، تصفح يوم: 2022/05/11م.
2. بوزغيبية، مصطفى: التصوف ومبدأ التكامل بين العلوم الإسلامية، مركز الإمام الجنييد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة، ركن: دراسات وأبحاث/دراسات عامة، 2020/07/20م.
3. الحسام، وليد: دلالة الصيام في الخطاب الصوفي، مقال منشور يوم: 30 يونيو 2014م، تصفح يوم: 2022/07/22م، <http://althawrah.ye/archives/327197>
4. الحمد، خباب: طلبة العلم والتكامل المعرفي بين الدراسات الشرعية والعلوم الإنسانية، 27 جمادى الأول 1439هـ، ، تاريخ التصفح: 2021/12/15م.
5. خليلها، محمد الأمين: الوساطة بين الفقه والتصوف من خلال كتاب قواعد التصوف لأحمد زروق، مقال تم تصفحه يوم: 2022/07/12م، على الساعة: 22:15، على الموقع الإلكتروني : <http://www.almawqi.com/2021/08/11/>
6. الزفتاوي، عصام أنس: ببلوجرافيا التصوف/4، تاريخ التصفح: 2022/07/12م، على الساعة 21:30. على الموقع التالي [/https://kasnazan.com](https://kasnazan.com)
7. سعيد، مختاري: الغزالي والسياسة رؤية مقاصدية لواقع الأمة، بحث منشور بشبكة الألوكة، ثقافة ومعرفة / التاريخ والتراجم / سير وتراجم وأعلام، 2015/02/12م. /الغزالي- والسياسة/0/82467، <https://www.alukah.net/culture/>، تم التصفح يوم: 2021/09/12.
8. السقاف، علوي بن عبد القادر وآخرون: موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net، 1433هـ، ج1.
9. السَّيِّئَةُ للشيخ: علوي السَّقَّاف (المبحث-الرابع:-أفعال-العباد-عند-الأشاعرة) على الرابط: <https://dorar.net/firq/368/> .

10. الشبل، علي بن عبد العزيز: شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني في العقيدة(2)، شبكة الألوكة الشرعية، تاريخ الإضافة: 2016/05/28م.
- عكلي، مصطفى: المقدمة القرطبية على مذهب السادة المالكية، الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، المملكة المغربية، 2008/11/14م.
11. العلمي، طارق: اختيار المغاربة للتصوف الجنيدي، الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة، 2014/12/31م.
12. فوزار، محمد: أحمد زروق الفاسي ت899هـ، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث/أعلام، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، 2012/11/05م.
13. قلالة، نور الدين: عبد الرحمان الثعالبي .. العالم الفقيه و رمز مدينة الجزائر: عبد-الرحمان-الثعالبي-العالم-الفقيه-و (https://islamonline.net).
14. محمد، آيت حمو: الوجه الأشعري للمتصوف المغربي أحمد زروق، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، قسم العلوم الإنسانية والفلسفة، 2015م.
15. المطهري، علي: التكامل المعرفي بين الدرسين الصوفي والعقدي، www.diae.events/postid=93257، تصفح يوم: 2022/05/15م.
16. وطفة، علي أسعد: فلسفة التكامل المعرفي في الفكر التربوي الإسلامي المعاصر، لقاء فكري حوار بين الدكتور وطفة والدكتور محمد مینار، 8 مارس 2021م، https://watfa.net/archives/11464. تاريخ التصفح: 2022/02/15م.

4- فهرس المحتويات

.....	اهداء
.....	شكر وتقدير
.....	ملخص
.....	جدول الأشكال والرموز
.....	مقدمة

الفصل الاول: التكامل المعرفي بين الكلام والفقه والتصوف

14.....	المبحث الأول: بنية المنظومة الإسلامية عند المغاربة
18.....	المطلب الاول: المنظومة العقدية والكلام الأشعري
42.....	المطلب الثاني: المنظومة الفقهية والمذهب المالكي
60.....	المطلب الثالث: المنظومة التربوية وطريقة الجنييد
69.....	المبحث الثاني: القطيعة المنهجية بين العلوم سياقاتها ومضارها
69.....	المطلب الاول: السياق المنهجي - مطلب التأسيس والتقعيد-
72.....	المطلب الثاني: السياق المعرفي - مطلب التباين والمضامين -
88.....	المطلب الثالث: السياق الحضاري- مطلب البناء والمواجهة-
91.....	المطلب الرابع : مضار القطيعة المعرفية بين العلوم الإسلامية
98.....	المبحث الثالث: التكامل المعرفي وسؤال الراهن
99.....	المطلب الاول: الأبعاد السياسية والاجتماعية للتكامل بين الكلام والفقه والتصوف
115.....	المطلب الثاني: التكامل المعرفي وإنسان الخلافة - التأسيس للعبودية والاستخلاف-
125.....	المطلب الثالث: نماذج من التكامل المعرفي في التأليف عند علماء الغرب الإسلامي

الفصل الثاني: الشيخ زروق الفاسي، عصره وحياته وشهادات العلماء فيه

146.....	المبحث الأول : عصره الشيخ زروق الفاسي
147.....	المطلب الاول: الواقع السياسي
158.....	المطلب الثاني: الواقع الاجتماعي

المطلب الثالث: الواقع الثقافي	164
المطلب الرابع: تأثير الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي في حياة الشيخ زروق	175
المبحث الثاني : حياة الشيخ زروق الفاسي	189
المطلب الاول : مولده ونشأته	189
المطلب الثاني: مساره العلمي ورحلاته	202
المطلب الثالث : آثاره	221
أولا- آثاره في التصوف:	225
ثانيا- آثاره الفقهية:	233
ثالثا- آثاره الكلامية:	235
المبحث الثالث: صفات الشيخ أحمد زروق وكراماته وأقوال العلماء فيه	239
المطلب الاول: صفاته	239
المطلب الثاني : شهادات في حق الشيخ	243
المطلب الثالث : كراماته	248

الفصل الثالث: التكامل المعرفي في فكر الشيخ زروق الفاسي

المبحث الأول: ملامح التكامل المعرفي في الدرس العقدي الكلامي عند زروق	260
المطلب الأول: الآراء الإعتقادية للشيخ زروق من خلال بعض كتبه.	266
المطلب الثاني: المنهج العقدي للشيخ زروق من خلال شرحه لعقيدة الغزالي	293
المطلب الثالث: المنهج العقدي للشيخ زروق من خلال شرحه المرشدة	304
المطلب الرابع: المنهج العقدي للشيخ زروق من خلال شرحه للمقدمة الوغليسية	316
المبحث الثاني: ملامح التكامل المعرفي في الدرس الفقهي	327
المطلب الأول: الدرس الفقهي للشيخ زروق من خلال شرح المقدمة القرطبية	327
المطلب الثاني: الدرس الفقهي للشيخ زروق من خلال شرح الرسالة	336
المطلب الثاني: الدرس الفقهي للشيخ زروق من خلال شرح الوغليسية	345
المبحث الثالث: ملامح التكامل المعرفي في الدرس الصوفي	350

المطلب الأول: الفكر الصوفي عند زُرُوق من خلال كتابه عُدَّة المريد الصادق	352
المطلب الثاني: الفكر الصوفي عند زُرُوق من خلال كتابه قواعد التصوف	364
المطلب الثالث: الفكر الصوفي عند زُرُوق من خلال كتابه تحفة المريد وروضة الفريد	377
الخاتمة	394
الفهارس	400
1- فهرس الآيات القرآنية	400
2- فهرس الأحاديث النبوية	400
3- فهرس الاعلام	400
4- فهرس المصادر والمراجع	400
5- فهرس المحتويات	400
1- فهرس الآيات القرآنية	401
2- فهرس الأحاديث النبوية	406
4- فهرس المصادر والمراجع	412
4- فهرس المحتويات	446